الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

- وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الجزائر

كلية أصول الدين مولود قاسم نايت بلقاسم

منهج الشيخ محمد الغزالي في تعامله مع القرآن

بحث مقدم لنيل درجة دكتوراه العلوم في العلوم الإسلامية

قسم العقائد والأديان

إعداد الطـالب

يونس مـلال

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

ـ وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الجزائر

كلية أصول الدين مولود قاسم نايت بلقاسم

منهج الشيخ محمد الغزالي في تعامله مع القرآن

بحث مقدم لنيل درجة دكتوراه العلوم في العلوم الإسلامية

قسم العقائد والأديان

إعداد الطالب

يونس ملال

إشراف

الأستاذ الدكتور : عمّـــار جـــيـدل

العام الدراسي: 2009 – 2010

من هدي القرآن الكريم

بسم الله الرحمن الرحيم

يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفوا عن كثير قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم

[المائدة: 15-16]

إهداء

إلى والدي الكريمين برا بهما وعرفانا بجميلهما

إلى كريمتي ورفيقة دربي في الحل والترحال تعلمت الصبر من صبرها علي

إلى زهرتي في حياتي الدنيا، كفلين من رحمة الله: التوأم أريج الجنان ونبراس الفرقان

إلى أمتي المجروحة أملا في غد أفضل تنير دروبه هداية القرآن

مسك الختام: إلى روح الشيخ الذي تمنيت أن أتتلمذ على يديه فما يسرت الأقدار لي ذلك وها أنا أتتلمذ على كتبه في هذه الدراسة.. الشيخ العلامة محمد الغزالي أحمد السقا رحمه الله وطيب ثراه.

كلمة شكر

لا يشكر الله من لا يشكر الناس..

الشكر أولا لشيخي الأستاذ الدكتور عمار جيدل الذي تتلمذت على يديه قرابة سبع سنوات في التدرج وما بعد التدرج، فما رأيت منه إلا الخلق الكريم والعلم الرصين وتعلمت من أدبه بقدر ما تعلمت من نصحه وتوجيه فجزاه الله عني وعن الإسلام خير الجزاء على ما قدم ويقدم، فأفضاله علي كثيرة إلى درجة أني أعجز عن إيفائه حقه مهما فعلت.

والشكر موصول للمشرف المساعد الأستاذ الدكتور عبد الحليم عويس الذي كان خير مشرف وموجه وحقق لي بعض حلمي إذ تتلمذت على يد أحد تلامذة الشيخ الغزالي - رحمه الله - بعد أن لم أكن أحد تلامذته، فتح لي داره ومكتبته واستفدت منه ما شاء الله فله الشكر والثناء الحسن.

والشكر موصول - كذلك - لكل من ساعدني بكثير أو يسير ممن لم أذكرهم والله يعلمهم وهو من وراء القصد وهو يهدي السبيل.

مقدمة

تناولت هذه الدراسة شخصية معاصرة ذات وزن كبير وموضوعا معاصرا مهما.

الموضوع لون جديد . نسبيا . من ألوان التفسير هو التفسير الموضوعي للقرآن الكريم بأنواعه الثلاثة:

1. الموضوعات الكلية والجزئية وحدة للدراسة.
2. السورة القرآنية كاملة وحدة للدراسة.
3. الكلمة أو المفردة القرآنية وحدة للدراسة.

وذلك من ناحيتين، الناحية المنهجية التي تتناول حقيقة التفسير الموضوعي وقواعده وضوابطه وأصوله، والناحية التطبيقية لموضوعات كلية وجزئية متضمنة مقاصد القرآن الكريم و هداياته..

والشخصية هي شخصية العلامة الشيخ محمد الغزالي الذي يعتبر مدرسة قائمة بذاتها في التفسير وغيره من فنون العلم..

والسر الذي يجمع بين الشخصية والموضوع هو منهج الشيخ الغزالي المتميز في تعامله مع القرآن الكريم، وهو ليس إلا منهج التفسير الموضوعي برؤية خاصة تميز منهج الشيخ الغزالي . رحمه الله . الأمر الذي جعله رائدا في ميدان هذا اللون من التفسير، فقد طور . رحمه الله . أسس الإصلاح لدى مدرسة المنار، مضيفا إليها اجتهاداته الخاصة التي استفادت من المعرفة الإنسانية والاتجاهات الفكرية والمذاهب الفقهية ورصيد التجربة الشخصية ومزج كل ذلك بفقه صحيح لكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم..

والبحث في التفسير الموضوعي عموما يحتاج إلى مزيد من الدراسة النظرية والتطبيقية، خاصة وأنه جاء بمنهج جديد لا يتناول القرآن آية . آية كما هو حال التفسير الموضعي المألوف ولا يعتمد النهج التحليلي بل يعتمد منهج الجمع والتركيب والسياق

والاتساق، والنص والواقع، فيعمد إلى جمع المعاني المختلفة في الموضوع القرآني الواحد، أو يبحث عن الروابط الدقيقة الخفية التي تؤلف بين أجزاء السورة الواحدة.

لذلك تزايدت الحاجة إليه في عصر النهضة والإصلاح، لاسيما وأنه يبرز:

1. رؤية القرآن الكلية بكافة تفاصيلها في موضوع بعينه، مثال: الألوهية في القرآن الكريم، مفهوم الحضارة في القرآن الكريم، سنن التاريخ في القرآن الكريم..الخ.

2. ربط المسلمين ومنهج حياتهم بالقرآن الكريم وجعله محور العلم والعمل والفكر والحياة.

3. ملأ الفراغ الذي أحدثه النظر الجزئي في القرآن والذي يعجز عن مواجهة التحديات الحضارية التي غدت تقدم نفسها في شكل أنماط وبدائل فكرية وأيديولوجية كاملة.

4. إعطاء مزيد من الاهتمام لقسم من قواعد التفسير هي في الأصل موجودة تحتاج إلى تفعيل منها علم المناسبات في الآيات والسور، وقاعدة الجمع بين النصوص، وتفسير القرآن بالقرآن، وأسباب النزول والسياقات والأحوال والملابسات التي صاحبت نزول الوحي، وأهمية الفروق بين المكي والمدني وصلة أسماء سور القرآن بمضمونها وغير ذلك..

وهذه الغايات نفسها هي التي ربطت أمل المصلحين في تحصيل الأمة للمعارف الضرورية للنهوض بهذا اللون من التفسير، وهي ما يفسر الاهتمام الكبير للشيخ الغزالي . وهو رجل الدعوة والإصلاح . بالتفسير الموضوعي.

وكل ما أرجوه من هذه الدراسة تحقيق فهم أعمق وأشمل وأكمل لكتاب الله و تجسير العلاقة بينه وبين واقع الحال.

وتتلخص إشكالية الموضوع في ما يأتي:

تعرض كتاب الله تعالى للتفسير والتأويل منذ القرن الأول الهجري وذلك أنه لا وجود لأمة الإسلام من دونه، فكانت العناية أول الأمر بجمع تفسير رسول الله صلى الله عليه وسلم والرواية عنه، ثم اهتم الصحابة بتفسير القرآن، وكانت لهم في ذلك مدارس

أهمها مدرسة ابن عباس بمكة المكرمة، ومدرسة أبي بن كعب بالمدينة المنورة ومدرسة بن مسعود وغيرها.. وبعد عصر الصحابة والتابعين أي في مرحلة التدوين، ضم العلماء إلى المأثور اجتهادهم الخاص فتعددت مناهج المفسرين وتوسع التفسير حتى صار بحجم موسوعات متنوعة، كلامية ولغوية وفقهية وإشارية، بالمأثور أو بالرأي.

وإذا استثنينا بعض المحاولات القليلة لتناول القرآن بشيء من المنهج الموضوعي مثل: كتاب الراغب الأصفهاني المسمى معجم مفردات ألفاظ القرآن، أو تفسير القرآن بالقرآن الذي اعتمده بعض المفسرين كالطبري وابن كثير، فإننا نلاحظ أن المنحنى البياني للتفسير كان يتصاعد في اتجاه الصفة الموضعية التجزيئية، أي تفسير الآية تلو الأخرى بمنهج تجزيئي لا يأخذ بعين الاعتبار الآيات المشتركة في الموضوع الواحد ولا الروابط الموجودة بين موضوعات السورة الواحدة، ولما صار هذا النوع من التفسير غير قادر بشكل كامل على مجابهة تحديات النهضة المعاصرة ارتكزت جهود المصلحين على لون آخر مكمل لجهود السلف الصالح مست الحاجة إليه، بغية بناء الذات المؤمنة على هدايات القرآن الكريم ودفع شبهات الحضارة المادية والغزو الفكري، فبرع في هذا التفسير ثلة من علماء الأمة أمثال: الشيخ محمد عبده وتلميذه رشيد رضا في مصر، وإلى حد ما العلامة الطاهر بن عاشور في تونس، والعلامة بن باديس في الجزائر، وبديع الزمان النورسي في تركيا.. وجاء من بعدهم جيل من المفسرين حملوا الراية فكان منهم أمثال الشيخ محمود شلتوت والشيخ محمد عبد الله دراز والأستاذ مالك بن نبي، وأظهرهم وأكثرهم شمولية في توظيف التفسير الموضوعي في موضوع النهوض: **الشيخ محمد الغزالي أحمد السقا ـ رحمه الله ..**

وإذا كان اللون القديم من التفسير الموضعي قد استقرت أصوله ودونت قواعده بما يعرفه المتخصصون فإن العمل يبقى مضنيا، والسؤال كبيرا فيما يتعلق بالتفسير الموضوعي وقواعده كلون جديد؟ فما هي بالضبط الدراسات التي يمكن أن نطلق عليها مسمى التفسير الموضوعي؟ وما ألوانه والقواعد التي يشترك فيها أو يتفاصل بها مع

التفسير الموضعي؟ وما الجديد من الجدوى الذي يقدمه لواقع المسلمين ومستقبلهم علميا وعمليا؟ هل يمكن بالمنهج الموضوعي أن تتقلص الخلافات الداخلية في كثير من الموضوعات العلمية؟ وهل يجيب التفسير الموضوعي عن كثير من التحديات الخارجية؟ وهل يفتح المجال أمام المتخصصين في العلوم الكونية والإنسانية أن يسهموا بمعارفهم في تفسير كتاب الله؟ وهل يؤدي هذا النهج في التفسير إلى فهم أعمق لكتاب الله؟

ما الفرق بين التفسير الموضوعي و تفسير القرآن بالقرآن؟ وما الفرق بينه وبين ما يسمى القراءات المعاصرة للقرآن التي يجعل فيها كل كاتب فهما خاصا به، وتقوض الشروط وتنفي وجود الضوابط بدعوى أن القارئ هو من يكسب النص معناه، وتجعل القرآن كله من قبيل المتشابه والتفسير كله نسبيا؟ وما موقعه بين ألوان التفسير الحديثة كالتفسير الإجمالي والتفسير المقارن وغيرهما..؟ ما الأدلة العلمية والأمثلة التطبيقية التي تدل على أن هذا التفسير يقدم الجديد والجيد ويفعّل هدايات القرآن الكريم؟..

ومن زاوية أخص: ما الذي قدمه الشيخ الغزالي من جدة وتجديد في قواعد المنهج وفي الموضوعات التي درسها؟ وكيف عالج الشيخ المشكلات الفكرية والعلمية والدعوية والنفسية والاجتماعية والثقافية للأمة الإسلامية من خلال التعامل مع القرآن الكريم بالنهج الموضوعي؟ وهل يمكن أن يتصدر الفهم الموضوعي للقرآن فهمنا لكتاب الله؟

وليس سرا أنني حين اشتغلت على الأسئلة النظرية لم أجد عند الشيخ الغزالي حديثا طويلا عنها، فالشيخ . رحمه الله . يقرأ كثيرا وينقل قليلا، فهو يعطيك خلاصة ما قرأ، وإن كان قد وصل إليه بعد معاناة طويلة ودراسة لأقوال كثيرة، كما أنه شديد الاهتمام بالتطبيقات العملية ولا يكترث كثيرا للتقعيد والتنظير، ولكن هذا لا يلغي الحاجة الملحة للتنظير والتقعيد لهذا الموضوع العلمي والمنهجي الحساس، مما دفع بي إلى دراسته من الكتب العلمية الخاصة به، ثم التعرف على منهج الشيخ الغزالي الذي هو بمثابة التطبيق من النظرية أو بمنزلة العمل من النظر الأمر الذي وسع الموضوع وأطاله واقتضى مزيدا من الجهد، لكنه لم يخل من فائدة علمية ضرورية لاستيفاء غرض البحث في **منهج**

الشيخ الغزالي ودقته في تعامله مع القرآن الكريم في ضوء حقيقة التفسير الموضوعي وضوابطه.

ومن أجل محاولة الإجابة عن الأسئلة التي يتمحور عليها الإشكال الرئيس ومن أجل استقصاء الموضوع والإحاطة به من جميع جوانبه اتبعت خطة منهجية فقسمت الدراسة إلى مقدمة وستة فصول وخاتمة.

الفصل الأول: تناولت فيه قصة حياة الشيخ الغزالي وبينت فيه فقهه للقرآن الكريم، ضمن مبحثين اهتم الأول ببيان جوانب من حياة الشيخ وصفاته ومواقفه واهتم الثاني بفقهه القرآني، وفهمه لكتاب الله ككتاب الإسلام الأول، وموقفه من بعض الموضوعات في علوم القرآن وأصول الفقه ذات الصلة بالتفسير، من مثل موضوع النسخ وفهم السنة في ضوء القرآن والمعجزة وخوارق العادات وأهمية الجمع بين النصوص والترجيح بظاهر القرآن وغير ذلك..

الفصل الثاني: هو فصل ممهد للذي بعده تناولت في مبحثه الأول تعريف التفسير وبينت وجه الحاجة إليه، ثم رسمت في المبحث الثاني منحنى تطور علم التفسير من الازدهار إلى الركود إلى إعادة الانبعاث من جديد.. وفي المبحث الثالث بينت موقع التفسير الموضوعي بين مدارس التفسير الحديثة المختلفة.

الفصل الثالث: شرحت فيه حقيقة التفسير الموضوعي وبينت اتجاهات العلماء في فهمه ورجحت فهم الشيخ الغزالي وتعريفه، ثم بينت الحاجة الملحة لهذا المنهج في التعامل مع القرآن العظيم وختمت هذا الفصل الذي يبين حقيقة التفسير الموضوعي ببيان أنواعه والطرق المنهجية للبحث فيه.

الفصل الرابع: كان لابد منه لاكتمال البناء المنهجي الذي لا يكتمل إلا بمناقشة الإشكالات والصعوبات التي تعترض التفسير الموضوعي وكيفية تجاوزها ومعالجة المشكلات المنهجية الحقيقية والرد على الشبهات، كما بينت في خاتمة هذا الفصل موقع

التفسير الموضوعي بين مختلف أنواع التفسير من تحليلي وإجمالي ومقارن وأوضحت مكانته بين هذه الأنواع.

الفصل الخامس: ركز البحث في القواعد والمعايير العلمية والأخلاقية المشتركة بين التفسير الموضوعي وبين غيره من أنواع التفاسير، ثم بيّن القواعد التي يتفرد بها هذا النوع من مثل الاهتمام بالمناسبات بين آيات القرآن الكريم وسوره، واعتنائه بالسياقات الداخلية والخارجية وبناء النظرية من خلال القرآن الكريم ومعرفة موقف القرآن في الموضوعات الجزئية والكلية، وارتباط التفسير الموضوعي بمقاصد القرآن والمصالح الشرعية والواقع المتجدد وقيمة المعرفة الكونية لدى المفسر، وقيمة أهلية المفسر وسقفه المعرفي وموقفه الأخلاقي من مصدرية القرآن وأثر ذلك على الاستفادة من هدايات القرآن، كما درست في هذا الفصل موانع الاستفادة من القرآن أيضا.

الفصل السادس: وهو زبدة البحث ونتيجته العملية، عدت فيه من العام إلى الخاص فتناولت منهج تعامل الشيخ الغزالي مع القرآن الكريم من خلال تناوله لأنواع التفسير الموضوعي، واهتممت فيه بدرس منهج الشيخ الغزالي في التفسير مع تقديم نماذج لموضوعات تطبيقية جزئية وكلية منها كمحاور القرآن في نظر الشيخ، العلوم الكونية وعلاقة المسلمين بها في فهم الشيخ، طبيعة الإنسان في القرآن.. ومن الموضوعات الجزئية تناولت رأيه في الطلاق وفهمه له من خلال تفسير سورة الطلاق، ولم يخل البحث من الإشارة إلى بعض المسائل الجزئية الأخرى كأهمية الشورى في الفكر السياسي الإسلامي ورفض الشيخ للاستبداد في الحكم وغير ذلك، كما بينت في هذا الفصل أيضا علاقة الشيخ بأعلام مدرسة المنار، وبينت أن اهتمامه بالتفسير ونقده لجهود المفسرين وعلماء القرآن يأتي في سياق جهوده الإصلاحية . رحمه الله . في مراجعة التراث وتطهير البيئة الثقافية الإسلامية من الثقافة والتدين المغشوشين، وبذلك خلصت إلى حقيقة التفسير الموضوعي عند الشيخ وخصائصه وغاياته وثمراته العلمية والعملية.

خاتمة البحث: اختصرت فيها نتائج الدراسة موزعة على حسب الفصول وذكرت فيها بعض ما بدا لي من آفاق توسع مجال البحث عسى أن ينجز غيري ما لم أتمكن من إنجازه.

وقد تقدمت ابتداء بفرضيات يثبتها البحث بصفة كلية أو جزئية أو ينفي بعضها على النحو الآتي:

1. أفترض أن التفسير الموضوعي للقرآن هو لون مستقل ونوع جديد مبتكر لعلماء العصر له أهمية خاصة في بناء الذات المؤمنة وتفعيل هداية القرآن والتقليص من الخلافات العلمية في موضوعات لها خطورتها على الساحة الثقافية كموضوع السلم والحرب كيف يفهم وكيف يمارس، وطبيعة الإنسان ووظيفته على وجه الأرض، وسائر الموضوعات الكلية ذات الصلة بالتحديات الحضارية الكبرى.

2. أفترض أن المستقبل سيكون لهذا اللون من التفسير إذا تمكن الباحثون من ضبطه من جهتي النظرية والتطبيق لأنه يقدم ما يسد حاجة الأمة من جهة وله القدرة على محاجة أصحاب القراءات المعاصرة للقرآن من حداثيين وعلمانيين.

3. أفترض أن نجاح الشيخ الغزالي في معالجة كثير من القضايا الحساسة في واقعنا المعاصر كان سببه تحكمه في المنهج الموضوعي في التعامل مع القرآن الكريم الذي يربط بين الجزء والكل وبين النص والواقع.

وتوخيا للإجابة العلمية الموضوعية عن الإشكال السابق، وكذا من أجل التحقق من صدق الفرضيات المقدمة من عدمه، انتهج الباحث مناهج متنوعة حسب الحاجة إليها كالآتي:

1. المنهج التحليلي الوصفي: وكان استعماله رئيسا في جمع المفاهيم والدلالات المتعلقة بالفصل الأول وتمييز عناصرها وتحليل الأقوال والترجيح بين الآراء.

2. المنهج الاستقرائي: وقد كان أساسا في رصد جهود المفسرين المحدثين الذين تصدوا للتفسير الموضوعي للقرآن الكريم.

3. المنهج المقارن خاصة حين المقارنة بين تفسير القرآن بالقرآن ومنهج التفسير الموضوعي، وكذا بينه وبين القراءات المعاصرة للقرآن والمناهج الاستشراقية التي تعتمدها.

4. المنهج الاستنباطي: اعتمدته في بناء المفاهيم والقواعد الخاصة بمنهج التفسير واستنباط النتائج العامة من المقدمات التطبيقية الجزئية.

5. المنهج النقدي: وكان مهما في تقويم ونقد الاجتهادات والآراء التي رأيت أنها جانبت الصواب وابتعدت عنه في قليل أو كثير.

وقد واجهتني بعض الصعوبات الخاصة وبعض الصعوبات في البحث عموما: أما الصعوبات الخاصة أو الشخصية، فتمثلت أساسا في عدم الاستقرار وكثرة التنقل بين الشمال والجنوب لضرورات لا سبيل إلى بسطها هنا لكن كان لها أثرها المؤكد على تأخر إتمام البحث لاسيما وأن نقل الكتب باستمرار مسألة في غاية الصعوبة والحرج، ولكن قدرني الله على تجاوزها فله الحمد والمنة. وأما صعوبات البحث فكانت خاصة في جانب الشخصية المختارة كأنموذج فالدراسات حول الغزالي على كثرتها لم تتناول جانب التفسير والتفسير الموضوعي عنده على الخصوص إلا قليلا منها، كما أن الشيخ لم يؤلف كتابا نظريا يشرح فيه منهجيته الخاصة في التفسير الموضوعي كما تدور قضاياه في الأوساط العلمية الأكاديمية مما جعل البحث يكمل ذلك كما سبق الذكر.

ومن الدراسات السابقة التي استفدت منها كثيرا:

. المدرسة القرآنية للسيد باقر الصدر: قد تناول صاحبها منهج التفسير الموضوعي بأسلوب مميز يجمع بين النظرية والتطبيق، غير أن الكتاب يفتقر إلى الإحاطة والتركيز كونه مجموعة محاضرات من جهة، وكونه جاء مع البدايات التي نظرت لهذا المنهج في التفسير.

. المدخل إلى التفسير الموضوعي: للشيخ عبد الستار فتح الله سعيد وقد سعدت بلقائه في مصر ومناقشته في بعض آرائه في كتابه الذي أهداني نسخة منه وما تميز به الشيخ هو رفضه التفسير الموضوعي للسورة القرآنية، وكتابه جيد لولا أنه لم يطل النفس في البناء المنهجي وركز على التطبيق.

. مباحث في التفسير الموضوعي: للأستاذ مصطفى مسلم وهو كتاب جيد خاصة في الفروق التي تميز التفسير الموضوعي عن غيره من مناهج التفسير الأخرى كالمنهج التحليلي.

. التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق: للدكتور صلاح عبد الفتاح الخالدي الذي حاول أن يجعله كتابا جامعا في منهج التفسير الموضوعي وقد استفدت منه كما استفاد هو من كتاب الشيخ فتح الله سعيد وغيره.

. التفسير الموضوعي للقرآن بين كفتي ميزان: الدكتور عبد الجليل عبد الرحيم، وهو كتاب مفيد أكثر دقة من غيره في المفاهيم النظرية، لكنه اضطرب في التطبيق مما دل على أن في التنظير ثغرات لا بد أن تراجع.

. التفسير الموضوعي ومنهج البحث فيه: وهو أفضلها من جهة بيان منهج التفسير الموضوعي لكن صاحب الكتاب قد وقع في شيء من عدم التدقيق تعقبناه في صلب الدراسة التي نقدم لها.

. الشيخ الغزالي رائد التفسير الموضوعي في العصر الحديث: وهي دراسة مركزة وافية بغرضها غير أنها مختصرة جدا.

. الإمام محمد الغزالي وجهوده في التفسير وعلوم القرآن: وهي الدراسة العلمية الوحيدة التي حصلت عليها تدرس جانب التفسير عند الشيخ الغزالي.

ما تميزت به هذه الدراسة:

. الإحاطة الجامعة بالمنهج الموضوعي في التفسير.

. مناقشة آراء المخالفين والرد على شبهاتهم وهو ما خلت منه تقريبا كل الدراسات السابقة.

. تناول التفسير الموضوعي في فقه الشيخ الغزالي بخلاف أغلب الدراسات التي ذكرت فإنها تناولت موضوعات كنماذج ولم تتناول رؤية أحد كبار علماء التفسير الموضوعي بالدراسة والتحليل.

. كل الدراسات التي سبق ذكرها جاء فيها التنظير مختصرا ومقتضبا كأنه مسلمات ولم تطل النفس في بيان ضوابط التفسير الموضوعي وأهميته وغير ذلك مما حاولت الوقوف عنده في هذه الدراسة.

. خلت الدراسات السابقة من عرض مدرسة التفسير الموضوعي بين المدرسة التقليدية والمدرسة الحداثية مما حجب النظر إلى هذا المنهج على أنه التجديد المعتدل الأصيل الذي يتوسط التقليد والجمود من جهة والانسلاخ والتمييع من جهة أخرى.

وبعد فحسبي أنني بذلت جهدي فإن أصبت فتلك بغيتي وإن أخطأت فعملي بين أيدي اللجنة الموقرة المأمونة من أساتذتي يصححون ويوجّهون ولا أعدم أجرا.

والله ولي التوفيق

الفصل الأول

الشيخ محمد الغزالي: قصة الحياة وفقه القرآن

المبحث الأول

قصة حياة الشيخ محمد الغزالي

المبحث الثاني

فقه القرآن عند الشيخ محمد الغزالي

المبحث الأول

قصة حياة الشيخ محمد الغزالي

كُتب عن حياة الشيخ الغزالي كم كبير من الرسائل والكتب والمقالات والشهادات الحية[1]، ولا غرابة، فالشيخ أهل لذلك.. لقد احتضن الأمة الإسلامية وتبنى آلامها وآمالها، فاحتضنته الصحوة الإسلامية وكتب عن حياته خيرة رجالها.. وقد أكون معذورا إذا تجاوزت بعض التفاصيل في حياة الشيخ لسببين: الأول هو كثرة ما كتب عن حياة

[1] على سبيل المثال لا الحصر(باختصار): الشيخ الغزالي كما عرفته ليوسف القرضاوي، الشيخ الغزالي تاريخه وجهوده وآراؤه لعبد الحليم عويس، الشيخ الغزالي الموقف الفكري والمعارك الفكرية،لمحمد عمارة، الشيخ الغزالي غصن باسق في شجرة الخلود، لمسعود فلوسي، الإمام محمد الغزالي وشهادة التاريخ،لأحمد مصطفى فضيلة، قصة حياة، جمع دار الرشاد، وعدد من رسائل الماجستير: الشيخ الغزالي حياته وعصره(جزء من رسالة مطبوعة) رمضان حسن الغريب، موقف الشيخ الغزالي من قضية التخلف(ماجستير مكتبة كلية الدعوة ـ الأزهر).. عدد خاص من مجلة إسلامية المعرفة، حلقة دراسية حول العطاء الفكري للشيخ الغزالي، وعدد هائل من الملتقيات في الجزائر ومصر وعدد من الدول العربية والإسلامية.

الغزالي، والثاني لأن هدفي في هذا المبحث التمهيد لبيان منهج الشيخ في التفسير عموما والتفسير الموضوعي على وجه الخصوص، فإذا اختصرت بعض التفاصيل . وإن بدت مهمة في ذاتها . فلأنها ليست مرادي، بل هي مدخل للمراد وحسب.

كما أنني اكتفيت بحديث الغزالي عن نفسه فيما كتب من قصة حياته، مضيفا أيضا ما كتبه أحد أبنائه أو بعض تلامذته المقربين، ومعلقا على ذلك بما يقتضيه المقام من توضيح بعض الأفكار تعليقا يسيرا، وقد قصرت التركيز على ثلاث نقاط في ثلاثة مطالب هي:

1. مراحل حياة الشيخ الغزالي.
2. ما تميز به من صفات.
3. ما عرف به من مواقف.

المطلب الأول

مراحل حياة الشيخ الغزالي

1. نشأة الشيخ محمد الغزالي، أسرته وتكوينه العلمي:

هو محمد الغزالي السقا، ولد بقرية نكلا العنب، مركز إيتاي البارود، بمحافظة البحيرة، تلك المنطقة التي تخرج منها كثير من العظماء، أمثال الشاعر الكبير المجاهد محمود سامي البارودي، والشيخ محمد عبده، والشيخ سليم البشري، والشيخ إبراهيم حمروش، والشيخ محمود شلتوت، والشيخ حسن البنا، والدكتور محمد البهي..[1] وكان مولده يوم السبت من

[1] الشيخ محمد الغزالي، تاريخه وجهوده وآراؤه، عبد الحليم عويس، دار القلم، دمشق، ط1، 2000م، ص7

ذي الحجة العام 1335هـ الذي يوافق 22من شهر سبتمبر العام 1917م، والغزالي هو أكبر إخوته ، لذلك نشأ وأسرته الفقيرة تعلق الآمال عليه.[1]

وفي مذكراته، لا يلتفت الشيخ الغزالي ـ رحمه الله ـ إلى هذه التفاصيل التي هي قدر الله النافذ، ويبدأ مذكراته بحس من المسؤولية عال ومرهف اتجاه أمته، إنه ينبه إلى أن أحدنا لا يسأل لم ولد في زمن كذا؟ أو في مكان كذا؟ "**وإنما ـ كما يقول الشيخ الغزالي ـ لفت نظري أني برزت على الدنيا في كبوة من تاريخ الإسلام ، وأيام كئيبة كان الإنجليز فيها يحتلون مصر ، كما احتلوا أقطارا فيحاء من أرض الإسلام الجريح !! ومع الهزائم المرة التي أحرجت الآباء والأولاد، فإن المقاومة الشعبية كانت عامة، ورفض الاستسلام للغاصب الكفور كان يعم الأرجاء**"[2]

هكذا يفتتح الشيخ مذكراته، إنه الحديث عن كبوة الأمة وهزائمها المُرَّة، ثم فتحُ صفحة الأمل مع رياح المقاومة الشعبية العارمة.. إنه يلاحظ حركة المحتل من الخارج، وضمير الأمة في الداخل.

إن المرء وهو يقرأ مذكرات الشيخ الغزالي، لا يسعه إلا أن يعترف أن فيها من الصدق ما لا يوجد في غيرها، فهو يتجاهل في كثير من المواطن نفسه ويؤرخ للأمة الإسلامية في مصر وفي غيرها من بلاد الإسلام، ويصف ما عصف بها في تاريخها الحافل من هوان، وذلك من خلال أحواله وحياته الشخصية، ومن شواهد الصدق في هذه المذكرات أنه لا يقدم نفسه على أنه العظيم الذي لا يجود التاريخ بأمثاله إلا قليلا، ولا يلبس نفسه رداء الكمالات كما تفعل الشخصيات المشهورة عادة، فيتسلل اليأس إلى غيرهم من الناس، قاطعين الأمل في الوصول إلى بعض مراتبهم أو بعض مناقبهم.

إنك تجد الغزالي في هذه المذكرات غاية في التواضع والبساطة والعفوية، فهو ـ مثلا ـ يروي أحداثا ترجع بها ذاكرته إلى يوم كان عمره ثلاث سنوات، ثم تجده يسارع فيقول: "**هل يعني ذلك أن ذاكرتي حسنة؟ إنني أبادر بالنفي، قد أنسى ما عرفته منذ دقائق، وفي**

---

[1] الشيخ الغزالي الموقع الفكري والمعارك الفكرية ، محمد عمارة ، دار الرشاد، ط2،1998م ،ص64

[2] قصة حياة، مقتطفات من مذكرات الشيخ الغزالي، إسلامية المعرفة ،مجلة فكرية فصلية محكمة، العدد السابع، سنة:1997م، ص156.

الوقت نفسه أذكر أمورا مرت عليها عشرات السنين"[1]، لا يدعي الشيخ الغزالي العبقرية والذاكرة القوية، مع أن الشواهد على قوة حافظته كثيرة، فالدكتور القرضاوي يشهد أنه كان يرتل القرآن دون حاجة إلى مصحف، وقلّما تند منه آية أو كلمة أو تلتبس عليه آية بأخرى[2]، وبعض من لازموه في حياته كانوا يشهدون أنه يذكر الحديث النبوي من ذاكرته ثم يطلب منهم توثيقه من مصدره فيجدونه كما هو بعباراته، يقول محقق آخر كتاب للشيخ الغزالي (كنوز من السنة): "**الغريب كان في حفظه للحديث، فقد كان يكتب ثم يأمرني بالتأكد من نص الحديث فأجده سليما كما كتبه.. أحيانا كنت أتعثر في استخراج الحديث من المرجع . أيّا كان . فيسألني عن طول المدة، وعندما أجيبه بتعثري.. يقول لي افتح جزء كذا ستجده بين صفحة كذا وكذا..**"!![3]، والشيخ نفسه كان يكتب الكتاب وقلما يراجعه قبل أن يدفع به لطبعه،[4] كل هذا ثم يقول في تواضع العلماء لم أكن أتميز بذاكرة حسنة!!

وفي مواضع أخرى من مذكراته تجده يقول: "**أدركت بعد شهر واحد أنني جاهل، وأن حصيلتي العلمية استنفدت خلال أسابيع..**"[5] يقول هذا بعد أن حصل على العالمية من الأزهر وعين إماما خطيبا!! أو تجده يقول ما معناه كنت أميل إلى الدعابة والضحك مما لا يلائم المشايخ المعممين في جدهم ووقارهم،[6] ورغم أن علامات النبوغ كانت بادية عليه منذ الصغر إلا أنه يقول في تواضع: " **لم أكن بليدا ولا نابغا كنت متوسط الذكاء**"[7]، تأمل وهو يروي أن معلمه طلب منه إعراب لفظ الجلالة في جملة معينة وهم طفل صغير، فكان جوابه: الله منصوب على التعظيم. يقول: "**وحدثت ضجة من الطلبة ونظرت مذعورا إلى الأستاذ فرأيت عينيه تذرفان، كان الرجل من أصحاب القلوب الخاشعة وقد هزه أني التزمت الاحترام مع لفظ الجلالة**"[8]إنه لا يشير إلى نبوغه وأدبه بقدر ما يشير إلى أدب

---

[1] المرجع السابق، الصفحة نفسها.
[2] الشيخ الغزالي كما عرفته، رحلة نصف قرن، يوسف القرضاوي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 2001م ص131.
[3] كنوز من السنة، محمد الغزالي، دار الهناء، الجزائر، ص4.
[4] قصة حياة، ضمن إسلامية المعرفة إسلامية المعرفة، مرجع سابق ص178.
[5] مذكرات الشيخ الغزالي، قصة حياة، دار الرشاد، قسنطينة، 2006م، ص 38. .
[6] نفسه ص 15
[7] قصة حياة، ضمن إسلامية المعرفة، ص157.
[8] نفسه، ص156.

أستاذه! وأحسب أن نكرانه لذاته ونسبته الفضل لله ثم لعباده الصالحين، كان خلقا لازمه طوال حياته..

إن الشيخ يروي لك حياته بكل صدق فيشد انتباهك ويضحكك ويبكيك، ويثير فيك العقل والعاطفة جميعا ن هذا ما يزيده عظمة في أعين المنصفين..

مذكرات الشيخ الغزالي تنضح بالعلم والأدب والتاريخ والفكر والروح والعاطفة على الرغم من وجازتها، حين تنتهي من قراءتها تعتريك حاجة للاستزادة وتقول: ليتها كانت أطول!..

هذه كلمة عن الجانب الإنساني المحض في مذكرات الغزالي . العالم الداعية الأديب . أو قل العبد الصالح، كان لابد منها لما تفصح عنه من عناصر شخصيته الفذة.

نشأ الشيخ الغزالي في أسرة كثيرة العدد قليلة الحيلة، لهذا كان والده "**يعلق عليه أكبر آماله في رعاية الأسرة، فكان الوالد إذا مرض يقول لزوجته وأولاده: لا تحزنوا تركت لكم . بعد الله . محمد الغزالي، ووالدته كانت سيدة فاضلة بارة محسنة تحب تقديم الخير والعون للناس، وكانت تحثه على تقديم الإحسان لأهل القرية وأرحامه والمحتاجين.**"[1]

وكانت نشأة الغزالي . الطفل . الأولى في القرية التي ولد بها، وتعلم في كتّابها، وعلق في مذكراته على طريقة الكتّاب التقليدية في تعليم القرآن الكريم، وما بها من إيجابيات وسلبيات، إذ تزدحم الكتاتيب بالأطفال من مختلف الأعمار، فيعلوا ضجيج الأصوات بما هو اقرب للفوضى والضرب من المعلم سيد الموقف فعصاه من الجنة!

ومع ذلك فإن الكتاتيب حافظت على التواتر الشفهي للقرآن وتخرج فيها آلاف الحفظة، لذا نجد الشيخ يقول في حيرة: "**سألت نفسي بعدما كبرت سني عن جدوى هذه الطريقة، ولم أنته إلى إجابة حاسمة.**"[2]

ثم انتقل محمد الغزالي من الكتّاب إلى مرحلة التعليم الابتدائي ، فكان لابد أن يُيَمم شطر الإسكندرية، فهي المدينة التي بها أقرب معهد أزهري لمحافظة البحيرة في ذلك

[1] الشيخ محمد الغزالي تاريخه جهوده آراؤه، عبد الحليم عويس، دار القلم، دمشق، ط1، 2000م ص7.
[2] قصة حياة، ضمن إسلامية المعرفة، مرجع سابق، ص 157.

الوقت، ولحداثة سنه كان لابد للأسرة أن تنتقل معه، متحملة في ذلك "**مغارم هذا التحول من القرية الهادئة إلى المدينة المائجة.**"[1]

وإن لم يكن هو يدري يومئذ عن ذلك شيئا إلا أن والده الفاضل . أحمد السقا . كان مصمما على تعليمه واثقا في مستقبله، وقد أسعده في هذه المغامرة أن الغزالي قد نجح في امتحان القبول وارتدى العمامة والجبة المقررة، وكان بين نحو مائتي طالب نجحوا في امتحان القبول،[2]ويقر بأن أباه كان بطل هذه المرحلة، يقول: " **كان بطل هذه المرحلة أبا وهب ابنه لله على حد التعبير الشائع.**"[3]

والشيخ الغزالي يثني على والده، ويذكره بما يستحق من الاحترام والتقدير يقول: "**والدي كان تاجرا صالحا، وهو الذي وجهني إلى حفظ القرآن، بل إن فضله عليّ أن باع ما يملك لكي يذهب بي أو معي إلى أقرب مدينة يقع فيها معهد أزهري.. وعمري عشر سنوات،**"[4] وأحيانا . بمنطق المؤمن الطائع المتوكل . لا ينسب نجاحاته لنفسه أو لإرادته أو ذكائه، بل ينسبها لدعوات أبيه ويخشى على مشاعر والده إذا فشل هو في تحقيق طموحاته! وفي هذا المعنى يقول: "**لا أدري كيف أديت الامتحان بهدوء وكرهت أن أعود إلى أبي أنتظر النتيجة في جواره!.. وكانت المفاجأة: نجحت في هذا الامتحان الصعب، بل كنت من الأوائل في القطر كلّه، والأول في معهد الإسكندرية.. وأحسست داخل نفسي أن هذه ليست مهاراتي، بل كانت دعوات أبي المؤمن المتوكل الصبور!**"[5]

ثم تدرج من نجاح إلى آخر، بعد ثلاث سنوات من المرحلة الابتدائية حصل على شهادة الكفاءة، " **ثم حصل على الثانوية سنتين بعد الكفاءة، ثم التحق بكلية أصول الدين في جامعة الأزهر سنة (1937م) وتخرج فيها سنة (1942م) وتخصص في**

---

[1] نفسه ، ص159.
[2] نفسه، ص159.
[3] نفسه،ص159.
[4] نفسه ، ص 159.
[5] قصة حياة ، ص 163.

الدعوة وحصل على درجة التخصص في التدريس (وهي تعادل درجة الماجستير) سنة (1943م) من كلية اللغة العربية"[1]

ولم تكن مرحلة التعليم الابتدائي والثانوي في معهد الإسكندرية بالنسبة للغزالي مرحلة سهلة ميسرة أبدا، بل كان فيها من الفقر ومن المرض ومن السجن ومن المغامرة ما كاد يعصف بطموحاته وآمال أبيه المعلقة عليه.. فقر دفعه إلى تعليم أبناء بعض الأجانب اللغة العربية مقابل مبلغ زهيد ليسد حاجته الأساسية، وإن كان قد اضطر إلى السكن في حجرة موحشة وآوى جسده الضعيف وهو في عمر الطفولة إلى فراش خشن.. ومرض أقعده عن مزاولة الدراسة لمدة ثلاثة أشهر ليمتحن وهو في حال يرثى لها.. وسجن ابتلي به نتيجة انتفاضته ضد الاستعمار والظلم ما أخرجه منه إلا كفالة دفعها أبوه وهو يلهث.. ومغامرة دفعته فيها غيرته على الحق وضميره الحي إلى قيادة مظاهرة كادت تكلفه سنة من مشواره الدراسي أو تعصف به كلية.[2]

فما الذي حدث؟ ما لانت للغزالي عريكة ولا وهنت له عزيمة وهو يواجه أزمات حياته، إنه يذكر بقول شوقي: جزى الله الشدائد كل خير.. فمن أصلابها ولد الرجال.

ويصف الغزالي الأساتذة الذين تركوا بصمة وأثرا في حياته في هذه المرحلة من التعليم فيقول: "**في معهد الإسكندرية الديني تأثرت بالشيخ إبراهيم الغرباوي، والشيخ عبد العزيز بلال، وكانا يشتغلان بالتربية النفسية ولهما درجة عالية في العبادة والتقوى وكانا يمزجان الدرس برقابة الله وطلب الآخرة وعدم الفتنة بنيل الإجازات العلمية، لأن للألقاب العلمية طنينا ربما ذهب معه الإخلاص المنشود في الدين..**"[3] في مثل هذا الجو الإيماني العلمي تكون الغزالي الذي سيملأ الأرض دعوة للإسلام وتفان في سبيله..

وجدير بالذكر أن النظام التعليمي في المعهد الأزهري بالإسكندرية كان يجمع بين علوم دينية وأخرى مدنية تطبيقا لإصلاحات الشيخ محمد عبده التي تم التراجع عنها بعد

---

[1] الشيخ الغزالي تاريخه وجهوده وآراؤه، ص 8.

[2] لمعرفة تفاصيل هذه المرحلة ،أنظر :مذكرات الشيخ محمد الغزالي، قصة حياة، ص17- 20، والشيخ محمد الغزالي غصن باسق في شجرة الخلود، مسعود فلوسي، مكتبة وهبة، القاهرة، ط1، 2003م ص 27-30.

[3] خطب الشيخ محمد الغزالي في شؤون الدنيا والدين، دار الاعتصام، القاهرة، مجلد1، ص14.

ذلك، يقول الشيخ الغزالي: "**المنهج الذي ارتبطنا به كان من وضع الشيخ محمد مصطفى المراغي وهو من مدرسة الشيخ محمد عبده الإصلاحية.. وأعتقد أن هذه الفترة هي أزهى فترات التألق العلمي في الأزهر لأن دراسة الطبيعة والكيمياء والأحياء وعلوم الحساب والجبر والهندسة والتوسع في دراسة التاريخ المحلي والإسلامي والعالمي، و دراسة جغرافيا العالم كله.. يصقل فكر الطالب ويعينه على تكوين حكم صائب، بل إن الحقائق الشرعية لا تفهم على واقعها الصحيح إلا بهذه المعرفة..**"[1]

لذا فمن الطبيعي أن نجد هذه المعالم الفكرية واضحة في كتابات الشيخ الغزالي وفهمه العميق للإسلام، أعني سعة علمه التي جمع فيها بين الدين والدنيا والعقل والقلب.

كانت القاهرة والأزهر المحطة الثالثة في حياة الغزالي . الشاب . بعد كتّاب القرية ومعهد الإسكندرية الديني قد احتضنتا طفولته وفتوته.. فكانت هذه المحطة أيضا حافلة بالنشاط والمواقف والدروس..

2. الغزالي الشاب في قلب معركة الدعوة..علم وجهاد

عندما انتقل الغزالي إلى القاهرة ليلتحق بكلية أصول الدين مع اثنين وسبعين شابا من خيرة الشباب المتفوقين الناجحين، كان القدر قد هيأ لهذا الشاب ذكي العقل زكي النفس الأسباب التي تمكنه من ترجمة صفاته على صفحات واقع الحياة، وكان أول هذه الأسباب لقاؤه بالأستاذ حسن البنا . رحمه الله . وكان قد عرفه قبل ذالك في الإسكندرية في عامه الأخير بها، بعد أن سمع له درسا في مسجد عبد الرحمان بن هرمز فأعجب به لما كان فيه من الوضوح والتأثير والصدق[2]، وانخرط في حركة الإخوان المسلمين..

يقول الشيخ الغزالي عن حسن البنا: "**أستاذي الأول في ميادين كثيرة، وكنت . وأنا طالب . أستمع إلى محاضراته في القرآن الكريم.. وكنت أعود إلى بيتي فألخص ما استطعت فهمه من هذه المحاضرات حتى تجمع لدي كتاب في هذا الصدد.. واستفدت من الإمام الشهيد في طريقة التفسير التي تعتمد على المعاناة الخاصة والذوق**

---

[1] مذكرات الشيخ محمد الغزالي: قصة حياة، ص16.
[2] نفسه، ص21.

الشخصي، وذلك لطول تدبره في كتاب الله وشدة ارتباطه به."[1] وظل الشيخ الغزالي وفيا لأستاذه البنا، يثني عليه ويذكره بكل خير.. وكان شديد الاحتفاء برسالة كتبها له الإمام الشهيد حين اطلع على مقالة له في (مجلة الإخوان المسلمون) كان مما جاء فيها: **أكتب وروح القدس يؤيدك والله معك** " قال الشيخ الغزالي معلقا على رسالة مرشد الإخوان الأول: "**كدت أطير من الفرح بهذا التقدير، وذلك الدعاء، لعله الثناء الأول والدعاء الأول الذي ظفرت به من رجل كبير !!**"[2] وكان من آثار هذه الرسالة أن أصبح الشيخ الغزالي من كتاب الإخوان الأوائل، وأطلق عليه لقب أديب الدعوة لما كان يتصف به من أسلوب أدبي رائق في نشر حقائق الإسلام..

وفي كلية أصول الدين بالقاهرة "**وخلال سني دراسته الجامعية، استفاد الغزالي من شيوخه وأساتذته الذين تلقى العلم على أيديهم.. وكثير منهم كان من العلماء البارزين المرموقين في كثير من العلوم الشرعية وتركوا آثارا بارزة في الفكر الإسلامي الحديث والمعاصر.**"[3]

وتحدث الشيخ الغزالي عن أكثر شيوخه تأثيرا فيه في هذه المرحلة فذكر منهم، الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت، وكان مدرسا للتفسير وله قدرة ملحوظة في هذا المجال.. والشيخ عبد العظيم الزرقاني صاحب كتاب مناهل العرفان، وهو راسخ القدم في البيان، حسن الديباجة ونقاء العرض..[4]

والشيخ الغزالي يثني أيضا على المؤلف الأديب عباس محمود العقاد في كتاباته، وإن لم يكن بينهما اتصال مباشر، ويذكر أنه شديد التنويه بها، ويذكر أستاذه العناني بالخير، ويشيد بالشيخ محمد أبو زهرة ويصفه بالجرأة والبصيرة والفقه الراسخ، ويذكر استفادته من الدكتور محمد عبد الله دراز في منهج التفسير الموضوعي، وذكر ذلك في

---

[1] الشيخ الغزالي كما عرفته رحلة نصف قرن، يوسف القرضاوي، ص110.
[2] المذكرات الشيخ محمد الغزالي، ص 28.
[3] الشيخ محمد الغزالي غصن باسق في شجرة الخلود، مسعود فلوسي، ص39.
[4] قصة حياة، ضمن إسلامية المعرفة، ص186-178.

مذكراته وفي كتابه المسمى تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل وفي كتابه حول التفسير الموضوعي..[1]

ومما يذكر شدة إعجاب الشيخ الغزالي بالرجل الثاني في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين العلامة البشير الإبراهيمي، ويقول عنه: "..**الشيخ البشير الإبراهيمي تعرفت عليه في أعقاب محاضرة ألقاها في المركز العام للإخوان المسلمين.. وكان لكلماته دوي بعي المدى، وكان تمكنه من الأدب العربي بارزا في أسلوب الأداء.. والحق أن الرجل رزق بيانا ساحرا.. جذبنا الرجل بإيمانه العميق وحزنه الظاهر على حاضر المسلمين.. ومن الخطأ تصور أن الشيخ الإبراهيمي كان خطيبا ثائرا وحسب.. لقد كان فقيها ذكي الفكر بعيد النظرة**"[2]

كما استفاد الشيخ الغزالي من شيوخ كثر، ذكر منهم الدكتور محمد أحمد الغمراوي والشيخ الأمين الخولي والدكتور عبد الوهاب عزام، والأستاذ عبد الوهاب خلاف، والشيخ محمد الخضر حسين ،والدكتور محمد عبد الله ماضي.. والدكتور محمد يوسف موسى، والشيخ المجاهد الغيور محمد الأَوْدَن.. وآخرون.[3]

تشبع الشيخ الغزالي بالعلم من هذه القمم الشامخة، وتشرب حب الإسلام من صغره، فانعكس كل ذلك على جهاده في ميدان الدعوة، فكان كاتبا في مجلة الإخوان التي كانت تنافح عن الدين وتدافع عن المستضعفين، وتقلد عدة وظائف في مصر، ثم في خارجها، فبرهن أن خدمة الإسلام هدفه الأول والأخير، وسبب عنائه أنه كان لا يداهن أو يهادن الباطل أبدا..

عين ابتداء إماما في مسجد العتبة الخضراء وكان ذلك العام 1943 فكانت الإمامة بداية لعمله في الأوقاف، حتى وصل في الوزارة نفسها إلى وكيل وزارة الأوقاف لشؤون الدعوة الإسلامية، "**وعلى المجال الدولي عمل فضيلته في جامعات السعودية والأزهر**

[1] الشيخ محمد الغزالي غصن باسق في شجرة الخلود، ص 40.
[2] بين الشيخ الغزالي والشيخ البشير الإبراهيمي، محمد الغزالي، ضمن مذكرات الشيخ محمد الغزالي قصة حياة، مرجع سابق، ص 136-137.
[3] انظر: الشيخ محمد الغزالي غصن باسق في شجرة الخلود، مسعود فلوسي، ص 41.

وقطر والجزائر ومحاضرا وأستاذا زائرا في معظم جامعات الدول العربية والإسلامية وجاب بعض أقطار الدنيا ليبلّغ الإسلام."[1]

وبلغ من نجاحه في الإمامة والخطابة أن وثق به مدير المساجد وكلفه بإعداد خطبة لصلاة الجمعة في افتتاح مسجد بحي المَنْيَل بحضور الملك فاروق.. ولم يمض شهر على إمامة الشيخ الغزالي الناس في مسجد العتبة حتى كان جزء كبير من ميدانها يفرش بالحصر وتنقل له الخطبة بمكبرات الصوت.[2]

أصبح الغزالي . الخطيب الشاب . يعمل في حقل الدعوة عبر نافذتين إحداهما رسمية، وهي عمله في الإمامة والأوقاف بمسجد العتبة الخضراء، وأخرى شعبية وهي نشاطه مع الإخوان المسلمين، ويصف الغزالي هذا الوضع بقوله: "**في هذا المسجد وفي ما تلاه من ميادين العمل كانت لي صفة مزدوجة، فأنا من رجال الإخوان المسلمين، وأنا من علماء الوزارة، ولم أكترث أو أشعر بحرج ما في المزج بين الصفتين: الرسمية والشعبية.**"[3]

كما عمل الشيخ الغزالي سكرتيرا في مجلة الإخوان وسعد بذلك وعبر عنه بالقول: "**إستأنفت العمل ناشطا راغبا في ميدان الدعوة، وسرني أن الأستاذ المرشد العام جعلني سكرتيرا لمجلة الإخوان، فكنت أكتب كثيرا..**"[4]

وكانت آلام الأمة وآمالها لا تفارق وجدان الغزالي الشاب فجعل من نفسه المحامي الكبير الذي يدافع عن المظلومين، فمن المقالات الصحفية انتقل إلى التأليف، حيث ظهر له أول كتاب عالج فيه الأوضاع الاقتصادية المزرية، وهو كتاب:(الإسلام والأوضاع الإقتصادية)، ثم أتبعه بكتاب: (الإسلام والمناهج الإشتراكية)، ثم مدافعا عن الإسلام بين خصومه كتابه: (الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين)، وهكذا تتابعت حلقات التأليف لدى الغزالي ولكل كتاب قصة..

---

[1] سيرة الشيخ الغزالي بقلم ابنه علاء الغزالي ضمن كتاب: العطاء الفكري للشيخ الغزالي، حلقة دراسية، تحرير فتحي ملكاوي، طباعة المعهد العالمي للفكر الإسلامي،عمان، 1996م، ص184.

[2] قصة حياة، إسلامية المعرفة، ص 178.

[3] المرجع السابق ، ص179.

[4] المرجع السابق، ص182.

ولم يكن جهاد الدعوة لدى الغزالي مفروشا بالورود، بل كابد في سبيله المحن تلو الأخرى.. كانت البداية في محنة 1948حيث صدر قرار حل جماعة الإخوان وتبعته مصادرة ممتلكاتهم وانجر عن القرار تنكيل وسجن لأعضاء الجماعة واغتيال المرشد العام.. وكان نصيب الغزالي السجن في معتقل الطور، لكن نفسه أبت الركون والاستسلام، فراح يجمع الإخوان ويقودهم في المعتقل حتى حول السجن إلى مكان للعلم والإشراق الإيماني، إذ كان يؤم المعتقلين ويخطب فيهم الجمعة، ويجمعهم في حلق للذكر وللدرس.. بل إن كتابه (الإسلام و الإستبداد السياسي) ليس سوى حصيلة للمحاضرات التي ألقاها في سجن الطور.[1]

وبعد خروجه من معتقل (الطور) الذي عاش فيه تسعة أشهر أصدر الشيخ مجموعة من الكتب منها كتاب (من هنا نعلم) الذي رد فيه على كتاب خالد محمد خالد (من هنا نبدأ)، وكتاب (التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام) وكان ردا على أحد الأقباط الذي تحامل على الإسلام، ولم يذكر الشيخ الغزالي اسم المتحامل ليموت في مهده!..

ثم جاءت سنوات اختلف فيها الغزالي مع الإخوان المسلمين وفصل من الجماعة، لكن ذلك الأمر كان سببا في نجاته من الاعتقال ومواصلة دفاعه عن الإسلام في وقت كادت الساحة أن تخلوا من الدعاة، بل كاد الغزالي أن يكون الصوت الوحيد الذي يدافع عن الإسلام في تلك السنوات الصعبة.

اشتغل . رحمه الله . مفتشا للمساجد لكنه لم يقنع بهذه الوظيفة الإدارية، بل كان يبذل جهده في التدريس والإصلاح حيث يقول: "**مذ عملت في السلك الإداري وأنا أرفض الاكتفاء به، وأركض ركضا إلى المساجد والأندية والكليات أتحدث عن الإسلام، وأذود عنه المهاجمين وأكشف كامنه للمتوسمين، وأتعرض للمدح والقدح والتكريم و الإهانة.**"[2]

ولم يترك الغزالي بابا يرى فيه الخير للإسلام والمسلمين إلا ودخله، حتى إنه انخرط في الإتحاد الاشتراكي، وكانت . كما قال .: "**تجربة شاقة لا عهد لي بمثلها فهناك**

[1] الشيخ الغزالي كما عرفته رحلة نصف قرن، يوسف القرضاوي، ص16.
[2] قصة حياة، ضمن: إسلامية المعرفة، ص196.

لجنة أساسية ينتخب الجمهور أعضاءها بطريق القوائم في كل وزارة أو حي أو مصنع.. ومن السهل إدراك أن هذه السلالم الطويلة صنعت هكذا حتى لا يصل إلى القمة إلا أهل الثقة.. رأيت أني في المركز أشاهد أناسا لا أدري كيف نبتوا فلا يكاد يعرفهم أحد.. وشاء الله أن أصعد.. حتى بلغت اللجنة المركزية.. ورد إسمي لأنه لا يوثق به!.."[1]

وأتاح هذا النشاط للغزالي أن يسمع صوت الإسلام في مؤتمر القوى الشعبية في عام 1962بحضور الرئيس جمال عبد الناصر، فرد مكائد الشيوعيين حتى تعرض للإهانة من قبل رسام كاريكاتيري بجريدة الأهرام.. وانتصرت للشيخ جماهير المسلمين حيث خرجوا بعد خطبة الجمعة في الأزهر الشريف . وكان الشيخ فيها خطيبا. في مظاهرة عارمة ضمت عشرات الألوف اتجهت نحو مقر الجريدة التي أساءت للشيخ الغزالي.. لقد سخر الشيوعي صلاح جاهين من عمامة الشيخ الغزالي، لكن الغزالي وقف في المؤتمر في اليوم التالي يقول جهرة: "**إن تحت هذه العمامة رأس مفكر، كان يحارب الظلم والإقطاع أيام كان أمثال هذا الكاتب قوادين لفاروق!..**" وخرج الشيخ من المعركة مرفوع الهامة[2].

ونتيجة لمواقف الشيخ الشجاعة جرد من منصبه كمدير للمساجد، ثم منع من الخطابة في الأزهر، وحاول الماكرون به أن يجففوا منابع رزقه لكنه كتم مخاوفه في أعماقه، وحافظ على ابتسامته في فمه أمام أحبابه وأهله إلى أن جاءه الفرج من الله، حيث طلب في الكويت لقضاء شهر رمضان في الدعوة والإرشاد، فكتب في الصحف هناك وسجل في الإذاعة وتعاقد مع ناشرين لنشر عشرة كتب له!.. فعاد من دولة الكويت غانما حيث وفّى بكل التزاماته المادية..[3] وبلغ من مروءة الغزالي أن رفض تشويه صورة الإخوان الذين كان يختلف معهم في الإذاعة، ونتيجة لذلك تم اعتقاله مدة 10أيام، ثم أطلق سراحه فلم يشكر غير الله وحده[4]

---

[1] المرجع السابق، ص 203-204.

[2] الشيخ الغزالي كما عرفته رحلة نصف قرن، ص 59-60.

[3] قصة حياة، إسلامية المعرفة، ص213-214.

[4] المرجع السابق، ص214.

وعندما عين الشيخ عبد الحليم محمود وزيرا للأوقاف طلب من الشيخ الغزالي أن يعمر مسجد عمر بن العاص وكان الجامع في حالة يرثى لها.. فقبل الشيخ الغزالي المهمة وعمر المسجد حتى وصل عدد المصلين فيه إلى ثلاثين ألفا في بعض الجمع بعد أن كان شبه خال، وهناك من فوق المنبر كان الغزالي يفسر القرآن بالمنهج الموضوعي..[1]

لكن خط الدعوة الحر الذي كان يمارسه لم يرق للسلطات في عهد السادات إذ لم يكن عهده بالنسبة للغزالي ارحم من عهد عبد الناصر، فوضع الشيخ في القائمة السوداء ومنع من الخطابة في الجامع.[2]

وكان سبب محنة الغزالي وقوفه بقوة ضد المؤامرة التي كانت تحاك لتغيير قانون الأحوال الشخصية أو ما كان يعرف بقانون (جيهان السادات)، وقف الشيخ الغزالي في وجه هذا القانون و" **ألقى محاضرة في نهاية الموسم الثقافي لجامعة القاهرة ندد فيها بما حدث، ثم حرض الجماهير في خطبته بجامع عمرو بن العاص فخرجت في مظاهرة شعبية عارمة مما دفع السادات وزوجته إلى التراجع عن المشروع..**"[3] ثم بيتت السلطات للشيخ قضية تنظيم مشبوه ذكر فيه اسمه عرضا، ليتم إيقافه عن الخطابة، وضيق عليه حتى وجد نفسه في سندرة جامع صلاح الدين من غير مكتب، فسافر إلى السعودية قابلا بعرض للتدريس بجامعة أم القرى، ثم أشاع عنه السادات ومن معه أن الشيخ آثر السعودية طلبا للمال؟!.. ورد عليه الشيخ الغزالي وتحداه أن يرده إلى مسجد عمر بن العاص.

عاد الشيخ إلى مصر بعد سبع سنين قضاها في السعودية قدم فيها للدعوة الإسلامية الشيء الكثير.. "**كان له برنامج يومي في المذياع يحبه الناس، كما كان يشارك في التلفاز أو في الصحف فضلا عن جهوده في تربية طلابه في جامعة أم القرى.. ومعاونته للمسئولين عن الجامعة وإسهاماته في مجالس الجامعات الأخرى، مع**

---

[1] المرجع نفسه، ص225.

[2] الشيخ الغزالي كما عرفته رحلة نصف قرن، ص 52.

[3] الشيخ الغزالي صور من حياة مجاهد عظيم ودراسة لجوانب من فكره، عبد الحليم عويس، دار الصحوة، القاهرة، 1993م، ص16.

أجهزة الدعوة المختلفة بالمملكة.."[1] لكن عودته إلى القاهرة لم تكن موفقة، حيث كانت الأسباب التي لأجلها خرج منها ما تزال قائمة، وقد عرض عليه منصب وكيل أول لدى وزارة الأوقاف، شريطة أن يسكت ويهادن، فترك المنصب بعد يومين من توليه.[2]

سافر الغزالي بعدها إلى قطر ودرس بكلية الشريعة، وكان يمضي بها نصف عام من كل سنة، فأدى دورا كبيرا في تطوير الكلية وتخريج أجيالٍ صالحة منها.. وكان يعامل كضيف لدى حكومة قطر، كما دأبت دولة الكويت لعدة سنوات على دعوته لقضاء شهر رمضان بها، فكان يشارك في بعث الوعي الإسلامي بها، ويستجيب للمؤتمرات الطلابية والشبابية.[3]

3. عطاء الغزالي في الجزائر..

لم تحتف الجزائر بعالم زائر لها كما احتفت بالشيخ محمد الغزالي، والشعب الجزائري مسلم على الفطرة، مضياف كريم، يعتبر. كما عبر عنه الشيخ البشير الإبراهيمي في خواطره الشهيرة . "**كل عربي أخا له، أخوة الدم، وكل مسلم أخا له، أخوة الدين، وكل بشر أخا له، أخوة الإنسانية، ثم يعطي لكل أخوة حقها فلا يشعره أو يشعر أمامه بأنه غريب**"[4].. والشيخ الغزالي بالنسبة للجزائريين جمع حقوق الأخوة كاملة في الإنسانية والعروبة والدين.

وكان الشيخ الغزالي مواظبا على حضور ملتقيات الفكر الإسلامي في عقدها الأخير التي كانت متنفسا للعلماء ونقطة إشعاع للصحوة الإسلامية..

وأذكر. ونحن بَعْدُ فتية . كيف كان يشد انتباهنا ثلاثي : الغزالي و القرضاوي و البوطي، وكانت هذه الأسماء اللامعة . مع كوكبة من العلماء . تعني لنا الأمل القادم في نصرة الإسلام بعد قرون طويلة من التخلف والاستلاب والضياع..

---

[1] المرجع السابق، ص18.
[2] قصة حياة، إسلامية المعرفة، ص 229.
[3] الشيخ الغزالي،صور من حياة مجاهد عظيم،عبد الحليم عويس، ص 19
[4] الشباب الجزائري كما تمثله لي الخواطر، عيون البصائر، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1997م،ج3، ص509.

وأشهد أن الغزالي كان أحب العلماء إلى قلوب الجزائريين.. وشاء الله ألا يخيب حبهم لشيخ الصحوة الإسلامية، ورب ضارة نافعة . كما يقال . إذ في أحد الملتقيات، أبرق ابن الشيخ الغزالي إليه بألا يعود إلى مصر لأن السادات عازم على الزج به في السجن! وكان قد حضر الرئيس الشاذلي بن جديد زائرا ذلك الملتقى في ختام أعماله، فأبلغه وزير الشؤون الدينية في ذلك العهد، الشيخ عبد الرحمان شيبان الخبر، فسلّم الرئيس بن جديد على الشيخ الغزالي وقال له الجزائر بلدك فمرحبا بك داعية للإسلام فيها.[1]

ولم يكن ترحيب الشعب الجزائري بالشيخ بأقل من ترحيب رئيس الدولة به وقد بادل الشيخ الغزالي الشعب الجزائري ورئيسه نفس الحفاوة والمحبة وربما أكثر، وكان . رحمه الله . يذكر الرئيس بالخير ويثني على الجزائر في مناسبات كثيرة.. كما كان عند حسن ظن الجزائريين فلم يأل جهدا في بعث الدعوة الإسلامية في كل بيت في الجزائر من خلال حديث الثلاثاء وعمل على إحياء اللغة العربية بعد اندراس..

ومن نشاطات الشيخ الغزالي الكبيرة في الجزائر جهده في تأسيس جامعة الأمير عبد القادر الإسلامية واستقطابه خيرة الأساتذة للعمل بها، وكان عند استبقائه في الجزائر أستاذا زائرا بدولة قطر، فأرسلت السلطات الجزائرية خطابا إلى أمير دولة قطر تطلب استبقاء الشيخ، فقبل الأمير، وكان أن صار الغزالي أستاذا بجامعة الأمير عبد القادر الإسلامية، وعلى رأس مجلسها العلمي.[2]

واختار الشيخ الغزالي لنفسه أن يدرّس تفسير القرآن الكريم، واطلع آنذاك على تفسير الشيخ الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، فأعجب به وبكتاب مقاصد الشريعة الإسلامية، ولفت انتباهه أن بن عاشور أضاف إلى المقاصد مقصد الحرية.[3]

تحول الشيخ الغزالي في الجزائر وفي الجامعة الإسلامية إلى الأستاذ والموجه والمفتي، بل والأب الحنون العطوف الذي يعين البسطاء من الناس ومن عمال الجامعة من إداريين وأعوان..

---

[1] الشيخ الغزالي كما عرفته في الجزائر، عمار طالبي، ضمن كتاب: مذكرات الشيخ محمد الغزالي: ص 149.
[2] المرجع السابق ، ص 149.
[3] نفسه ، ص 150.

ومن نشاطه البارز في الجزائر، أحاديثه المتلفزة التي أحبها الجزائريون كثيرا، لما كان فيها من وضوح المعاني، وسهولة التعبير، ورقة المشاعر، وصدق النبرة، فكانت الشوارع تخلوا من المارة عندما يحين وقت حديث الغزالي..

كما أنه كان كل جمعة يلقي درسا في أحد جوامع الكبيرة، وأحيانا يسافر . رغم شساعة الجزائر وتقدم سنه . إلى الولايات البعيدة، مستجيبا لدعوات أهلها ليحاضر أو يلقي درسا أو موعظة، وبهذا وصل ما انقطع من دعوة الإمام بن باديس والشيخ الإبراهيمي وغيرهما من رجال الدعوة والتجديد.. وحسب الناس أن ابن باديس قد بعث، وأن الإبراهيمي قد عاد.[1]

ويروي الدكتور عمار طالبي مشهدا يدل على رقة مشاعر الشيخ الغزالي وتفاعله مع المأساة التاريخية للأمة الإسلامية حيثما حل، يقول ولا أنسى موقفا اغرورقت فيه عيناه بالدموع، وشهق شهقة عميقة، لما زرنا مدينة خنشلة المعروفة بحمامها المعدني الطبيعي ، قمنا بزيارة مقبرة الشهداء، وكانت قصتها عجيبة، إذ عثر فيها على حفرة هائلة ألقى فيها الاستعمار الفرنسي فيها جثث ألف شهيد، بقيودهم وأغلالهم ولباسهم وأحذيتهم، فنقلوا ودفنوا في مقبرة فيها ألف قبر لألف شهيد.. وذلك بعد الاستقلال.[2]

وعلى الرغم من المحبة التي جمعت الغزالي بالشعب الجزائري ورئيسه ودعاته وعلمائه، فإن الشيخ عانى من طائفتين اثنين من الناس: التيار السلفي المتشدد، والتيار المعادي للإسلام المحارب لأهله الذي تمثل خاصة في الشيوعيين والمتفرنسين، وقد اتهموه صراحة بأنه كان السبب في الفتنة الكبرى التي دارت رحاها في الجزائر ما يزيد عن عشر سنوات، وأتت على الأخضر واليابس..[3] ولقد تألم الشيخ الغزالي لهذا الاتهام وتحدى المفترين بأن يأتوا بكلمة قالها تدعوا إلى الفتنة أو تحرض على العنف[4]، قال أستاذنا محمد الهادي الحسني في هذا المعنى: **"لقد قضى . الشيخ الغزالي . في ربوعنا حوالي ست**

---

[1] المرجع السابق ، ص151.

[2] نفسه ، ص151.

[3] نفسه، ص 152-154.

[4] ذكريات من الجزائر، محمد الهادي الحسني، ضمن كتاب: مذكرات الشيخ محمد الغزالي، مرجع سابق، ص 147.

حجج كانت كلها مليئة بالنشاط العلمي والإرشاد الديني السليم، نال بهما إكبار وتقدير وحب الأغلبية الساحقة من الجزائريين.. ولم يسمع أذى إلا من بعض أراذلنا بادي الرأي منا الذين في قلوبهم مرض وفي عقولهم قصور وفي صدورهم هوى.. حتى إن بعضهم جاء شيئا فريا عندما ادعى أن الغزالي هو أحد أسباب الفتنة التي أشعلها شياطين الإنس في الجزائر."[1]

ثم إن تقدم الشيخ الغزالي في السن والجلطة التي أصابته في دمه، والوصب الذي أصابه من جراء كثرة تنازع الجماعات العاملة للإسلام واختلافها وتناحرها، في جو كان مشحونا بالمهاجمين للإسلام الكائدين له.. هذه العوامل مجتمعة ضيقت على الشيخ حيلته وأمره، و أشعرته بالأسى والحسرة الشديدة، وفي لحظة رحمة من رحمات الله ، زارته ابنته حرم الأستاذ الصحفي محمد المعروف عبد القدوس، فرات ما يرزخ تحته أبوها من مرض وضيق فألحت عليه بالعودة إلى القاهرة، فكتب خطابا على وزير الشؤون الدينية يعتذر فيه عن عدم الاستمرار[2] فكان له ذلك وغادر في جو من الحزن الشديد.. وبكاه الجزائريون وهو يغادر سنة 1989م.

وهكذا رجع الشيخ الغزالي إلى مصر، ولكنه كان ممنوعا من إمامة الناس في صلوات الجمع والأعياد، ولم يمنع من الكتابة في الصحف والمجلات وإلقاء الدروس والمحاضرات وسبب منعه من الجمع والأعياد ما قاله له وزير الداخلية آنذاك (حسن الألفي) . بعدما أرسل في طلبه .: "**يا فضيلة الشيخ إننا لا نجادل في علمك، ولا نرتاب في إخلاصك، ونحترم آراءك ونقدر مواقفك بالرغم مما تسببه لنا من إزعاج لكننا نرى أن مصلحة البلد تتطلب ألا تؤم الناس، ولا تخطب فيهم أيام الجمع والأعياد** "وكان رد الشيخ الغزالي . كعادته . بموقف صريح وواضح وشجاع:" **أنا مأمور من رب العالمين أن أبلغ مبادئ دينه، وأحكام شريعته إلى الناس بالحكمة والموعظة الحسنة، وإذا حيل بيني وبين ذلك،**

[1] ذكريات من الجزائر، محمد الهادي الحسني، ص 145.
[2] الشيخ الغزالي كما عرفته في الجزائر، عمار طالبي، مرجع سابق 155.

فسوف أجادل عن نفسي أمام الله يوم يقوم الأشهاد، ويختصمون إليه، وأن زارع خير، وداعية محبة، وناه عن منكر فإذا صادم هذا الخير مصالح الناس فلا ذنب لي."[1]

في هذه المرحلة عكف على التأليف فكتب: تراثنا الفكري بين الشرع والعقل ، نحو تفسير موضوعي للسور القرآن الكريم وغيرهما..[2] وأتيح للشيخ في هذه المرحلة أيضا تسجيل أهم خبراته خلال حياته الحافلة بالعطاء.. وقد جمع المعهد كتب الشيخ الغزالي . رحمه الله . وقدمها لمجموعة من المفكرين لدراستها أولا، ثم محاورته حول أفكاره فيها، وكان ممن حاوروا: المستشار طارق البشيري، والدكتور محمد سليم العوا، والدكتور جمال الدين عطية، والدكتور محمد عمارة.. وغيرهم، وقد زادت مدة هذه التسجيلات عن خمس عشرة ساعة تولت بالتحليل والحوار أهم جوانب حياة الشيخ الحافلة.[3]

وفي نوفمبر 1995م سافر الشيخ إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وعلى الرغم من مرضه وتقدم سنه، كان سفره ممثلا لمجمع البحوث الإسلامية بالقاهرة، وليقول كلمة الأمة الإسلامية في احتفالات هيئة الأمم المتحدة بعيدها الخمسين.[4]

4. الرحلة الأخيرة: ذهاب بلا عودة..

كان قد اشتد بالشيخ محمد الغزالي المرض حين تلقى دعوة لحضور ندوة مهرجان الجنادرية السنوي لبحث قضايا المسلمين، والذي كان يقام بالرياض بالمملكة العربية السعودية، ولم يكن يخطر بباله أن يسافر على هناك لأن صحته لا تسعفه، فكتب إلى الحضور معتذرا، رسالة قوية بليغة، وكان مما جاء فيها: " **الإخوة الملتقون لدراسة قضايا الإسلام وأحزانه، وكان لزاما علي أن أكون معكم ولكن السن والمرض أقعداني، فانا في التاسعة والسبعين وفي جسمي جملة من الأمراض تجعلني أكرر مع زكريا . عليه السلام**

---

[1] ذكريات من الجزائر، مرجع سابق، ص 148.

[2] الشيخ محمد الغزالي غصن باسق في شجرة الخلود، ص96.

[3] شيخنا الغزالي وصفحات من حياته، طه جابر العلواني، ضمن: إسلامية المعرفة ، مرجع سابق، ص10 وما بعدها

[4] المرجع نفسه ، ص 11، وقد طلبت من القائم بأعمال فرع المعهد العالمي بالزمالك بجمهورية مصر هذه اللقاءات والحوارات فأجاب بأنها قيد التهيئة والإعداد ولم تخرج للقراء بعد، وأنني سأكون أول من يطلع عليها بعد إخراجها، ومازلت أنتظر بعد مرور أكثر من سنة ولا جديد في الموضوع ولا أعلم سبب هذا البطء أو التباطؤ.

.: (قال رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبا).[1] والحق إنني لا أعيش في هذا القرن، بل أعيش كأن التتار قد دخلوا اليوم بغداد، وأن الصليبيين دخلوا بيت المقدس! إنني أعيش داخل الهزائم الكبرى التي بلي الإسلام بها قديما وحديثا، وأشعر باستماتة المدافعين واستكانة اللاجئين.. أنني . أيها الإخوة . لم أفاجأ بالضغائن التي تقابل الإسلام لأني أدرك قول الله تعالى :(ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا)[2].. أيها الإخوة إنني أدعوا الله لكم أن يسدد الخطى ويتقبل الجهود، واعتقادي أن فجرا قريبا سوف يطلع على المجاهدين يقر عيونهم، (والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون).[3]"[4]

لم يشأ الشيخ الغزالي أن يسافر، لكن صوت القدر كان أقوى "فقد كان هناك شيء يدفعه وكأنه يناديه لقبول هذه الدعوة "[5].. اعتذر الشيخ، ثم كان بينه وبين الحضور مكلمات هاتفية، تبادل فيها معهم المقترحات، ولما استعسر الأمر أبى إلا أن يسافر بنفسه مضطرا وهو عليل.[6]

كان الله تعالى قد هيا له مقامه بالبقيع مع خيرة أصحاب رسول الله وخيرة أئمة المسلمين.. وهكذا سافر سفره الأخير إلى الرياض، وفي اليوم الرابع من أعمال هذا المهرجان، وخلال استعداده للتعقيب على إحدى المحاضرات، جاء قضاء الله بقبض روحه الطاهرة حيث أصيب بنوبة قلبية نقل على إثرها إلى المستشفى، أين لفظ أنفاسه الأخيرة، وصعدت روحه الطيبة إلى بارئها . عز وجل . مساء يوم السبت من مارس سنة 1996م، ثم نقل جثمانه إلى المدينة المنورة حيث دفن في مقبرة البقيع.. وقبره في موضع متميز

---

[1] مريم ،4.
[2] البقرة ، 217.
[3] يوسف ، 21 .
[4] رسالة الشيخ محمد الغزالي إلى ندوة الجنادرية، ضمن: مذكرات الشيخ محمد الغزالي، قصة حياة، ص 129-130.
[5] الشيخ محمد الغزالي،تاريخه وجهوده وآراؤه،عبد الحليم عويس، ص14.
[6] مذكرات الشيخ الغزالي قصة حياة، ص 129.

قريب جدا من قبر الإمام مالك، بينه وبين قبر الإمام نافع أحد القراء السبع . رضي الله عنهم جميعا . [1].

وقد وصف أحد الشهود اللحظات الأخيرة في حياة الشيخ العلامة وكان يجلس في الصفوف الأولى لا تفصله عن الشيخ الغزالي سوى خطوات، وقد رأى أن الشيخ كان قبل دقائق من الحدث يرفع رأسه ويخفضه، فظن أنه يتحدث مع أحد الجالسين خلفه، لكن تبين أنه كان . رحمه الله . يقاوم الآلام فقد شهق وأصيب بإغماءة هب على إثرها الجميع نحوه.. ومرة الثواني بطيئة على الحضور من شدة الدهشة، إلى أن طلب أحدهم طبيبا ما في القاعة، ومن قبيل المصادفة كان هناك مجموعة أطباء وتجمع الحضور حول الشيخ في هلع وترقب "**وهو مسجى في دائرة طوقها أربعة أطباء في محاولات يائسة بذلوا خلالها أقصى ما يمكن من الإسعافات الأولية، تنفس صناعي وتدليك متواصل لعضلة القلب، ولكن حشرجة الموت كانت واضحة أمام العيان..**"[2] كما ذكر من وصفوا اللحظات الأخيرة في حياة الشيخ انه كان سمع في هذه المحاضرة الأخيرة ما أثار حفيظته وطلب التعقيب، ثم كرر الطلب، فاستمهله رئيس الجلسة إلى أن ينتهي كلام المتحدث، وانتظر الشيخ وكان الانتظار شاقا عليه، ولم يتحمل شدة ما كان يسمع فسقط صريع الأزمة القلبية.. مات رحمه الله متأثرا بغضبه للإسلام وحريصا على الذب عنه والرد على ما رآه نيلا منه أو من تاريخ أبنائه.. فرزق الشهادة في ميدان معركة خاض غمارها عمره كله، شاهرا قلمه وبيانه في سبيل الله.[3]

ولقد كان إكرام الله للشيخ الغزالي عظيما، فأقصى ما كان يتمناه: "**أن يدفن بجوار الإمام الشافعي في القاهرة، لأنه . وهو الحنفي مذهبا . كان يكن كل التعظيم والإجلال للأئمة الأربعة، ولم تكن أحلام الغزالي وهو في القاهرة تصل به إلى أن يحلم بأن يدفن**

---

[1] وأخيرا هوى النجم، يوسف القرضاوي، ضمن كتاب الشيخ محمد الغزالي ، حياة وآثار شهادات ومواقف ، نصر الدين العرابة، دار الأمة، الجزائر، ط1، 1998م،ص12.

[2] انظر : الشيخ محمد الغزالي غصن باسق في شجرة الخلود، ص 103، نقله عن: لمسة وفاء إلى الإمام محمد الغزالي، عبد الرحمان العدوي، ص 22-23.

[3] الشيخ الغزالي والموت على المنبر، محمد سليم العوا، ضمن: مذكرات الشيخ محمد الغزالي قصة حياة ، ص 130.

في البقيع.. لقد أراد أمرا وأراد الله أمرا آخر.."[1] وكان ما أراده الله لأديب الدعوة أن يكون شهيد الدعوة أيضا، فيدفن في مقبرة الشهداء الذين أخلصوا دينهم لله.. وكأنه صحابي تسلل إلى زماننا فردته الأقدار إلى مقامه مع أصحاب رسول الله . صلى الله عليه وسلم . الذين عاش معهم بوجدانه طول عمره..

ثم إن الأقدار قد هيأت الأسباب ليكرم الشيخ بعد وفاته، فسخر الله السلطات في السعودية . وقد كان بعض الناس قد أساء إلى الشيخ فيها . أن تقوم بالواجب كاملا، و"**شاءت حكمة الله تعالى أن يرد إليه اعتباره، وأن تعيش المملكة كلها لحظات حب واهتمام بالغين.. عندما قضى الله أمره وفاضت روح الشيخ الغزالي في الرياض.. وتحركت طائرة ملكية على القاهرة تحمل إلى السعودية أسرته الكريمة، ثم تحركت طائرة ملكية أخرى تحمله إلى البقيع ليدفن مع طليعة خير أمة أخرجت للناس.."**[2] من حرك كل هذه الأجهزة لتفعل ما فعلت.. لا يسع المرء وهو يتأمل اللحظات الأخير من حياة الشيخ الغزالي إلا أن يقر بأنه كان من أهل الله وخاصته فحرك الله له الأسباب ليكرم تكريم الملوك وهو الذي عاش منكرا لذاته حانيا على عباد الله الضعفاء فرحم الله الشيخ الغزالي رحمة واسعة..

رحل الشيخ الغزالي بعد أن أنجب تسعة أولاد يحيا منهم ولدان . ضياء (مهندس) وعلاء (دكتور) . وخمس سيدات.[3]

---

[1] الشيخ محمد الغزالي، تاريخه وجهوده وآراؤه،عبد الحليم عويس، ص14.

[2] المرجع السابق، ص15.

[3] موقف الغزالي من قضية التخلف الحضاري عند المسلمين ، ماجستير(غير منشورة) ، مكتبة كلية الدعوة بالأزهر، القاهرة، ص 04.

المطلب الثاني

صفات الشيخ الغزالي ومنافقه

1. الصفات التي تميز بها الشيخ الغزالي رحمه الله:

الشيخ الغزالي شخصية عظيمة، اجتمع فيها ما تفرق في غيرها من الصفات الحسنة، لقد اصطفاه الله تعالى لحمل أمانة الدين فكان رجلا في أمة، أجلّه وقدّره كل من اقترب منه أو عرفه أو قرأ له أو تتلمذ عليه.

إن الشيخ مصلح ديني واجتماعي بكل ما تحمل هذه الكلمة من المعاني، إذ المصلحون هم الذين يحركون المجتمعات لأجل تغيير الأوضاع الرديئة، ويستقطبون حولهم جماهير الأمة وقادتها أينما حلوا.. والشيخ الغزالي كان كذلك.. كان لا ينزل موطنا إلا وترك عليه بصمة من بصماته، وكانت ضريبة نشاطه في مصر أن هجّر إلى السعودية، ثم إلى الجزائر، وكان قدره في الجزائر أن يبعث الصحوة بعد فتور.. وشخصية كهذه لابد أن تكون شخصية قيادية، فصفة الغزالي هي صفات القادة الكبار الذين يحنون على أممهم ويقودونها نحو البر والغلبة..

تحدث أحد تلامذة الشيخ الغزالي عن مفتاح شخصيته فرآها مجموعة مركبة متكاملة من الصفات "**يأتي في أولها الصدق والشجاعة والإباء واستقامة التفكير، والتواضع وإيثار الحق على غيره، مهما كان الثمن، وكراهية الظلم وطلب العدل والإنصاف والجهاد من اجل تحرير الأمة أفرادا وجماعات من ربقة الذل والاستبداد..**"[1]

وقد رد أحد الباحثين هذه الصفات إلى صفة جامعة كان يعرف الشيخ الغزالي بها وهي عشقه للحرية[2] كما رأى الشيخ القرضاوي أن الغزالي رجل الدعوة في المقام الأول،

---

[1] الجوانب النفسية والخلقية للشيخ الغزالي، أحمد العسال، ضمن:العطاء الفكري للشيخ محمد الغزالي، مرجع سابق، ص 27.

[2] الشيخ محمد الغزالي، حياته وعصره وأبرز من تأثر بهم، رمضان خميس الغريب، دار الحرم للتراث، القاهرة، ط1، 2003م، ص27.

وأن صفة الداعية هي ألصق صفة به[1] ويرى الدكتور عبد الحليم عويس أن مفتاح شخصية الشيخ الغزالي هو القرآن الكريم..[2]

والواقع أن هذه الأقوال التي تحاول وصف المفتاح الذي تنفتح به مغاليق شخصية الغزالي القوية، ليست متباينة كما يظن لأول وهلة.

إن دراسة حياة الشيخ الغزالي تظهر فعلا عشقه الكبير للحرية وتفاعله الشديد مع القرآن الكريم، وإفناء حياته في سبيل الدعوة، إلى الله، وهذه الحلقات من الصفات لا بد أن تكون مترابطة لمن اخلص حياته . دينه ودنياه . لله رب العالمين..

إن القرآن الكريم هو من علّم الشيخ الغزالي أن يتحرر من الخوف، إلا من خوف الله تعالى. علّمه كيف يقف في وجه الظلمة، وكيف يقول كلمة الحق.

إن الحرية التي يعشقها الشيخ الغزالي ولا يتنازل عنها، هي حرية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حرية تنبثق من حب الله وطاعة رسوله وليست تمردا على أحكام الله.. فالحرية الغزالية . إذا جاز التعبير . هي الحرية التي صنعها الوحي وتدور في فلك المضامين الإصلاحية للقرآن الكريم..

إن تشبع الشيخ الغزالي بالتحرر القرآني هو ما جعله ينطق كالجواد الحر في ساحات الكون الرحب يبلغ عن الله كلمته ومبادئ دينه إنه بهذا التحرر القرآني لن يكون سوى الداعية الذي يقضي حياته في سبيل تبليغ كلمة الله.. والوصف الجامع لشخصية الشيخ الغزالي **أنه داعية الإسلام الذي تحرر بالقرآن فنهض يبعث الحياة في أمة طال بها الرقاد بينما راية الحق بين يديها.**

وقد أهلته لاكتساب هذه الشخصية الفذة، صفات نفسية اكتسبها من البيت الذي تربى فيه، ومن البيئة التي نشأ فيها[3] ولقد تفاعلت هذه الصفات مع ما آتاه الله من إرادة قوية وما فتح به عليه من جهاد مستمر، وقد: "**استطاع بعقليته الهاضمة المستوعبة،**

---

[1] الغزالي رجل الدعوة، يوسف القرضاوي، ضمن:العطاء الفكري للشيخ محمد الغزالي، ص 210
[2] الشيخ محمد الغزالي، تاريخه وجهوده وآراؤه، ص 27.
[3] الجوانب النفسية والخلقية للشيخ الغزالي، أحمد العسال، مرجع سابق ص 28.

وبيانه الأخاذ، وجرأته وشجاعته وصدقه، أن يعبر عن قيم الإسلام ومقاصده الكلية ومشروعه الحضاري، بحيث أصبح إماما يؤخذ عنه و يقتدى به."[1]

ولا يسبقنَّ إلى الذهن بأن صلابة الشيخ في الحق كانت قسوة أو حدة.. كلا إنه يؤكد بأنه يتميز بحرارة العاطفة ولكنه أبعد الناس عن قسوة القلب وحدة الطبع،[2] إنه مع ما يتميز به من: "**الحمية والشجاعة والغيرة، كان يحمل قلبا وديعا مخبتا إلى ربه ، منيبا إليه ، ذا خشية وتضرع .. فظهرت هذه الأخلاق في حياته حبا وحنانا وخفضا للجناح، ورحمة بالفقراء والمساكين، وكان جوادا كريما بعيدا عن أثرة المادة وطغيانها."**[3]

يقول الشيخ القرضاوي: "**عرفت الشيخ الإمام منذ نحو نصف قرن فعرت فيه العقل الذكي ،والقلب النقي، والخلق الرضي ، والعزم الأبي والأنف الحمي .**

عرفت الغزالي فما عرفت إلا الصدق والإيمان، والسداد في القول، والإخلاص في العمل، والرشد في الفكر، والطهارة في الخلق، والشجاعة في الحق ، والمعاداة للباطل والثبات في الدعوة، والمحبة للخير ،والغيرة على الدين، والحرص على العدل، والبغض للظلم، والوقوف مع المستضعفين، والمنازلة للجبابرة المستكبرين مهما أوتوا من قوة."[4]

ويصفه كذلك بقوله: "**وجدنا الشيخ الذي يشتد ويحتد في نزاله الفكري، فيهدر كالموج ويقصف كالرعد، ويزأر كالليث، حتى إنك لتحسبه في بعض ما يكتب مقاتلا في معركة لا مجادلا في قضية، وتحسب القلم الذي في يده السيف أو الرمح في يد ابن الوليد !وجدناه . عن كثب . إنسانا رقيق القلب، قريب الدمعة، نقي السريرة ،صافي الروح، حلو المعشر، رضي الخلق، باسم الثغر، موطأ الأكناف.. سريع النكتة، بسيطا متواضعا.. تسبق العبرة إلى عينيه إذا سمع أو رأى موقفا إنسانيا، ويهتز خشوعا وتأثرا إذا ذكر الله والدار الآخرة.. لا يحسد ولا يحقد.. يقول بصراحة: لا أحب أن أتسلط على أحد ولا أن يتسلط علي أحد."**[5]

---

[1] المرجع نفسه، ص 28.

[2] حوار مع الشيخ الغزالي، عبد الحليم عويس، مجلة الفيصل، مرجع سابق، ص 9 .

[3] العطاء الفكري للشيخ الغزالي ص30.

[4] الشيخ محمد الغزالي حياة وآثار، شهادات ومواقف ص12 .

[5] الشيخ الغزالي كما عرفته رحلة نصف قرن، ص19.

وربما تخالف الشيخ الغزالي أو يخالفك في قضايا تصغر أو تكبر وتقل أو تكثر و لكنك – إن عرفته حق المعرفة – لا تستطيع إلا أن تحبه ،وتقدره لما تحسه فيه و تلمسه من إخلاص و تجرد للحق و استقامة في الاتجاه وغيرة صادقة على الإسلام[1].

وربما أخذ البعض على الشيخ سرعة غضبه،لأنه إذا غضب "**هاج كالبحر حتى يغرق، وثار كالبركان حتى يحرق، وهذا لا يجحده الشيخ الغزالي وما يعلمه من نفسه.. والسر في هذا أن الرجل يبغض الظلم و الهوان لنفسه و للناس.. لكن يكمل هذا أن الشيخ لا يفجر في خصومه، ولا يفتري على خصمه، أو يتمنى له السوء ، أو يشمت به إذا نزل به بلاء ، وهو سريع الفيء رجاع إلى الحق إذا تبين له ، لا يبالي أن يعلن خطأه على الناس .. وهذه شجاعة لا تتوافر إلا للقليل النادر**"[2].

وإذا جئنا نفصّل في بعض صفات الشيخ الغزالي وخصاله وجدنا أنه:

كان مشغول القلب و اللب بحب الله و رسوله و كتابه :قال عنه الشيخ القرضاوي إنه لا يعد من المتصوفة و لكن أشهد أنه أقرب إلى الله من كثير من الذين يزعمون بأنفسهم أنهم أصحاب الأحوال و المقامات ، إنها تقوى القلوب و ليست دعوى الألسنة، و لا بريق المظاهر و لا حمل الألقاب ، إنه بتحدث عن الله حديث المحب الواله لا حديث الناسك المحترف.. و من قريب رأيته وقد غلبته الدموع يتحدث عن كلمة التوحيد [لا إله إلا الله] يقول : إني أحب هذه الكلمة أود أن أقبلها،أبثها حبي و شوقي وولهي .. وإذا اقتربت من الغزالي وجدته ملء إهابه رجلا عميق الربانية ، دافق الروحانية ، عامر القلب بخشية الله تعالى ،غزير الدموع إذا تذكر الآخرة ، دائم التلاوة لكتاب الله ، عميق الحب لله ، عميق الحب لرسوله – صلى الله عليه و سلم – كما يتبين ذلك من مجموع كتبه ومن كتابه :" فن الذكر و الدعاء عند خاتم الأنبياء" [3] .

كان الشيخ رجلا بكاء و لم يكن جاف الدمع، كان يبكي في محاضراته التي تتحدث عن أوضاع المسلمين المتدهورة، و حدث أن كان يقرأ دعاء الرسول صلى الله

---

[1] الغزلي رجل الدعوة، ضمن: العطاء الفكري للشيخ الغزالي، ص 220.

[2] المرجع نفسه، ص 220-221.

[3] الغزالي كما عرفته رحلة نصف قرن، ص101-102.

عليه و سلم عندما لاقى الويلات بالطائف "اللهم إليك أشكو ضعف قوتي و قلة حيلتي و هواني على الناس .. "فانفجر بالبكاء و أبكى معه طلبته الجزائريين.[1]

لقد كان للشيخ الغزالي مع الله ومع كلامه أحوالا تدفعه للبكاء خشية لله وحبا فيه حين يتلو كتابه ، أو يتلى أمامه . أو يتحدث عن رسول الإسلام محمد- عيه الصلاة و السلام – فيغلبه الدمع و يفضح أشواقه.. لقد كان من "**أهل القرآن ملأ عليه القرآن وجدانه فظهر ذلك في صوته ودمع عينه، وخلقه مع ربه و مع الناس.**"[2]

ولم يختلف اثنان ممن كتبوا عن حياة الشيخ بأنه كان يمتاز " **بالحب و الوفاء لربه و لنبيه ودينه وأمته ورفاقه وتلامذته ، يساعده على ذلك قلب كبير نقي من الغل والحقد والحسد والبغضاء والكراهية ،خالص للإيمان و الحب و الوفاء.** "[3]

كما كان يمتاز بالاعتدال والسماحة، اللذان ينبهان إلى الفهم الدقيق لوسيطة الإسلام، والغيرة الصادقة على الأمة القطب التي انتمى إليها بعقله و قلبه ووجدانه.. غيرة صادقة على دينها وأرضها و عرضها، فضلا عن أنه تميز بنباهة فائقة في القدرة النقدية، والطاقة العقلية والمعرفة المتنوعة الواسعة، والذكاء الخارق اللَّماح، الطاقة المتجددة المتطلعة – على الدوام – إلى معرفة الجديد و المزيد..[4].

إن الذي يستوقفك حقا في شخصية الشيخ الغزالي أنك رغم كل هذه الجدية التي تمتع بها ، تجده ذا روح مرحة وميل كبير إلى النكتة، فهو صاحب ملح وطرفة و نكتة.. لا يحب التزمت و التكلف وإماتة الدين بالطباع الجافة أو العابسة، فابتسامته لا تفارقه، وأحيانا وفي قضايا شائكة تجده يجيب بأسلوب ساخر، لقد سئل مرة هل الإنسان مسير أم مخير ؟ فأجاب :الإنسان في الغرب مخير أما عندنا فهو مسير![5]

كان يستصحب الطرفة في حواراته – رحمه الله – و قد سئل يوما عن زواج الجني بالإنسية، فأجاب: "لم يرد لا في كتاب و لا في سنة أن جنيا تزوج بإنسية.. بل الذي ورد

---

[1] جريدة الشروق العربي، عدد259، الأسبوع 23-30أفريل 1996.
[2] الجوانب النفسية والخلقية للشيخ الغزالي، ضمن: العطاء الفكري للشيخ الغزالي، ص33.
[3] إسلامية المعرفة، مرجع سابق ص5.
[4] المرجع نفسه ، ص5.
[5] العطاء الفكري للشيخ الغزالي، ص216

في القرآن (**إنه يراكم هو و قبيله من حيث لا ترونهم**).. [1] فإذا كان الجنسان لا يتراءيان فكيف يتزوجان، ولماذا لا نتصور زواج فيلة بجرو؟ أو ثور بسمكة؟ هذه أجناس مختلفة فما يجمع بينها ؟ أيها المنكح ثريا سهيلا * عمرك الله كيف يجتمعان.[2]

وفي مواقف محرجة تجده يضحك ملء فمه حتى تظهر نواجذه ، فعندنا بلغت شهرة السيدة زينب الغزالي الجزائر وتساءل كثيرون عن إمكانية أن تكون لها علاقة عائلية مع الشيخ ، وكان الشيخ الغزالي يحاضر عندما رفع أحدهم أصبعه و سأله عن العلاقة التي تربطه بالسيدة الجليلة زينب الغزالي فضحك بشدة واتكأ من شدة الضحك بظهره على الأريكة وقال للسائل " إنها صديقتي " و عندما انفجر المدرج بالضحك ، تدارك الموقف و قال : " صديقتي و أختي في الدعوة الإسلامية."[3]

كما حضر مرة حفل قراءة فاتحة زواج في مسجد بالجزائر، فاندهش لشغور المسجد من النساء، فطالب بإحضارهن مستشهدا بسيرة الرسول – صلى الله عليه وسلم – ،ثم خاطب الرجال قائلا : ربما بعد الصلاة إذا سلم أحدكم عن يساره لمح فتاة فأعجبته، فقرأنا له الفاتحة الآن ،وبينما انفجر الحضور بالضحك أكمل ضاحكا: إياكم أن تلتفتوا جهة البنات..![4] وطرفة الغزالي كانت أحيانا بمثابة الأسلوب الذي يوصل به المعلومة أو النصيحة بصورة لطيفة، وأحيانا كان من نوع الضحك الذي هو أمرُّ من البكاء، وأحيانا كان من قبيل غلبة الطبع، والعفوية الفطرية البريئة.. ومع هذه الروح المرحة كان الشيخ الغزالي رجل المواقف بحق، إذا جدَّ جدُّ القوم.

المطلب الثالث

الشيخ الغزالي رجل المواقف

إن ما لا يخطئه أحد عرض لدراسة حياة الشيخ محمد الغزالي أنه من العلماء العاملين أصحاب المواقف الجادة العظيمة، فهو يسعى للتحرك دائما في الاتجاه الذي

---

[1] سورة الأعراف، 27.

[2] الشيخ محمد الغزالي، حياة وآثار شهادات ومواقف، ص153.

[3] المرجع السابق ص150.

[4] نفسه ص 149.

يؤمن به، فكتبه تساوي عاطفته، وفكره يساوي سلوكه، وإيمانه يساوي مواقفه.. لذا فإنه كان يمتلك إرادة لا تفتر، وعزيمة لا تلين، ونشاطا لا يخبو.. و حتى حينما تقدمت به السن، كان يقف كالأسد الزؤور حين يمس الإسلام أو رجاله وتاريخه بسوء، حتى رزقه الله الشهادة وهو على تلك الحال.

وقف الشيخ محمد الغزالي – مبكرا – مع المظلومين اقتصاديا من الطبقة الكادحة، فكتب مؤلفه "**الإسلام و الأوضاع الاقتصادية**" وهو أول كتاب ألفه في حياته يعلن فيه رفضه لأوضاع شاذة ظالمة من الحياة تنعدم فيها العدالة الاجتماعية، وفي نفس السياق كتب عن **الإسلام والمناهج الاشتراكية.**

كما وقف مبكرا أيضا ضد من كمموا أفواه الناس وسلبوهم إرادتهم السياسية وحكموهم بالحديد والنار، فكتب" **الإسلام و الاستبداد السياسي**" الذي حمل فيه على الطغاة في القديم والحديث

وجاءت مجموعة من كتبه محصلة لمواقفه مع قضايا الإسلام في معركته ضد الضعف الداخلي للأمة الإسلامية، حيث قام يصد عن الإسلام من يشوه صورته ويسيء فهمه من أصدقاء، فكتب في ذلك كتابه "**من هنا نعلم**" الذي رد فيه على الأستاذ خالد محمد خالد **من هنا نبدأ.**

كما جاءت مجموعة من كتبه تعبر عن موقفه بخصوص ما أصاب الإسلام وأهله من خارج دائرته، من حقد صليبي أو همجية صهيونية أو مؤامرات غربية واستعمارية عالمية، فكتب: "**ظلام من الغرب** "، "**الغزو الثقافي يمتد في فراغنا**" **الاستعمار أحقاد وأطماع، دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين** وغيرها..

إن كتب الشيخ كانت سهاما يخرجها من كنانته ويقذف بها على الباطل فيدمغه، وحياته كانت مليئة بالمواقف العظيمة التي لا يطيقها إلا الرجال العظماء.. ويكفي أن أعرض بعضها مما يدل على شخصية الشيخ الصلبة في الحق ، ويغني عن ذكر غيرها..

سبقت الإشارة إلى وقوف الشيخ كشوكة في حلق العلمانيين والشيوعيين سنة 1962 م في المؤتمر الوطني للقوى الشعبية حتى تعرض للاستهزاء وكيف خرجت

الجماهير تحمله على أكتافها عقب خطبته الجمعة بالأزهر، تنتصر له ولقيم الإسلام، حتى خرج الشيخ منتصرا.. كما سبقت الإشارة أيضا إلى وقوفه بقوة وعزم ضد قانون جيهان السادات لتغيير قوانين الأحوال الشخصية والنأي بها بعيدا عن الشريعة الإسلامية، في محاولة لتحطيم قلعة الأسرة المسلمة، معلنا موقفه الرافض من فوق منبر جامع عمرو بن العاص على رأس أكثر من ثلاثين ألفا من المصلين، حتى تراجعت السلطة عن قرارها وانتصر الشيخ بتوفيق من الله..

ومن مواقفه . رحمه الله . إسهامه في حرب 1973م برفع معنويات الجنود في ميادين القتال، إذ كان ينتقل بين الجيوب والخنادق مع المقاتلين المؤمنين يعظ ويحرض على القتال، ويتحدث عن ذلك فيقول: "**خرجت من تحت الأرض ومشاعري تغلي، وكان الجنود الذين يصحبونني يحسبون أني أضع قدمي حيث لا أدري، وأني أتعثر في ليل ليس فيه بصيص نور ، وصحراء متماوجة الكثبان، وبلغت السيارة، وعدت على القاهرة تاركا خلفي أرضا ملئ برجال نفد صبرهم يريدون إنهاء هذه الحال بأي ثمن.**"[1] ولقد كان الشيخ حاضرا حيثما حضر الجهاد يحث المؤمنين . من عرب وعجم . على رفع المذلة عن أنفسهم والمهانة عن أمتهم، حتى إنه في حرب الإبادة التي قادها الصرب ضد البوسنيين المسلمين سافر بنفسه إلى البوسنة والهرسك لنصرة المسلمين هناك.

ومن مواقفه المشهودة في الجزائر موقفه في إحدى ملتقيات الفكر الإسلامي أواخر الثمانينيات، عندما وقف الداعية والدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، يتحدث عن ضرورة اشتغال الدعاة بالتربية والتوجيه، وترك السياسة لأربابها، يكفي الحكام والساسة ما يعانون من متاعب الحكم وآفات السياسة، إلى آخر ما قاله مما أثار الحاضرين في الملتقى وكان الرئيس الشاذلي بن جديد حاضرا وشعر المشاركون بالحرج، ولم يتكلم أحد حتى استلم الشيخ الغزالي الكلمة وخطّأ صديقه وقال إن العالم المسلم لا يسعه أن يسكت

[1] هموم داعية ، محمد الغزالي، نهضة مصر، ط4، 2003م، ص110.

عن باطل أو يغمض عن ظلم أو يتغاضى عن المنكرات من حوله وأكرها تعطيل الحكم بما أنزل الله..الخ وبذلك وضع الشيخ الحق في نصابه واستراح الجميع لتعليق الشيخ[1]

هكذا كان الشيخ العلامة محمد الغزالي . رحمه الله . رجل مواقف، قد صدق ما عاهد الله عليه، عاش لدينه ولم يعش لنفسه، فكان لا يعبأ بأحد حين يكون من واجبه أن يقول كلمة الحق أو يقف موقف الحق متوكلا على الله وحده ولا يخاف فيه لومة لائم، إن الشيخ الغزالي صناعة قرآنية بامتياز.

المبحث الثاني

فقه القرآن الكريم عند الشيخ الغزالي

أجمع الباحثون والمتتلمذون على يد الشيخ محمد الغزالي أنه **رجل القرآن الكريم** في المقام الأول كما هو رجل الدعوة والرسالة والتضحية من أجل قيم الدين وحقائقه، عاش رحمه الله في رحاب القرآن محبا حافظا، تاليا متدبرا، مجاهدا عاملا.. ومن يريد فهم رؤية

[1] الشيخ الغزالي كما عرفته رحلة نصف قرن، ص 338-339.

الشيخ الغزالي لحقائق الإسلام وواقع المسلمين، وفلسفته في الكون والحياة والإنسان وكل القضايا الكلية والجزئية التي طرقها وعالجها، فالمدخل الطبيعي هو معرفة **منهج الشيخ في التعامل مع القرآن الكريم.**

الشيخ الغزالي في دفاعه وهجومه وفي وعظه ومؤلفاته ومقالاته.. وفي مذهبه العقدي أو اختياراته الفقهية، وفي فهمه للسنة ومعالجته لقضايا المرأة والشورى والعدالة الاجتماعية وغير ذلك من القضايا.. يصدر عن القرآن الكريم ويتصرف بتوجيه من آي الذكر الحكيم، ومن فاته فقه الشيخ للقرآن فسيظل محروما من الغوص في أعماق الفكر الذي عالج به . رحمه الله . هذه القضايا..

وحسن دراسة التحام الشيخ بالقرآن حفظا وتلاوة ثم فهما وتمثّلا، ثم دعوة وعطاء واجتهادا في فهم التنزيل له غايات ثابتة ومعالم واضحة ونتائج طيبة وثمرات جنية، فهو حري بأن يعرف ويشرح ويستفاد منه وهو ما خصصت له الفصل الأخير، أما في مطالب هذا المبحث فقد ألقيت الضوء على جوانب مهمة من فقه الغزالي للقرآن واهتمامه به سواء من جهة الحفظ أو من جهة الفهم والتدبر وهو الأهم.

المطلب الأول

مع القرآن حفظا وتلاوة

قصة الغزالي مع القرآن بدأت مع المنشأ الطيب ومحضن الأسرة التي تربى في حضنها، والتي كانت تحتفي بالقرآن وتحث ابنها على حفظه وتوقيره، والغزالي بدوره كان أهلا لذلك فتخطى الشيخ كل العقبات في سبيل حفظ القرآن ثم دراسة علوم الدين.

حفظ القرآن حفظا متقنا بعد أن كاد يند عنه، فكانت "**صلة الشيخ الغزالي بالقرآن صلة مباشرة.. وظل طوال عمره ينهل من القرآن في أيامه، فتشعر كأن الآية مصباح يضيء كلامه**"[1] ويتحدث الشيخ بنفسه عن هذه الصلة الدائمة يقول:"**كنت أتدرب على إجادة الحفظ بالتلاوة في غدوي ورواحي وأختم القرآن في تتابع صلواتي وأثناء سيري في الطريق، وقبل نومي وفي وحدتي، وأذكر أني ختمته أثناء اعتقالي، فقد كان القرآن مؤنسا في تلك الوحدة الموحشة**"[2]

صلة الغزالي بالقرآن حفظا وتلاوة صلة الحبيب بمحبوبه لا يفارقه، يدل على ذلك شهادة من كانوا قريبين منه، فالشيخ القرضاوي يصف هذه العلاقة فيقول:"**كان الشيخ الغزالي يصلي بنا في سجن الطور يقرأ القرآن الذي يحفظه عن ظهر قلب حفظا جيدا، وكان يقرأ ختمتين، ختمة يقرأها في صلاة التراويح، وثانية يقرأها باستمرار في الصلوات الأخرى، وربما أكثر من ختمة، وهو يقرأ باستمرار في الصلوات العادية من حيث انتهى.. وهكذا إلى أن تنتهي الختمة ثم تعود من جديد.**"[3] وقد بلغ شغف الشيخ بالقرآن أنه كان يذهب مبكرا إلى مقر عمله حين عمل في وزارة الأوقاف المصرية ليسمع القرآن ويقرأه على يد أحد المقرئين ويتأكد من حفظه الجيد وتلاوته الصحيحة،[4] هكذا صارت للشيخ الغزالي حال دائمة مع القرآن تلاوة وحفظا استمر عليها إلى آخر عمره ولم يكن صلته . رحمه الله . بكتاب الله صلة شكلية لا تتعدى الحفظ والتلاوة أو تعتبرهما غاية وهدفا . وما أكثر من لا تتجاوز صلتهم بالقرآن هذا الحد . .. كلا، بل كان يلوم الأمة على التقصير في فقه الكتاب وقد ترك اجتهادا عميقا بهذا الخصوص ومن أجل استبانة معالم هذا الفقه وعناوينه الكبرى، لا بد من تحليل فقه الغزالي للقرآن وحديثه عنه من مختلف الجوانب.

المطلب الثاني

مع القرآن فقها وتدبرا

[1] الشيخ محمد الغزالي، تاريخه وجهوده وآراؤه، ص27.
[2] العطاء الفكري للشيخ الغزالي، محاضرة علاء الغزالي، ص 183.
[3] المرجع نفسه، محاضرة يوسف القرضاوي، ص209.
[4] المرجع نفسه، علاء الغزالي، ص 183.

القرآن الكريم هو معجزة الله الخالدة التي أيد بها خاتم أنبيائه محمد صلى الله عليه وسلم، اتصف بالخلود فكان هو الوحي النقي الباقي على وجه الثرى يهدي الخلق إلى الخالق، وكذلك بقاء الأمر إلى يوم الدين.. من أجل أن ينفض الشيخ الغزالي غبار الأوهام ويسدل حجب الجهل عن هذه الحقيقة الكبيرة ويقدمها واضحة المحتوى، قوية الدليل، ناصعة الصورة والأسلوب، يتحدث عن القرآن الكريم من جهات عدة: عن مصدرية القرآن ودليل ثبوته، وعن خلود المعجزة القرآنية بلا انتساخ ألفاظها أو معانيها، وعن علاقة القرآن بالسنة، وعن وظيفة القرآن في قيادة الأمة الإسلامية وحل مشكلاتها، وعن دوره في دعم السمو الإنساني وتثبيت الفطرة البشرية، وعن موقف الأمة المخزي . أيام تخلفها من القرآن الكريم . فجاء حديث الشيخ الغزالي عن القرآن حديث عارف متبصر مدمن للنظر في كتاب الله، بينه وبين القرآن دوام الصحبة وعمق الفهم.. ولإدراك هذه المعاني المجملة لابد من التفصيل في حديث الغزالي عن القرآن.

أولا: مصدر القرآن.. الثبوت المتيقن والمعاني العامة

يقرر الشيخ أن الوحي المنتسب يقينا إلى الله والذي يهدي العالم القديم والجديد إلى الحق ويخرج الناس من الظلمات إلى النور، هو هذا القرآن دون سواه، ولا ثقة بغير القرآن، هو وحده الذي لا ترتقي إليه شبهة ولا يختلط به قول بشر، وهو الذي استوعب كافة رسالات السماء وقدم للناس خلاصة ما فيها من هدي[1].

وليبرهن الشيخ على هذه الحقيقة يستدل بما سماه: الدليل التاريخي، والدليل الموضوعي، يعني بالدليل التاريخي الثبوت المتواتر للقرآن، وبالدليل الموضوعي النظر في معاني القرآن وألفاظه وما فيها من الكمال والإعجاز المعنوي واللغوي.

1. تواتر القرآن

---

[1] المحاور الخمسة للقرآن:المعلومات الكاملة محمد الغزالي، ص 5

يدلنا التاريخ أن القرآن ثابت بالتواتر حرفا حرفا بما يفيد القطع واليقين، فالنبي صلى الله عليه وسلم قد بنى دولة كان القرآن دستورها وأساس حكمها، وكان القرآن يتلى في رقعة تعادل نصف أوروبا في المساجد والخطب الأسبوعية والصلوات اليومية[1].

ويؤكد الشيخ في أكثر من مؤلف له على حقيقة ثبوت القرآن كله بالتواتر . وإن تكن هذه مسلمة عند المسلمين . بيد أن في تراثنا الإسلامي من الأقوال والمرويات ما يشوش على هذه الحقيقة ويسيء إلى معناها مع أن القرآن الكريم كما يقول الشيخ: "**حقيقة علمية ثابتة كالحقائق الكونية الدائمة فهو منذ بدأ لم يزد حرفا ولم ينقص**"[2]

بل إن العالم الكوني يفنى، والقرآن الكريم "سيظل في العالم الآخر باقيا يتلوه أهله على النحو الذي نزل به أمين الوحي لأول مرة[3]، كما جاء في الحديث "**يقال لقارئ القرآن اقرأ وارق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها**"[4].

إن النظر في تاريخ ثبوت القرآن يقطع كل شبهة في التشكيك في تواتره "**فالشواهد على صدقه تجيء سيلا غدقا**"[5]، لقد نقل أمين الوحي جبريل القرآن عن رب العالمين إلى محمد صلى الله عليه وسلم فتلقاه عن رسول الله بالمشافهة سيل من الناس على سبيل التواتر المستفيض ولم يحدث هذا النقل مرة واحدة ثم ينقطع، بل إن تكرار القراءة جعل تداول الوحي الأعلى أمرا مفروضا[6].

ويقرر الشيخ أن حفظ القرآن الذي تكفل الله به، قد هيأ القدر له أسبابا، فيذكر من هذه الأسباب:

. تذوق العرب للأدب العالي والكلام الفصيح فشغفهم بالعبارة البليغة الساحرة يفوق كل الظنون، وقد جعلهم يولعون بحفظ الألفاظ كما تجيء، ويستشهد لرأيه بما أورده صاحب الأمالي عن ابن عباس أنه استمع إلى الشاعر الشيطان عمرو بن أبي ربيعة في

---

[1]المصدر نفسه، ص 6

[2]نظرات في القرآن، محمد الغزالي، ص 22

[3]المصدر نفسه، ص22

[4]رواه الترمذي في سننه كتاب فضائل القرآن، ج2، ص734 وقال : حديث حسن صحيح. طبعة المكنز الإسلامي.

[5]نظرات في القرآن، محمد الغزالي، ص23

[6]المصدر نفسه، ص 23

قصيدة غزل تزيد على سبعين بيتا من الشعر فحفظها، فلما أتم الشاعر آخرها، قال ابن عباس إن شئت أعدتها عليك؟ فقيل له أوقد حفظتها؟ فقال: أومنكم من يسمع شيئا ولا يحفظه؟ هذا الاستغراب من ابن عباس دليل على أن قوة الحافظة كانت أمرا شائعا، وأمثال هذه القصة في تراثنا كثير..

. يضيف الشيخ إلى هذا السبب أن القرآن ظاهرة لغوية بديعة لم تنسج على منوال العرب في كلامهم فما هو بالشعر وما هو بالنثر، فما ظهر حتى بهر، فإذا امتزاج التقدير الأدبي بالإيمان الديني يجعل من القرآن الشغل الشاغل بالليل والنهار، فترك المؤمنون حفظ المنثور والمنظوم ليتجهوا صوب القرآن تلاوة وحفظا، يقول الغزالي "**إن معجزة الإسلام واءمت طباعهم كما يتواءم الحق وغطاؤه ومن ثم رأينا جيوشا بأسرها تتألف من أولئك الحفاظ الواعين**"[1]. يقصد بذلك العدد الكبير الذي شارك في حروب الردة حتى استحر فيهم القتل لأن الوعي بالقرآن كان يدفعهم للاستشهاد خاصة في موقعة اليمامة قوم مسيلمة الكذاب، الأمر الذي دفع عمر ابن الخطاب أن يشير على أبي بكر بجمع القرآن الكريم في مصحف[2].

. السبب الثالث الذي مهد لحفظ القرآن في نظر الشيخ الغزالي أن قداسة القرآن الكريم كانت تشمل الشكل والمضمون معا، "**فالشكل اعتبر جزءا من الموضوع، فألفاظ القرآن الكريم اعتبرت جزءا لا ينفصم عنه، وأصبحت قراءتها عبادة وأصبح مجرد ترديدها قربى إلى الله.. والتعلق بألفاظ القرآن قصد به تقوية السياج الذي يصون أحكام الوحي وتوجيهات السماء فلا تتعرض رسالة الإسلام للفوضى التي سقطت فيها الديانات السابقة**"[3]

وضمن حديث الشيخ عن تواتر القرآن يرى أن الأصل هو التواتر الشفهي عن طريق التلقي المستفيض لكن هذا النقل قد عضده طريق آخر هو الكتابة والتوثيق، إذ كان

---

[1] المصدر نفسه، ص26

[2] أنظر: موسوعة الخلفاء الراشدين، محمد رضا، المكتبة العصرية، بيروت، ط1، 2004م، ج1، ص124-125.

[3] نظرات في القرآن، ص26

للنبي صلى الله عليه وسلم كتبة يبادرون إلى كتابة الآيات حال نزولها، ثم إن "**القرآن المكتوب كان متداولا في دائرة رحبة وكان معروفا في كثير من البيوت التي يتقن أصحابها الكتابة، وقد شرعت له أحكام فقهية خاصة**"[1]، فما فارق النبي الكريم الدنيا إلا وكان القرآن محفوظا في صدور القراء وصحائف الكتبة، وأصبح القرآن "**روح شعب ومراسيم حكومة**" **لقد نزل القرآن كله وكتب كله وحفظ كله على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم**"[2]، بهذه القطعية وهذا الوضوح يتكلم الشيخ الغزالي عن ثبوت القرآن الكريم.

وكلام الشيخ هنا متفق مع ما هو مستيقن وما قرره القرآن نفسه من أن الله قد كفانا حفظ القرآن بما جمع من أسباب الحفظ التي لم تجتمع لأي كتاب، وخصه الله بالنقل المتواتر في جموع غفيرة من النبي إلى اليوم، وهذه الجموع كانت عربية ثم أخذت في الاتساع والتنوع، فرأينا من العجم من لا يحسن من العربية شيئا ويحفظ القرآن عن ظهر قلب[3] ، فتبين أن في القرآن خاصية تيسير الحفظ **(ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر)**[4]، واتسعت جماهير الحفاظ من المائات إلى الملايين، لتكون من جنود الله وأسبابه في الأرض التي تطبق قرارات السماء **(إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون)**[5].

ثم يقدم الشيخ قراءته أو فهمه لما حدث في عهد أبي بكر . رضي الله عنه . من جمع للقرآن، ويصف العمل الذي قام به زيد بن ثابت بأنه مجرد جمع للنصوص المتناثرة المكتوبة بأمر رسول الله، والتي يحتفظ بها أناس كثيرون لأنفسهم ثم تنسيق هذه الجذاذات والرقاع في ترتيب يوافق المحفوظ في صدور الرجال[6]، ثم لا تذكر الروايات أن زيدا ولا أبا بكر ولا عمر رجعوا إلى هذا المصحف ولو مرة إنه . يقول الغزالي . "**في نظري كوثائق**

---

[1] المصدر السابق، ص 29

[2] المصدر نفسه، ص32

[3] لقيت في مصر بعض الشباب الأتراك يحفظون القرآن وكان أحدهم يحفظه كله بإتقان، فلما حدثته تبين لي أنه لا يعرف من العربية أي كلمة، حتى كلمتا: نعم ولا علمته إياهما بعد جهد، فسبحان من حفظ كتابه ويسره للذكر.

[4] القمر، 15.

[5] الحجر، 9.

[6] نفسه، ص34

العهود التي تودع للحاجة أما حقيقتها الخارجية فليست محل جدل"[1]، ثم يقدم الشيخ تفسيرا للتردد الذي بدر من أبي بكر ثم زيد بن ثابت ابتداء في القيام بجمع القرآن ملخصه أن سر ذلك الموقف هو هيبة القرآن العظيم في أنفسهم مما جعلهم يرون أنفسهم دون مهمة جمعه بأنفسهم فالتردد "**يعود إلى غمطهم لأنفسهم لا إلى مشروعية هذا العمل**"[2].

قلت: ولعله فضلا عن استعظام هذه المسؤولية، الخشية من عدم القدرة على إتمام العمل على أكمل وأدق الوجوه، إذ لا مجال للخطأ في عمل يتعلق بالقرآن الكريم وإن كان مجرد جمع ونسخ، يدل على هذا قول زيد: **والله لو كلفني نقل جبل ما كان أثقل علي مما كلفني به من جمع القرآن**[3]، إن المرء تساوره خشية وشكوك حيال عمل كهذا، فماذا لو واجهتهم عقبات لا يتمكنون من تجاوزها؟ وماذا لو لم يجدوا كل ما كتب بأمر من رسول الله عليه الصلاة والسلام؟ المسؤولية تتعاظم كلما حدث ما لم يكن في الحسبان.

لكن توفيق الله كان حاضرا إذ التزم زيد بمنهجية صارمة فوجد كل القرآن كما أملاه رسول الله صلى الله عليه وسلم بشهادة عدلين أو ما يعدل شهادتهما.

وهكذا بقي مصحف أبي بكر لا يحتاج إليه أحد ولا يشعر بوجوده أحد، لأن القراء يتلون كتاب الله عن ظهر قلب في السلم وفي الحرب، بل إن عمر بن الخطاب منع الناس من الاشتغال بالسنة حتى لا ينشغلوا عن القرآن فكان يسمع لهم دوي كدوي النحل وهم يتلون القرآن ويفتحون البلدان،[4] وليس بين أيديهم مصاحف مكتوبة بل كانوا يعولون على قوة الحافظة التي تميزوا بها[5].

يتطرق الشيخ رحمه الله بعد ذلك إلى ما فعله عثمان من جمع الناس على لسان قريش في قراءة القرآن فيقول: " **وحسنا فعل عثمان فقد حسم بصنيعه هذا ما قد ينجم من**

---

[1]نظرات في القرآن، ص34

[2] نفسه، ص 34

[3]من رواية البخاري في صحيحه عن زيد بن ثابت - رضي الله عنه - سبق تخريجه

[4]نظرات في القرآن، ص 35

[5] قال صاحب التحرير والتنوير: "حسبك أن زيد بن ثابت حين كتب المصحف لأبي بكر لم يخالَف في ترتيب آي القرآن.. وليس لهم معتمد في ذلك إلا ما عرفوا به من قوة الحوافظ، ولم يكونوا يعتمدون على الكتابة، وإنما كان كتاب الوحي يكتبون ما نزل من القرآن بأمر من النبي صلى الله عليه وسلم، وذلك بتوقيف إلهي، ولعل حكمة الأمر بالكتابة أن يرجع إليها المسلمون عندما يحدث لهم شك أو نسيان، ولكن ذلك لم يقع"، المقدمة الثامنة، ص 79.

اختلاف في الحروف من منازعات وبيلة، وجَمْعُ الناس على وجه واحد صحيح أفضل من تركهم مختلفين بين عدة وجوه ولو صحت كلها"[1].

وخلاصة فهم الشيخ الغزالي لمسألة تواتر القرآن وجمعه: أن القرآن الكريم كان مجموعا في صدور الناس على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما فعله أبو بكر كان عملا احترازيا لدى الدولة، وأما عثمان فاقتصر صنيعه على حمل الناس على خير وجوه القراءة الصحيحة وهي لسان قريش. لكن رواية البخاري . كما يرى الشيخ . حملت إجمالا وغموضا فصلته وشرحته أحاديث أخرى صحيحة[2].

بعد ذلك يعرج الشيخ على بعض المرويات التي لا يفهم منها التواتر المستفيض كما سبق أن شرحه، ولا يتضح فيها اليقين القاطع بثبوت كل حرف من القرآن كما نقرؤه اليوم، ويعلق عليها بقوله: **"ليت شعري ما قيمة روايات الآحاد إذا خالفت من قريب أو من بعيد ما تواتر من روايات وبلغ حد اليقين؟"**[3].

ونحن نختار مثالين مما ذكره من هذه المرويات، ليظهر دفاع الشيخ عن تواتر القرآن حيال كل ما يشغب عليه، لاسيما وقد كانت أمثال تلك الروايات مادة خصبة يتناولها المستشرقون والمشككون في ثبوت القرآن، والشيخ يعتب على بعض أسلافنا الذين اشتغلوا بروايات الآحاد التي تخالف المتواتر، فشغلوا أنفسهم والناس بها، وكان الأولى . كما يرى . رفضها شكلا قبل الموضوع، فلا داعي لإثباتها ثم مناقشتها، إذ لا قيمة لها إلا تسويد الصحائف[4].

المثال الأول: روي عن ابن عباس أن قوله تعالى (لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا) أصلها تستأذنوا لكن الكاتب أخطأ؟؟، ويعلق على هذه الرواية بالقول:" **أقرأت هذا السخف؟ الآية التي تُليت في المحاريب والميادين وترددت في المجالس**

---

[1] المصدر السابق، ص36

[2] نفسه، ص 38-39

[3] نفسه، ص 39

[4] نفسه، ص39

والمدارس واستفاض حفظها بين الألوف يجيء مصنف مذهول فيروي عن ابن عباس هذه الخرافة؟[1]

المثال الثاني: ينقل الشيخ عن الإمام السيوطي في الإتقان ما رواه عن أبي داود عن أبي بن كعب: **قلت سميعا عليما عزيزا حكيما، ما لم تخلط آية عذاب برحمة أو رحمة بعذاب؟؟ وعند أحمد من حديث أبي هريرة أنزل القرآن على سبعة أحرف عليما حكيما غفورا رحيما؟؟ وعنده من حديث عمر بأن القرآن كله صواب ما لم تجعل مغفرة عذابا وعذابا مغفرة، قال: [يقصد الإمام أحمد] وأسانيدها جياد[2]؟؟**

يعلق الشيخ الغزالي:" **أقول وهذا كله كلام منكر وتخليط شديد ووصف هذه الأسانيد بالجياد لو كان صادقا ما دل على صحة هذه الأحاديث[3].**

يعجب الشيخ الغزالي في أكثر من موضع في مؤلفاته كيف تساهل العلماء في السماع لهذه الأحاديث ثم انشغلوا بإبطالها أو تأويلها، وذلك لشدة أثرها السلبي الذي يتمثل في التشويش على تواتر القرآن حرفا حرفا عن رب العالمين لدى قصار العقول ومشوشي الضمائر، كما تقدم مادة لعصابات المبشرين المتربصين بالإسلام وأهله، ويدعو الغزالي إلى غربلة تراثنا العلمي من مثل هذه الترهات[4].

ولتمام توضيح تواتر القرآن يتطرق الغزالي إلى المقارنة بين الطريق الذي ثبت به القرآن وما ثبت به غيره مما يدعي أصحابه بأنه وحي، من العهدين القديم والجديد، وعندما يستجمع الشيخ المعطيات الموضوعية يجد أن لا سبيل إلى هذه المقارنة، لأن الطريق

---

[1] نفسه، ص39

[2] أورد الإمام السيوطي في الإتقان في القول التاسع في معنى أنزل القرآن على سبعة أحرف، أن المراد سبعة أوجه من المعاني المتفقة بألفاظ مختلفة، قال أخرج أحمد والطبراني، عن ابن مسعود وأبي بن كعب قال: سميعا عليما عزيزا حكيما ما لم تخلط آية عذاب برحمة أو آية رحمة بعذاب. وذكر الحديث أيضا في مسند أحمد عن أبي هريرة وعن عمر بن الخطاب؟؟ ومن الغريب أن الشيخ الألباني صحح إسناد الحديث أيضا، ونقل السيوطي عن الطحاوي ـ وكأنما يعتذر عن هذه الأحاديث ـ قوله: إنما كان ذلك رخصة لما كان يتعسر على كثير منهم التلاوة بلفظ واحد لعدم علمهم بالكتابة والضبط وإتقان الحفظ، ثم نسخ بزوال العذر وتيسر الكتابة والحفظ. قال السيوطي: وكذا قال ابن عبد البر والباقلاني وأخرون.أقول: ومرة أخرى يتأكد لنا مع الشيخ الغزالي رحمه الله ضرورة تمحيص المرويات، وخطورة التساهل في روايتها، ثم اللجوء إلى القول بالنسخ بلا دليل فالأولى أن تكون شاذة لمخالفتها المتواتر، أنظر ما كتبناه لا حقا في النسخ في القرآن. راجع:الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، ج 1، ص 138-139.

[3] نظرات في القرآن ، ص40

[4] نفسه، ص41

الذي ثبتت به الأناجيل شبيه بأسانيد الأحاديث الضعيفة عندنا، وبالنتيجة "**ليس في العالم الآن كتاب تصح نسبته إلى الله، وتتقدم الدعوى به محفوفة بآلاف الأدلة وتسطع حقيقة في الأذهان سطوع الضحوة الكبرى.. إلا هذا القرآن، إنه وحده صوت السماء ووديعة الملأ الأعلى وكلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.**[1]

2. القرآن حقيقة موضوعية ومعان خالدة

ويتطرق في كتابه المحاور الخمسة للقرآن إلى الدليل الموضوعي على صدق نسبة القرآن إلى الله بعد الدليل التاريخي كما شرحته، فيقول: "**لو أن كتابا ألقته أمواج البحر على شاطئ لا ندري من أين جاء.. لكان جديرا بنا أن نعرف ماذا في هذا الكتاب وما الذي حوته صحائفه؟**[2]

والشيخ هنا يقرر حقيقة موضوعية وهي أن الحكم على الشيء فرع عن تصوره، فلننظر في محتوى الكتاب ثم نحكم على قيمة صلته بالله، وبهذا المنطق يغوص الشيخ في وصف المعاني الكلية للقرآن وكيف أنه يبدي ويعيد في قيادة الناس إلى الله وإحياء مشاعرهم النبيلة من الأعماق ليتوجهوا إليه ويرتبطوا به ويستعدوا للقائه.

وكما قارن في الدليل التاريخي بين ثبوت القرآن وثبوت غيره يقارن هنا بين حديث القرآن عن الذات العليا وما يجب لها من محامد وكمالات وحديث الكتب المقدسة . في زعم أصحابها . وكيف تحدثت عن الله وعن الرسل، فيخلص إلى القول: "**إن تكذيب القرآن مهزلة شنيعة**" ويقول: "**قرأت الكتب المنسوبة إلى السماء في زعم خصوم محمد، فما فتئت أن قلت: إن صح أن هذه الكتب من السماء وأن كتاب محمد من الأرض، فمعنى هذا أن محمدا أقدر على وضع الدين من رب الدين، وأنه أفصح في الثناء على الله من الله عندما يتحدث عن نفسه؟؟**[3] وبهذه النتيجة التي لا يرضاها أي متدين يحترم عقله ودينه، يدفع الشيخ كل ذي عقل متزن إلى الإذعان لحقيقة أن القرآن الكريم كلام الله بلا أدنى ارتياب، فلن يصح في الأذهان شيء إذا اتجهت إلى القرآن شبهة.

---

[1] نفسه، ص 44، وما بعدها

[2] المحاور الخمسة للقرآن الكريم، محمد الغزالي، ص 7

[3] المصدر نفسه ،ص 8

والمتتبع لخطة الشيخ الغزالي في الدفاع عن صحة مصدر القرآن يجدها خطة منهجية تبدأ بإثبات التواتر الشفهي ثم الكتابي للقرآن الذي شمل حياة المسلمين لسنوات طوال، ثم بنقد أخبار الآحاد التي لا تتوافق مع الخط العام لهذا التواتر البين ثم بالمقارنة في الموضوع وطرق الثبوت بين القرآن وغيره من الكتب، وهكذا يخلص الغزالي خلوصا علميا وبرهانيا إلى الحقيقة التي تفيد أن القرآن وحده كلام الله من غير تحريف.

والذي يشد المرء وهو يقرأ حديث الغزالي عن ثبوت القرآن أمران:

الأول: هو أسلوبه الأدبي القوي الذي يمتزج فيه العقل مع العاطفة، فأحيانا يكون الجديد الذي يأتي به الشيخ هو في الأسلوب لا في الحقيقة وقيمته هي في تحيين المعارف وإعادة تحريرها بروح العصر وبروح اللحظة الراهنة، وبمعطيات الصراع القائم، ولا يتحدث الشيخ عن الإسلام كتاريخ ماض ولا عن قضاياه العلمية كتراث مخزون في بطون الكتب.

الثاني: هو تحرره العلمي وجرأته في الحق فهو حين يرتكز على حقائق التاريخ وحقائق القرآن يأبى أن يدع لبعض أخبار الآحاد أو لبعض الفهوم السقيمة أن تشوش على حقائق الإسلام، إنه يعمل عمل المصفاة التي تنقي المقالة التاريخية من الشوائب ليعرض الدين صافيا من كل كدر، وهذه الجرأة اكتسبها الغزالي في أغلب الظن من كثرة الإمعان في آيات القرآن ومصاحبته له في الحل والترحال.

ثانيا: العلاقة بين القرآن والسنة

للشيخ الغزالي في فقه العلاقة بين القرآن والسنة فهم عميق ومنهج متميز يجب أن تدرك معالمه ليفهم فقه الغزالي وفهمه للإسلام عموما وللقرآن على الخصوص وللسنة بوجه أخص. إن الشيخ ليس رجلا نظريا أو خياليا، بل هو رجل جهاد ودعوة وإصلاح واقعي، لمس من خلال جهاد الدعوة الذي مارسه طوال حياته اختلال العلاقة بين الكتاب والسنة في فهم المسلمين ،مما نتج عنه في واقع الثقافة والمعرفة الإسلامية آثارا سلبية أساءت إلى صورة الإسلام وشوهت حقائقه.

من هنا عكف الشيخ على إعادة التفكير في بناء هذه العلاقة على ضوء ما هو مشاع في واقع الأمة من أمراض ثقافية معتمدا الحقائق الكلية للإسلام من كتاب الله أساسا.

ولنفهم فقه الشيخ في العلاقة بين القرآن والسنة نذكر أهم مايؤكد عليه . رحمه الله . من حقائق في هذا المجال :

الحقيقة الأولى: القرآن الكريم أساس الإسلام الأول

وهجرانه مصيبة لا عزاء للأمة فيها ؟ فقد لاحظ الشيخ في شريحة عريضة من المسلمين هجرانا للقرآن الكريم يقول:" **أما مسلموا اليوم فصلتهم بالقرآن لا تغسل من نفوسهم درنا بله أن يغسلوا هم أدران الآخرين، إنهم اتخذوا القرآن مهجورا وأقاموا حجابا كثيفا بين تعاليم القرآن وبين ما يدّعون و ما يشتهون**".[1]

هجر أكثر المسلمين المعاني الكلية للقرآن التي ترسم للفرد وللجماعة معالم الصراط المستقيم وقيمه العليا التي يجب الدوران في فلكها ومقاصده الكبرى التي لا ينبغي تجاوزها وهذا أمر خطير ،فهجران القرآن أمر شنيع لا يسكت عنه يقول الشيخ: "**إن المسلمين الآن اتخذوا القرآن مهجورا فهم لا يعكفون على دراسته ولا يستقصون دلالاته، ولا يوائمون بين مجتمعهم وبين شرحه المستفيض لرسالة الحياة الصحيحة وواجبات الأحياء.**"[2]

والشخصية المسلمة التي لا يبنيها كتاب الله لن تستفيد من السنة شيئا، إن أكثر المسلمين قد زهدوا في هدايات القرآن أو أخطؤوا طريق الوصول إليها، والقرآن الذي أنزل ليكون فجرا جديدا على الخليقة تستأنس من هداياته سيرا أرشد إلى غاية أكرم مصداقا لقوله تعالى: **(إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا)**[3] قد شعر المسلمون بأنه كتاب مبارك لكن شعورهم أخذ طريقا مبهما ساذجا لا يعدوا التعبد بالألفاظ والتوقير للتلاوة وهم ينتظرون الرحمة من القرآن على نحو مستغرب..

---

[1] الإسلام والطاقات المعطلة ، محمد الغزالي ، دار القلم ،دمشق ،ط2،2005م ،ص 64

[2] نظرات في القرآن ،محمد الغزالي ،ص 153.

[3] الإسراء ،9-10

يظنونها شيئا يفيض من الآيات في مجلس قراءة كما تتبعث الحرارة من الموقد وهذا تصرف مقلوب فالرحمة المرجوة من القرآن تجيء نتيجة تعرض المسلمين لمعانيه يلتمسون فيها مخرجا من الحيرة وقرارا من القلق."[1]

إن كثرة تلاوة المسلمين لحروف القرآن لا تخرجهم من دائرة الهجران مادامت لا تتعدى القراءة بلا وعي.. في هذا السياق يعاتب الشيخ المسلمين بقوله: "**لا غناء في مصحف في جيب ولا في مصحف معلق على جدار، ولا غناء في همهمة قارئ مذهول، ولا مطرق تملأ الأصوات أذنيه ولا فقه عنده.. إن رحمة القرآن الكامنة فيه يظفر بها أهل الوعي والتدبر والعمل.**"[2]

الهجران الذي لاحظه الشيخ الغزالي هو أهم دافع جعله يؤكد على إن القرآن هو المصدر الأول لتعاليم الإسلام وغيره من المصادر هي بمثابة الفروع من الجذع[3] ففضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على سائر خلقه ويؤكد الشيخ في أكثر من مؤلف له أن من القرآن وحده تؤخذ الصورة العامة لما يرضاه الله لعباده في شؤون حياتهم ومناحي تفكيرهم ومعالم سلوكهم وأنه لا اختلاف بين المسلمين في أن القرآن الكريم هو أساس الإسلام ولباب دعوته ومناط شرائعه وهو الينبوع الأول لشتى تعاليمه في أحوال المعاش والمعاد جميعا[4] وعلى هذا الأساس يجب أن يفهم القرآن على أنه الهداية الأولى للناس التي صدرت عن الله محصيةً قواعد الحق وضمانات النجاة فآيات هذا القرآن تحتوي على معالم الصراط المستقيم مثلما تحتوي آفاق الكون على أسرار العلم."[5]

الحقيقة الثانية: السنة بنت القرآن ولا يمكن أن تعقه

يؤكد الشيخ أن السنة وليدة الفهم الصحيح للكتاب يقول: "**إننا نعتقد مثل كثير من العلماء المحققين[6] أن الأحكام التي توجد في ألأحاديث الصحيحة مأخوذة ومستنبطة من**

---

[1] الإسلام والطاقات المعطلة ،مرجع سابق ،ص 63.
[2] نفسه، ص 63.
[3] ليس من الإسلام ،محمد الغزالي ،دار الهناء ،ط6،ص26.
[4] أنظر : ليس من الإسلام ،ص27ونظرات في القرآن ص141
[5] ليس من الإسلام ،ص27.
[6] قال الإمام الشافعي: "كل ما حكم به النبي صلى الله عليه وسلم هو مما فهمه من القرآن".

القرآن الكريم، استنبطها النبي بتأييد إلهي وبيان رباني لذلك يجب علينا العمل بها بشرط ثبوتها عنه صلى الله عليه وسلم".[1] ويشرح الشيخ ما يذهب إليه بأن النبي صلى الله عليه وسلم هو صنيعة القرآن الكريم، استقر بسويداء قلبه وحديثه إلى الناس متولد من القرآن.. ومن السذاجة تصور النبوة ترديدا مجردا لأخبار الملأ الأعلى أو تصور رسول الله شخصا لا يتكلم ولا يحكم ولا يفتي ولا ينصح إلا إذ همس في أذنه الملك بما يقول وبما يفعل[2] تربى النبي على قيم القرآن فانتقل به الكتاب العزيز انتقالا نفسيا عاليا وصعد به مرتقى الكمال البشري إلى أوج بعيد[3] ومن آثار علمه عليه الصلاة والسلام بالقرآن وتأثره به نطق بالسنن الراشدة والأحاديث الهادية فكانت هي الأخرى حكما ينتفع به، وهديا يرشد الناس إلى الطريق المستقيم.[4]وكيف تعارض السنة كتاب الله إذا كانت وليدة فهم المعصوم عليه الصلاة والسلام للقرآن؟ ويستفاد من كلام الشيخ الغزالي . أيضا . أن من أراد أن يفهم السنة حق الفهم فعليه أن يفهم القرآن أولا ما تأسيا بصاحب الرسالة نفسه الذي استنبط أحكامه من القرآن الكريم.

الحقيقة الثالثة: الفروق الأساسية بين الكتاب والسنة.

يؤكد الشيخ على وجود فروق لا يمكن إغفالها بين القرآن والسنة تجب مراعاتها عند التعامل مع مصادر الإسلام أو استنباط أحكامه أو إظهار حقائقه، تتعلق هذه الفروق بالأولوية في الترتيب، وفي قوة الثبوت وقوة الحجية، وفي طبيعة الخطاب نفسه، وأهم الفروق التي يؤكد عليها لأجل تلافي الفهم السقيم لقيم الإسلام هي:

1. **القرآن أولا.. السنة ثانيا:** القرآن هو المصدر الأول والأساس لتعاليم الإسلام يعلو ولا يعلى عليه، ثم تجيء السنة النبوية، وهي نتيجة منطقية لكون القرآن أصل والسنة فرع عنه متولد من الفهم العميق والصحيح لمعانيه ،وتجاوز هذا الترتيب إما بإغفال معاني القرآن وفهم السنن بمعزل عنه، أو بالتشبث بمرويات تعارض معاني القرآن، هو في نظر الشيخ أمر خطير يؤدي إلى خلل في معالم الإسلام ويأسف . رحمه الله . لأن كثيرا من

---

[1] هذا ديننا، محمد الغزالي ،دار المعرفة ، الجزائر ، 1999م،ص 207.
[2] المرجع نفسه، ص208.
[3] نظرات في القرآن، ص141.
[4] المرجع السابق، الصفحة نفسها.

المسلمين لم يحسنوا فهم السنة على أنها متولدة من القرآن ولا يمكن أن تتجاوز حدود معانيه، ولم يتبعوا السلف في نهج هذا الفهم[1]، فترى بعضهم لغفلته عن القرآن يدير على لسانه أحاديث ما كان ليذكرها قط لو أن قلبه ولبه مرتبطان أول الأمر بالكتاب العزيز[2] ثم يصف الشيخ بعض الأضرار التي لحقت بالإسلام جراء فهم السنة بمعزل عن القرآن يقول: "**إن الانفصال الذهني عن هدايات القرآن سرّى عن نقل روايات كثيرة في موضوعات عظيمة الخطر كعلاقة المؤمن بالدنيا وعلاقة الرجل بالمرأة وعلاقة المسلم بالكافر.. وهكذا**" ويضرب أمثلة لذلك فيورد حديثا عن تشوش علاقة المؤمن بالدنيا رواه الطبراني: "**بعثت بخراب الدنيا ولم أبعث بعمارتها**" ويعلق بالقول: "**هل تخريب الدنيا غاية يستهدفها رجل فقه القرآن وأنصت إلى قوله تعالى: (ولقد مكناكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معايش).**[3] وعن سوء علاقة الرجال بالنساء يقول: "**فشت أحكام كثيرة خاطئة واستخفت أحكام كثيرة صحيحة**" ثم يعتب على الأستاذ المودودي في كتابه عن الحجاب حيث شدد الخناق على المرأة وأفتى بأن لا يرى زينتها حتى أدنى أقاربها (محارمها) وجعل النقاب دينا.. مستندا إلى حديث ضعفه الشيخ الألباني ثم يعلق الشيخ الغزالي على كل ذلك بالقول: "**لو استحضرنا توجيهات القرآن ابتداء ما احتجنا إلى مناقشة السند وتوهينه، يكفي أن يكون المتن مخالفا للقرآن ليرد أشد الرد.**"[4]

وعن علاقة المؤمن بالكافر يورد حديثا في مسند أحمد: "**بعثت بالسيف بين يدي الساعة حتى يعبد الله وحده وجعل رزقي تحت ظل رمحي**"

ثم يقول: "**مع أنني أعلم أن السيف قد يكون رحمة من الله في تأديب المعتدين وقمع الطغاة إلا أنني لم أستطع أن آخذ من هذا الحديث الصورة النبيلة الرقيقة التي ترتسم في فؤادك عندما تقرأ قوله تعالى:(وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين)**[5]**، إن الحديث لو كان**

---

[1] يشيد الشيخ الغزالي بمذهب السيدة عائشة وسيدنا عمر بن الخطاب في فهم السنة في ضوء القرآن والنهي عن رواية الحديث كما يردد الشعر بلا مناسبة ولا سبب ورود. أنظر: فقه السيرة، محمد الغزالي، ص63.

[2] هذا ديننا ، محمد الغزالي، ص 208.

[3]الأعراف، 10

[4] نظرات في القرآن، ص 210، باختصار وتصرف يسير .

[5] الأنبياء، 107.

صادقا لا يحمل إلا في وضعه الصحيح ومكانه اللائق به ،ومعرفة الوضع الصحيح لأثر ما إنما يكون بعد التفقه الكامل في كتاب الله وحياة نبيه وحقيقة سيرته وجوهر سنته .. الحديث السابق يوحي بأحكام لم يقل بها أحد من الفقهاء فإن جعل توحيد الله غاية للجهاد بحيث لا تهدأ الحرب حتى يسلم الناس معنى باطل "[1]

هكذا يؤكد الشيخ على هيمنة القرآن الكريم على سائر المصادر الإسلامية وعلى السنة فهما وثبوتا، فهي كالقوانين بالمقارنة مع الدستور[2] والمؤمن بالقرآن يستحيل أن يرجح على دلالاته دلالة أخرى أو يشرك مع توجيهه هديا[3] إن دلالات القرآن حاكمة على السنة[4].

من هنا كان العالم الأصيل بالإسلام عند الشيخ هو من تقوم ثروته العلمية أولا على مدى فقهه بالكتاب، والسنة على قيمتها لها منزلة ثانوية بعد القرآن نفسه [5] إن صورة الإسلام تعرف أبعادها وملامحها البارزة من القرآن أولا ثم يجيء دور السنة في الإيضاح والشرح والتفصيل ولا ينبغي لهذا التفصيل أن يتجاوز أصله الذي هو كتاب الله .

2. **الفرق الثاني في مجموع الخطاب:** يقصد به الشيخ أن كل ما أنزل على النبي صلى الله عليه وسلم من قرآن نقل إلينا بطريق التواتر لا يزيد فيه حرف ولا ينقص منه حرف، أما السنن فقد تأخر تدوينها والتحق بها ما ليس منها، ومع تثمين الشيخ للجهد العلمي الدقيق المشكور لعلماء الحديث الذين وضعوا قواعد النقد العلمي للأخبار وتنويهه به، فإن جملة السنن التي وصلت إلينا لا تصل . كما يرى . إلى درجة نقطع فيها بأنها كل

---

[1] هذا ديننا، مرجع سابق ،ص 211. قلت: هو معنى باطل بالتأكيد لكن كلام الشيخ هنا(لم يقل بها أحد من الفقهاء) غير دقيق على غير المعهود منه ـ رحمه الله ـ فللأسف قال به كثير من الفقهاء الذين فهموا أن علة القتال الكفر والمخالفة في المعتقد لا الحرابة، وهو من نقاط الضعف في تراثنا الفقهي، وإن كان جمهور الفقهاء وهم الحنفية والمالكية والحنابلة على أن علة الجهاد درء الحرابة، لكن ذهب الشافعي في الأظهر من قوليه وابن حزم إلى أن العلة هي الكفر. أنظر في مناقشة هذه الأقوال: الجهاد كيف نفهمه وكيف نمارسه، محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر، دمشق، ط3، ص94.

[2] انظر : ليس من الإسلام ،مرجع سابق، ص26.

[3] نفسه، ص 28.

[4] بخلاف ما راج من القول أن السنة قاضية على الكتاب، أو حاكمة عليه، وأن القرآن يحتاج إلى السنة أكثر مما تحتاج السنة إلى القرآن، وليت شعري كيف يكون الأصل أحوج إلى فرعه من فرعه إليه؟؟

[5] نظرات في القرآن، ص 141.

ما قاله الرسول عليه الصلاة والسلام وأن الرواة قد أحصوا كلام النبي كله لم يسقطوا منه شيئا.[1]فضلا عن إحصاء مناسبات الأحاديث وأسباب ورودها.

3. **الفرق في الثبوت:** القرآن الكريم نقل إلينا كله بطريق يقيني الثبوت ،فهو متواتر جملة وتفصيلا، أما السنة فالمتواتر منها قليل وله حكم القرآن وأكثرها أخبار آحاد.[2] وقوة ثبوت القرآن تجعل هيمنته على مصادر التشريع لا تقبل جدلا[3] كما يقرر الشيخ.

4. **الفرق في قوة الدلالة:** يرى أن دلالات القرآن القريبة وظاهره أولى من أخبار الآحاد في حال التعارض الظاهر، والسنة يجب أن تسير تحت جناح القرآن فدلالاته تهيمن عليها وليس في ذلك غمط لمكانة السنة فهي ضميمة إلى القرآن لابد منها[4] ويعود الشيخ فيؤكد على دور السنة في شرح معاني القرآن وفي التفصيل والتفريع كما تشرح جملة القوانين حقيقة الدستور، وكما لا يمكن للقوانين أن تتعدى الدستور فكذلك لا ينبغي أن تثبت السنن أو أن تفهم خارج سياق هداية القرآن أو تخرج عن مداه.[5]

5. **الفرق في طبيعة الخطاب:** وهو فارق جوهري في رأي الشيخ الغزالي إذ القرآن كلام عام شامل لجميع الناس وفي كل وقت أما السنة فشأنها التفصيل وهذا يعني أن كثيرا من الأحاديث ربما قيلت لوقت محدود أو ظروف معينة أو أشخاص دون غيرهم ولقد شرح الرسول صلى الله عليه وسلم الإسلام وطبقه في يومياته وساس به الأمة ثلاثا وعشرين سنة: "**وليس المهم أن نعرف ما حدَّث به حسب، ولكن المهم أن نعرف متى ومن حدّث، إن هذه الظروف تعين إعانة حاسمة على فقه السنة فقها صحيحا**"[6] ولعل مما يوضح ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أحيانا يجيب إجابات شتى عن سؤال واحد وذلك كون كلامه عليه الصلاة والسلام قد يكون متجها إلى رعاية أحوال المخاطبين فيبرز من العبادات والآداب ما يراه أليق بحياتهم وما يراهم أمسّ إليه حاجة ويسكت عن غيره

---

1 المصدر السابق، 143.
2 نفسه ،142.
3 نفسه، ص 143.
4 نفسه، ص 143.
5 نفسه، ص144.
6 ليس من الإسلام، ص29.

،ولعل مما يدل على ذلك أيضا نهي السيدة عائشة وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما أبا هريرة عن كثرة التحديث دون إيراد أسباب الورود وقصة الحديث ودون مراعاة ذكر أحوال المخاطبين وغير ذلك مما يساعد على فهم السنة فهما صحيحا ويعين على وضعها مواضعها [1]

هكذا فالفارق بين الكتاب والسنة من جهة طبيعة الخطاب مسألة ثابتة وحاسمة، "**فما تقوله ابتداء وأنت تعطيه صفة العموم وتقصد إلى نشره في دائرة رحبة، غير ما تقوله لامرئ وحده قد يحتفظ به لنفسه وقد يبلغه غيره، وقد تنقطع سلسلة العلم به فلا تتجاوز أفرادا يعدون على الأصابع.**"[2]

طبيعة الخطاب القرآني أنه كلام عام خالد مفارق لتفاصيل الأحداث، أما السنة فقد تكون نصيحة لفرد أو جماعة في ظروف خاصة وقد تكون سياسة حكيمة في مرحلة بعينها أو توجيها خاصا لا يتناول كل أحد، وهذا يؤكد وجوب محاكمة دلالاتها إلى القرآن الكريم لتفهم الأحاديث فهما سليما "**فمن الضروري أن تفهم الأحاديث في ضوء القرآن أولا وبعد استيعاب هداياته واستبانة منهجه.. والسنة لأنها موطن التفصيل يجب الاحتياط في دراستها، فكم من أحاديث صحيحة يجب عدم شغل العوام بها، فهم لا يستفيدون منها شيئا وقد يضرهم العلم بها.. إن هناك مئات الأحاديث التي قيلت في الرقائق والقدر والفتن والتوبة.. وغيرها لا طاقة لهم على إدراكها لأنها قيلت في نطاق معين ولظروف خاصة.**"[3]

الحقيقة الرابعة: خطر الاشتغال بالسنن بلا فقه في القرآن

وهي كالنتيجة لما سبق، إن تجاوز حقيقة أن القرآن أساس مصادر الإسلام والمهيمن عليها وتجاوز فهم السنة على أنها فرع عن القرآن استنبط النبي صلى الله عليه وسلم معانيها منه، وتجاوز الفروق الجوهرية التي سبق ذكرها، كل ذلك أنشأ في نظر الشيخ طائفة من المسلمين اشتغلت بالسنة بعيدا عن فقه القرآن وهو كما يرى خطأ فاحش

---

[1] فقه السيرة، محمد الغزالي ، مرجع سابق، ص63.
[2] نظرات في القرآن، ص 150.
[3] نفسه، ص 154.

لأن من لم يستكمل بناءه النفسي والذهني من كليات القرآن ومبادئه ومعالم هدايته سوف يضر الناس بنظره المستفيض في أحاديث متفرقة على موضوعات شتى.

ولقد رد الحفاظ حديثا في صحيح مسلم عن أبي هريرة يجعل معناه خلق السماوات والأرض في سبعة أيام خلافا لما قرره القرآن[1] يقول الشيخ: "**مع أن الحديث في صحيح مسلم قد أغفله الحفاظ لكونه مخالفا لما جاء في القرآن من أن الله خلق السماوات والأرض في ستة أيام لا سبعة؟ قالوا هو من رواية أبي هريرة عن كعب الأحبار ولا يمكن أن يكون من قول الرسول لأن قوله عليه الصلاة والسلام لا يتعارض مع القرآن بل يكون شارحا ومفسرا لآياته.**[2]

إن الجهل بالقرآن لا يورّث علما بالسنة ولذلك يقطع الشيخ بلا تردد ببطلان حديث ثبتت مخالفته لروح القرآن أو لنصه، فالشيخ يرى أن الإسلام قد أضرته فئة من الناس يخوضون في السنن وبضاعتهم في القرآن قليلة وبصرهم بآياته كليل مما جعله يوقن أن معالم الإسلام لن تكون صحيحة وواضحة في أذهانهم.[3]

إذا جمعت الحقائق السابقة في فقه الشيخ الغزالي للكتاب والسنة وسرّ العلاقة بينهما تبيّن فقهه . رحمه الله . وتبين لمَ ردّ ما رد من أحاديث ولمَ أيّد ظواهر القرآن، إنه يقرر أن القرآن الكريم هو مصدر تعاليم الإسلام كلّه وبلا فقه الكتاب لا فقه ولا دين.. وهو على خلاف ما يتوهم كثيرون يقدم منهجا محكما لفهم السنة في ضوء هيمنة دلالات القرآن

---

[1] نص الحديث: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أخذ بيدي رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: خلق الله التربة يوم السبت وخلق الجبال يوم الأحد وخلق الشجر يوم الاثنين وخلق المكروه يوم الثلاثاء وخلق النور يوم الأربعاء وبث فيها الدواب يوم الخميس وخلق آدم بعد عصر الجمعة في آخر ساعة من النهار إلى الليل. رواه مسلم في كتاب صفة القيامة والجنة والنار، ج2 ص1181 طبعة المكنز الإسلامي. والحديث بين المعارضة للقرآن قال تعالى: (ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام) الأعراف، 54 ويونس 3. والتصريح بخلق السماوات والأرض في ستة أيام تكرر كثيرا في القرآن، مثلا: الآية 7 سورة هود، والآية 59 من سورة الفرقان، والآية 32 من سورة ق، وغيرها..كما أن الله تعالى فصل الأيام الستة في سورة فصلت فقال:(قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق **الأرض في يومين**، وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين وجعل فيها رواسي من فوقها= =وبارك فيها **وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام** سواء للسائلين ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض إيتيا طوعا أوكرها قالتا أتينا طائعين **فقضاهن سبع سماوات في يومين** وأوحى في كل سماء أمرها) الآية: 9-12. فخلق الأرض تم في يومين وتقدير الأقوات في يومين، فتلك أربعة أيام، ثم خلق السماوات في يومين فتلك ستة أيام. أما ما رواه مسلم فهو مخالف لمجمل القرآن ولمفصله؟؟ يجعل خلق الأرض وحدها في سبعة أيام.

[2] هذا ديننا، محمد الغزالي، ص 213.

[3] نظرات في القرآن، ص 144.

حتى لا تفهم على غير المراد منها[1] والقرآن أولى مما خالفه من دلالات، وهو لا يتسرع . كما قد يظن . في رد الأحاديث بل يقرر أن إعمال السنة حيث يمكن الجمع أولى من إهمالها. ويفضل التفسير الذي يجعل للسنة مكانا مع القرآن،[2] لكن عند عدم إمكان الجمع بين الأدلة يؤكد بلا تردد أن الحكم لا يكون إلا للقرآن وحده ويرفض انقلاب الأوضاع التي يحمل الناس فيها مذاهبهم على القرآن ويجعلونه مأموما بهم بدل أن يكون إماما لهم[3] .

لذا يرى الشيخ أن مذهب الأحناف في العمل بظاهر القرآن وتقديمه على خبر الآحاد أولى بالاتباع إذا اتخذ الاحتياط والتدقيق اللازم في التطبيق يقول: "**إن الاعتماد الواسع على القرآن وتغليب دلالاته العامة وظاهره القريب على أي دليل آخر أمر مفهوم ونحن نوصي به.**"[4]

إن الشيخ الغزالي هو رجل القرآن الكريم جعله عقله الذي يفكر به وروحه التي يصدر عنها، لذا فهو يؤكد على فهم القرآن فهما عميقا ومن ثم التعامل مع السنة في ضوء هذا الفقه، ويوضح بأن هذا هو منهجه حين يريد أن يفكر أو يؤلف فيقول: "**لقد كنت عندما أحب الاستشهاد بالكتاب والسنة في موضوع ما، ألاحظ هذه الحقيقة، وأجد طائفة**

---

[1] أنظر: تفاصيل هذا المنهج في: في مقدمة فقه السيرة الذي خرج أحاديثه الشيخ الألباني وفي ص 33 وما بعدها تحت عنوان: (منزلة السنة من الكتاب). وكذا: السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث ص 17 وما بعدها وص129 وما بعدها. وتراثنا في ميزان الشرع والعقل تحت عنوان (على هامش السنة)، ص 143 وما بعدها. ولم يزد الشيخ القرضاوي في كتابه كيف نتعامل مع السنة معالم وضوابط، على جمع وتنظيم رأي شيخه الغزالي ـ رحمه الله ـ مع بعض الاستفاضة في الشرح وبعض الخلاف في التفاصيل، وقد عقب الشيخ الغزالي على كتاب القرضاوي في مقالة نشرتها المسلم المعاصر بخط يده أكد فيها على محورية القرآن في فهم السنة وثبوتها أيضا، قال: "وقد قرأت البحث الذي كتبه الأستاذ الشيخ يوسف القرضاوي في أسلوب التعامل مع السنة، فوجدته أوفى على الغاية وجمع أنفس ما يقال في هذه القضية.. وأنا أطمع أن أزيد على جريده أشياء ليست استدراكا.. وإنما هي إضافات.. أعتمد على فطرتي في قبول الصحيح واستبعاد الضعيف.. وأضم إليه نظر الفقهاء من أئمتنا.. والحكمة القرآنية ومحاور القرآن ومقاصده..الخ" أنظر: المسلم المعاصر، السنة22، العدد 87، ص219-223.

[2] نظرات في القرآن، محمد الغزالي، ص149-150، حيث يعلق الغزالي على مسألة التحريم من الرضاع ويستحسن تفسير الشيخ محمود شلتوت لقوله تعالى:(وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم) وخلاصته أن التحريم يؤخذ من الكلمات الثلاث في الآية فليست كل امرأة ترضع صبيا بصفة عابرة تسمى أما وهذا التفسير أولى من غيره لأنه يجعل للأحاديث مكانا كما قال الشيخ الغزالي.

[3] ولا يسبقن إلى الذهن أن الغزالي يقابل بين السنة والقرآن أو يستهين بالدفاع عن السنة يقول: "نحن نرفض بعزم وغضب ما يحاوله بعض الناس الآن من إلقاء السنة كلها في البحر، وحذفها من مجال التشريع جملة وتفصيلا زاعمين أن القرآن وحده يكفي المسلمين، إن هذا الكلام ليس إعظاما للقرآن بل خطوة إلى إهماله هو الآخر.. إن السنة حق ولسنا في كتاباتنا نوازن بين القرآن والسنة على أنهما طرفان فإن أول معالم السنة النبوية التمسك بمنهج القرآن وأول طاعة للقرآن الكريم المشي خلف رسول الله في فهمه وعمله به" أنظر: نظرات في القرآن: ص155-156.

[4] المصدر السابق: ص 149.

كبيرة من الأحاديث تطابق في معانيها وأهدافها ما تضمنه القرآن.. وأن هذه الأحاديث قد تقرر المعنى نفسه أو تقرر معنى آخر يدور في فلكه وينتظم معه في اتجاه واحد."[1]

إن الشيخ يقرر أن السنة الصحيحة لا تعارض حكما قرآنيا ومن المستحيل أن يوجد حديث يعارض أحكام القرآن الخاصة وقواعده العامة، ثم الحديث الواحد يجب ألا يؤخذ على حده عند الاستدلال بل يجب جمع الأحاديث التي وردت في الموضوع الواحد ثم تُلحق بما يتصل بها من معاني القرآن ولن نعدم هذه الصلة.[2]

كما بين مقصوده "من فقه القرآن" فيرى أن في القرآن الكريم خلاصات روحية فعالة تثير الحياة في الضمائر وتمنع السلوك الإنساني من الشرود والزيغ، والقرآن يستهدف بهذه الخلاصات إيقاظ النفس وبعث ملكاتها العليا ولا يعتمد على الحوادث الكثيرة ثم البت فيها بأحكام، وهذه المعاني هي . كما يرى ضمانات الكمال على اختلاف العصور والأجيال وأسلوب القرآن في هذا المجال يشفي العامة والخاصة ومرونته من أسباب خلوده.[3]

ويشرح قصده من هيمنة "**روح القرآن**" بأنها الوعي بأسرار القرآن وذوق حكمة التشريع وأهداف الوحي ومرامي الخطاب الإلهي في الأمر والنهي والوعظ والاختبار "**أي فهم روح التشريع وليس مجرد معرفة الأحكام، هذه الروح موجودة في آيات القصص ووصف الكون وآيات لا علاقة لها بالتشريع يستشف من أسلوبها حقيقة الحياة ومعنى الوجود على النحو الذي يرضي الله.**"[4] إن فهم القرآن في عرف الشيخ الغزالي لا يتم بفهم الألفاظ والجمل والتراكيب بل لابد أن تطبع في نفس القارئ الروح التي صدر عنها كلام الله كله ويصنف الشيخ موضوعات القرآن التي تحمل هدايته للناس صنفين فيقول: "**القرآن يبني الأفراد والأمم بطريقتين إحداهما أعظم من الأخرى، الأولى صوغ النفس على معرفة الله واستشعار عظمته والتهيؤ لملاقاته والأخرى الأحكام المحددة التي فصلها وطلب من عباده إنفاذها.. والأولى أعظم لأن ضمانات الخير في مجتمع ما ليس في قيام بعض**

---

[1] ليس من الإسلام، محمد الغزالي، ص 31.
[2] نفسه، ص 32-33.
[3] نظرات في القرآن، محمد الغزالي، ص 155.
[4] المرجع نفسه، ص 144.

التشريعات، فربما أمكن احترام القوانين من ناحية الشكل، والقرآن يصلح الأمم بما يوفره لها من سلامة الجوهر واستقامة الطبع ومن ثم حفل بفنون لا تحصى من العظات التي تقيم الحياة الباطنة على دعائم من التقوى والخشوع والإخلاص[1].

هذا هو نظر الشيخ في **فقه القرآن الكريم** وروحه وموضوعاته ومنهج إصلاحه للنفوس، فإذا حصّل المسلمون هذا العمق في فهم القرآن كان لهم نورا وفرقانا يعرفون به ما يقبل وما يرد من روايات وأخبار، وكيف تفهم وأين توضع موضعها الصحيح.

من هنا يرفض الشيخ أن يشتغل بالسنة رجل فقير في القرآن ،كما يرفض أن يستخرج أحكامها شخص قصير الباع في فقه الكتاب واستظهار أحكامه[2].

والذي جعل الشيخ الغزالي يتجه هذه الوجهة ويؤكد هذا المنهج هو كما سبق وأن ذكرنا بداية ما رآه وعايشه خلال جهاد الدعوة من انتشار أحاديث كثيرة من أخبار الآحاد بعيدة الأثر في إفساد تصور العامة ،بعضها ضعيف وبعضها صحيح لم يفهم على وجهه، وإقبال العامة على هكذا أحاديث يشغلهم عن القرآن الكريم مع أن القرآن هو الأصل الأول، ومن هذا القبيل شغف الناس بأحاديث توحي بالجبر وتدفع إلى الكسل وانتظار المخلص، ومخاصمة الدنيا والاعتزال عن الناس وتحريم تعليم المرأة والإعلاء من شأن الأمية ومعاداة الناس المخالفين في المعتقد بلا مبرر والبحث في سحر النبي صلى الله عليه وسلم حقيقة أم وهم.. وغير ذلك من مشغلات في وقت تواجه فيه الأمة الإسلامية معارك حقيقية يريد أعداؤها فيها أن يستأصلوا شأفتها وهو ما جعل الشيخ الغزالي يعيد النظر والتفكير والاجتهاد من جديد في تنظيم العلاقة بين الكتاب والسنة فكان المنهج الذي رآه أرشد وأسلم وأهدى على الوجه الذي شرحته آنفا.

ثالثا: خلود القرآن وعدم انتساخه

يرى الشيخ الغزالي أن القول بالنسخ في القرآن الكريم يعارض عموم أحكامه وخلود حقائقه وشموله لجميع الناس وجميع الأزمان لذلك فهو يرفض القول به.

---

[1] الإسلام والطاقات المعطلة، محمد الغزالي، ص 65.
[2] نظرات في القرآن، ص 142.

والشيخ لا يناقش في الأساس العقلي أو النظري لنسخ الأحكام ولا يعارض القول بالنسخ مطلقا ولكنه يعارض وجود آيات منسوخة في القرآن.

ومن أجل التدليل على صحة اجتهاده يحفر عميقا في التراث ويعيد مناقشة بعض الموضوعات التي يظن أن عليها الإجماع وأنها قد استقرت فلا زيادة فيها لمستزيد، ومن هذه الموضوعات موضوع النسخ في القرآن الذي يدلي فيه الشيخ برأي غاية في القوة والجرأة العلمية وله في ذلك سلف من رواد مدرسة المنار وغيرهم.

وللغزالي دوافعه العلمية والواقعية التي سوف نبينها، ومن أجل معرفة القيمة العلمية والعملية لموقفه من نسخ آيات القرآن لا بد ابتداء من عرض موضوع النسخ . باختصار شديد. كما استقرت عليه حاله في كتب الأصول وكما مارسه المفسرون ثم أعود لشرح رأي الغزالي . رحمه الله . وتقويمه.

1. **ما هو النسخ:** إذا رجعنا إلى بعض مصادر اللغة نجد في أساس البلاغة: نسخت كتابي من كتاب فلان: نقلته ومن المجاز نسخت الشمس الظل، ونسخ الشيب الشباب."[1]

و جاء في لسان العرب: النسخ تبديل الشيء من الشيء وهو غيره.. والنسخ نقل الشيء من مكان إلى مكان وهو هو.. والعرب تقول نسخت الشمس الظل وانتسخته أزالته.. ونسخت الريح آثار الديار غيرتها.[2]

والحصيلة اللغوية: أن معاني النسخ تدور على النقل والتغيير والمحو والإزالة والإبطال.

وعند تدوين العلوم اهتم الأصوليون بموضوع النسخ والملاحظة المهمة هاهنا هو أن الصحابة والتابعين رضي الله عنهم استعملوا هذا المصطلح بتوسع ليدل على أدنى تغيير في الحكم، فاستخدموه في بيان المبهم وتفصيل المجمل وتخصيص العام وتقييد المطلق وفي الاستثناء.. وغيرها وهذه المعاني ليست هي ذاتها ما استقر عليه الأمر في اصطلاح علم الأصول فالمعنى الاصطلاحي قصد به إبطال الحكم المنسوخ فلا يعمل به

[1] أساس البلاغة، الزمخشري، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1323هـ، ج2، ص438.
[2] لسان العرب، ابن منظور، المطبعة الأميرية، ج4، مادة (نسخ)

بتاتا وإزالته إلى بدل، أو إلى غير بدل على التأبيد وسواء أكان البدل حكما أهون أو أشد من الحكم الزائد.

والفرق بين النسخ بهذا المعنى وبين المعاني السابقة من تخصيص وتقييد.. وغيرها ظاهر، فهذه الأخيرة شرح للحكم الأصلي لأنها من أساليب البيان، وليست إزالة مطلقة كما هو الحال بالنسبة لاصطلاح المتأخرين الذي عرفوه بقولهم: "**إبطال الحكم السابق بحكم لاحق بدليل شرعي متراخ** "[1] وما يهمنا التأكيد عليه هنا أن لا شيء من أساليب البيان يؤدي إلى إبطال الحكم السابق، بل يعد شرحا وبيانا وتدقيقا وهذا هو الفرق الحاسم بين النسخ وغيره من أساليب البيان فهو ليس شرحا للحكم بل إبطال له بصفة كلية فلا يعمل الحكم المنسوخ ولا بعض مفرداته البتة، ويستبدل بحكم جديد تماما سواء رفعت ألفاظ هذا الحكم من القرآن أو بقيت تتلى للتبرك وربما كان أول من عبر عن الفرق بين إطلاق المتقدمين والمتأخرين في معنى النسخ هو الإمام الشاطبي . رحمه الله . حيث يقول عن مفهوم الصحابة والتابعين للنسخ: "**كانوا يطلقون على تقييد المطلق نسخا وعلى تخصيص العموم بدليل متصل أو منفصل نسخا، وعلى بيان المبهم والمجمل نسخا ، كما يطلقون على رفع الحكم الشرعي بدليل شرعي متأخر نسخا**"[2] وقول الشاطبي "**رفع الحكم الشرعي بدليل شرعي متأخر**" هو ما استقر عليه معنى النسخ عند الأصوليين، وعلى المعنى نفسه يدور تعريف أبي حامد الغزالي والباقلاني والآمدي وغيرهم.. مع بعض الفوارق التي لا تخرج عن هذا المعنى العام.[3]

وكما رأينا الفرق في استعمال مصطلح النسخ بين المتقدمين والمتأخرين من جهة التوسع في المعنى كذلك نجد فرقا في التطبيق بين الأصوليين والمفسرين فالأصوليون والفقهاء أكثر حذرا في القول بالنسخ من أكثر المفسرين.

---

[1] انظر:النسخ في القرآن الكريم، دراسة تشريعية تاريخية نقدية، مصطفى زيد، دار اليسر، ط2، 2007م، ص118 وما يليها.

[2] الموافقات ، الشاطبي ج3، ص75.

[3] انظر : النسخ في القرآن الكريم ،مرجع سابق ، مصطفى زيد ،ص94 وما بعدها

ومن أجل شرح هذا الكلام لابد من معرفة أقسام النسخ وأنواعه وشروطه عند الأصوليين باختصار شديد.

2. **أقسام النسخ وأنواعه:** من دوافع القول بالنسخ بمعناه الاصطلاحي . إزالة حكم شرعي سابق بحكم شرعي لاحق على التراخي . الضرورة التي تنجم عن تعارض تام بين الأدلة الشرعية بحيث لا يمكن معها جمع بأي حال، ثم تطور النسخ حتى صار نظرية كاملة شملت كل أنواع النصوص من كتاب وسنة،[1] وتنوعت أقسام النسخ عند العلماء من: نسخ القرآن بالقرآن، ونسخ القرآن بالسنة تواترا وآحادا، ونسخ السنة بالقرآن، ونسخ السنة بالسنة، كما تحدث الأصوليون عما يجوز وما يمتنع من هذه الأقسام.[2]

وبالنسبة للنص القرآني تحديدا فقد قسّموا النسخ إلى ثلاثة أنواع:

أ. **نسخ التلاوة والحكم معا:** استدلوا عليه بما رواه مسلم عن السيدة عائشة "كان فيما يتلى من القرآن عشر رضعات معلومات يحرمن ثم نسخت بخمس فتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهن فيما يقرأ من القرآن .

ب . نسخ الحكم دون التلاوة : مثلوا لذلك بنسخ آية الوصية للوالدين والأقربين بآيات المواريث، ونسخ العدة حولا بالعدة أربعة أشهر وعشرا، فالمنسوخ ثابت التلاوة مرفوع الحكم.

ج . نسخ التلاوة وبقاء الحكم: مثلوا لذلك بآية الرجم كما روي عن ابن عمر أنه قال : كان فيما أنزل: "الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالا من الله والله عزيز حكيم"، ومثلوا لذلك بما رواه الشيخان عن أنس أن أصحاب بئر معونة الذين غدر بهم نزل فيهم قرآن، يقول أنس: قرأناه حتى رفع: "أن بلغوا عنا قومنا أن لقينا ربنا فرضي عنا وأرضانا" ثم نسخت.

وذكروا لهذه الأنواع من النسخ حكما متعددة لا مجال لذكرها هنا.

---

[1] انظر نحو موقف قرآني من النسخ ،طه جابر العلواني، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة ،ط1، 2007م ،ص33 وما بعدها .

[2] انظر: بالحجة والبرهان لا نسخ في القرآن، حسام رشدي الغالي، المكتب العربي للمعارف، مصر الجديدة، ط1، 2005م ،ص 19-20.

3. حقائق عن موقف الغزالي من موضوع النسخ: والذي يعنيني من ذكر هذه الخلاصة في موضوع النسخ هو ما تلقيه من ضوء لفهم موقف الشيخ الغزالي منه، ففي موقفه جملة من الحقائق كالآتي:

. الشيخ الغزالي لا يقول بنفي النسخ مطلقا بل يقول بعدم وروده في القرآن تحديدا وإن كان يميل إلى تضييق القول به في السنة أيضا.

. لا ينفي الشيخ النسخ بالاستعمال العام الذي عرف عند المتقدمين، والذي هو بمعنى التخصيص والتقييد والبيان والتفصيل..الخ، لكنه ينفي أن يكون في القرآن آيات محيت ورفعت، أو بطل حكمها وبقي رسمها.

. استنكر الشيخ الغزالي توسع المفسرين في القول بالنسخ وكثرة دعاواهم دون مراعاة للشروط التي ذكرها الأصوليون وهي :

1. ألا يصار إلى القول بالنسخ إلا في حال وجود تعارض وتضاد تام لا حل معه إلا القوال بالناسخ والمنسوخ.

2. نسخ الدليل الشرعي لا يكون إلا بدليل شرعي متأخر في الزمن، متراخ ويكون قد عمل بالدليل الأول زمنا، على أن يكون في الدليل المتأخر ما يدل صراحة على أنه ناسخ للمتقدم.[1]

وقد قدم الباحث مصطفى زيد . في رسالة علمية دقيقة عن النسخ في القرآن الكريم . إحصاء لكل الآيات التي صاحبتها دعاوى النسخ فكانت مئات، وطبق عليها شروط الأصوليين فلم يسلم عنده منها إلا ست آيات من القرآن الكريم[2]، وكتب باحثون آخرون دراسات أخرى أتت على هذه الآيات فشرحتها بما يرفع دعوى النسخ عنها ويعمل أحكامها كلّها.[3]

ومن الغريب أن الآيات التي أحصاها الباحث مصطفى زيد والتي تحمل دعاوى المفسرين بنسخها وهي عدة مئات، لا تكاد تسلم منها سورة في القرآن وفي معظم السور

---

[1] انظر: النسخ في القرآن الكريم، مصطفى زيد، ص180 وما بعدها.
[2] انظر: المصدر السابق، ص337وما بعدها.
[3] انظر: بالحجة والبرهان لا نسخ في القرآن، حسام رشدي، ص51 وما بعدها. وانظر: فقه المقاصد، إناطة الأحكام الشرعية بمقاصدها، جاسر عودة، نشر المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط1،2006م،ص179.

أكثر من موضع.[1] فكيف ينزّل الله قرآنا أحكمت آياته ثم يتبعه بهذا الكم الهائل من الحواشي التي تمحو وتثبت؟؟

4. **دوافع نفي الغزالي النسخ في القرآن:** تتضح بعض دوافع الشيخ الغزالي إلى القول بأنه لا نسخ في القرآن في حرصه على الحفاظ على قداسته وخلوده، وسدا للباب التي دخل منها كثير من المفسرين فأسقطوا أحكاما قرآنية كثيرة بدعوى أنها منسوخة ويكفي أن نعرف أن آية واحدة في زعمهم نسخت أكثر من مئة آية ، قال ابن سلامة: "**إن آية السيف نسخت مئة وأربعة وعشرين آية ثم صار آخرها ناسخا لأولها.**"[2]

وسنشرح موقف الشيخ الغزالي من نسخ آيات القرآن ونتابع عرض ما ذهب إليه والأدلة التي اعتمدها والقصد الذي رمى إليه كالآتي:

أ . نسخ القرآن عند الشيخ الغزالي

يبدأ الشيخ في تحليل الموضوع بالسؤال المباشر: هل في القرآن آيات معطلة الأحكام بقيت في المصحف للذكرى والتاريخ؟ ثم يجيب في صراحة: "نحن لا نميل إلى السير مع هذا الاتجاه الذي يقول بالناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم.. ولا نرى ضرورة للأخذ به"[3] والغزالي . كما سبق . لا يناقش الأساس النظري للقول بنسخ الأحكام العملية خلافا للأخبار التي لا تنسخ لأن نفيها تكذيب مبني على أساس القول بالبداء على الله لا بالنسخ وهو ممتنع بالاتفاق بداهة، ولا ينفي الشيخ أن تكون الشريعة الخاتمة نفسها ناسخة لما سبقها من شرائع الأنبياء في الجملة، فمصالح العباد تختلف باختلاف الأشخاص والأحوال والعصور لذا فهو لا يجادل في إمكان النسخ عقلا بل يحاجج في وقوعه فعلا في القرآن الكريم، وإن كان يجيزه في السنة[4] على اعتبار أنها محل الشرح التفصيلي والتطبيق العملي وهما ألصق بالمتغيرات من أحوال الناس وصالحهم من الخطاب العام الكلي الذي

---

[1] النسخ في القرآن الكريم، ج2، ص04 وما بعدها .

[2] الناسخ والمنسوخ، هبة الله بن سلامة، مطبعة البابي الحلبي، مصر، ص 51.

[3] نظرات في القرآن، ص 194.

[4] وشاهدنا على ذلك أنه رحمه الله كتب تقديما لرسالة للإمام ابن الجوزي عنوانها (إخبار أهل الرسوخ في الفقه والتحديث بمقدار المنسوخ من الحديث) ولم ينكر وجود النسخ في الحديث. انظر هذه الرسالة تحقيق أبي عبد الرحمان الجزائري، مكتبة الهدى الجزائر 1990 م ص5-9. وإن كان رحمه الله يفضل إعمال الأدلة كلها وإطالة النفس قبل رد الرواية أو ادعاء النسخ كما يفهم من تقديمه للرسالة المذكورة.

هو سمة القرآن، لذا يرفض بحزم أن يكون في كلام الله المعجز الخالد ما هو منسوخ الحكم أو منسوخ التلاوة يقول . رحمه الله .: "**عند التحقيق فالتناقض المتوهم لا محل له فالتشريعات النازلة في أمر ما مرتبة ترتيبا دقيقا بحيث تنفرد كل آية بالعمل في المجال المهيأ لها**"[1]، ويشبه الغزالي آيات القرآن بالأدوية والأحوال المتقلبة بالأمراض وارتباط علة معينة بدواء بعينه أمر عادي ،وهذا هو حال الآيات مع الأحوال التي تتنزل عليها.

وباستصحاب الملاحظة التي ذكرتها سابقا من أن الغزالي لا ينظر إلى المعرفة والعلم بوصفهما مجردين عن الواقع وعن الآثار السلوكية والمعرفية التي تتركها مقررات التراث، نجد أن هذه الملاحظة تنطبق بدقة في مجال خوضه في موضوع النسخ بالتحديد، فهو يلاحظ تساهل المفسرين ومؤلفي كتب الناسخ والمنسوخ فيرفض هذا التساهل خصوصا في ما يتعلق بآية السيف، الذي سمّاه "شططا مثيرا" في إبطال جميع الآيات النازلة في معاملة الكفار بالآية التي نزلت في سورة التوبة والتي تسمى آية السيف:**(وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا أن الله مع المتقين)**، ويرى في ذلك جرأة غريبة على الوحي وهي في نظره أكثر من مجرد خطأ علمي "**إنه ظلم للقرآن وحيف على أسلوبه المحكم في معاملة صنوف البشر.**"[2]

كما لاحظ الشيخ أن بعض الكتاب المحدثين استغل القول بالنسخ فطالب المسلمين بالتخلي عن بعض الأحكام التي وردت في القرآن وحجته أن الزمان قد تغير وإذا كانت بعض الأحكام قد محيت وتبدلت في أقل من ربع قرن فإن حكمة التبديل . في زعمهم . تكون أظهر بعد مرور أربعة عشر قرنا، ينقل الشيخ هذا الكلام عن أحمد أمين ويصفه بالمتهافت.[3]

واستغلالا للقول بالنسخ نجد أحد الباحثين المعاصرين يجيء بما يُستغرب من الكلام وبما خالف به الأولين والآخرين فلا يرى أن الآية اللاحقة تنسخ السابقة ولا يرى أن المدني ينسخ المكي بل يرى العكس، زاعما أن القرآن المكي أقرب إلى القيم الثابتة

---

[1] نظرات في القرآن، ص 194.
[2] المرجع نفسه، ص194-195.
[3] نفسه، ص 195.

لاشتماله على معاني الرحمة والتسامح وهي أولى أن تكون ناسخة، فبدل أن تكون آية السيف ناسخة لآيات العفو تكون هي المنسوخة بتلك الآيات.[1]

والشيخ الغزالي . رحمه الله . برأيه في امتناع الناسخ والمنسوخ في كتاب الله يهدف . فضلا عن القيمة العلمية لما ذهب إليه . إلى سدّ باب الفساد الذي حمله القول السابق في مجال التفسير بتعطيل كثير من الأحكام وإعمال أخرى في غير محلها مما انجر عنه فهم سيئ لكتاب الله، وتطبيق قبيح لدينه. وكذا سدّ الباب أمام هؤلاء المعاصرين الذين يوصفون بأنهم مفكرون فيعبثون بالقرآن من باب الناسخ والمنسوخ، والحقيقة أنه لا المكي ينسخ المدني ولا المدني ينسخ المكي بل القرآن كله محكم ولكل مقال في كتاب الله مقام يتنزل عليه وهذا يدخلنا في الحديث عن الدافع الثالث لنفي الشيخ وجود النسخ في القرآن وهو خلود القرآن.

فالشيخ يرى بان خلود القرآن وإحكامه وصلاحيته لكل زمان وكل مكان تُنتقص بمذهب النسخ، لذا يقف مدافعا عن مدرسة المنار عموما ورأي الشيخ محمد عبده والشيخ محمد الخضري في نفيهما للنسخ مناقشا الأدلة التي ارتكز عليها القائلون به وفيما يأتي عرض مناقشة الشيخ الغزالي للأدلة العلمية للقائلين بالنسخ في القرآن.

يعتمد القائلون بالنسخ على أدلة نظرية وأمثلة تطبيقية تدل على وقوع النسخ فعلا في القرآن.

الأدلة النظرية النقلية (عرض ومناقشة): إن القائلين بالنسخ يتعلقون بآيات لا تخدم غرضهم ولا تؤدي إليه وأقواها دليلان من القرآن ودليل من العقل:

1. قال تعالى: **(وإذا بدّلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون قل نزّله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين)**[2].

قالوا التبديل بمعنى النسخ والإزالة والآية هي الآية القرآنية وأوردوا في سبب نزول هذه الآية: أن المشركين من أهل مكة زعموا أن محمدا يسخر من أصحابه، يأمرهم اليوم

---

[1] بالحجة والبرهان لا نسخ في القرآن، ص30

[2] النحل، 101-102.

بأمر وينهاهم عنه غدا، فما هو إلا مفتر يتقوّله من تلقاء نفسه فأنزل الله هذه الآية ومعناها في نظرهم: إذا نسخنا حكم آية فأبدلنا مكانه حكما آخر، والله أعلم بما ينزل اعتراض دخل في الكلام أي :والله أعلم بما ينزل من الناسخ، وبما هو أصلح لخلقه، وبما يغير ويبدل من أحكامه، ففي الكلام نوع تقريع وتوبيخ على قولهم (**إنما أنت مفتر**) أي تختلقه من عندك[1].

يعلق الشيخ بالقول: "**وهذه التأويلات كلها التي نقلناها عنهم بعيدة عن الآية،**
ثم يوضح رأيه بالقول: "**عند أقل تأمل يرى المنصف أن ما ينسب إلى المشركين من كلام حول النسخ إنما هو مفتعل ، ولا يصلح جعله سببا لنزول هذه الآية الكريمة ، فسورة النحل مكيّة وليس فيما نزل قبلها وحي تضمّن حكما نسخ بأشق منه أو بأهون حتى يكون ذلك مثار لغط بين المشركين، أو اعتراض على القرآن بما يقع فيه من تناقض، أين الحلال الذي حرّم والحرام الذي أحل قبل سورة النحل؟ إن شيئا من ذلك لم يحدث فضلا عن أن يستفيض، فضلا عن أن يتندر به المشركون وينسب به محمدا صلى الله عليه وسلم إلى الافتراء**[2].

إن كلام الشيخ الغزالي في غاية الدقة والقوة لكن إذا لم يكن ما عرضوه هو التفسير فما هو تفسير هاتين الآيتين؟

يختار الغزالي ما يراه تفسيرا صحيحا من أن المشركين لم يقتنعوا باعتبار القرآن معجزة تشهد لمحمد صلى الله عليه وسلم بصحة النبوة وتطلعوا إلى خارق كوني من جنس معجزات الأنبياء السابقين ، وقد ردّ الله تعالى في الآيتين السابقتين على هذه الطعون بأنه أدرى بنوع الإعجاز الذي يصلح للعالم في حاضره وغده [3]، ثم يدعم رأيه في تفسير آية سورة النحل بالآية الكونية (أي المعجزة) باعتبار سياق الآيات المحكم الذي يربط اللاحق بالسابق ويؤكد بأن الآية إذا قرأت في تجرد وبساطة ولم يفك رباط سياقها تجدها لا تحتمل إلا هذا الشرح القريب، وهو الشرح الذي يربط بها ما بعدها في اتساق وإحكام،[4]

---

[1] نظرات في القرآن، ص201.
[2] المصدر السابق، الصفحة نفسها.
[3] المصدر نفسه، ص 202.
[4] وهو إعمال لمنهج التفسير الموضوعي الذي يرتكز على سياق الآيات الداخلي والخارجي كما سنرى في فصول البحث النظري في الفصول اللاحقة بحول الله.

2. قال تعالى: **(ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ألم تعلم بأن الله على كل شيء قدير).**[1]

والمعنى الذي ذكره جمهور المفسرين أن الآية هنا هي الآية القرآنية وقوله تعالى نأت بخير منها أو مثلها، أنه الأضعف أو الأصلح، واختلفوا هل يجوز نسخ الحكم إلى غير بدل أو أن النسخ لا يكون إلا إلى بدل، وخالف أبو مسلم الأصفهاني هذا التفسير وذهب إلى أن معنى الآية الشرائع السابقة على شريعة الإسلام. كما فسّر النسخ بأنه النقل من اللوح المحفوظ، والإمام الرازي يرى في تفسيره بأنها بمعنى الشرط والجزاء كما في قولك: من جاءك فأكرمه، لا يدل على المجيء بل إنه متى جاء وجب الإكرام، أي أن الآية لا تدل على وقوع النسخ فعلا ولكن تدل أنه لو وقع لكان إلى خير منه لأن ما هنا شرطيّة[2].

أما الشيخ الغزالي فيحاكم المفسرين إلى سياق الآيات المنضودة في سورة البقرة، فيرى أن تفسير لفظ الآية بالآية القرآنية يبتر الجملة الشرطيّة عمّا قبلها وعمّا بعدها، ويعزلها عزلا لا يغني فيه تمحّل ولا تكلف، ثم إن القول بآيات نسخ لفظها وحكمها معا وأنسيها الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه جميعا كلام لا وزن له.. وما معنى أن يؤتى بناسخ مساو للمنسوخ ؟ كما انه لو كان القصد الحكم الفقهي لكان الأولى تذييل الآية بأن يقال: إن الله عليم حكيم، لا أن يقال إن الله على كل شيء قدير[3] ويلفت الشيخ الغزالي النظر إلى ملابسات النزول وأحواله، فالسيرة النبوية لم تشر من قريب أو من بعيد إلى معارضة المشركين وتساؤل المؤمنين حول أمر النسخ، ولم تنزل في المجتمع الإسلامي الأول آية بتحليل ثم أتت بعدها آية بتحريم، لا في مكة ولا في المدينة وأنه تبعا لذلك لم تنزل آية بتخويف أحد كي يقول بالنسخ.

---

[1] البقرة، 106.

[2] انظر: التفسير الكبير، الإمام الرازي، ج3، ص207.

[3] انظر: نظرات في القرآن، ص203.

كما يلفت الشيخ الانتباه إلى "**جو السورة**"[1]، فتفسير القائلين بالنسخ مع تفكيكهم للسياق بعيدون عن جو السورة التي كانت تناقش أهل الكتاب وتندد بمواقفهم وتشير إلى تعنتهم في تكذيب محمد صلى الله عليه وسلم واقتراح خوارق مما ألفوا مع أنبياء بني إسرائيل[2]. و يختار الشيخ التفسير الذي يراه ملائما لجو السورة وتماسك سياق الآيات ومتناغما مع أحوال النزول وهو أن النسخ هنا بمعنى التبديل نفسه الذي في آية سورة النحل الذي يقصد به الآية الكونية(المعجزة) لا الآيات الشرعية.[3]

ويعضد الغزالي هذا التفسير بما فسّر به الشيخ محمد عبده الآية ونقله صاحب المنار، من أن المعنى الصحيح الذي يلتئم مع السياق إلى آخره أن الآية هنا هي ما يؤيد الله تعالى به الأنبياء من دلائل على نبوتهم[4]

3. الدليل الثالث الذي يعتمده القائلون بالنسخ هو إمكان النسخ عقلا ووقوعه شرعا، والشيخ لا يناقش في الإمكان العقلي، لأنه لا يدل بنفسه على الوقوع الشرعي، لكنه يتخذ طريقا استقرائيا يحصي فيه أهم دعاوى النسخ ويفندها، موافقا في ذلك أسلوب الشيخ محمد الخضري الذي ذهب هذا المذهب في كتابه أصول الفقه بناء على **أن النسخ مسألة خطيرة وعلى المتكلم فيها أن يقدم الحجة القاطعة.. بعد أن ثبت أن القرآن حجة قاطعة يجب الاستمساك بنصوصه كلها والعمل بها.**"[5]

ويتابع الشيخ الغزالي الشيخ الخضري في تفنيد وقوع النسخ في القرآن من جهة استقراء الآيات وتفسيرها بما يرفع دعوى النسخ، فما من آية قيل بنسخها إلا كان القول بإعمالها أبين في العين وأرجح لدى الموازنة، والاستقراء دليل لا يقبل اللجاجة.. فالإمكان شيء والوقوع في الكتاب العزيز شيء آخر لم يحدث، وكل آية

---

[1] وهو من صميم أبجديات التفسير الموضوعي للسورة القرآنية وسنبن ذلك عند دراسة أنواع التفسير الموضوعي

[2] المصدر نفسه، ص 204.

[3] المصدر السابق، ص 204.

[4] انظر: تفسير المنار، ج1، ص339.

[5] أنظر: نظرات في القرآن، ص 207 وأصول الفقه، محمد الخضري بك ، دار الفكر، بيروت ،1988م، ص 250-255.

ظن نسخها يستبين لدى التأمل أنها نافذة الحكم وصدق الله[1]**(لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد)**.[2]

هكذا يتوافق رأي الشيخ الغزالي مع رواد مدرسة المنار في القول بعدم وجود النسخ في القرآن وهو مذهب أبي مسلم الأصفهاني[3] ، يقول الشيخ الخضري فيما نقله عنه الشيخ الغزالي: "**ومن سلف العلماء الذين منعوا أن يكون في القرآن منسوخ أبو مسلم الأصفهاني، المفسر الكبير ، وقد رأينا أقواله في تفسير الرازي ويظهر من خلال كلام الرازي أنه ميّال لرأي أبي مسلم في ذلك**"[4].

أما نسخ القرآن بمعنى رفع اللفظ والحكم جميعا فإن الشيخ الغزالي . رحمه الله . يعلّق على ما روي فيه بأنه كلام لا وزن له[5].

ومما روي في مسند أحمد عن أبي بن كعب أن سورة الأحزاب كانت تعدل سورة البقرة ثم نسخ منها أكثرها ولم يبق منها إلا ما يقرأ في المصحف، يعلّق الشيخ على هذه الرواية فيقول :"**هذا كلا م سقيم فإن الله لا ينزل وحيا يملأ أربعين صفحة ثم ينسخه أو يحذف منه أربعا وثلاثين ويستبقي ست صفحات وحسب، وهذا هزل ما كان ليروى ، والمسند قد ترى فيه الأحاديث الواهية والموضوعات المرفوضة و أنبه إلى أن ما يتصل بالقرآن لا يحتمل هذه الحكايات المنكرة**".[6]

أنبه في ختام هذا العنصر إلى أن جمهور المسلمين قالوا بوجود النسخ في القرآن، و مع أن رأي الشيخ الغزالي لم يسانده في القديم إلا رأي أبي مسلم الأصفهاني، ومدرسة المنار حديثا إلا أنه يبدوا في غاية القوة والإقناع وهو ما يدل على شجاعة الشيخ الغزالي وجرأته في الحق، كما يدل على بعد نظره العلمي.

---

[1] نظرات في القرآن، ص 207.

[2] فصلت، 42.

[3] أبو مسلم الأصفهاني: هو محمد بن بحر كان كاتبا بليغا ومتكلما جدلا وهو من المعتزلة كان عالما بالتفسير وبغيره من العلوم، ولد 245هـ وتوفي 322هـ، له كتاب في التفسير كبير في 14 مجلدا.انظر: الفهرست،ابن النديم، ص 202.

[4] نظرات في القرآن، ص 211، وانظر: أصول الفقه ، محمد الخضري بك، ص 251.

[55] نظرات في القرآن، 203 ص

[6] تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل ، ص127-128.

ثم إن الشيخ الغزالي نظر في تراث المسلمين فوجد كلاما يكاد يقضي على القرآن من جراء المبالغة في القول بالنسخ فعد ذلك من أخطاء المفسرين بل من خطاياهم.[1]

ومنع النسخ من قبل الشيخ يتسق تماما مع محاربته لهجران القرآن، ومحاربته لأدنى شبهة تقترب من الإخلال بتواتره، كما يتسق مع تأكيده أن القرآن الكريم أصدق ما بقي من وحي على ظهر الأرض يهدي حياة الناس، فإذا ضاع القرآن فلا سبب يبرر بقاء الإنسانية لحظة بعده، ومن مقتضيات التجاوب مع هذه الحقيقة أن يجنب القرآن كل ما يسيء إلى رئاسته أو خلوده أو إعجازه أو ثبوته حرفا حرفا وكلمة كلمة.

رابعا: المعجزة القرآنية وخوارق العادات

من سنن الله تبارك وتعالى أن يؤيد أنباءه ورسله بآيات عليها يؤمن البشر، لما تبهر من أنظار وتستهوي من نفوس، وتأتي هذه الآيات مقترنة بالتحدي لتُعجز العقل فيذعن لها، ومن ثم سميت معجزات..

والفارق الأساس بين معجزات الأنبياء والرسل قبل محمد صلى الله عليه وسلم ومعجزة رسول الله كالفرق بين طبيعة رسالاتهم وطبيعة رسالته، فقد كان الرسل يبعثون إلى أقوامهم خاصة وأرسل محمد إلى العالمين.. وارتبطت مدد الرسالات السابقة بمدى ما يحافظون عليه من ميراث السماء، وتنقضي بضياع الوحي وانطماس كتبه، وكتب الله لدين محمد الخاتمية والخلود.. وتجانسا مع هذا الوضع تغيرت الأدلة التي نصبها الله أعلاما على صدق الأنبياء "**فكانت معجزات الأنبياء شيئا آخر غير الرسالات التي يبشرون بها ويدعون إليها، فطب عيسى غير إنجيله وعصا موسى غير توراته، وشاء الله أن يجعل معجزة الرسالة الأخيرة شيئا لا ينفصل عن جوهرها، فجعل حقائق الرسالة ودلائل صحتها كتابا واحدا.**"[2] وهناك فارق آخر بين "القرآن" معجزة محمد عليه السلام ومعجزات الأنبياء السابقين هو أن القرآن معجزة عقلية، وغيره معجزات مادية، وسبب هذا الفرق أن البشرية قد بلغت رشدها وتخطت مرحلة الطفولة وفي هذا المعنى يقول الغزالي: "**الفارق بين**

---

[1] أنظر :المصدر السابق ، ص 126.

[2] عقيدة المسلم، محمد الغزالي، ص183

توجيه العرب بالقرآن وتوجيه اليهود بنتق الجبل كالفارق بين صوت الإرشاد يهدي العاقل إلى الطريق، وسوط العذاب يلسع الدابة البليدة لتمضي إلى الأمام"[1] .

لكن هل القرآن الكريم هو معجزة النبي صلى الله عليه وسلم الوحيدة ؟ أم كانت مع كتاب الله المعجز خوارق مادية أخرى تدل على صدقه عليه السلام ؟

يدرك الشيخ الغزالي أن في المسألة خلافا مشهورا وأن رأي الجمهور أن الخوارق المادية معجزات مع القرآن الكريم[2].. لكن الشيخ يذهب مع فريق من العلماء المحققين أن القرآن هو المعجزة الفريدة لرسول الله عليه الصلاة والسلام. **يقول:** "**والمحققون على أن الآيات المادية التي وقعت لا تحمل اسم المعجزة وإنما هي خوارق بثها الله في طريق نبيه وجعلها مشابهة لما وقع للرسل السابقين حتى لا يمتازوا عليه بشيء يعجب الجماهير ويرونه دلالة تفوق**" ويؤكد على هذا المعنى في فقه السيرة بالقول: "**من المحققين من يرى أن القرآن هو المعجزة الفريدة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وهم يلحظون في هذا الحكم التعريف اللفظي للمعجزة من أنها خارق للعادة مقرون بالتحدي ولم يعرف هذا التحدي إلا بالقرآن وقد ملنا إلى قريب من هذا الرأي، لا بالنظر إلى التعريف اللفظي للمعجزة بل بالنظر إلى القيمة الذاتية للخوارق الأخرى بالنسبة إلى الأهداف الرفيعة التي جاء بها الإسلام.**"[3]

وهذه ملاحظة ذكية من الشيخ الغزالي، فما قيمة انشقاق القمر أو نبع الماء من بين أصابعه عليه السلام إذا قورن بما يحمل القرآن من مشعل الهداية للناس كافة إلى يوم الدين؟ والشيخ قال: "**ملنا إلى قريب من هذا الرأي**" ولم يقل إلى هذا الرأي لأنه لا ينفي خوارق العادات التي حدثت لرسول الله صلى الله عليه وسلم واستفاضت بها الروايات، ولأنه أيضا يرى أن لها بعض الدلالة في تصديق النبوة، وفي هذا المعنى يقول: "**هذه الخوارق تحمل طابعا خاصا ينبغي أن نعرفه حتى لا نتجاوز به حدوده الصحيحة، هذه**

---

[1] فقه السيرة، محمد الغزالي، ص 44.
[2] نظرات في القرآن ،ص 220.
[3] فقه السيرة ،ص 45.

الخوارق ثانوية الدلالة في تصديق النبوة والشهادة لها[1]، ويعود الغزالي، في كتابه نظرات في القرآن للقول إنه لا يبالي بالأوصاف فالعبرة بالحقائق و الراويات المستفيضة دلت على وقوع خوارق شتى فعدها البعض معجزات كالتي أوتيها الأنبياء قبل محمد، أما هو . كما يقول عن نفسه . فلا يمنحها هذه الصفة حتى ينفرد القرآن وحده بموقف التحدي والإعجاز[2]

والشيخ الغزالي في هذا الرأي يتناسق مع فكره ومنطقه، إنه ينحاز إلى القرآن ولا يريد أن يزاحم كتاب الله شيء، ليبقى هو الآية الباهرة والمعجزة الخالدة التي لا يدانيها في عظمتها ووجوب تدبرها شيء، كما أن الشيخ يرتكز في رأيه على أدلة القرآن الكريم التي أبت أن تجيب المشركين لما طلبوا من خوارق العادات، ويرى بأن طلبهم هو من بقايا الطفولة الفكرية المهيمنة على قبيلة قريش، وما كان الله ليستجيب لها وقد انتقل بالناس نقلة نوعية إلى مستوى هذه المعجزة العقلية العظيمة "**القرآن الكريم**."[3]

ولا يبعد أن يكون الشيخ الغزالي وهو يتحدث عن معجزات نبي الإسلام أن يستصحب واقع التخلف للمسلمين ورجوعهم هم أيضا إلى عصر الطفولة الفكرية، إذ من المفارقات العجيبة أن الأمة التي جعل الله معجزة نبيها معجزة عقلية لتكون طليعة للإنسانية في النضج قد تردت إلى سذاجة خرافية تحفل بالخوارق وتقيم لها التجمعات، في الوقت الذي يتقدم فيه اليهود والنصارى إلى استكناه الكون واستنطاقه بالعلم المحض والعقل الكبير والتجربة الموضوعية القائمة على الأسباب والمسببات.

إن احتفاء المسلمين في عصور تخلفهم بخوارق العادات جعل من واجب الشيخ المصلح أن يذكرهم بقيمة ما بين أيديهم من موازين الحق و الهداية ومعالم الصراط المستقيم.

من هنا نجد أن الشيخ الغزالي يرى أن الكرامات التي قيست على المعجزات وأعلى الناس من شأنها وأكثروا التأليف فيها موضوعات ومشغلات لا وزن لها "**ولا صلة لها**

---

[1] عقيدة المسلم ، ص185.

[2] انظر : نظرات في القرآن ،ص 223.

[3] انظر : عقيدة المسلم ، ص 185-186.

بالعقيدة أو العمل فالرجل الفاسد لا يَغْفِرُ له فساده إيمانه بأن الرسول قد أظلته غمامة أو كلّمه جماد والرجل الصالح لا يغمز مكانته إنكاره لهذه الخوارق"[1] وهذه محاولة من الشيخ يسترجع بها الأمة إلى وعيها ويداوي حالها المريض، فهو يلاحظ الأثر السلبي الذي أحدثته المبالغة في حديث الكرامات من قبل دراويش يخدرون عقول الناس فيقول في هذا المعنى: "**سرت في المسلمين لوثة شنعاء في نسبة الخوارق إلى الصالحين منهم حتى كادت جمهرتهم أن تقرن بين علو المنزلة في الدين وخرق قوانين الأسباب والمسببات ..الخوارق التي يتهامس بها المفتنون لأوليائهم هي تعبير سيء عن رذائل الكسل والحمق التي تكمن في طوياهم**".[2]

وقد عرف الغزالي بجرأته العلمية الكبيرة فهو لا يبالي إن قيل إن الغزالي ينكر الكرامات، أو إن جمهور الناس في غير صف الغزالي وهو لم يصرح بإنكاره للكرامات، لكنه لا يحفل بها على كل حال، بخلاف كثير من العلماء في ترثنا الذين تحمسوا لهذه الخوارق ورووا منها ما يستثير العجب وحشو بها كتب العقائد فكانت إرثا ثقيلا هو بعض سبب الغفلة التي تعيشها أمتنا اليوم[3] في عالم يدرس عجائب الكون في أجزائه القريبة والبعيدة بعقل جبار.

---

[1] فقه السيرة ، ص 45.

[2] المرجع نفسه ، ص 45-46.

[3] اقشعر بدني وأنا أقرأ في الطبقات الكبرى للشعراني من عجائب قصص الكرامات المستهجنة، وبحمد الله وجدت الشيخ رشيد رضا يرد هذه الخزعبلات بأحسن ما يكون الرد في تفسير المنار أورد بعضها هنا مختصرا وبتصرف قال رحمه الله: تأمل ووازن تجد في أولياء الشعراني المجانين والمجّان والقذرين الذين تناثرت الحشرات من رؤوسهم ولحاهم وثيابهم التي لا يغسلونها حتى تبلى.. تأمل ترجمته للأقطاب الأربعة؟؟ فإنك لا تجد إلا الشيخ عبد القادر الجيلاني كان ينفع الناس بعلوم الشرع، أما أحمد الرفاعي فكان يوبخه علماء عصره ويلقبونه بالدجال، وأما الدسوقي فزعم أنه كان يتكلم العجمي والسرياني والعبراني والزنجي وسائر لغات الطيور والوحوش ونقل عنه كتابا عن هذه اللغات إلى أحد مريديه هو محض تخريف(موز الموز، عموز النهوز، سلاحات أفق، فرد نانية أمق..) وكان يقول أنا موسى في مناجاته أنا علي في حملاته، وقد كنت أنا وأولياء الله أشياخا في الأزل؟؟ وجاء في كتب الرفاعية أن شيخهم مس بيده سمكة فأرادوا شيها بالنار فلم تؤثر فيها وقال: وعدني العزيز أن كل لمسته لا تحرقه النار في الدنيا ولا في الآخرة، وزعموا أنه كان يميت ويحيي وأنه وصل إلى مقام صارت السماوات السبع في رجله كالخلخال؟؟ وأنه باع بستانا لبعض الناس في الجنة؟؟ ولولا خشية الإطالة لذكرت من تخريفات القوم ما هو أغرب على غرابة ما ذكرت. فلنتأمل كيف جنت الخرافة على عموم الناس حين اتسع القول بالولاية والكرامة على نحو لم يعرف لا في كتاب ولا في سنة ولا في سيرة نبوية. أنظر ما ذكره الشيخ رشيد رضا في تفسيره سورة يونس الآية 62. ج11، ص421-425 من تفسير المنار كما أن الشيخ الغزالي حمل على هذا التفكير في أكثر من مؤلف له، وعلى سبيل المثال تحت عنوان: خوارق العادات معناها ودلالتها، يقول: الخرافيون من الناس آفة الأديان وآفة الأخبار في كل زمان والبعض يحلو له أن يجعل من الاستثناء قاعدة ومن الشذوذ قانونا وهنا الطامة التي تعصف بالدين وقد ثارت فوضى

والحق مع الشيخ الغزالي وإن بدا مخالفا لأكثر الناس فهو جدير بأن يكون له في المسألة رأي ومنطقه قوي ولعله لو رأى بعض العلماء ما آلت إليه قطاعات واسعة من الأمة في الإيمان بالخرافة والبعد عن العقل وإلباس جهلها لباس الدين لعدلوا عن رأيهم إلى رأي الغزالي رحمه الله، لاسيما وأن أمما أخرى حولها تغوص في أعماق المحيطات وتطير في الفضاء الخارجي دون أن تنتظر كرامة تحملها في الهواء أو تمشي بها على الماء.

كما أن الغزالي وهو يرجح بين خوارق اتسعت وسنن كونية واجتماعية ثابتة بنصوص القرآن أُهملت ونُسيت، لابد أن ينحاز إلى الأسباب والمسببات فعليها بنى القرآن العقلية المسلمة وطلب من الناس إعمار الأرض التي سخرت لهم وذلك لا يكون إلا من باب العلم بالأسباب، بل تحدث القرآن أن لكل شيء سببا حتى دخول الجنة أو النار هو ثمرة عمل الناس وكسبهم، ولقد رأينا في تاريخنا من يحكم بكفر من ينكر كرامات الأولياء؟؟ ولم نر من يحكم بكفر من ينكر الأسباب ويتواكل على الله، بل من الناس من جعل ذلك أعلى درجات التوكل على الله من بلغها دخل البادية بلا زاد؟؟[1]

إن الشيخ الغزالي وهو يرى الأمة التي أكرمها الله بالقرآن الكريم هذه المعجزة العقلية الباهرة تتحطم عقول أبنائها على صخرة رواية الكرامات وترتد إلى الخرافة، كان لا بد أن يقف هذا الموقف، ويستشهد الشيخ بكلام قوي عن منهج رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه يقول: "**والنبي صلى الله عليه وسلم لم يكن رجل خيال.. يبني حياته ودعوته على الخرافة، بل كان رجل حقائق يبصر بعيدها كما يبصر قريبها.. بذل أقصى ما في طاقته من حذر وجهد وما فكر هو ولا احد من صحابته أن السماء تسعى له**

هائلة في ميدان التفكير الديني بسبب هذا التوسع المريب..الخ. أنظر: ركائز الإيمان بين العقل والقلب، محمد الغزالي دار الشروق القاهرة، ط3، 2006م، ص 241-242.

[1] ذكر القشيري في رسالته باب التوكل ج1، ص: 382 قصصا تثير العجب في ترك الأسباب وهو ليس من التوكل في شيء، قال بعضهم: حججت أربع عشرة حجة حافيا على التوكل؟؟ فكان يدخل في رجلي شوكة فأذكر أني قد اعتقدت على نفسي التوكل، فأحكها في الأرض وأمشي. وقال آخر: إني أستحي من الله أن أدخل البادية= =وأنا شبعان، قد اعتقدت التوكل لئلا يكون شبعي زادا أتزود به؟؟، وقال آخر: دخلت البادية مرة بغير زاد فأصابتني فاقة فرأيت المرحلة(قرية أو محل استراحة) من بعيد فسررت بأني قد وصلت، ثم فكرت في نفسي أني سكنت واتكلت على غيره تعالى، فآليت ألا أدخل المرحلة حتى أحمل إليها، فحفرت لنفسي في الرمل حفرة، وواريت جسدي فيها إلى صدري فسمعوا صوتا في نصف الليل عاليا يقول: يا أهل البادية إن لله وليا حبس نفسه في الرمل فالحقوه.. فجاءني جماعة فأخرجوني وحملوني؟؟ وهذه القصص نوع من الانتحار الذي لا يعرفه الإسلام ولو مات أحد هؤلاء فإلى حيث ألقت، فسنة رسول الله وسلوك أصحابه وقيم الإسلام كلها ضد هذا التهور الذي يرى التوكل ـ وهو عمل القلب ـ متعارضا مع اتخاذ الأسباب.

حيث يقعد، ولم تكن خوارق العادات و نواقض الأسباب أساسا ولا طلاء في بناء رجل عظيم وأمة عظيمة.[1]

الخلاصة أن خلود معجزة الإسلام التي بلغت ذروة الكمال شكلا ومضمونا فلا تصل إلى القرآن يد غادر أو مخرف لا في أسلوبه ولا في معانيه هذه المعجزة هي أساس بناء الفرد والأمة بما تحمل من معالم الهداية التي يجب على المسلمين أن يحفلوا بدراستها ويعضّوا عليها بالنواجذ في الالتزام بها وتمثلها، أما فشو ظاهرة التفكير خارج إطار الأسباب والسنن فهي ظاهرة مرضية، لو كتب لها الاتساع والانتشار لقضت على معنى خلود القرآن ومعنى إعجازه، ولكانت دليلا سافرا على ذهول المسلمين عن دلالات معجزتهم السامية التي بين أيديهم وعن وظيفتها في هداية الناس إلى خير ما في الدنيا والآخرة.

وبعد هذه السياحة في فقه الشيخ الغزالي القرآني ندعه لننتقل إلى التأصيل لمنهجه في التعامل مع القرآن الكريم عموما وهو منهج التفسير الموضوعي، على أن أعود لتفصيل حقيقة هذا المنهج عنده في الفصل السادس.

---

[1] فقه السيرة، محمد الغزالي، ص 46.

الفصل الثاني

تفسير القرآن الكريم ومكانة التفسير الموضوعي

المبحث الأول

الحاجة إلى تفسير القرآن الكريم

المبحث الثاني

المنحى العام لتطور علم التفسير

المبحث الثالث

التفسير الموضوعي بين مدارس التفسير الحديثة

المبحث الأول

حقيقة التفسير والحاجة إليه

من المهم أن أذكّر في بداية هذا الفصل أنني وجدت أثناء بحثي أن تعامل الشيخ الغزالي مع القرآن الكريم . بيانا وهداية وتفسيرا . الذي استقر عليه هو المنهج الكلي الجامع وهو **منهج التفسير الموضوعي** الذي أكسب الشيخ فقها قرآنيا عميقا، كما أنني وجدت الشيخ غير مهتم بالتنظير لهذا المنهج والكتابة الآكاديمية فيه فبدأت بالبحث في مفهوم التفسير الموضوعي وحقيقته وضوابطه العلمية والأخلاقية والإشكالات والعقبات التي واجهته عموما، ثم إنني انتقلت من العموم إلى الخصوص لتفصيل القول عن التفسير الموضوعي وخصائصه وغاياته عند الشيخ الغزالي . رحمه الله . وقدمت نماذج عملية عن ذلك مبينا أيضا نقده وتقويمه لتراث المفسرين كما هو موضح في الفصل الأخير.

ومن المطالب التمهيدية الضرورية في إدراك مباحث تفسير القرآن ومن ثم التفسير الموضوعي للقرآن معرفة معنى التفسير والتأويل وأثر الحدود على المعاني فيما يتصل بهذين الاصطلاحين، كما من الضروري أن نتبين قيمة التفسير بمدى الحاجة إليه، لنتمكن بعد هذا المبحث من معرفة تطور علم التفسير، وبالذات مناهج المفسرين فيظهر جليا أمام أنظارنا ما يتمتع به المنهج الموضوعي في التفسير من مكانة وفائدة علمية.

المطلب الأول

تعريف التفسير في اللغة والاصطلاح

1 التفسير في اللغة

نستخلص ذلك من قواميس اللغة ومعاجمها، قال ابن منظور في اللسان : "الفسْر :البيان ، ويقال فَسَرَ الشيء وفسَّره أي: أبانه والفسْر : كشف المغطى ، والتفسرة : البول الذي يستدل به على المرض.. وكل شيء يعرف به تفسير الشيء ومعناه فهو تفسرته. والتفسير: البيان وهو كشف المراد عن اللفظ المشكل"[1].

[1] لسان العرب ، جمال الدين ابن منظور، طبعة دار صادر، ج5، ص55.

وقال الكفوي في الكليات: "التفسير: الاستبانة والكشف، والعبارة عن الشيء بلفظ أيسر وأسهل من لفظ الأصل.. قال أهل البيان : التفسير هو أن يكون في الكلام لُبس وخفاء فيؤتى بما يزيله ويفسره .."[1].

وجاء في القاموس المحيط أن الفسر: الإبانة وكشف المغطى[2]. وبعضهم يرى علاقة في المعنى بين فسر وسفر على سبيل القلب أو الاشتقاق، فتقول أسفر الصبح، ووجهٌ سافر أي ظاهر ومكشوف[3]

وملاحظتي على ما سبق هو أن أقوال علماء اللغة تكاد تتفق على أن التفسير في لغة العرب لا يخرج عن الحقائق والمعاني الآتية:

- اللفظ مأخود من مصدر الفسر وجذره الثلاثي "فسر"، يقال فسر الشيء فسرا، والفعل من التفسير هو الثلاثي المزيد المضعّف: فسّر ، يقال: فسَر الشيء تفسيرا .
- كما يتفقون على أن المعنى يدور حول : البيان والإظهار والإيضاح وكشف المغطى ، ومنه قوله تعالى : **(ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا)**[4]أي أحسن بيانا أو أحسن تفصيلا كما نقل عن ابن عباس[5]، وهو الموضع الوحيد من القرآن الذي ذكر فيه التفسير بلفظه.
- كما أن التفسير يستعمل لغة في الكشف الحسي ، تقول : فَسَرتُ الفرس ، عرّيته لينطلق من حصره ، وهو راجع لمعنى الكشف ، كأنه كشف ظهره لهذا الذي يريده من الجري ، كما يستعمل في الكشف المعنوي بالإبانة عن المعاني المعقولة من وراء الكلام واستعماله هنا أكثر وأشهر[6].

---

[1] الكليات ، معجم المصطلحات والفروق اللغوية، أبو البقاء أيوب بن موسى الكفوي ، مؤسسة الرسالة، ص62.
[2] القاموس المحيط، محمد بن يعقوب، الفيروز أبادي، دار الفكر، بيروت، ط1، ج2 ، ص417
[3]أنظر البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي، دار الحديث القاهرة، 2006م، ص110.
[4] الفرقان ، 33.
[5] البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي، ص 416
[6] أنظر البرهان، مصدر سابق ص 415، نقله عن ابن الأنباري، وانظر: كيف نتعامل مع القرآن العظيم ، يوسف القرضاوي ، دار الشروق، ط5، 2006م، ص197

والخلاصة: أن التفسير راجع إلى معنى الإظهار والكشف[1] وتفسير الكلام أخص وهو بيان ما خفي من معناه وتوضيحه وإزالة إشكاله والكشف عن المراد منه ، وتفسير القرآن في اصطلاح العلماء أخص من ذلك كله.

2 اصطلاح تفسير القرآن:

إذا أضيف لفظ التفسير إلى كلام الله فهو يعني إيضاح معانيه وشرح مراد الله وقصده بلفظ القرآن وبيان ما أشكل فهمه أو ما أغلق من المراد بلفظه من المعاني.

إلا أن القرآن اختص بلفظة التفسير والسنة النبوية تشترك مع غيرها من النصوص اللغوية في ألفاظ الشرح والمعنى ، مع أن أصل المعنى اللغوي واحد كما قال ابن فارس "**معاني العبارات التي يعبر بها عن الأشياء ترجع إلى ثلاثة: المعنى والتفسير والتأويل**"[2] ، فنقول اصطلاحا تفسير القرآن ولا نقول شرحه ، ونقول شرح السنة ولا نقول تفسيرها ، وهو الغالب في الاستعمال.

وللعلماء في بيان معنى تفسير القرآن تعاريف اصطلاحية شتى نذكر منها عند السابقين :

1- ما ذكره الإمام السيوطي أن تفسير القرآن هو: "**علم نزول الآيات ، وشؤونها وأقاصيصها ، والأسباب النازلة فيها ، ثم ترتيبه مكّيها ومدنيّها، وبيان محكمها ومتشابهها ، وناسخها ومنسوخها ، وخاصها وعامها ، ومطلقها ومقيدها ، ومجملها ومفسرها ، وحلالها وحرامها، ووعدها ووعيدها ، وأمرها ونهيها ، وعبرها وأمثالها ، ونحو ذلك**[3].

2- وعرفه أبو حيان في البحر المحيط بأنه: " **علم يبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن ومدلولاتها وأحكامها الإفرادية والتركيبية ، ومعانيها التي تحمل عليها حالة التركيب وتتمات لذلك**[4].

---

[1] البرهان ، مصدر سابق، ص 415.

[2] المصدر نفسه، ص 415.

[3] الإتقان في علوم القرآن ، جلال الدين السيوطي، دار الفجر للتراث، 2006م، ج2، ص 274 .

[4] البحر المحيط ، أبو حيان التوحيدي، مطبعة السعادة، 1328هـ ,ج1، ص5

3- وعرفه الإمام الزركشي في البرهان فقال : " **علم يعرف به فهم كتاب الله المنزل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، وبيان معانيه واستخراج أحكامه وحكمه**"[1].

والملاحظ على التعريفين ، الأول والثاني ، التفاتهما للإطناب والتوسع والشرح ، وإدخالهما ما ليس من معنى التفسير فيه ، كأحكام التلاوة في قول أبي حيان : " **علم يبحث فيه عن النطق بألفاظ القرآن** " وهو ليس من معنى التفسير، وكإمدادات التفسير التي تدخل ضمن علوم القرآن ، والتي تعين المفسر في الوصول إلى المعنى الصحيح وليست من التفسير كأسباب النزول والعلم بالمكي والمدني والمطلق والمقيد وغير ذلك مما يحتاج إليه المفسرون، وأظهرها : تعريف الإمام الزركشي .

كما ذكر العلماء المحدثون تعاريف أخرى لتفسير القرآن قد تكون أحق به لما تميزت به من الإحكام والاختصار من هذه التعاريف:

1. ما أورده الشيخ عبد العظيم الزرقاني دون إسناده إلى أصحابه فقال : "**وعرفوا علم التفسير أيضا بأنه علم يبحث فيه عن أحوال الكتاب العزيز، من جهة نزوله وسنده وأدائه وألفاظه، ومعانيه المتعلقة بالألفاظ والمتعلقة بالأحكام**"[2]

2. وعرفه العلامة الطاهر بن عاشور بقوله : " **اسم للعلم الباحث عن بيان معاني ألفاظ القرآن وما يستفاد منها ، باختصار أو توسع** "[3].

3. ونقل عن الشيخ محمد أبو سلامة قوله : " **علم يبحث فيه عن أحوال القرآن المجيد من حيث دلالته على مراد الله بقدر الطاقة البشرية**"[4] وهو التعريف ذاته الذي ذكره الشيخ الزرقاني في مناهل العرفان مع اختلاف يسير في اللفظ[5].

---

[1] البرهان، الزركشي، ص 22 .

[2] مناهل العرفان في علوم القرآن ، محمد عبد العظيم الزرقاني، دار الكتاب العربي بيروت ـ لبنان، ط4، 2002م، ج2 ، ص6.

[3] التحرير والتنوير ، الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر،1984م، ج1، ص11

[4] التفسير والتأويل في القرآن، صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار النفائس، الأردن، ط 11416هـ/1996م، ص27

[5] راجع: مناهل العرفان في علوم القرآن، عبد العظيم الزرقاني، ص6.

وقد مال بعض أهل العلم إلى هذا التعريف لاسيما محترزه " بقدر الطاقة البشرية "، وهذا القيد ينبغي أن يكون ملحوظا في كافة التعاريف وإن لم يكن ملفوظا فيها ، وخصوصا بالنسبة لكلام الله عز وجل[1].

ويجدر التنويه بدقة تعريف الشيخ الطاهر بن عاشور لتمحيضه علم التفسير لبيان معاني ألفاظ القرآن وما يستفاد منها دون غيره ، وهو ما عبر عنه التعريف الثالث بـ : " أحوال القرآن من حيث دلالته على مراد الله ".. وبهذا يتمايز تفسير القرآن عن علم القراءات، فالعلوم تتمايز بتمايز الموضوعات وحيثيات الموضوعات[2] .

3 اصطلاح تأويل القرآن:

لا يمكن لباحث عن تفسير القرآن الكريم أن يتخطى مصطلح التأويل، فإن المفسرين قد جرت عادتهم بالخوض في معنى التأويل وهل هو مساو للتفسير أم هو أخص منه ؟[3]، لحاجتهم الأكيدة لمعرفة ذلك لا سيما وأن الآية السابعة من آل عمران[4] قد ذكرت التأويل مقرونا بالمتشابه، واختلف السلف والخلف هل يعرف العلماء الراسخون تأويل المتشابه أم يعرفون بعضه دون بعض، أم هو ما استأثر الله بعلمه، وكيف يفهم؟ هل يرد المتشابه إلى المحكم أم لا يبحث عن معناه ويكتفى بالإيمان به؟ فضلا عن اختلاف العلماء في تعريف المحكم والمتشابه وغير ذلك من المسائل التي قد نتطرق لها على حسب الحاجة في هذه الدراسة.

ويتأكد بحث مصطلح التأويل حين يتعلق الأمر بالتفسير الموضوعي ، الذي يحتاج إلى تفسير الألفاظ والعبارات الجزئية كما يحتاج إلى التأويل الصحيح والمعمق بإعمال منهج الجمع بين النصوص من أجل استشفاف الدلالات القريبة والبعيدة للسور وكذا للموضوعات القرآنية ، والاستفادة من هدايتها وإرشادها في تقويم اعوجاج مناحي عدة من هذه الحياة .

---

1 أنظر: كيف نتعامل مع القرآن العظيم ، مرجع سابق ، ص197

2 أنظر : التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، ص10.

3 أنظر : المرجع السابق ، ص16.

4 نص الآية"هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب"[آل عمران، 7]

وبالرجوع إلى المصادر اللغوية نجد أن مصدر التأويل يرجع إلى الجذر الثلاثي (أوْل) وفعله الماضي (أوَّل) ، قال ابن فارس عن معنى الجذر أوْل : له أصلان : ابتداء الأمر وانتهاءه ، واستعماله في الابتداء قولك : الأوَّل ، وهو مبتدأ الشيء .. وفي انتهاء الأمر قولك : الآيل وهو الذكر من الوعل ، وسمي أيلا لأنه يؤول إلى الجبل وينتهي إليه ليتحصن فيه ، وقولهم آل بمعنى رجع.. ومن هذا الباب : الأول لأنه بمعنى الانتهاء والمرجع ، وتأويل الكلام هو عاقبته وما يؤول وما ينتهي إليه..[1]. وعنده أن التفسير والتأويل والمعنى وإن اختلفت فكلها متقاربة المعاني[2]

وقال الراغب الأصفهاني عن الأوَّل[3]: (الأوْل) : الرجوع إلى الأصل ومن ذلك التأويل وهو رد الشيء إلى غايته المرادة منه ، علما كان أو فعلا ، ومن رد الشيء إلى غايته في العلم قوله تعالى : **(وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم)**[4]، أي بيانه الذي هو غايته المقصودة منه ، ومن رد الشيء إلى غايته في الفعل قوله تعالى : **(هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق)**[5].

غير أن الرد العملي لا يدخل في اصطلاح تأويل القرآن الذي قد يلتبس بمعنى التفسير ويحتاج إلى تمييزه عنه ، لأنه لا يتعلق بتأويل اللفظ ، بل بتنفيذ الأمر على وجهه الصحيح المراد منه كالذي روته السيدة عائشة رضي الله عنها أنه كان صلى الله عليه وسلم ، يقول في ركوعه : **سبحانك اللهم ربنا وبحمدك ، اللهم اغفر لي ، يتأول القرآن**[6]. **القرآن**[6]. **أي: يعمل بقوله تعالى:(فسبح بحمد ربك واستغفره)، أو ما رواه الزهري قال: قلت لعروة ما بال عائشة تتم في السفر يعني الصلاة، قال: تأولت كما تأول عثمان، أراد**

---

[1] معجم مقاييس اللغة ، ابن فارس، دار الفكر، بيروت، ج1 ، ص158-162.

[2] أنظر البرهان، مصدر سابق، ص415.

[3] معجم مفردات ألفاظ القرآن ، الراغب الأصفهاني ، تحقيق يوسف الشيخ محمد البقاعي ، دار الفكر ، ط1 ، 2006م ، ص27 .

[4] آل عمران ، شطر من الآية 7 .

[5] الأعراف ، 53 .

[6] رواه البخاري كتاب الأذان ج2، ص1040 ومسلم كتاب الصلاة ج1، ص 199، وأورده مجد الدين ابن الأثير الأثير في: النهاية في غريب الحديث والأثر دار الكتب العلمية، بيروت، مادة: (أول).

بتأويل عثمان ما روي عنه أنه أتم الصلاة بمكة في الحج وذلك أنه نوى الإقامة بها[1].
فهذا بين بنفسه في تمايزه عن التفسير لأنه عمل بمقتضى الفهم.

ومعنى تأويل الكلام، النظر في عاقبته والمراد منه، آل الأمر إلى كذا أي صار إليه، وأصله من المآل وهو العاقبة والمصير، تقول أولته فآل بمعنى صرفته فانصرف[2] هذا من جهة اللغة.

أما التأويل في اصطلاح المفسرين فهم فيه على مذهبين :

الأول : أن التفسير والتأويل متساويان فيكون التفسير بمعنى التأويل ، وهو ما ذهب إليه الإمام الطبري في تفسيره المسمى "جامع البيان في تأويل آي القرآن" ، فإذا قال تأويل الآية كذا وكذا.. فهو يعني تفسيرها، كما ذهب إلى ذلك ثعلب وابن الأعرابي وأبو عبيدة ، وهو ظاهر كلام الراغب كما قال العلامة ابن عاشور ، وانتصر لهذا المذهب بقوله ".. **وهذه كلها اصطلاحات لا مشاحات فيها ، إلا أن اللغة والآثار تشهد للقول الأول ، لأن التأويل مصدر أوَّله إذا أرجعه إلى الغاية المقصودة ، والغاية المقصودة من اللفظ هو معناه وما أراده منه المتكلم به من المعاني ، فساوى التفسير** [لكنه أضاف] **على أنه لا يطلق إلا على ما فيه تفصيل معنى خفي معقول** "[3] . كأنه يخصص ما سبق أن عممه.

والثاني: أن التفسير للمعنى المحكم والتأويل للمتشابه[4] قال الإمام الجويني: "**المختار عندنا أن المحكم كل ما علم معناه، وأدرك فحواه، والمتشابه هو المجمل**"[5]، فيكون التأويل أخص من التفسير، أي يرد خاصة فيما فيه معنى خفيا معقولا.

---

[1] رواه البخاري كتاب تقصير الصلاة، ج1، ص206 ومسلم كتاب المسافر، ج1، ص274 وذكره ابن الأثير، المرجع السابق، الموضع نفسه.
[2] البرهان، الزركشي، ص416
[3] التحرير والتنوير، مرجع سابق ، ص16.
[4] في المحكم والمتشابه أقوال كثيرة وما ذكرته في المتن هو على قول من ذهب إلى أن النص والظاهر هو المحكم في مقابل المتشابه الذي هو المجمل والمبهم والمشكل، وهو الأظهر في نظري، راجع على سبيل المثال ما ذكره الإمام الطبري من أقوال في: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير الطبري، دار الفكر، بيروت، 1405هـ، ج3، ص173.
[5] البرهان في أصول الفقه، إمام الحرمين أبو المعالي الجويني، دار الوفاء، مصر، ط4، ج1، ص 284 .

والظاهر أن دلالة التأويل قد تطورت من معناه اللغوي المساوي لمعنى التفسير عند السلف إلى معنى خاص انفرد به عند الخلف.

4. الفرق بين التفسير والتأويل

ويخلص أحد الباحثين إلى أن " **الكلام إذا وقف به عند المعنى الظاهر كانت الغاية منه هذا المعنى الظاهر، وعندها يكون المراد بالتأويل هو التفسير .. وإذا جاوزنا المعنى الظاهر إلى المعنى غير الظاهر ، لدلالة القرينة على ذلك كان هذا تأويلا وليس تفسيرا باصطلاح المتأخرين ، ويمكن أن يدخل في التفسير باصطلاح السلف..**"[1] .

وجمع بين المذهبين بما سماه ترجيحا، من أن حسن فهم القرآن لابد أن يكون على مرحلتين متتابعتين : تفسير القرآن ثم تأويل القرآن ففي المرحلة الأولى يتم الكشف عن معاني الألفاظ والكلمات ، وتعتمد الروايات والأقوال المأثورة ، ويورد ما في معنى الآية من آيات أخرى.. وهو بهذا يفسر ظاهر الآية .

فإذا أراد أن ينتقل إلى المرحلة الثانية ويقوم بتأويل القرآن ، فإنه ينظر في القرآن على ضوء معلوماته التفسيرية التي حصَّلها في المرحلة الأولى ، وعندما يؤول القرآن ، فإنه يمعن النظر في الجمل والتراكيب والآيات ، ويعتمد في هذا النظر على تدبره وإعمال عقله وينفد نظراته في باطن الآية ويلفت إلى إشاراتها وإيحاءاتها ويستخرج حقائقها ودلالاتها ويلحظ المعنى البعيد غير المتبادر للذهن ، ويزيل ما عليها من لبس أو اشتباه ويحل ما تثيره من غموض أو إشكال[2] ، وهو توجيه حسن لولا أنه قصر التفسير على شرح الألفاظ والكلمات وكأن التفسير هو شرح مفردات القرآن ولم يقل بذلك أحد.

لكن مع هذا يمكن القول على رأي من فرَق بين التفسير والتأويل أن التفسير أقرب إلى بيان معاني النصوص القطعية ودلالات القرآن القريبة وهو أقرب إلى التفسير بالرواية وبالمأثور، بينما التأويل هو تفسير المتشابه والاجتهاد في استنباط الدلالات الظنية

---

[1] انظر التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق، صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار النفائس، الأردن، ط1، 1979م ص14.
[2] المرجع نفسه ، ص15 .

وإيحاءاته البعيدة، فهو أقرب إلى التفسير بالرأي[1] وهذا هو معنى قول العلماء " **التفسير هو القطع بأن مراد الله كذا، والتأويل ترجيح أحد المحتملات بدون قطع وهو قول الماتريدي، أو التفسير بيان اللفظ عن طريق الرواية، والتأويل بيان اللفظ عن طريق الدراية، أو التفسير هو بيان المعاني التي تستفاد من وضع العبارة والتأويل هو بيان المعاني التي تستفاد بطريق الإشارة**[2].

ولقد فرق أكثر العلماء المتأخرين بين التفسير والتأويل بما نختصره كالآتي:

. أن التفسير أعم من التأويل الذي يراد به مدلول اللفظ بغير المتبادر منه.

. التفسير بيان لفظ لا يحتمل إلا وجها واحدا والتأويل توجيه ما يحتمل أكثر من معنى إلى أحد هذه المعاني بدليل[3].

. التفسير بيان وضع اللفظ سواء دل على الحقيقة أم على المجاز كتفسير الصراط بالطريق، وتفسير الصيب بالمطر والتأويل تفسير باطن اللفظ وما يؤول إليه أمره، فالتأويل إخبار عن حقيقة المراد، والتفسير إخبار عن دليل المراد[4].

وقيل غير هذه الأقوال لكنها جميعا تدور على هذه المعاني نفسها[5].

وقد وضع العلماء ضوابط للتأويل الصحيح فالتأويل الذي لا يقوم على تفسير صحيح معتمد أو دليل علمي مقبول أو قرينة معتبرة لغوية كانت أم شرعية تأويل باطل بلا ريب.

والتأويل قد تحول إلى مصطلح متغلغل في الثقافة الإسلامية كافة وله وزن في جميع فروع العلوم الشرعية، فكما تحدث عنه المفسرون، تناوله أيضا علماء الشريعة وعلماء أصول الدين.

ولعلماء العقيدة وأصول الدين كلام في تعريف التأويل خلاصته أنه "**صرف اللفظ عن ظاهر معناه إلى معنى آخر محتمل لدليل** [يقترن به] ، **فإذا فسر قوله تعالى: (يخرج**

---

[1] لنا وقفة مع التفسير بالمأثور وبالرأي وما المقصود بهما لاحقا.

[2] مناهل العرفان ، الزرقاني،ج2، ص8

[3] الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، ج2، ص460

[4] المصدر السابق ،ج2،ص461.

[5] أنظر هذه الأقوال في البرهان للزركشي، ص416 وما بعدها، الإتقان للسيوطي، ج2، ص 460 وما بعدها، ومناهل العرفان للزرقاني، ج2، ص7 وما بعدها

الحي من الميت) بإخراج الطير من البيضة فهو التفسير، أو بإخراج المسلم من الكافر فهو التأويل [1] . فإذا كان المصير إلى الظاهر أولى فحيثما توجب صرف المعنى الظاهر إلى غيره من المعاني التي يحتملها بشرط أن يعتمد ذلك على دليل صحيح سمي ذلك تأويلا قريبا أو مقبولا وما لم ينضبط بالشروط العلمية فهو التأويل البعيد والمرفوض وشروط النوع الأول من التأويل معروفة في مضانها من كتب الأصول قال الآمدي "التأويل المقبول الصحيح هو حمل اللفظ على غير مدلوله الظاهر منه مع احتماله له بدليل يعضده"[2]. وذهب عبد الوهاب خلاف في تعريف التأول الصحيح إلى القول: "ما دل عليه دليل من نص أو قياس أو أصول عامة ولا يأباه اللفظ بل يحتمل الدلالة عليه بطريق الحقيقة أو المجاز، ولم يعارض نصا صريحا"[3].

وخلاصة ما نستنتجه مما عليه استقر معنى اصطلاح تأويل القرآن عند المعاصرين من المهتمين بعلم التفسير وعلوم القرآن أنه: ما به يتم حسن فهم القرآن وإزالة اللبس والإشكال عن بعض آياته وذلك بردها إلى الغاية المرادة منها بجمع بعضها إلى بعض وحملها على مقاصد القرآن أوحمل المتشابه منها على المحكم لرفع لبسها وإشكالها واستنباط أصول المعارف، ومعالم الهداية من السور والآيات على نحو يقنع العقول ويستميل القلوب ويشحذ همم النفوس ويدفع بها للاستنارة بنور الوحي الأعلى.

المطلب الثاني
الحاجة إلى تفسير القرآن الكريم

ما الداعي إلى تفسير القرآن الكريم؟.. سؤال قد يبدو مستغربا لدى البعض وبديهيا لدى البعض الآخر، **فأما الاستغراب** ، فلأن القرآن الكريم هو أوضح بيان وقد نزل بأقوم لسان ، ولأنه نزل تبيانا لكل شيء فكيف يكون هو نفسه مفتقرا إلى من يوضح معانيه وما يجلي مقاصده؟ وقد وصف الله تعالى كتابه الكريم بقوله : **(ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل**

---

[1] التحرير والتنوير، مرجع سابق , ص16

[2] الإحكام في أصول الأحكام ، سيف الدين الآمدي دار الكتب العلمية، ط1، 1985م،ج3، ص 50.

[3] أصول الفقه، عبد الوهاب خلاف، الزهراء، الجزائر، ط1، 1990م،ص 166.

شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين)[1] وبقوله : (**نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين)**[2] .

بل يعيب سبحانه وتعالى على المشركين عدم تدبرهم للقرآن وقد أنزله بلغتهم التي يفهمونها وخاطبهم ببيانهم الذي يبرعون فيه ولو أنزله سبحانه بلغة لا يفهمونها لاحتجّوا بعدم الفهم ، كما قال تعالى : (**كذلك أنزلناه قرآنا عربيا وصرّفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا)**[3]، وقال جلّ جلاله : **(ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصّلت آياته أعجمي وعربي قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى وأولئك ينادوْن من مكان بعيد)**[4].

وأما البداهة ، فلأن هذه الآيات وإن كان فيها ، كما يرى أحد الباحثين بحق– ردٌّ على " **من ادعى من الباطنية بأن الله سبحانه قد خاطب خلقه بالألغاز وبما لا يفهمون أو يعقلون ، وبأن ظاهر القرآن بخلاف باطنه ، لأنه يكون قد نسب الظلم لله والعياذ بالله من ذلك ، وقد خالف بقوله هذا قول الله عز وجل : (ويوم نبعث في كل أمة شهيدا من أنفسهم وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين)**[5]. **فكيف يكون الكتاب تبيانا لكل شيء وهو غامض لا يفهمه إلا نفر قليل من الناس؟ وكيف يهدي به الله عباده وقد حصر فهم القرآن على نفر قليل؟** "[6] – إذا كان هذا صحيحا في رد دعاوى الباطنية فليس صحيحا في أن في الآيات ما يشير إلى الاستغناء عن الحاجة إلى التفسير، ذلك أن الآيات تصرح بأن القرآن هدى وشفاء، فهل كل الناس يهتدون ويستشفون من غير حاجة إلى هاد أو طبيب؟ وإذا كان الله يعيب على المشركين – وفيهم أئمة العربية – أن القرآن لم يحدث لهم ذكرا ، فأين أئمة

---

[1] النحل ، 89

[2] الشعراء ، 193.

[3] طه ، 113

[4] فصلت ، 44

[5] النحل ، 89

[6] الروض الناضر في سيرة الإمام أبي جعفر الباقر، بدر محمد باقر، الكويت ، مبرة الآل والأصحاب ، ط2 ، 2007، ص36.

العربية اليوم؟ بل أين الذين يفهمون – فهم العرب الأقحاح – للعربية فضلا عن أن يكونوا أئمة فيها؟ وإذا تسنى هذا لقلة نادرة فهل يتسنى لكل الناس؟

على أنه لو استغنى أحد عن التفسير لاستغنى عنه صحابة رسول الله وقد احتاجوا في مواضع عدة إلى تفسير رسول الله صلى الله عليه وسلم، والحاجة إلى التفسير لا تنفي أن في القرآن مواضع وموضوعات فيها إفادة عامة لكل من له حظ في معرفة لغة العرب وقرأ القرآن ورتله بصدق، كما فيه ما يحتاج إلى بيان وإضاح، فما دواعي قيام التفسير؟

إن دواعي التفسير متنوعة اقتضتها طبيعة هذا الدين من نواح عدة وتفصيل ذلك فيما يأتي :

1. **طبيعة الرسالة المحمدية** : حينما نزل الله تعالى الوحي على خاتم الرسل عليه الصلاة والسلام ، أمره بتبليغه للناس فقال : (**يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس**)[1]. كما عهد إليه بالتبيين للناس ليتدبروا ما أنزل إليهم ويهتدوا إلى سبيل الله قولا وعملا ، عقيدة وشريعة كما قال سبحانه: (**وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون**)[2]، ولو كان القرآن غنيا عن التفسير لاختلفت طبيعة رسالة محمد عليه الصلاة والسلام ووظيفته، فصارت رسالة تبليغ دون تبيين أو تعليم للكتاب.

ولقد قام رسول الله صلى الله عليه وسلم بما عهد به إليه ربه، فبلغ القرآن كما أنزل إليه، ثم بيّن لأصحابه أحكامه وفصّلها في السنة المطهرة وفي السيرة العطرة، فكل كلامه صلى الله عليه وسلم وكل سلوكه كان ترجمة عملية للقرآن الكريم، وقد قال الإمام الشافعي "جميع السنة شرح للقرآن"[3] ، حتى ذهب بعض العلماء كشيخ الإسلام ابن تيمية(ت728هـ) ونجم الدين الطوفي(ت716هـ) إلى أن رسول الله فسر كل القرآن، وخالفهم جمهور العلماء لا في مبدأ تفسير النبي للقرآن فذلك محل اتفاق ولكن الاختلاف دار حول مقدار تفسيره عليه الصلاة

---

[1] المائدة ، 67

[2] النحل ، 44

[3] البرهان، الزركشي، ص 17.

والسلام للقرآن أهو قليله أم أكثره[1]، ثم إن أصحابه رضي الله عنهم نقلوا ما تلقوه وسمعوه وشاهدوه ولم يتوسعوا في ذلك حتى عدّ التفسير في بداياته جزءًا من المرويات ، واشتهر من أصحاب رسول الله في التفسير ابن مسعود وابن عباس وأبي بن كعب وغيرهم ، فالمفسر إذن لا يبتدع شيئا من عنده بل يتأسى برسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام من بعده في بيان حقائق القرآن الكريم وأحكامه وهداياته، وما أحوج الناس إلى من يفهمهم كتاب الله ليحسنوا تقويم اعوجاجهم به باطنا وظاهرا، قولا وعملا، وهذا ما لا يمكن أن يقع بعيدا عن البيان النبوي لما في القرآن الكريم من الإجمال الذي فصلته السنة وفسرته، وكما تحتاج الدساتير إلى قوانين يحتاج مجمل القرآن إلى تفصيل السنة، حتى لا يفصل الناس على هواهم فعن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه قال:"إنه سيأتي ناس يجادلونكم بشبهات القرآن فخذوهم بالسنن فإن أصحاب السنن أعلم بكتاب الله[2]، وعن عمران ابن حصين أنهم كانوا يتذاكرون الحديث فقال رجل دعونا من هذا وجيئونا بكتاب الله فقال عمر إنك أحمق أتجد في كتاب الله الصلاة مفسرة أتجد في كتاب الله الصيام مفسرا؟ إن القرآن أحكم ذلك والسنة تفسره[3]، فسيدنا عمر ينبه إلى أن ضياع السنة ضياع للقرآن لأنها هي ما يفسره على الوجه الصحيح، وهذا لا ينطبق على كل القرآن لكنه ينطبق على كثير من آياته.

2. **طبيعة القرآن الكريم نفسه:** فهو يدعو إلى حسن فهمه وتدبره : (**ليدّبّروا آياته..**)[4] وينكر على الذين منعوا أفئدتهم من التدبر فيه : (**أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها**)[5] وقد استنبط الإمام ابن تيمية وجوب تعلم التفسير من

---

[1] سأفصل في هذا الخلاف لاحقا والذي يهمنا هنا إثبات أن من طبيعة دور الرسول صلى الله عليه وسلم تفسير القرآن وهذا محل اتفاق بين العلماء.

[2] سنن الدارمي، دار الكتاب العربي، بيروت،ط1، المقدمة، باب التورع عن الجواب فيما ليس فيه كتاب ولا سنة،ج1، ص 62.

[3] مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة، الإمام جلال الدين السيوطي، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، ط3، ص 59 .

[4] سورة (ص) الآية 29

[5] محمد ، 24.

هاتين الآيتين فقال : " **وجه الدلالة من الآية الأولى أن الله تعالى بين أن الحكمة من إنزال هذا القرآن المبارك أن يدّبر الناس آياته ويتعظوا بما فيها ، والتدبر هو التأمل في الألفاظ للوصول إلى معانيها، فإذا لم يكن ذلك فاتت الحكمة من إنزال القرآن وصار مجرد ألفاظ لا تأثير لها، ولأنه لا يمكن الاتعاظ بما في القرآن بدون فهم معانيه ، ووجه الدلالة في الآية الثانية أن الله تعالى وبخ أولئك الذين لا يتدبرون القرآن ، وأشار إلى أن ذلك من الإقفال على قلوبهم وعدم وصول الخير إليها** "[1]. بل هذه سنة الله مع كل ما أنزل من وحي ، فقد شبه الأمّة التي آتاها التوراة ولم تحملها كالحمار يحمل أسفارا[2] .

ومن طبيعة القرآن اشتماله على أصول المسائل في الاعتقاد والشريعة والأخلاق " **وأرشد إلى أقوم المناهج في الفكر والعمل لكنه لم يتضمن تفصيلات في هذه الأمور وترك ذلك للسنة النبوية حينا ، ولعقول المسلمين أحيانا ، ولا غرو أن تحتاج كثير من ألفاظ القرآن وجمله إلى البيان والتفسير ، ولاسيما مع استخدامه كثيرا لأسلوب الإيجاز الذي يجمع المعاني الجمة في الألفاظ القليلة** "[3]، والإيجاز من مظاهر الإعجاز لكن بلاغة القرآن تتسامى على كثير من العقول القاصرة، فما الحيلة والقرآن يدعو الناس إلى الاهتداء بهداه والعمل على ضوئه ليخرجوا من الظلمات إلى النور: (**إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا**)[4]، وكيف يعمل الصالحات بالقرآن من لم يفهم القرآن وكيف يهتدي به على الوجه الصحيح من لم يتبين معانيه كما أرادها الله تعالى؟ يقول الإمام الطبري (ت310هـ) في مقدمة تفسيره " **محال أن يقال لمن لا يفهم ما يقال له ولا يعقل تأويله : اعتبر بما لا فهم لك به**

---

[1] شرح أصول التفسير لابن تيمية ، محمد بن صالح العثيمين ، المكتبة الإسلامية للنشر والتوزيع ،ط1، 1426ه-2006م، ص100.

[2] الآية 5 من سورة الجمعة:"مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بيس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين".

[3] كيف نتعامل مع القرآن العظيم؟ ، يوسف القرضاوي ، ص199.

[4] الإسراء ، 9.

ولا معرفة من القيل والبيان والكلام! إلا على معنى الأمر بأن يفهمه ويفقهه ، ثم يتدبره . أما قبل ذلك فمستحيل أن يتدبره وهو بمعناه جاهل، كما محال أن يقال لبعض الأمم الذين لا يعرفون كلام العرب ولا يفهمونه لو أنشد قصيدة.. ذات أمثال ومواعظ وحكم : اعتبر بما فيها من الأمثال ، ادّكر بما فيها من المواعظ ، إلا بمعنى الأمر لها بفهم كلام العرب ومعرفته ، ثم الاعتبار بما تنبه عليه ما فيها من الحكم"[1]. و روى الإمام الطبري كذلك عن سعيد بن جبير قوله : " **من قرأ القرآن، ثم لم يفسره، كان كالأعمى أو كالأعرابي** "[2] .

3. **طبيعة اللغة العربية:** وهي لغة القرآن ولسانه: (**إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون)**[3]، والخطاب العربي بطبيعته متنوع الأساليب والدلالات ، يحوي المجاز والحقيقة ، ويشمل الخاص والعام والمطلق والمقيد والمنطوق والمفهوم ويضم الكنايات والاستعارات والتشبيهات والأمثال وفيه الحذف والاختصار وكل ذلك موجود في القرآن ، وكله منضبط بقواعده المعروفة في علوم اللغة – كعلوم الإعراب والبيان والدلالة وغيرها – وفي كتب أصول الفقه .. وهذه الضوابط تخفى على كثير من الناس.

بل إن معاني الألفاظ كان يخفى بعضها حتى على كبار الصحابة وقد يتوقف عليها فهم الآية كما ذكر الإمام الشاطبي عن سيدنا عمر رضي الله عنه أنه سأل وهو على المنبر عن معنى قوله تعالى: **(أو يأخذهم على تخوف)**[4]، فأجابه أعرابي من هذيل : التخوف عندنا التنقص ، وأنشده بيتا من الشعر فقال عمر: "**أيها الناس تمسكوا بديوان شعركم في جاهليتكم، فإن فيه تفسير كتابكم**"[5] .

---

[1] انظر تفسير الطبري ج1، ص 82،83.
[2] المصدر نفسه ، ج1، ص81.
[3] يوسف ، 2.
[4] النحل ، 47.
[5] الموافقات في أصول الشريعة، أبو إسحاق الشاطبي، دار المعرفة، بيروت، ط3، 1997م، ج2، ص397.

4. **طبيعة الناس:** الذين وجه القرآن الكريم إليهم خطابه ، فالناس جميعا معنيون بتوجيه خطاب القرآن الكريم إليهم، مؤمنين أو كافرين أو حتى منافقين!.. قال تعالى في خطاب الناس جميعا: (**يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم..)**[1] **(يابني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة)**، وفي خطاب المؤمنين قال سبحانه: **(يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله..)**[2]، وفي خطاب الذين كفروا قال عز وجل: **(يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم..)**[3]، وكتاب وجه خطابه للإنسانية بهذا الشمول حري بأن يضبط معناه، إذ في الناس العالم والجاهل وفيهم النابه والغافل والحاكم والمحكوم، كما فيهم الصالح والطالح، لذا تختلف مقاصد الناس في التصدي لفهم كتاب الله كما تختلف قدراتهم، ففي الإدراك والقدرة على الفهم ، منهم من يغوص مع حقائق الأشياء إلى الأعماق ومنهم من يبقى طافيا على السطح لا يلحظ إلا مباني الأمور وأشكالها وتغيب عنه المقاصد والمرامي ، فهذا عدي بن حاتم الطائي وهو من أصحاب رسول الله لما سمع قوله تعالى: **(وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل)**[4]، فهم الخيط الأبيض والخيط الأسود على الحقيقة لا على المجاز، وراح يضع خيطين أحدهما أبيض والآخر أسود تحت وساده ليعرف بظهور لونيهما لعينيه وقت الفجر حتى بين له النبي أن المراد سواد الليل وبياض النهار، وقال له: "إن وسادك إذا لعريض! أن كان الخيط الأبيض والأسود تحت وسادتك"[5]، بل إن في البخاري من رواية سهل بن سعد أن عديا لم يكن وحده وإنما فعل ذلك عدد من الرجال كانوا يربطون الخيوط في أرجلهم ولم يزل أحدهم يأكل حتى يتبين له

---

[1] الحجرات ، 13.
[2] التحريم ، 8.
[3] التحريم ، 7.
[4] البقرة ، 187.
[5] صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب قوله وكلوا واشربوا..الآية، ج4، ص 1240.

رؤيتهما، وتشير الرواية إلى أن ذلك كان قبل نزول عبارة (من الفجر)[1]، وفي رواية البخاري إشكال لأن نزول من الفجر وحدها لا يساعده إحكام سياق النص، كما أن في ذلك تأخير للبيان عن وقت الحاجة كما لاحظه بعض الباحثين[2]. وفهم بعض الصحابة أيضا من قوله تعالى : **(الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون)**[3] أن المراد عموم ظلم الإنسان نفسه بالمعصية ، فشق ذلك على الصحابة لأن الوقوع في الخطأ طبيعة بشرية لا سبيل للانفكاك منها، فقالوا أينا لا يظلم نفسه؟ فبين لهم الرسول صلى الله عليه وسلم أن المراد بالظلم في هذه الآية هو الشرك، مستدلا بقوله تعالى : **(إن الشرك لظلم عظيم)**[4].

وفي خلافة سيدنا أبي بكر رضي الله تعالى عنه ، صعد المنبر وخطب في الناس قائلا: **"أيها الناس إنكم تقرؤون هذه الآية وتؤولونها على غير وجهها: (يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم)**[5]**. وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إن الناس إذا رأوا الظالم ، فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده"**[6] .

وإذا كان الوقوع في الخطأ في فهم معاني الآيات واردا، بل واقعا حتى في زمن النبي عليه الصلاة والسلام وخلفائه كما رأينا فكيف بالزمن الذي بعدهم؟ وإذا كان هذا عند المؤمنين الذين حسنت مقاصدهم فما بالك بالمغرضين المندسين من مسلمة أهل الكتاب والمنافقين؟ وما الظن بفهم المستشرقين ومن لف لفهم من بعض الشرقيين المعاصرين الذين تصدوا لكتاب الله يريدون تحريف الكلم عن

---

[1] المصدر نفسه الموضع نفسه.

[2] معايير القبول والرد لتفسير النص القرآني، عبد القادر محمد الحسين، دار الغوثاني للدراسات القرآنية،ط1، 2007م، ص190.

[3] الأنعام ، 82

[4] لقمان ، 13

[5] المائدة ، 105

[6] رواه أحمد في مسنده برقم 1، وصحح الشيخ أحمد شاكر إسناده ، ورواه أبو داود في الملاحم 4338 ، والترمذي في التفسير 3095 وقال حسن صحيح وابن ماجه في الفتن 4005.

مواضعه وتضليل المؤمنين بدعوى ما أسموه "**القراءة المعاصرة للقرآن**" أو تجديد التفسير مع قصور في العلم وسوء في القصد**!**[1].

إن هذا ليؤكد الحاجة إلى علم التفسير المنضبط في قواعده ، وإلى معرفة الشروط الأخلاقية والعلمية لمن يتصدى لكتاب الله بالبيان ويسمى بحق مفسرا لأن التفسير كما قال بعض العلماء هو الرواية عن الله.

وإذا كان العلماء قد وضعوا القواعد والضوابط العلمية للعلوم الشرعية، فهل يتركون علم التفسير ميدانا مباحا لعبث العابثين والحاجة إليه أمسُّ من الحاجة إلى الحديث و الفقه ، كما قال الإمام السيوطي – رحمه الله – : "**وقد أجمع العلماء أن التفسير من فروض الكفايات وأجل العلوم الثلاثة الشرعية .. لأن الغرض منه هو الاعتصام بالعروة الوثقى والوصول إلى السعادة الحقيقية التي لا تفنى .. ولأن كل كمال ديني أو دنيوي عاجل أو آجل مفتقر إلى العلوم الشرعية و المعارف الدينية ، وهي متوقفة على العلم بكتاب الله تعالى**"[2].

وهكذا يتبين لنا مما سبق أن الاشتغال بالتفسير هو قيام بوظيفة النبي عليه الصلاة والسلام وتأس به في ديمومة تدبره للقرآن وصدور حركاته وسكناته عن فهم عميق لكلام الله، وتأس بأصحابه الذين كانوا يرون أن الاشتغال بفهم القرآن وتدبر معانيه هو أعظم ما يشتغل به حتى قال ابن مسعود "**من أراد علم الأولين والآخرين فليثور القرآن**"[3]، أي "**فلينقر عنه ويفكر في معانيه وتفسيره وقراءته**"[4]، وقد كان الصحابة يرون أن من يقرأ القرآن ولا يحسن تفسيره كالأعرابي يهذَ الشعر هذًا، كما روي عن ابن عباس[5]، وهو فوق هذا طاعة لأمر القرآن نفسه، وتجاوب مع خطابه المطلق، وتسديد لأفهام قد تضل وقلوب قد تزيغ، من هنا وجب ضوابط التفسير الصحيح، لأن إدراك المعاني المرادة لله لا تعرف إلا بمعرفة تلك الضوابط وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

---

[1] في هذه الدراسة وقفة خاصة مع المدرسة التغريبية أو الحداثية في موقفها المريب من كتاب الله.

[2] الإتقان في علوم القرآن ، جلال الدين السيوطي، ج2 ص464،4650

[3] المعجم الكبير، الطبراني، رقم 8664، شعب الإيمان، البيهقي، رقم 1960.

[4] النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير، مادة (ثور).

[5] الإتقان، السيوطي، ج2، ص494.

بل إن الاعتناء بالتفسير يتعدى مفهوم الواجب إلى التشريف، وشرف هذا العلم كما قال العلماء[1]من ثلاثة جهات: جهة الموضوع فموضوعه كلام الله وهو ينبوع الحكمة ومعدن الفضيلة فيه علم الأولين والآخرين ولا يخلق على كثرة الرد ولا يمل ولا تنقضي عجائبه، وجهة الغاية والغرض وغاية التفسير الاعتصام بحبل الله والسير على هداه وبلوغ السعادة الأبدية، وجهة مسيس الحاجة لأن كل كمال ديني أو دنيوي، عاجل أو آجل مفتقر إلى المعارف الشرعية، وهي متوقفة على العلم بكتاب الله تعالى، أي علم التفسير.

فالمفسر يطوف ويحل ويرتحل في جنة المعاني القرآنية يتدبر كلام الله ويطلع على ما فيه من أسرار في عالمي الغيب والشهادة، ويتعلم الأحكام والمواعظ والحكم وهو يحقق مراد الله من إنزال القرآن الذي هو التدبر والتمثل فيكتب في**(الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به)**[2]، وأي شرف أعظم من هذا الشرف.

[1] أنظر الإتقان، السيوطي،ج2، ص494.
[2] البقرة، 121.

المبحث الثاني
المنحى العام لتطور علم التفسير

يجد التفسير أصوله – كما سبق الذكر– في تفسير الرسول صلى الله عليه وسلم، وفي تفسير أصحابه وتفسير من تتلمذوا على أيديهم من التابعين، ولعل هذه المرحلة كانت أزهى المراحل التي نشأ فيها التفسير وإن سبقت هذه النشأة التأصيل العلمي والمنهجي، وإذا بحثنا عن مصادر التفسير في هذه الحقبة من تاريخه وعن الخصائص والسمات الأساسية له، نجد المصادر ملخّصة أولا في القرآن الكريم نفسه، حيث يفصل القرآن في بعض المواضع ما أجمله في مواضع أخرى وهكذا.. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: " **إن أصح الطرق في ذلك – أي في تفسير القرآن – أن يفسر القرآن بالقرآن فما أجمل في مكان فإنه قد فسر في موضع آخر وما اختصر في مكان فقد بسط في موضع آخر**"[1].

وبعد القرآن نجد السنة النبوية الصحيحة هي المصدر الثاني للتفسير، متمثلة كما رأينا في تعليم النبي صلى الله عليه وسلم لصحابته ، وإجاباته عما أشكل عليهم في فهم القرآن ، وقد روى أبو داود بسنده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "**ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه..**"[2].

---

[1] مقدمة في أصول التفسير، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية ، تحقيق عدنان زرزور، دار القرآن الكريم ، بيروت ، ط3 ، ص93.

[2] أخرجه أبو داود حديث رقم 4436.

وكان الصحابة في اجتهادهم لبيان معاني بعض الآيات يستعينون بملكاتهم اللغوية، وتعلم ما لا يعرفونه من أسرار ودلالات اللسان العربي من فصيح كلام العرب وديوان شعرهم في الجاهلية ، فضلا عن استعانتهم بقرائن الأحوال وأسباب النزول ومعرفتهم بالأقوام الذين نزل فيهم القرآن من مؤمنين ومشركين ويهود ونصارى أو غيرهم، فلأسباب النزول فضل عظيم في التوصل إلى مراد الله من كلامه.

وكذلك قد أعان الصحابةَ في تفسيرهم الموفق للقرآن الكريم ، المناخ الروحي والمعرفي والعملي الذي رباهم فيه المصطفى عليه الصلاة والسلام ، فكانوا يفهمون القرآن في محيط نفسي واجتماعي ولغوي يهيمن عليه القرآن ويرعاه محضن التربية النبوية.

وتوارث التابعون كل ذلك ، وأضافوا إلى مصادر الصحابة في التفسير أقوال الصحابة أنفسهم، سواء منها ما كان أسباب نزول وما لا مجال فيه للرأي كروايتهم للغيوب، وهو الذي له حكم المرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، أو الأقوال الموقوفة على الصحابة رضي الله عنهم التي جادت بها استنباطاتهم، ثم إنهم اجتهدوا بدورهم في التفسير لأنهم كانوا أهلا لذلك فتدبروا واستنبطوا، وكانت الحاجة إلى تدبر القرآن بقصد معالجة الوقائع والنوازل دافعهم إلى ذلك، فعصر التابعين وإن شهد بعض التوسع فإن الموضوعات النظرية لم تكن قد غزته بعد فبقي في عمومه يحمل الطابع العملي، فضلا عما عرف عنهم من تورعهم وتشددهم في القول بالرأي مما جعل الخلاف بين السلف في التفسير قليل وخلافهم في الأحكام أكثر من خلافهم في التفسير وأغلب ما روي عنهم من خلاف في التفسير إنما هو اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد[1].

السمة البارزة في تفسير الرسول عليه الصلاة والسلام وأصحابه للقرآن كانت الرواية، وعدم التوسع والتزام الاتجاه العملي، ولم يتسم بالتقعيد النظري، لأن همهم كان تكوين أنفسهم وأمتهم في ظل مبادئ القرآن التي كانت غاية في الوضوح في أذهانهم، حتى إذا أتى الشيطان ليفسد على أحدهم طريقه العملي رجع إلى طريقه بسرعة كما حصل

---

[1] أنظر مجموع الفتاوى، ابن تيمية، ج13، ص333.

لسيدنا عمر مع لفظة "**الأبِّ**"[1] في القرآن الكريم، وقد علق الإمام الشاطبي على القصة بأن سبب عدم اكتراث عمر بمعرفة معنى الأب أن المعنى لا يتوقف عليه و"**الاعتناء بالمعاني المبثوثة في الخطاب هو المقصود الأعظم بناء على أن العرب إنما كانت عنايتها بالمعاني وإنما أصلحت الألفاظ من أجلها**"[2] . فكيف توسع التفسير وتكونت منه المدارس والطاوائف؟

المطلب الأول

تأصيل التفسير وتوسعه

في بداية عصر التابعين كان الأمر على ما سبق وصفه إلى أن بدأت الفتن تتلاحق، ودخلت الروايات المكذوبة والضعيفة والروايات الإسرائيلية على تصانيف التفسير الذي يعتمد الرواية وضعفت الثقة به ومع ازدياد الشقة عن عصر الخلافة الراشدة بونا، بدأ المجال يتسع للرأي والاجتهاد الذي لا غنى عنه في فهم كلام الله.

واتسم العهد الأموي باتجاه الهمة نحو علوم القرآن عموما والتفسير خصوصا بالرواية والتلقين، لا بالكتابة والتدوين وعلى رأس من روي عنهم الخلفاء الأربعة، وابن عباس وابن مسعود وزيد بن ثابت وأبو موسى الأشعري من الصحابة، ومن التابعين مجاهد وعطاء وعكرمة وقتادة والحسن البصري وسعيد بن جبير وزيد بن أسلم بالمدينة وعنه أخذ ابنه عبد الرحمان ومالك ابن أنس من تابعي التابعين رضي الله عن الجميع، وهؤلاء أهم من وضع الأساس لما سمي علم التفسير[3]

ثم بدأت مرحلة التدوين الأولى للتفسير وعلوم القرآن مع نهاية الدولة الأموية (132هـ) ، وبداية الدولة العباسية ، " **فجمع التفسير من غير ترتيب حسب ما تيسر الجمع والتصنيف فصنف في ذلك مسند شعبة بن الحجاج (ت 160هـ) ومسند وكيع بن**

[1] ذكر السيوطي عن أنس أن عمر ابن الخطاب قرأ على المنبر : (وفاكهة وأبا)، فقال: هذه الفاكهة قد عرفناها، فما الأبّ؟ ثم رجع إلى نفسه ، فقال : إن هذا هو الكلف يا عمر! أنظر: الإتقان في علوم القرآن ، ج2، ص326.
[2] الموافقات، الشاطبي، ج2 ، ص396
[3] مناهل العرفان ، الزرقاني، ج1، ص30.

الجراح(ت197هـ) ومسند سفيان بن عيينة (ت198هـ).. ثم استقلت آثار التفسير وجمعت متجاورة على ترتيب المصحف فظهر تفسير السدي ومقاتل بن سليمان"[1] .

وتميزت هذه المرحلة ببروز اتجاهين في التفسير "**خط التفسير بالمأثور وإيراد ما جاء في تفسير الآية من أحاديث صحيحة وأقوال للصحابة والتابعين وأتباع التابعين، ويمثل هذا الخط المفسرون: الحسن البصري ، السُّدي الكبير، ويحي بن سلام البصري، والإمام محمد بن إسماعيل البخاري ، والخط الثاني هو خط التفسير البياني اللغوي ، حيث كان المفسر يتحدث عن معاني كلمات الآيات وعن فقه اللغات فيها وعن الشواهد الشعرية لها ويمثل هذا الخط نتاج العلماء الثلاثة: ابن قتيبة وأبو عبيدة والفرّاء وكان بين علماء التفسير اللذين يمثلان التيارين والخطين نوع من والتنافس ! ..**

فلما جاء الإمام الطبري جمع التيارين السابقين: التفسير اللغوي والتفسير الأثري وأضاف لهما استنباطاته وتوجيهاته ونظراته. وهو بعمله هذا أرسى دعائم منهج متفرد في التفسير يمكن أن نسميه المنهج الجامع، وفسر الطبري القرآن كله سورة سورة وآية آية وجملة جملة وفق هذا المنهج الجامع)[2] .

وربما استفاد الطبري رحمه الله من تفسير يحي بن سلام الإفريقي، كما ذكره بعض الباحثين ليكون حلقة تربط بين المائة الأولى والمائة الثانية ثم نجد التفسير قد خطا خطوات واسعة لكن في الرواية والدراية على حد سواء.

لكن الملفت كان في التوسع في استعمال الرأي، فاعتمد كثير من المفسرين النظر، صحيحا كان أم باطلا كل يلوّن التفسير بلون تخصصه فحوله اللغويون إلى لغة ونحو وإعراب كتفسير أبي حيان الأندلسي المسمى البحر المحيط .

والفقهاء يوغلون في مسائل الفروع يوردون الأدلة ويناقشون الآراء ويرجحون.. كما فعل الجصاص والقرطبي في تفسيريهما الجامعين لأحكام القرآن.

---

[1] مناهل العرفان، ج1، ص31. وأنظر: المدخل إلى التفسير الموضوعي ، عبد الستار فتح الله سعيد، ص15.
[2] التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق ، صلاح عبد الفتاح الخالدي ، دار النفائس، ط1، 1418ه\1997م، ص20-21.

وأرباب الكلام والفلسفة وعلوم العقل يتوسعون في تفسير الآيات بإيراد آرائهم ومذاهبهم الفلسفية والكلامية ، فضاعت معالم التفسير من كثرة الاستدلالات العقلية والتقريرات الفلسفية ، ومن أمثلته التفسير الكبير للإمام فخر الدين الرازي .

ثم دخلت الفرق والطوائف المعترك فألف الشيعة والمعتزلة والصوفية والباطنية[1].

وبدأنا نجد في كتب التفسير كل شيء إلا التفسير الذي كادت معالمه تغيب وسط الدرس اللغوي أو الكلامي أو الفقهي ، ونحن بالتأكيد لا نعيب على المفسرين اهتمامهم بدراسة القرآن من كل جانب فذلك أمر محمود ولكننا نعيب عليهم تضييع معالم الهداية القرآنية ضمن زخم التفصيلات الكثيرة في الإعراب والفقه والكلام وغيرها فهذه العلوم التي يفترض أن تكون أدوات ووسائل لتقرير المعنى المراد من كلام الله تحولت إلى غايات في حد ذاتها واستمر هذا الوضع إلى وقت قريب ، **ورحم الله الشيخ الغزالي** حين وصف هذا الصنيع بقوله: "**دروس التفسير التي تلقيناها في الأزهر لستين سنة خلت، كانت تطبيقا لقواعد اللغة والبلاغة.. فإذا جئنا إلى التفسير الفقهي أخذنا وجهة فنية أخرى.. فيتحول التفسير إلى درس في الفقه المقارن ، ويستخلص كل منا المعنى الذي يرجحه، ورحم الله من علمونا اللغة العربية والفقه الإسلامي ، وهم يفسرون القرآن العظيم!.. وكل ما أريد بيانه أن اللغة والفقه وسائل لتقرير المعنى المراد ، وسائل لابد منها.. لكن الوسائل لا تتحول إلى غايات ، ومن الممكن بعد شرحها أن نفتح القلوب بالمعاني النائية للوحي الإلهي، وكيف يهدي الله الناس إلى الحق بما شرع من أحكام..**)[2].

إذن خلاصة ما استقر عليه التفسير في عصر التوسع والتفرع بما فيه من مآخذ ومحامد ثلاثة أنواع: التفسير بالأثر، والتفسير بالرأي ، وتفسير المذاهب والطوائف، فما حيقة هذه الأنواع وماذا لها أو عليها؟

1. **التفسير بالأثر:** وهو اسم للتفسير الذي يعتمد على النص والرواية تحديدا في البيان والتفصيل، سواء كان القرآن نفسه أو السنة أو أقوال الصحابة أو التابعين من

---

[1] المدخل إلى التفسير الموضوعي، مرجع سابق، ص 16.

[2] تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل ، محمد الغزالي ، دار الشروق ، ط4 ، 1416هـ -1996م ، ص124

بعدهم.[1] وإن كان العلماء قد اختلفوا في ما روي عن التابعين فعد بعضهم قول التابعي من قبيل التفسير بالرأي وعده آخرون تفسيرا المأثور[2]، فإن تفسير القرآن بالقرآن يمكن أن يعد من هذا القبيل المختلف فيه أيضا من جهة أن الآيات القرآنية لم ينص بعضها على أنه نزل في بيان بعض على وجه التحديد والتفصيل وإنما نص القرآن في عمومه أنه لا اختلاف فيه وأن بعضه يشرح بعضا ويكمل بعضا فهو يجري مجرى السورة الواحدة[3]، وإذا دلت على التفسير قرائن أو وجد التنصيص في مواضع من القرآن فإنه غير موجود في أكثرها، مما يجعل تفسير القرآن بالقرآن وحمل بعض آياته على بعض ودفع التعارض الظاهري بين الآيات عملا اجتهاديا للرأي فيه نصيب كبير.

ومن التفاسير التي صنفت من قبيل التفسير بالمأثور: الدر المنثور في التفسير بالمأثور للإمام السيوطي، والكشف والبيان عن تفسير القرآن لأبي إسحاق الثعلبي ، وبحر العلوم لأبي الليث السمرقندي.

ثم إن التفسير بالمأثور أصابته عوامل ضعف كثيرة منها تساهل المفسرين الذين "**حذفوا الأسانيد ونسبوا الأقوال مباشرة إلى السابقين فاختلط الصحيح بالفاسد وتعذر التمييز بين الأقوال**"[4]، لاسيما أن ذلك حدث في جو من شيوع حركة الوضع وافتراق الناس بعد الخلافة الراشدة وكثافة نشاط الدخلاء من أهل الكفر والنفاق حتى راج الكذب بسبب التعصب المذهبي أو بسبب الجهل مما كان سببا في ضياع كثير من تراث السلف في التفسير وما أحاط به من شكوك أفقد الثقة به.[5]

وقد روي عن الإمام الشافعي قوله:"**لم يثبت عن ابن عباس في التفسير إلا شبيه بمائة حديث**"[6]، وذهب الإمام أحمد إلى حد القول:"**ثلاثة ليس لها أصل: التفسير والملاحم والمغازي**"[7]، فعد منها التفسير، وذلك لأن أكثر المرويات في التفسير لا تثبت

[1] أنظر علوم القرآن، نور الدين زعتر، مطبعة الصباح، دمشق ، ط6، ص74.
[2] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
[3] أنظر: البرهان، الزركشي، ج4، ص359.
[4] المدخل إلى التفسير الموضوعي، مرجع سابق ص15.
[5] التفسير والمفسرون، مرجع سابق، ج1، ص 116-117.
[6] تهذيب الأسماء والصفات واللغات، الإمام النووي، دار الفكر، بيروت، ط1، 1996م، ص258.
[7] الإتقان ، السيوطي، ج2، ص471.

عند تعرضها للنقد على منهج أهل الحديث، ويكفي أن نعلم أن ما أورده البخاري في صحيحه في باب التفسير كان أغلبه من طريق علي ابن أبي طلحة عن عبد الله بن عباس وهي أصح طرق المفسرين وأحسنها ومع ذلك هي ضعيفة على مقاييس المحدثين، لأن علي ابن أبي طلحة لم يسمع التفسير من ابن عباس، إنما سمعه من مجاهد وسعيد بن جبير عن ابن عباس، وعلى هذا فهذه الطريق منقطعة[1].

فكان طبيعيا تعرض التفسير بالمأثور" **للنقد الشديد ، لأن الصحيح من الروايات قد اختلط بغير الصحيح ، ولزنادقة اليهود والفرس نشاط لا يجهله أحد في الدِس على الإسلام وتشويه تعاليمه ، ولأصحاب المذاهب والشيع ولوع غريب بجمع معاني القرآن وتنزيلها وفق هواهم ، فكان على المفسر بالمأثور أن يدقق في تعبيره، ويحترس في روايته ، ويحتاط كثيرا في ذكر الأسانيد**"[2]. وفضلا عن ضعف الروايات والوضع فيها والدسائس وحذف الأسانيد فإن شيوع الإسرائيليات كان من أهم أسباب الضعف في هذا النوع من التفسير "**فقد تسربت إلى التفسير أباطيل بني إسرائيل والآراء الشاذة المنكرة.** [3]

والقصد بالإسرائيليات ما تأثر به المفسرون ثم أدرجوه ضمن تفاسيرهم للقرآن مما أخذوه عن اليهود والنصارى بالرواية المباشرة أو تأثرا بثقافتهم.[4]

ومعروف أن المسلمين احتكوا بأهل الكتاب منذ السنوات الأولى للبعثة حيث هاجر بعضهم إلى الحبشة وبقي فيها لسنوات[5]، وطوائف اليهود جاوروا المسلمين في المدينة المنورة وحصل بينهم وبين المسلمين ما هو مشتهر في السيرة النبوية من معاهدات ومحاورات[6]، ومعروف أن في كتب هؤلاء القوم من تفاصيل الأخبار في قصص الأولين ما ما ليس في القرآن، لكن تعليل دخول الإسرائيليات في التفسير بمجرد المجاورة والفضول

---

[1] أنظر: الفوز الكبير في أصول التفسير، شاه ولي الله الدهلوي، دار قتيبة دمشق، 1989م، ص46. وكذا: التحبير في علم التفسير، الإمام السيوطي، دار المنار، القاهرة ، ط1، ص332.

[2] مباحث في علوم القرآن ، صبحي الصالح ، ص 291 .

[3] المدخل إلى التفسير الموضوعي، مرجع سابق، ص 15.

[4] أنظر: التفسير والمفسرون، ج1، ص 121.

[5] راجع: السيرة النبوية، بن هشام، دار المعرفة، بيروت، ط4، 2004م، مجلد1، الصفحات:207،300، 359. 359.

[6] أنظر المرجع السابق: ص 462 و491 وما بعدها.

المعرفي غير مقنع، وإن كان ذلك يفسر شيوعها في بين العوام وحضورها في أوساط الثقافة الشعبية، إن "**دخول الروايات الإسرائيلية قد أفسد كثيرا من التفسير، فالنقل عن بني إسرائيل دسيسة دخلت في ديننا**"[1].

وأشهر رواة الإسرائيليات ثلاثة . قصدوا إلى ذلك أم لم يقصدوه . **وهم** عبد الله بن سلام وكعب الأحبار ووهب بن منبه، ساعدهم على ذلك دخولهم في الإسلام في وقت مبكر، فالأول كان صحابيا وقد روى معاذ ابن جبل أن النبي قال فيه: **إنه عاشر عشرة في الجنة**[2]، فهو من خيرة الصحابة ومن المبشرين بالجنة[3]، والثاني تابعي أسلم في خلافة سيدنا أبي بكر روى عنه جماعة من التابعين وله شيء في صحيح البخاري وغيره[4]، والثالث كان تابعيا ثقة واسع العلم روى له الشيخان حديثا،[5] وإذا كان هؤلاء ثقاة فما بال الإسرائيليات قد أساءت إلى التفسير؟

والجواب أن الطعن في روايات هؤلاء لا يستلزم تجريحهم[6]كما قال الشيخ الزرقاني:"**يجب أن نفرق في هذا المقام بين ما يصح أن يقال فيهم وما يصح أن ينقل عنهم، فأما ما يصح أن يقال فيهم فهو الثقة والتقدير.. وأما الذي ينقل عنهم فمنه الصحيح وغير الصحيح ولكن عدم صحة ما لم يصح لا يعلل باتهامهم وجرحهم.**"[7] وإذا كان هؤلاء وغيرهم من أصحاب العقائد والأديان المخالفة قد رووا ما في كتبهم من أخبار وقصص وأساطير فما كان ينبغي أن يفسر بها كلام الله لاسيما وشريعة محمد صلى الله عليه وسلم ناسخة للشرائع السابقة إجمالا، والقرآن قد أوضح أن أهل الكتاب **(يكتبون**

---

[1] أنظر الفوز الكبير في أصول التفسير، ولي الله الدهلوي، مرجع سابق، ص 99.
[2] أخرجه الترمذي ، وقال حديث حسن صحيح غريب، سنن الترمذي، ج3، ص 671.
[3] مناهل العرفان، مرجع سابق، ج2، ص21.
[4] أنظر: الجرح والتعديل،محمد بن إدريس الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، ج1 ، ص 52.
[5] المصدر نفسه،ج1، ص52.
[6] وإن جرحهم بعض المعاصرين فعبد الوهاب النجار مثلا يرى أن كعب الأحبار كان يدس على المسلمين وكانت له يد في اغتيال يسدنا عمر. أنظر: الخلفاء الراشدون، عبد الوهاب النجار، دار الكتب العلمية، بيروت، ص 248-249.
[7] مناهل العرفان، مرجع سابق، ج2، ص21.

الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا)[1] وإذا كان بعض رواة الإسرائيليات ثقات فليسوا كلهم كذلك بالضرورة.

ومهما يكن من أمرهم فإن "**توسع الناس في رواية هذه الأخبار نتج عنه تلوث كثير من كتب التفسير بأشياء يجب ردها والتحذير منها أو على الأقل بيان مصدرها والتعقيب عليها بما يقتضيه المقام**"[2]، ومن أمثال هذه الأساطير قصة عوج بن عنق[3]، وقصة الجني صخر المارد[4] وغيرها من الخرافات.

وقد قسم العلماء الإسرائيليات إلى ثلاثة أقسام: قسم علمت صحته من الكتاب أو السنة فذاك صحيح مقبول، وثان علم كذبه لمخالفته الكتاب والسنة فذلك مردود تحرم روايته إلا إذا قصد الراوي تفنيده، وثالث مما لا يعرف أكان صحيحا أم خطأ جوزا روايته دون أن نصدقه أو نكذبه[5] لما رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: **لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إليكم..**[6]

وللشيخ الغزالي . رحمه الله . رأي يفهم منه رفض الإسرائيليات جملة وتفصيلا فالأصل أنهم هم من يحتاج للحق الذي عندنا، واطلاعنا على ما بين أيديهم هو من باب أن نستوثق معرفة ما عندنا من الحق بالاطلاع على ما عندهم من أباطيل واستند إلى قوله تعالى: (ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم مالك من الله من ولي ولا نصير)، معضدا فهمه وتفسيره بما أخرجه البخاري عن **ابن عباس: يا معشر المسلمين كيف تسألون أهل الكتاب وكتابكم الذي أنزل على نبيكم أحدث الأخبار بالله محضا لم يشب**

---

[1] البقرة، 79.

[2] معايير القبول والرد، مرجع سابق، ص572.

[3] من التفاسير التي ذكرت هذه القصة التافهة . تفسير الطبري،ج6،ص185 وتفسير الألوسي، أنظر روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني، العلامة أبي الفضل شهاب الدين الألوسي، دار الفكر، بيروت، 1983م، ج15، ص325، وتفسير ابن كثير المسمى تفسير القرآن العظيم، للإمام أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، دار الفكر، بيروت، 1401هـ، ج 2، ص 39 وغيرها.

[4] أنظر: تفسير الطبري ج23، ص 157، وتفسير ابن كثير، ج 4 ص35 وما يليها.

[5] معايير القبول والرد، ص 566.

[6] صحيح البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ، باب قول النبي لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء

وقد حدثكم الله أن أهل الكتاب قد بدلوا من كتب الله وغيروا فكتبوا بأيديهم، قالوا هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا".[1]

ولعل رأي الشيخ الغزالي أولى بالترجيح من أجل تنقية تراث التفسير عندنا فما الذي أضافته الإسرائيليات بالذات التي لا تعارض الكتاب والسنة للمسلمين؟ وماذا عن الإضافات والمبالغات والتأثيرات التي لا يتضح ضررها التربوي والاجتماعي على المدى القريب وإن وجد؟ و ما حاجتنا للرواية عن بني إسرائيل فيما هو ثابت عندنا أصلا؟ هذه الاعتبارات جعلتنا نرجح هذا الرأي.

2. **التفسير بالرأي:** والمقصود به تفسير القرآن بالنظر والاجتهاد المعتبر أو المقبول شرعا وليس مجرد التفسير بما يهواه المفسر أو يميل إليه، فهو وإن غلب عليه النظر واتسع فيه الاجتهاد، لا يهمل النصوص المروية عن رسول الله، وغاية ما هنالك أن المفسر يتوسع في الشرح مستخدما في ذلك معارفه العلمية الواسعة ومرتكزا على قواعد الاستنباط ويبني على هذه الاستنباطات مباحث العلوم والفنون المتنوعة[2]، فالتفسير بالرأي هو: "**تفسير القرآن بالاجتهاد اعتمادا على الأدوات التي يحتاج إليها المفسر**".[3] ولا يعني التفسير بالرأي أن يحل الرأي محل النصوص الثابتة في الدلالة على مراد الآيات فهذا لم يقل به أحد من أهل العلم وهو عمل محرم، لكنه الفهم السديد الثاقب الذي يعتمد على النصوص والذي يؤتيه الله من رسخت رجله في العلم واستسلم قلبه لله.

وقد اختلف العلماء قديما حول مشروعية التفسير بالرأي لمعارضته ظواهر بعض النصوص التي تفيد التحريم، ولتعدد معنى الرأي الذي يشمل الهوى كما يشمل الاجتهاد الصحيح.

فاستدل المانعون بظواهر بعض الآيات كقوله تعالى:**(ولا تقف ما ليس لك به علم)**،[4] وقوله تعالى:**(وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون)**،[1]وشاهد استدلالهم بأمثال هاتين

---

[1] أنظر فقه السيرة، محمد الغزالي، مطبعة رحاب، الجزائر، ص 32-33. الحديث رواه البخاري في كتاب التوحيد ج3، ص1523 طبعة المكنز الإسلامي.

[2] أنظر: الجامع لأحكام القرآن الإمام القرطبي، دار الشعب، القاهرة، ط2، ج1،ص6.

[3] مناهل العرفان، الزرقاني، ج2، ص75.

[4] الإسراء، 36.

هاتين الآيتين أن القول في القرآن بالرأي قول على الله بما لا نعلم وهو ما يحرمه القرآن. واستدلوا من السنة بحديث "**من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار**"،[2] وحديث "**من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ**".[3] وأحاديث أخرى تفيد المعنى ذاته، وعضدوا استدلالهم بما روي عن بعض كبار الصحابة كقول أبي بكر:" **أي سماء تظلني وأي أرض تقلني وأين أذهب وكيف أصنع إذا قلت في حرف من كتاب الله ما لا أعلم**"، ومثله روي عن بعض كبار التابعين فعن سعيد ابن المسيب أنه قال:"**إنا لا نقول في القرآن شيئا**"[4].

واختلافهم يؤول في الحقيقة إلى أن المحرم منه هو الجزم بأن مراد الله كذا، من غير برهان ، أو محاولة تفسير الكتاب الكريم مع جهل المفسر بقواعد اللغة وأصول الشرع ، أو تأييد بعض الأهواء بآيات من القرآن زورا و بهتانا ، أما إذا كانت الشروط المطلوبة متوافرة في المفسر فلا مانع من محاولته التفسير بالرأي"[5].

لذلك تركز رد العلماء على أدلة المانعين أن المقصود بالرأي الذي تحدثوا عن حرمة التفسير به غير الرأي الذي يجيزونه هم، فمحل النزاع مختلف، والنهي محمول على "**من يتسارع إلى تفسير القرآن بظاهر العربية دون حجة أو نقل فيما يتعلق بغرائب القرآن وما فيه من الألفاظ المبهمة والمبدلة**"،[6] أو من يتجرأ على التفسير دون أن يمتلك أدواته أو يفسر بهواه المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله، أو يحمل معاني القرآن على مذهبه تعصبا وتكلفا، أو يقطع بأن مراد الله ما ذهب إليه من غير دليل قاطع، فهذا لا خلاف في ذمه ولا شك فيه.[7] ويخرج عن التحريم الاجتهاد المستند إلى العلم بقواعد التفسير، وأما إحجام بعض الصحابة والتابعين فمن باب الورع، ولئن أحجم بعضهم فقد أقدم آخرون، ولو اقتصر التفسير على الرواية دون الرأي لما كان هناك معنى لنحو قوله تعالى:(**أفلا**

---

1 الأعراف ،33.
2 أخرجه الترمذي وقال حديث حسن صحيح ، أنظر سنن الترمذي ،ج5، ص 199.
3 المصدر نفسه، وقال الترمذي حديث غريب.
4 أنظر تفسير ابن كثير، ج1، ص7.
5 مباحث في علوم القرآن، صبحي الصالح، ص 292.
6 الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ج1، ص34
7 أنظر الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، ج2، ص 482.

يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها)،[1] وقوله سبحانه:**(كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب)**.[2] فقد حث الله تعالى على التدبر وعاتب من لا يتدبرون، وهل التدبر إلا تقليب النظر في معاني القرآن؟

من هنا اهتم العلماء بوضع ضوابط للتفسير بالرأي حتى يكون مقبولا، وهي على الجملة الالتزام بقطعيات النصوص من كتاب وسنة فلا يخالف تفسيرا ثابتا قاطعا في دلالته، ولا يصادم حقائق العلم وقطعيات العقل كذلك، ولا يضرب الآيات بعضها ببعض، ولا يحملها بمحض الظن على ما لا تحتمل، ولا يقدم رأيه على قول الصحابي لاسيما إذا كان فيما له حكم المرفوع إلى النبي عليه الصلاة والسلام، ويلتزم في تفسيره ضوابط الشرع وقواعد الأصول في الفهم والستنباط والاجتهاد كمراعاة المطلق والمقيد والعام والخاص وغيرها مما هو معروف في أصول الفقه.[3]

والتفسير بالرأي حتى مع استيفائه جميع الشروط التي تجعله مقبولا لا مسوغ له إذا عارضه التفسير الذي ثبت لنا بالنص القطعي، لأن الرأي اجتهاد والاجتهاد في مورد النص ممنوع. أما إذا لم يكن بينهما تعارض بل كان الرأي في جهة لا يحتويها النص أو كان الأثر المفسر للنص القرآني غير مسلم الصحة فهنا يكون للأخذ بالرأي الاجتهادي مجال بما يجعل التفسيرين متكاملين كل منهما يؤيد الآخر ويثبته ، وذلك أكثر ما نجده في كتب التفسير بالرأي المحمود، فالمعارضة لا تكون بين قطعيين أعني رأيا قطعيا ونصا قطعيا[4]، بل تكون بين ظنيين أو ظني وقطعي، وفي كل هذه الحالات يصار إلى الجمع أو أو الترجيح حسب القواعد المعروفة في علم الأصول.

ونتيجة توسع العلماء في التفسير بالرأي ظهرت تفاسير كثيرة مفيدة ومتنوعة[5] منها التفسير الكلامي الذي يركز النظر في حجج القرآن في الاستدلال على العقيدة والدفاع

---

[1] محمد، 24.

[2] سورة ص، 29.

[3] أنظر:الإتقان، السيوطي، ج2، ص 480 وما بعدها، وكذا مناهل العرفان، الزرقاني، ج2، ص37، وكذا معايير القبول والرد، عبد القادر الحسين، ص 337 وما بعدها.

[4] أنظر: مناهل العرفان، مرجع سابق، ج2، ص47.

[5] سنعود إلى تفصيل هذا الاتجاه في تنوع التفسير لاحقا.

عنها ومثاله تفسير الإمام الرازي، والتفسير اللغوي الذي يركز على علم الإعراب والبلاغة القرآنية ومثاله البحر المحيط لأبي حيان التوحيدي، والتفسير الفقهي الذي يركز على بيان الأحكام الفقهية كتفسير الإمام القرطبي، والتفسير العلمي أو الكوني الذي يركز على بيان حقائق العلم كتفسير الجواهر لطنطاوي جوهري[1]، والتفسير الاجتماعي الذي يبرز سنن الله في الاجتماع البشري وأسباب الغلبة وأسباب الهوان، ومثاله تفسير المنار للشيخين محمد عبده ورشيد رضا، وغيرها[2]..

ولولا التفسير بالرأي ما اغتنت المكتبة القرآنية بكل هذا الزخم الكبير من كتب التفسير وإن كان التوسع كما أشرنا من قبل له معايبه أيضا لاسيما حين يتحول درس التفسير إلى خلاف وحجاج طويل في وجوه النحو والإعراب أو مسائل الفقه أو الكلام أو غير ذلك، فضلا عن إسقاطات المعارف الكونية الثابتة والمحتملة على معاني القرآن الكريم مما قد يحمل بعض التكلف أو يتحول بدوره إلى درس غي الرياضيات أو الفيزياء أو علوم الخلية وما شاكل، والمحزن أن هذا كله يتم على حساب معالم الهداية القرآنية في تربية النفس وإحياء الضمير وجمع الكلمة وعمارة الأرض.

3. **تفسير المذاهب والطوائف الإسلامية:** وهو من حيث الأصل ينتمي إلى الرأي، غير أنه يدخل في النوع المذموم منه، لأن أصحاب هذه التفاسير لم يؤلفوها إلا لتأييد أهوائهم أو الانتصار لمذاهبهم أو مواجيدهم ، من ذلك تفاسير المعتزلة والمتصوفة والباطنية[3].

فالمعتزلة يغلب عليهم الطابع العقلي ونصرة مذاهبهم الكلامية وقواعدهم في الاعتقاد، وإن اقتضى ذلك التعسف في تأويل النصوص وليّ أعناقها كما يظهر في بعض المواضع من تفسير الكشاف للزمخشري منها مثلا إصراره على تأويل كل الآيات التي جاءت في إثبات رؤية الله يوم القيامة لأن مذهبه يرفض ذلك ففي تفسير قوله تعالى:

---

[1] هذا التفسير عليه بعض الملاحظات ذكرناها في موضع آخر.

[2] أنظر: تفسير القرآن الكريم مصادره واتجاهاته، عبد الله بن الزبير، نشر رابطة العالم الإسلامي، السعودية، ص113 وما بعدها.

[3] أنظر: مباحث في علوم القرآن، صبحي الصالح، ص 296

(وجوه يومئذ ناظرة إلى ربها ناظرة)[1] يقول: "**والمعنى أنهم لا يتوقعون النعمة والكرامة إلا من ربهم كما كانوا في الدنيا لا يخشون ولا يرجون إلا إياه،**[2] فقد حمل الرؤية على معنى الانتظار، وهو من الرأي المذموم الذي يخالف ظاهر اللغة وصحيح النصوص ومنها حديث جرير بن عبد الله:"**إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته..الحديث**[3]

ويغلب على تفاسير الصوفية الشطحات التي تبعدهم عن النسق القرآني وتجعل كلامهم غامضا كتفسير محيى الدين بن عربي(ت638هـ) وإن شكك بعض العلماء في نسبته إليه، وقليل منها التزم التأويل بالإشارات المقبولة وهي الإشارات الخفية التي تظهر لأرباب السلوك والتصوف يمكن الجمع بينها وبين الظاهر المراد،[4] وغالبا ما تكون حكما ومعاني روحية أوحت بها الآيات لأصحابها على سبيل التداعي.

أما تفاسير الباطنية فهي تقول بالباطن على نحو غريب وشاذ لتضرب صفحا عن العلم المنضبط بقواعد الشرع ودلالات ألفاظ اللغة بزعم أنه ظاهر والظاهر بخلاف الحقيقة، وتوغل في التأويلات الفاسدة التي تخالف أصول الشرع وقواعد اللغة وتركن إلى الخيال الجامح بدعوى أن ذلك هو باطن الحقيقة، وهذه أشد التفاسير بعدا عن هداية القرآن ونسقه من كافة أنواع التفاسير الأخرى بما في ذلك تفاسير الصوفية والتفاسير الإشارية – كتفسير ابن عجيبة – وإن كانت جميعا مشتركة – بدرجات متفاوتة – في مخالفة ظاهر القران واستلهام معان ما أنزل الله بها من سلطان، وقد نقل عن الإمام النسفي قوله:"النصوص على ظواهرها، والعدول عنها إلى معان يدعيها أهل الباطن إلحاد[5].

وهذا النوع من التفاسير هو ما تنطبق عليه الأدلة التي جاءت بتحريم التفسير بالرأي المحض والهوى الصرف وما تزال الأمة تعاني الأمرين من تحميل أهل الزيغ والأهواء أهواءهم على القرآن الكريم بدعوى أنه حمال أوجه، وإن كان من نوع جديد

---

[1] القيامة 22-23.
[2] الكشاف عن حقائق التنزيل، أبو القاسم جار الله بن عمر الزمخشري، دار الفكر، بيروت، ج3، ص192.
[3] أنظر: صحيح البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة العصر، ج1، ص203.
[4] مناهل العرفان ، الزرقاني، ج2، ص86.
[5] المرجع نفسه، الموضع نفسه.

يضاف إلى هذه التفاسير الفاسدة في عصرنا فهي تلك المحاولات التي يقوم بها الحداثيون وإن لم تسعفهم الحيلة لتقديم قراءة معاصرة كاملة للقرآن الكريم كما يأملون ولنا معهم وقفة متأنية في المطلب الموالي.

المطلب الثاني

ركود التفسير و انبعاث التجديد

كان كتاب الله تعالى في مراحل ازدهار الحضارة الإسلامية محور الحياة كلها ، فكانت الحياة تصطبغ بمعانيه في كافة الحقول والميادين العملية والمعرفية ، لذلك كان اعتناء الأجيال الأولى من الأمة الإسلامية بالقرآن كبيرا ، فتناولوه بالدرس والبحث والتحليل والتفسير، وشمل ذلك جوانب عدة كالناحية اللغوية البيانية، والأحكام الفقهية ، والآثار المروية كما رأينا.

وبتطور العلوم والثقافات وتوسع دائرة التفسير وظهور المذاهب المختلفة والفرق المتعددة العقدية والسياسية ، وارتكازها على التفسير بالرأي، اصطبغ التفسير بمعارف المفسرين واتجاهاتهم وكان الدافع لأكثرهم في ذلك " **تعلقهم بهذا الكتاب الكريم الذي هو رسالة الله سبحانه وتعالى إليهم ونظرهم إليه باعتباره دستور الحياة التي لا يمكن أن تستقيم إلا به** "[1]، مع إيمانهم بصلاحية القرآن لخطاب كل مكان وزمان بما يسد حاجة الناس فيهما، فتميز النص القرآني بكونه المحور الجاذب، والنص المقدس الذي يعطي المشروعية للأفكار والأعمال فما وافقه مقبول وما عارضه مرفوض، فأنشأ النص القرآني حركية فردية وجماعية في الحياة الإسلامية ضمن سياق الحضارة التي عمرت الأرض، بصرف النظر عما كان في هذا الإقبال على التماس المشروعية من القرآن الكريم من خير وصواب، وهو كثير، أو ما كان فيه من خطأ وشر، وهو الأقل، لذا تميزت الحضارة الإسلامية في عمومها بالطابع الإيجابي سواء في التقييم الداخلي أو فيما قدمته للإنسانية عموما في الجانبين المادي والمعنوي وذلك نتيجة حياة معاني القرآن في نفوس الناس،

[1] دراسات في التفسير وعلومه ، جلال الدين العلوش ، دمشق ، اليمامة للطباعة والنشر، ط1، 1426هـ - 2006م ، ص 68.

ويمكننا القول إن شعاع هداية القرآن الكريم لم يخبو ضياؤه وإن قلت درجته في إنجاب الصالحين المصلحين جيلا إثر جيل.

ومع بداية ركود الحضارة الإسلامية ، أي: تقريبا بعد نهاية القرن السادس الهجري ، بدأ التفسير يكرر نفسه ، ويتميز بالرتابة والشروح المبنية على مؤلفات السابقين ، إذ " **لم يستطع من جاء بعدهم أن يضيفوا شيئا جديدا إلى ذلك ، بل اكتفوا بجمع أقوال المتقدمين وشرح ما قد يكون منها غامضا ، ونقد ما قد يظهر عليه شيء من الضعف أو ترجيح رأي على آخر من الآراء الواردة في ذلك المجال. واستقر التفسير على هذه الحال فترة لا بأس بها من الزمن وصفها العلماء بمرحلة الركود والجمود، حتى جاء عصر النهضة العلمية الحديثة، فشملت هذه النهضة التفسير في جملة ما شملته من العلوم والمعارف**".[1]

تميزت مرحلة الركود هذه بخلو التفسير شبه الكامل من وظيفته الاجتماعية في الحركة والإصلاح والتغيير، فبدا التفسير كأنه أقوال وشروح لا تتعدى مصنفات أصحابها ولا تتجاوز النص إلى الهموم الواقعية فسكنت معاني القرآن صحائف الكتب وصحون المساجد، فيما بدا أن الأمة قد تعبت من التمزق الداخلي والاستبداد السياسي وبدأت تتحول عن الطليعة في قيادة الإنسانية مما مهد بعد ذلك إلى الغزو الصليبي ثم الاستعماري لدار الإسلام، قبل أن يتحول استعمار الحقول إلى استعمار العقول وتسكن الطاقات والأفكار الخلاقة في العالم الإسلامي وتركن نهائيا إلى الغريزة، فتمت التضحية بتأثير القرآن على النفس والناس، وأصبح التفسير غير ذي مضمون إصلاحي أو اجتماعي بعد أن كان هو مرجع الإصلاح وحارسه[2]..

تميزت تفاسير مرحلة الركود عموما بإقصاء هداية القرآن والاستعاضة عنها باستطرادات لغوية أو فقهية وكلامية حولت درس التفسير عن مساره ومقصده ، وأضيف إلى ذلك استمرار عناصر الضعف في التفسير واستفحالها ومنها التوسع في رواية

---

[1] المرجع نفسه ، ص68 .

[2] راجع في مسار تدهور الحضارة والاختفاء التدريجي لأثر القرآن فيها، شروط النهضة، مالك بن نبي،دار الفكر، دمشق،ط4،1987م، ص 52وما بعدها، وص 149وما بعدها.

الواهيات وإيراد الإسرائيليات في تفصيلات لا ضرورة لها ولا فائدة لوجودها مع التفسير، كما حشيت بعض التفاسير بخرافات الباطنية والقصص الخيالية لاسيما في التفسير الصوفي وإشارات أرباب الطرق التي لا يسندها ضابط من رواية ولا من دراية كتفسيرهم ذبح بقرة بني إسرائيل بذبح شهوات النفس وكتفسير قوله تعالى: **(هو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهارا)**[1] بقولهم: هو الذي بسط الأرض وجعل فيها أوتادا من أوليائه، وسادة من عبيده فإليهم الملجأ وبهم النجاة..الخ[2] كما استقر القول بالتقليد وفشت دعاوى النسخ بلا برهان نتيجة الجمود والتعصب المذهبي الخ..

كانت هذه الميزات وغيرها سببا رئيسا دفع رواد النهضة وعلماء الإصلاح في العصر الحديث والفترة المعاصرة إلى العمل على تجديد التفسير ضمن محاولاتهم النهوض بالأمة عبر نهضة علمية ، فحاولوا تخليص التفسير مما علق به من سلبيات وعملوا على "**إلباس القرآن ثوبا جديدا رائعا رائقا ، يظهر حقيقته ويبرز للعيان روعته ويجلي أهدافه السامية ومراميه الدقيقة ، وهدفوا أيضا إلى إبراز التوافق بين القرآن وبين ما وصل إليه العلم الحديث من حقائق ونظريات صحيحة.**"[3]

كما كان من مقاصد المناهج الجديدة في التفسير إظهار سنن الإصلاح الاجتماعي ، وإبراز هداية القرآن ، وربط الأمة مجددا به ليقود حركة الحياة ويهيمن على علوم الكون فوجدنا الشيخ الطاهر بن عاشور مثلا يضع مقدمة كاملة في تفسيره بعنوان: "**فيما يحق أن يكون غرض المفسر**"، يلفت فيها الانتباه إلى مقاصد التفسير ويؤكد فيها بأن "**المقصد الأعلى من إنزال القرآن هو صلاح الأحوال الفردية والجماعية والعمرانية**".[4]

ولعل الإمام محمد عبده هو أول من نظَّر لهذه المرحلة بتفسيره الذي أتمه من بعده – إلى غاية سورة يوسف – تلميذه الشيخ محمد رشيد رضا ، وجمعه إلى جانب تفسير شيخه في تفسير سماه المنار وقد حفل بالنظرات التجديدية وشرح السنن الاجتماعية.ومن

---

[1] الرعد 3.
[2] أنظر مزيدا من النماذج: التفسير والمفسرون، ج2، ص363 وما بعدها
[3] المرجع السابق ، ص69 .
[4] التحرير والتنوير، المقدمة الرابعة، ص38.

أهم تفاسير هذه المرحلة تفسير الإمام المراغي ، وتفسير في ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب ، وتفسير التحرير والتنوير للعلامة الطاهر بن عاشور الذي سبقت الإشارة إليه، وتفسير العلامة عبد الحميد ابن باديس وإن لم يكن كاملا. وفي العقود الأخيرة دخلت معترك التفسير ودائرته مناهج لا علاقة لها بثقافة المسلمين وبمناهج علومهم ، وتقصد من التفسير التملص من النص القرآني لا الالتزام به ، ويعبر أصحابها عن ذلك أحيانا بطريقة صريحة وأحيانا مبطنة خوفا كما يدعون من العنف – المادي أو المعنوي– المسلط عليهم وعلى حرية التفكير التي يتميزون بها **!**[1] حتى سميت تفاسيرهم عند بعض الباحثين" بالتفاسير الإلحادية للقرآن"، وفي هذه التفاسير (الإلحادية) " **يسعى المفسر إلى هدم أسس وثوابت الدين من طريق خفي يتظاهر فيه بأنه يسعى إلى تفسير كلام الله وتبيينه للناس فيسلك سبلا شتى هدفها وغايتها تشكيك المسلمين في صحة ما يعتقدونه، فيذهب بعضهم إلى تفسير آيات الحدود على أنها للإباحة لا للوجوب!.. ويذهب آخرون إلى إنكار وجود الشيطان كحقيقة .. ويذهب آخرون إلى إنكار وجود الجن .. ويذهب آخرون إلى إنكار معجزات الأنبياء..** "،[2] بل إن منهم من أنكر الدين نفسه وجعل الألوهية فكرة بشرية يضاهي بذلك قول الشيوعية الملحدة " **ليس الله هو من خلق الإنسان ولكن الإنسان هو الذي خلق الله!**"[3].

والجدير بالذكر أن مقصود التجديد الحقيقي لا يدخل فيه هؤلاء الذين يعكرون عليه صفوه ، ويحرفون كتاب الله عن مواضعه ويتخذون دين الله هزؤا ولعبا إذ المقصود

---

[1] أنظر مثلا: ملامح التنوير في مناهج التفسير، محمود عزب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 2006م، ص52، يقول منتصرا لتفاسير الفلاسفة والمعتزلة والشيعة والصوفية واصفا إياهم بأهل الرأي مشبها من يدخلون المناهج الغربية في التفسير بهم وهو واحد منهم "..إن هذا النوع من الاتهامات الموجهة مسبقا إلى كل من تسول له نفسه أن يفكر على الورق وأن يستخدم منهجا عقلانيا في التفسير أو غيره من علوم الدين الذي يحبذ العقل ويدعو إليه، ما زال حيا يمارس بل ما أشد ما يمارس الآن وتلك مشكلة من أعقد المشاكل التي تواجه مفكري اليوم ."

[2] دراسات في التفسير وعلومه ، جلال الدين العلوش ، ص70.

[3] نقل الدكتور محمد عمارة عن أحدهم – و هو حسن حنفي - قوله: الدين إما دين وحي أو دين الطبيعة ، دين الوحي هو الذي يأتي به الأنبياء ، والدين الطبيعي هو الذي يكتشفه الإنسان بنفسه.. وإن ما تصوره القدماء أنه وحي الله ، أعيد اكتشافه على أنه من وضع الإنسان وقد أدى ذلك إلى تغيير مفهوم الوحي والنبوة وقد انتهى النقاد إلى أن العقيدة لم تخرج من النص ، بل إن النص خرج من العقيدة . آمن الناس أولا ثم دونوا إيمانهم بعد ذلك في نصوص اعتبرت مصدر الإيمان ومنشأه " [!!!] ، أنظر: قراءة النص الديني ، محمد عمارة ، مكتبة الشروق الدولية، ط1، 2006، ص76.

بمصطلح التجديد في التفسير " **التجديد الصحيح السليم المنضبط بالضوابط العلمية ، الملتزم بالأسس المنهجية .. القائم على الإبداع والتحسين والجدة ، ولا يعني الخروج على القواعد والضوابط والأسس ، والانفلات والفوضى ، والقول في القرآن وفق الهوى وتحريف معنى الآيات ودلالاتها ، لتوافق مقررات الغربيين أو الشرقيين**" .[1] ومن اللاّفت في العصر الحديث أن تطور تفسير القرآن من خلال عمل المصلحين شمل الموضوع والمنهج معا ، وقد دعت إلى ذلك طبيعة العصر وتوسع الثقافة والعلوم والمعارف الإنسانية من جهة ، وما يعرضه هذا العصر على مفكري الإسلام وعلمائه من تحديات من جهة أخرى، سواء على المستوى الخارجي ، كتحديات الحضارة الغربية بمفاهيمها عن الله والكون والإنسان ، والتي تتطلب تجلية موقف القرآن الكريم منها ، وتقديم البدائل الفكرية والحضارية لها حتى لا يضل الناس ولا تضيع معالم الكتاب ، أو على المستوى الداخلي ، لأجل بناء نسق معرفي ورؤية حضارية للأمة الإسلامية مبنية على مبادئ الكتاب العزيز ، حتى لا تأخذ بعضه وتترك بعضا ، وحتى يكون القرآن دستورا شاملا وجامعا لكل العلوم الشرعية منها والكونية، ولمجابهة العبث بمعاني كتاب الله باسم التجديد[2] الذي يمارسه الحداثيون أو المتمذهبون الجدد.

فما هي أهم مدارس[3]التفسير الحديثة والمعاصرة؟ وما هي المكانة التي تحظى بها مدرسة " **التفسير الموضوعي للقرآن الكريم** " من بين هذه المدارس؟

---

[1] التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق، صلاح عبد الفتاح الخالدي ، ص 25 .

[2] أنظر مثلا: ما كتبه محمد شحرور في كتابه: الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، الأهالي للطباعة والنشر، دمشق، جاء فيه بالغرائب التي تدل على جهل هائل باللغة والشريعة، وسوء قصد لا يخفى على أي لبيب، ففي الوقت الذي يدعي فيه التجديد، يشرح الألفاظ اللغوية على ما يهوى ويشتهي ويستنبط من الأحكام ما يدل على جهله المطبق بعلوم الشريعة، مثال ذلك قوله تعالى: (وليضربن بخمرهن على جيوبهن). يذهب إلى أنها تغطية الشقوق التي هي العورة المغلظة[هكذا] وليس الخمار هو خمار الرأس وإنما هو أي غطاء؟؟ ومنه فشعر المرأة ورجلاها من الزينة الظاهرة التي يجوز أن يراها كل الناس ـ كما يقول ـ أما المخفية التي تبديها لمحارمها، فيقول ـ وأستغفر الله وأنا أنقل بالحرف ما يقول ـ **" قد يقول البعض هذا يعني بأن المرأة المؤمنة [هكذا] يحق لها أن تظهر عارية تماما أمام هؤلاء المذكورين أعلاه [يقصد محارمها] في نص الآية. أقول نعم يجوز إن حصل ذلك عرضا، فإن تحرجوا من ذلك فهو من باب العيب والحياء والعرف وليس من باب الحرام والحلال"** ص606-607. لم يكن ينقص هؤلاء إلا نشر الإباحية باسم التفسير والأمر في غنى عن التعليق.

[3] أعني بالمدرسة: الرؤية المعرفية والمنهجية التي تبناها رواد ولهم في ذلك تلامذة وأتباع، وكل مدرسة تتميز عن غيرها بمحددات وأدوات منهجية وكذا موضوعات وقضايا تعتبرها أساسية تنافح دونها. وهذا المعنى لا يبعد عن المعنى اللغوي لأن المدرس الكتاب، ومضمون الكتاب رؤية منهجية ومعرفية.أنظر: القاموس المحيط، الفيروز أبادي، ص 490.

المبحث الثالث

التفسير الموضوعي بين مدارس التفسير الحديثة

نمهّد لتناول المدارس الحديثة في التفسير بالأساس الذي يعدّ لها بمثابة المقدمة للنتيجة ، وهو الإجابة عن السؤال الآتي : هل التجديد ممكن في التفسير وفي استمداداته من علوم القرآن؟ وهل هو جائز ومشروع يقع تحت ما هو محل للاجتهاد

والبحث والنظر؟ أم أن التجديد في التفسير ومناهجه ، وفي علوم القرآن هو تجديد في ثوابت الدين وأصوله وبالتالي فهو بدعة حديثة ؟ والحديث من ثمّ عن المدارس والمناهج الحديثة في التفسير وعلوم القرآن ومنها مدرسة "**التفسير الموضوعي**" يكون من قبيل ما بني على باطل فهو باطل ؟

المطلب الأول
إمكان التجديد ومشروعيته في التفسير وعلوم القرآن

لمعرفة حقيقة الجواب نظرنا إلى ما انتهت إليه مدارس التفسير من جهة مصادره ، فوجدناها قد استقرت على مدرستين أساسيتين : مدرسة الأثر ،

ومدرسة الرأي ، وإن لم تخل تفاسير الأثر من الرأي وتفاسير الرأي من الأثر، فهذا التقسيم هو على أساس الغالب.

من هنا فإن التفسير المقبول المعتبر هو إما تفسير يعتمد النقل الصحيح من القرآن نفسه ، أو من السنة مرفوعها وموقوفها ، ويستأنس بتفاسير التابعين وتابعيهم بإحسان ، وهو التفسير بالأثر ، وإما نظر صحيح على أساس العلم باللغة وعلوم الشريعة ، وعلوم العقل ، وعلوم الكون ، مما صح وثبت عند أهل الاختصاص ، ومما لا يعارض النقل الثابت الصحيح ، وهو التفسير بالرأي المقبول ، ويمكن لتفسير ما من التفاسير أن يجمع بين الحسنيين ، النقل الثابت ، والعلم الصحيح.

" **أما ما عدا ذلك من روايات غير صحيحة ، أو رأي مذموم مستمد من الهوى فليس من مصادر التفسير ، وإنما هي أباطيل ترد على أصحابها**"[1]، فلا عبرة بالتخرصات والأوهام والقول في كلام الله بلا علم، ولا اعتبار لغلو الطوائف في التأويل الباطل ، والانتصار للمقررات السابقة وحمل كلام الله عليها ، فالمنهج الصحيح لتناول كلام الله بالإيضاح والبيان يكون على سبيل الافتقار إليه كدليل يهتدى به ، لا على

[1] المدخل إلى التفسير الموضوعي ، عبد الستار فتح الله سعيد ، ص16.

سبيل استظهاره ليبرهن به المفسر على مقررات سابقة لديه فمن المقرر أن الحكم تابع للدليل وليس العكس،[1] فالقرآن وهو عمدة الأدلة متبوع لا تابع وإمام لا مأموم.

والملاحظة التي أريد الخلوص إليها هي أنه لا يخلو نوع من نوعي التفسير من إمكان الاجتهاد المشروع، فالتفسير بالأثر- وهو الأضيق مجالا- يمكن الاجتهاد فيه من عدة زوايا: منها تنقية النقل من الضعيف والموضوع ومن الإسرائيليات وأخبار الخرافيين ، ومنها أن الصحيح فيه مجال للاجتهاد في فهمه وتوجيهه بما لا يند عن قواعد التفسير وكليات الشريعة، فليس كل ما صحت روايته عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في التفسير قطعي في دلالته مستقص لجميع جوانب المعنى في بيانه، من هنا فالاجتهاد وارد في الفهم وتحديد الدلالة .

فضلا عن أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يفسر القرآن كله ولا فسر أكثره إذا كان القصد هو التفسير المباشر كما بينت ذلك سابقا، وإذا ظهر أنه عليه الصلاة والسلام لم يفسر سوى آيات معدودات علمه إياهن جبريل[2]، فهذا يفتح المجال واسعا للقول بمشروعية الاجتهاد والتجديد في التفسير.

وإذا كان التجديد ممكنا في التفسير بالأثر ، فالقول بإمكانه في التفسير بالرأي أولى ، إذ يفتح الله فيه على من يشاء من عباده بحسب رسوخ قدم صاحبه في العلم ، وصدقه في الإقبال على القرآن الكريم ، كما قال الإمام الغزالي في الإحياء:" **إن في فهم معاني القرآن مجالا رحبا ومتسعا بالغا، وأن المنقول من ظاهر التفسير ليس منتهى الإدراك فيه**" [3].

وما رواه البخاري في صحيحه يؤكد هذا المعنى **فعن أبي جحيفة قال: قلت لعلي هل عندكم كتاب؟ قال : لا إلا كتاب الله أو فهم أعطيه رجل مسلم، وما في هذه**

---

[1] الموافقات، الشاطبي، ج3، ص70.
[2] من رواية السيدة عائشة، سبق تخريجه.
[3] إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، دار الحديث القاهرة، 1425هـ-2004م، ج1، ص 380

الصحيفة، قال: قلت: فما في هذه الصحيفة؟ قال: العقل وفكاك الأسير ولا يقتل مسلم بكافر."[1]

ولا ينبغي أن يحجر الإنسان على عقله في فهم القرآن والتدبر فيه، فذلك يخالف ما أمر القرآن نفسه " **أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها** "[2] ؟ وما معنى التدبر إن لم يكن تأملا في المعنى وقراءة بوعي وتذوقا لأسلوب القرآن وتفاعلا معه؟! وكل ذلك لأجل الاهتداء القرآن تعلما وتمثلا وتبليغا.

وفي التعبير عن ذلك يقول حجة الإسلام الغزالي:يصف موانع الفهم "**أن يكون قد قرأ تفسيرا ظاهرا واعتقد أنه لا معنى لكلمات القرآن إلا ما تناوله النقل عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما، وأن ما وراء ذلك تفسير بالرأي [المذموم] وأن من فسر القرآن برأيه فقد تبوء مقعده من النار، فهذا أيضا من الحجب العظيمة** "[3].

وقال سفيان بن عيينة في قوله تعالى:" **ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون**"[4] ، هي تسلية للمظلوم وتهديد للظالم. فقيل من قال هذا؟ فغضب وقال: إنما قال من علمه ، يريد نفسه[5].

وذكر فخر الدين الرازي في تفسير قوله تعالى: (**وعاشروهن بالمعروف**)[6] " **وقد ثبت في أصول الفقه أن المتقدمين إذا ذكروا وجها في تفسير الآيات فذلك لا يمنع المتأخرين من استخراج وجه آخر في تفسيرها ، وإلا لصارت الدقائق التي يستنبطها المتأخرون في التفسير مردودة ، وذلك لا يقوله إلا مقلد خَلِفٌ** "[7] .

ولا يحتج لمنع التجديد بما روي عن السلف من عدم جواز التفسير بالرأي فقد سبق أن شرحت بأنه محمول على الرأي الباطل المؤسس على الهوى، وأضيف هنا أن

---

[1] رواه البخاري في صحيحه كتاب العلم، ج1، ص30.
[2] النساء ، 82 .
[3] إحياء علوم الدين، ص 383. وانظر: الإمام محمد عبده ومنهجه في التفسير ، عبد الغفار عبد الرحيم ، مطبعة الحلبي بالقاهرة ، ص141
[4] إبراهيم ، 42 .
[5] المرجع السابق، الموضع نفسه.
[6] النساء ، 19 .
[7] التفسير الكبير، فخر الدين الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1997، وراجع: الإمام محمد عبده ومنهجه في التفسير ، مرجع السابق، ص141

بعض الباحثين حمله على سد الذريعة حتى لا يفتح باب الانتصار للرأي واستعمال القرآن وسيلة لذلك فقال في التعليق على تحريم ابن تيمية التفسير بالرأي :"**فلعل قول ابن تيمية بتحريم التفسير بالرأي إنما يعود لمعاصرته للباطنية ومجادلتهم**"[1] ، يريد أنه شدد في المنع سدا للذريعة، فذلك يفهم ضمن هذا السياق التاريخي لا خارجه، والنتيجة أن التجديد في التفسير عمل مشروع يضع الاجتهاد في محله.

أما بخصوص علوم القرآن التي يستمد منها التفسير عدته المنهجية، فلعل إدراك العلماء القدامى لأهمية الاجتهاد فيها جعلهم يرون أنها مجال خصب مفتوح للنظر والبحث ، على الرغم مما عرف عنهم من التضييق في مسألة الاجتهاد في كثير من العلوم الشرعية .

بل يرى الإمام الزركشي(ت724هـ) رحمه الله أن علوم القرآن قد تأخر ظهورها عند القدامى ففتح الله عليه فيها، وبعد أن جمع أكثر من أربعين نوعا وصنّف فيها كتابا قيما قال: " **واعلم أنه ما من نوع من هذه الأنواع إلا ولو أراد الإنسان استقصاءه ، لاستفرغ عمره ، ثم لم يحكم أمره ، ولكن اقتصرنا من كل نوع على أصوله والرمز إلى بعض فصوله** "[2]. فانظر كيف جعل علوم القرآن بحرا لا آخر له!.

وبعد قرن من الزمان تقريبا كتب الإمام السيوطي(ت911هـ) رحمه الله في كتابه : الإتقان في علوم القرآن، ما يؤكد كلام الإمام الزركشي من ندرة التأليف في علوم القرآن على أهميتها فقال : " **لقد كنت في زمن الطلب أتعجب من المتقدمين ، إذ لم يدونوا كتابا في أنواع علوم القرآن ، كما وضعوا ذلك بالنسبة إلى علم الحديث**"[3] ، وزاد السيوطي على ما ذكره صاحب البرهان من أنواع علوم القرآن فأوصلها إلى ثمانين ، أما في كتابه : "التحبير في علم التفسير" فقد ذكر أنه صنفه في اثنين ومائة نوع من علوم القرآن وأن استخرج أنواعا لم يسبق إليها وزاد فيه تتمات لم يُستَوف

---

[1] المرجع نفسه ، ص145

[2] البرهان في علوم القرآن ، بدر الدين الزركشي ، ج1 ، ص12

[3] الإتقان في علوم القرآن ، جلال الدين السيوطي، ج1 ، ص3.

الكلام عنها ..[1]، وفي العصر الحديث ألف الشيخ عبد العظيم الزرقاني كتابا قيما في علوم القرآن جدد فيه الصياغة وأحسن فيه العرض بما يلائم لغة العصر سماه مناهل العرفان في علوم القرآن وصرح في بعض مباحثه بأنها جديدة،[2] كما ذكر بأن علوم القرآن وقف نموها بين عصر الإمام السيوطي وبدأت تنتعش في سنين القرن الحالي من جديد[3].

والنتيجة بالنسبة لعلوم القرآن أيضا، أن العلماء القدامى والمحدثين جميعا ، لم يغلقوا باب الاجتهاد في علوم القرآن ، وهي العلوم التي تقدم المدد لعلم التفسير كما ذكرنا ، ناهيك عن أن التفاسير لم ينقطع التأليف فيها منذ عصر التابعين، وكلهم يجتهد ويستدرك ويزيد دونما حرج.

بل منهم من تراءى له علم جديد لم يكتب فيه من قبل وهم بالكتابة فيه ثم توقف كما يتبين من قول الإمام ابن العربي:" **إن ارتباط آي القرآن بعضها ببعض – حتى تكون كالكلمة الواحدة[4] متسقة المعاني منتظمة – علم عظيم لم يتعرض له إلا عالم واحد عمل فيه سورة البقرة ثم فتح الله لنا فيه ، فلما لم نجد له حملة ، ورأينا الخلق بأوصاف البطلة ، ختمنا عليه وجعلناه بيننا وبين الله ، ورددناه إليه، [5]**". والظاهر أن هذا العالم هو الإمام أبو بكر النيسابوري الذي عرف بحديثه في علم المناسبة ، ولقول أبي الحسن الشهرباني إنه "**أول من أظهر ببغداد علم المناسبة ولم نكن سمعناه من غيره[6]**

فعلم التفسير إذن، علم مفتوح للنظر والاجتهاد، وهو بما يمثله من بيان لهداية الله مما تحتاج إليه الأمة أمس الحاجة في كل عصر.

---

[1] أنظر التحبير في علم التفسير، السيوطي، ص 29-36

[2] مناهل العرفان، ج1،ص 54.

[3] المرجع نفسه، ص36.

[4] ربما كان الأدق أن يقال كالجملة الواحدة لأن أخذ معاني الخطاب من سياق الكلام المركب في لغة العرب وهو الجملة أولى من أخذه من اللفظ المفرد وهي الكلمة. أنظر الموافقات، الشاطبي، ج2، ص 396.

[5] ذكره الإمام بدر الدين الزركشي نقلا عن الإمام أبي بكر ابن العربي في كتابه "سراج المريدين" ،انظر: البرهان في علوم القرآن ، ج1 ، ص37.

[6] المصدر السابق، ج1، ص37، وانظر: الوحدة الموضوعية في القرآن ، محمد محمود حجازي ، مكتبة دار التفسير ،الزقازيق ، ط2 ، 2004 ، ص19.

لا غرابة إذن في ما درج عليه العلماء المتأخرون من التأليف في التفسير والاجتهاد في علوم القرآن، ولم تخل اجتهاداتهم من جديد نافع ، فظهرت تفاسير مفيدة في العصر الحديث نذكر منها على سبيل التمثيل : محاسن التأويل للقاسمي، وتفسير المنار لمحمد رشيد رضا ، والظلال لسيد قطب ، والأساس في التفسير لسعيد حوى ، وتفسير المراغي للشيخ مصطفى المراغي ، وتفسير الأجزاء العشرة للإمام الأكبر محمود شلتوت ، وأضواء البيان لمحمد الأمين الشنقيطي ، وغيرها.. كما استدعيت إلى ميدان البحث والمناقشة العلمية عدة قضايا ومباحث في علوم القرآن كموضوع الناسخ والمنسوخ، وأهمية السياق في التفسير، وعرضت موضوعات لم تكن مطروقة من قبل كالوحدة الموضوعية في القرآن الكريم أو في السورة القرآنية الواحدة[1]

والذي يهمنا بعد هذا البيان لمشروعية التجديد في التفسير هو عرض المدارس التي تغيَّت التجديد فيه ، ومعرفة مكانة مدرسة التفسير الموضوعي من بينها .

بعد الركود الذي أصاب التفسير لعدة قرون، وبعد أن تراجعت مكانته لتحوله إلى صفحات تقرأ بلا وعي ، وكلام يتكرر من مؤلف إلى آخر يكاد يخلو من الجديد المفيد ، ويتيه فيه المطلع على موسوعات التفاسير بين دروس اللغة والإعراب والبلاغة ، وفروع الفقه ، وجدل الكلام ، من غير أن يظفر بهداية القرآن السمحة التي تأخذ بيده نحو الصراط المستقيم، وتهديه سبل السلام، قيض الله رجالا في القرن الأخير عاودوا النهوض بالتفسير من جديد ، وكانت لهم محاولات جيدة على المستويين المعرفي والمنهجي على السواء ، وإن لم تخل من النقص ، شأن كل اجتهاد بشري وبداية لها ما بعدها ، وإن كان في هذا الجهد عيب النقص ، ففيه كذلك فضل السبق، وكان . على رأي أحد الباحثين . " **أقلها نصيبا من النجاح بلا ريب الجواهر في تفسير القرآن لطنطاوي جوهري.. أما تفسير المنار للسيد محمد رشيد رضا فإنه نمط خاص في تأويل كلام الله يرجع به مؤلفه غالبا إلى آثار السلف محاولا التوفيق بينها وبين**

[1] من العلماء الذين اهتموا بهذه الموضوعات الجديدة عبد الله دراز في كتابه المتميز النبأ العظيم ومحمد محمود حجازي في الدراسة السابقة ومحمد رشيد رضا في تفسير المنار والشيخ الغزالي في نظرات في القرآن، وغيرهم.

مقتضيات العصر الحاضر، ويحالفه النجاح في أكثر هذه المحاولات ، إلا أنه أحيانا يستمسك ببعض الآراء الضعيفة ويدافع عنها بقوة وعناد[1]، والمنهج الذي يصدر عنه يدل بوجه عام على تعمقه للأسلوب القرآني ، ودراسته له على أنه للهداية والإعجاز.ولسيد قطب في تفسيره في ظلال القرآن لمحات موفقة في فهم أسلوب القرآن في التعبير والتصوير، إلا أن الغرض منه تبسيط المبادئ القرآنية للنشء ، فهو إلى التوجيه أقرب منه إلى التعليم " [2].

وقد تطرقت دراسات عدة إلى توصيف وتحليل محاولات نهضة التفسير وأسبابها ونتائجها وأعلامها واتجاهاتها فيما اصطلح على تسميته بـ : "العصر الحديث" ، أي في الفترة الممتدة ما بين تفسير الإمام محمد عبده(ت 905م) ، وما أتمه تلميذه محمد رشيد رضا، إلى سيد قطب وتفسيره في ظلال القرآن.

وتكاد الفترة ما بعد سيد قطب تكون مهملة على الرغم من الإقبال المتزايد على التفسير في هذه المرحلة، وعلى الرغم كذلك "**من أن هذه الفترة شهدت تطورات شديدة الأهمية في تفسير القرآن الكريم ومناهجه، وهي مرحلة جديدة بكل معنى الكلمة.. وهذا ما يسمح لنا بوسم المرحلة الجديدة بـ : "المعاصرة" والمرحلة المذكورة من قبل بـ : "الحديثة "على سبيل الاصطلاح"**[3].

ويلاحظ أحد الباحثين العناية المتزايدة بالتفسير في المرحلة المعاصرة، والتي يرجع أسبابها إلى الهزات الاجتماعية والقضايا الكبرى التي تواجهها الأمة ، مما يؤكد أهمية النص القرآني في حياة المسلمين ، بل ارتباطهم العضوي وجودا وعدما بحسن التعاطي مع الكتاب العزيز ، يقول : "**العناية بالتفسير وإن لم تفتر طيلة العصر الحديث فإن وتيرة صدورها يظل أمرا لافتا للنظر . السمة الأساسية**

[1] لم يقم الشيخ صبحي الصالح أي دليل على دعواه هذه وإذا كان القصد بعض ما استقر عليه الجمهور في تفسير بعض الآيات فالراجح عندهم يمكن أن يكون مرجوحا عند غيرهم ومن حق الشيخ رشيد رضا أن يناقش الجمهور وأن يأخذ بما أوصله إليه اجتهاده.

[2] مباحث في علوم القرآن، صبحي الصالح، ص297-298، مع الملاحظة أنه لا يشترط في التفسير أن يكون تعليميا، والتعليم الممتزج بالتربية والتوجيه ميزة تحمد لا عيب يذم أو يستدرك.

[3] المناهج المعاصرة في تفسير القرآن الكريم وتأويله، عبد الرحمان الحاج إبراهيم، مجلة رسالة المسجد السورية، العدد الأول جمادى الثانية، 2003م، ص 5-6 .

لهذه الوتيرة هي أنها مع استقرار نسبي تعرف فترات تسارع كبيرة وغزارة غير معهودة . فترات الذروة هذه تبدو متزامنة أو تالية لأزمات مجتمعية ومؤسساتية بالغة الحدة.. هذه الخصوصية تجعل اشتداد الاهتمام بالقرآن تفسيرا ودراسة مرتبطا بما يعتري المجتمعات العربية من اهتزازات وتساؤلات كبرى," [1]

ووسط هذا الاهتمام المتزايد بالتفسير في العصر الحالي نحاول رصد مدارسه وما اعتمدته من مناهج وما ركزت عليه من قضايا وما اتسمت به من مميزات، والسؤال الذي نبحث له عن إجابة في سياق تحليل حركة التفسير الحديثة والمعاصرة هو: ما الجديد الذي جاءت به هذه الحركة لوصل المسلم بالنص القرآني الذي هو المركز المؤسس لحضارته؟ ومن ثم التحامه بالواقع وفق هدايات نصوص القرآن.

ولا أقصد بالجديد بالضرورة ما يقصده نفر من الناس من البداية الصفرية أو ما يسمونه " **القطيعة مع التراث**[2] " لأن استيعاب التراث والبناء عليه والحفاظ على ثوابت الدين وقطعياته، والتفريق بينها وبين الاجتهاد الذي يتلون بلون العصر والحاجة، ويتأثر بالسقف المعرفي، والتجديد المنهجي، كل ذلك يؤسس للتواصل على شعار: **(ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان)**[3] ، وليس للقطيعة التي ارتضت لنفسها شعار: **(كلما دخلت أمة لعنت أختها)**[4] وهذا الموقف الأخلاقي لا يقل أهمية عن الموقف المعرفي.

ومثلما نرفض القطيعة مع التراث كليا وتركه وراء ظهورنا، نرفض كذلك وقوف بعض التقليديين عند حدود التفسير القديم كأن كتاب الله الذي لا يحيط بمعانيه بشر ولا تنقضي عجائبه بانقضاء الدهر قد قتل بحثا، أو كأن تفسير القدامى هو قرآن ثان لا يقول بخلافه إلا زنديق !.. وفي هذا ما فيه من عجز عن

---

[1] الإنسان والقرآن وجها لوجه (التفاسير القرآنية المعاصرة) قراءة في المنهج ، احميدة النيفر ، دار الفكر المعاصر ، بيروت ، دار الفكر ، دمشق ، 2000 ، ص8 .

[2] هذا هو العنوان الكبير للمشروع الفكري التجديدي الذي يدعو إليه المفكر المغربي محمد عابد الجابري وتلامذته، وقد كتب تفسيرا للقرآن على وفق رؤيته قبل أن يتوفى رحمه الله.

[3] الحشر ، 10 .

[4] الأعراف ، 38 .

الإبداع، وتقديس لأقوال الرجال، وعدم اكتراث بأبعاد الزمان والمكان و ما تجدد من معارف الإنسان.

ومع ما قررناه من معنى التجديد المقصود، فإنه لا يمكن تجاوز ما ظهر على ساحة التفسير من إنتاج جديد قد لا يمثل تجديدا حقيقيا، لكنه يحتاج إلى وقفة وتحليل، لأنه يمثل أحد عناصر واقع التفسير في المرحلة الحديثة وبالأخص المعاصرة.

وقد أدى استقراؤنا لحركة التفسير في هذه المرحلة إلى تقسيمها على الشكل الآتي:

1. المدرسة التقليدية، 2- المدرسة الإصلاحية، 3-المدرسة التغريبية، 4مدرسة التفسير الموضوعي وقد خصصت لكل مدرسة مطلبا على النحو الآتي:

المطلب الثاني

المدرسة التقليدية

أعني بها المدرسة التي سارت على نهج التفسير القديم نفسه ، تتلون بلونه ولا تتعدى مصادره ووسائله المنهجية ولا تخرج عن نطاق الأقوال التي قيلت ضمنه فهي لا تتجاوز سقفه المعرفي، وتكرر المسائل التي نوقشت بعينها سواء وجدت حاجة إليها في الفترة المعاصرة أم لا، بل أحيانا ينخرط أصحاب هذه المدرسة في الصراعات الفكرية والسجال الكلامي والجدل الفقهي والاحتقان السياسي الذي لم يعد يمثل عنصرا أساسيا من عناصر الثقافة الحديثة والمعاصرة بحماس ظاهر فهو وإن لم يكن حيا في الواقع فهو حي في تفاسير هذه المدرسة.

فهذه المدرسة لا توجه اهتماماتها إلى نص القرآن بالبيان بغرض معالجة مشكلات الواقع، بقدر ما توجه اهتماماتها إلى الأقوال القديمة تنقلها وتناقشها وترجح بينها وتنشرها، وبهذا تحافظ على السقف المعرفي الذي كان موجودا في القرون الماضية بتكرار قضاياه من مشكلات وحلول.

وهذا لا يعني أن أصحاب هذه الرؤية لم يأتوا فيها مطلقا بجديد، ولكن هذا الجديد – الذي يوجد في بعضها أو في أكثرها – يظل على مستوى الصياغة والشكل ولا يتعدى ذلك إلى مستوى الجوهر والمحتوى، وهو لا يستهدف مراجعة منهج التفسير القديم أو مضمونه ، بل يهدف إلى تقديمه في قالب مبسط وميسر، أو إعادة إنتاجه بأسلوب خاص بصاحبه أحيانا، ويتعامل أصحاب هذه المدرسة مع أقوال المفسرين أحيانا أخرى أكثر مما يتعاملون مع القرآن الكريم نفسه. من هنا يتبين أن هذا المنهج ممتد في الزمان فقط ، أما منهجيا ومعرفيا فهو مستقر ومتوقف، لذلك كانت هذه المدرسة تقليدية (قديمة) ، وإن وجدت زمنا في العصر الحديث أو المعاصر، يقول أحد الباحثين بعد أن استعرض بعض نماذج من تفسير هذه المدرسة "**لو اقتصرنا على هذه النماذج الأربعة لجاز لنا اعتبار أن علم التفسير يبدو اليوم وكأنه علم قد(احترق)، أي أن الجهود التفسيرية العصرية المكثفة لم تتمكن من تجاوز السمة المنهجية التي طبع بها كبار المفسرين القدامى هذا العلم. في كل تفسير من التفاسير السابقة نجد أثرا من آثار(المعاصرة) في بعض ما يقع تناوله من مسائل، لكن هذه المعاصرة، تبقى هامشية إذ هي لا تخص العدة المعرفية القديمة والتصنيفات المذهبية المعروفة والقضايا الكبرى التي سبق أن (قتلت) بحثا، ثم . هذا هو الأهم . لا نرى من خلال هذا المناخ العلمي والمذهبي أيّ تساؤلات تجديدية [خاصة] بالمفسر ، وطبيعة الآلة التي ينبغي أن يؤسس عليها علاقته مع النص القرآني.**"[1]أهم ما يشير إليه هذا الرأي هو انعدام سؤال التجديد في مثل تلك التفاسير التي تعتمد ذات الأدوات المنهجية وذات المعارف وتعرضها بأسلوب حديث، ونحن نتفق معه على مستوى سؤال التجديد وموقف المفسر حيال نص القرآن أولا والتفسير القديم ثانيا ومعطيات الواقع المعاصر ثالثا، ولكننا نختلف معه في الجواب عن هذا السؤال كما سيتبين.

[1] الإنسان والقرآن ، احميدة النيفر ، ص28.

ومن أمثلة التفاسير الممثلة لهذه المدرسة ما يلي:

1- التفسير المسمى (روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني)، لشهاب الدين محمود الألوسي رحمه الله، توفي سنة 1270هـ /1845م ببغداد، وقد طبع هذا التفسير عدة مرات ويقع في مجلدات عشر وهو شبيه بالتفسير الكبير المسمى " **مفاتيح الغيب**" للإمام فخر الدين محمد بن عمر الرازي (ت606هـ)، في تناول المسائل الكلامية والفلسفية والطبيعية، وهو بحق موسوعة ممتلئة بالمعارف المنقولة عن السلف والخلف، اعتنى الألوسي بالترجيح بينها كما اعتنى بوجه خاص في تفسيره بالجوانب المتعلقة باللغة والاشتقاق والبلاغة الأدب، ومال في تفسيره إلى إشارات شبيهة بتفاسير الصوفية حتى عد من التفسير الإشاري.[1] مثلا في تفسير قوله تعالى:**(وآتينا موسى الكتاب والفرقان..)** الآية[2] يقول "**هذا وحض العارف من هذه القصة أن يعرف أن هواه بمنزلة عجل بني إسرائيل، فلا يتخذه إلها.. وأن الله سبحانه قد خلق نفسه في أصل لفطرة مستعدة لقبول فيض الله تعالى والدين القويم.. وهذا هو الكتاب الذي أوتيه موسى، القلب.. فمتى أخلدت النفس إلى الأرض واتبعت هواها.. أمرت بقتلها بقتل شهواتها وقلع مشتهياتها..**"[3] وهي وإن كانت من الإشارت المقبولة إلا أننا لا نلمس في تفسيره ما يدل على الهوية الحديثة لتفسيره خاصة من جهة غرض المفسر من التفسير والمنهج الذي يحقق الغرض، والذي ينظر في تفسير الألوسي ولا يعرف صاحب روح المعاني يظن أن تفسيره من أجود ما كتب في القرن السادس الهجري.

2- التفسير المسمى (أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن)، لصاحبه محمد الأمين بن مختار الشنقيطي الموريتاني (توفي: 1393هـ/1973م)، طبع

---

[1] أنظر: التفسير ورجاله ، محمد الفاضل بن عاشور ، ص149، راجع أيضا : الإنسان والقرآن ، المرجع السابق ، ص19، وتفسير القرآن مصادره واتجاهاته، ص171

[2] البقرة، 55.

[3] أنظر روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين الألوسي ج1، ص261.

تفسيره في سبعة مجلدات، وهو غير تام. اعتنى فيه بصفة خاصة بمسائل الاعتقاد وأعاد تحليل بعض المسائل مثل: رؤية الله يوم القيامة، التأكيد على أن القرآن غير مخلوق ومسائل الاستواء على العرش، وعصمة الأنبياء[1] وهو تفسير يميل إلى المأثور من قول السلف وليس فيه جديد إلا في العرض و يكاد ينتمي إلى العصور القديمة حتى في أسلوبه وأن كانت ميزته عدم التوسع.

3. ومن النماذج التي أعادت صياغة الأسلوب قاصدة تبسيطه، وتقريبه للقارئ التفسير المسمى (صفوة التفاسير) للشيخ محمد علي الصابوني،[2] طبع تفسيره في ثلاثة أجزاء، وله تفسير آخر أفرده لآيات الأحكام يسمى (روائع البيان في تفسير آيات الأحكام في القرآن)، كما اختصر تفسير ابن كثير. وفي صفوة التفاسير جمع الشيخ الصابوني، خلاصة أقوال مجموعة من التفاسير القديمة: الطبري، الزمخشري، القرطبي، ابن كثير وغيرهم إلى جانب أقوال بعض المفسرين المعاصرين أمثال الألوسي وسيد قطب . رحمهما الله . لكن غياب البعد الواقعي في السمة المنهجية لتفسير الصابوني واكتفاءه بالجمع والصياغة جعل أحد الباحثين يعلق على عمل الصابوني في جمع أقوال القدامى من المفسرين مع المعاصرين منهم بالقول: " **يفعل ذلك لأنه لا يرى من الناحية المنهجية أي اختلاف بين هؤلاء جميعا ، ولأنه لا يعتبر أن القاعدة الثقافية الفكرية للعمل التفسيري بحاجة إلى أن تتسع يوما، وأنها بالتالي ينبغي بأن تعترف بالفواصل المنهجية بين عصر وآخر ، هذا الفهم اللاتاريخي هو حجر الزاوية في المنهج التراثي**"[3]. وهذا الكلام يحتاج إلى ضبط فإن صياغة التفسير بأسلوب بسيط عمل مفيد والاستشهاد بالقدامى والمعاصرين في مسألة ما

---

[1] الإنسان والقرآن، ص37.

[2] ولد سنة 1347هـ/ 1928م بسوريا، درس بالأزهر وتخصص في القضاء الشرعي.

[3] المرجع السابق،ص40: وإن كنا لا نوافق هذا الباحث في الخلط الذي وقع فيه بين المدرسة التقليدية والمدرسة الإصلاحية ولعل الحماسة للتجديد والإقبال عليه،جعلته يرى مدرسة المنار امتدادا لما أسماه التيار التراثي،ولم ير فيه أي تجديد منهجي،بل لم ير التجديد إلا في المدرسة البيانية لأمين الخولي،وهي مدرسة خلطت المناهج الأصيلة بالمناهج الدخيلة في تفسير القرآن وأنجبت قوما صالحين كزوجته عائشة عبد الرحمان بنت الشاطئ التي كتبت:التفسير البياني للقرآن في جزأين طبعته دار المعارف الطبعة الثامنة،وقد عده بعض الباحثين من التفسير الموضوعي في جانبه الأدبي،وآخرين أساؤوا إلى كتاب الله كمحمد أحمد خلف الله المفكر القومي الماركسي ، أنظر مثلا: الأسس القرآنية للتقدم ، طبعة كتاب الأهالي 1984م.أنظر لمعرفة قواعد هذا الاتجاه الموضوعي الأدبي أيضا: موقف بنت الشاطئ من اتجاهات التجديد في التفسير في مصر،محمد عبد السلام أبو خزيم، دار اليسر، ط2، 2008م، ص342.

لا يعد معيبا في ذاته إلا إذا كان متعلقا بالمتغيرات المعرفية والمنهجية، فكما أن هناك متغيرات، كذلك هناك ثوابت والادعاء بأن كل شيء يخضع للتغير مقولة حداثية غير صحيحة، وما يعاب على تفسير الصابوني أنه لا يحمل تجديدا حقيقيا لا في المعاني ولا المنهج، اللهم إلا في الأسلوب، ولا أعد هذا تجديدا وإن كان من مستلزماته.

المطلب الثاني

المدرسة الإصلاحية

وهي تيار أوسع مما اصطلح عليه بـ:"مدرسة المنار" ، وإن كان لهذه الأخيرة موقع الرأس من الجسد، فالأمة الإسلامية قد شهدت مرحلة نهضة فكرية وأدبية عمّت أرجاء العالم الإسلامي مشرقا ومغربا، وتفرعت عنها نهضة تجديدية بخصوص حركة تفسير القرآن، وإذا كان بعض أعلام هذه النهضة الإصلاحية ثبت تأثرهم المباشر بمدرسة المنار عبر التقائهم بأحد روادها جمال الدين الأفغاني، أو محمد عبده أو رشيد رضا فإن آخرين لم يثبت التقاؤهم بهم وإن بدا أنهم يصدرون عن مشرب إصلاحي واحد، كما هو حال بديع الزمان سعيد النورسي (1876/1960م) أحد أكبر مجددي الإسلام في تركيا وصاحب رسائل النور التنويرية المستلهمة من روح القرآن الكريم، وربما كذلك الأمر بالنسبة للعلامة الطاهر بن عاشور الذي يغلب على تفسيره المسمى التحرير والتنوير ، طابع تكوين الزيتونة وهو طابع فيه من روح الأصالة والتجديد بقدر ما ينزع إلى الموسوعية وكثرة النقول.

وإن كان كل هؤلاء المصلحين قد عاشوا الظروف التاريخية نفسها فكانت هي الملهم للإصلاح، إذ تميزت جهودهم بمحاولة العودة إلى قلب التاريخ تحت عنوان كبير هو إرادة النهوض بعد ركود طويل، لذا تضمنت جهودهم مراجعة تراث التفسير الثقيل بما في ذلك بعض مباحث علوم القرآن، ومواجهة استعمار زاحف على الحقول والعقول جميعا، فوسمت هذه الظروفُ عملَهم في التفسير بطابع الإصلاح النابع من المناخ التاريخي والثقافي والسياسي الذي نشأ فيه، وسنستخلص السمات التجديدية لتراثهم الإصلاحي . في التفسير خاصة . من جهتي الموضوع والمنهج بعد عرض نماذج لتفاسير أعلام هذه المدرسة

وعرض رؤيتهم التجديدية فيما يرتبط بمنهج تعاملهم مع القرآن الكريم، وقد اعتمدت الترتيب التاريخي لهؤلاء الأعلام لأتمكن من ملاحظة التطور المنهجي داخل هذه المدرسة.

1- جمال الدين الأفغاني: (1254م /1897م) : هو أول رواد هذه المدرسة بدأت واضحة مدوية منذ عهده، وعلى الرغم من أن الأفغاني لم يؤلِّف تفسيرا كاملا للقرآن، إلا أنه كان واضح الرؤية في ما يتعلق بمنهج التعامل معه، والتحرر من تراث التفسير الذي ينتمي إلى زمن مؤلفيه، فكان يقول "**إن القرآن حي لا يموت من أصابه نصيب من حمده فهو محمود، ومن أصيب من مقته فهو ممقوت ، كتاب الله لم ينسخ فارجعوا إليه وحكموه في أحوالكم وطباعكم** "[1]. وكان يقول أيضا "**إن حركتنا الدينية بالدعوة إلى القرآن كناية عن الاهتمام بقلع ما رسخ في عقول العوام ومعظم الخواص من فهم بعض العقائد الدينية والنصوص الشرعية على غير وجهها ، مثل حمل نصوص القضاء والقدر على معنى يوجب عليهم ألا يتحركوا إلى طلب مجد أو تخلص من ذل..فلا بد إذن من بعث [مضامين] القرآن وبعث تعاليمه الصحيحة بين الجمهور، وشرحها على وجهها الثابت من حيث يأخذ بهم إلى ما فيه سعادتهم دنيا وأخرى**"[2].

لقد حدد الأفغاني هدفه ومطلبه في أمر أساسي وهو التمسك بالقرآن وإلغاء العصبية المذهبية وطرح التقليد، والسعي وراء الملاءمة بين أهداف القرآن وظروف الحياة المعاصرة، وطرح الخرافات والبدع التي استبدت بالأمة وأحلت تقاليد الناس محل تعاليم الدين، فجعل الناس القدر قيمة سلبية في حياتهم.

كان هم الأفغاني إذن أن ينقل بالقرآن أمة مهزومة من حالة ضعف وهوان إلى حالة قوة وسيادة، وفي كلامه يبدو تذمره من عدم الإقدام على القرآن "الحي الذي لا يموت" والتوسط بشروحات تهرم وتموت، كما يبدو واضحا تذمره من توسع دعاوى النسخ التي جعلته يصيح "كتاب الله لم ينسخ" وإن غلب على فكره وجهوده

---

[1] الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ، الدكتور محمد البهي ، مكتبة وهبة ، ط8، 1975، ص92.

[2] العروة الوثقى ، ص140 -144.

الطابع السياسي فترك صيحات حق مدوية ولم يترك مؤلفات علمية تنقد بتأني ما اكتشفه من سلبيات، والأستاذ بن نبي يرى أن نزعته السياسية التي اقتصر عليها في دعوته للإصلاح كانت وراء فشله، لأنه استهدف تغيير الأوضاع الخارجية للأمة دون أن يهتم بتغيير الإنسان على وفق المبدأ القرآني[1]: **(إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم)**،[2]فعالج الأعراض ولم يعالج المرض وعلى مستوى المنهج أيضا كان الأفغاني **يرى القرآن وحده سبب الهداية والعمدة في الدعاية، أما ما تراكم عليه وتجمع حوله من آراء الرجال واستنباطاتهم ونظراتهم فينبغي أن لا نعول عليه"**.[3] كان يرى بوضوح كثافة أقوال الشراح التي باتت وسائط وحجب بين الناس وبين الاستهداء المباشر بالقرآن العظيم لاسيما وأنها تنتمي إلى عصر مختلف فضلا عن أنه عصر ركود وتخلف.

وعلى مستوى الموضوع للأفغاني نظرات في كثير من الآيات لا تخلو من جدة، وفيها نزعة قوية للتحرر من سطوة الثقافة القديمة وتقاليدها من ذلك أنه تناول خلافة الإنسان في قوله تعالى:**(وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة)**،[4] ملحا على الإرادة البشرية، وكان عدوا للجبرية والرضا بالوضع القائم.

2- محمد عبده (1849م /1905): وهو إمام العصر الحديث في الدين والحرية والإصلاح.. وهو من بين للناس في عصرنا هذا بعد طول ركود قيمة الإسلام الحقيقي وعرض مبادئه وأحكامه ومقاصده بما يسير مع أرقى النظم الصالحة للحياة في عصرنا الحاضر وفي غيره من العصور،[5] كان عمل الإمام مركزا على التنظير والبناء لهذه المدرسة، فوضع منهجا تربويا وتعليميا لفهم الإسلام ودعا إلى الرجوع إلى القرآن والسنة الصحيحة، ولم يختلف مع أستاذه الأفغاني في موقفه من تراث التفسير زمن الركود من جهة ضرورة تنقية التفسير من الكم الهائل المتراكم

---

[1] أنظر: شروط النهضة، مالك بن نبي، ص41

[2] الرعد، الآية 11.

[3] الإنسان والقرآن ، مرجع سابق ، ص54 .

[4] البقرة ، 30.

[5] أنظر: رسالة التوحيد، محمد عبده دار المعارف، مصر، ط4، المقدمة، ص9.

من الآراء نتيجة صراعات تاريخية، كما قال الشيخ محمد البهي" **بدلا من إسلام المتكلمين وإسلام أرباب الكتب المتأخرة التي كانت تعيش في عزلة عن الحياة العامة، وهذه الحياة نفسها كان طابعها هو الانقسام إلى شيع والتعصب والتقليد الضار والضعف السياسي والاقتصادي.. نرى محمد عبده يدعو إلى القرآن والرجوع إلى صدر الإسلام في منهج الفهم والتوحد حوله، وفي نفس الوقت كان يفسر القرآن بما يعيد على أسماع المسلمين صلة الإسلام بالحياة وانتزاع التوجه فيها من مبادئه، ومن خطة الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته.**"[1]

لم يُتم الإمام محمد عبده تفسيره القرآن، فقد توقف عند الآية 125 من سورة النساء، ثم عاجلته المنية، لكنه ترك أيضا تفسيرا لجزء (عم) طبع مستقلا، وتفسيرا لسورة العصر، وطبع تفسيره ضمن تفسير المنار وبلغ خمس مجلدات.

من جهة المنهج فقد نهج محمد عبده طريق الأفغاني من حيث المبدأ في ضرورة العمل على تنقية التفسير من الخرافات والاستطرادات التي تبعده عن استشفاف هدايات القرآن كما ذكرنا وقد عبر عن ذلك فقال:" **كان من سوء حظ المسلمين أن أكثر ما كتب في التفسير شغل قارئه عن هذه المقاصد الغالية والهداية السامية ، فمنها ما يشغله عن القرآن بمباحث الإعراب وقواعد النحو.. ومنها ما يصرفه عنه بجدل المتكلمين وتخريجات الأصوليين واستنباط الفقهاء المقلدين، وتأويلات المتصوفين وتعصب الفرق والمذاهب.. وما مزجت به من خرافات الإسرائيليات، وقد زاد الفخر الرازي صارفا آخر عن القرآن هو ما يورده في تفسيره من العلوم الرياضية والطبيعية وغيرها من العلوم الحادثة في الملة على ما كانت عليه في عهده.. وقلده بعض المعاصرين بإيراد مثل ذلك من علوم هذا العصر وفنونه الكثيرة الواسعة.. تصدُّ قارئها عن ما أنزل الله لأجله القرآن.**"[2]

---

[1] أنظر:الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، ومحمد عبده ومنهجه في التفسير، ص 71-72.

[2] تفسير القرآن الحكيم المشهور باسم: تفسير المنار، محمد رشيد رضا، دار الفكر، بيروت، ج1، ص7.

ومنهج الإمام محمد عبده في التفسير يقوم على : فهم حوادث الحياة القائمة في وقته على ضوء نصوص القرآن، واعتبار القرآن جميعه وحدة واحدة متماسكة، لا يصلح الإيمان ببعضه وترك البعض الآخر، واعتبار السورة كلها أساسا في فهم آياتها، واعتبار الموضوع فيها أساسا في فهم جميع النصوص التي وردت فيه، وإبعاد الصنعة اللغوية عن مجال تفسير القرآن.. وعدم إغفال الوقائع التاريخية في منهج الدعوة إلى الإسلام عند تفسير الآيات التي نزل فيها.[1]كما حاول محمد عبده إعادة تدوين العلوم الإسلامية مرتكزا على الكتاب والسنة وعلى رأس هذه العلوم علم التوحيد حيث حاول عرضه مركزا على المتفق عليه متجنبا الجدل المختلف فيه الذي عرف عن الفرق الكلامية والذي لا طائل من وراءه راجيا بذلك أن يضع أرجل الأمة المسلمة على سكة النهوض الحضاري يقول في مبحث الصفات مثلا:"**الذي يوجبه علينا الإيمان هو أن نعلم أن الله موجود لا يشبه الكائنات، أزلي أبدي حي عالم مريد قادر.. أما كون الصفات زائدة على الذات وكون الكلام صفة غير ما اشتمل عليه العلم من معاني الكتب السماوية.. ونحو ذلك من الشؤون التي اختلف عليها النظار وتفرقت فيها المذاهب، فمما لا يجوز الخوض فيه.**"[2] وهنا أيضا يرى ابن نبي أن محمد عبده قد عالج العرض ولم يداوي المرض إذ انبرى بعقليته الأصولية إلى تنظيم المعارف وتحرير العقل في حين أن النهضة تحتاج إلى يقظة الضمير وقوة الروح ولا يكفي فيها سلامة التفكير[3] ولا شك أن الثقافة الإسلامية الأصيلة عموما ومنهج التفسير الموضوعي والهدائي على الخصوص مدينان لما سطره محمد عبده من معالم هذه المدرسة بتقدم نوعي في الموضوع والمنهج.

[1] تبدو هذه السمات المنهجية، خاصة الوحدة الموضوعية وسياق الآيات واضحة في تفسير الشيخ محمد عبده في المنار، وأنظر: الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار، محمد البهي، ص157.

[2] رسالة التوحيد، محمد عبده، ص 62.

[3] شروط النهضة، ص 41.

3- **محمد رشيد رضا** (1865م / 1935): وهو خير تلامذة الإمام محمد عبده، وأشدهم قربا منه، واصل تفسير شيخه في تفسيره المنار إلى الآية 101 من سورة يوسف، فصيَّره من خمسة إلى اثني عشر مجلدا.

ويبدو أن في تفسير المنار تراجعا منهجيا عن خطوات التجديد التي تميز بها الأفغاني وعبده، بل ربما كانت عند الأفغاني أوضح، فرشيد رضا يصرح في أول تفسير المنار بالقول "**هذا وإني لما استقللت بالعمل بعد وفاته [محمد عبده] خالفت منهجه بالتوسع فيما يتعلق بالآية من السنة الصحيحة سواء كان تفسيرا لها أو في حكمها أو في تحقيق بعض المفردات أو الجمل اللغوية والمسائل الخلافية بين العلماء.. وفي بعض الاستطرادات لتحقيق مسائل تشتد حاجة المسلمين إلى تحقيقها** "[1]. مع أن شيخه كان شديد الحيطة من الاستطرادات والاستشهادات وتحكيم المذاهب النحوية والعقدية في القرآن، إذ كان يعتبر كل هذا جراءة كبيرة على الله تعالى[2]، وكان يقلل حتى من المأثور في التفسير يقول أحد الباحثين "**هذه التي سماها الشيخ رشيد مخالفة وما هي بالمخالفة في المعنى الدقيق لكلمة مخالفة، وإنما هي توسع واستطراد في أمور تجنبها الأستاذ الإمام لسبب أو لآخر**"[3]. وهذا ما جعل باحثا آخر يلاحظ أن التراجع التدريجي في خط التجديد لمدرسة المنار لا مراء فيه[4]. بيد أني أقول إنصافا للرجل مع وجاهة ما لاحظه هؤلاء الباحثين فإن المنار يعد نقلة نوعية في مجال التفسير و الاستطراد الذي ذكره محمد رشيد رضا لا يعد شيئا كثيرا إذا قورن باستطراد الألوسي مثلا، ذلك لأنه قيده بالقول: "لتحقيق مسائل تشتد حاجة المسلمين إليها" فالاستطراد مقيد بشدة حاجة المسلمين، فضلا عن أن في تفسير المنار رؤية إصلاحية اجتماعية مبنية على نمط التفكير السنني وهي بلا شك إضافة تجديدية في الموضوع.

---

[1] تفسير المنار ، ج1 ، ص 16.

[2] أنظر : فلسفة التجدد الإسلامي ، برهان غليون ، مجلة الاجتهاد ، العدد12 ، سنة1991 ، والإنسان والقرآن ، ص62-63 .

[3] محمد عبده ومنهجه في التفسير، عبد الغفار عبد الرحيم ، ص 329 .

[4] الإنسان والقرآن، ص 64.

4- **عبد الحميد بن باديس (1889م / 1940)** : رائد النهضة في الجزائر ورئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، وهو من بعث روح الإسلام، ولسان القرآن (العربية)، ورسخ معاني الهوية الوطنية، فكان شعار الجمعية " **الإسلام ديننا والعربية لغتنا والجزائر وطننا** "، وكان هذا في وقت مسخ فيه الإنسان الجزائري وتحول إلى(**أندجينا**)[1]بيد الاستعمار الفرنسي، فكان مدخل الإصلاح هو **القرآن الكريم** وكانت الآية التي فتح بها ابن باديس وجمعيته ضمائر الجزائريين وعقولهم قول الله تعالى : **(إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم)**[2]، فرأينا سحر القرآن يتحقق عمليا في المجتمع الجزائري الذي تحول فرده من مجرد **(أندجينا)** إلى **(فلاقة)**[3]خطير يقاوم المحتل في استبداده السياسي وغزوه الثقافي ويدافع عن كرامته الإنسانية.

جمعت بعض دروس العلامة ابن باديس في التفسير ضمن كتاب عنوانه :**(مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير)**، ثم طبع بعض المنتقى من تفسيره في كتاب عنوانه:**(تفسير ابن باديس)** وتجدر الملاحظة أن الرجل استطاع أن يبعد تفسيره عما يصرف الناس عن هدايات القرآن، وحوله إلى منبع تربوي ومصدر لتغيير النفوس بتغيير الوعي والسلوك.[4]

وكان ابن باديس يجعل عقله "**مصفاة لكل ما يقرأه**" كما أوصاه شيخه محمد النخيلي القيرواني – رحمه الله – يقول أحد البحثين "**وقد حسم بالتأكيد علاقته بالتراث التفسيري الذي كان يبدو في نظره مثبطا، فأقام صلته بالنص القرآني مباشرة في الإجابة عما اعتبره سؤالا محوريا وهو الموائمة بين إيمان المسلم وصلاح حال أمته، وكان يأخذ من التراث القديم بالقدر الذي يساعده**

---

[1] هو تعبير فرنسي أطلقه الاستعمار على الجزائريين معناه الإنسان المحلي، أي الذي لا قيمة له.
[2] الرعد، 11.
[3] تعبير كانت توردە الصحف الفرنسية عن مجاهدي الثورة فيه رهبة وتخويف للناس منهم.
[4] يرجع كثير من المؤرخين الجزائريين ثورة الجزائر الكبرى التي حررتها من ربقة الاستعمار إلى منهج ابن باديس، وجهود جمعية العلماء، ولم يكن لهم من عدة في ذلك سوى القرآن الكريم .

على هذه الموائمة"[1] وهذا كلام صحيح في مجمله لكنه غير دقيق فالشيخ ابن باديس لم يعتبر تراث السلف مثبطا أبدا بل رآه معينا له ولإخوانه من للعلماء فلقد ذكر أن مصادره في التفسير هي تفسير الطبري، والزمخشري، والتوحيدي، وغيرهم من مفسري السلف وكان يعرف الميزات الحسنة لكل تفسير فيستفيد من ذلك[2]، ويبين الشيخ بن باديس . رحمة الله عليه . منهجه ومصادره في التفسير فيقول:" **دروس التفسير نقتطف أزهارها ونجتني ثمارها بيسر من الله تعالى وتيسير على عادتنا في تفسير الألفاظ بأرجح معانيها اللغوية، وحمل التراكيب على أبلغ أساليبها البيانية، وربط الآيات بوجوه المناسبات، معتمدين في ذلك على صحيح المنقول، وسديد المعقول، مما جلاه أئمة السلف المتقدمون، وغاص عليه أئمة الخلف المتأخرون**"[3] لكن الشيخ جنب تفسيره فعلا النقول المباشرة عن القدامى واستطاع أن يجعل عقله مصفاةن وتعطش أمته للقرآن هدفا، فجسد في تفسيره البعد الهدائي والتربوي للقرآن الكريم، فتجده يذكر الفوائد العلمية والعملية والتربوية للقرآن الكريم بأسلوب سهل ممتنع بعيد عن الإطناب[4]، والجديد في تفسير الشيخ ابن باديس أنه استطاع أن يحول تفسير القرآن إلى مصدر لإحياء الأمة وإعادة بعثها من جديد.

وليس الغرض من هذا العرض إحصاء أعلام التجديد ضمن المدرسة الإصلاحية في التفسير في العصر الحديث فعددهم كبير، وإنما هذه أهم نماذج أستعين بها على استخراج سماة هذه المدرسة التجديدية .

وهناك نماذج أخرى قدمت رؤى حسنة في الإصلاح، كالعلامة **الطاهر بن عاشور (1879م / 1973)** في تفسيره التحرير والتنوير، ولعل من الفوائد

---

[1] الإنسان والقرآن، مرجع سابق، ص 67.

[2] أنظر: تفسير ابن باديس، عبد الحميد بن محمد بن مصطفى بن باديس، المكتبة العصرية، بيروت، ط1، 2006م، ص12.

[3] المصدر نفسه، ص11-12.

[4] أنظر المصدر السابق، تفسير قوله تعالى: (يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم ما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم) (المائدة 15-16)، الصفحات: 13- 19. على سبيل المثال.

التجديدية التي تابع فيها مدرسة المنار تحديده الواضح لمقاصد القرآن من أنه للهداية والعمارة وإصلاح الحال حيث قال" **إن القرآن أنزله الله تعالى كتابا لصلاح أمر الناس كافة.. فكان المقصد الأعلى منه صلاح الأحوال الفردية، والجماعية والعمرانية، فالصلاح الفردي يعتمد على صلاح النفس وتزكيتها، ورأس الأمر فيه صلاح الاعتقاد لأن الاعتقاد مصدر الآداب والتفكير، ثم صلاح السريرة الخاصة، وهي العبادات الظاهرة كالصلاة والباطنة كالتخلق بترك الحسد والحقد والكبر، وأما الصلاح الجماعي فيحصل أولا من الصلاح الفردي.. ومن شيء زائد على ذلك وهو ضبط تصرف الناس بعضهم مع بعض على وجه يعصمهم من مزاحمة الشهوات ومواثبة القوى النفسية، وهذا هو علم المعاملات، ويعبر عنه عند الحكماء بالسياسة المدنية، وأما الصلاح العمراني فهو أوسع من ذلك، إذ هو حفظ نظام العالم الإسلامي .. ويسمى هذا بعلم العمران والاجتماع**[1]، ومما أجاد فيه تصريحه وترجيحه لمفهوم نسبية الفهم والتفسير أمام إطلاقية النص القرآني حين تحدث عن مشروعية تعدد المعاني في الآية الواحدة إذ قال عن القرآن: " **إن معاني جمل القرآن مقصودة بحسب ما يحتمله اللفظ لكن هذا لا يمنع من تعدد المعاني وقد كان المفسرون غافلين عن تأصيل هذا الأصل [أي : إمكان تعدد المعاني] فلذلك كان الذي يرجح معنى من المعاني التي يحتملها لفظ آية من القرآن، يجعل غير ذلك من المعنى مُلغَى. ونحن لا نتابعهم على ذلك، بل نرى المعاني المتعددة التي يحتملها اللفظ دون خروج عن مهيع الكلام العربي البليغ، معاني في تفسير الآية** "[2]. لكن عمله التجديدي كان في المقدمات أقوى منه في صلب التفسير الذي بدت فيه هيمنة تراث التفسير واضحة وإن لم يخل من بعد إصلاحي فكان أحيانا يطيل المناقشات في موضوعات غير ذات أولوية ، فتبعده عن مقصد الإصلاح المعاصر الذي ركز القول فيه في مقاصد القرآن، حيث

[1] أنظر: التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، المقدمة الرابعة " فيما يحق أن يكون غرض المفسر"، ص38.
[2] المرجع نفسه ، ص 100 .

يتوجه "**للرد على الإسماعيلية والمعتزلة وبذلك تنغلق دائرة القراءة على الماضي**."[1] كما أن تفسيره حافل بالنقول الكثير والتفريعات العديدة، وهي حتى مع نفاستها تخالف منهج المصلحين أمثال محمد عبده وابن باديس الذين لم يكونوا يحبذون تكرار تلك النقول في تفاسيرهم والاقتصار على أقوى المعاني وتقديمها بلغة العصر.

ومن النماذج الإصلاحية" تفسير القرآن الكريم الأجزاء العشرة الأولى" للإمام الأكبر **محمود شلتوت** (1893م / 1963)، وكان شلتوت أكثر تحررا من غيره حيث اعتنى بالمسائل الاجتماعية والقضايا المعاصرة، ولعله مع تفاسير أخرى يعد بداية لما سمي لاحقا بـ :"**التفسير الموضوعي لسور القرآن**"، حيث اهتم في تفسيره بمقاصد السورة القرآنية كما أشار إلى اختلاف التفاسير باختلاف ثقافة المفسر.[2]

تتجلى من هنا سمات هذه المدرسة واضحة، تاركة بدايات حقيقية للتجديد في منهج التفسير وموضوعه وإحياء وظيفة القرآن، كما تركت هذه المدرسة رصيدا من العمل في التفسير لا بأس به،وإن كان يحتاج إلى مزيد تعميق وتأصيل وتحرر من جهة المنهج، وهو المدخل الطبيعي للتجديد على مستوى الموضوع ، ويمكن اختصار هذه السمات بالذكر كما يأتي:

1- مقاومة الاستعمار الثقافي التغريبي والاستشراقي الفكري والسياسي، على ضوء وتوجيهات القرآن الكريم وبيان السنة النبوية الصحيحة، وإن كنا نرى اليوم بوضوح أكبر أن المقاومة المبنية على ردة الفعل غير كافية، وأنها تحصن الذات المسلمة من فقدان الهوية والذوبان في الآخر ولكنها لا تبنيها.

فعملية البناء تتطلب كذلك وبتركيز أكبر عملا إيجابيا – وليس مجرد مدح وتمجيد – على المستوى المنهجي والموضوعي في منظومة الفكر الإسلامي، أي

---

[1] الإنسان والقرآن ، ص48 .

[2] أنظر : تفسير القرآن الكريم الأجزاء العشرة الأولى ، الإمام الأكبر محمود شلتوت ، دار الشروق ، القاهرة ، ط12 ، 2004م ، ص 9 .

التعامل مع القرآن الكريم بما يجعله عامل تنمية لرصيد المعرفة البشرية، وتوجيه التفكير من خلاله في مستقبل الحضارة الإنسانية، وإنه لحقيق بذلك، بدل أن يبقى عامل تحصين للذات.

2- محاولة التحرر من سطوة تراث التفسير في مراحل التخلف الحضاري وركود التفسير – منهجيا ومعرفيا – وهيمنته على المفسر باعتباره تعبيرا عن أوضاع ذهنية واجتماعية تتسم بسمة عصر معين وترتبط بتاريخية ذلك العصر وسقفه المعرفي ، فينبغي أن يظهر ما في القرآن " **من كنوز ودفائن حجبتها عن أبصار المسلمين وغيرهم عدة قرون. تلك الحجب الكثيفة التي أقامتها دونه مجلدات التفسير وخرافات القصاصين وضلالات المبتدعين**"[1].

3- الرجوع بالتفسير إلى التمسك بمقاصد القرآن وهداياته وإصلاح النفس والمجتمع وعمارة الأرض بالاهتمام بالسنن الإلهية في الحضارة والتاريخ ، تمثلا بقوله سبحانه تعالى : **(إن هذا القرآن يهدي للتي أقوم)**[2]. فعمل المفسر مع المدرسة الإصلاحية لم يعد يقف عند الكشف والبيان لمعاني كلمات وجمل القرآن الكريم بل صار هذا التفسير مرحلة لازمة وغير كافية ، يعقبُها كشف أكبر وأهم : هو الكشف عن الهدايات القرآنية والسنن الإلهية في موضوع بعينه أو سورة بعينها .

المطلب الثالث

المدرسة التغريبية

هذه المدرسة هي نتاج الاحتكاك الذي وقع ويقع باستمرار بين الشرق والغرب، هذا الاحتكاك يأخذ مظاهر متعددة كالحروب الصليبية والاستعمار في المجال العسكري، وسلب حرية القرار في المجال السياسي، كما يأخذ الطابع الفكري كظاهرة الاستشراق في مجال تطور العلوم والمناهج، وهذا الاحتكاك ليس له اتجاه واحد من الغرب نحو

---

[1] تفسير أسرار القرآن ، عبد العزيز الجاويش ، مطبعة الهداية ، الأستانة ، 1931م ، وانظر : الإنسان والقرآن ، ص73 .

[2] الإسراء ، 9.

الشرق دائما كما قد يتوهم، بل هو تابع لحركة التاريخ وسنة اتباع المغلوب للغالب المتقدم حضاريا.

وما يهمنا هنا من مد هذه الحركة وجزرها بين الشرق والغرب هو مظهرها الأخير الناتج من امتداد الركود والتخلف في العالم الإسلامي من جهة، وهيجان الحركة والنشاط الفاعل ماديا وفكريا في عالم الغرب، مما أنشأ ظاهرة يعرفها جميع المؤرخين هي ظاهرة الانبهار بالحضارة الغربية.

ونتيجة لهذا الانبهار ظهر في الشرق من يدعو لاتباع الغرب في التفكير وأسلوب العيش. والمدرسة التي سنحلل بعض مقولاتها ليست معاصرة كما هو شائع بل تقرأ في هذا السياق العام، بدءا من بعثات **محمد علي باشا** [1] لنخبة الشرق لتعلم فكر الغرب والتشبع بفلسفته وعلومه، ومنذ ظهر أمثال **رافع رفاعة الطهطاوي**[2] وغيره وكان واضحا مقاطعتها وتجاوزها لكل ما هو أصيل، ومناصرتها وترحيبها بكل ما هو دخيل، بالإضافة إلى أنها مدرسة إسقاطية توجه القرآن توجيها علمانيا أو ماديا، زادُها في ذلك نظريات الغرب وتاريخه ، وأساتذتُها المستشرقون.

الجديد في هذه المدرسة هي دخولها المباشر ميدان التفسير، أو على الأصح ميدان **التأويل** الباطل الذي لا يستوفي الشروط العلمية التي أوضحناها سابقا، حيث تلقفوا نظريات الغرب ومناهجه في قراءة النصوص وتأويلها، مستعملين أدواته المنهجية في التعامل مع تراث التفسير بل وفي معاملة النص القرآني نفسه كما سنرى.

والقاسم المشترك بين أصحاب هذه المدرسة هو الاستخفاف بالتراث ونزع القداسة عن النص القرآني وتسويته بالنصوص البشرية، كما يتفقون حول استعمال أدوات منهجية غربية في فهم الخطاب وتحليله ويدعون بأنها أدوات علمية موضوعية.

---

[1] ولد محمد علي باشا سنة 1769م ، وشارك في الحملة العثمانية لإخراج الفرنسيين من مصر ، ثم تولى مصر سنة 1805 م واتخذها وطنا له ، اختلف المؤرخون في الحكم عليه وقال عنه عبد الرحمان الجبرتي " مخادع وكذاب.. وظالم لا عهد له ولا ذمة ، يضمر السوء واستخدام العسف والجور في نفس الوقت الذي يعد فيه بالعدل ".

[2] رافع رفاعة الطهطاوي ولد بمحافظة سوهاج سنة 1216هـ\1801م، درس بالأزهر الشريف قبل أن يرشحه أستاذه حسن العطار على رأس البعثة التي أرسلها محمد علي باشا إلى باريس، وبعد خمس سنوات عاد ليبشر بالتحديث على النمط الأوربي، من مؤلفاته: المرشد الأمين في تعليم البنات والبنين، وترجمة القانون المدني الفرنسي , توفي سنة 1290هـ\1873م .

وفي الوقت نفسه تحرص هذه المدرسة على القطيعة مع مبادئ الفكر الإسلامي وقطعياته باعتبارها تراثا قديما أو امتدادا لتراث قديم[1]، وتتمسك بشدة بموقع التواصل، بل والتقليد لمناهج الفكر الغربي، إذ هو يؤسس بزعمهم لحداثة حقيقية.

لذلك نجد أن من أهداف هذه المدرسة التشويش على مقاصد النص القرآني بالقول: " **إن القراءة هي التي تكسب النص معناه** " أو " **إن النص مربوط بظروف زمانه ومكانه**" ، وليس هدفها بيان مقاصد القرآن الكريم فهي لا تؤمن بوجودها، وتستعين في ذلك **بـ " مناهج علم اللسانيات**"[2] كما تستعين **بـ:" الهرمنيوطيقا** "[3] وخاصة الجزء المتعلق بنظرية التفسير الغربية لنصوص اللاهوت، بذلك تحاول هذه المدرسة التنصل من أحكام القرآن ومقاصده بالقول بتاريخية النص القرآني نفسه وليس فقط التفسير[4] ، ويسمى هذا المنهج بالمنهج (التاريخاني)[5] تمييزا له عن المنهج التاريخي المعروف الذي أصل له العلامة ابن خلدون وسار عليه علماء التاريخ من نقد داخلي وخارجي للوثائق والأخبار والأحداث التاريخية.

كل ذلك ليؤمِّنوا خروجا جماعيا للمسلمين من دينهم والتحاقهم بركب الفكر الوضعي المادي متعلقين بمبررات واهية، وفي ما يلي عرض لهذين المنهجين:

---

[1] التراث عند هؤلاء كلمة لا توحي إلا بالتخلف الحضاري والمعرفي الشامل، ولا يميزون بين مرحلة وأخرى على الرغم من أن أسلافنا في مراحل الازدهار الحضاري كانوا سادة العالم، وما تزال جوانب كثيرة من التراث متقدمة جدا، والتراث يحتاج إلى إصلاح وليس إلى اقتلاع ومخاصمة وحرب على الذات!

[2] اللسانيات علم يدرس اللغة ويحاول جعل البحث اللغوي معتمدا على التجريب تماما كالبحث التطبيقي في العلوم الحسية البحتة، وهو على كل حال نشأ في ظروف تمدد المنهجية الوضعية الغربية وبسط نفوذها على العلوم الإنسانية لإخضاعها لمنطق الحس والمادة ، وهو يقوم على أرضية معرفية وضعية وهو بذلك ليس علما حياديا.

[3] هو مصطلح قديم بدأ استخدامه في دوائر الدراسات اللاهوتية يشير إلى مجموعة القواعد والمعايير التي يجب أن يتبعها المفسر لفهم النص الديني (الكتاب المقدس)، بذلك فهي تعني نظرية التفسير ويعود استعمالها بهذه =الدلالة إلى عام 1654، ومازال مستمرا حتى اليوم خاصة في الأوساط البروتستانتية، أنظر: إشكاليات القراءة وآليات التأويل ، نصر حامد أبو زيد، المركز الثقافي العربي، ط6 2001 ، ص13-14.

[4] بمعنى أن المعاني القطعية في القرآن نفسه هي معان محكومة بمناخها وسقفها الزماني والمكاني الذي نزلت فيه، أما وقد تقدم البشر وتطورت المعرفة فيجب تجاوز النصوص ولا عبرة لقدسيتها، وإن بقي من النص شيء فهو روحه العامة، يعنون بذلك الإطار الذي يمكن أن يدخلوا فيه أي معنى يشاءون ويستنجدون بالقول (القرآن حمال أوجه) وهو ما يسمونه المنهج (التاريخاني) ولا فرق عندهم بين الكتب الدينية التي كتبها رجال الدين بأيديهم ثم قالوا هذا من عند الله، وكلام الله الذي يحكم التاريخ وليس محكوما به، وهذه التاريخانية غير تاريخ النزول الذي يلقي ضوءا على الفهم الصحيح لكلام الله استعانة بأحوال النزول وملابساته ومنها تاريخ النزول.

[5] هي كلمة مستحدثة لا وجود لها في اللغة العربية، وتعني موت النص بتاريخ ميلاده فورا.

1-المناهج اللسانية وتفسير القرآن :

نشأ علم اللسانيات في مناخ فكري غربي، هيمنت عليه الوضعية وصارت العلوم التي لا تقوم على الملاحظة والتجريب لا تكتسب صفة العلمية، وهذا ما جعل المهتمين بالعلوم الإنسانية واللغوية حريصين على الاتجاه صوب المنهج التجريبي فهذه المدرسة تمثل في نظر بعض الباحثين "**حالة مرضية لانتكاس الفكر الغربي بعد التطور الكبير للعلوم التجريبية التي استخدمت في غير مجالها الصحيح**"[1].

في هذا المناخ الفكري ظهر العلم اللسانيات محاولا جعل البحث اللغوي بحثا تجريبيا، ومن ثم فاللسانيات ليست علما حياديا تماما كما يتوهم البعض، وإنما هو علم ذو خلفية فلسفية وطبيعة ابستيمولوجية – أي أصول معرفية – وضعية.

والغاية التي يسير إليها هذا العلم هي محاولة فهم المنطق الداخلي الذي يحكم اللغات من أجل ضبط المعنى أو الدلالة ، وهو بذلك يتقاطع مع كل العلوم الإنسانية التي تتصدى للنص بالدراسة والتحليل وما كنت لأتطرق إلى هذا العلم لولا أنه استعمل أداة في تفسير – أو بالأحرى– تجاوز النص القرآني.

وأول دراسة **تطبيقية على نصوص القرآن**، قام بها المستشرق الياباني "**توشهيكو إيزوتسو**" في كتابه " **بنية المصطلحات الأخلاقية في القرآن** " – باللغة الإنجليزية – صدر سنة 1950م ، وكتب بعده عدد من المستشرقين الفرنسيين " **آلارد وآخرون** " دراسة طبقوا فيها علم الدلالة اللساني في كتاب " **تحليل مفهومي للقرآن** " وكان ذلك عام 1963م.

وجدير بالذكر أن المستشرق الياباني " **إيزوتسو** " تنبه في دراسته إلى الطابع الوضعي للسانيات، ومن ثمّ لاحظ خصوصية القرآن ولغته التي تشير إلى المصدر الإلهي للنص، فأدرك واحدة من أخطر المشكلات التي تواجه البحث اللساني على النصوص الدينية.

---

[1] معايير القبول والرد لتفسير النص القرآني، ص119.

وحاول تطويع النظريات اللسانية لتحليل خطاب القرآن بهدف الكشف عن نظرته الكلية للكون والإنسان والحياة، فخلص إلى تصور لأكثر من 103 من المفاهيم العقدية في القرآن تكاد تطابق ما عليه جمهور المسلمين، حتى ليبدو أن كاتب هذه الدراسة من المسلمين!

ومنذ العام 1990م حين طبع كتاب المهندس السوري محمد شحرور "**الكتاب والقرآن**"، دخل هذا النوع من الدراسات مرحلة مهمة حيث تحولت القراءة المعاصرة للقرآن في العالم العربي إلى ظاهرة واضحة ومتكررة تتجاوز النظرية إلى التطبيق بعد أن كانت كتابات أركون وأبو زيد وغيرهما تنظر وتشرح المفاهيم وتكتفي ببعض الأمثلة التطبيقية القليلة.

وكما يرى أحد الباحثين، فإن تفسير هذه الظاهرة بمجرد التقليد للغرب فيه نصف الجواب فقط، وأما الجواب الكامل فيكمن تحت الباعث "**الإيديولوجي**" الذي يسوغ هذه الدراسات والذي غالبا ما يكون ماركسيا أو علمانيا ويمثل ذلك قاسما مشتركا بين الدراسات التي طبقت البحث اللساني على القرآن الكريم.

ولقد كان علم أصول الفقه وقواعد التفسير يقفان دائما حاجزا أمام تأويل النصوص بما ينسجم وهذه الأيديولوجيات ، وكان من المستحيل وضع تفسير كامل للنص القرآني على وفق المذهبية العلمانية، بل كانت تأويلاتهم تبدو بعيدة وناشزة عن النسق القرآني ، فلم تستطع هذه المذهبية أن تحصل من النص على ما تريد إلا بتحميله ما لا يحتمل ، فوجدوا في اللسانيات إمكانية كبيرة تسمح لهم بتوليف لكامل النص القرآني بشكل منظم ومتكامل ولكن ذلك لم يتم أيضا إلا بنوع من التعسف والتجاوز، ولكنه في كل الأحوال ليس مفضوحا بسهولة!

من هنا اكتسب علم اللسانيات سمعة سيئة جدا في الأوساط العلمية الإسلامية، لأنه مع هذه المدرسة التغريبية لم يتم الاهتمام به كعلم ، بل جرى توظيفه كأداة لتسويغ التوجهات الأيديولوجية العلمانية التي حولت القرآن – كما يظهر من دراسة شحرور – إلى ما يشبه الحواشي الماركسية !

وهذا هو سر إقبال أصحاب القراءات المعاصرة على القرآن الكريم، لا حبا فيه، بل إلغاء لمقاصده وانتصارا لمذاهبهم، ومحاولة لتقليص هوة الغربة التي تفصلهم عن تراث أمتهم بجر القرآن إلى التصديق على مقولاتهم وإفكهم، ففي الوقت الذي كان يتجه فيه البحث اللساني في الدراسات الاستشراقية أحيانا إلى الموضوعية والحياد، كان الدارسون العرب يستخدمونه كأداة لتأكيد اعتقاداتهم العلمانية وليس لغاية البحث العلمي[1]. وربما تكون في هذا العلم عناصر يمكن الاستفادة منها، لكن المدرسة التغريبية طمست هذه الفائدة لما جرى على أيديها من سوء استخدام[2] .

ومع ذلك فلا يخفى ما في تعميم العلوم الإنسانية الغربية عموما وعلم اللسانيات على الخصوص وتطبيقه على اللغة العربية والنصوص القرآنية من مجافاة للموضوعية، فهو لا يراعي ضرورات التعميم وإمكانيته وشروطه، ولا المناخ الذي نشأ فيه هذا العلم ، ولا طبيعة اللغة أو مصدر النص محل التحليل ولا خصائصهما.

فما هو المنهج اللساني الذي اعتمدوه؟ وما هي المداخل التي استعملوها في النص اللغوي العربي عموما والنص القرآني على الخصوص؟ وما الذي جرأهم على القرآن الكريم متجاهلين حقائق العلم والدين والتاريخ والمنهج؟

أما المنهج فقد اعتمدوا **البنيوية** التي يرى أصحابها أن النص الأدبي . مهما كان . هو عبارة عن نسق كلي يتكون من أنساق صغرى، ودراسة الأنساق الصغرى هو الذي يكشف عن النسق الكلي أو النظام الكلي للنص، لذلك فلا معنى للفظ خارج نسق نباء النص.[3] ولم تلق هذه النظرية نجاحا لعدم وضوح معنى النسق كبديل عن دلالة اللفظ أو سياق التركيب، فظهر منهج آخر هو المنهج **التفكيكي** الذي قام على أنقاض البنيوية آملا اكتساب صفة العلمية، وترتكز التفكيكية على نفي مركزية النص فلا توجد نقطة مرجعية

[1] المناهج المعاصرة في تفسير القرآن الكريم ، عبد الرحمان الحاج إبراهيم ، ص 13-14 باختصار وتصرف.

[2] يقتضي منا الإنصاف القول أن اللسانيين ليسوا على درجة واحدة في الإساءة للنص القرآني، فمنهم من تشبع بدراسة النصوص على المناهج الغربية واستهواه ما يسمى "لسانيات النص" لاسيما "نظرية التلقي" وسلطة القارئ في إنتاج النص، فراح يطبق ذلك على القرآن العظيم، ودرجات اللسانيين تبدأ من تحكيم القارئ في معنى النص، والسماح له بتجاوز قصد المتكلم وتنتهي بالقول بموت المؤلف والتفسيرات اللانهائية للنص. أنظر: معايير القبول والرد لتفسير النص القرآني، عبد القادر محمد الحسين، ص 112-122.

[3] أنظر: المرايا المحدبة من البنيوية إلى التفكيكية، عبد العزيز حمودة،طبعة عالم المعرفة، الكويت، 1998، ص106.

ثابتة يمكن الارتكاز عليها لإعطاء مدلول ما أو حتى مدلولات مختلفة للنص الأصلي، فلا توجد إذا قراءة أو بالأحرى تفسير موثوق به، فما يراه تفسير ما أساسيا هو في تفسير آخر هامشيا.. ويسمون هذا اللعب الحر للغة.[1]

وكل من المنهجين في المآل يتفقان . رغم اختلاف الأسلوب . على القول بإلغاء المعنى واختفاء النص، فالبنيوية مثلا تدعو إلى إنشاء نقد يكون أكثر إبداعا وجذبا من النص الأصلي ذاته، وتدعو التفكيكية إلى استبدال القائل بالمتلقي أو القارئ "**والمسافة في هذا بين المدرستين ليست واسعة بل ربما لا يكون لها وجود**".[2]

ويشبه قول الحداثيين السابق ما ذهب إليه السوفسطائيون في عدم الإيمان بوجود حقائق ثابتة أصلا، فالحداثيون لا يؤمنون بوجود معاني ثابتة أصلا، مع أن المعنى عند علماء اللغة سابق على اللفظ في الوجود والاعتبار، واللفظ أساسا موجود لوجود المعنى السابق كما يقول الإمام الجرجاني "**معلوم أن الفكر في الإنسان يكون في أن يخبر عن شيء بشيء، أو يصف شيئا بشيء أو يضيف شيئا إلى شيء أو يشارك شيئا في حكم شيء أو يخرج شيئا من حكم شيء.. وهذا كله فكر في أمور معلومة معقولة زائدة على اللفظ**"[3] ومعنى كلامه أنه لولا توارد المعاني وترتيبها السابق على الألفاظ في النفس لما أمكن إخراج اللفظ مرتبا ومفهوما، فاللغة هي الوعاء الذي ينقل المعارف والعلوم والأخبار من المتكلم إلى السامع فهي وعاء ممتلئ بالمعاني المقصودة سلفا للمتكلم وليست وعاء فارغا يضع فيه السامع ما يشاء كما زعم من قال"**إن النص بطبيعته مجرد صورة عامة تحتاج إلى مضمون يملؤها وهذا المضمون بطبيعته قالب فارغ يمكن ملؤه من حاجات العصر ومقتضياته**"[4]، من هنا لا تتجاوز سلطة المتلقي فهم مقصد المتكلم، وعلى حسب ما تسمح به قواعد اللغة ومعهود الناس في أساليب خطابهم، وإذا تجاوز القارئ أو السامع

---

[1] المرجع السابق، ص 55.
[2] المرجع السابق، ص57.
[3] دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، دار الكتاب العربي، بيروت،ط1، 1995م، ص307.
[4] نقد الخطاب الديني، نصر حامد أبو زيد، مكتبة مدبولي القاهرة، ط3، 1995م، ص181.

قصد المتكلم بجهل أو تجاهل يريد أن يفهم ما مال إليه هواه يكون ظالما ومتجنيا، وإذا لم يكن هذا الميل هو الزيغ واتباع الهوى فما هما إذا؟

إن هذه المدرسة بمحاولتها التحرر من قيد اللغة وتجاوز قواعدها تعدم كل الضوابط في التعامل مع النصوص الأدبية، وتدخل في احتمالية أو نسبية لا حدود لها وتسقط في مستنقع من العبثية فحواه: قل ما شئت وأنا أفهم ما أشاء، حيث تصبح عملية الفهم نفسها مستحيلة.

وإسقاط مثل هذه المناهج على نصوص اللغة العربية أمر في غاية الخطورة لاسيما وهم يفرغون النصوص من محتواها بلا تفريق بين نص بشري وآخر إلهي خالد وكامل ومقدس، فالكل عندهم في سلة واحدة، يقول أحدهم "**إن النصوص دينية كانت أم بشرية محكومة بقوانين ثابتة والمصدر الإلهي للنصوص الدينية لا يخرجها عن هذه القوانين لأنها تأنسنت منذ تجسدت في التاريخ واللغة وتوجهت بمنطوقها ومدلولها إلى البشر**"[1]، ونحن نتساءل هل توجيه كلام الله إلى الناس يحوله إلى كلام بشر؟ وكيف نفهم في ظل هذا الكلام التحدي الإلهي لمماثلة القرآن الذي أعجز الإنس والجن متحدين متظاهرين؟ مما دل على أن القرآن كلام الله المعجز ودليل صدق نبوة محمد صلى الله عليه وسلم.

لكننا نعرف أن هذا الباحث ينكر أصلا وجود نص مصدره الله يقول: "**النص في جوهره منتج ثقافي، والمقصود بذلك أنه تشكل في الواقع والثقافة خلال فترة تزيد عن العشرين عاما، وإذا كانت هذه الحقيقة تبدو بديهية ومتفقا عليها فإن الإيمان بوجود ميتافيزيقي سابق للنص يعود لكي يطمس هذه الحقيقة البديهية.**"[2]

لكنني أقول إن أكثر اللسانيين العرب هم الذين طمسوا تماما الدراسة الموضوعية لظاهرة "**لسان القرآن**" من الوجهة التاريخية، ولو فعلوا لعرفوا أن القرآن نفسه ظاهرة لغوية معجزة ومحيِّرة وغير طبيعية بالمقاييس البشرية.

فإن ظهوره فجأة في صورة غاية في الكمال، من غير سابق أخذ عنه أو بنى عليه، ولا لاحقٍ يقدر أن يستدرك عليه أو حتى أن يقلده، لهو الإعجاز الحق.

---

[1] المرجع السابق، ص119

[2] مفهوم النص، نصر حامد أبو زيد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط5، 2000م، ص24.

وعرب الجاهلية أنفسهم أدركوا هذه الميزة القرآنية وعبروا عن هذه الحيرة بوصفهم للقرآن بأنه " **يعلو ولا يعلى عليه.** "[1]

ولقد تطرق المفكر مالك بن نبي إلى وصف الظاهرة اللغوية القرآنية فقال: "**إن ظاهرة لغوية كهذه، فريدة في تاريخ اللغات، إذ لم يحدث للغة العربية تطور تدريجي، بل بعض ما يشبه الانفجار الثوري المباغت، كما كانت الظاهرة القرآنية مباغتة. وبهذا تكون اللغة العربية قد مرت طفرة من مرحلة اللهجة الجاهلية إلى لغة منظمة فنيا لكي تنقل الثقافة الجديدة والحضارة الوليدة.** "[2]

وحتى الألفاظ غير العربية التي استخدمها القرآن كالألفاظ الآرامية، ليعبر بها عن مفاهيم توحيدية جديدة من الناحية النوعية ، كلفظ (ملكوت) أو الأسماء الخاصة مثل (جالوت ، هاروت ، ماروت) ، فمن وجهة الدراسات اللغوية يبدو القرآن وكأنما استحضر ثروته اللفظية الخاصة وأنشأها إنشاء بطريقة فجائية وغريبة .. لقد كان حتما للقرآن وهو يدخل فكرته الدينية ومفاهيمه التوحيدية ، أن يتجاوز الحدود التقليدية للأدب الجاهلي ويفصل تماما بين اللغة الجاهلية واللغة الإسلامية. والحق أن القرآن أحدث انقلابا هائلا في الأدب العربي بتغييره الأداة الفنية في التعبير، فهو من ناحية قد جعل الجملة المنظمة في موقع البيت الموزون، وجاء من ناحية أخرى بفكرة جديدة أدخل بها مفاهيم وموضوعات جديدة ، لكي يصل العقلية الجاهلية بتيار التوحيد، على أن المفاهيم الجديدة ليست مترجمة في آيات القرآن فحسب، بل إن القرآن قد هضمها وتمثلها، ثم كيفها حتى تناسب العقلية العربية والإنسانية عموما؟! ومما يذكر أن هذا التكييف قد تجنب صعوبة الترجمة الصوتية للحروف الأولى، وحلّ مشكلة لغوية لا يتسنى لجاهل بالدراسات اللغوية المصرية القديمة أن يحلها حتى ولو كان في أتم حالات وعيه![3]

---

[1] من مقولة الوليد ابن المغيرة وهو على الشرك ، وهو أعلم العرب بكلام العرب !
[2] الظاهرة القرآنية ، مالك نب نبي ، دار الفكر ، ط6، 2006م ، ص 191 .
[3] المرجع السابق ، باختصار وتصرف يسير، ص 191-194 .

فأنى للمنهج اللساني الوضعي أن تتحكم أدواته في الخطاب القرآني المعجز، من غير أن يدخل عليه التحريف والتشويه، ويستعمل معه الظن والتخمين، فيبقى القرآن في عليائه المطلق، ويسفّ هذا المنهج هاويا إلى مقاييس الأرض النسبية الناقصة.

هذا من الوجهة التاريخية للسان القرآن، أما من جهة خصائص اللسان العربي الذي قفز به الخطاب القرآني إلى مدارج الكمال، فيقول طه جابر العلواني: "**خصائص اللسان العربي الذي أنزل به القرآن هي خصائص كثيرة ومتعددة، فهناك الخصائص البلاغية والأدبية واللغوية والنحوية والصرفية والبيانية والنظمية.. جعلت من هذا القرآن أعظم آية آتاها الله – تبارك وتعالى – هذه البشرية.. وهذه الخصائص تتعدد بتعدد وتنوع زوايا النظر وتنوع المتدبرين، وهي غير قابلة للحصر لأن القرآن مطلق والإنسان نسبي.**"[1]

هذه الخصائص تجعل اللغة العربية لا متناهية قادرة على توليد المعاني التي تجيب عن القضايا والاستفهامات المتجددة في كل عصر، ومن جهة أخرى فإن هذه الخصائص تجعل لغة القرآن مستعصية على التحليل اللساني بما تحمل من ضوابط تفسير الخطاب و" **من هنا احتار اللسانيون المحدثون فيها فهي ليست أصواتا مقطعة.. وهي ليست مجرد اختلاف تركيبات المقاطع الصوتية، التي تفضي إلى دلائل كلامية وعبارات لغوية.. فلسان القرآن أمر آخر فوق ذلك كله، فلا يمسه اللسانيون ولا يستطيعون العروج إلى عليائه، لا بالتحليل ولا بالتفكيك، ولا بمناهج اللسانيات ولا بمناهج السيميائيات، لأن هناك شيئا غفل عنه هؤلاء كلهم، وهو الفرق بين الخطاب حين يكون إلهيا، وبين الخطاب البشري، فسووا بذلك بين خطاب رب الأرباب وخطاب ابن التراب، فضلوا وأضلوا كثيرا**".[2]

ومما يثير استغرابنا هو أن هذه الخصائص التي هي مصدر قوة في اللغة ومصدر إعجاز في القرآن حاول الحداثيون استغلالها لتمرير مقولاتهم، فاستغلوا القول بتعدد معاني آية القرآن الكريم، وهي حقيقة ثابتة لأجل القفز إلى القول بالنسبية المطلقة التي تقضي على المعنى من أساسه.

---

[1] لسان القرآن ومستقبل الأمة القطب، طه جابر العلواني ، مكتبة دار الشروق الدولية ، ط1 ، 2006م، ص8.
[2] المرجع نفسه ، ص 18.

وهنا نجد أنفسنا بين إفراط وتفريط، بين من قصر معاني القرآن على المأثور والمشهور، فأضر بثراء معانيه وإطلاقه وشموله ومرونته وصلاحيته لكل مكان وزمان وإنسان إلى يوم الدين، وبين الحداثيين الذين استغلوا هذه الخصائص القرآنية لفتح المجال إلى القول باحتمالية هلامية منفكة عن كل ضابط علمي أو لغوي يصح معها القول والقول النقيض في الآية الواحدة[1] ، وذلك يقضي على النص القرآني ويجعل منه غير ذي جدوى إلا تبرير أهواء الناس لأنه سيتحول إلى أداة طيعة في يد القارئ يتساوى في درجة الفهم فيه أهل الحق وأهل الزيغ، وهذا يعني أن القرآن لم يعد معيارا للحق والخير والصلاح، وهم يستغلون مقالة الإمام علي رضي الله عنه: "**القرآن حمال ذو وجوه**".[2] فصحت فيهم كلمته أيضا: كلمة حق أريد بها باطل، ولو أن الحداثيين طبقوا كلامهم في النسبية المطلقة في المعنى على بعض النصوص الأدبية البليغة لكان خطيئة وقولا منكرا، أما أن يجعلوه حكما على كلام الله لمجرد نظرياتهم غير الناضجة فالخطر يتعاظم.

واستغلال القول بسعة معاني القرآن . التي هي من مظاهر إعجازه . ذريعة للخروج عن قواعد اللغة وأساليب العرب في الفهم والإعراض عن فهم النبي وأصحابه ومقتضى السياق ومقررات الشرع وحقائق الدين وأوليات العقل إلى معان مختلفة اختلاف تناقض وتضاد لا اختلاف تنوع وتآلف بناء على هوى السامع أو القارئ واستعمالا لسلطة موهومة مخولة له . يسمونها سلطة القارئ . لهو العبث بعينه وهو الإلحاد في آيات الله.

أضف إلى هذا أن منهجهم لا يفرق بين القطعي الثابت والظني المتغير لأنه لا وجود للقطعي في منهجهم ولو وجد لشكل مرتكزا وكان مرجعا يرجع إليه في الفهم، كما لا فرق عندهم بين محكم ومتشابه، لأن المحكم عند فريق متشابه عند آخرين بزعمهم ولو وجد المحكم لرد المتشابه إليه، ويقال في الحقيقة والمجاز ما قيل في القطعي والمحكم،

---

[1] هذا النوع من التفكير السوفسطائي يقضي على العلم كلية، قال الإمام النسفي: "قال أهل الحق حقائق الأشياء ثابتة والعلم بها متحقق خلافا للسوفسطائية، وأسباب العلم للخلق ثلاثة: الحواس السليمة، والخبرالصادق، والعقل" وقال التفتزاني في شرح هذا القول: "الحق أنه لا طريق إلى المناظرة معهم خصوصا اللاأدرية، لأنهم لا يعترفون بمعلوم ليثبت به مجهول، بل الطريق تعذيبهم بالنار ليعترفوا أو يحرقوا". أنظر: شرح العقائد النسفية للإمام سعد الدين التفنزاني، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، 1421هـ ، ص22.

[2] قالها الأمام علي لعمه العباس حين أرسله لمحاورة الخوارج. أنظر:الدر المنثور في التفسير بالمأثور، الإمام السيوطي، دار الفكر بيروت، ج1، ص15.

وهكذا يتحول القرآن إلى نص هلامي كله متشابه وكل دلالاته ظنية وكل ألفاظه مجازية فكل أحد يقول في تفسير كلام الله ما شاء؟؟

يخيل إلي أحيانا وأنا أقرأ كلام الحداثيين عن سلطة السامع أو القارئ ومشاركته في صناعة النص أو إعادة صياغته بناء على النقد أنه كلام صالح مع ضعاف الملكة اللغوية، فأحدهم قد لا يملك زمام اللغة جيدا فيعمد المتلقي بعد أن يفهم مقصد المتكلم إلى قلمه الأحمر ليصحح بعض العبارات، ويضع النص في قالب لغوي أدق في الدلالة على المعنى من النص الأصلي، وهذا أشبه بما يفعله أستاذ مع طلبته، لكن اللسانيين لا يقصدون هذا المعنى عندما يخولون السامع سلطة أكثر من مجرد الفهم ويجعلونه شريكا في تكوين النص، وإلا لاقتصروا على النصوص الرديئة ولما تجرأ أحد ليمسك بالقلم الأحمر ويزعم . بلسان حاله . أنه يهذب كلام الله، والحقيقة أن مقارنة كلام الله بغيره في منطق اللسانين مسألة في غاية الغثاثة والسخف لا يبررها إلا الزيغ والهوى.

2-المنهج (التاريخاني) وتفسير القرآن:

مفهوم التاريخانية عند أصحابها معناه اعتبار النصوص الأدبية على أنها منتج ثقافي يحمل كل سمات البيئة الثقافية التي نشأ فيها وخصائصها، ومن ثم فمعاني هذه النصوص تنحصر ضمن البيئة التي قيلت فيها وفي مداها الزمني ولا تتجاوزها إلى غيرها، ويقصد بهذا المنهج نسبية النصوص وانحسارها ضمن مناخها الثقافي ومجالها التاريخي ، ذلك أن كل كاتب أو متحدث يستوحي كلامه من بيئته ورؤية عصره، ولا يمكن لبشر التملص من بيئته التي شكّلته ، ومن ثم – يستخلصون – أن تعدية الفهم من عصر إلى آخر فيه تجاوز للموضوعية.

وهذه المقدمة نسبية من جهة، يمتزج فيها الحق بالباطل، ففي الإنتاج الفكري والأدبي ما هو ممتد خالد وما هو منحصر مؤقت، وإلا لما وجدت المعارف العامة المشتركة التي سمتها الثبات ودورها ربط المعرفة البشرية اللاّحقة بالسابقة، ومن جهة أخرى . وهذا هو الأخطر في الموضوع . فإن أصحاب هذه النظرية لا يقفون بها عند حدود

النص البشري، وإنما يقولون بتاريخية النصوص الدينية عموما والنص القرآني على وجه الخصوص.

ويعنون بتاريخية القرآن على وجه التحديد أنه أسير بيئته الثقافية والجغرافية والنظام الاجتماعي والثقافي والذهنية السائدة إبان نزوله الذي كان يجيب فيه عن أسئلة شتى صاغتها الثقافة في المجتمع العربي حينها فلا يتعداها.[1]

لذا فهؤلاء يلصقون التاريخية بالنص لتسويغ تجاوزه والتخلي عنه لا لاستحضار العناصر الأساسية لفهم متقدم له – كما يزعمون – أي أن النص يجب أن يكون مرهونا بتاريخيته ساكنا لحظة ميلاده، فلا يمكن تعدية أي نص عن تاريخه، وهذا المنهج لا يمكن أن يصدر إلا عن نزعة مادية وضعية لا تؤمن بأن الأديان هي من صنع الله ، سواء أظهروا ذلك أم أخفوه ، فهم يساوون بين كلام الله وكلام البشر، فيما يسمونه بنسبية النصوص كل النصوص.

وعندما واجه الحداثيون العرب مصدرية القرآن اليقينية وبأنه من عند الله وكانت نظريتهم في تحليل الخطاب اللغوي تقوم على تحليل نفسية المخاطب (بكسر الطاء) ودوافعه وسقفه المعرفي.. وأنى لهم ذلك والقرآن كلام الله، عرفوا أنهم لن يتمكنوا من تطبيق مقولاتهم على القرآن ما لم يتخلصوا من هذه العقبة، فراحوا يلتفون حول هذه الحقيقة بالقول بأنسنة النص القرآني عندما تجسد في التاريخ واللغة؟؟[2]

ونحن نحمد الله الذي حفظ كلامه حرفا فحرف في صدور جيوش مستفيضة متواترة من الحفاظ وإلا فلا أحد يعرف إلى أي مدى كانت ستمتد مقولات الحداثيين، وتجادل في كلام الله بغير حق.

ومن أهم المقولات التي ترتكز عليها التاريخانية القول بنسبية الحقيقة ونسبية ما هو علم وما هو حق، ومن هنا فأكثرهم يضمر عدم إيمانه بالله وبعالم الغيب عموما وبأي ثابت أو مطلق، لأن موضوع العلم والعقل . في زعمهم . هو التفكير في النسبي بما هو نسبي وليس بما هو مطلق، والنتيجة أن موضوع العلم والعقل يقتصر على علاقة الإنسان

[1] أنظر معايير القبول والرد في تفسير النص القرآني، مرجع سابق، ص449

[2] نقد الخطاب الديني، مرجع سابق، ص119.

بالطبيعة وينحصر في الوجود المادي وحده، أما العقائد والأديان فهي حقائق عند أصحابها لا غير.

ويتحدث أحدهم عن هذه التاريخانية المبتكرة؟؟ فيقول:"**لطالما اهتم المفكرون والباحثون المسلمون بالأديان والملل العديدة ووصفوها في كتب الأهواء والملل والنحل، إلا أنهم ما كان في إمكانهم أن يتحرروا من النظرية اللاهوتية القائلة بالدين الحق من جهة، والأهواء الضالة من جهة أخرى ولم تزل تلك النظرة الدوغمائية تتحكم في الذهنية المعروفة بالطائفية**".[1]

ثم يوضح هذا الكاتب قصده بالقول "**ثم جاءت الحداثة وألحت على تاريخية الحقيقة، وعلى الرغم من ذلك فإن الميتافيزيقا الكلاسيكية تشبثت بمفهوم الحقيقة المطلقة المتعالية.. ولم يبتدئ العلماء بالتحدث عن نهاية اليقينيات وتعدد أنظمة الحقيقة على غرار تعدد الأنظمة السياسية إلا بعد الخمسينات والستينات من القرن العشرين.. هناك نظام معتزلي، حنبلي، إمامي، إسماعيلي، سني، صوفي فلسفي، تاريخاني، قصصي، علماني، أصولي، ماركسي فرويدي، بنيوي، كاثوليكي، تلمودي، بوذي.. للحقيقة**"[2] ولا معنى لأن يكون كل هذا الخليط حقا إلا عدم وجود الحقيقة أصلا، فالقول بنسبية شطر من معارف الناس أفضى عند التاريخانيين إلى القول بنسبية مطلقة، فليس الحق هو ما يجب عليك أن تعتقده بل مل اعتقدته هو الحق؟؟ وهي عودة إلى السوفسطائية القديمة وليست نظرية جديدة كما يدعون.

ومن المهم أن نؤكد أن مقولات هؤلاء ليست ابتكارا من عندهم بل هي محض تقليد لأساتذتهم من المستشرقين وإسقاطات غير موضوعية على الإطلاق، فالمعركة الفكرية التي قامت بين العلمانية واللاهوت في الغرب لا تتوفر شروطها في الثقافة الإسلامية إلا بالتعسف في الفهم والحكم، فذلك الصراع الذي قام في الغرب أدى إلى الشك في مصداقية المؤرخين والمطالبة بإعادة كتابة التاريخ بناء على وثائق حقيقية، والمطالبة بالتأكد من صدق النصوص الإنجيلية من عدمه، خاصة بعد أن قام الأب **ريشار سيمون** بكشف

---

[1] القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني، ص6

[2] المرجع نفسه، ص 10.

التناقضات والتحريف وعدم التوافق الزمني للأحداث الواردة بها بدليل أنه لا يمكن لإنسان أن يصف كيف مات وكيف تم دفنه وإنما صاغها مؤلفون على مر العصور، وأن هذه النصوص ليست منزلة بأي حال من الأحوال.[1] فكيف يتسنى تطبيق مقاييس الأرض على كلام ثبت بالأدلة القطعية أن محمدا نفسه . الذي أنزل عليه . لا يد له فيه لا في لفظ ولا في معنى؟

ولأجل أن يحاصر التغريبيون النص القرآني يركبون الصعاب، فمع القول بالنسبية ومحاربة قدسية القرآن بالقول بأنسنته وتشكله في ظروف البيئة الثقافية للجزيرة العربية، تراهم يستغلون حتى علوم القرآن في تمرير مقولاتهم فاستغلوا أسباب النزول وملابساته للقول بارتباط النص القرآني الوثيق بها، فتكون العبرة بخصوص السبب لا بعموم اللفظ؟

ومعروف في علوم القرآن أن ما نزل من آيات ذكر فيه أسباب النزول هو بضع مئات منها[2]، كما أن ما يقصده علماء القرآن من قولهم سبب النزول ليس معناه أن تلك الأسباب كانت عللا لنزول النص القرآني، وإنما هي أحداث اقترنت بنزول الوحي لحكم تربوية وتشريعية جليلة، والقول بأن سبب النزول يخصص المعاني القرآنية تعطيل للقرآن لم يقل به أحد من المسلمين قال ابن تيمية "**قد يجيء كثيرا قولهم من هذا الباب إن هذه الآية نزلت في كذا، لاسيما إذا كان المذكور شخصا، كقولهم: إن آية الظهار نزلت في امرأة أويس ابن الصامت، وإن آية الكلالة نزلت في جابر بن عبد الله وإن قوله (وأن احكم بينهم)[3]نزلت في بني قريظة وبني النضير.. فالذين قالوا ذلك لم يقصدوا أن حكم الآية يختص بأولئك الأعيان دون غيرهم فإن هذا لا يقوله مسلم ولا عاقل على الإطلاق، والناس وإن تنازعوا في اللفظ العام الوارد على سبب.. فلم يقل أحد إن عمومات الكتاب والسنة تخص بالشخص المعين، وإنما غاية ما يقال: إنها تختص بنوع ذلك الشخص**

---

[1] معايير القبول والرد، مرجع سابق، ص509.

[2] دقق علماء القرآن في عدد الآيات التي ارتبطت بأسباب النزول، فكان عددها 888 آية بالصحيح والسقيم، ولم يصح منها سوى 472 آية من أصل 6232 الذي هو عدد آيات القرآن، وهذا دليل تاريخي بيّن في أن الأصل في القرآن الشمول والعموم وليس الخصوص. راجع: معايير القبول، ص 525، وكذا: أسباب النزول تحديد مفاهيم ورد شبهات، محمد سالم أبو عاصي، دار البصائر، القاهرة، ط2، 1423هـ، ص112-113.

[3] المائدة 49.

فتعم ما يشبهه، ولا يكون العموم فيها بحسب اللفظ.." وهذا يبين بعض فوائد العلم بأسباب النزول، لكن الذي لم يتصور ابن تيمية أن مسلما أو عاقلا يقول به هو عين ما تقول به التاريخانية، دون أن يكترث أصحابها بأن من السخف القول إن الله أنزل وحيا خالدا وقصر معناه وأحكامه على مرحلة تاريخية خاصة وعلى أقوام بعينهم.

وأظهر أداة منهجية يستعملونها هي **الهرمنيوطيقا** الفلسفية المعاصرة التي تؤمن بأن المفسر أو الفاهم ليس محايدا في عملية الفهم ، إذ إن أفقه المعرفي وذهنيته وقابلياته وبيئته تتدخل يقينا في تفسير النص أو الحادثة التاريخية ، وجزء من هذا صحيح ، ولكنها تتطرف حين ترى أن القارئ هو الذي يكسب النص معناه ! وتتخذ من ذلك مدخلا للتأويل اللاّنهائي للنصوص ، وأكثر أصحاب هذا المنهج اعتدالا لا يترك من الثوابت إلا أطرا عامة أو أوعية فارغة يمكن أن تحمل ما يشاء المؤول من المعاني والأفكار.

وتتركز **الهرمنيوطيقا** على فكرة أساسية مفادها أن" **فهم أي نص لا يحصل بمعزل عن الأفق المعرفي للمفسر وقابلياته ، وبما أن هذه مختلفة من مفسر إلى آخر ومن عصر إلى عصر ، فتأتي القراءات متعددة ، وهذا ما عبر عنه غادامر و هيدغر من وجه ثان ، بأن الفهم يرتبط دائما بالزمن الحاضر ، ولا وجود له خارج التاريخ ، وأن المفسر له فهم خاص يختص بعصره ، ولا يستطيع القيام بالتفسير طبقا لفهم العصر السابق ، وأن مثل ذلك يعتبر سذاجة في التفكير، وبناء عليه فهناك بالضرورة قراءات متعددة لأي نص ، والقراءة المطابقة لقصد المؤلف متعذرة ولا يجب أن تكون الهدف [!!!] بل التعامل هو مع النص وليس المؤلف، وهذا ما عبر عنه البعض بـ : موت المؤلف وأنّ القراءة تخلق النص.**"[1] وهو اغتيال للمعنى والقصد وليس موتا طبيعيا.

وقد تعرضت هذه النظرية في التفسير للنقد حتى في الغرب ، فقد دافع إيريك د. هيرش ، عن المعنى النهائي للنص ، وعن قصد المؤلف ، يقول : " **إن قصد المؤلف يتوجب أن يكون معيارا تقاس به صحة التأويل [أي المعنى اللفظي للعبارة] ، وهو يبرهن على تحقق قصد المؤلف في أي نص ويمكن جمع الشواهد العينية عليه ،**

[1] حوارات حول فهم النص ، زهير البيطار ، دار الهادي ، ط1 ، 2004م ، ص 24.

وعندما تكون الشواهد متوفرة يمكن عندئذ تحديد المعنى الذي سينظر إليه على أن له اعتباره الخاص. "[1]

فمعرفة قصد المتكلم ليس مستحيلا بإطلاق كما تدعي نظرية التفسير هذه، حتى يتوجب تحويل البحث عن وجهته ، وإذا لم يكن قصد المتكلم متيسرا دائما فهو متيسر غالبا.

يقول بول ريكو " **من المفيد معرفة أن الهرمنوطيقا جُعلت أساسا بهدف الوصول إلى فهم النص إنطلاقا مما يريد النص قوله، أي لأجل أن يفهم النص على أساس القصد الكامن فيه**"[2]، فهو يشير هنا إلى أن الهرمنوطيقا تناقض نفسها عندما تنفي أن يكون للنص مفهوما موضوعيا يجري البحث عنه والوصول إليه، لأن هدفها أساسا كان البحثَ عن هذا المفهوم!

ومشكلة هذا المنهج إضافة إلى العوار الذي سبق بيانه . تكمن في التعميمات والإطلاقات التي تلغي الثوابت والقطعيات، وبإلغائها يصير من المستحيل التمييز بين نسق فكري وآخر .

فهذا المنهج الذي يطبقه (التاريخانيون) بجرأة على القرآن ليس صحيحا إلا بشكل محدود ونسبي أي في المتغيرات على مستوى كلام البشر، ولو كان صحيحا بإطلاق ما أمكنَ بناء معرفة علمية قائمة على المشترك الإنساني في الفهم وهذا خلاف الواقع لوجود هذا المشترك فعلا.

ودعاة (التاريخانية) بهذا هم دعاة **استبدال** لا دعاة إصلاح يستبدلون نصا بآخر ومنظومة بأخرى ، إذ الثوابت هي التي تميز بين هذا وذاك ، وهي التي تضبط عملية الاجتهاد والإصلاح داخل المنظومة الواحدة ، وهم يتهربون من هذه الحقيقة ويلتفون عليها، بل ويهدمونها بعدم تفريقهم بين القطعي والظني والمحكم والمتشابه والأصل والفرع، فيخضعون كل هذا للفهم المتحول.

---

[1] المرجع السابق ، ص 25 .
[2] المرجع نفسه ، ص25 .

وبالتأكيد فإن هذا المنهج لا يصلح أداة للتعامل مع كتاب الله وتفسير كلامه، كيف وهو يسعى إلى التشكيك في مصدريته الإلهية وتجاوزها، كما يسعى إلى تعطيل أحكام القرآن والقفز على معانيه والإطاحة بقدسيته.. وفي نهاية المطاف إغتياله.

المطلب الرابع

مدرسة التفسير الموضوعي

استقطب التفسير الموضوعي للقرآن الكريم جمهرة الباحثين الذين يكتبون في التفسير والدراسات القرآنية عموما في الفترة المعاصرة، والحق أننا لا نكاد نجد في مجال التفسير بعد سيد قطب تحديدا على المستويين المنهجي والموضوعي، منهجا تجديديا مبنيا على المنهج الإسلامي الأصيل غير **التفسير الموضوعي** الذي قدم لحقل التفسير والدراسات القرآنية عموما نقلة نوعية في القضايا التي تدرس وفي طريقة المعالجة أيضا وأعتقد أن إدراك الشيخ الغزالي لهذه الحقيقة هو ما جعله يعول عليه كمنهج في التعامل مع القرآن الكريم كما سنفصل ذلك لاحقا بحول الله .

يقول بعض الباحثين ":إن في التفسير الموضوعي ذاته ما يبرر هذا الاهتمام الكبير به، ذلك أن الفلسفات الغربية وخصوصا الماركسية ما أخذت شوكتها تخمد حتى منتصف الخمسينيات، وقد وضح أن التفسير الموضوعي يمتلك قدرة بالغة في المحاججة والدفاع عن الإسلام والعقيدة الإسلامية، وبالرغم من أن التفسير الموضوعي بدأ مبكرا في تاريخ الإسلام ..إلا أن المنهج ما كان واضحا إلى درجة يمكن فيها التنظير العلمي له، ولهذا لا نجد من بين كل من كتبوا في التفسير من قعّد لهذا المنهج، وحتى في بداية القرن الماضي عندما كتب الشيخ محمد عبده تفسير جزء) عمّ (ثم تفسير المنار استخدم تقنيات التفسير الموضوعي من دون أن ينظِّر بشكل علمي لهذا المنهج1" .

ولعل المدرسة الإصلاحية الحديثة وخصوصا مدرسة المنار، كانت تبشر بجهود أكثر عمقا وبدايات حسنة لقيام مدرسة تفسيرية معاصرة تختلف نوعيا عما سبقها من المدارس وتتسم بالتجديد المنهجي الذي يؤتي أكله موضوعيا وبشكل واضح كلما اتجهنا نحو المستقبل، والشيخ محمد الغزالي ـ الأنموذج المختار في هذه الدراسة ـ هو أحد أعمدة المستقبل المشرق في مجال التفسير الموضوعي وأحد أبرز الأعلام المكملين لجهود مدرسة المنار.

وبالتأكيد فإن المدرسة الإصلاحية قد مهدت الطريق للتفسير الموضوعي بتلك الروح التي بثتها في المفسر وهو يقبل على كتاب الله لا ليسبح في عباراته يبدي فيها ويعيد

---

[1] المناهج المعاصرة في تفسير القرآن الكريم وتأويله ، عبد الرحمن الحاج إبراهيم ، ص 2-3 .

كأن القرآن كتاب غامض لا تحل طلاسمه إلا بموسوعات شارحة، بل ليهتدي به في ظلمات الحياة، ويهدي به غيره سبل السلام، فالمدرسة الإصلاحية بتقديمها لمقصد التفسير على أنه الهداية في الدنيا والآخرة قد مهدت للتفسير الموضوعي.

كما أنها مهدت له بما سنته من النظر في السورة الواحدة بمنهج الوحدة الموضوعية وإن لم تطبقه بشكل كامل، لكنها نبهت إلى أهمية ربط أول السورة بأخرها وفهمها في سياق ما تعالجه من موضوع.

يضاف إلى ذلك محاربتها لبعض مساوئ التفسير القديم ككثرة النقول والحشو الذي يحشد أقوالا كثيرة تنتمي إلى البيئة الثقافية التي قيلت فيها ولا تتصل بالنص القرآني مباشرة وأكثرها روايات لا أصل لها وأساطير وإسرائيليات ومعلومات مغلوطة عن الكون.

ومن أهم خصائص التفسير الموضوعي أنه يتعرض لهداية القرآن بأكثر الطرق الممكنة اختصارا لأن الهدف هو في النهاية العمل الصحيح بكتاب الله وذلك لا يكون إلا بالوقوف على العلم الصحيح من غير إطناب.

كما أن المدرسة الإصلاحية قد مارست الإصلاح فعلا بالقرآن الكريم زمن الاستعمار من أجل القطيعة مع مرحلة التخلف والضياع وبناء الذات من جديد على أساس من قيم القرآن والتحرر المادي والمعنوي من الاستعمار، ونجد بأن أهم ما يرتكز عليه التفسير الموضوعي هو الموضوع والقضية، أي إن المفسر لا يقبل على كتاب الله كما يقبل على شرح أي كتاب، ولا يشرح القرآن وهو خال البال من أية رسالة أو أية قضية، بل يتوجه إلى القرآن يسأله عن الهداية والإرشاد فيما يشغل المسلمين والإنسانية عموما من قضايا شتى.

ومن المهم الإشارة إلى أهم المصادر القريبة التي كتبت في التفسير الموضوعي واستفاد منها الذين نظروا لهذا المنهج بعد رواد المدرسة الإصلاحية وأهم العلماء الذين تابعوا مسيرة الكتابة على هذا المنهج الشيخ محمود شلتوت والشيخ المراغي والشيخ محمد عبد الله دراز الذي تأثر بكتاباته الشيخ محمد الغزالي . رحمهم الله . وغيرهم.

وهذا لا يعني أن مرحلة التنظير لهذه المدرسة قد بلغت أوجها، فما يزال هناك اختلاف واسع في تحديد الأسس التي يقوم عليها هذا النوع من التفسير يشمل قضايا كثيرة

فيه، فالاختلاف قائم – على الرغم من الدراسات التنظيرية القليلة التي صدرت – في تعريفه وأنواعه وجدواه وعلاقته بمناهج المفسرين السابقين، والتأصيل له، ومصادر إمداده والخصوصية المنهجية التي يتميز بها ، وما يشترك فيه مع غيره من أنواع التفسير وغير ذلك.

وفي المباحث المقبلة – من هذه الدراسة – سأحاول ضبط بعض هذه المسائل بإذن الله دون أن أفصل القول الآن في هذه المدرسة لأنها موضوع الفصل الموالي بحول الله.

الفصل الثالث

حقيقة التفسير الموضوعي، أنواعه وحاجتنا إليه

المبحث الأول

مفهوم التفسير الموضوعي للقرآن الكريم

المبحث الثاني

حاجتنا إلى التفسير الموضوعي في الفترة المعاصرة

المبحث الثالث

أنواع التفسير الموضوعي للقرآن وطرق البحث فيها

المبحث الأول
مفهوم التفسير الموضوعي للقرآن الكريم

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم اصطلاح حادث ، وقد جرى استعماله علَما على لون خاص معاصر من ألوان التفسير تميز بمنهج خاص، ولشرح مفهوم هذا الاصطلاح المركب يجدر بنا، التعريج على شرح أجزائه من معنى التفسير وعلاقته بالتأويل ثم التحقيق في لفظة "**الموضوعي**" ما المقصود منها، ومن ثم الاطمئنان إلى معنى صحيح واضح للتفسير الموضوعي كمنهج علمي، ولما كان تعريف التفسير والتأويل قد سبق في هذا البحث أكتفي هنا بتعريف اللفظة الثانية من هذا المركب الوصفي [**التفسير الموضوعي**].

المطلب الأول
معنى الموضوعية في مركب "التفسير الموضوعي

إن لفظ الموضوعي في المركب الوصفي " **التفسير الموضوعي**" مأخوذة من الموضوع، وقد تحرج بعض الباحثين في استعمال اللفظ لما يدل عليه لغة من معاني الذم حتى تبين له أن اللفظ يستعمل كذلك في معرض المدح.

يقول الدكتور عبد الستار فتح الله سعيد:" **لم أجد أحدا تناول هذا اللفظ بالتحقيق والبيان مع أنه أساس هذا الفن العلمي المستحدث، ولقد كنت أجد في نفسي حرجا بالغا من استعمال هذا اللفظ وصفا للتفسير**" ، ويبرر ذلك بأسباب منها أنه لم يجد أحدا يستعمله لغة أو اصطلاحا بمعنى القضية الواحدة أو المسائل المشتركة في معنى واحد، ومنها أن الوضع لغة يغلب استعماله في معنى الذم كما تقول: رجل وضيع بمعنى دنيء ووضع في تجارته: أي خسر، والتواضع أصله التذلل.[1]

وقد يتأتَّى الحرج أيضا من كون اللفظة تدل في اصطلاح المحدثين على الكلام المختلق المكذوب على رسول الله صلى الله عليه وسلم عمدا أو سهوا ، وهو باطل مردود على أصحابه.

---

[1] المدخل إلى التفسير الموضوعي، الدكتور عبد الستار فتح الله السعيد ، ص22

ولا ريب فإن لفظة الموضوعي لها ثقل مركزي لا يمكن تجاوزه في هذا النوع من التفسير، وهي علم عليه تميزه عن غيره من مناهج التفسير، فما الذي يزيل الحرج عن استعمالها ويضبط مفهومها؟.

بالعودة إلى القرآن الكريم نفسه، وبتتبع استعمالاته للكلمة يتضح أنها وردت في بعض مقامات المدح – بين أربع و عشرين موضعا ذكرت فيه– وذلك يزيل حرج استعمالها، قال تعالى: **(إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين)**[1]، وقال عز وجل: **(والسماء رفعها ووضع الميزان)**[2]، وقال سبحانه: **(فيها سرر مرفوعة و أكواب موضوعة)**[3].

فوصف الكعبة والميزان وأكواب الجنة بأنها موضوعة ينفي الحرج عن استعمال الكلمة، ويخرجها من غلبة الذم عليها إلى غلبة الخير عليها بل والمدح لها وبها. "[4]

وأما وجه استعمالها بما يخدم التفسير الموضوعي ، أي في القضية الواحدة والموضوع الواحد ، فيؤخذ من كون الوضع في اللغة بمعنى جعل الشيء في مكان ما، سواء كان ذلك بمعنى الحط والخفض ، أو بمعنى الإلقاء والتثبيت في مكان بعينه ، وهو في اللغة حسي ومعنوي ، الأول كما في قوله تعالى : **(وأكواب موضوعة)** ، والثاني كما في قوله تعالى : **(ووضعنا عنك وزرك)**.

قال في القاموس المحيط "والإبل وضيعة : رعت الإبل حول الماء ولم تبرحه.. ووضعتها : ألزمتها المرعى فهي موضوعة"[5].

فيكون الموضوع هنا بمعنى الشيء الذي له صفة معينة وألزم مكانا معينا لا يبرحه ، وهذا المعنى ملحوظ تماما في تقييد التفسير بالموضوعي لأنه يلزم المفسر بالارتباط بمعنى

---

[1] آل عمران ، 96
[2] الرحمن ، 7
[3] الغاشية ، 13-14
[4] المدخل إلى التفسير الموضوعي ، المرجع السابق ، ص22
[5] القاموس المحيط، الفيروز أبادي، ص694 .

معين ، وصفة معينة لا يتعداهما إلى غيرهما حتى يفرغ من تفسير الموضوع الذي ألزم نفسه به[1] .

وقد سمى باقر الصدر التفسير الموضوعي تسمية ثانية هي "**التفسير التوحيدي**" فقال : " **الذي يهمنا ونحن على أبواب هذه الدراسة القرآنية أن نركز على إبراز اتجاهين رئيسيين لحركة التفسير في الفكر الإسلامي نطلق على أحدهما الاتجاه التجزيئي في التفسير [يقصد به المنهج التحليلي] وعلى الآخر الاتجاه التوحيدي أو الموضوعي في التفسير**"[2] .

وشرح ما يعنيه بهذه التسمية بقوله : " **توحيدي باعتبار أنه يوحد بين التجربة البشرية وبين القرآن الكريم لا بمعنى أنه يحمل التجربة البشرية على القرآن ، ولا بمعنى أنه يخضع القرآن للتجربة البشرية ، بل بمعنى أنه يوحد بينهما في سياق بحث واحد لكي يستخرج نتيجة هذا السياق الموحد من البحث ، يستخرج المفهوم القرآني الذي يمكن أن يحدد موقف الإسلام اتجاه هذه التجربة أو المقولة الفكرية التي أدخلها في سياق بحثه**"[3].

وطالما أن التفسير الموضوعي هو ما يقابل منهجيا التفسير التحليلي فمن الممكن أن يطلق عليه أيضا اصطلاح "**التفسير التركيبي**"، بمعنى أنه يجمع عناصر الموضوع الواحد وما ورد فيها من آيات وما قيل في هذه الآيات من تفسير معتبر يخدم الموضوع محل الدرس، ويركب بينها في عملية علمية، وبإعمال المنهج التركيبي يضيء الباحث من خلاله جوانب عدة من زوايا الموضوع الواحد ، فتكتمل صورة الموضوع وتنتج منه رؤية جديدة أو متجددة تعالج قضية ما على ضوء الكتاب العزيز.

---

[1] أنظر المدخل إلى التفسير الموضوعي ، عبد الستار فتح الله سعيد ، ص23، مباحث في التفسير الموضوعي، مصطفى مسلم، دار القلم، دمشق، ط4، 2005م، ص15، التفسير الموضوعي ،صلاح الخالدي ، ص29

[2] المدرسة القرآنية ، السيد باقر الصدر ، دار التعارف للمطبوعات ، بيروت ، لبنان ، ص9 .

[3] المرجع السابق ، ص28.

ولا مشاحاة في الاصطلاح إذا اتضح المراد فالعبرة بالمسميات لا بالأسماء، مع الإشارة إلى أن الشائع الذي استحسنه الباحثون ودرجوا عليه هو اصطلاح "**التفسير الموضوعي**".

فكلمة الموضوعي إذن تعني : تفسير عدد من القضايا الكلية أو الجزئية التي مصدرها – النص أو الواقع – تفسيرا على أساس منهج تركيبي يجمع آيات القرآن ويعرض عليها قضايا الحياة بحيث تألف القضايا المدروسة موضوعا متكاملا تلاحظ فيه إجابات القرآن عنه أو موقف القرآن منه أو هدي القرآن فيه.

المطلب الثاني

اتجاهات تعريف التفسير الموضوعي

بعد أن شاع اصطلاح التفسير الموضوعي عند الباحثين المعاصرين في التفسير والدراسات القرآنية أوردوا له تعريفات عدة تختلف فيما بينها من حيث الشرح والإسهاب أو الاختصار والإحكام، بل والاختلاف جار بين الباحثين في تصورهم للتفسير الموضوعي وفيما يدخل تحت مسماه أو لا يدخل، وفي اتجاهاتهم وما يركزون عليه، وسنستعرض بعض التعاريف لإدراك هذه الفروق.

1- **التعريف الذي يغلب عليه البعد الواقعي** وأهم من يمثله هو السيد باقر الصدر . رحمه الله . يقول: "**الاتجاه التوحيدي أو الموضوعي في التفسير..لا يتناول تفسير القرآن آية فآية بالطريقة التي يمارسها التفسير التجزيئي، بل يحاول القيام بالدراسة القرآنية لموضوع من موضوعات الحياة العقائدية أو الاجتماعية أو الكونية فيبين ويبحث ويدرس، مثلا عقيدة التوحيد في القرآن أو يبحث عن النبوة في القرآن أو عن المذهب الاقتصادي في القرآن أو عن سنن التاريخ في القرآن أو عن السموات والأرض في القرآن وهكذا.. ويستهدف التفسير التوحيدي الموضوعي من القيام بهذه الدراسات تحديد**

موقف نظري للقرآن الكريم وبالتالي للرسالة الإسلامية من ذلك الموضوع من موضوعات الحياة أو الكون."[1]

وهذا التعريف يركز على مسألتين أساسيتين:

الأولى منهجية تفاصل بين التفسير الموضوعي والتفسير التحليلي أو الموضعي في أسلوب التعامل مع النص القرآني، وتتمثل في عدم تفسير القرآن آية فآية وتعتمد بدل ذلك جمع آيات الموضوع الواحد، مع تنبيه باقر الصدر إلى أن هذه المرحلة في التفسير هي مرحلة متقدمة مبنية على التفسير التحليلي وتتكامل معه ولكن لا تتوقف عنده.

والثانية موضوعية وهي ضرورة الخروج بموقف قرآني من قضية واقعية معروضة عليه ولا يفرق بين أن تكون هذه القضية كلية أو جزئية، عقدية، أخلاقية أو تشريعية، كونية أو إنسانية.

كما يلاحظ أن باقر الصدر لا يشير من قريب أو من بعيد إلى التفسير الموضوعي المتعلق بالسورة القرآنية أو إلى الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية، مما يجعلنا نقرر أنه إذا أطلق هذا الاصطلاح فلا يعني به تفسير السورة القرآنية تفسيرا موضوعيا، ويلاحظ أنه أيضا لم يتطرق إلى دراسة المفردة القرآنية لا بوصفها نوعا خاصا من التفسير الموضوعي ولا بوصفها مدخلا وجزءا من دراسة الموضوع، ولعل ذلك راجع إلى كونه من أوائل الذين كتبوا في التنظير لهذا المنهج، فضلا عن أن أصل كلامه في التفسير الموضوعي مجموعة محاضرات ألقاها وليس بحثا ألفه.

2- **الاتجاه النصي أو المأثور:** يرى أن التفسير الموضوعي:" **هو علم يبحث في قضايا القرآن الكريم، المتحدة معنى أو غاية عن طريق جمع آياتها المتفرقة والنظر فيها على هيئة مخصوصة بشروط مخصوصة، لبيان معناها واستخراج عناصرها وربطها برباط جامع**" ويرى في التفسير الموضوعي كفن

[1] المرجع السابق ، ص12-13 .

مدوّن بأنه:" **الذي تجمع فيه قضايا القرآن الكريم وتفسر تفسيرا علميا على أساس الموضوع، وتدون في بحث مفرد، أو كتاب جامع على نمط موسوعات التفسير التحليلي، بحيث يرجع الباحث إلى الموضوع الذي يريده، ويعلم موقف القرآن منه في يسر وسهولة.**"[1]

وهو بهذا التعريف يفتح بابا لسؤال كبير عن تصورنا للتفسير الموضوعي، فهل هو إجابات القرآن الكريم عن القضايا والمعضلات والاستفهامات الواقعية التي لا تنتهي؟ وبالتالي فإن وجوده على شكل موسوعات جامعة يكون غير ممكن لتناهي الموسوعات وعدم تناهي قضايا الحياة، أم هو الإحاطة بأصول الموضوعات المباشرة التي يحويها القرآن الكريم في مجالات العقيدة والتشريع والأخلاق والقصص وعلوم الكون وغير ذلك..؟وهو الأظهر فيما يقصده عبد الستار من التفسير الموضوعي، وحينئذ يمكن ظهور موسوعة بهذا الشكل.

ولكنها حينها تكون مدخلا معينا على الاستجابة لتحديات العصر ورسم الموقف القرآني ولا تكون هي ذلك الموقف أو الإجابة بصفة مباشرة، وهذا ما يظهر من قوله:" **بحيث يرجع الباحث إلى الموضوع الذي يريده ويعلم موقف القرآن منه في يسر وسهولة**".

كما يتضح من التعريف أنه لا يعد تفسير السورة القرآنية والكشف عن وحدة موضوعها – إن وجد – من التفسير الموضوعي، بل يعبر عن ذلك بصريح العبارة حين يقول:" **وقد عدَّ بعض العلماء في هذا النوع ما يسمى (بالوحدة الموضوعية) في القرآن كله، أو في سورة منه، بأن يجعل المفسر للسورة الكريمة هدفا ينتزعه من ملاحظة معانيها، ثم ينزل الآيات المتعددة في السورة لتحقيق هذا الهدف، وأرى – والله أعلم – أن هذا الضرب من الدراسات لا يدخل في التفسير الموضوعي، لأن موضوعه وهو هدف السورة المتعددة الآيات أمر التماسي، اجتهادي، تختلف فيه الأنظار فكيف تصنف الآيات في السورة على**

[1] المدخل إلى التفسير الموضوعي، مرجع سابق، ص20-21.

هدف مختلف على تحديده؟ وكيف يقوم التفسير على الاحتمال؟ مع أن الأصل في التفسير الموضوعي أن يقوم على أساس النصوص ذاتها أو معانيها المتحققة."[1]

والجديد في هذا التعريف أنه لا يعتبر الرابطة الموضوعية بمعناها الخاص فحسب في التفسير الموضوعي، بل يعتبر كذلك اتحاد الغاية، لذا فهو يقسم التفسير الموضوعي إلى عام لا يربط بين موضوعاته إلا وحدة الغاية فيدخل في ذلك مثلا تفاسير آيات الأحكام وإن اختلفت موضوعاتها بين العبادات والمعاملات والحدود والجنايات.. لأن غايتها دراسة الأحكام الشرعية دون غيرها. وخاص يعتبر فيه الموضوع المتحد غاية ومعنى، ويمثل له بموضوع اليهود في ضوء القرآن على سبيل المثال[2]، وقد سميت هذا الاتجاه بالمأثور لأنه يرى أن التفسير الموضوعي هو نوع من تفسير القرآن بالقرآن، كما يرتكز تفسيره على معاينة النصوص وتركيب موضوعات موحدة انطلاقا من النص القرآني وحده، ثم يأتي دور تحقيق المناطات الواقعية في خطوة تالية، بمعنى أنه لا يرى أن تدخل عناصر التجربة البشرية في عملية التفسير بل تراعى فقط في تطبيقه، وهذا خلافا للتعريف الأول الذي يعتبر فهم الموضوع القرآني وتفسيره في جو من استحضار عناصر التجربة البشرية مسألة منهجية لازمة في عملية محاورة القرآن وتفسيره موضوعا، دون أن تحمل عليه أفكار مسبقة أو يقاد التفسير لتبرير الأفكار المسبقة.

3- **اتجاه الجمع في التعريف:** ومعناه تعريف مختلف أنواع التفسير الموضوعي في عبارات واحدة أو متقاربة، وقد أورد الدكتور مصطفى مسلم، تعاريف لم يعز أكثرها إلى أصحابها منها:

- **هو بيان ما يتعلق بموضوع من موضوعات الحياة الفكرية أو الاجتماعية أو الكونية من زاوية قرآنية.**

---

[1] المرجع السابق، ص 24-25.
[2] أنظر المدخل إلى التفسير الموضوعي، ص 24-25.

- **هو جمع الآيات المتفرقة في سور القرآن المتعلقة بالموضوع الواحد لفظا أو حكما وتفسيرها حسب المقاصد القرآنية.**
- **هو بيان موضوع ما من خلال آيات القرآن الكريم في سورة واحدة أو سور متعددة.**

ومال إلى تعريف مفاده أنه: "**علم يتناول القضايا حسب المقاصد القرآنية من خلال سورة أو أكثر.**"[1]

ورجّحه مبررا ذلك بخلوه عن التكرار وإشارته إلى النوعين الرئيسيين من التفسير الموضوعي ، يعني بذلك التفسير الذي يتخذ السورة وحدة له والآخر الذي يتخذ الموضوع أساسا له.

وهو بذلك قد اختيار، التعريف الجامع بين نوعي التفسير الموضوعي المذكورين في عبارات واحدة، فضلا عن أنه أشار إلى تفسير المفردة القرآنية في قوله في التعريف الثاني الذي سبق عرضه " **المتعلقة بالموضوع الواحد لفظا أو حكما**"، ولا يكون الموضوع موحدا لفظا إلا إذا كان مفردة أو عبارة واحدة مكررة في القرآن.

وقد علق أحد الباحثين على التعريف الذي اختاره مصطفى مسلم بقوله: "**هو تعريف مجمل قد لا يلحظ فيه الشمولية في منهج التفسير الموضوعي، فالموضوع القرآني في السورة شيء والوحدة الموضوعية فيها شيء آخر فيمكن تناول موضوع الربا في سورة البقرة مثلا لكن لا يمكن القول إن الوحدة الموضوعية في سورة البقرة هي الربا**"[2] وهذا يقودنا إلى التساؤل الآتي: هل أنواع التفسير الموضوعي مترابطة والاختلافات بينها بسيطة أو لفظية بحيث يمكن جمعها في تعريف واحد أم هي مستقلة عن بعضها في الأساس والمنهج؟ للإجابة عن هذا السؤل لا بد من معرفة الأساس أو الأسس التي تنبني عليها أنواع التفسير الموضوعي، وهذا ما سأناقشه ضمن عرض الاتجاه المضاد لهذا الأخير.

[1] مباحث في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم ، مصطفى مسلم، ص16.
[2] التفسير الموضوعي ومنهج البحث فيه، خليل زياد الدغامين، دار عمار، الأردن، ط1، 2007م، ص21.

4. **اتجاه الفصل في التعريف:** يمثله عدد من الباحثين، وأمثل له برؤية عبد الجليل عبد الرحيم الذي يعرف التفسير الموضوعي لموضوعات القرآن الكريم بالقول: **المنهج الذي يتخذه المفسر سبيلا للكشف عن مراد الله من خلال الموضوعات التي يطرحها والقضايا التي يعالجها، توضيحا لهداية القرآن وتجلية لوجوه إعجازه، أو هو العلم الذي يتخذ من موضوعات القرآن الظاهرة أساسا في الكشف عن منهج القرآن وأسلوبه في معالجته لها، متخذا من القواعد والشروط المرعية في التفسير سلما للوصول إلى هدي الكتاب وجلال شأنه.**"[1] وقد تعقب أحد الباحثين بعض عبارات التعريف كاعتبار التفسير الموضوعي تارة علما وتارة منهجا، وكالتعبير بـ:الموضوعات الظاهرة للقرآن، مما يشي بوجود موضوعات باطنة أو غامضة.[2] وإذا تجاوزنا بعض الألفاظ التي ليس للوقوف عندها كبير أهمية مثل اعتبار التفسير الموضوعي علما أو منهجا، لأنه علم بالنظر إلى ما يحققه من استنباط للهداية القرآنية والعلم بها، أي من باب إطلاق العلم على المعلوم، وهو منهج بالنظر لما يتميز به من أسلوب فريد في مجال الدرس القرآني، أقول إذا تجاوزنا الناحية اللفظية فالتعريف لا غبار عليه إلا أنه لا يشمل الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية وهو ما أفرد له الباحث تعريفا خاصا فقال: "**الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية هو التفسير الذي يتوجه فيه المفسر إلى الكشف عن الموضوع الذي تعالجه السورة في ضوء معطيات آياتها المحكمة النسج والارتباط وأسلوبها المتميز وخصائصها المعجزة، بلوغا إلى مقاصدها الهدائية.**"[3] وقد تعقبه أحد الباحثين المؤيدين لجمع التعريف في عبارات واحدة بأن وضع تعريفين مستقلين لبيان الوحدة الموضوعية في السورة والتفسير الموضوعي للموضوعات القرآنية "**يوحي بشيء من التغاير بينهما وهو ليس واقعا إلا في مستوى الدراسة ونطاقها لأن الموضوع هو القاسم المشترك بين التعريفين.**"[4] وحاول هذا الباحث أن يوضح بأن

[1] التفسير الموضوعي للقرآن في كفتي ميزان، عبد الجليل عبد الرحيم، سلسلة التراث والوحي في الإسلام، الأردن ج1، ط1، 1991م، ص34.
[2] التفسير الموضوعي ومنهج البحث فيه، مرجع سابق، ص 21.
[3] التفسير الموضوعي للقرآن في كفتي ميزان، ص36.
[4] التفسير الموضوعي ومنهج البحث فيه، ص22

التفسير الموضوعي للسورة القرآنية وللموضوع القرآني يقومان على أساس واحد، وأن الخلاف بين الباحثين قائم في مفهومه، ومن ثم في أقسامه، ليخلص إلى القول بأن سبب الخلاف هو عدم التفات بعض الباحثين إلى الوحدة الموضوعية في السورة لاشتمالها في الظاهر على موضوعات عديدة، كما غلب على ظن آخرين أن الجمع لآيات القرآن في موضوع ما بقطع النظر عن منهج الدراسة وطبيعته وأهدافه ومقاصده هو تفسير موضوعي، ثم يقرر هذا الباحث بأن منهجية البحث في التفسير الموضوعي تنبثق فكرتها من مفهوم **الوحدة الموضوعية في القرآن أو في سورة واحدة من سوره،** فالكشف عن وحدة الموضوع الذي تفرقت عناصره في القرآن وإبراز تلك العناصر وبيان الصلاة التي تربط بينها.. مثل تناول الموضوع على نطاق سورة واحدة من سور القرآن، وبيان الوحدة الجامعة بين آيات ذلك الموضوع، ذلك أن كل سورة تضمنت نظاما وروحا عاما يسري في كيانها والكشف عن ذلك النظام جزء لا يتجزء من المنهج الموضوعي.[1]

مناقشة وترجيح

لقد نقلت هذا التعليق بطوله لمعرفة مدى الخلط في المفاهيم الذي يقع فيه بعض الباحثين، فظاهر من التعليق السابق أن الباحث لا يرى فرقا بين تفسير السورة موضوعيا وتفسير موضوع قرآني لأن ما يجمع بينهما هو الوحدة الموضوعية سواء في السورة أو في القرآن فهما لا يختلفان إلا في مستوى الدراسة ونطاقها الذي يضيق أو يتسع كما زعم.

والأمر أكثر من مجرد ما ذكره من اختلاف، وليس الفارق الوحيد بين النوعين هو دراسة الموضوع في نطاق السورة أو في نطاق القرآن كله، بل على الأساس العلمي الذي يقوم عليه كل نوع فنحن إزاء مفاهيم دقيقة يختلف بعضها عن بعض وهي:

---

[1] أنظر: المرجع نفسه ص25 باختصار.

. **الوحدة الموضوعية في السورة القرآنية:** التي تعتمد على علم المناسبات وهو علم اختلف العلماء في شأنه فأثبته قوم ونفاه آخرون[1]، والقول بوجود وحدة موضوعية للسورة يعني وجود موضوع واحد . أساسي على الأقل . ووجود مقدمة وخاتمة للسورة، ووجود هدف ومحاور يتعين على المفسر إدراكها على مستوى السورة وهذا ما يعنيه الباحثون حين يتحدثون عن التفسير الموضوعي للسورة القرآنية وهو قائم على الالتماس والاجتهاد.

. **دراسة موضوع بعينه من خلال سورة قرآنية:** وهذا شيء غير وحدة موضوع السورة ولم يقل أحد بأنه من التفسير الموضوعي، فماذا تفيدنا مثلا دراسة موضوع أهل الكتاب في سورة البقرة مثلا إذا كان لهم ذكر في سور أخرى كآل عمران، ولماذا الاقتصار على سورة واحدة إذا كان الموضوع مذكورا في مواضع أخرى؟ إن هذا الاقتصار لا يمكننا من أخذ تصور كلي لحيثيات الموضوع من أجل بيان موقف القرآن في التعامل مع أهل الكتاب، الأمر الذي يتطلب دراسة الموضوع من خلال كافة الآيات القرآنية التي تناولته.

. **الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم:** ذكرها بعض الباحثين ويعنون بها ما يعنونه بالوحدة الموضوعية للسورة القرآنية، أي أن القرآن يمكن اعتباره نصا واحدا مقدمته هي سورة الفاتحة وما بعدها تفصيل لما اشتملت عليه وهو بمثابة الفصول والأبواب.[2]وهذه مسألة اجتهادية أيضا، تقوم على علم المناسبات بين سور القرآن والقول بتوقيف ترتيبها.

. **دراسة موضوع بعينه من خلال القرآن الكريم:** وبيان الترابط بين عناصره والخروج برؤية قرآنية كلية بخصوصه، وهو التفسير الموضوعي للموضوعات القرآنية، وهذا النوع لا يقوم على أساس علم المناسبات بل يقوم على أساس تفسير القرآن بالقرآن وهو أمر عليه إجماع المفسرين بل هو أحسن طرق التفسير[3] وهو قائم على اليقين بأن القرآن يفسر بعضه بعضا وليس فيه تضارب ولا اختلاف، من هنا أمكن جمع موضوع

---

[1] ممن شككوا في علم المناسبات الإمام العز بن عبد السلام والإمام الشوكاني، وممن اشتهروا به وتحمسوا له الإمام أبو بكر النيسابوري والإمام برهان الدين البقاعي، وسيأتي ذكر آراءهم ومناقشتها في موضعها من هذا البحث عند تناول علم المناسبات، وانظر: البرهان، الزركشي،ص37.

[2] أنظر، الوحدة الموضوعية في القرآن، محمد محمود حجازي، ص15-16.

[3] أنظر: مجموع الفتاوى، ج13، ص363.

واحد مختلفة مواضعه في سور القرآن متكاملة عناصره، كموضوع بني إسرائيل في القرآن، وطبيعة الإنسان ودوره من خلال آيات القرآن، والتدرج في التشريع من خلال آيات تحريم الربا والخمر في القرآن وهكذا..

وعلى هذا الأساس فالتفريق بين نوعي التفسير الموضوعي في التعريف أرجح وأدق وأولى، ويعضد ما ذهبت إليه أن معظم أعلام التفسير الموضوعي فصلوا بينهما وعلى رأسهم **الشيخ الغزالي[1] . رحمه الله .** حيث يقول: "**يطلق التفسير الموضوعي على نوعين جديدين من خدمة الكتاب العزيز، أولهما تتبع قضية ما في القرآن كله، وشرحها على ضوء الوحي النازل خلال ربع قرن تقريبا.. والآخر النظر المتغلغل في السورة الواحدة لمعرفة المحور الذي تدور عليه والخيوط الخفية التي تجعل أولها تمهيدا لآخرها، وآخرها تصديقا لأولها أو بتعبير سريع تكوين صورة عاجلة لملامح السورة كلها.**"[2]

وبعض الباحثين يضم إلى هذين النوعين نوعا ثالث من التفسير الموضوعي هو دراسة ألفاظ القرآن ومفرداته كون البحث عن مفردات القرآن واستعمالاتها في مواضع الآيات والسور المختلفة بعد استقرائها عمل شبيه بمنهج التفسير الموضوعي وفيه ما لا يخفى من الفوائد التي سنذكرها لاحقا[3]، كما أن معرفة معنى التركيب يتوقف في كثير من الأحيان على معرفة معاني الألفاظ فضلا عن أن للقرآن استخدامه الخاص للفظ الذي يصبح فيه شبيها باصطلاح قرآني، أو إطلاق في عرف القرآن وقول علماء اللغة: كل ما ذكر في القرآن كذا فمعناه كذا.. كما فعل ابن فارس وغيره هو من هذا القبيل[4].

لكن أكثر الباحثين في مجال التفسير الموضوعي لا يذكرون إلا نوعين منه، ويمكن أن نستنتج أنهم يعتبرون الدراسة الموضوعية للفظ مدخلا لدراسة موضوعات القرآن لأن مختلف عناصرها تبنى عليها فتناول اللفظ جزء من تناول الموضوع.

---

[1] سأعود إلى تفصيل رأيه في الفصل الأخير بحول الله

[2] تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل، محمد الغزالي، ص 128-129.

[3] أفردت مطلبا خاصا لأنواع التفسير الموضوعي.

[4] قالوا: كل ما في القرآن من ذكر الأسف فمعناه الحزن، إلا قوله تعالى: (فلما آسفونا انتقمنا منهم) الزخرف 55، فمعناه أغضبونا، وكل ما في القرآن من ذكر البروج فهي الكواكب، إلا قوله تعالى:(ولو كنتم في بروج مشيدة) النساء 78، فهي القصور الطوال الحصينة. راجع: تفسير القرآن مصادره واتجاهاته، ص 120.

ويأخذ الموضوع أو القضية المدروسة ووحدة عناصرها وتكاملها مع بعضها وانسجامها مع مقاصد القرآن وروحه وإصابتها الهدف الذي هو إجابات القرآن وهديه، الموقع المحوري في التفسير الموضوعي، وهذا يعني أن لوضوح القضية المستشكلة في ذهن المفسر وحضور العناصر الأساسية للسؤال أهمية بالغة، فإذا كان الموضوع مشوشا أو غير ناضج، في ذهن المفسر أو كان خارجا عن إطار تخصصه، فإنه سيفشل في معالة الموضوع وتقديمه بصورة تعكس موقف القرآن وهدايته.

من أجل هذا أقول: إن عمدة التفسير الموضوعي هي الوحدة في الموضوع والترابط بين عناصره والتماسك بين المقدمات والنتائج، وهذا لا يحصل عليه ولا يتمكن منه إلا من خبر الصحبة الطويلة والمعايشة الدائمة لكتاب الله، مع الأهلية العلمية وسلامة القصد بطبيعة الحال، ولذلك مازلت أرى . في كتب الباحثين . أن جودة التفسير الموضوعي تتماشى مع خبرة المفسر في صحبة القرآن والجهاد به في مختلف مناحي الحياة، لأن الخبرة في الحياة تنضج القضايا والاستفهامات ودوام صحبة القرآن تضيء الهداية والإجابات، ولا يقدر على تفسير موضوعي جيد إلا عالم عامل صادق يجاهد ما في الحياة من إسفاف وانحدار بما في القرآن من رفعة وعلو.

المبحث الثاني

حاجتنا إلى التفسير الموضوعي في الفترة المعاصرة

لاشك بأن النص القرآني هو نص مفتوح على المعرفة، لا بمعنى أنه يستوعب أصول وكليات معارف الناس في كل زمان ومكان فحسب، بل بمعنى أنه يسهم في تقدم

المعرفة البشرية أيضا، ويهيمن عليها مصححا مسارها ومحفزا لها على التنمية والتقدم المستمرين في الاتجاه المستقيم.. لكن السؤال الذي يعرض لنا في مجال الفهم والتفسير إنما هو حول قدرة المسلمين على استخراج الهداية والمعرفة من النص، وليس حول قدرة النص القرآني الإلهي على العطاء، الأمر الذي لا مجال للشك فيه:(**ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير**)[1].

من أجل هذا كانت عناية العلماء منذ الجيل الأول في الإسلام مركزة على استنباط مناهج منضبطة لتفسير القرآن وتأويله بما لا يخرج به عن دلالاته المرادة ومقاصده العامة، وبما يجعله إماما متبوعا لا نصا موقّعا على ما قد يوجد في نفوس الناس من زيغ!

وقد رأينا أن مدرسة "**التفسير الموضوعي**" تعد اجتهادا رائدا في السعي إلى تحقيق هذا الهدف، وقد برهنت من خلال الدراسات الكثيرة النافعة على قدرتها المنهجية والموضوعية على استنباط المعرفة من النص، واستيعاب، ثم تجاوز العقبات التي تمنع الفهم الصحيح المتحرر من مكبلات الثقافة القديمة أو المستوردة الداخلة على النص، من هنا كانت الحاجة ماسة إلى التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ويمكن تلخيصها في ثلاثة مطالب على الشكل الآتي:

المطلب الأول
طبيعة القرآن وطبيعة التفسير الموضوعي

القرآن الكريم نص إلهي معروف البناء، محدد الحروف و الكلمات والآيات والسور، لا يزيد فيه حرف ولا ينقص منه حرف، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه كما قال تعالى: (**إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون**)[2]، لكنه لا متناهي الإيحاء والهداية وتجدد عطائه ومعانيه، وهذه خصيصة لا يشاركه فيها أي نص، إذ إنها من مظاهر إعجازه ومتأتية من كونه الوحي الخاتم، أي هو كلمة الله الوحيدة الباقية على ظهر الأرض سراجا ينير حياة الناس.

---

[1] الملك ، 14 .
[2] الحجر ،9 .

ومنهج التفسير الذي يقف عند ظواهر الآيات خاصية الهداية القرآنية المفتوحة، كما يحد منها منهج التفسير الذي لا يفهم معاني القرآن إلا من خلال النقول وتكرير ما قيل في حقبة زمنية بعينها.

والذي ينسجم مع هذه الخاصية في طبيعة القرآن العظيم، هو منهج التفسير الموضوعي، لأنه منهج مفتوح على المعرفة المتجددة، وعلى حاجة الأمة، كما أنه متكامل مع المنهج التحليلي، وليس مخاصما له.

وبيان ذلك، أن الموضوعات التي تعالجها الدراسات القرآنية الجارية على منهج التفسير الموضوعي، نوعان:

1- موضوعات واردة على القرآن.2- موضوعات صادرة عن القرآن. وكلاهما يتلاءم وطبيعة القرآن .

1- الموضوعات الواردة على القرآن: أعني أن الإنسان بحكم نسبيته وعيشه في إطار المكان والزمان، وارتباطه بالواقع والتاريخ، ترد عليه مسائل وقضايا، كما تعترضه مشكلات عديدة، سواء في الحياة العملية أو العلمية، وسواء في الموضوعات الكلية أو الجزئية، كان ذلك جزءا مما يعرضه البناء الثقافي الداخلي، أم جزءا مما يعرضه التحدي المعرفي لدى الأمم الأخرى، فوظيفة القرآن الكريم أمام ما يلح على الإنسان من قضايا عصره، أن يقدم له إجابات وهدايات تزيح عنه حيرته، وتهديه سبل السلام.

فالمفسر يعرض الموضوع بحيثياته الواقعية على القرآن الكريم، ويستوحي منه الرؤية الصحيحة والتوجيه الكامل، كما روي عن سيدنا عمر بن الخطاب . رضي الله عنه . قوله: " **لو ضاعت مني إبرة وبحثت عنها في القرآن لوجدتها**"، ومثل ذلك عن ابن عباس " **لو ضاع مني عقال لوجدته في القرآن**"[1]، ولا يفهم عاقل من هذا الكلام أن القرآن خزانة تحفظ فيها الأشياء الضائعة! بل يعني ذلك، أن في القرآن القدرة على تزويد الإنسان بما يحتاج من الهداية والإرشاد وتزويده بالمنهج والمفاتيح، مهما ظهر أن ذلك الموضوع بعيد عنه.

[1] لم أقف على تخريج الأثرين رغم شهرتهما.

فالقرآن لا يخلق على كثرة الرد ولا تنقضي عجائبه ، ولا تزيده الأيام إلا رفعة وجدة ، كما ورد في الأثر عن الإمام علي – رضي الله عنه – في وصف القرآن: " **كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، من ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق عن كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه..**"[1]. ولم أر في وصف فضاء القرآن المفتوح من الهداية والإرشاد أبلغ من هذا الكلام، إنه يعبر ببلاغة نادرة عن كون القرآن الكريم متعاليا عن حدود الزمان عاما وشاملا لكل ما يمكن أن يجد من قضايا التي تتحول باستمرار إلى أدلة على خلود القرآن.

2 – الموضوعات الصادرة عن القرآن: لا تقف عجائب القرآن عند حد الجواب عن الاستفهامات المتجددة، بل إن للقرآن الكريم دورا أساسيا في إنتاج المعرفة، ولذلك هو " **كريم** "، فإذا جئت تقف على باب الوحي تستفهم عن جواب لسؤالك، زودك بالجواب، وزاد على ذلك أن يفتح لك آفاقا جديدة للمعرفة.

بهذا المعنى يكون القرآن نفسه مصدرا ملهما للأفكار، مثيرا للقضايا، ومعمقا وهاديا للبحث فيها، أنظر إلى قوله تعالى: **(قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق)**[2]، وآيات النظر والتأمل والسير في الأرض كثيرة محفوظة، ترك القرآن مجال البحث فيها مفتوحا، مثال ذلك قصص الأنبياء والأمم السابقة وعلم الآثار، فلقد كنت ولا أزال مندهشا كيف يسعى علماء الآثار في الغرب إلى البحث عن مواقع الحضارات القديمة بناء على إلياذة لهوميروس أو قصيدة أو أسطورة يونانية قديمة، ولا يسعى علماء الآثار المسلمون إلى الكشف عن بقايا حضارات عاد وثمود وقوم لوط وسائر الرسل والأمم المذكورة في

---

[1] حديث حسن، رواه الترمذي والدارمي وغيرهما عن علي رضي الله عنه، والأصح وقفه على الإمام علي والله أعلم. قال عنه الإمام المحدث ابن كثير في فضائل القرآن: الحديث مشهور من رواية ابن الأعور وقد تكلموا فيه قال الترمذي: حديث لا نعرفه إلا من هذه الوجه وإسناده مجهول وفي الحارث مقال.. قال بعض الباحثين: قصارى هذا الحديث أن يكون من كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وقد وهم بعضهم في رفعه وهو كلام حسن صحيح.

[2] العنكبوت، 20 .

القرآن – إلا قليلا – ، مع أنه المصدر الحق المعصوم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.[1]

ولعل من فوائد التدبر في موضوعات القرآن الكريم ملاحظة الأولويات، فما اهتم به القرآن وجعله أصلا يجعله الباحث في التفسير الموضوعي أصلا ومحل اهتمام، وما جعله القرآن عابرا يجعله عابرا، "**بمعنى أن نتخذ من القرآن معيارا لمدى أهمية الشيء أو عدمها. فما عني القرآن بذكره من المعاني والموضوعات، وجعله في بؤرة اهتمامه، وكرر الحديث عنه، بصورة و أخرى ، وبأسلوب وآخر ، يجب أن يأخذ من عنايتنا واهتمامنا المكان اللائق به في الفكر والشعور والسلوك وأن يكون لذلك أثره العملي في ميادين التثقيف والتربية والتشريع، إقتداء بالقرآن** "[2] ولا يتأتى هذا الأمر إلا بالمنهج الموضوعي الذي يحيط بموضوع ما من خلال القرآن الكريم ويستوعبه.

من أجل هذا يمكن القول: كما توجد موضوعات ينتجها الواقع، توجد كذلك موضوعات تتولد نتيجة التدبر لمعاني القرآن الكريم، وكثرة التردد عليه والمعايشة له .

فالقرآن هو الكتاب الذي استوعب كل جوانب الحياة، بكل ما تحمل هذه الكلمة من المعاني، فإذا تدبر فيه علماء العقيدة والشريعة، أو علماء الكون والأحياء، أو علماء النفس والاجتماع، أو علماء الحضارة والتاريخ.. رجع كل منهم بزاد يعينه على فهم تخصصه والإبداع فيه، فهو كالنهر الجاري كل يأخذ منه بقدر وعائه، وفي إطار تخصصه وعلى مقدار فهمه لجانب ما من جوانب الحياة وزاوية ما من زوايا معرفة الكون وأسراره.

وهذه الخاصية تجعل التفسير الموضوعي، تفسيرا **حيويا وعميقا** يمتلك معرفة مفتوحة على النص وعلى الواقع على حد سواء.

---

[1] بل أظهر بعض الباحثين مهارة في تزييف الحقيقة ونفيها عن القصص القرآني، والقول إنه نوع من الأسطورة فظاهروا بذلك قول المشركين في القرآن بأنه أساطير الأولين، كما ادعى ذلك محمد أحمد خلف الله في رسالته للدكتوراه عن الفن القصصي في القرآن الكريم، التي رفضتها اللجنة العلمية، ثم طبعت في كتاب، أثار زوبعة من الجدل، وقد علمت من أستاذنا الدكتور عبد الحليم عويس أن الرجل عاش ومات مركسيا ولم تعلم عنه توبة والله أعلم بالسرائر. فانظر كيف يبحث الأوروبيون عن قشة حقيقة في ركام أساطير وأباطيل إلياذة هوميروس مثلا، وكيف يوجه بعض الباحثين العرب اجتهاداتهم لنفي الحقيقة عن أخبار القرآن التي قال فيها تعالى: فاقصص القصص الحق. بدل تقصيها وتتبعها في آفاق الأرض وفجاجها!

[2] كيف نتعامل مع القرآن الكريم ، يوسف القرضاوي ، ص451.

وحيوية التفسير الموضوعي، هي حيوية مطلقة لا تنفد مستقاة من حيوية القرآن الكريم نفسه، الذي لا يتناهى عطاؤه، فكلما جد أو استحدث موضوع، انبرى أهل الاختصاص له يغرفون من هدايات القرآن ويستفيدون من توجيهاته، مهما كان هذا الموضوع مرتبطا بالشرع وحقائقه، أو بالكون ودقائقه، أو بالإنسان في خلقه وأخلاقه، أو بالأمة في عمرانها وتمكينها أو غير ذلك.

المطلب الثاني
قدرة التفسير الموضوعي على محاجَة المخالف

برهن التفسير الموضوعي حتى قبل أن يكتمل بناؤه المنهجي – أي منذ الستينيات – على أنه يمتلك قدرة بالغة على المحاجَة والدفاع عن الإسلام والعقيدة الإسلامية.[1]

ذلك أن العصر الذي نعيش فيه، سمته التقعيد والتأصيل ضمن أطر عامة، لذلك فنحن بحاجة اليوم لتأصيل المعارف الإسلامية أكثر من أي وقت مضى.

كما أن طبيعة التحديات الحديثة والمعاصرة، هي من نوع التحديات المعرفية والحضارية الكبرى ذات الطبيعة الكلية، التي تستهدف استبدال أنموذج بآخر، ومحاربة الأصول العامة لثقافات الشعوب المغلوبة، ومنها ثقافة الأمة الإسلامية التي ما فتئت تتعرض للغزو الفكري والمسخ الاستشراقي والتغريبي.

هكذا فالتحديات المعاصرة لم تعد تكتفي بإثارة الشبهات حول قضايا جزئية، كتعدد زوجات الرسول، أو بعض قضايا الميراث، أو الولاية على الزواج..الخ، بل باتت تعمل على محاربة الإطار الكلي حين تعرض نفسها في شكل نماذج ورؤى شاملة عن الله والدين والإنسان والكون، وحين تقدم أيديولوجيات مختلفة وتفرضها على العالم الإسلامي، في مجالات الاقتصاد والسياسة والاجتماع.. وتطوِّع حتى تفسير القرآن الكريم في سبيل خدمة تلك المشاريع كما رأينا مع اللسانيات والمنهج التاريخاني.

---

[1] المناهج المعاصرة في تفسير القرآن وتأويله، ص 2 .

وإذا قدمت الحضارة المعاصرة صورة كلية – وإن كانت مزيفة – عن الله أو عن الطبيعة أو عن الإنسان أو عن نظام الاقتصاد أو عن مفهوم الدولة.. الخ، فهل تنفع حينئذ الإجابات الجزئية؟

ومنهج التفسير الموضوعي هو الأقدر هاهنا على التصدي لهذا الغزو حين يقرر جمع أطراف الموضوع الواحد من خلال كافة نصوص القرآن، فيُعمل المفسر عقله واجتهاده ليصل إلى التنظير ثم إلى التقنين لأصول المعرفة حول الموضوعات الكلية الكبرى على ضوء مقاصد القرآن وهداياته، ومن ثمّ يبين الموقف القرآني من الموضوع، وكيفية المعالجة القرآنية له، وبذلك فهو يمتلك القدرة على المحاورة، والمقاومة بخصوص أي موضوع كلي على الساحة الفكرية والمعرفية المعاصرة، من هنا كان التفسير الموضوعي للقرآن سلاحا علميا لا غنى عنه في المعركة الفكرية الناشبة بين الإسلام وأعدائه في زماننا هذا.

فمن الممكن لو ضاعت صورة الأنموذج الكلي لمنظومة معينة أو تشوشت في أذهان أصحابها أن يضل هؤلاء السبيل عنها، خاصة في فترات الجمود والتدهور الحضاري، لأنهم – من غير علم ولا شعور – أحيانا يستوردون الأفكار من منظومة أخرى، فتتلوث عقولهم من حيث لا يشعرون " **فمن لا يُحكِم ضبط الكليات ، يضطرب ولا يحسن فهم وعلاج الجزئيات.**"[1]

وأما حين تكون الأمة واعية بالإطار العام لعقائدها وشرائعها وأخلاقها ورؤيتها الحضارية، فإن ما يصل إليها من طريق الأمم الأخرى بفعل قانون التفاعل الحضاري، فإنه يأخذ موقعه المناسب ضمن المنظومة الحضارية، إما بالرفض أو القبول أو التعديل.

وحينئذ يمكن للمفسر أن يظهر أوجه الاتفاق أو الاختلاف في موضوع ما، كما يسهم في تقويم الاعوجاج المعرفي لدى الأمم الأخرى، وكشف ما هم عليه من ضلال، ويبرز تفوق الإسلام وأحقيته بقيادة الثقافة الإنسانية، وبذلك يؤدي المفسر خدمة لأمته بسد حاجتها إلى التحصين ، وللإنسانية كافة بالنصح والهداية والإرشاد.

---

[1] الوسطية : المفهوم والمصطلح ، عصام أحمد البشير ، دار المأمون للنشر والتوزيع ، الأردن ' ط1 ، 2008م، ص21.

إن الأفكار الخبيثة تمتد في فراغنا، وإن الدراسات الموضوعية من خلال القرآن الكريم هي التي تمكن من سد الفراغ المعرفي الذي يترك المجال للأفكار المميتة، فالذي يصنع الفارق أحيانا في قيم مجتمع ما ليس هو صحة الفكرة بل فاعليتها "**فكرة أصيلة لا يعني ذلك فعاليتها الدائمة، وفكرة فعالة ليست بالضرورة صحيحة، والخلط بين هذين الوجهين يؤدي إلى أحكام خاطئة تلحق أشد الضرر في تاريخ الأمم.**"[1]

إن الأفكار الفاسدة حين تكون نشطة ومتحركة تأخذ موقع الصدارة في المجتمع حتى وإن لم يكن هذا الموقع هو موقعها الطبيعي، من هنا يبرز الجانب البنائي في أهمية التفسير الموضوعي للقرآن الكريم .

المطلب الثالث

التفسير الموضوعي والقدرة على البناء الداخلي

تجدر الإشارة هنا إلى فكرة دقيقة قد لا ينتبه إليها كثير من الباحثين، وهي أن الخطر الذي تفرضه تحديات المذاهب المادية واللّادينية عموما على الأمة الإسلامية، لا تتمثل فقط في خطر الغزو الفكري، بل هذا الغزو في تصوري هو مظهر خارجي للحركة التاريخية الفعالة في هذا الفكر، فهو يوما بعد يوم يبني كمّا كبيرا من الإنتاج الثقافي المادي خارج هداية الدين عموما وقيم الإسلام على الخصوص، وهذا التحدي – الذي منبعه النشاط والحركة – على عكس الغزو، لا يفرض علينا مقاومة ورد فعل، بل يتطلب منا بناء معرفيا إيجابيا، وإنتاجا ماديا نستغني به عن استهلاك الإنتاج الفكري والمادي للأمم الغازية، ولا يتم هذا الأمر من غير بناء داخلي وبدائل ملموسة.

ومن ثمرات المنهج الموضوعي في التفسير، تلك الدراسات التي تقدم مساهمة نوعية في شتى المعارف الإنسانية، لاسيما التي تمس الحاجة إليها في واقعنا المعاصر، من تربية واقتصاد وإعلام وسياسة وطب وما إلى ذلك، وإثراء المدرسة الإسلامية في الميادين النظرية والتطبيقية، ليتم تحصين الذات لا بالدفاع فقط بل بالبناء في المقام الأول.

[1] أنظر: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي ، مالك ابن نبي ، دار الفكر ، دمشق ، ص 102

فقوة التفسير الموضوعي للقرآن الكريم لا تتجلى في قدرته على المقاومة وتحصين الذات، و"رد الفعل" المناسب على الغارة الفكرية على الأمة الإسلامية فحسب، بل تتجلى كذلك – وبشكل أساس – في قدرة هذا المنهج على " البناء " وعلى " الفعل " وتقديم البدائل وتعميق المعارف وتأصيل العلوم.. وتتمظهر هذه القدرة فيما يأتي:

1- إعادة بناء المناخ الثقافي والرؤية الكلية:

وأعني بالمناخ الثقافي، ذلك الوسط الحيوي الذي يتلقى فيه الأفراد " قيَّما كلية" في المجتمع ، ويشكلون فيه " رؤية كلية " – عملية – لما هو حسن وما هو قبيح، وما هو مقبول وما هو مرفوض، وأخرى – نظرية – تكوّن لديهم التصورات الكلية لطبيعة الخالق والخلق ونظام الحياة، وهذه الرؤية تسري في المناخ الثقافي كما يسري الهواء في المناخ الطبيعي.

وما من أمة لها حضارة إلا وتمتلك رؤية كلية، ومناخا ثقافيا حيويا يحتضن هذه الرؤية، وفي إطارها يحكم أفراد هذه الأمة أو تلك على الأشياء، فقد تكون الحضارة ذات طبيعة مادية وقد تكون ذات طبيعة روحية، وقد تكون – كما هو الحال في الإسلام – ذات طبيعة ثنائية متوازنة..الخ، وينعكس تصورها لله والكون والإنسان على كافة مظاهر نشاطها الحضاري، كما ينعكس على ما ينشأ فيها من مذاهب وأيديولوجيات.

وإذا جئنا نستوضح " المناخ الثقافي " للجيل الأول من تاريخ الإسلام، نجد علماء السيرة يشيرون إلى أهمية هذا المناخ الفطري الخام الذي كان يميز شبه الجزيرة العربية، فكان ذلك من أسرار اختيار الله تعالى لهذه الأرض كي تحتضن الرسالة الخاتمة، ولو بعث سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم في امبراطورية عجوز، كدولتي الفرس أو الروم، لتحول من يومها الوحي نفسه إلى مناقشات فلسفية وجدل بيزنطي عقيم، فمناخهما الثقافي المثخن بجراح المناوشات بين المذاهب والأيديولوجيات كان كفيلا بأن يضيع نقاء الوحي ويقضي على وظيفته في التغيير ويحول حقائقه إلى جدل وكلام، في حين تحوَّل الوحي في مناخ الجزيرة العربية إلى اجتهاد وجهاد وتضحية والتزام وعمل، وتحقق به إنجاز حضاري غير مسبوق في تاريخ الإنسانية كلها!

إن السرَّ في ذلك يتضح أكثر عندما نلاحظ أن القرآن المكي كان يركز على المناخ الثقافي ويشيد بناءه، بما يثبته في نفوس المؤمنين، من أصول التوحيد وقيم الأخلاق، حتى استقرت رؤية الإسلام الكلية في نفوس الصحابة وأذهانهم، ففهموا الأحكام الشرعية الجزئية، والتزموا بها على الوجه الصحيح، بلا حاجة إلى تحديد عناصرها وأصولها النظرية في علم مستقل، تقول السيدة عائشة رضي الله عنها في بيان هذا النهج ".. **إنما نزل أول ما نزل منه [أي القرآن] سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام، نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر، لقالوا: لا ندع الخمر أبدا، ولو نزل لا تزنوا، لقالوا: لا ندع الزنا أبدا..**"[1]

لقد تلقى الصحابة هذه الرؤية عمليا، لأن القرآن كان هو ما يسري في هذا المناخ، وكل فرد مسلم كان يستصحب معالم هذه الرؤية الكلية، إذ " **المناخ والإطار الروحي والاجتماعي والفكري والتربوي الذي وصفه النبي صلى الله عليه وسلم، كان قادرا على أن يعطي النظرة السليمة في تقييم المواقع والمواقف الأحداث** "[2]، ومثل ذلك كمثل أعرابي يعيش وسط عرف لغوي ولسان عربي صرف، فلسانه مستقيم على البيان العربي من غير حاجة إلى تقعيد القواعد والإحاطة بعلم الإعراب، بخلاف الأعجمي الذي لا يعيش هذا المناخ اللغوي، فيتعذر عليه الكلام السليم من غير استيعاب القواعد النظرية والتدرب على تطبيقها. وهذا يجيب عن ما قد يتبادر إلى أذهان بعض الباحثين من القول: لمَ لم يحتج جيل الصحابة إلى منهج التفسير الموضوعي في بناء الرؤية الكلية؟

فإن المسلمين لم يحتاجوا إلى الدراسات الموضوعية الكلية لأنها كانت تنبض بالحياة في جسم الأمة، وكانوا على إدراك لها لأنهم كانوا يتحركون فيها ويصدرون من خلالها، وحين انحسر تأثير القرآن في واقع المسلمين، وتراجع دور الإسلام في مجالات الحياة المختلفة، واستبدلت نماذج يمينية ويسارية بشريعة الإسلام، **ظهرت الحاجة الكبرى إلى المنهج الموضوعي في تفسير القرآن ليعرض الإسلام كنظرية عامة، لها موقفها ورؤيتها الخاصة وتطبيقاتها في كافة مجالات الحياة الكبرى.**

---

[1] أخرجه البخاري ، كتاب فضائل القرآن ، باب تأليف القرآن ، ج3 ، ص1050.

[2] المدرسة القرآنية ، باقر الصدر ، مرجع سابق ، ص 34 وما بعدها .

فالحاجة إلى التفسير الموضوعي اليوم تتبع من الحاجة إلى عرض مفاهيم القرآن ومواقفه، عرضا نظريا يحدد الأسس التي تتبع منها جميع التشريعات والتفصيلات، لما للتطبيقات الجزئية من علاقة وطيدة بالأسس النظرية التي تنبثق منها. لأن الفهم الجزئي بعيدا عن إطاره الكلي قد يوقع المفسر في الخطأ أحيانا، ويستغله أصحاب الأهواء أحيانا أخرى، والفهم العميق للقرآن يتطلب جمع عناصر الموضوع من كافة جوانبه بقدر الطاقة والوسع، أي يتطلب فهما ومنهجا كليا لا جزئيا، موضوعيا لا تحليليا.

وإعادة بناء المناخ الثقافي يكون بإعادة بناء أصول المعارف والعلوم ، وليس التفصيلات التي هي نتيجة تأتي بالتبع، وهذا العمل هو أحد التحديات الكبرى التي يرفعها المفسر وهو يتعامل مع منهج التفسير الموضوعي للقرآن الكريم.

2- الانفتاح على الاختصاصات العلمية المختلفة:

من مزايا المنهج الموضوعي في التفسير قدرته على الانفتاح على جميع التخصصات العلمية النافعة، الكونية منها والشرعية، فأهل التخصصات الكونية معنيون أن يسهموا في بيان معاني القرآن وإدراك مقاصده، بما يعرفونه عن الكون من أسرار، فإن الكون يفسر القرآن، كما تفسره السنة النبوية، واللغة العربية، والمعرفة الدقيقة بالكون هي مدخل طبيعي للوعي بما في القرآن الكريم من حقائق عنه وهذا المبدأ مبني على أن الله هو خالق الموجودات وهو المتحدث عنها في القرآن، ومن ثم فكلما ازداد الناس معرفة بدقائق صنعة الله في خلقه، كلما ازدادوا إدراكا واستيعابا لعمق المعاني التي وصف الله بها خلقه وصنعته، وكما أن مجال المعرفة الكونية مفتوح، فكذلك معاني القرآن مجالها لا متناهي وحيويتها لا تنقطع.

وكذا فإن تنوع ما ورد في القرآن من موضوعات بين العلوم الكونية والعلوم الإنسانية، فضلا عن العلوم الشرعية، تقتضي من الباحث على منهج التفسير الموضوعي – بل وتضطره – إلى أن يلم بثقافة شرعية وثقافة كونية واسعتين، فضلا عن اختصاصه الذي يبرع فيه، وإلا لما استطاع أن يحاور آيات القرآن الكريم ويستنبط منه معانيه ودقائقه، بهذا

" يكون التفسير الموضوعي هو الوسيلة المنهجية العلمية للارتفاع بمستوى التفكير العلمي الموضوعي عند الباحثين."[1]

فضلا عما استحدث في عصرنا من علوم نعيشها على وقع نتائجها ولها وجود بيننا، وقوام الشعوب والأمم المعاصرة عليها، ولها دور خطير في الحياة المعاصرة، كعلم النفس و علم الاجتماع، وعلم الاقتصاد وعلم الإعلام.. وغيرها فالمنهج الموضوعي منفتح على هذه الموضوعات التي ترد على النص من الواقع، إذ "**يركز الباحث نظره على موضوع من موضوعات الحياة، العقدية أو الاجتماعية أو الكونية، ويستوعب ما أثارته تجارب الفكر الإنساني حول ذلك الموضوع من مشاكل وما طرحه التطبيق التاريخي من أسئلة ومن نقاط فراغ، ثم يأخذ النص القرآني، فيسأل والقرآن يجيب على ضوء الحصيلة التي استطاع أن يجمعها من خلال التجارب البشرية الناقصة.**"[2]

3- القدرة على الإجابة عن الاستفهامات المتجددة:

من خصائص المنهج الموضوعي في التفسير تفعيل هدايات القرآن الكريم ومقاصده، وهو حجر الزاوية في معالجة القضايا المعاصرة فإذا كانت النصوص محددة والوقائع متجددة، فمعنى ذلك أننا لا نجد دائما نصا مباشرا لكل حادثة، من هنا، فإن حكم القرآن ومقاصده وهداياته تزود المفسر بالمعاني التي لا ينفد معينها، للإجابة عن الإشكالات والاستفهامات، فيصل الباحث إلى الأنوار القرآنية الكاشفة التي ترسم له الطريق، وتحدد له معالم الموقف القرآني والرؤية الشرعية، فآيات الوحي الإلهي لا تقارن بكلام البشر، إذ هي **" آيات كالشمس والقمر وسائر الآيات الإلهية الأخرى، وتطوي هذه الآيات في جوانحها ما تطويه من الهداية والنور والمعاني، والإجابات التي تتكشف عبر العصور بتكشف وظهور حاجات الأمم.. وأسئلة ومسائل الحياة وأزماتها، فكأن المعاني تتنزل مع بروز الأزمات والمشاكل والأسئلة، فإذا كانت الجاهلية العربية قد استحالت إلى إسلام خلال ثلاثة وعشرين عاما، فإن أي عصر تال وأية بيئة أخرى يمكن أن تجعل من أسئلتها أسباب نزول للمعاني الجديدة التي تنطوي الآيات عليها.. فالنزول القرآني يأتي بعد أن**

[1] التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق ، مرجع سابق ، ص5.
[2] المدرسة القرآنية ، مرجع سابق ، ص19-20 باختصار.

تصوغ البيئة السؤال وتتجه إلى القرآن المجيد ضارعة مفتقرة، وتطّرح بين يديه وتثوره مرة بعد مرة لتحصل منه على الجواب الشافي.."[1]

إن المنهج الموضوعي يجعل الباحث كذلك متصلا دائما بواقع أمته وهمومها، فهو "**دائم الربط بين الواقع الذي تعيشه الأمة وبين القرآن، وهو يريد اصلاح الواقع على هدي آيات القرآن، ويدرك الأبعاد الواقعية للموضوعات القرآنية**"[2] وبذلك يجسّر البحث الموضوعي العلاقة بين النص القرآني والواقع ، فلا يستطرد في تحليل وقائع ميتة، ولا يفهم القرآن بمعزل عن حيثيات الواقع، هكذا تكون الاستفهامات المتجددة هي " الموضوع " محل البحث من خلال القرآن الكريم، فيتحول التفسير من ثقافة تقليدية إلى درس هدفه البناء والإصلاح والتغيير.

وهذا اللون من التفسير هو الذي " **يتفق مع روح العصر الحديث الذي يطالبنا أن نخرج للناس أحكاما عامة.. مصدرها القرآن الكريم، في صورة مواد وقوانين مدروسة يسهل تناولها والانتفاع بها.** "[3]

إن أهمية التفسير الموضوعي لتزداد إلحاحا في الفترة المعاصرة التي تسارعت فيها القضايا والمشكلات وتعقدت، وتميزت بنشأة المذاهب والأيديولوجيات الكثيرة التي ترفع تحديات كبرى أمام المنهج الموضوعي في التفسير، من أجل شرح موقف القرآن وموقع أمة الإسلام ممّا يموج به العالم من الأفكار، وليس أقدر من القرآن على الإجابة عن هذه التحديات إذا تعامل معه المسلمون بالمنهج الموضوعي الشامل.

4- إظهار هيمنة القرآن على المعارف والعلوم البشرية:

لم يبق كتاب إلهي على وجه الأرض يمثل الدين الصحيح إلا القرآن الكريم لذلك يحتاج الناس إلى معرفة هديه غاية الاحتياج، وإلى فهم ما حواه من شمول موضوعي بالغ غاية الكمال، وإلى إدراك ما يقدمه لهم من حلول لمشكلاتهم النفسية والاجتماعية ومعضلاتهم الأخلاقية.

---

[1] الوحدة البنائية للقرآن المجيد ، طه جابر العلواني، مكتبة الشروق الدولية ، ط1، مارس 2006م، ص24-25.
[2] التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق، صلاح عبد الفتاح الخالدي، ص42.
[3] البداية في التفسير الموضوعي ، عبد الحي الفرماوي، مطبعة الحضارة العربية، ط2، 1977م، ص70.

والمنظار القرآني هو المصفاة التي لا تخطئ في تسديد المعارف، وتعديل مسار العلوم، كما أنه المنبع الذي تصدر عنه العلوم النافعة، من هنا كانت هيمنة القرآن المجيد على المعارف البشرية، إما بالوصول إلى علوم قرآنية جديدة، وإما بتصحيح مسار العلوم المعروفة.

فمنهج التفسير الموضوعي– كما يرى أحد أعلامه البارزين– يمكّن من الوصول إلى علوم قرآنية جديدة، مثل: علم الأصول القرآنية الذي يدرس الأصول الجامعة والقواعد الحاكمة، والقوانين العليا، التي تضبط كل ما يتصل بالإسلام والقرآن من علوم وفنون.. وعلم الحكمة القرآنية الذي يبرز فيه منهج القرآن في الدعوة والإصلاح، وأسلوبه في الهداية وتطبيق المبادئ، وطرائقه الفذة في سياسة الأفراد والجماعات من تدرج في التشريع، والرفق، والمطاولة مع الخصوم، والتناسب مع الأحداث والوقائع بتنجيم القرآن وتقديم التربية على المعرفة العقلية المجردة.[1]

إن كثيرا من العلوم القائمة تحتاج إلى هيمنة القرآن الكريم عليها بالتصحيح والتعديل، من أمثلة ذلك علم التاريخ الذي كان يهتم بالأخبار والروايات وجمع الأحداث، من غير أن يجعل من الكشف عن سنن الله في الآفاق والأنفس والمجتمع والحضارة غاية له، ومن خلال الدرس الموضوعي للقرآن الكريم ، نقف على هذه السنن في أكثر مواضع القصص الذي يشمل ثلثي آيات القرآن تقريبا، والسياق القرآني يؤكد أن الهدف من دراسة التاريخ ليس الشغف بإحصاء الروايات وتفاصيل الأحداث، بل استنباط القوانين والسنن واستخلاص العبر التي ينتفع بها أصحابها في مستقبل أيامهم، لأن سنة الله لا تتبدل فهي في الأولين والآخرين سواء، ولا شك أن هذا المنهج القرآني هو الذي استفاد منه العلامة ابن خلدون في تدوينه علم العمران.

وما يقال في تصحيح مسار علم التاريخ يقال في علوم كثيرة، كالإعلام والاقتصاد والبيئة.. الخ، فالقرآن الكريم هو الكفيل ببيان مبادئها ومقاصدها والشروط الأخلاقية المرتبطة بها.. وتبقى تفاصيل البحث التقني للعقول تسيح فيها كما تشاء، فالرؤية القرآنية

---

[1] أنظر: المدخل إلى التفسير الموضوعي، عبد الستار فتح الله سعيد، ص 47-50 .

تصحح المسار العام للعلوم ولكنها لا تعوض دور العقل في البحث العلمي التفصيلي، بل تحفزه وتقويه وتحفظه من الزيغ والانحراف.

هكذا تتضح هيمنة كتاب الله على معارف البشر من خلال إعمال المنهج الموضوعي في التفسير.

5- أثره في إظهار أوجه جديدة لإعجاز القرآن:

يعد الإعجاز موضوعا أساسيا بالنسبة لكافة الرسالات السماوية لدلالته على صدق النبي وحقيقة رسالته، فما من نبي إلا وأيده الله بما يعجز قومه عن الإتيان بمثله، فيؤمنون له أو تقام عليهم الحجة.

ومن خصائص الإعجاز أنه يتحدى القوم بما يبرعون فيه، ويبلغون فيه درجة الصدارة والإمامة، فلما برع قوم موسى في السحر، جاءهم موسى من الله بالمعجزة التي تتخطى كل ما أدركوه من علوم السحر، وكان أول من آمن لموسى في موقف التحدي العظيم هم سحرة فرعون أنفسهم، لقد أدركوا من موقع خبراء الأمور أن الذي جاء به موسى ليس بسحر!

ومن خصائص الإعجاز– أيضا – التوافق مع طبيعة الرسالة التي بعث بها النبي من جهة عمومها لكافة الناس أو اختصاصها بقومه، ومن جهة المستوى العقلي الذي يميز القوم والعصر اللذين أرسل فيهما النبي، لذا كان الإعجاز قبل الإسلام حسيّا كعصا موسى، وإبراء عيسى الأبرص والأكمه وإحيائه الموتى بإذن الله، كما أن الإعجاز لم يكن من جنس الرسالة، فالعصا والطب والخوارق شيء، ومحتوى رسالة الأنبياء شيء آخر.

وهذا النوع من الإعجاز كان كافيا لرسالات لم يكتب لها أن تكون خاتمة ولا خالدة، ومتناسبا مع مستوى البشرية التي لم تكن قد بلغت الرشد فكانت تميل إلى المحسوسات، وطبيعة المعجزة الحسية أنها حجة على من شهدها، ومن نقلت إليه بالتواتر المتصل السند، لكنها تفقد تأثيرها مع مرورالأيام بل القرون المتطاولة.

ولما كان الإسلام هو الدين الخاتم والخالد و كلمة الله الفصل إلى يوم الدين، كان إعجازه من نوع مختلف.. نوع جمع مزايا ما قبله، وتفرّد بمزاياه الخاصة التي لم يبلغها

سواه، فكان القرآن الكريم هو المعجزة الخالدة بكل مقاييس الإعجاز الخالد، من جميع النواحي، ولكل العصور.

كان أول ما أدركه أئمة البيان والبلاغة العربية من عرب الجاهلية، أن هذا الكلام الذي قد تخطى كل الحدود التي عرفتها طاقات ألسنتهم اللغوية، ولا يشبه قول الإنس ولا قول الجن، من غير الممكن أن يكون مصدره من الأرض! ولا أدل على ذلك من عبارة الوليد بن المغيرة – وحيرته – في وصف القرآن عندما قال: "**وماذا أقول؟ ما فيكم رجل أعلم بالشعر، لا برجزه، ولا بقصيده مني، ولا بأشعار الجن، والله لقد سمعت كلاما ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن، وإن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو ولا يعلى عليه.**"[1]

لقد تحداهم القرآن بأن يأتوا بشيء يسير من مثله، فعجز القوم و" **لم يذكر التاريخ أن أحدا قد أجاب على هذا التحدي، وبهذا يمكن أن نستخلص أنه قد ظل دون تعقيب.**"[2]

إن الإعجاز اللغوي للقرآن قد أفحم فعلاً أئمة البيان في ذلك العصر. لكن أول جوانب الإعجاز التي أُدركت لم تكن آخرها، ويجانب الصواب من يحصر إعجاز القرآن في النظم والبلاغة والبيان، وبعض أخبار الغيب، لقد تراجع البيان في عصرنا و تراجع الاحتفاء بالأدب عن الصدارة، وتصدّر العلم اهتمام العالم، فهل تراجع إعجاز القرآن؟..كلا

إن تعجب، فعجب تراجعُ البيان وتقدم إعجاز القرآن، فما من ناحية يبرز فيها عصر ويتفوق إلا ويجد كلام الله إلى القمة أسبق!

كيف يوفق كتاب بين نزوله نجوما موزعة على ثلاث وعشرين سنة حسب الحوادث والأيام والنوازل والأحوال، ثم يكون محكم البناء كالجملة الواحدة؟ عصيّا على الاختراق، مذهلا في آياته وجمله قبل سوره، حتى لكأن آيات القرآن الكريم أعضاء لجسد واحد، ولقد

---

[1] انظر: السيرة النبوية، لابن هشام، ج1، ص 256-257 بتصرف يسير في اللفظ.
[2] الظاهرة القرآنية، مالك بن نبي، ص189.

لاحظ بعض العلماء هذه الظاهرة العجيبة التي يتميز بها القرآن فسما أحدهم " الوحدة الموضوعية " وسماها الثاني " الوحدة الكمية " وسماها الثالث " الوحدة البنائية "[1].

والمنهج الذي يجزّئ القرآن، ويقطع الآيات عن سياقها، ولا يستوعب أحوال نزولها، لا يقدر الوجوه الجديدة للإعجاز حق قدرها، ولا يبلغ عمقها، لذا كان لمنهج التفسير الموضوعي الدور الأساس في بيان كثير من أوجه الإعجاز لهذا الكتاب الإلهي الخالد بما يحمل من روح المنهج التركيبي الجامع.

فحين يقف العلماء متضرعين خاشعين أمام كتاب نزل منذ ما يزيد عن أربعة عشر قرنا، مفرقا على الحوادث والأيام على ثلاثة وعشرين سنة، وفي بيئة صحراوية بدوية، فيتلقون عنه الإجابات الشافية عن كل مستجد وفي كل مكان وزمان، ومهما كانت البيئة معقدة في جوانبها الاجتماعية والأخلاقية والعلمية – علما أن بعض الدساتير تصبح لا قيمة لها بعد ثلاثين عاما أو أقل – فماذا يعني هذا غير أن القرآن كلام الله؟!

أي كتاب هذا الذي يجيب عن استفهامات وقضايا ومشاكل لم تكن قد عرفت زمن نزوله ولم يكن لأحد أن يتخيل أنها ستعرف في يوم من الأيام!

إن روعة القرآن تتخطى كل حدود للمكان أو الزمان وتسمو لتنفصل تماما عن "**عبقرية الإنسان التي تحمل بالضرورة طابع الأرض، ليخضع كل شيء لقانون المكان والزمان، بينما يتخطى القرآن دائما نطاق هذا القانون، وما كان لكتاب بهذا السمو أن يتصور في حدود الأبعاد الضيقة للعبقرية الإنسانية، ومن المقطوع به أنه لو أتيح لأحد الناس أن يقرأ [القرآن] قراءة واعية يدرك خلالها رحابة موضوعه ، فلن يمكنه أن يتصور الذات المحمدية إلا مجرّد واسطة لعلم غيبي مطلق.** "[2]

والقرآن الكريم في رحابة موضوعاته وتنوعها شيء فريد "**فهو يبدأ حديثه من (ذرة الوجود المستودعة باطن الصخر والمستقرة في أعماق البحر)[3] إلى (النجم الذي يسبح**

---

[1] هؤلاء على الترتيب هم: الدكتور محمد أحمد حجازي، الأستاذ مالك بن نبي، الدكتور طه جابر العلواني، وسأتوقف عند هذا الموضوع بما يستحق في موضعه بحول الله.

[2] الظاهرة القرآنية، مرجع سابق، ص 196.

[3] يشير المؤلف بذلك إلى قوله تعالى (يا بني إنه إن تك مثقال حبة من خردل في السماوات أو في الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير) لقمان، 16 .

في فلكه نحو مستقره المعلوم)[1]، وهو يتقصى أبعد الجوانب المظلمة في القلب الإنساني، فيتغلغل في نفس المؤمن والكافر بنظرة تلمس أدق الانفعالات في هذه النفس. وهو يتجه نحو ماضي الإنسانية البعيد ونحو مستقبلها، كما يعلمها واجبات الحياة، وهو يرسم لوحة أخاذة لمشهد الحضارات المتتابعة، ثم يدعونا إلى أن نتأمله لنفيد من عواقبه عظة واعتبارا "[2] وأمام هذه العظمة القرآنية وقف الفيلسوف الكبير توماس كارليل مندهشا ولم يتمالك نفسه " **بل انبعثت من أعماقه صرخة إعجاب بالقرآن فقال: "هذا صدى متفجر من قلب الكون كله" وفي هذه الصرخة الفلسفية نجد أكثر من فكرة جافة لمؤرخ، نجد بعض ما يشبه الاعتراف التلقائي لضمير إنساني سام بهت أمام الظاهرة القرآنية."**[3]

وما يقال في تنوع الموضوعات القرآنية وسعتها يقال في انسجامها ووحدتها، **(ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا).**[4]

حتى إن القرآن ليبدو كله **كالجملة الواحدة** ويكاد المرء يعجز عن التصديق بأن كتابا محكما هذا الإحكام نزل نجوما ولم ينزل نجما واحدا! أو جملة واحدة وما أصدق ما عبر به الشيخ محمد عبد الله دراز عن هذا المعنى حين قال " **اعمد إلى سورة من تلك السور التي تتناول أكثر من معنى واحد وما أكثرها في القرآن، فهي جمهرته، وتنقل بفكرتك معها مرحلة مرحلة.. وأنا لك زعيم بأنك لن تجد البتة في نظام معانيها ومبانيها ما تعرف به أكانت هذه السورة قد نزلت في نجم واحد أم في نجوم شتى، ولسوف تحسب أن السبع الطوال من سور القرآن قد نزلت كل واحدة منها دفعة، حتى يحدثك التاريخ أنها كلها أو جلها قد نزلت نجوما."**[5]

---

[1] يشير إلى قوله تعالى (وكل في فلك يسبحون) يس، 40 .

[2] المرجع السابق ، ص195 .

[3] المرجع نفسه ، ص 195 -196 .

[4] النساء ، 82 .

[5] النبأ العظيم : نظرات جديدة في القرآن الكريم ، محمد عبد الله دراز ، دار القلم ، القاهرة ، ط10، 2008م، ص 187 .

فالقرآن إذا نظرنا إليه هذه النظرة الكلية التي تلاحظ ترابط أعظائه في جسمه الواحد نجد أنه "**يتسع حتى يصبح كونا يعادل الكون كله، بل يستوعبه ويضمه تحت جناحيه، ويدق حتى تراه كأنه كلمة واحدة لكنها عين جارية لا تتوقف ولا تغيض ولا تغور ولا تنضب في المعاني التي تشتمل عليها، والصور الرائعة المثيرة التي ترسمها في ذهن السامع، والآثار المهمة التي تتركها في نفسه**"[1].

هكذا يظهر لنا كيف لا تزيد الأيام المتطاولة القرآن إلا تساميا وبريقا ولا تزيد مناوئيه إلا عجزا وإذلالا، فوحدة البناء رغم التفرق في النزول، والقدرة على العطاء رغم الإيغال في القدم وجوه جديدة للإعجاز تدل على أن هذا القرآن كلام الرحمان.

6- تفعيل قضايا في علوم القرآن وتصحيح بعض القواعد العلمية:

سوف يتم تفصيل القول – بحول الله – في بعض هذه المسائل المنهجية في موضعها من الفصل التالي، غير أن الإشارة إليها هاهنا مناسبة، لأنها جزء من أهمية " **المنهج الموضوعي في التفسير** " باعتباره مثريا للمكتبة القرآنية بما يفعِّله ويلحّ عليه من أدواتِ وقواعدِ التفسير.

ومن ذلك، تأكيده على تفسير القرآن بالقرآن، بل إن أحد كبار أساتذة التفسير الموضوعي في الوقت الراهن يرى أن التفسير الموضوعي "**ليس سوى تفسير القرآن بالقرآن.**"[2]

والحق أن منهج تفسير القرآن بالقرآن، هو أوثق وأحسن مناهج التفسير، إذ ليس أحق بتفسير كلام الله وبيان مراده من كلام الله نفسه، وطبيعة القرآن الكريم أنه يصدق بعضه بضا، ويفسر بعضه بعضا، فيسأل القرآن عن نفسه قبل أن يسأل عنه غيره، فإنه يفصّل ما أجمل، ويخصّص ما أطلق، ويبيِّن ما أبهم..الخ.

وهذا المنهج هو ما سنَّه رسول الله صلى الله عليه وسلم حين فسر لفظة الظلم الواقعة في الآية الثانية والثمانين من سورة الأنعام بالآية الثالثة عشر من سورة لقمان، وحين فسّر

---

[1] الوحدة البنائية للقرآن المجيد ، طه جابر العلواني ، ص48 .

[2] أنظر : خواطر حول التفسير الموضوعي للقرآن الكريم ، الدكتور مصطفى مسلم ، مقال على شبكة الإنترنت، وهذا الكلام فيه شيء من السطيحة، لأن المنهج الموضوعي في التفسير أشمل وأعمق من تفسير القرآن بالقرآن، وهذا الأخير يعد من مصادر التفسير الموضوعي ليس إلا.

مفاتح الغيب في قوله تعالى:**(وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو)الآية**[1] بقوله تعلى : **(إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث)الآية**[2].

ويتأكد هذه السنة في منهج التفسير الموضوعي الذي يجمع عناصر الموضوع الواحد فيُظهِر التوافق والترابط بين آيات القرآن وموضوعاته، في الوقت الذي يبتعد المنهج التحليلي في كثير من الأحيان عن روح هذا المنهج ويستعيض عنه بالاستطرادات اللغوية أو الفقهية أو الكلامية.

ومن القواعد التي تحتل مركز الثقل في التفسير الموضوعي اعتبار السياقات العامة والخاصة، اللغوية والتاريخية، حتى لا يُفهم القرآن على غير وجهه ولا يحمل على غير مقصوده ولا يُنزَّل على غير مناطه.

وكذا فإن المنهج الموضوعي يفعِّل علم أسباب النزول، ويستفيد من تاريخ النزول وأحواله، فالقرآن نزل مفرّقا على ثلاثة وعشرين سنة، في أحوال شديدة التباين، منه ما نزل أولا ومنه ما نزل آخرا، ومنه ما نزل في الحضر ومنه ما نزل في السفر، منه ما نزل في السلم ومنه ما نزل في الحرب، منه ما نزل في حق المؤمنين ومنه ما نزل في حق اليهود والنصارى والمشركين..الخ، والعلم بذلك أكثر من ضروري بالنسبة للمفسر الذي يعتمد المنهج الموضوعي، وإن كان مطلوبا لكل مفسر، حتى يحيط بالفهم الدقيق، ويتمكن من التنسيق الوثيق، بين معاني الآيات المختلفة في الموضوع الواحد، وحتى يتجنب الوقوع فيما يقع فيه من يجزِّؤون القرآن ويفصلون بين مكوناته، فيُعمِلون بعضه ويردُّون بعضا، ويتخيرون منه ما يشتهون، وينتقون ما تهوى أنفسهم، أو يشتطّون في القول بالنسخ إذا رأوا الآيات تخالف ماذهبوا إليه وتعصبوا له، حتى قال بعضهم إن آية واحدة من القرآن نسخت مائة وعشرين آية ؟! وهي آية السيف ، ثم اختلفوا ما آية السيف هذه؟![3]

---

[1] الأنعام ، 59 .

[2] لقمان ، 34 .

[3] قال ابن سلامة إن آية السيف نسخت مائة وأربعة وعشرين آية ثم صار آخرها ناسخا لأولها.. وقال أبو جعفر النحاس إنها نسخت مائة وثلاثة وعشرين موضعا في القرآن؟؟ أنظر: الناسخ والمنسوخ، هبة الله أبو القاسم ابن سلامة، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة، ص51، والناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم أبو جعفر أحمد بن محمد النحاس، مطبعة الأنوار المحمدية، مصر، ص249.

وهذا من آفات النظر الجزئي المتعجل لموضوعات القرآن وأحكامه، والذي غالبا ما كان سببا في زيغ كثير من الفرق التي جعلت القرآن تابعا لا متبوعا وفرعا لا أصلا، كما قال الدكتور عبد الستار ".. **للقرآن أصوله الجامعة وقواعده الحاكمة، التي لا تعلم إلا بالاستقراء الكلي للألفاظ والدلالات، لتصبح حكما في تقرير القضايا. لكن كثيرا من الفرق نظروا في القرآن نظرة مقلوبة، فبدلا من البحث عن أصوله ليتحاكموا إليها، نظر كل فريق فيه بحثا عما يؤيد مذهبه الذي اعتنقه عن هوى، أو عن طريق نظرة جزئية عجلى تجعل من الآية الواحدة أصلا ينزل عليه ما عداه، بلا استقراء لموقف القرآن الكلي من الموضوع أو تؤخذ الآية الواحدة منقطعة عن معاني القرآن.. كما حدث من الخوارج والشيعة والمعتزلة وغلاة الصوفية إلى القادينية والبهائية..**"[1]

ومن أمثلة تصحيح التفسير الموضوعي لبعض القواعد العلمية في التفسير "القاعدة التي أوردها كثير من المفسرين، قال الإمام السيوطي:**أخرج بن أبي حاتم وغيره عن أبي ابن كعب – رضي الله عنه – قال: "كل شيء في القرآن من "الرياح" فهي رحمة، وكل شيء فيه من "الريح" فهو العذاب**[2].

و من العجيب أن يعود الإمام السيوطي فيضع هذا في "قاعدة كلية" أخرى فيقول:.. ومن ذلك الريح ذكرت مجموعة ومفردة، فحيث ذكرت في سياق الرحمة جمعت، وفي سياق العذاب أفردت. ثم ذكر الأثر السابق، ثم أخذ يلتمس حكمة ذلك ويعلله إلى أن يقول: وقد خرج عن هذه القاعدة قوله تعالى:(وجرينا بهم بريح طيبة)[3]، وعلى ذلك جرى قوله تعالى: (إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره)[4]، وقال ابن المنيّر: إنه على القاعدة لأن سكون الريح عذاب وشدة على أصحاب السفن.

علّق الشيخ فتح الله سعيد بالقول: "**أظن – والله أعلم – أن سبب ذلك هو عدم جمع الآيات كلها والنظر فيها مجتمعة قبل تقعيد القاعدة وحينئذ نقول بالقاعدة، أو نعدل**

---

[1] المدخل إلى التفسير الموضوعي ، عبد الستار فتح الله سعيد ، ص 52 .
[2] الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، ج2، ص435.
[3] يونس ، 22 .
[4] الشورى ،33 .

عنها، أو نعدّلها وهذه وظيفة التفسير الموضوعي، وإحدى فوائده الجليلة. وبيان ذلك أن "الريح" وردت في القرآن مفردة تسع عشرة مرة، منها سبع في الخير والرحمة، أي أكثر من ثلثها فكيف تؤسس قاعدة على مثل هذا الاستثناء [الكثير]؟ وعلى ذلك تصحح القاعدة هكذا: إذا جمعت "الرياح" في القرآن فهي في الرحمة وإذا أفردت استعملت في الرحمة والعذاب، والأخير الأكثر."[1]

من هنا وحتى تحصل فائدة التقعيد الصحيح ينبغي أن يقوم على منهج التفسير الموضوعي في الاستقراء والنظر الشامل واستيعاب ألفاظ ومصطلحات القرآن الواردة في موضوع ما – كلها – وعدم متابعة السابقين في ذلك إلا بعد التحري والتحرير والفحص البصير، فالاستقراء الشامل من شروط التفسير الموضوعي، ويمكن على ضوئه إعادة النظر في كثير من القواعد كقولهم: كل ما القرآن من ذكر:

. الأسف: معناه الحزن، "إلا فلما آسفونا"[2] فمعناه أغضبونا.

. البر والبحر: فالمراد بالبحر الماء، والمراد بالبر التراب اليابس، إلا "ظهر الفساد في البر والبحر"[3] فالمراد به البرية والعمران.

. حسرة: فهي الندامة، إلا "ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم"[4] فمعناه الحزن فكل ما نقله السيوطي مما أوردت منه هذه الأمثلة وغيرها كثير[5] عن ابن فارس وغيره في باب الوجوه والنظائر مبني على الاستقراء ويمكن أن يراجعه التفسير الموضوعي على ضوء الاستقراء الشامل للآيات القرآنية فيؤكد منه ويعدل وينفي، على حسب ما يؤدي إليه الإحصاء التام.

---

[1] المدخل إلى التفسير الموضوعي ، ص54-55.
[2] الزخرف، 55.
[3] الروم، 41.
[4] آل عمران، 156.
[5] راجع الإتقان، السيوطي، 431-438

المبحث الثالث

أنواع التفسير الموضوعي للقرآن

تطور فن التفسير الموضوعي وتعمق البحث فيه وتزايد في الفترة المعاصرة، وكتبت فيه عدة دراسات وأبحاث منها النظري المنهجي، ومنها التطبيقي، والدرس الفاحص المتأني لكتابات هؤلاء العلماء والدارسين يبين أنهم ليسوا متحدين في التصور والنظر لتفاصيل هذا

الفن، فمنهم من يراه في دراسة موضوع من خلال القرآن الكريم، ومنهم من يتصوره مجيبا عن استفهامات تبلورت خارج النص القرآني، ومنهم من يراه في دراسة السورة القرآنية واستنتاج وحدتها الموضوعية، ومنهم من قصد إلى دراسة المفردة كنوع جديد مستقل عن دراسة الموضوع كما سبق الذكر، من هنا انضوت تصورات وأنواع مختلفة من التفسير تحت مسمى واحد هو"**التفسير الموضوعي للقرآن الكريم**".

ولتسهيل دراسة أنواع التفسير الموضوعي نختار تصنيفها إلى ثلاثة أنواع حسب ما يختار الباحث لنفسه من اتخاذ "وحدة لتفسيره" على الشكل الآتي:

1- المفردة القرآنية وحدة للتفسير.

2- الموضوعات القرآنية وحدة للتفسير .

3- السورة القرآنية وحدة للتفسير .

وفيما يلي نحاول شرح هذه الأنواع الثلاثة ، وبيان أهم ما ألف فيها قديما وحديثا، وذكر الخطوات المساعدة على البحث فيها .

المطلب الأول

المصطلح القرآني وحدة موضوعية

تعد دراسة مفردات القرآن وألفاظه أضيق أنواع التفسير الموضوعي دائرة، والقصد منه أن يعمد المفسر إلى لفظ تردد وروده في القرآن كثيرا، وفي سياقات مختلفة، فيتتبعه في طول القرآن وعرضه، ويجمع الآيات التي ورد فيها اللفظ أو اشتقاقاته، و" **بعد جمع الآيات والإحاطة بتفسيرها، يحاول استنباط دلالات الكلمة من خلال استعمال القرآن الكريم لها. وكثير من الكلمات القرآنية المتكررة أصبحت مصطلحات قرآنية، فكلمات : الأمة ، الصدقة ، الجهاد ، الكتاب ، الذين في قلوبهم مرض ، المنافقون ، الزكاة ، أهل الكتاب , الربا ، نجدها تأخذ وجوها في الاستعمال والدلالة** "[1] وإطلاق لفظ المصطلح القرآني يجب أن يراعى فيه أن له معنى شرعي، أي أن اللفظ في عرف القرآن له معنى محدد لا يصدق على كل معانيه المحتملة لغة، وليس القصد من إطلاق المصطلح معنى الواضع

[1] مباحث في التفسير الموضوعي ، مصطفى مسلم ، ص 23 .

والمواضعة فليس المفسرون من يتواضعون أو يصطلحون على معنى ما لمفردة قرآنية، بل دورهم هو كشف معناها من استعمالات القرآن في مواضع وسياقات مختلفة.

ومصطلحات القرآن . بالمعنى السابق . التي تصلح لهذا النوع من التفسير الموضوعي كثيرة، وموضوعاتها متنوعة تنوع لسان القرآن نفسه، بين العلوم الشرعية والعلوم الكونية.

ويعتمد الباحث في تتبعه وإحصائه واستقرائه لاشتقاقات وتصاريف المصطلح القرآني على المعاجم المفهرسة لألفاظ القرآن كالذي كتبه محمد عبد الباقي.[1]

والتتبع لهذا اللون يخرج منه الباحث بنوع من التفسير لأساليب القرآن الكريم في استخدام مادة الكلمة ودلالاتها، وبعض ما روي عن السلف يدل بوضوح أنهم كانوا على دراية وممارسة لمثل هذا النظر في القرآن، كما روي عن ابن عباس أنه قال: "**المس واللمس والملامسة في القرآن كناية عن الجماع، فإن الله حيي كريم يكني عما شاء بما شاء**"[2]، وذلك ما لا يمكن معرفته إلا بتتبع سياق اللفظ في القرآن كله.

وقد كتب المفسرون القدامى ما يصلح أن يكون" **لبنات أولية لهذا اللون من التفسير الموضوعي، يمكن للباحث المعاصر أن يستفيد منها، ثم يضيف عليها إضافات كثيرة.**"[3]

ومن أمثلة كتب السابقين في هذا الشأن :

ما ألفه مقاتل بن سليمان البلخي (ت150هـ) وسماه : الأشباه والنظائر في القرآن الكريم، وتناول فيه الألفاظ التي اتحدت في المبنى واختلفت في الدلالة حسب سياق ورودها في الآيات القرآنية.

ولأبي العباس محمد بن يزيد المبرّد النحوي (ت285هـ) رسالة لطيفة مفيدة في نفس المعنى تحت عنوان: ما اتفق لفظه واختلف معناه من القرآن المجيد.

وألف يحي بن سلام (ت200هـ) كتابا في: التصاريف على طريقة كتب الأشباه والنظائر.

---

[1] أنظر : التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق ، صلاح عبد الفتاح الخالدي ص52-53 .

[2] كيف نتعامل مع السنة: معالم وضوابط ، يوسف القرضاوي، طبعة المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ص163

[3] التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق ، المرجع السابق ، ص 52 .

وللدامغاني (ت478هـ) كتاب قيم هو: إصلاح الوجوه والنظائر.

وأفضل منه وأشهر كتاب الراغب الأصفهاني (ت502هـ) : معجم مفردات لألفاظ القرآن الكريم .

ولعبد الرحمان بن الجوزي (ت597هـ) كتاب في هذا الفن سماه : نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر.

وكتب الفيروز أبادي (ت817هـ) كتابه: بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، وبعده ابن العماد (ت887هـ) كتب: كشف السرائر في معاني الوجوه والنظائر.

وتعد هذه المؤلفات عمدة هذا النوع من التفسير إلا أنها" **بقيت في دائرة دلالة الكلمة في موضعها ولم يحاول مؤلفوها أن يربطوا بينها في مختلف السور فبقي تفسيرهم للكلمة في دائرة الدلالة اللفظية. أما المعاصرون الذين كتبوا في هذا اللون فقد تتبعوا الكلمة وحاولوا الربط بين دلالاتها في مختلف المواضع فكان أشبه ما يكون بالتفسير الموضوعي لموضوعات القرآن.** "[1]

والفرق الحاسم – في رأينا – بين تفسير الموضوع وتفسير المصطلح في التفسير الموضوعي هو أن الباحث في تفسير موضوع ما يركز اهتمامه على دلالات ومعاني موضوعه حتى وإن لاحظ تطرق القرآن لها بألفاظ متعددة ، بينما الباحث عن المصطلح القرآني يلتزم لفظا واحدا أو عبارة واحدة ويتتبع اختلاف دلالتها أو اتحادها أو تطورها ضمن سياق القرآن كله، ولكل من النوعين طبيعته ونتائجه.

وليس بمستغرب أن نجد في دراسة واحدة النوعين معا، ذلك أن دراسة المصطلح تعد مدخلا في كثير من الأحيان لدراسة الموضوع، كما أن الباحث في موضوع ما يقتضي منه الأمر أحيانا الإحاطة بمعاني مصطلحات موضوعه، ومن الأمثلة البينة على ذلك، الدراسة الموضوعية التي قدمها الشيخ يوسف القرضاوي بعنوان: العقل والعلم في القرآن الكريم، فقد أحصى فيها مجموعة من المصطلحات القرآنية ودرس معانيها ودلالاتها مثل: تعقلون،

---

[1] مباحث في التفسير الموضوعي، مصطفى مسلم، ص 23-24 .

يعقلون،أولوا الألباب، العلم.. ولكن دراسته في الأصل لموضوع وليست لمصطلح، لذلك توسع في دراسة جوانب عدة من موضوع العقل والعلم على ضوء القرآن الكريم.[1]

وفي أطروحتي العلمية: السنن الإلهية في نهوض الحضارة ونكوصها في ضوء نصوص الكتاب وفقه التاريخ، درست مصطلح " السنة " في الاستعمال القرآني واشتقاقاتها ودلالاتها المختلفة، فكان من النتائج المهمة التي وفقني الله إليها أن "**القرآن الكريم لم يعبر عن السنن الإلهية بلفظها إلا في موضوع واحد، هو التاريخ البشري فيما يرتبط بمسائل النفس والاجتماع، أو قل في موضوع الحضارة الإنسانية فيما يرتبط بسلوك الإنسان فردا وأمّة**"، ولم يرد اللفظ مضافا إلى العلوم الكونية قط مع أنها أحق بالقانون والسنة، وتبين لي أن انبناء الكون على السنن والقوانين ظاهر لا يحتاج إلى تأكيد، وقد عبر القرآن عنه بالآيات والتقدير والمشيئة والكلمة . مفردة ومجموعة . وغيرها.. لكن خضوع سلوك الإنسان ومصائر الأمم إلى قانون صارم هو ما يحتاج إلى تنبيه، لما يظن من التحرر المطلق في هذا الشأن، لذلك ذكر القرآن مصطلح السنة ست عشرة مرة في شأن سلوك الإنسان فردا وجماعة ، فإذا قلت إن الماء يغلي في درجة الحرارة المائة لم يكذبك أحد، لكن إذا قلت – كما قرر ابن خلدون متأثرا بالقرآن – : إن الظلم مؤذن بخراب العمران، واجهت جدلا عريضا وكبرا في أنفس الظالمين ما هم ببالغيه![2]

ولتتضح طريقة تناول هذا النوع من التفسير عند القدامى نعرض نموذجا من تفسير الراغب الأصفهاني في كتابه الفذ: معجم مفردات ألفاظ القرآن، ونأخذ على سبيل المثال مصطلح " الأمر " في القرآن الكريم، وقد استخرج الراغب سبعة معاني لهذا المصطلح على النحو الآتي:

1- الأمر : الشأن وجمعه أمور وهو مصدر أمرته إذا كلفته أن يفعل شيئا ، وهو لفظ عام للأقوال والأفعال كلها، وعلى ذلك قوله تعالى:(إليه يرجع الأمر كله

---

[1] أنظر: العقل والعلم في القرآن الكريم ، يوسف القرضاوي , مكتبة وهبة ، القاهرة ، ط1 ، 1996م ، ص 17 وما بعدها ، ص 22 وما بعدها ، ص 149 وما بعدها .

[2] أنظر : أطروحتنا العلمية: السنن الإلهية في نهوض الحضارة ونكوصها ، في المكتبة الجامعية ، كلية أصول الدين، الجزائر العاصمة ، قسم الدوريات، لعام 2001-2002 ص 83-84.

)[1]وقال:(قل إن الأمر كله لله يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك ويقولون لو كان لنا من الأمر شيء)[2]، (وأمره إلى الله)[3]، وكذا قوله : (وما أمر فرعون برشيد)[4]، فعامّ في أقواله وأفعاله.

2- ويقال للإبداع أمر نحو (ألا له الخلق والأمر)[5]ويختص ذلك بالله تعالى دون الخلائق وقد حمل على ذلك قوله:(وأوحى في كل سماء أمرها)[6] وعلى ذلك حمل الحكماء قوله:(قل الروح من أمر ربي)[7] أي: من إبداعه، وقوله:(إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون)[8] فإشارة إلى إبداعه وعبر عنه بأقصر لفظة وأبلغ ما يُتقدم فيه فيما بيننا بفعل الشيء، وعلى ذلك (وما أمرنا إلا واحدة)[9]فعبر عن سرعة إيجاده بأسرع ما يدرك وهمنا.

3- الأمر التقدم بالشيء سواء كان بقولهم افعلْ أو ليفعلْ ، أو كان بلفظ خبر نحو (والمطلقات يتربصن بأنفسهن)[10] أو كان بإشارة وغير ذلك ، ألا ترى أنه سمى ما رأى إبراهيم في المنام من ذبح ابنه أمرا حيث قال : (أني أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر)[11] .

4- وقوله : (أتى أمر الله)[12] إشارة إلى القيامة ، وذكره بأعم الألفاظ , وقوله (بل سولت لكم أنفسكم أمرا)[13] أي ما تأمر به النفس من سوء.

5- وقيل أَمِرَ القوم، كثروا، وذلك لأن القوم إذا كثروا صاروا ذا أمير من حيث أنهم لا بد لهم من سائس يسوسهم، ولذلك قال الشاعر: لا يصلح الناس فوضى لا سراة

---

[1] هود، 123.
[2] آل عمران ، 154 .
[3] البقرة ، 175.
[4] هود، 97.
[5] الأعراف، 54 .
[6] فصلت ، 12 .
[7] الإسراء ، 85 .
[8] النحل ، 40 .
[9] القمر ، 50 .
[10] البقرة ، 228 .
[11] الصافات ، 102 .
[12] النحل ،1 .
[13] يوسف ،18 .

لهم، وقوله تعالى: (أمرنا مترفيها)[1] أي: أمرناهم بالطاعة، وقيل معناه كثرناهم.. وقرئ (أَمَّرنا) أي: جعلناهم أمراء وعلى هذا حمل قوله تعالى: (وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها).[2]

6- ثم عرض الراغب الائتمار وهو التشاور في قوله تعالى: (إن الملأ يأتمرون بك)[3]، وتحدث عن الإمر في قوله تعالى:(لقد جئت شيئا إمرا)[4] أي: منكرا من قولهم قولهم أَمِرَ الأمر أي كبر وكثر، كقولهم استفحل الأمر.

7- وختم بقوله (أولي الأمر)[5] قيل يعني الأمراء في زمن النبي صلى الله عليه وسلم، وقيل الأئمة من أهل البيت[6]، وقيل الآمرون بالمعروف، وقال ابن عباس – رضي الله عنهما – هم الفقهاء وأهل الدين المطيعون لله، وعلق الراغب على هذه الأقوال بالقول: وكل هذه الأقوال صحيحة، ووجه ذلك أن أولي الأمر الذين بهم يرتدع الناس أربعة: الأنبياء وحكمهم على ظاهر العامة والخاصة وبواطنهم، والولاة وحكمهم على ظاهر الكافة دون باطنهم والحكماء وحكمهم على باطن الخاصة دون الظاهر، والوَعَظَة وحكمهم على بواطن العامة دون ظواهرهم.[7]

أما المعاصرون، فقدموا دراسات طيبة لبعض المصطلحات، نذكر منها على سبيل المثال: التفسير والتأويل في القرآن الكريم لصلاح عبد الفتاح الخالدي، وما أصدره أحمد حسن فرحات عن: الخلافة في الأرض، الذين في قلوبهم مرض، الأمة في دلالتها العربية والقرآنية، وغيرها..

وحتى ينجح الباحث في تفسير مصطلحات القرآن واستنباط الحِكم منها وبيان أسرارها واستخراج نكتها ولطائفها، لا بد من تتبعها في أساليب القرآن ثم جمعها وملاحظة المعاني التي توحي بها وذلك بأن " **نسأل باستمرار (لماذا) لماذا وردت هكذا ؟ وما هي الحكمة**

[1] الإسراء , 16 .
[2] الأنعام , 123 .
[3] القصص , 20 .
[4] الكهف ، 71 .
[5] النساء , 59 .
[6] اختلف في عقيدة الراغب الأصفهاني ، وفي هذه العبارة يبدو شيعيا أو ناقلا عن الشيعة .
[7] أنظر : معجم مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني ، ص22-23 .

التي قد تبدو لنا، وما هو السر الذي قد نكشف عنه وما هي الدلالة التي تؤخذ منها؟ ".[1]

وقد وصف بعض الدارسين طريقة تسهل البحث في هذا النوع من التفسير، نوجزها في النقاط الآتية:

1- اختيار المصطلح القرآني المراد دراسته ثم رده إلى جذره الثلاثي، ومعرفة اشتقاقاته من كتب اللغة وتفسير المصطلح كمعجم مقاييس اللغة لابن فارس (ت395هـ) ومفردات ألفاظ القرآن للراغب ولسان العرب لجمال الدين بن منظور (ت711هـ) وغيرها..

2- متابعة ورود المصطلح واشتقاقاته وتصريفاته في الآيات القرآنية، وربط المعاني اللغوية للمصطلح القرآني بسياق استعمال القرآن له.

3- الاطلاع على تفسير الآيات التي ورد فيها المصطلح أو اشتقاقاته أو تصريفاته في أمهات كتب التفسير التحليلي.

4- الوقفة المتأنية المتدبرة الفاحصة للآيات التي أوردت المصطلح واستنباط دروسها وتسجيل حقائقها وتدوين النتائج والثمار المستخلصة من دراسة المصطلح، وملاحظة البعد الواقعي له، وما يسهم في تقديمه من علاج لمشكلات المجتمع، أو يضيفه إلى المعرفة العلمية والإنسانية من الهدايات والأنوار.[2]

وهذه خطوات حسنة مع عدم إهمال الملاحظة الثابتة التي تتصل برسالة التفسير الموضوعي كمنهج في التفسير الهدائي يراعي حاجة الأمة وأولوياتها، فإذا لم يكن من نتائج علمية وعملية تفيد الأمة من مثل هذه الدراسة ستتحول إلى بحث لفظي وترف فكري، مع الإشارة إلى ملاحظة أخرى غاية في الأهمية هي أنه ليست كل مفردات القرآن تصلح أن تكون مصطلحات قرآنية، ومن المصطلحات التي نرى ضرورة دراستها: الخليفة والخلافة في القرآن، الوسط والوسطية، الأمي والأمية.. **وللشيخ**

---

[1] مفاتيح التعامل مع القرآن، صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار القلم، دمشق، ط4، 2005، ص 154.

[2] أنظر : التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق ، مرجع سابق ، ص 64-65 . والتفسير الموضوعي دراسة نظرية وتطبيقية ، منصور كافي ، ص 85-87 .

الغزالي دراسة جيدة عن أولي الألباب في القرآن سأفصل القول فيها في موضعه بحول الله.

المطلب الثاني

دراسة الموضوع من خلال القرآن

في هذا النوع من التفسير الموضوعي يهتم الباحث بالموضوعات القرآنية – لا بالمصطلحات ولا بالسور – فيفرد موضوعا معينا من موضوعات القرآن الكريم بالبحث والدراسة والتحليل، يجمع الآيات المتحدة فيه، يستقرئها ويستنبط منها الدلالات والهدايات التي ترشده إلى حيثيات الموضوع ولمّ شمل عناصره واستخلاص الرؤية القرآنية الواضحة والموقف القرآني الحاسم.

وهذا النوع من التفسير هو النوع الأساس الذي إذا أطلق اصطلاح التفسير الموضوعي – في عرف أهل الاختصاص – لا يكاد الذهن ينصرف إلا إليه.[1]

ويمكن للموضوع الذي يحدده الباحث للدراسة ويختاره أن يكون نابعا من الاستفهامات الواقعية التي تلح على الأمة، فيلجأ المفسر إلى القرآن الكريم مسائلا إياه، طالبا منه التنوير والهداية والإرشاد، وهذا النهج ليس غريبا عن روح القرآن العظيم، فقد كان الوحي يتنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم مجيبا عن استفهامات واقع الجاهلية في عصر النبوة، كما يشهد بذلك أسلوب القرآن الكريم في أكثر من موضع (يسألونك عن ... قل ...) فالواق يبلور السؤال والوحي يقدم الجواب[2].

كما يمكن للباحث في تحديد موضوع ما أن يلحظ عرض القرآن الكريم له بأساليب متنوعة في العرض والمناقشة والتعليق، فيتتبع الموضوع من خلال سور القرآن الكريم ويستخرج الآيات التي تتناوله، وينسق بين عناصره ويقدم له بمقدمة حول أسلوب القرآن الكريم في عرض عناصر الموضوع، ويحاول تقسيمه إلى فصول ومباحث ، ويستدل بالآيات القرآنية على كل ما يذهب إليه ، ويتحدث عنه، مع ربط ذلك كله بواقع الناس

---

[1] مباحث في التفسير الموضوعي ، مصطفى مسلم ، ص27.

[2] أنظر: معالم المنهج الإسلامي ، محمد عمارة، در الرشاد، القاهرة، ط3، 1998م، ص84-85

ومشكلاتهم ومحاولة حلها وإلقاء أضواء قرآنية عليها. ويتجنب خلال بحثه التعرض للأمور الجزئية في تفسير الآيات، كالقراءات ووجوه الإعراب والنكات البلاغية، إلا بما يلقي من أضواء على أفكار موضوعه الأساسية، ويتوخى في عرضه الأسلوب الجذاب لتوضيح مقاصد الآيات والحِكَم الإلهية من عرض الموضوع بأساليب معينة وألفاظ محددة.[1]

ولا ريب، فإن الدراسة الموضوعية تكتسي أهمية أكبر كلما وفق الباحث في اختيار الموضوع الذي يوضح تصورات كلية تيسر للأمة رجوعها إلى المناخ الثقافي القرآني، أو الذي ينطوي على أبعاد واقعية إصلاحية في ميدان ما من ميادين الحياة المعاصرة، النفسية أو الاجتماعية أو الاقتصادية أو العلمية أو التربوية أو غير ذلك[2]، لأن الهدف الذي يتوخاه الباحث في التفسير الموضوعي هو علاج أمراض أمته ومحاولة انتشالها من واقع التخلف ونقلها إلى أنوار الحضارة متفاعلا مع طبيعة القرآن الذي حدد دوره وعرّف نفسه بأنه كتاب هداية وشفاء وإخراج للناس من الظلمات إلى النور.

وهذا النوع مجال فسيح يشمل كافة الموضوعات المعاصرة المتعلقة بمجالات المعرفة المتنوعة حيث يربطها الباحثون بالقرآن الكريم ، وينظرون بمنظاره إلى عناصرها وطريقة تناولها ، سواء كانت هذه الموضوعات مما يرتبط بالكون المحيط بالإنسان من أرض وسماء ، وكواكب ونجوم ، وبحار ومحيطات .. أو كانت مما يرتبط بالإنسان في خلقه وتكوينه ، وعواطفه وغرائزه ومشاعره وأخلاقه..، أو بالحياة الاجتماعية بدءا بالعلاقات الأسرية إلى المؤسسات الاجتماعية المختلفة ، إلى العلاقات الدولية في السلم والعهد والحرب .. إلى الدعوة إلى الله والأخذ بالعبر والعظات من سير الأقوام والأمم الماضية .. إلى ما يتعلق بأمور الغيب من البعث والحشر والحساب والجنة والنار .. " **ولا تكاد تنتهي مثل هذه الموضوعات بل كلما جدت علوم وصنوف من المعرفة لدى الإنسان يجد الباحث في القرآن الكريم ما يشبع فكره اقتناعا ، وقلبه طمأنينة من عرض القرآن**

[1] مباحث في التفسير الموضوعي ، المرجع السابق، ص 27 باختصار وبتصرف .
[2] أنظر: التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق، صلاح عبد الفتاح الخالدي، ص 54

لأساسيات هذا اللون من المعرفة بوضع الأسس العامة والتوجيهات الأساسية في هذا الشأن "[1] .

وفي الفترة المعاصرة بدأ تفسير الموضوعات القرآنية يتجه نحو الاكتمال ويتخذ وجهة جديدة " **تقوم على تحديد الموضوع ، وتناوله من جانبه الخاص ، وربط عناصره ومسائله برباطها الأقرب ، ليتم التمايز بين الموضوعات القرآنية المتكاثرة ، وليعلم ما في كل منها من وجوه الإحكام والكمال ، وما فيها مجتمعة من وجوه الترابط والتمام ، وعلى هذا يتحدد مصطلح التفسير الموضوعي الآن في هذا النوع الخاص الذي يتلخص في : جمع الآيات الكريمة ذات المعنى الواحد، ووضعها تحت عنوان واحد ، والنظر فيها بما يؤلف منها موضوعا واحدا مستَخرجا من الآيات الكريمة على هيئة مخصوصة ، وهذا منهج جديد على الدراسات التفسيرية والقرآنية، وقد دعت إليه حاجة المجتمع ، وظروف العصر."[2]**

وهذا النوع من التفسير الموضوعي يختلف عن الدراسات الإسلامية العامة التي لا يلتزم فيها الباحث البقاء مع القرآن بل يتحدث عن الإسلام بمعناه الأعم ، فيخرج من التفسير إلى غيره من أبواب العلم كالحديث والسيرة والتاريخ والفقه وغير ذلك، كما يختلف عن الدراسات القرآنية التي لا تسير على وفق منهج التفسير الموضوعي فلا تستوعب آيات الموضوع ولا ترتبها وفق ما يسير عليه المنهج الموضوعي في التفسير من مثل " الإنسان في القرآن " لمحمد لطفي الصباغ، وإن كان المفسر يستفيد من الدراسات الإسلامية والدراسات القرآنية جميعا.[3]

وهذا اللون يختلف عن اللون الأول – تفسير المصطلح القرآني – فهو أعم منه وأشمل إذ العبرة فيه ليست باللفظ بل بالمعنى ، بخلاف ما رأينا في النوع الأول حيث يلتزم الباحث بيان مصطلح أو لفظ واحد وإن تباين معناه بل يلتزم اللفظ لإيضاح هذا التباين المعنوي .

---

[1] مباحث في التفسير الموضوعي، مصطفى مسلم، ص 28.

[2] المدخل إلى التفسير الموضوعي ، عبد الستار فتح الله سعيد ، ص33.

[3] أنظر التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق، ص36-37.

كما أن تفسير الموضوعات القرآنية بهذا المنهج الخاص جديد لم يعرفه علماء التفسير السابقون ، إذ كانوا يعمدون إلى آيات القرآن وسوره وليس إلى آيات الموضوع الواحد ، فيفسرون القرآن آية فآية حسب ترتيب السور وتسلسل الآيات فيها ، سائرين على ما يقتضيه المنهج التحليلي ، وهذا المنهج الذي ساروا عليه لا يستغني عنه المفسر الموضوعي المعاصر ، ولا يغمط حق المفسرين القدامى أو ينقص من فضلهم عدم تطرقهم إلى التفسير الموضوعي بمعناه العلمي والمنهجي المعاصر ، فإن العلوم والفنون تتطور وفقا لحاجة العصر ، ولقد استجابوا لحاجات وقتهم وعلينا تطوير البحث العلمي بما يستجيب إلى حاجات وقتنا المعاصرة المعقدة[1] .

من هنا وجب علينا التدقيق فيما يذكره بعض الذين كتبوا في مناهج التفسير والمفسرين في العصر الحديث والفترة المعاصرة عن التفسير الموضوعي، فما ذكره عبد القادر محمد صالح من كون" أضواء البيان في تفسير القرآن" لصاحبه محمد الأمين الشنقيطي من التفسير الموضوعي ليس كذلك، بل هو من قبيل تفسير القرآن بالقرآن على وفق النهج التحليلي،[2] وما أشار إليه الشيخ محمد حسين الذهبي – رحمه الله – عن تفسير بعض المتقدمين بقوله " **وكذلك وجد من العلماء من ضيق دائرة البحث في التفسير فتكلم عن ناحية واحدة من نواحيه المتشعبة المتعددة، فابن القيم – مثلا – أفرد كتابا من مؤلفاته عن أقسام القرآن.. وأبو عبيدة أفرد كتابا للكلام عن مجاز القرآن .. وغير هؤلاء كثير من العلماء قصدوا إلى موضوع خاص في القرآن يجمعون ما تفرق منه، ويفردونه بالدرس والبحث..**"،[3] كذلك ليس من التفسير الموضوعي بمعناه الخاص الذي شرحناه، بل هي دراسات أقرب إلى بعض مباحث علوم القرآن، وبشيء من التجوز والتساهل يمكن اعتبارها من نوع التفسير الموضوعي بالمعنى العام لا بالاصطلاح العلمي الخاص، وقد عقب الدكتور حسن فرحات عما أورده الشيخ الذهبي بالقول: "**حتى هذه الكتب المؤلفة في موضوع واحد من موضوعات القرآن فإنها تنهج نفس النهج**

---

[1] المرجع نفسه ، ص 39.
[2] أنظر: التفسير والمفسرون في العصر الحديث، عبد القادر محمد صالح ، ص249
[3] التفسير والمفسرون، محمد حسين الذهبي ، ج1 ، ص148-149.

التحليلي.. وهو الكلام عن جزئيات الآية من لغة وصرف ونحو وبلاغة وما إلى ذلك، فإذا نظرنا إلى وحدة الموضوع الذي يجمع الآيات المتعددة من سور مختلفة أمكننا أن نعتبر مثل هذا العمل نوعا من التفسير الموضوعي مع شيء من التجوز، وإذا نظرنا إلى الطريقة التي تحل فيها الآيات إلى أجزائها أمكننا أن نعتبر هذا من قبيل التفسير التحليلي.[1]

والأساس الذي يقوم عليه هذا النوع من التفسير الموضوعي هو اليقين بأن القرآن لا اختلاف فيه، يصدق بعضه بعضا، ويبين لاحقه ما أُشكِلَ في سابقه، ويفصّل بعضه ما أجمل في بعض، ويجيب بعضه عما سكت عنه بعضه، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وجماع ذلك قوله تعالى:(**أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا**)[2]، ولما كان من عند الله فمعنى ذلك أن لا اختلاف فيه، لأن الاختلاف نقص، وما كان مصدره الله كانت صفته الكمال.

من هنا كان الفهم الكلي المستوعب لموضوع ما من موضوعات القرآن الكريم يتطلب استقراء الآيات المتحدة في الموضوع، وجمعها وترتيبها حسب تاريخ النزول، وفهمها أولا في إطار أحوال وملابسات نزولها، ثم فهمها في سياقها الموضعي، ثم ضمن سياقها من الموضوع كله.

وهذا المنهج وإن يك جديدا معاصرا، فإن مصادره وجذوره ممتدة إلى زمن النبوة وما بعدها، والتفسير الموضوعي المعاصر يلتمس أصوله فيها ويتغذى منها ويضيف عليها.. وتتلخص هذه الجذور والمصادر فيما يلي:

أولا: تفسيره عليه الصلاة والسلام القرآن بالقرآن، كما فسر الشرك بالظلم جمعا بين آيتين، وكما فسير مفاتح الغيب بقوله تعالى:(**إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدري نفس بأي لأرض تموت إن الله عليم خبير**).[3]

---

[1] نقلا عن: التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق، مرجع سابق، ص 38-39.
[2] النساء، 82 .
[3] لقمان، 34 .

ثانيا: عمل الصحابة الذين كانوا يستوثقون من معاني القرآن فيردون المتشابه إلى المحكم بإعمال النظر الكلي، بخلاف المشركين الذين ذمهم الله في القرآن لمخالفتهم هذا المنهج واتخاذهم القرآن أقساما وأجزاء يأخذون ببعض ويتركون بعضا، كما قال عز وجل:**(كما أنزلنا على المقتسمين الذين جعلوا القرآن عضين)**[1] أي مفرقا يمزقون أجزاءه.

وأشهر ما يذكر في هذا السياق ما سمي بمسائل ابن الأزرق[2] ، وهو الرجل الذي كان يسأل ابن عباس – رضي الله عنهما – عما أختلف عليه من ظواهر القرآن فيما رواه البخاري عن سعيد بن جبير، قال :" **قال رجل لابن عباس : إني أجد في القرآن أشياء تختلف علي، فقد قال الله:(فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون)**[3]**، وقال الله:(فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون)**[4]**... فقال ابن عباس قوله: (فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون) في النفخة الأولى، وقوله: (فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون) في النفخة الثانية..**"[5]**.. الخ**[6]

---

[1] الحجر ،90-91 .

[2] هو نافع ابن الأزرق، ذكره الحافظ ابن حجر في شرحه للأثر المذكور في صلب النص، أنظر: فتح الباري في شرح صحيح البخاري، ج8 ،ص 557.

[3] المؤمنون ، 101.

[4] الصافات ، 50 .

[5] أنظر الأثر بتمامه في صحيح البخاري ، كتاب التفسير ، باب سورة (حم) السجدة.

[6] ذكر الحافظ ابن حجر خلاصة ما وقع من سؤال نافع ابن الأزرق و جواب ابن عباس عنه في أربعة مواضع:الأول: نفي المساءلة يوم القيامة وإثباتها، وأجاب عنه بأن نفي المساءلة فيما قبل النفخة الثانية وإثباتها فيما بعد ذلك.الثاني: كتمان المشركين حالهم، ثم إفشاؤه، وأجاب عنه أنهم يكتمون بألسنتهم، فتنطق أيديهم وجوارحهم.الثالث: خلق السماوات والأرض أيهما كان أولا؟ وأجاب عنه أن الله بدأ خلق الأرض في يومين غير مدحوة، ثم خلق السماء فسواها في يومين، ثم دحا الأرض وجعل فيها الرواسي وغيرها في يومين، فتلك أربعة أيام للأرض.الرابع: الإتيان بحرف (كان) الدال على الماضي، مع أن الصفة لازمة، وأجاب عنه بأن (كان) وإن كانت للماضي لكنها لا تستلزم الانقطاع، بل المراد أن الله لم يزل كذلك.**ونحن لم نورد هذه المسائل اعتقادا منا بانه لا يوجد تفسير غير ما ذكره ابن عباس، كلا، بل في بعض الآيات التي تحدثت عن خلق السماوات والأرض لم يكن السقف المعرفي كاف لشرح المسألة علميا كما نفهمها اليوم من علماء الفيزياء والفلك، لكنني أوردتها دلالة على اهتداء ابن عباس إلى منهج الجمع بين الآيات وتفسير القرآن بالقرآن.**

ثالثا: ما ألفه علماء السلف من تفسير وأبحاث قرآنية مما يمكن أن يعد ممهدا للتفسير الموضوعي، كالمؤلفات التي أفردت في قسم من علوم القرآن وموضوعاته العامة، ومنها على سبيل المثال : الناسخ والمنسوخ لقتادة بن دعامة السدوسي (ت 118هـ)، مجاز القرآن لمعمر بن المثنى (ت 209هـ)، الناسخ والمنسوخ أيضا لأبي عبيد القاسم بن سلام (ت 224هـ)، أسباب النزول لعلي بن المديني (ت 234هـ)، تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة (ت276هـ)، نزهة القلوب في غريب القرآن لأبي بكر السجستاني (ت330هـ)، مجاز القرآن للعز بن عبد السلام (ت 660هـ)، التبيان في أقسام القرآن لابن القيم (ت751هـ)..

وكالتفاسير التي أفردها أصحابها لقسم من موضوعات القرآن العامة توحد بينها الغاية وإن لم تكن متحدة في الموضوع بمعناه الخاص ومنها على سبيل المثال أيضا: أحكام القرآن للجصاص (ت 370هـ)، ومثله لألكيا الهراسي (ت504هـ)، ومثله أيضا للقاضي المالكي أبي بكر بن العربي(ت543هـ).. ولعل ما أسهم في ظهور آيات الأحكام مجتمعة في كتب مفردة خلافا لآيات العقيدة والأخلاق وغيرها، هو الاتجاه الموضوعي الذي سارت فيه الأبحاث الفقهية خلافا للتفاسير التي سار فيها أصحابها على وفق المنهج التحليلي.

رابعا: تعد الدراسات القرآنية الحديثة من أهم المصادر التي تغذي البحث الموضوعي المعاصر، وأذكر منها على سبيل التمثيل: دستور الأخلاق في القرآن لمحمد عبد الله دراز، والظاهرة القرآنية لمالك بن نبي، والوحي المحمدي لمحمد رشيد رضا، والإنسان في القرآن ومعه: المرأة في القرآن والفلسفة القرآنية جميعها لعباس محمود العقاد، والتفسير العلمي للآيات القرآنية لحنفي أحمد، ومشاهد القيامة في القرآن لسيد قطب، وكيف نتعامل مع القرآن لمحمد الغزالي، وكيف نتعامل مع القرآن العظيم ليوسف القرضاوي وظاهرة النفاق في القرآن لعبد الرحمان حبنكة الميداني، وخصائص القرآن الكريم لفهد الرومي، والقرآن العظيم هدايته وإعجازه لمحمد الصادق عرجون، والنسخ في القرآن بين المؤيدين والمعارضين لمحمد محمود ندا، والعودة إلى القرآن لماذا ؟ وكيف ؟ لمجدي الهلالي وغيرها مما نشر من الدراسات.

وللشيخ محمد الغزالي محاولات قيمة في تفسير الموضوعات القرآنية سنفرد لها فصلا لاحقا – بحول الله – لكن لا يفوتنا الإشارة إلى كتابيه القيمين "نظرات في القرآن" و"المحاور الخمسة للقرآن" حيث يقول".. **وهناك معنى آخر للتفسير الموضوعي لم أتعرض له! [يقصد في كتابه : نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم] وهو تتبع المعنى الواحد في طول القرآن وعرضه، وحشده في سياق قريب ومعالجة كثير من القضايا على هذا الأساس.. وقد قدمت نماذج لهذا التفسير في كتابيّ : " المحاور الخمسة للقرآن الكريم " و " نظرات في القرآن."**[1]

ونختار من الأبحاث التي سارت على نهج التفسير الموضوعي لموضوعات القرآن الكريم عرض بحث من أجود وأوضح ما يمثل هذا اللون في رأينا وهو: كتاب: "بناء الإيمان من خلال القرآن" لمجدي الهلالي، ويصلح كأنموذج أيضا كتاب "الصبر في القرآن" ليوسف القرضاوي.[2]

والدراسة الأولى " بناء الإيمان من خلال القرآن "[3]تناول فيها الباحث حديث القرآن عن الإيمان بعيدا عن تقعرات الفلاسفة وتعقيدات المتكلمين، وركز فيها على أسلوب القرآن في عرض قضايا الإيمان، والقضية الأساس التي استهدف الباحث معالجتها هي: سد الفجوة التي تفصل في هذا العصر ما بين العلم والعمل والقول والفعل مما أدى إلى ابتعاد السلوك عما يرضي الله عز وجل.

وقسمها إلى خمسة فصول :

تناول في الفصل الأول: حقيقة الإيمان كما عرضها القرآن، ومن النتائج القرآنية المهمة التي خرج بها، أن الإيمان لا يتعلق فقط بالتصديق الجازم، بل بالمشاعر الباعثة على العمل الصالح، وشرح حديث القرآن عن أهمية الإيمان في كشف عورات النفس وبين أهم ثمراته، وكيف يزداد الإيمان، وأهمية التذكير والذكرى لإيقاظ مشاعر الإيمان.

---

[1] نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم ، محمد الغزالي، دار الشروق ، ط4 ، 2000م ، ص 6 .
[2] وله دراسة أخرى في التفسير الموضوعي لموضوعات القرآن الكريم سماها: العقل والعلم في القرآن الكريم تقع في 300صفحة.
[3] تقع الدراسة (بناء الإيمان من خلال القرآن) في: 160 صفحة، طبعتها مؤسسة اقرأ، بالقاهرة، سنة 2005م.

ثم بين في الفصل الثاني: زيادة الإيمان بالطاعة والعمل الصالح، وبين – من خلال جمع الآيات القرآنية – الجدلية التي تجعل الشعور الإيماني يقوى بالأعمال الصالحات، والأعمال التي تقوِّي الشعور الإيماني، وأن الموقف يقتضي أحيانا هذا وأحيانا ذاك.

ثم بين في الفصل الثالث: طريقة القرآن في تقوية الإيمان وزيادته والاستعدادات المطلوبة للاستفادة مما يشحذ القرآن به النفوس من حياة، وجني ثمراته الإيمانية، من الانشغال به عند التلاوة والتدبر لا عنه، ومن التهيئة الذهنية والقلبية، وتحسين الصوت بالقراءة، وتدبر معاني الآيات، والاكتفاء بالإجمالي منها، وترديدها لإحداث الأثر المطلوب في النفس.

ثم تناول في الفصل الرابع: كيفية بناء الإيمان من خلال القرآن، من بناء العقيدة وربطها بالحياة العامة.

وقدم في الفصل الخامس: نماذج تتعلق بكيفية بناء الإيمان من خلال القرآن الكريم.

وقد بقي الباحث مع القرآن الكريم ومع موضوعه لم يبرحه من أول بحثه إلى آخره، فقدم نموذجا طيبا وإن كانت دراسته مختصرة جدا، فجزاه الله خيرا على ما قدم.

وتجدر الإشارة إلى الخطوات التي تمثل طريقة البحث – كما ارتآها علماء التفسير الموضوعي – لتناول موضوع قرآني ما، وقد ذكرها – في عناصر– السيد الكومي، ونقلها عنه زاهر بن عواض الألمعي، كما ذكرها عبد الحي الفرماوي، وعبد الستار فتح الله سعيد، ومصطفى مسلم، وصلاح عبد الفتاح الخالدي، مع اختلاف يسير بينهم، واستفادة اللاحق منهم بما كتبه السابق، ويتلخص ما ذكروه في النقاط الآتية: [1]

1– أن يكون الباحث على دراية كافية بالمعنى الخاص للتفسير الموضوعي الذي يريد دراسة الموضوع على وفقه ، ويكون مستوعبا لحدداته وضوابطه المنهجية .

---

[1] أنظر على الترتيب : دراسات في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، زاهر عواض الألمعي ، ط1، 1405هـ ، ص 22-23 . البداية في التفسير الموضوعي، عبد الحي الفرماوي، ط2، 1977م، ص 61-62. المدخل إلى التفسير الموضوعي ، ص 56-66 مباحث في التفسير الموضوعي ، ص 37-39 . التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق ، ص 70-72 .

2- أن يحدد الموضوع القرآني الذي يريد بحثه تحديدا واضحا منضبطا، معرّفا بمعالمه وحدوده وأبعاده كما تشير إليها الآيات القرآنية، ومبينا الأسباب والدوافع التي توضح الحاجة إلى الموضوع وأهميته والفائدة المرجوة من معالجته.

3- أن يختار لبحثه عنوانا متناسبا مع فن التفسير، كأن يكون العنوان من ألفاظ القرآن ذاته أو من صميم معانيه ، فلا يجوز مثلا أن يترك لفظ "الشورى" القرآني إلى عنوان " الديموقراطية في القرآن "، ولا ينبغي للباحث أن ينخدع بالقول إن العبرة بالمعاني لا بالمباني ، فذلك ليس على إطلاقه خاصة بالنسبة للقرآن، لأن ألفاظ القرآن ومبانيه مقصودة لذاتها ، كما يحرص الباحث أن يكون عنوانه جامعا لكافة عناصر الموضوع.

4- أن يعمد إلى الاستقراء فيجمع الآيات الكريمة التي تتحدث عن الموضوع أو تشير إلى جانب من جوانبه، ثم يصنفها من حيث مكيها ومدنيها، ويرتبها حسب زمن نزولها ما أمكنه ذلك، ويستعين في ذلك كله بما يحفظ من القرآن في صدره، وبالمصحف، وبالمعاجم المفهرسة لألفاظ القرآن الكريم وموضوعاته، وكذا بكتب علوم القرآن. وكلما كان الباحث بارعا في الحفظ والاستيعاب، صادقا في الإقبال على كتاب الله والعيش معه، كلما كان أكثر توفيقا في ترتيب الآيات ووضع المعاني في مواضعها.

5- الاستعانة في التفسير بأمهات كتب التفسير التحليلي من أجل فهم الآيات في مواضعها، ومعرفة أحوالها من جهة أسباب النزول، والتدرج في التشريع، والعموم والخصوص، ومعرفة دلالات الألفاظ في الجملة وبين الجمل في الآية وبين الآيات في المقطع الذي يتحدث عن الموضوع، أي معرفة السياق الموضعي. كما يستعين الباحث في تفسيره أيضا بالأحاديث النبوية الصحيحة، ويستأنس بأقوال السلف متخيرا ما يخدم الموضوع، ويستعين كذلك بالدراسات والأبحاث القرآنية المعاصرة.

6- بناء تصور كلي للموضوع وتقسيمه إلى عناصر مترابطة ينتزعها الباحث من الآيات ذاتها أو من معانيها، ويستنبط العناصر من التوجيهات القرآنية، ويرد الآيات إلى عناصرها ومواضعها من البناء الكلي للموضوع.

7- التقيد بقواعد التفسير الموضوعي وضوابطه العلمية، فيسير الباحث على وفق التفسير الكلي الموجز من غير تكلف أو استطراد لغوي أو فقهي أو بلاغي يجره إلى جزئيات قد تضعف من البناء الكلي لموضوعه أو تبعثره.

8- بيان الأبعاد المعاصرة للآيات القرآنية والالتفات إلى ما تتضمنه من إشارات وإيحاءات مرتبطة بحاجات ومشكلات العصر الحاضر، ومحاولة حل المشكلات المعاصرة على ضوئها، واستخلاص الدلالات والعبر واللطائف من الآيات المجموعة، مع التركيز على الدلالات ذات البعد الاجتماعي والإنساني، أو بيان فوائد القرآن الكريم المنهجية والأخلاقية وإظهار مواطن الإعجاز فيه، إذا كانت الدراسة من قبيل الموضوعات الكونية.

مع الملاحظة أن هذه الخطوات قد تختلف قليلا أو كثيرا حسب طبيعة الموضوع، لأن الموضوع الذي ينبع من مستجدات الواقع، فيريد الباحث معرفة موقف القرآن الكريم منه، يقتضي حصر الأسئلة وتوضيح الإشكال، وعرض التجربة البشرية الناقصة – فكرية كانت أم تاريخية – على آيات القرآن، متوخيا تصحيح ما درج عليه الناس من الخطأ في تجارب حياتهم.

أما الموضوعات التي تنطلق من القرآن فتبدأ باستقراء الآيات وترتيبها حسب النزول .. الخ – مما سبق ذكره وبيانه – فلا تتطلب حضور إشكال من خارج النص القرآني، أو عرض تجربة بشرية عليه.

ذلك أن الدراسات التي يضمها التفسير الموضوعي للموضوعات القرآنية – حسب ما بينته هذه الدراسة في المطلب السابق – تكون إما منطلقة من أسئلة الواقع لتصب في هدايات القرآن (الموضوعات الواردة على القرآن)، أو منطلقة من النص القرآني لتصحيح اعوجاج الواقع (الموضوعات الصادرة عن القرآن) ، فهاهنا حركتان مختلفتان: من النص

إلى الواقع، ومن الواقع إلى النص. ولكل حركة متطلباتها المنهجية، ولم أر أحدا من الأساتذة الأفاضل أشار إلى هذه الملاحظة المهمة التي ذكرتها على أهميتها.

المطلب الثالث

السورة القرآنية وحدة موضوعية

إن المقصود بهذا النوع من التفسير هو أن يختار الباحث سورة من القرآن الكريم، وينظر فيها نظرة كلية متدبرة، ويقف مع آياتها وقفة مطولة، ويتعرف على موضوع السورة ومقاصدها وأهدافها، وعلى الخطوط الرئيسة التي تجمع مختلف موضوعاتها الفرعية، ويخرج من ذلك بتحليل موضوعي موسع، تبدو فيه السورة وحدة متناسقة. [1]

ويشبِّه أحد الباحثين تفسير السورة بوصفها موضوعا واحدا بتفسير الموضوع الواحد من خلال القرآن الكريم، غير أن دائرته أضيق، حيث يبحث المفسر عن الهدف الأساسي في السورة الواحدة، ويكون هذا الهدف هو محور التفسير الموضوعي في السورة. [2]

وفي هذا التشبيه نوع من التجوز، لأن أساس الرؤية التي ينطلق منها تفسير موضوع من خلال القرآن الكريم هي استقراء واستقصاء جوانب الموضوع كما تناوله القرآن الكريم في مختلف الأحوال والمناسبات ومن جميع الزوايا، وكذا الإيمان بأن القرآن يعضد بعضه بعضا فلا اختلاف فيه ولا تعارض، وهذا الأمر محل اتفاق – كما سبق الذكر– ولا يقوم على أساس استقلال السورة بموضوع واحد رئيس، بينما ينبني التفسير الموضوعي للسورة من القرآن على تصور أن "**كل سورة من القرآن تعتبر وحدة موضوعية موحّدة ولها شخصية فريدة خاصة، تعالج موضوعا رئيسيا أساسيا، تندرج معه عدة موضوعات جزئية فردية.** "[3] فالنوعان مختلفان كما أوضحت سابقا.

وطريقة البحث في هذا اللون من التفسير – عند القائلين به – هو أن يستوعب الباحث هدف السورة الأساس أو محاورها الرئيسة، ثم يبحث عن سبب النزول لآيات السورة أو الآيات التي عرضت الموضوع الأساس فيها، ثم ينظر إلى ترتيب نزول السورة

---

[1] التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق، صلاح عبد الفتاح الخالدي، ص56.
[2] مباحث في التفسير الموضوعي، مصطفى مسلم، ص28.
[3] التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق، ص56.

من بين السور المكية والمدنية، ثم يدرس الأساليب القرآنية في عرض الموضوع والمناسبات بين مقاطع الآيات في السورة، ومن ثم سوف يجد أن لكل سورة شخصيتها المستقلة وأهدافها الأساسية، ويستعين لتأكيد هذا المعنى بما هو معلوم من كون السور المكية – مثلا – قد عرضت أسس العقيدة الإسلامية، من الألوهية والرسالة والبعث، وما اشتملت عليه من أصول الأخلاق، فيكون الموضوع الرئيس لأي سورة مكية مندرجا تحت أحد هذه الموضوعات.[1] ذات الطبيعة الكلية والعامة عقدية كانت أم تربوية.

وهذا النوع من التفسير يجد أصوله في التفاسير التي اعتمدت المناسبات بين الآي والسور، كتفسير الكشاف للإمام الزمخشري، والتفسير الكبير للإمام فخر الدين الرازي الذي أكثر منه وقال "**أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط**"[2]، وكذا الإمام النيسابوري الذي برع في إيراد المناسبات بين الآية والآية والسورة والسورة وكان أول من أظهر علم المناسبة ببغداد[3]، ومن هذا القبيل ما كتبه عبد الحميد الفراهي في كتابه " نظام القرآن".

ولعل أكثر المفسرين القدامى اهتماما بهذا النوع من التفسير وخوضا فيه، هو الإمام برهان الدين البقاعي صاحب تفسير" نظم الدرر في تناسب الآي والسور"، والذي اختصره في كتابه "مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور"، ولعله كان متأثرا في ذلك بشيخه – المشدالي المغربي – حيث يقول في مخطوطه الحافل "نظم الدرر" : " **وقال شيخنا أبو الفضل محمد بن محمد المشدالي المغربي: الأمر الكلي المفيد لعرفان مناسبات الآيات في جميع القرآن هو أنك تنظر الغرض الذي سيقت له هذه السورة، وتنظر ما يحتاج إليه هذا الغرض من مقدمات، وتنظر إلى مراتب تلك المقدمات في القرب والبعد من المطلوب، وتنظر انجرار الكلام في المقدمات إلى ما تستتبعه من استشراف نفس السامع إلى الأحكام واللوازم التابعة له التي تقضي البلاغة شفاء الغليل بدفع عناء الاستشراف إلى الوقوف عليها، فهذا هو الأمر الكلي المهيمن على حكم**

---

[1] مباحث في التفسير الموضوعي، ص29.
[2] أنظر: البرهان، للزركشي، ج1، ص36.
[3] المصدر نفسه، ج1، ص37.

الربط بين جميع أجزاء القرآن، فإذا فعلته تبين لك – إن شاء الله – وجه النظم مفصلا بين كل آية في كل سورة."[1]

لكن الفرق الحاسم بين منهج البقاعي وغيره من المفسرين الذين سبق ذكرهم هو أنهم أخذوا على أنفسهم إيضاح الصلات الظاهرة والقريبة – إلى حد ما – بين الآيات القرآنية، وبرعوا في ذلك بنوع من التأويل. والربط الذي برعوا فيه كان ربطا جزئيا ينظر إلى الآية المجاورة دون أن يحدد هدفا واحدا للسورة يربط كل آياتها، كما هو الحال في التنظير والتطبيق عند البقاعي، وقد وجدتْ فكرتُه "**من يحاول تنفيدها في عصرنا الراهن، وإن فكرة تمتد من عهد صاحبها إلى ما وليه من العهود لجديرة بالنقاش والتحليل لاسيما إذا كان بين من أخذوا على أنفسهم تطبيقها أساتدة يقولون فيُسمَعون**"[2]، ومن طريقهم أخذ هذا النوع من التفسير مداه في الفترة المعاصرة، وفاق فيه المفسرون المعاصرون بعض المفسرين السابقين، لأن السابقين كان لهم "**بعض استشراف لهذا اللون من التفسير الموضوعي، وإدراك للوحدة الموضوعية للسورة القرآنية، ولهم بعض التحليلات والتعبيرات حول هذا الموضوع، لكن لم يبحثوا الموضوع بمنهجية علمية.** "[3]

ومن أظهر المفسرين الذين برعوا في القول بالوحدة الموضوعية للسورة القرآنية في عصرنا الحالي، الشيخ محمد عبد الله دراز في كتابه الفريد – النبأ العظيم – الذي طبق فيه الوحدة الموضوعية على سورة البقرة[4] وقد قال معبرا عن وحدة معاني الآيات في السورة الواحدة " **إنها لتلتحم فيها كما تلتحم الأعضاء في جسم الإنسان، فبين كل قطعة وجارتها رباط موضعي من أنفسهما، كما يلتقي العظمان عند المفصل، ومن فوقهما تشد شبكة من الوشائج تحيط بهما عن كثب كما يشتبك العضوان بالشرايين والعروق والأعصاب ومن وراء ذلك كله يسري في جملة السورة اتجاه معين، وتؤدي بمجموعها**

---

[1] نقلا عن البيان القرآني، محمد رجب البيومي، الدار المصرية اللبنانية، ط2، 2005، ص135.

[2] المرجع السابق، ص135.

[3] التفسير الموضوعي بين التظرية والتطبيق، ص56.

[4] أنظر :النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم، محمد عبد الله دراز، دار القلم، القاهرة، ط10، 2008م، فصل: الكثرة والوحدة، ص 176 وما بعدها.

غرضا خاصا، كما يأخذ الجسم قواما واحدا، ويتعاون بجملته على أداء غرض واحد، مع اختلاف وظائفه العضوية. "[1]

ومنهم سيد قطب في تفسيره " في ظلال القرآن "، لاسيما الطبعة المنقحة من الظلال التي وصل فيها إلى نهاية سورة الحجر، وقد عبر عن هذه الوحدة في أكثر من موضع، يقول – على سبيل المثال – " **يلحظ من يعيش في ظلال القرآن أن لكل سورة شخصية مميزة، شخصية لها روح يعيش معها القلب، كما لو كان يعيش مع روح حي مميز الملامح والسمات والأنفاس، ولها محور خاص، ولها جو يظلل موضوعاتها كلها، ويجعل سياقاها يتناول هذه الموضوعات من جوانب معينة تحقق التناسق وفق هذا الجو."**[2]

ومن الدراسات الحديثة في هذا الشأن ما كتبه ابراهيم زيد الكيلاني – مستفيدا من منهج سيد قطب – عن " تصور الألوهية كما تعرضه سورة الأنعام "، و" معركة النبوة مع المشركين "، ومنها أيضا كتاب" الوحدة الموضوعية في سورة يوسف " لمحمد حسن باجودة، و" تفسير سورة الحجرات " لناصر العمر.

وللشيخ محمد الغزالي تفسيرا موضوعيا لسور القرآن الكريم سماه "**نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم**" يقع في 552 صفحة، جمع فيه سور القرآن كله، وهذا التفسير على اختصاره – الذي كان مرادا لديه – جليل النفع، وقد تأسى في ذلك بالشيخ محمد عبد الله دراز، عندما تناول سورة البقرة وهي أطول سورة في القرآن فجعل منها باقة واحدة ملونة نضيدة. [3]

وجدير بالذكر أن هذا اللون من التفسير – خلافا للون السابق – ليس محل اتفاق بين العلماء والباحثين، فنجد عبد الستار فتح الله سعيد لا يعُد الوحدة موضوعية للسورة من التفسير الموضوعي، وينبه إلى عدم الخلط بين منهج التفسير الموضوعي الذي يجمع الآيات القرآنية لموضوع واحد ويدرسه بمنظار كلي وبين ما يسمى بالنظام في القرآن، أو

---

[1] المرجع السابق، ص 188.
[2] في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق القاهرة، ج1، ص 28 .
[3] أنظر: نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم، محمد الغزالي ، ص5.

الوحدة الموضوعية في سور القرآن الكريم، أو التفسير الموضوعي بمعناه العام أو علم المناسبات، لأن هذه الجوانب مع جلالتها وأهميتها، خارجة عن مصطلح التفسير الموضوعي[1]، وفي موضع آخر يقول:" **وقد عد بعض العلماء في هذا النوع ما يسمى بالوحدة الموضوعية، في القرآن كله أو في سورة منه، بأن يجعل المفسر للسورة هدفا ينتزعه من ملاحظة معانيها، ثم ينزل الآيات المتعددة في السورة لتحقيق هذا الهدف، وأرى – والله أعلم – أن هذا الضرب من الدراسات لا يدخل في التفسير الموضوعي لأن موضوعه وهو هدف السورة المتعددة الآيات أمر التماسي اجتهادي تختلف فيه الأنظار، فكيف تصنف الآيات في السورة على هدف مختلف على تحديده ؟ وكيف يقوم التفسير على الاحتمال؟ مع أن الأصل في التفسير الموضوعي أن يقوم على أساس النصوص ذاتها، أو معانيها المتحققة.**"[2]

ولعل أصل الخلاف حول قضية " الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية " كان مرتكزا على الخلاف حول الإجابة عن السؤال الآتي: هل ما يظهر من انتقال الآيات في السورة الواحدة بين موضوعات شتى من العقيدة والأخلاق ووصف مظاهر الكون وبيان أحكام التشريع..الخ، وانتقاله في الأسلوب من تقرير الحكم إلى الوعظ إلى القصص إلى الأمثال..الخ، يقتضي التفكك في الكلام وبالتالي يعد عيبا ينبغي تنزيه كلام الله عنه، ومن ثم يجب القول بوجود صلات – ظاهرة أو خفية – تشد آيات السورة الواحدة كما يشد العقد حباته حول الرقبة؟ وعلى المفسر اكتشافها، ليصل إلى الموضوع الرئيس والغرض الأساس للسورة ؟ أم أن ذلك لا يعد عيبا، بل كمالا، فلا داعي للتأويل والتكلف وتجشم عناء البحث في هذا الطريق الصعب؟

ونجد جذور هذا الخلاف عند القدامى قبل المعاصرين، فأما الذين حاولوا ربط الآيات وتوحيد الموضوعات – بصفة كلية أو جزئية – فقد سبق ذكر بعضهم من أمثال الفخر الرازي وأبو بكر النيسابوري وبرهان الدين البقاعي وغيرهم، وأما الذين لم يروا هذا الربط ضروريا فمنهم العز بن عبد السلام وإن رآه علما حسنا فيما اتحد من الكلام لا غير

1 المدخل إلى التفسير الموضوعي، ص 57-58.
2 المرجع السابق، ص 25.

قال: " **المناسبة علم حسن ولكن يشترط في حسن ارتباط الكلام أن يقع في أمر متحد مرتبط أوله بآخره، فإن وقع على أسباب مختلفة لم يشترط فيه ارتباط أحدهما بالآخر**"[1] ثم قال "**فإن وقع على أسباب مختلفة لم يقع فيه ارتباط ، ومن ربط ذلك فهو متكلف بما لا يقدر عليه إلا بربط ركيك، يصان عن مثله حسن الحديث ، فضلا عن أحسنه ، فإن القرآن نزل في نيف وعشرين سنة في أحكام مختلفة، شرعت لأسباب مختلفة ، وما كان كذلك لا يتأتى ربط بعضه ببعض**"[2].

والخلاف القديم نفسه عاد ليدور بين المعاصرين خاصة مع بروز شبهات المستشرقين واتهاماتهم التي وصفوا فيها القرآن بأنه " **كتاب لم يأت على نسق الكتب الموضوعية، إذ ليست له مقدمة وليست فيه مباحث موضوعية مرتبة لها مقاصد وأغراض في فصول وأبواب، وإنما كان القرآن مشتملا على عدة سور، كل سورة منه احتوت على آيات متعددة،كل آية في غرض ، فهذه للوعظ ، وتلك للزجر،وهذه قصة،وأخرى لحكم من الأحكام،وأخرى لوصف الجنة أو النار،وهكذا لا تجد رابطا يربط بين الآيات،ولا تجد غرضا جامعا يجمع الشتات** "[3].

وقام العلماء المعاصرون يردون على هذه الشبهة، فكانوا بذلك فريقين :

أولا: مؤيدوا الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية

يقولون بوحدة الموضوع في السورة وأن لها مقدمة وخاتمة ومحورا تدور عليه، وشخصية مستقلة تميزها عن غيرها من السور، وتجمع بين كل آية من آياتها مناسبة خاصة، سواء عرفت بيسر أم دقت عن الأفهام، كما بين كل سورة وما يسبقها أو يلحقها من السور مناسبة ما، وهذا الفريق هو المؤيد للتفسير الموضوعي للسورة القرآنية.

ولعل أول من أثار هذا الموضوع بشكل منهجي علمي في الفترة المعاصرة هو الدكتور محمد محمود حجازي في كتابه "الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم" وأصل دراسته رسالة علمية تقدَّم بها إلى كلية أصول الدين لينال درجة الدكتوراه فأثارت جدلا في

---

[1] البرهان في علوم القرآن، ج1، ص37.
[2] البرهان في علوم القرآن، وراجع أيضا: الوحدة الموضوعية في القرآن ، محمد محمود حجازي، ص 14.
[3] المرجع نفسه، ص13.

الأزهر الشريف بين مؤيد ومعارض قبل أن تناقش سنة 1967م، ثم طبعت في كتاب مستقل.

وخلاصة رأيه أن ترتيب الآيات والسور توقيفي[1]، وعلى هذا الأساس ينبغي أن يكون له أسرار وحكم وإن خفيت عن البعض، لاسيما وأن ترتيب المصحف على خلاف ترتيب النزول، ومن ثَمّ فإن القرآن وإن كان يجِلُّ عن مشابهته لكتب البشر، فإننا نجد فيه ما يشبه المقدمة، إذ فاتحة الكتاب – كما يقول –: "**بالنسبة للقرآن تعتبر كالمقدمة بل هي أروع المقدمات حيث اشتملت على أغراض القرآن الكريم جملة..**"[2]

وهذه الرؤية تجعل في القرآن مقدمة وخاتمة وصلب موضوع، وهو ما يعرف بـ : "الوحدة الموضوعية في القرآن"، كما تجعل من آيات السورة الواحدة مقدمة وخاتمة وموضوعا أساسا، وهو ما يعرف بـ :" الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية ".

ولهذا الإتجاه فوائده ومآخده

1- **فوائد القول بوحدة موضوع السورة** : فتتمثل في مراعاة هذا التفسير للنسق الداخلي للسورة القرآنية، وقراءتها قراءة كلية واعية، والالتماس الذكي للمعاني الدقيقة التي تربط بين الآيات بعضها وبعض، ومراعاة سياق الآيات داخل السورة ووجهتها في معالجة الموضوع والسير مع غرضها من تلك المعالجة، فمثلا إذا لاحظ المفسر أن سورة (نوح) عليه السلام، هدفها الأساسي إظهار جانب دعوة نوح وموقف قومه من الدعوة، فليس من المناسب عندما يعرض هذا الموضوع من خلال سورة نوح أن يتعرض بشكل مفصل للحوار الذي جرى بين نوح وابنه، ولا أن يتعرض لما حدث من أمور كونية في إهلاك القوم كما عرضتها سورة (هود) وسورة (المؤمنون) وغيرهما، لكن من المناسب جدا أن

---

[1] بين العلماء اتفاق على أن ترتيب الآيات توقيفي ضمن السورة الواحدة، لذا فالوحدة الموضوعية للسورة القرآنية قول وجيه أدعى إلى القبول، بينما اختلفوا في الترتيب التوقيفي للسور على ثلاثة مذاهب: أنه اجتهادي وهو ضعيف، أن بعضه توقيفي والآخر اجتهادي، أنه توقيفي وهذا ما رجح لدي. أنظر تفصيل هذه المذاهب في: التحرير والتنوير، المقدمة الثامنة، ص79 وما يليها، وراجع ما كتبناه من المناقشة والترجيح عند حديثنا عن علم المناسبات في هذه الدراسة.

[2] المرجع السابق، ص15.

يذكر ما يتعلق بالحوار والأساليب الجدلية التي اتبعها القوم كما ذكرتها السورة نفسها، هكذا فإن لكل سورة هدفها وشخصيتها وأسلوبها في عرض القضايا فينبغي عدم طمس هذه المعالم للسورة بحشر تفصيلات تاريخية أو قصصية أو بلاغية فيها على حساب الهدف الأساسي، ومثل ذلك ذكْر فرعون وثمود في سورة (البروج) فإنه جاء عرضا في سياق الاستدلال بمصيرهم على أن الغلبة لجند الله، أما المحور الذي تدور عليه السورة فهو الصراع بين أهل الإيمان وأهل الطغيان وبيان أن الغلبة في النهاية لأهل الإيمان، وهذا الهدف لا يتناسب مع سرد تفصيلات في أمر فرعون وما جرى بينه وبين موسى عليه السلام وكيف تبع بني إسرائيل ثم كان مصيره الغرق..[1] وأكثر القصص في القرآن موزع على مشاهد تتسق تماما مع أغرض السور التي ذكرت فيها، وهذه مسألة مهمة حتى بالنسبة لتفسير الموضوعات، فملاحظة غرض مشهد من القصة في السورة التي ورد فيها يسهم في فهم موضوع القصة ككل، بل قد يختلف الأسلوب القرآني في رواية المشهد نفسه من سورة إلى أخرى انسجاما مع روح السورة وغرضها.

2- **مآخذ القول بوحدة موضوع السورة:** تتمثل في الاعتساف والتكلف الذي يبدو في عمل بعض المفسرين جريا وراء توحيد الموضوعات المختلفة والأغراض المتعددة داخل السورة الواحدة، إذ الموضوعات والأغراض – تعددت أم توحدت – ينبغي أن تكون ظاهرة قريبة المنال لا تحتاج في بيانها إلى عمل متكلف قد يسيء إلى القرآن الكريم، فمن السور ما جاء في موضوع واحد كسورة (الفيل) مثلا ومنها – وخاصة الطوال- ما جمع أكثر من موضوع وأكثر من أسلوب وأكثر من غرض.

كما أن القول بوحدة الموضوع بالنسبة لكل السور يفتح الباب للاختلاف حول تحديد الموضوع الرئيسي للسورة والموضوعات الفرعية، لأنه قائم على الاحتمال خاصة في

---

[1] انظر: مباحث في التفسير الموضوعي، مرجع سابق، ص50-51.

السور الطويلة، ومن الأمثلة الجيدة على هذا الأمر ما تناوله الدكتور محمد عبد الله دراز في كتابه القيم: "النبأ العظيم" من تفسير سورة البقرة على أساس وحدة الموضوع، فجعل مقدمتها في التعريف بشأن القرآن وبيان أن ما فيه من الهداية قد بلغ حدا من الوضوح لا يتردد فيه قلب سليم، وإنما يعرض عنه من لا قلب له أو كان في قلبه مرض، وحدد المقصد الأول بدعوة الناس كافة إلى اعتناق الإسلام، والمقصد الثاني بدعوة أهل الكتاب خاصة إلى ترك باطلهم والدخول في الدين الحق، والمقصد الثالث بعرض شرائع هذا الدين تفصيلا، والمقصد الرابع بذكر الوازع والنازع الديني الذي يحمل على ملازمة تلك الشرائع وينهى عن مخالفتها، أما الخاتمة فكانت في التعريف بالذين استجابوا لهذه الدعوة الشاملة لتلك المقاصد، وبيان ما يرجى لهم في آجلهم وعاجلهم.[1]

ولا يخفي قارئ منصف إعجابه بهذه الدراسة الذكية النافعة التي جعلت لأطول سورة في القرآن مقدمة هادفة ونتيجة لازمة، ولا يشك في الجهد المخلص الذي بذله الشيخ في قضية يؤمن بها، لكن مع هذا كما يقول الدكتور رجب البيومي:" **نحن في حل من أن نقول إن محاولة هذا التحديد الجامع لهذه العناصر لم تكن موضع اتفاق بين الدارسين، إذ أنها تجاهلت عناصر أخرى جاءت بها سورة البقرة دون أن يطمئن دارس محايد إلى اندراجها فيما حدد الأستاذ من المقاصد إلا بتكلف كبير، وقد أتاح الدكتور بذلك لكل مبتدئ أن يعمد إلى سورة من السور الكريمة، فيختار بعض عناصرها المتقاربة، ويهمل ما لا سبيل إلى انضمامه ثم يخرج على الناس برأي يهتف بوحدة الموضوع في السورة القرآنية! إن الرجل الكبير قد صدر عن نظر مخلص واعتقاد نزيه ولن يعدم جزاءه الأوفى عند الله.**"[2]

ويقارن هذا الباحث بين عمل الأستاذ محمد عبد الله دراز في سورة البقرة مع ما قام به الأستاذ عبد المتعالي الصعيدي في كتابه" النظم الفني في القرآن " ويعلق على ذلك بالقول:" **فإننا نقدم للقارئ ما أثبته الأستاذ الصعيدي لسورة البقرة من العناصر لنرى كيف اختلف الأستاذان في التطبيق اختلافا يدل على أن اتجاههما التطبيقي لا يستند**

---

[1] أنظر النبأ العظيم، محمد عبد الله دراز، ص 196- 197 .

[2] البيان القرآني، مرجع سابق، ص 143.

إلى أصول موضوعية قدر ما يستند إلى استنتاج ذاتي بحت وفي هذا الاختلاف على يسره ما يؤيد رأينا في تجنيب القرآن أمثال هذه التكلفات الذكية ذات الجهد والإجهاد."[1]، لكن مع هذا نقول: إنه اختلاف في التفسير لا ضير فيه، فمازال القرآن واحد وتفاسير الناس مختلفة منذ نشأة التفسير ومازال بعض التفسير أجود من بعض، وإذا عمد أحد المبتدئين أو المغرضين إلى النظر الانتقائي في السورة الواحدة فيأخذ منها ويدع، فكذلك الحال في تفسير الآية الواحدة أو في التفسير التحليلي يمكن حمل الآيات على غير محملها، والأمر هنا لا يطعن في منهج التفسير بقدر ما يرجع إلى الهوى والجهل وعدم التزام خطوات المنهج والشروط العلمية لقبول التفسير.

ثانيا: الرافضون لوحدة موضوع السورة :

من أجل هذه الملاحظات اتجه هذا الفريق إلى القول إنه لا يسيء إلى القرآن الكريم انتقاله من موضوع إلى موضوع ومن غرض إلى آخر ، فوحدة الموضوع والغرض مطلوبة في كلام البشر وكلام الله أجل وأعلى من ذلك ، كما قال الأستاذ فريد وجدي " **إنه لا شيء في عدم مراعاة القرآن قاعدة الكتابة البشرية، لأنه لو كان على مثال الكتب الوضعية في الترتيب والتبويب، لكان كتابا وضعيا لا سماويا، فالترتيب يقتصر سلطانه على كلام البشر، ويجل عنه كلام الله ، كما يجل البحر عن أن يحد بما تحد به الجداول** "[2].

ويرى العلامة رشيد رضا أنه لو جمع كتابُ الله عقائد الإسلام من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وما فيه من الحساب والجزاء .. مرتبة في ثلاث أو أربع سور كما هو شأن كتب العقائد المدونة ، ولو فعل ذلك مع العبادات من الطهارة والصلاة والزكاة والحج .. فجمعها في بضع سور أيضا ، ولو أن آداب الإسلام وفضائله أفردت في عشر سور مثلا .. لو أن كل ما ذكر وما لم يذكر من مقاصد القرآن جمع كل نوع منها وحده **لفقد القرآن بذلك أعظم مزايا هويته المقصودة بالقصد الأول من التشريع وحكمة التنزيل ، وهو التعبد به واستفادة من يحفظ منه قليلا أو كثيرا من مسائل الإيمان**

[1] المرجع السابق ، ص 144

[2] الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم، مرجع سابق، ص14.

والفضائل المنبثة في جميع سوره، ولفقد أعظم مزايا هدايته وهو مزج مقاصده بعضها ببعض وتفريقها في السور الكثيرة بالمناسبات المختلفة وتكرارها بالعبارات البليغة المؤثرة في القلوب، المحركة للشعور النافية للسآمة والملل..[1]

كما لاحظ هذا الفريق أن الشبهات التي أثارها المستشرقون متأتية من قراءتهم الترجمات الحرفية لنصوص القرآن والتي تجعل كلام الله بعيدا عن روحه البلاغي الآسر، بحيث تصبح الترجمة أمشاجا من المعاني مبتوتة الصلة حائرة المكان فيرى من يجهل لغة العرب من ذلك ما يدفعه إلى النقد المجازف.. إنهم يتورطون في القول بتفكك أغراض القرآن وضعف ترتيبه، لقراءتهم الترجمات التي تغفل روح النص القرآني ولا تستطيع أن تدلي بأقرب الصور لإعجازه البليغ[2] ولظنهم أن أي كتاب لا يبلغ مرتبة الطريقة المثلى في القول إلا إذا جمع مواد الموضوع الواحد في باب معين كما تقوم الكتب البشرية بذلك ، وهو قياس باطل لكلام الله على كلام البشر.

وشتان بين قول المستشرقين هذا وبين ما يراه هذا الفريق الأخير- المتذوق للبيان العربي - من أن المعجز حقا في كلام الله هو هذا الانتقال من خلال موضوعات عدة وأغراض شتى دون أن يشعر القارئ في السورة القصيرة أو الطويلة بأي خلل أو ثغرة، فإن إشراقات الوحي تتسلط على مسارب العقول فلا يجد تاليه محيصا من الإذعان إليه، وهذا ما سماه الرافعي "بروح التركيب الجامع" وهو سر الإعجاز والإحكام في بلاغة القرآن، وهذا الذي اهتدى إليه الرافعي:" **من روح التركيب الجامع لروعة الذكر قد غاب عن سواه ، حين رأى القرآن ينتقل من غرض إلى غرض دون أن يقتصر على موضوع واحد ، فأخذ يلتمس الوسائل البعيدة والقريبة في عقد الصلات بين المعاني المتجاورة ، وقد يحالفه التوفيق في بعض ما يحاول من هذا الربط ، لكن الطابع العام للسياق القرآني لا يأخذ بناصره".[3]**

[1] الوحي المحمدي، محمد رشيد رضا، ص 123 باختصار وتصرف.
[2] أنظر: البيان القرآني، مرجع سابق، ص 136 وما بعدها
[3] المرجع السابق، ص 133.

3- **خلاصة:** بعد أن عرضنا رأي الفريقين يمكن القول إن هذا الفريق الأخير قد غلب على نظره روعة القرآن وإحكامه من جهة الأسلوب والبلاغة والمبنى، وحاول الفريق الثاني استكشاف روعة القرآن وإحكامه من جهة المعاني الدقيقة التي تربط وشائج الآيات داخل السورة الواحدة .

وكذا فقد تبين لنا أن التفسير الموضوعي للسورة القرآنية هو محل خلاف بين علماء التفسير وإن لم يخل من فائدة، ولعل هذه الفائدة تكون أعظم كلما تجنب المفسر التكلف والإصرار على القول بالموضوع الواحد والغرض الواحد خاصة إذا كان ذلك على التفصيل لا العموم، والمطلوب توسيع النظر في ذلك وجعل السورة حاكمة عليه، فينجذب المفسر إلى جو السورة وسياقها بدل أن يحاكمها إلى قناعاته ومنطق عقله، فبقدر ما يفعل ذلك يكون من القرآن وروحه ومعانيه أقرب وعن الزيغ أبعد والله وأعلم.

وقد عرض بعض الدارسين الخطوات التي يجدر بالباحث في هذا النوع من التفسير ملاحظتها، ألخصها في نقاط على النحو الآتي:

1- التقديم بين يدي السورة بتمهيد يذكر فيه المفسر أمورا تتعلق بالسورة، من ذكر أسباب النزول ، والمرحلة التي نزلت فيها السورة، أهي مكية متقدمة أو متوسطة أو متأخرة، أم هي مدنية متقدمة أو متأخرة، وذكر ما ورد في السورة من أحاديث صحيحة تحدد أسماءها التوقيفية، أو تذكر خصائصها أو فضائلها ، ومحاولة ربط الأسماء التوقيفية أو الاجتهادية التي أطلقها علماء السلف على بعض السور بموضوع السورة ، وبيان موضع الجو الذي نزلت فيه من مراحل الدعوة الإسلامية واستنباط دلالة ذلك .

2- محاولة التعرف على الهدف الأساس في السورة والمحور الذي تدور حوله ، من خلال القراءة الواعية المتدبرة ، والاستعانة في ذلك باسم السورة أو موضوعها أو أحوال ومرحلة نزولها ، كما يمكن الاستعانة بالكتب التي اشتهر أصحابها بهذا المنهج في التفسير من مثل : تفسير "في ظلال القرآن" للأستاذ سيد قطب و "نظم الدرر" أو مختصره "مصاعد النظر" للإمام برهان الدين البقاعي .

3- تقسيم السورة ، وبخاصة الطويلة ، إلى مقاطع أو فقرات تتحدث آياتها عن عنصر من عناصر الهدف ، أو مجال من مجالات المحور ، واستنباط الهدايات القرآنية منها وذكر المناسبات لها ، ثم ربط المقاطع وما يستنبط من هدايات في كل منها بالهدف الأساس للسورة بقصد إظهار هذه المقاطع وكأنها جداول صغيرة تمد المجرى الأساسي للنهر .

4- الاطلاع على تفسير السورة في أمهات كتب التفسير التحليلي ، كتفسير الطبري والزمخشري والرازي وابن كثير وابن عاشور وسيد قطب،واستخلاص أهم حقائق السورة وكيفية معالجتها لمشكلات الإنسان المعاصر.[1]

وجدير بالذكر أن هذه الخطوات هي أداة منهجية إجرائية مساعدة، أما روح التفسير الموضوعي الذي يقصد بيان هداية القرآن وإظهار فوائد السور الجمة التي يحتاج إليها الناس واستحضار هموم الواقع وأسئلته فهي الروح التي يجب أن تسري في هذا النوع من التفسير الموضوعي وغيره، فالمفسر الذي يكون خال البال لا يحمل هما ولا يطلب استهداء بالقرآن، أولى به أن لا يلج باب التفسير الموضوعي، لأن فقدان هذه الروح سيحول . التفسير وإن التزم بهذه الخطوات . شكلا إلى صورة محنطة لا إلى تفسير هدائي حي.

---

[1] أنظر: مباحث في التفسير الموضوعي ، مصطفى مسلم ، ص 40 . والتفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق ، صلاح عبد الفتاح الخالدي ، ص 73-75 .

الفصل الرابع

إشكالات التفسير الموضوعي وموقعه بين مناهج المفسرين

المبحث الأول

الشبهات التي تعترض التفسير الموضوعي

المبحث الثاني

الصعوبات التي تواجه التفسير الموضوعي

المبحث الثالث

موقع التفسير الموضوعي بين مناهج المفسرين

المبحث الأول

الشبهات التي تعترض التفسير الموضوعي

المقصود من مباحث هذا الفصل تعزيز البناء المنهجي للتفسير الموضوعي، بعرض أهم ما يعترض سبيله من إشكالات وصعوبات ومن ثم إدراك وزنه وموقعه بين المناهج المختلفة للمفسرين وعلاقته بها.

ومن المعلوم أن أية رؤية مستجدة تثير حولها زوابع مختلفة من سمين الكلام وغثه، وينقسم الناس حولها إلى موالف ومخالف، ولسوف أُعرض عن كثير من الهواجس والشبهات والاعتراضات لدى بعض الباحثين، فضلا عما يصدر أحيانا من الدعاوى البعيدة عن الإنصاف والمتركزة على اتهام النوايا.. وأقتصر – في العرض والبحث – على ما يقتضيه بيان تمام البناء المنهجي للتفسير الموضوعي.

ذلك أن مسلك البناء ينبغي أن يلتفت إلى الشبهات التي يعتبرها أصحابها مؤسسة على منطق وعلم! كما يلتفت إلى الصعوبات الحقيقية التي يفترض التغلب عليها في سبيل استكمال بناء منهج محكم لنوع من أنواع التفسير له أهميته التي لا تنكر لاسيما في الفترة المعاصرة.

ويمكن تقسيم ما ورد من اعتراضات إلى ثلاثة أنواع: هواجس لا حقيقة لها، وشبهات باطلة لا أساس لها، وصعوبات حقيقية يجب التغلب عليها، وسأقتصر في ذكر هذه الأنواع على الأهم منها، وأفرد الصعوبات بمطلب مستقل لأهميتها وارتباطها بالبناء المنهجي للتفسير الموضوعي.

المطلب الأول
هواجس لا حقيقة لها

وأعني بها المخاوف التي يبديها بعض الباحثين والتي تمس في نظرهم بمستقبل التفسير أو تسيء إلى عرض قضايا الإسلام .. وهي مخاوف لا ترقى إلى درجة الشبهات .

1- **هاجس الخوف على مستقبل التفسير التحليلي:** ودعوى أن علماء التفسير الموضوعي سلكوا مسلك المبالغة والتهويل في وصف أهميته بالكبيرة ونعت منهجه بالجديد، وعبّر صاحب هذا الهاجس عنه بالقول: "**قد زعم بعضهم أن التفسير الموضوعي هو الذي يمكنه حل المشكلات والإجابة عن المعضلات، وأنه الأنسب لأسلوب العصر، وهذا ضرب من القول لا برهان عليه، بل هذا اللون من عرض الآيات والاستنباط منها مما يستفاد منه في المحاضرات والكلمات، والتفسير على**

الأسلوب المعهود باق لا يمكن إزالته والبعد عنه، ولا أدري لماذا يذهب من يصل إلى فكرة جديدة إلى نقد السابق أو نقضه لكي يثبت حسن ما عنده؟ لماذا يعرض بعض الباحثين الفكرة التي وصل إليها بالتضخيم والتعميم، وبدعوى أن سلوكها هو الذي ينفع الأمة الآن وهو المنقذ لها من مشكلاتها وهمومها."[1]

يتضح من هذه الفقرة أن هذا الباحث يركز على عناصر ثلاثة:

1 أهمية التفسير الموضوعي في تقديم حلول لمشكلات الأمة هي دعوى لا دليل عليها.

2 القول بالتعارض بين التفسير التحليلي والتفسير الموضوعي وكأن أحدهما يلغي الآخر ويبطله.

3 لجوء علماء التفسير الموضوعي إلى التضخيم والتعميم والمبالغة!

وللإجابة على هذا الهاجس أقول:

أولا: بالنسبة لأهمية التفسير الموضوعي وضرورته فقد أشبع الباحثون القول فيهما، والذي يطلع على ما كتبته في مطلب "الحاجة إلى التفسير الموضوعي في الفترة المعاصرة " يتبين له تهافت هذا القول، لكنني أزيد هذه القضية إيضاحا هنا بالقول: إن كل من واجه التيارات والمدارس الفكرية والفلسفية الحديثة والمعاصرة، وكل من اكتوى بنار الغزو الثقافي والمسخ الحضاري والتضليل الأيديولوجي المنظم لأمتنا، يقدَر أهمية بناء الرؤية الكلية للحقائق اليقينية الغيبية والكونية الكبرى (الله ، الإنسان ، الكون ، نظام الخلافة في الأرض، المعاد..) وتقديمها للناس واضحة بسيطة في شكل موضوع منسّق تضم كلياتُه جزئياتِه، فالنظرة الكلية التي تهاجم بها قيم الإسلام تقابل بنظرة من جنسها.

إن الغزو الذي يقدم نماذج كلية مادية غاية في التضليل، تنبثق منها منظومة علمية متكاملة من علوم النفس والاجتماع والاقتصاد وعلوم الأحياء لا يواجه بآية هنا وحديث هناك!! إن مثل من يفعل ذلك كمثل من أصابه مرض فاتجه إلى الصيدلية يخبط خبط عشواء يأخذ قرصا من هنا وآخر من هناك لعله يصادف دواء لدائه!! إنه لا غنى

---

[1] التفسير الموضوعي .. وجهة نظر أخرى ، مساعد بن سليمان الطيار, أنظر موقع "منتدى التفسير" على شبكة الأنترنات. شهر مارس 2008م

عن رؤية كلية نابعة من نصوص القرآن ومقاصده وهداياته ومن التوجيهات النبوية المتضمنة في التفسير بداهة.

وإذا كان من يفتي في مسائل الفقه الفرعي لا يجوز له أن يستند إلى دليل مغفلا الأدلة الأخرى، بل يطلب منه أن يحيط علما بالأدلة المرتبطة بموضوع فُتياه، حتى يعرف السابق من اللاحق والخاص من العام والمقيد من المطلق، والمناط الذي ينزل عليه الحكم والذي لا ينزل عليه، وهكذا.. فكيف إذا تعلق الأمر بحقائق الإسلام الكبرى؟.. إن حقائق الإسلام وأصوله القطعية لا تؤخذ من نص معزول!

ثانيا: إن القول بالتعارض بين المنهج التحليلي والمنهج الموضوعي في التفسير غير مُسَلَّم ، بل هو مستغرب من باحث في التفسير، فكل من له اطلاع على مناهج التفسير يعرف بأن العلاقة بينهما علاقة تكامل ولولا التفسير التحليلي ما أمكن قيام التفسير الموضوعي، والاختلاف بينهما هو في منهج التناول، أما الغاية التي هي: بيان مراد الله والكشف عن هدايات القرآن بقدر الوسع والطاقة فهو قدر مشترك بينهما، وإذا كان العلماء والدارسون قد رأوا أن التفسير السائر على المنهج الموضوعي أنسب لحاجتنا المعاصرة فذلك ما اقتضته الحاجة ودفع إليه الواقع، وبرهنت على جدواه الأيام، ولكل منهج فوائده، فلا يغني أحدهما عن الآخر.

ثالثا: اتهام علماء التفسير الموضوعي بالتضخيم والمبالغة، يكفي في إبطاله عرض بعض عناوين دراساتهم، فالعنوان عَلَم على المضمون، فانظر إلى ما كتبه عبد الستار فتح الله سعيد بعنوان: "المدخل إلى التفسير الموضوعي " وكتب عبد الحي الفرماوي: "البداية في التفسير الموضوعي"، وكتب مصطفى مسلم: "مباحث في التفسير الموضوعي"، وكتب غير هؤلاء "دراسات " أو "محاضرات" في التفسير الموضوعي.. فأنت ترى أنه لا يوجد من زعم في تفسيره الموضوعي الوصول إلى: " الغاية " أو "بلوغ المرام" أو "نهاية الإقدام" في التفسير الموضوعي..إن هؤلاء العلماء يعرفون أنهم يضعون اللّبنات

الأساسية في سبيل بناء صرح كبير يحتاج إلى جهود غيرهم لتنضم إلى جهودهم،[1] والتي هي محاضرات ودراسات ومباحث ومدخل وبداية.. فأين هي المبالغات وأين التضخيم هنا؟

وجدير بالعلم أن هؤلاء العلماء لم يقولوا إنهم أتوا بجديد مطلق الجدة، فلا شيء في العلم منطلقه من الصفر، بل قالوا لقد بنينا على من سبقنا واستفدنا من تراث أسلافنا في عرض حقائق القرآن بمنهج "**فيه جدة**"، وكلهم أشار إلى جهود العلماء السابقين في زاوية أو أخرى من بناء صرح هذا المنهج، كما يقول عبد الستار فتح الله سعيد: " **ترتيب الموضوعات : وهو الذي تجمع فيه الآيات المتعلقة بكل موضوع على حدة، وفي مكان واحد للنظر فيها مجتمعة، واستخراج عناصرها ومعرفة حقائقها عن طريق تفسيرها تفسيرا موضوعيا، وهذا الوجه هو أساس البحث والدراسة عند العلماء من قديم.. وكان عمدتهم في استخراج حقائق القرآن وأحكامه في العقائد والفقه وغيرهما مثل آيات الخمر والربا.. و"كل ما جدَّ" عليه هو الاتجاه به نحو مزيد من التخصص وتحديد الموضوعات ودراستها دراسة تلائم حاجة الإنسان في هذا الزمان وتبرز وجها من وجوه إعجاز القرآن**."[2]

2- **هاجس موقع السنة من القرآن في التفسير الموضوعي**: وقد عبر عن ذلك أحدهم بالقول: "**إن التفسير الموضوعي (بأنواعه الثلاثة) يدرس من خلال القرآن، فهو بحث قرآني بحت، ولكن الملاحظة في دراسة الموضوع من خلال القرآن، أن كثيرا من الموضوعات لا يمكن بحثها من خلال القرآن فقط، لأن صورة الموضوع لا تتم بالنظر إلى القرآن فقط، بل لا بد من إضافة السنة وآثار السلف لبيان هذا الموضوع.. أما السنة فقد جعلوها شارحة للقرآن [!!] ولا يصح أن ينشأ عنصر من عناصر الموضوع القرآني من السنة.. ألا يمكن أن يَرِدَ على**

[1] وقد علمنا من موقع الدكتور مصطفى مسلم أن جامعة الشارقة قد قطعت شوطا في مؤلف ضخم للتفسير الموضوعي، استكتبت فيه أكثر من أربعين متخصصا ، ويشرف عليه مصطفى مسلم.
[2] المدخل إلى التفسير الموضوعي، عبد الستار فتح الله سعيد، ص 89.

هذا الكلام: ما الفرق بينهم وبين القرآنيين الذين لا يرون الأخذ بالسنة لاعتقادهم باكتفاء القرآن ببيان كل شيء [!!]"[1]

وهذا الكلام يعبر عن هاجس خاص بأصحابه لا أكثر، ولا يرقى إلى مستوى الشبهة، بله الصعوبات التي تواجه المنهج الموضوعي في التفسير.

فالتفاسير عند أهل هذا الفن تنقسم إلى نوعين بالنظر إلى مصادرها أو المصدر الغالب عليها كما شرحنا سابقا، فهي إما تفسير بالأثر وإما تفسير بالرأي، وتنقسم بالنظر إلى مناهج أصحابها إلى أنواع عدة، من التفسير التحليلي إلى الإجمالي إلى المقارن إلى الموضوعي وهكذا.. والتفسير الموضوعي نوع من هذه الأنواع قد يغلب عليه الأثر أو يغلب عليه الرأي.. وينطبق عليه في هذا ما ينطبق على أنواع التفسير الأخرى، فالتفسير الكبير للرازي مثلا هو من قبيل التفسير التحليلي بالرأي، وتفسير ابن كثير هو من قبيل التفسير التحليلي بالأثر، والتفسير الموضوعي لا يشذ عن هذا " **بل هو أقربها إلى التفسير بالمأثور، أو إلى تفسير القرآن بالقرآن على وجه الخصوص، وهو ألصقها جميعا بمعنى تدبر الآيات الكريمة في قوله تعالى: (كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر ألوا الألباب)[2]**" [3].

وأما قول الباحثين في التفسير الموضوعي: لا يصح أن ينشأ عنصر من عناصر الموضوع القرآني من السنة، فليس على إطلاقه، بل القصد أن يلتزم المفسر في المخطط العام لموضوعه، وفي هيكلته واستخراج عناصره بالنصوص القرآنية، فهذا ما يقتضيه فن التفسير، فإذا جاء إلى عنونة العناصر، فإنه يلتزم في ذلك جزءا من الآية أو معنى مستوحى منها، ولا يمنع أن يكون العنوان عبارة من حديث نبوي يشرح الآية أو يدور في فلك معناها، لكن الممتنع هو أن يفرد في تفسيره عناصر لم يتطرق إليها القرآن وطرقتها السنة، فيتحول موضوعه من التفسير إلى الدراسات العامة أو إلى دراسة في شرح

---

[1] التفسير الموضوعي، وجهة نظر أخرى، مساعد بن سليمان الطيار، المرجع سابق.
[2] سورة ص، الآية 29.
[3] المدخل إلى التفسير الموضوعي، مرجع سابق، ص 88.

الأحاديث.. فإذا كان الحديث مما يشرح بعض الآيات المستقرأة في الموضوع فبها ونعمت، أما إذا كان ينشئ عنصرا منفصلا فما الداعي إليه؟

وكما أن السنة تبين بعض معاني الآيات، فإن البيان النبوي يفهم في ضوء الرؤية القرآنية، وجمع نصوص القرآن واستقصاؤها في الجوانب المختلفة للموضوع الواحد، توفر للباحث قطع شوط كبير في فهم مقاصد القرآن وهداياته ومعانيه بالنسبة للموضوع المدروس، وتلقي أضواء منيرة على فهم نصوص السنة النبوية فهما صحيحا في ضوء مقاصد القرآن[1].

مع ملاحظة أن طبيعة الموضوعات القرآنية غالبا طبيعة قيمية وكلية، وطبيعة البيان النبوي غالبا طبيعة تطبيقية وتفصيلية، ولا يتصور في مسلم يتصدى لبيان معاني القرآن وهداياته أن يُقصي السنة الشارحة من قلبه أو ولبه، فضلا عن أن يكون من علماء التفسير!

بل إننا نرجو أن يلتفت شراح الحديث والمهتمون بالسنة إلى ما التفت إليه علماء التفسير المعاصرون من المنهج الموضوعي، فإن جمع نصوص السنة المتكاثرة في موضوع واحد، وتبويبها موضوعيا يقود إلى فهمها فهما سليما، ويسهل على دارسي العلوم الشرعية والعلوم الإنسانية على السواء، بل وبعض العلوم الكونية الاستفادة من الحكمة النبوية، ولنا في كتاب "الطب النبوي" لابن القيم مثال حسن على حسب ما كان يشغل بال العلماء في وقته، فلماذا لا تجمع الأحاديث التي تصف النفس البشرية وطباعها ليهتدي بها علماء النفس والتربية؟ ولِمَ لا تجمع الأحاديث التي تتحدث عن الاقتصاد أو عن العلاقات الاجتماعية – علاقة الناس بعضهم ببعض – وعن القيم السياسية وهكذا.. فيستفيد منها العلماء كل في مجال تخصصه.. كما جمعت الأحاديث في أبواب العبادات

---

[1] هذه القضية أكد عليها الشيخ محمد الغزالي في : في كثير من مؤلفاته ولنا وقفة في الفصل القادم بحول الله في شرح رؤية الشيخ، وذكرها كذلك الشيخ القرضاوي في كتابه: كيف نتعامل مع السنة السنة النبوية معالم وضوابط، تحت ضابط: فهم السنة في ضوء القرآن الكريم. ص93.

وفي أبواب المعاملات، وكما جمعت أحاديث الفتن وآخر الزمان؟ . على ما فيها من بلاء . أليست السنة مصدرا للمعرفة والحضارة، كما هي مصدر للدين والعبادة ؟[1]

المطلب الثاني

شبهات لا أساس لها

لخص صاحب كتاب "المدخل إلى التفسير الموضوعي" أهم ما رآه من شبهات تعترض مبدأ جمع الآيات الواردة في موضوع واحد وما يترتب عليه من التفسير الموضوعي، وأحسن دحضها وإبطالها، فذكر من الشبهات ما يلي:

1- أن الله تعالى قد ذم مثل هذا الاتجاه في قوله تعالى : (كما أنزلنا على المقتسمين الذين جعلوا القرآن عضين فوربك لنسألنّهم أجمعين عما كانوا يعملون)[2].

2- الجمع الموضوعي هو تقطيع للوحدة القرآنية التي سماها " سورة"، وإحلال لوحدة أخرى مكانها هي " وحدة الموضوع " .

3- الجمع الموضوعي هو إخلال بنظام ترتيب القرآن المعجز المتواتر المتعبد بتلاوته على هذا النمط الموجود في المصحف فقط .

4- وفيه معنى الاستدراك على الله تعالى ، إذ لو شاء لجعل القرآن على الترتيب الموضوعي من أول الأمر[3].

ويضاف إلى هذه الشبهات المذكورة ما اعترض به بعضهم على التفسير الموضوعي بالقول:

1- إن التفسير الموضوعي يفتقر إلى ضبط موضوعات القرآن الكريم ولا يمكن أن يظهر في شكل تفسير كامل .

---

[1] أنظر الدراسة القيمة للشيخ القرضاوي السنة مصدرا للمعرفة والحضارة فهي مثال جيد آخر لهذا التوجه عند العلماء المعاصرين وقد درس فيها الشيخ السنة دراسة موضوعية تناول فيها جانب التشريع وجانب المعرفة الدينية عموما والمعارف الإنسانية من تربية وصحة واقتصاد وعلوم الكون، وكذا فقه الحضارة والسلوك الحضاري، أنظر هذه الدراسة القيمة، دار الشروق، القاهرة، ط4، 2005م .

[2] الحجر، 90-93.

[3] المدخل إلى التفسير الموضوعي، مرجع سابق، ص90.

2- معنى التفسير لا ينطبق على التفسير الموضوعي ، فهو " **يدخل في باب الفوائد والاستنباطات ، وليس من معنى التفسير الذي هو بيان معنى القرآن .. وعلى هذا فنسبته للتفسير غير دقيقة ، بل الصحيح أنه (موضوعات قرآنية) "**[1].

والإجابة العلمية الموجزة عن هذه الشبهات على الترتيب تتركز فيما يأتي:

جواب الشبهة الأولى: إن منهج التفسير الموضوعي ، هو منهج جمع وضم لا منهج تعضية وتقسيم، فالآية الكريمة تنهى عن فعل المشركين وأهل الكتاب الذين جعلوا القرآن أقساما، يؤمنون ببعضه ويكفرون ببعض، كما روى الإمام البخاري عن ابن عباس – رضي الله عنهما – أنه قال:" **هم أهل الكتاب جزؤوه أجزاءً، فآمنوا ببعضه وكفروا ببعضه.** "[2]

أما الجمع الموضوعي " **فغير هذا جملة وتفصيلا لأننا نجعل بعضه في موضوع التوحيد، وبعضه في إثبات النبوة، وبعضه في القيامة، وهكذا.. كل موضوع هو تقرير لحقائق القرآن ذاته.. والجمع الموضوعي وتفسيره هما إيمان بالكتاب كله ولله الحمد، ثم هما تجميع لحقائق كل موضوع وليس فيهما تجزئة وتفرقة لمعاني القرآن، فبطل الاستدلال بالآيات الكريمة على ذم الجمع الموضوعي.** "[3]

إضافة إلى أن مبدأ الجمع والترتيب الموضوعي الذي يعتمده منهج التفسير الموضوعي لم يستغن عنه مفسر قط، لأن الفهم السليم للقرآن الكريم يقتضيه، وأوضح ما يظهر ذلك في آيات القصص، فانظر كيف يقص القرآن القصة الواحدة في سور عدة، ويفرق تفاصيلها في أكثر من مشهد وموضع في القرآن، والإحاطة بالقصة يقتضي جمع هذه المقاطع والمشاهد، فكيف يكون الاتجاه الذي يقتضيه القرآن مذموما في القرآن؟!

جواب الشبهة الثانية: لا شك بأن من قال إن الجمع الموضوعي تقطيع للوحدة القرآنية التي هي السورة، وإحلال نظام الوحدة الموضوعية محلها، قد تصور أن الجمع الموضوعي هو تبديل لنظام المصحف الشريف، وليس الأمر كذلك " **لأننا لا نؤلف بهذا الجمع**

---

[1] التفسير الموضوعي.. وجهة نظر أخرى، مرجع السابق

[2] صحيح البخاري، ، كتاب التفسير، باب تفسير سورة الحجر، جزء 2، ص 955 طبعة المكنز الإسلامي .

[3] المدخل إلى التفسير الموضوعي، ص 91.

الموضوعي قرآنا يتلى، أو يتعبد بتلاوته على هذا الوجه، فإن هذا لا يشك مسلم في حرمته، أو كفر من يستحله.. وإنما هذا الجمع الموضوعي مقصود به البحث والدراسة العلمية لاستخراج كنوز القرآن في جوانب الحياة، على نمط يلائم العصر ويؤكد الإعجاز القرآني."[1]

ولو كان في الجمع الموضوعي أيُّ مس بالترتيب التوقيفي لآيات القرآن لكان علماء القرآن والتفسير أول من يفتي بمنعه وحرمته، ولمنعت كل الدراسات في القديم والحديث التي جمعت آيات الموضوع الواحد،[2] ولم يخل من هذا المنهج عصر من عصور الإسلام.

كما أن من اشتبه عليه الأمر قد غاب عنه أن للقرآن – في عرف المشتغلين بعلوم القرآن – أكثر من وجه في ترتيبه..

فأما الوجه الأول فهو " **ترتيب التلاوة** " الموجود في المصاحف، وهو ترتيب توقيفي بأمر من النبي صلى الله عليه وسلم لآيات القرآن كلها اتفاقا ولسوره كلها أو لمعظمها على اختلاف في ذلك.. وهو ترتيب علمه جبريل النبي عليه السلام بوحي من الله، وهو كذلك ترتيب القرآن نفسه في اللوح المحفوظ، يبدأ بفاتحة الكتاب ويختتم بسورة الناس، وعلى وفق هذا الترتيب قرأ النبي القرآن، وحفظه الصحابة، وبه تحدى الله تعالى الإنس والجن على أن يأتوا بمثل سورة منه، وعلى هذا الترتيب نقل القرآن إلينا متواترا، ولا يجوز التعبد أو التلاوة إلا على هذا الترتيب..

وفي ترتيب القرآن في المصحف على هذا الوجه بحر عميق من الأسرار والحكم الربانية، منها تيسير حفظه، ومنها إثبات إعجازه، ومنها البرهان على مطلق قدرة الله وعلمه وحكمته التي لا يحدها مكان ولا زمان إذ أنزل القرآن جملة واحدة إلى بيت العزة قبل أن تحدث الأسباب التي نزل القرآن عندها منجما! ومنها أنه الأنسب لرسالة القرآن التربوية، والأقرب إلى ملاءمة النفس البشرية التي تملُّ من قراءة الموضوع الواحد، وتنشط في الموضوعات المختلفة والأغراض المتنوعة، ومنها الاستفادة الجمّة من التلاوة اليسيرة،

---

[1] المرجع السابق، ص91 .

[2] لقائل أن يقول: لقد نهى علماء العقيدة وأصول الدين أن تجمع آيات الصفات الموهمة بالتشبيه، والجواب أن هذا النهي ليس لذات الجمع وإنما لما يؤدي إليه عادة – في هذا الموضوع وأمثاله – من الفتنة وفساد في الاعتقاد.

فبضع آيات على وفق ترتيب المصحف تجمع العلوم الكثيرة، ومنها عدم قدرة النفس على الانتقاء فتقرأ – رغما عنها – ما يوافق هواها وما يخالفه، وما يعجبها أو يزجرها أو يؤدبها..الخ.

لكن وجود القرآن الكريم على هذا الترتيب لم يمنع علماء " القرآن " و" التفسير" من البحث في الوجوه الأخرى لترتيب الآيات القرآنية بقصد الاستعانة بها على الدراسة والفهم السديد لكلام الله.

ومن ضمن هذه الوجوه: "**الترتيب حسب تاريخ النزول**"، فإن القرآن – كما هو معروف – نزل مفرقا على الحوادث والأيام، نزلت منه الآية والآيات وجزء الآية والسورة الكاملة أحيانا، وهو الترتيب الذي يبدأ بقوله تعالى:**(اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم)**[1]، ويختتم – على أرجح الأقوال– بقوله سبحانه:**(واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون)**.[2]

وعلى أساس هذا الترتيب قسم العلماء آيات القرآن إلى مكي ومدني، وعليه عمدة المفسرين في بيان العام ومخصصه والمطلق ومقيده.. كما عليه مدار البحث والدراسة فيما يتعلق بمعرفة تاريخ التشريع والتدرج فيه وفي تطبيقه، ومن فوائده توضيح أحوال نزول الآيات وجوها العام بما يعين المفسير على الوقوف على المعاني الصحيحة للآيات، وفوائد هذا الترتيب التربوية كثيرة تعرف من خلال دراسة المكي والمدني، والمقارنة بين موضوعاتهما، وغير ذلك..

وويضاف إلى الوجهين السابقين لترتيب القرآن "**الترتيب الموضوعي**" لآيات الذكر الحكيم، وقد اعتمد العلماء هذا الترتيب في استخراج أحكام القرآن في الفقه والعقائد والتشريع، وغير ذلك، و" **أصل هذا النوع هو أمر يقيني موجود في القرآن، ويمكن النظر فيه واستخراجه بلا تكلف ولا تعسف، أما طرائق الترتيب الفني، أو التصنيف العلمي، فهي وجوه دراسية يمكن أن تتعدد ، فترتّب الموضوعات على أساس حروف المعجم**

[1] العلق, 1-5.
[2] البقرة، 81.

مثلا، أو على أساس أغراض المكي والمدني، أو على أساس شعب الدين الأربعة الجامعة – العقائد، الأخلاق، العبادات، المعاملات – ونحو ذلك مما يتعلق بكيفيات الدراسة والبحث، لا بأصل القضية ذاتها."[1]

وتأمل ما أورده الإمام الزركشي – رحمه الله – حين قال: "**قال بعض مشائخنا المحققين، قد وهم من قال لا يطلب للآي الكريمة مناسبة، لأنها على حسب الوقائع المتفرقة، وفصل الخطاب: أنها على حسب الوقائع تنزيلا وعلى حسب الحكمة ترتيبا، فالمصحف كالصحف الكريمة على وفق ما في الكتاب المكنون، مرتبة سوره وآياته كلها بالتوقيف. وحافظ القرآن لو استفتي في أحكام متعددة، أو ناظر فيها، أو أملاها لذكر آية كل حكم على ما سئل، وإذا رجع إلى التلاوة، لم يتل كما أفتى، ولا كما نزل مفرقا، بل كما أنزل جملة إلى بيت العزة.."**[2]

وهذا قول جامع في الإشارة إلى **ترتيب التلاوة** كما نزل القرآن جملة إلى بيت العزة، و**ترتيب النزول** الذي تطلب فيه مناسبات النزول وتعرف فيه أسبابه، و**ترتيب الموضوع** الذي يحتاج إليه كل من يتصدى لبيان حقائق الدين أو الإفتاء فيه، وإذا ظهر لك هذا، تبينت أصالة **الترتيب الموضوعي**، وأنه لا يحل محل ترتيب التلاوة أو النزول، و ثبت بطلان الشبهة الثانية.

جواب الشبهة الثالثة: وهذه الشبهة فرع لما قبلها، فليس في التفسير الموضوعي إعادة ترتيب للمصحف الشريف، وحاشا لله! حتى يكون فيه معنى الاستدراك على الله.

كما أن المتدبر لآيات السور القرآنية بالنظر إلى الموضوعات التي طرقتها، يجد أنها على ضربين: قسم من السور اجتمع تحت آياته موضوع واحد، وأكثر ذلك في المفصّل، كسورة الإخلاص التي جمعت موضوع التوحيد، وسورة الفيل التي تصور مشهد حماية الله تعالى لبيته المحرم عام الفيل، وسورة القارعة التي تصور مشهد القيامة..الخ، وقسم من السور تفرد بذكر زاوية أو عنصر من الموضوع، ونجد ذات الموضوع من نواحي أخرى أو سياق مختلف في سور أخرى..

[1] المرجع السابق، ص 89 .
[2] البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي، ج1 ، ص37 .

وعليه فإن موضوعات القرآن محدّدة ومرتّبة، سواء وقعت متحدة الموضع، في سورة واحدة، أو كان الموضوع الواحد مبثوثا في سور مختلفة، يقتضيها السياق الموضعي في كل سورة، فتجمع من غير تكلف لتلبية الحاجة لدراسة الموضوع واستقصاء النظر فيه من زواياه المختلفة، وبيان إعجاز القرآن في ذلك، وليس للتلاوة والتعبد على نحو الترتيب الموضوعي كما سبق.[1]

جواب الشبهة الرابعة: لا شك أن من قال إن التفسير الموضوعي لا يمكن أن يظهر في شكل تفسير كامل لم يقصد التفسير الموضوعي للسور، فهذا لا إشكال في ظهوره تفسيرا كاملا، وأوضح مثال على ذلك تفسير الشهيد سيد قطب في ظلال القرآن، ولقد وفق الله الشيخ الغزالي ففسر القرآن كله موضوعيا بهذا المنهج.

فالمقصود بهذا القول هو التفسير الموضوعي لموضوعات القرآن الكريم ومفرداته.

فأما "مصطلحات" القرآن فهي محدودة، لأن ألفاظ القرآن نفسها محددة، وهذا يفتح المجال لإمكانية ظهور موسوعات لاستيعاب وشرح مصطلحات القرآن، فمن الناحية النظرية لا يوجد أي مانع من ظهور مثل هذا العمل، وإذا لم يوجد عمل مستوعب فيه بعد، فذلك – والله أعلم – لحداثة هذا النوع من التفسير، ولأنه يتطلب وقتا ونفَسا طويلا وجهدا جماعيا.

وأما بالنسبة لتفسير الموضوعات القرآنية، فإن جمع أصولها وظهورها في موسوعة ممكن، وقد أشار إلى ذلك الدكتور عبد الستار في تعريفه التفسير الموضوعي بقوله: "**الذي تجمع فيه قضايا القرآن الكريم، وتفسر تفسيرا علميا على أساس الموضوع، وتدون في بحث مفرد، أو كتاب جامع، على نمط موسوعات التفسير التحليلي..**"[2]

وإن كنت قد ذهبت إلى أن الموضوعات القرآنية على ضربين، الموضوعات التي مصدرها نص القرآن وهي التي أشار إليها عبد الستار فتح الله سعيد، والموضوعات التي يجيب فيها الوحي الكريم عن الوقائع المتولدة نتيجة التجربة البشرية الدائمة في التغير

---

[1] أنظر في رد هذه الشبهات، المدخل إلى التفسير الموضوعي، مرجع سابق، ص 87-94.
[2] المرجع نفسه ، ص 20 .

والتجدد، وهذه يمكن أن نلاحظ فيها – كما لاحظ الذين يتابعون التطورات الحضارية لحركة الإنسان في التاريخ – أصولا وفروعا.

فأمهات القضايا وأصولها التي شغلت الإنسان منذ فجر التاريخ تكاد تكون واحدة ثابتة ومطّردة، وتفصيلاتها تتغير في كيفية عرضها ودرجة ظهورها وزاوية النظر إليها وحدّة والاهتمام بها وإلحاحها على الناس في وقت دون آخر مما يغير في درجة أولويتها..الخ، الأمر الذي تتحكم فيه تقلبات التاريخ وصروف الدهر، من هنا فإن القول بأن الموضوعات التي تولدها الحياة متجددة ليس على إطلاقه.

وتفسير الموضوعات القرآنية حين يعالج التفصيلات لا يسعى لجمع الموضوعات في موسوعة واحدة، كما لا يضع فرضيات لوقوع القضايا قبل حصولها، بل يسعى إلى معالجتها كما تظهر بحيثياتها الواقعية.

من هنا ينبغي التنبيه على ملاحظة أساسية وهي: أن من لا يرى التفسير تفسيرا إلا إذا جمع كل أجزاء القرآن تحت نسخة واحدة من كتاب، يخطئ التصور والتقدير لأنه يسلب المنهج الموضوعي قوته المتمثلة في التجدد المستمر، ويستصحب منهج التفسير التحليلي الذي يبدأ بسورة الفاتحة ويختتم بسورة الناس، فيلزم التفسير الموضوعي بما لا يلزمه.

جواب الشبهة الخامسة: القول إن معنى التفسير لا ينطبق على التفسير الموضوعي، وإنما هو استنباطات فوائد هي ألصق بكونها دراسات قرآنية، هو رأي قد اشتبهت عليه العلاقة بين مصادر التفسير وبين مناهجه!

فالتفسير الموضوعي هو منهج من مناهج التفسير – كما أسلفنا – وليس مصدرا كالسنة أو اللغة العربية وعلم أصول الفقه مثلا، حتى يكون همه الوقوف عند بيان المعنى اللغوي أو الاصطلاحي للألفاظ، بل إن دوره يتجلى أكثر في توظيف هذه الأصول العلمية لتوضيح المعاني والمقاصد، والكشف عن الهدايات وبيان أوجه الإعجاز.

ومع هذا فإن فائدة التفسير الموضوعي في بيان معاني القرآن على التفصيل غير خافية، خذ مثلا موضوع الجهاد في الإسلام وكيفية فهمه وممارسته فإنه يحتاج إلى جمع الآيات وفهمها في ظل أسباب وأحوال النزول، وإلا وقعنا في منزلقات كثيرة وخطيرة، ولقد

وقعت في عصرنا فتن كثيرة بسبب الفهم المَوْضعي للآيات في هذا الموضوع الذي يحتاج إلى النهج الموضوعي – بامتياز – في بيان معناه وعلى من يجب؟ وما شروطه؟ وما علة وجوبه؟ وضد من يكون؟ وهل هو دفاع أم هجوم؟ وما إلى ذلك من الأسئلة المعاصرة الملحّة..

أضف إلى هذا أن دراسة اللفظ المتكرر في القرآن – وهو نوع من التفسير الموضوعي – يبين عن القصد الفني الخاص لأسلوب القرآن ولغته في استعمال اللفظ، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك حين تناولت أنواع التفسير الموضوعي، ويمكن أن أضيف هنا على سبيل المثال الفرق في المعنى الاصطلاحي في استعمال القرآن للفظي "الإيمان والإسلام"، فلقد ذكر العلماء قاعدة مفادها أنهما" **إذا اجتمعا تفرقا وإذا تفرقا اجتمعا**"، وهذه القاعدة المهمة قد نتجت من جراء استقراء اللفظين في القرآن الكريم.[1]

كما أن للتفسير الموضوعي دورا في تصحيح ما يقع فيه المفسر الموضعي من وهم حين ينظر إلى معنى آية في موضوع ما ويَذْهَلُ عن الآيات الأخرى التي تضيء زوايا أخرى لنفس الموضوع أو يذهل عن سياق الآية ضمن السورة، فضلا عن سياقها ضمن القرآن كله.

وكذا فإن تفسير السورة كموضوع، فيه بيان لمحورها وموضوعاتها الرئيسية، وتضع قارئ القرآن في جو من السور يمكنه من التدبر وفهم العلائق الدقيقة التي تربط الآيات بعضها ببعض داخل السورة القرآنية وتوضح مقاصد السور وأساليبها المختلفة في معالجة القضايا.. وكل هذه إضافات لبيان معاني القرآن العظيم وأوجه إعجازه.

و أختم – في إبطال هذه الشبهة – ببيان أن التفسير الموضوعي يفتح الباب بعد التعرف على معاني الجمل والآيات والمقاطع، لتدبر الموضوعات القرآنية، وفي هذا ما فيه من اكتشافات لهدايات القرآن ومواقفه ومقاصده، ورصد طريقة تناوله لموضوعات بعينها،

---

[1] يقصدون بذلك : إذا اجتمعت لفظة الإسلام والإيمان في مثل قوله تعالى : (وقالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم) كان معنى الإيمان غير معنى الإسلام ، وإذا تفرقت اللفظتان في الاستعمال القرآني كان معنى الإيمان هو الظاهر والباطن , وكذلك الإسلام ، كما في قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن) وقوله تعالى (ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون) ، فالمقصود بكليهما الإيمان الباطن والإسلام الظاهر جميعا.

وأسلوبه في بيانها والرد على الخصوم فيها، ونسب ذكرها في القرآن ومدى اهتمامه بها.. وكل هذه إضافات في المعنى تدخل في مفهوم التفسير الذي هو بيان معاني ومقاصد القرآن بقدر الطاقة البشرية.

المبحث الثاني

الإشكالات التي تواجه التفسير الموضوعي

من الضروري لكل بناء علمي منهجي أن يتجاوز بعض الصعوبات التي والإشكالات تواجهه، سواء كان ذلك على مستوى النظرية أم على مستوى التطبيق، وذلك لينضبط منهجه، ويثمر تطبيقه، ولا ينحرف به الجاهلون أو المغرضون عما خطط له العلماء العاملون.

وبتأمل مقاصد العلماء من السير على وفق المنهج الموضوعي، نرصد بعض الصعوبات التي ينبغي التغلب عليها ونصوغها على النحو الآتي:

إذا كان علماء التفسير الموضوعي يسعون إلى فتح المجال لعقول كبار المتخصصين في علوم الكون لتسهموا بمداركهم العميقة عن الكون وخباياه وسننه في شرح كلام الله وبيان أسرار إعجاز القرآن، فما الضامن ألا يخرج علم التفسير عن دائرة الاختصاص؟ وبالتالي يفسر كلام الله ويحمل على غير وجهه الصحيح ومقاصده الثابتة؟ وما هي الضوابط المنهجية المثلى لتعامل التفسير الموضوعي مع موضوع العلوم الكونية على وجه التحديد، أو ما سمي (بالتفسير العلمي) للقرآن الكريم التي تمكننا من تجاوز هذا التحدي؟

وإذا كان يرتجى من التفسير الموضوعي أن يقدم البديل المعرفي الحضاري للأمة الإسلامية في وجه تحديات ما تنتجه التجربة البشرية بمعزل عن الوحي عموما، والحضارة الغربية على الخصوص، ويعد هذا اللون من التفسير بذلك مدخلا أساسيا لإسلامية المعارف، فما هو دور القرآن الكريم وما المطلوب منه فيما يرتبط بعلوم النفس والاجتماع والاقتصاد والتاريخ وغيرها.. مما اصطلح على تسميته بالعلوم الإنسانية؟

فهاهنا سؤالان كبيران يواجههما التفسير الموضوعي للقرآن الكريم: حول منهج تعامله مع موضوعات العلوم الكونية، ومنهج تعامله مع موضوعات العلوم الإنسانية، ولنبدأ بالشطر الأول:

المطلب الأول

منهج التفسير الموضوعي والعلوم الكونية في القرآن الكريم

إن من أكبر التحديات والصعوبات التي واجهت تفسير القرآن عموما والتفسير الموضوعي على الخوص – ولا تزال – هي قضية تفسير الموضوعات الكونية في القرآن الكريم.

وإذا كان التفسير عموما معنيا بهذه القضية، فإن التفسير الموضوعي أكثر اعتناء بها، لأنه يعتمد الموضوع، فلا مناص من طرق الموضوعات الكونية حين التصدي لبيان موضوعات القرآن الكريم، ففي كتاب الله تعالى وصف لعناصر الكون كله، من سحب

السماء وأفلاكها إلى فجاج الأرض وسيولها، كما فيه حديث عن الله والرسل واليوم الآخر.. فكيف يتعامل المفسر الموضوعي مع الموضوعات الكونية في القرآن العظيم؟

تعرضت هذه القضية من قبل المفسرين للإفراط والتفريط في القديم والحديث لعدم وضوح الرؤية المنهجية في التعامل مع مثل هذه الموضوعات، ووقفوا منها ما بين مجوز ومانع، وقبل أن أتطرق إلى الضوابط المنهجية أعرض لمواقفهم وحججهم.

1. موقف العلماء الرافضين (للتفسير العلمي) وأدلتهم:

لعل الإمام الشاطبي من القدامى هو أكثر من ركز القول في معارضة "التفسير العلمي للقرآن"، وحجته في ذلك أن الشريعة الإسلامية نزلت على أمة أمية، والتفسير العلمي هو خروج عن هذه الصفة إلى التفلسف والتعقيد والتكلف، وخروج عن معهود العرب وعما كانوا يفهمونه من القرآن الكريم، وبالتالي فهذا التفسير هو حمل لنصوص القرآن على غير مقصوده.[1]

واحتج بقوله تعالى: **(هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم..)**[2] وبقول النبي صلى الله عليه وسلم: "**نحن أمة أمية لا نكتب ولا نحسب** "،[3] كما احتج بما عرف عن الصحابة والتابعين وتابعيهم في تعاملهم مع القرآن الكريم إذ " **كانوا أعرف بالقرآن وعلومه وما أودع فيه، ولم يبلغنا أنه تكلم أحد منهم في شيء من هذا المدعى سوى ما تقدم، وما ثبت فيه من أحكام التكاليف، وأحكام الآخرة، وما يلي ذلك، ولو كان لهم في ذلك خوض ونظر لبلغنا منه ما يدل على أصل المسألة، إلا أن ذلك لم يكن، فدل على أنه غير موجود عندهم.**"[4]

---

[1] الموافقات في أصول الشريعة، الشاطبي، ج2، ص 69.
[2] الجمعة ، 2.
[3] رواه البخاري كتاب الصوم ج1، ص 357، ومسلم كتاب الصيام ج1، ص429 طبعة المكنز الإسلامي
[4] المرجع السابق، الصفحة نفسها.

ثم لخص الإمام الشاطبي أدلة القائلين بأن في القرآن: "علم المتقدمين والمتأخرين" من علوم الطبيعيات والتعاليم والمنطق – على حد تعبيره – فقال:" **وربما استدلوا على دعواهم بقوله تعالى: (ما فرطنا في الكتاب من شيء..)[1] ونحو ذلك بفواتح السور – وهي لم تعهد عند العرب – وبما نقل عن الناس فيها، وربما حُكي من ذلك عن علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – وغيره أشياء."[2]**

ثم رد على هذه الأدلة بأن معنى الآية الكريمة عند المفسرين ما يتعلق بالتكليف والتعبد، أو أن لفظة "الكتاب" في الآية السابقة تعني اللوح المحفوظ، وأن المفسرين لم يذكروا من مقتضيات الآية ضم جميع العلوم النقلية والعقلية.

وأن فواتح السور قد تكلم الناس فيها بما يقتضي أن للعرب بها عهدا، أو هي من المتشابهات التي لا يعلم تأويلها إلا الله، أما تفسيرها بما لا عهد به فلا يكون، وما روي عن علي وغيره في ذلك لا يثبت، فلا يجوز أن يضاف للقرآن ما لا يقتضيه.[3]

ومما يلاحظ على المنطق "المقاصدي" للإمام الشاطبي، أنه نظر هل مقاصد القرآن تقتضي هذه العلوم أم لا؟ وقرر أن المعارف والعلوم الكونية شيء غير وظيفة القرآن ورسالته ولا تنسجم مع طبيعته، ولا مع طبيعة الأمة – الأمية – التي نزل فيها، فلا ينبغي أن تضاف إليه.

ولكنه – رحمه الله – لم يلتفت إلى أن القرآن الكريم هو كلام الله عن الخلق، كما هو كلام الله عن الأمر:(**ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين)**[4]، وأن في خلق الله من الأسرار ما لم تعرفه العرب، فضلا عن أن تعهدَه، ولذلك طلب القرآن منهم ومن غيرهم السير في الأرض والنظر فيها ليتعلموا ويتعظوا..

---

[1] الأنعام، 37.
[2] المرجع السابق، ص80.
[3] المرجع السابق، ص 82
[4] الأعراف، 45.

كما أنه رحمه الله بالغ في سحب وصف الأمية على الأمة الإسلامية وكأنها صفة لازمة لها لا وصفا عابرا فيها.. ومن المعلوم أن رسالة القرآن قد محت أمية الأمة، بخلاف أمية الرسول صلى الله عليه وسلم التي هي دليل كمال.[1]

ولعل دراسة السياق التاريخي للقضية كما عرضت في عهد الإمام الشاطبي تساعد على فهم خلفية الموضوع، فلعل الإمام الشاطبي كان يخشى أن تهجر مقاصد القرآن الأصلية وينحرف الناس به – في الفهم – عن مراده في التعريف بالله وإصلاح النفس وبناء الجماعة وإحكام الشريعة.. إلى تفاصيل ما عرفوا ونقلوا من علوم الأولين – وهي علوم اليونان خاصة في ذلك الزمان – فيحملون عليها نصوص القرآن ويجعلونه تابعا لها، لاسيما وأن العلم لم يكن قد استقل عن الفلسفة ومن الطبيعي أن ترفض معارف تقدم في قوالب من الضلال..

وهذه المآخذ قد وقع منها شيء في العصر الحديث عندما افتتن كثير من الباحثين بالعلوم الحديثة عند الغربيين فراحوا يحملون معاني القرآن عليها بغير ضابط، فكان ذلك سببا أيضا لرفض كثير من العلماء المعاصرين " للتفسير العلمي".

ومن أهم المعاصرين المعارضين لهذا التوجه، الشيخ محمود شلتوت، والأستاذ الأمين الخولي، والشيخ محمد مصطفى المراغي، وهو كذلك رأي الشيخ عبد الحليم محمود، وعبد الله المشد، وأبو بكر ذكري أعلنوه في مقدمة تفسيرهم الوجيز للقرآن الذي كان ينشر في مجلة (نور الإسلام) لسان علماء الوعظ والإرشاد في الأزهر.[2]

يقول محمود شلتوت في معارضته لتوجه أصحاب (التفسير العلمي): "**نظروا في القرآن فوجدوا الله تعالى يقول (ما فرطنا في الكتاب من شيء)، فتأولوها على نحو زين لهم أن يفتحوا في القرآن فتحا جديدا، ففسروه على أساس من النظريات العلمية**

---

[1] وقد تعقب العلامة الطاهر بن عاشور الإمام الشاطبي في هذه المبالغة، وذكر كلاما نفيسا في ضوابط الفهم قال – رحمه الله-:" لا شك أن الكلام الصادر عن علام الغيوب تعالى وتقدس لا تبنى معانيه على فهم طائفة= =واحدة ولكن معانيه تطابق الحقائق، وكل ما كان من الحقيقة في علم من العلوم وكانت الآية لها اعتلاق بذلك فالحقيقة العلمية مرادة بمقدار ما بلغت إليه أفهام البشر وبمقدار ما ستبلغ إليه، وذلك يختلف باختلاف المقامات ويبنى على توفر الفهم، وشرطه ألا يخرج عما يصلح له اللفظ عربية، ولا يبعد عن الظاهر إلا بدليل، ولا يكون تكلفا بينا ولا خروجا عن المعنى الأصلي حتى لا يكون في ذلك كتفاسير الباطنية. " أنظر : التحرير والتنوير، ج1 المقدمة الرابعة، ص 44.

[2] أنظر : كيف نتعامل مع القرآن العظيم، يوسف القرضاوي، ص 371 .

المستحدثة، وطبقوا آياته على ما وقعوا عليه من قواعد العلوم الكونية، وظنوا أنهم بذلك يخدمون القرآن.. فأفسد ذلك عليهم أمر علاقتهم بالقرآن، وأفضى بهم إلى صورة من التفكير لا يريدها القرآن، ولا تتفق مع الغرض الذي من أجله أنزله الله، فإذا مرت بهم آية فيها ذكر للمطر، أو وصف للسحاب، أو حديث عن الرعد أو البرق، تهللوا واستبشروا وقالوا: هذا هو القرآن يتحدث عن العلماء الكونيين.. وإذا رأوه يتحدث عن الشمس والقمر والكواكب والنجوم، قالوا: هذا حديث يثبت لعلماء الهيئة والفلكيين أن القرآن كتاب علمي دقيق!..هذه النظرة للقرآن خاطئة من غير شك، لأن الله لم ينزل القرآن ليكون كتابا يتحدث فيه إلى الناس عن نظريات العلوم ودقائق الفنون وأنواع المعارف.

وهي خاطئة من غير شك، لأنها تحمل أصحابها والمغرمين بها على تأويل القرآن تأويلا متكلفا يتنافى مع الإعجاز، ولا يستسيغه الذوق السليم.

وهي خاطئة، لأنها تعرض القرآن للدوران مع مسائل العلوم في كل زمان ومكان، والعلوم لا تعرف الثبات.. فقد يصح اليوم في نظر العلم ما يصبح غدا من الخرافات. فلو طبقنا القرآن على هذه الوسائل العلمية المتقلبة لعرضناه للتقلب معها، وتحمل تبعات الخطأ فيها .. فلندع للقرآن عظمته وجلالته .. ولنعلم أن ما تضمنه من الإشارة إلى أسرار الخلق وظواهر الطبيعة ، إنما هو بقصد الحث على التأمل والبحث والنظر.. وحسبنا أن القرآن لم يصادم الفطرة ولم يصادم – ولن يصادم – حقيقة من حقائق العلوم تطمئن إليها العقول " [1] .

وذات الحجج نجدها عند سيد قطب رحمه الله في رفض هذا التوجه حيث يتعجب **لسذاجة المتحمسين لهذا القرآن، الذين يحاولون أن يضيفوا إليه ما ليس منه، وأن يحملوا عليه ما لم يقصد إليه، وأن يستخرجوا منه جزئيات في علوم الطب والكيمياء والفلك وما إليها.. كأنما ليعظموه بهذا ويكبروه!** ويؤكد سيد قطب كمال القرآن في موضوعه الذي هو أعظم وأضخم من تلك العلوم كلها، فهو يهتم ببناء الإنسان والمجتمع

[1] تفسير القرآن الكريم، الأجزاء العشرة، محمود شلتوت، ص 11-14 باختصار وتصرف يسير.

الذي يسمح له بحسن استخدام عقله وتفكيره وطاقته، ثم يترك له القرآن مجال البحث والتجريب..

و يرى[1] – أيضا – أن " التفسير العلمي " يربط الحقائق القرآنية النهائية المطلقة القاطعة بمعارفنا النسبية المحدودة، مهما بدا لنا أنها حقائق علمية ثابتة، وهنا خطأ منهجي أساسي ينطوي على معان ثلاثة كلها لا يليق بالقرآن..

الأول: ما أسماه سيد قطب الهزيمة الداخلية التي تجعل العلم هو المهيمن والقرآن تابع ..

والثاني: سوء فهم طبيعة القرآن ووظيفته...

والثالث: هو التأويل المستمر والتكلف في حمل نصوص القرآن على نظريات دائمة التقلب.

2. موقف العلماء المؤيدين (للتفسير العلمي) وأدلتهم:

إن مسألة التفسير العلمي قضية قديمة وليست حديثة أو معاصرة كما قد يظن البعض " ويبدوا أن أول من أثاره هو الإمام أبو حامد الغزالي – رحمه الله – فقد ذكر في الإحياء قول ابن مسعود: من أراد علم الأولين والآخرين فليتدبر القرآن، ونحو ذلك من الأقوال ثم قال: " **وبالجملة، فالعلوم كلها داخلة في أفعال الله عز وجل وصفاته.. وهذه العلوم لا نهاية لها، وفي القرآن إشارة إلى مجامعها**". وفي كتابه " جواهر القرآن " وهو مؤلف بعد " الإحياء " عاد إلى الموضوع وتوسع فيه، وفيه أن جميع العلوم " **مغترفة من بحر واحد من بحار معرفة الله تعالى وهو بحر الأفعال، وقد ذكرنا أنه بحر لا ساحل له** ".. ثم ذكر أفعال الله في الشفاء والمرض، كما قال تعالى حكاية عن إبراهيم **(وإذا مرضت فهو يشفيني)**[2] قال: " **وهذا الفعل الواحد لا يعرفه إلا من عرف الطب بكماله، إذ لا معنى للطب إلا معرفة المرض بكماله وعلاماته، ومعرفة الشفاء وأسبابه..**" إلى أن قال : " **لا يعرف كمال معنى قوله تعالى (يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم الذي خلقك فسواك**

---

[1] أنظر في ظلال القرآن، سيد قطب، ج1،ص170 وما بعدها.

[2] الشعراء , 80 .

فعدلك في أي صورة ما شاء ركبك)[1]، **إلا من عرف تشريح الأعضاء من الإنسان ظاهرا وباطنا، وعددها وأنواعها، وحكمتها ومنافعها..الخ**" من هنا نفهم قول الغزالي: "**إن علوم الأولين والآخرين ليست خارجة عن القرآن**" فكأنه يقول: إن العلوم كلها خادمة لحسن فهم القرآن، كما أن القرآن نفسه يشير إليها ويدل عليها بصورة من الصور الضمنية أو الكلية."[2]

وذهب الإمام السيوطي ذات المذهب، فنقل ما صح عن ابن مسعود من قوله: " **من أراد العلم فعليه بالقرآن ، فإن فيه خبر الأولين والآخرين** "، **قال البيهقي:** "**يعني أصول العلم** "، كما نقل عن أبي الفضل المرسي في تفسيره قوله بأن القرآن جمع " **علوم الأولين والآخرين، ولم يحط بها علما إلا المتكلم بها، ثم رسول الله صلى الله عليه وسلم، خلا ما استأثر به سبحانه وتعالى، ثم روت عنه معظم السادات الصحابة وأعلامهم مثل الخلفاء الأربعة وابن مسعود وابن عباس، حتى قال: لو ضاع لي عقال بعير لوجدته في كتاب الله** .. ثم يقول أبو الفضل المرسي عن القرآن: " **وفيه أصول الصنائع وأسماء الآلات التي تدعو الضرورة إليها، كالخياطة في قوله: (فطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة)**[3]، **والحدادة (آتوني زبر الحديد)**[4]، **(وألنا له الحديد)**[5]، **والبناء في آيات [مثل : (إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا)**[6]**], والنجارة (واصنع الفلك بأعيننا)**[7]، **والغزل(نقضت غزلها)**[8].. وذكر كذلك: **الغوص والصياغة والزجاجة والفخارة والملاحة والكتابة والخبز والطبخ وغير ذلك..**[9]

يقول الشيخ القرضاوي– معلقا على ما سبق من كلام أبي الفضل–: "**بهذه الإشارات القرآنية اعتبر أصول الصنائع موجودة في القرآن. وقد أيد السيوطي في (الإتقان) وفي**

---

[1] الانفطار ، 6-8 .
[2] أنظر: كيف نتعامل مع القرآن العظيم ، يوسف القرضاوي، ص 374-375 .
[3] الأعراف، 22.
[4] الكهف، 96.
[5] سبأ, 10.
[6] آل عمران ، 96 .
[7] هود ، 37 .
[8] النحل، 92.
[9] الإتقان في علوم القرآن جلال الدين السيوطي، ج1، ص 326-330

كتابه (إكليل التأويل في استنباط التنزيل) هذا التوجه، واستدل له بالقرآن والحديث وبقول ابن مسعود والحسن والشافعي وغيرهم."[1]

ومن العلماء المعاصرين الذين اتجهوا صوب التفسير العلمي للقرآن الكريم الشيخ عبد المجيد الزنداني، والدكتور زغلول النجار، وكثير من علماء الكونيات الذين يتمتعون بثقافة شرعية واسعة أو من علماء الشريعة الذين لهم حظ من المعرفة الكونية، ومن الناس من بالغ في هذا الاتجاه يتلقف كل جديد يسقطه على القرآن، حتى أسقطوا على الآيات الكونية فرضيات ونظريات العلوم بتكلف ظاهر أحيانا ومن هنا يدخل المحضور، وتظهر بذلك أهمية الضوابط المنهجية التي تجعل من السقف المعرفي المرتفع وما يحمل من حقائق ثابتة وصادقة في عصرنا الذي نعيشه في خدمة معاني القرآن ونهضة الأمة، دون أن يتحكم النسبي في المطلق أو يفسر كلام الله المقطوع بصحته بمعارفنا الظنية والمحدودة.

3. الضوابط المنهجية لتفسير الآيات الكونية :

في البداية ينبغي ملاحظة أن تسمية (التفسير العلمي) هي تسمية غير دقيقة، فتفسير القرآن كله يجب أن يكون علميا، فلا يفسر القرآن لا عن جهل ولا عن هوى، وإنما ظهرت هذه التسمية في مناخ سيطرت فيه العلوم التجريبية والكونية على غيرها من العلوم ، فصارت وكأنها هي العلم دون غيرها.. وهذا لا يتفق مع الرؤية القرآنية والحكمة النبوية والتراث الإسلامي – وهذه مسألة معروفة عند الباحثين وليس هنا مجال بسطها – لذلك فأنا أوثر القول: تفسير الآيات الكونية، بدل التفسير العلمي.

فالمسألة كما رأينا هي في كيفية تفسير هذه الآيات وتوجيهها، وقد تبين لنا من خلال عرض مواقف العلماء أنهم لا يختلفون حول أصل تفسير هذه الآيات، بل كيف وفي أي مجال وبأي مقدار تتدخل معارفنا العلمية التجريبية والكونية المكتسبة في بيان معاني الآيات الكونية؟

وقد ظهر لنا أن في منهج تفسير الآيات الكونية **مآخذ** يجب الابتعاد عنها، و**حقائق** لا ينبغي الاختلاف حولها، و**قواعد** لا بد من مراعاتها:

[1] كيف نتعامل مع القرآن العظيم، يوسف القرضاوي، ص 375.

أولا: المآخذ

وقد لخصها المعارضون في النقاط الآتية:

1\ الانحراف بالقرآن عن مقاصده وطبيعته: كما عبر عن ذلك الإمام محمود شلتوت بالقول "**وأفضى بهم [التفسير العلمي] إلى صورة من التفكير لا يريدها القرآن ، ولا تتفق مع الغرض الذي من أجله أنزل.. لأن الله لم ينزل القرآن ليكون كتابا يتحدث فيه الناس عن نظريات العلوم ودقائق الفنون وأنواع المعارف**" وهذا كلام دقيق لا غبار عليه، فالتعامل مع القرآن الكريم كما لو أنه كتاب متخصص في علم من العلوم أو فن من الفنون وشرح آياته بالمعادلات الرياضية والأشكال الهندسية والمنحنيات البيانية أمر بعيد عن مقاصده وطبيعته، فالقرآن كتاب هداية ودين وهو كتاب واضح مبين، أما هذه العلوم فهي نتاج العقل والكشف والبحث في الدنيا، كما أن فيها من التعقيد ما يجعلها غير مفهومة أحيانا إلا عند المتخصصين.

وقد يسيء هذا النهج إلى النص القرآني، لاسيما إذا كانت المعلومات المعتمدة دون درجة الحقيقة العلمية الثابتة أو كان سياق الآيات لا يحتملها إلا بتكلف..

وقد يغرق أحدهم في التحليل العلمي حتى تضيع معالم الهداية التي تشير إليها الآيات، فيكون مثل المفسر ها هنا كمثل من جاءته رسالة تحذره بأن عدوا قادم للإجهاز عليه، فراح يتأمل عدد أسطر الرسالة والورق الذي كتبت عليه ونوع الخط المستعمل.. حتى جاء العدو وانقض عليه وقتله!.. فما يغنينا أن نحوِّل القرآن إلى رموز رياضية أو معارف كيميائية إذا ضاعت رسالته في التوحيد والتزكية والعمران؟

2\ التكلف وتحميل القرآن ما لا يحتمل: وهو أمر ينبغي اجتنابه حين تفسير الآيات الكونية لاسيما في ظل الهوس بالتقدم العلمي الذي صارت آيات القرآن تُحمل فيه على كل جديد، كما قال أحد الباحثين " **ينبغي ألا يتكلف الباحث فيحاول أن يدخل في القرآن كل شيء مستحدث في العلوم والصناعات، بدعوى شمول القرآن لكل شيء..، فإن القرآن جاء منهاجا دينيا شاملا، أما تفصيلات العلوم البشرية فليست من مقاصد القرآن، وإن**

قرر كثيرا من حقائقها وأصولها، كالطب والفلك تدليلا على عجائب القدرة الإلهية.. ومن ذلك ما يتكلف بعض الباحثين من موضوعات تفصيلية لم يعن القرآن بذلك أعيانها، فينسبها للقرآن، مثل بحث بعضهم في الأطباق الطائرة في ضوء القرآن، ومثل القنبلة الذرية في القرآن"[1] وقد وقع من ذلك الكثير، خذ مثلا " **عندما ركب الإنسان أول مركب في الفضاء، خف من يقول لنا إن هذه المركبة هي الدابة التي تخرج من الأرض لتكلم الناس،**[2] **ثم تبعه من يقولون: بل إن هذا نفاذ من أقطار السماوات والأرض بسلطان،**[3] **وأن هذا السلطان هو سلطان العلم، وغني عن البيان أن هذا وذاك مخالفان للعلم والتفسير والمنطق وسياق القرآن جميعا! فالمنزلق جاء هنا من عدم الإلمام بما في كتب التفسير.. أو حتى من عدم الحس الفطري والذوق البلاغي لهذا التحدي الشديد للإنس والجن أن يخرجوا من ملك الله وقضائه وإلى أين؟ هذا فضلا عن أن العلم لم يزعم على الإطلاق أن تلك القفزات القصار التي قفزها الإنسان خارج نطاق الجاذبية تعتبر خروجا من أي شيء، إلا في ذلك النطاق شديد التواضع أمام ملك الله الذي لا يحد، وكأني بمن يقول هذا يعني أن الإنس والجن قد قبلوا التحدي، ونجحوا في الانتصار عليه! وقد بلغ من خلابة المعنى أن تقبله بعض علماء الشريعة ولكني أشهد أنه بالحوار المقنع قد عدل عن هذا القول كثيرون."**[4]

ويشبه هذا قول من قال إن القرآن سبق العلم الحديث بكذا مئات من السنين في ذكر أن الذرّة ليست أصغر الجسيمات في تكوين المادة[5] مع أن المعنى اللغوي الذي استعمله القرآن للفظ الذرة وهي الهباءة يختلف عن معنى الذرة الفيزيائي الكيميائي المترجم عن اللفظ

---

1 المدخل إلى التفسير الموضوعي، عبد الستار فتح الله سعيد، ص

2 إشارة إلى قوله تعالى: (وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم)الآية، النمل، 82.

3 إشارة إلى قوله تعالى: (يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان)، الرحمان 33.

4 العلوم البيولوجية في خدمة تفسير القرآن الكريم، عبد الحافظ حلمي محمد، مجلة عالم الفكر، الكويت، العدد الرابع، سنة 1982م، ص70.

5 إشارة إلى قوله تعالى: (وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماوات ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين)، يونس،61.

الأجنبي (Atom) الذي يعني غير المنقسم أو غير القابل للانقسام[1] وسرد الأمثلة في هذا النوع يطول..

3ا تعريض المطلق الثابت لتحكمات النسبي المتغير: وهذا المأخذ يزداد اتساعا وخطورة كلما أقحمت الفرضيات والقضايا العلمية التي هي محل نظر ومثار جدل في تفسير القرآن، على سبيل الإثبات لا على سبيل الاحتمال.

وقد يغلب على المفسر ما أسماه سيد قطب – رحمه الله – بالانهزام الداخلي الذي يُجعل القرآن فيه تابعا لبعض معارفنا المتواضعة عن الكون، مع أن الأصل أن القرآن هو المطلق الثابت ومعرفتنا بالكون – مهما عظمت – هي نزر يسير في ملكوت الله:**(وما أوتيتم من العلم إلا قليلا).**[2]

وقد يدخل ضمن هذا المأخذ مسلك بعض من يدأبون على المقارنة بين نتائج العلوم الحديثة وما ورد في القرآن، ليخلصوا إلى أن القرآن الكريم قد سبق في القول بكذا وكذا.. قبل العلم الحديث! وكأن القرآن الكريم في سباق مع العلوم الحديثة، وهذا مظهر آخر للهزيمة الداخلية، فعندما ابتعد المسلمون عن المناخ العلمي الذي أشاعه بينهم القرآن وصار همهم المطابقة بين آياته وبين النتائج العلمية لبحوث غيرهم، واكتفائهم بنتيجة واحدة معروفة سلفا – لأنها تحصيل حاصل – وهي القول بالسبق الإلهي! وهل الإله الذي تسبقه مخلوقاته بالعلم أو بغيره إله؟

ولا شك أن هذا التوجه عقيم وغير مثمر، بل يغذي عناصر الضعف والتخلف لدى المسلمين، ويشعرهم بتفوق موهوم، فسبْق القرآن لا يعني سبْقَ المسلمين، بل قد يكون عارا عليهم، وكما قيل: وكم من قارئ للقرآن والقرآن يلعنه. وقد قال لي أحد الأساتذة – وكنا نناقش قضية علمية مستحدثة – إن القرآن قد سبق إلى ذكر ذلك قبل أربعة عشر قرنا! فقلت له: لئن كان ذلك صحيحا فإنه يدعو للخزي والعار لا للذكر والافتخار، فلماذا ذهَلْنا عن هذه الحقائق ولم نفد منها شيئا حتى جاء من يعلمنا إياها ممن لا يؤمنون بالقرآن؟ إن هذه عورة من عورات المسلمين التي تستر ولا تذكر!

---

[1] أنظر المرجع السابق.

[2] الإسراء، 85.

إن القرآن باعث على البحث والنظر والتأمل وليس مشجبا نُعلِّق عليه معارف الناس صحت أم بطلت.

ثانيا: الحقائق

وهذه لا ينبغي الاختلاف حولها وهي:

1 أول حقيقة يغفل عنها كثير من الناس هي أن أعظم هبة قدمها القرآن الكريم للمسلمين – وللإنسانية كافة – هي وضعهم في مناخ علمي وصحي، مستقيم على الفطرة السوية..

مناخ علمي لأنه يؤكد الأسباب الجزئية والسنن الكونية واطرادها وثباتها، ويرتب عليها المعرفة المكتسبة، ويعتبرها معرفة علمية ثابتة – خلافا للنصرانية مثلا – فهي لا تؤمن إلا بالعلة الأولى، وتعارض الأسباب الجزئية والحقائق العلمية كما تشهد بذلك محاكم التفتيش.

وصحي لأنه لا يقطع هذه الأسباب عن الله، بل يربطها بحكمته وعدله وقيوميته، وتصريفه لشؤون الكون، وليس كما في الوضعية التي تقطع الصلة بين الدين والعلم، **فدين الحضارة الحديثة يضحي بالعلم وعلمها يضحي بالدين**، وهذا الجو الموبوء الذي يتخبط فيه الإنسان المعاصر قد جنب القرآنُ الكريمُ المسلمين من الوقوع فيه..

إن هذه هي أعظم ثمرة من ثمرات القرآن المباركة في ميدان العلوم، إذ هيأ المسلمين للانطلاق في آفاق الأرض يبحثون في شتى ميادين العلوم والمعارف دون أن يشعروا أنهم يتحدون الله أو ينتهكون حرمات الدين، بل يزداد المسلم إيمانا ومكانة عند الله – في منطق القرآن – كلما ازداد كشفا ومعرفة لخبايا وأسرار الكون: **(إنما يخشى الله من عباده العلماء)**،[1] وإذا تحدث المسلمون عن الله لم يتنكروا لمعارف الكون: **(قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون)**.[2]

ومعلوم أن أصول العلم وحدودَه ووظائفَه كما بينها القرآن الكريم ليست مفيدة للمسلمين في بعثهم الحضاري فحسب، بل هي مفيدة أيضا للحضارة الحديثة والإنسان المعاصر في تدارك وتجاوز عقدة التصادم بين الدين والعلم، تلك الأزمة التي لا تزال تتسبب في انشطار

---

[1] فاطر ، 27 .
[2] الزمر ، 9 .

الضمير الإنساني وتسبب أزمة حادة في الحضارة المعاصرة كما عبر عن ذلك لوثين في خطبته الشهيرة،[1] إن هذه القضية – كما يقول الشيخ القرضاوي – : " **غاية في الأهمية، وهي لم تأخذ حقها من اهتمام الباحثين في الدراسات القرآنية، وفي رأيي أنها أهم من إشارات الإعجاز العلمي وهي: ما جاء به القرآن من تكوين العقلية العلمية التي ترفض الظن والخرص واتباع الأهواء والعواطف والتقليد الأعمى للأجداد والآباء.. وتنظر في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شيء، وتتعبد لله تعالى بالتفكر في الآفاق والأنفس.. وهذه العقلية التي ينشئها القرآن بوصاياه وتوجيهاته وأحكامه، هي التي تحقق الازدهار العلمي وتهيئ المناخ لظهور علماء يبحثون ويبتكرون في كل مجال، وهو ما حدث في الحضارة الإسلامية التي جمعت بين العلم والإيمان، بل اعتبرت العلم دينا والدين علما.**"[2] وهذا الكلام محل اتفاق وقد نبه إليه المحققون من العلماء والمفكرين المعاصرين أمثال الشيخ الغزالي الذي أفرد شطرا واسعا مما كتب ينبه المسلمين إلى ما بثه القرآن في آياته التي تحدثت عن الكون من روح المعرفة العلمية المبنية على التأمل والنظر، وأمثال المفكر مالك ابن نبي الذي يشيد بالجو الصحي الذي وضع فيه القرآن الإنسان المسلم عندما حثه على التعلم ولم تصادم عقيدته حقائق الكون.

2/ ومن الحقائق التي لا ينبغي الاختلاف حولها، أن القرآن الكريم إذ يتحدث عن الكون، فإنه يصف عناصره ووظائفه وصفا في منتهى الكمال عمقا وبلاغة، وهذه الحقيقة الثابتة مردها إلى مبدأ مسلّم وثابت، وهو أن الله عز وجل هو خالق الكون والعليم بأسراره ونواميسه، علم الصانع المبدع الذي لا يعزب عن علمه مثقال ذرة، وأنه تعالى هو منزل الكتاب الذي يتحدث عن الكون وعناصره وأسراره، إن صانع الوجود هنا هو من يتحدث عن الوجود.. حتى قال العلماء إن لله كتابان: كتاب مسطور هو القرآن، وكتاب منظور هو الكون، وقالوا الكون قرآن صامت، والقرآن كون ناطق.

---

[1] أنظر : نص الخطبة وتعليق الشيخ المودودي عليها، نحن والحضارة الغربية ، أبو الأعلى المودودي، دار الشهاب باتنة، الجزائر ، 1988 , ص 82 وما بعدها.

[2] كيف نتعامل مع القرآن العظيم، يوسف القرضاوي، ص401.

ومن مقتضيات هذه الحقيقة أن الاطلاع على أسرار الكون يعمق الفهم في كتاب الله، وأن التقدم العلمي يخدم حسن فهم القرآن الكريم، وأن العلم الصحيح بحقائق الكون يقود إلى العلم الصحيح بحقائق الدين.

فالمعلومات العلمية الكونية تعمل بلا ريب على تعميق مدلول النص القرآني وتوسيع فهمه ومداه لدى الإنسان المعاصر بما يقدم هذا العصر من علوم كونية وحقائق لم تكن معروفة من قبل تزيدنا اطلاعا على أسرا الآيات، وتوضح معانيها بالشواهد والأمثلة التي توافرت في العلم الحديث، خذ مثلا قوله تعالى: (وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون).[1] إن كل من يقرأ الآيتين يفهم معناهما إجمالا.. والمفسرون القدامى فسروهما بما علموا في زمانهم.. ولكن المتخصص في علم الحيوان.. أو علم النحل على وجه أخص يرى في الآية ما لا يراه القارئ العادي، ويستنبط من ألفاظها من المعاني والأفكار والمقاصد ما لا يخطر لأمثالنا ببال.. ومن ذلك قوله تعالى:(وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم)،[2] وقوله تعالى:(والجبال أوتادا)..[3]نفهم نحن معناها إذا قرأناها الفهم الإجمالي، وكذلك مر عليها المفسرون الأولون، لكن العالم المتخصص في علوم الأرض يرى فيها ما لا نراه.. من ذلك ما اكتشفه العلم من أسرار قوله تعالى: (أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه بلى قادرين على أن نسوي بنانه)،[4] من ذكر البنان خاصة دون غيره من الأعضاء، فلقد بين العلم الحديث ما يتميز به جلد البنان من خواص بحيث لا يتشابه بنانان لشخصين وإن كانا شقيقين أو توأمين، وعلى أساس هذا التمايز قام نظام البصمة الذي يقوم عليه التحقق من الهوية الشخصية."[5] والأمثلة في هذا المجال كثيرة يطول سردها، والذي أريد قوله هو أن لعلماء الكونيات فضل في تعميق فهمنا لنصوص القرآن، يذكر ولا ينكر.

[1] النحل , 68-69 .
[2] لقمان ، 10 .
[3] النبأ ، 7 .
[4] القيامة ، 3-4 .
[5] كيف نتعامل مع القرآن، المرجع السابق، باختصار وتصرف يسير. ص 386-387 .

ومن مقتضيات الحقيقة التي أثبتناها والمبدأ الذي بيناه – أيضا – أن للعلوم الكونية فضل في تصحيح بعض ما وقع فيه بعض المفسرين القدامى من أخطاء، لأنهم بنو تفسيرهم على السقف المعرفي الذي كان متاحا لهم، ومتداولا بينهم، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: **(ومن آياته خلق السماوات والأرض وما بث فيهما من دابة وهو على جمعهم إذا يشاء قدير).**[1] **فقد ذهب بعض المفسرين إلى أن قوله تعالى: (وما بث فيهما من دابة) يرجع إلى الأرض وحدها، وإنما ذكر ضمير التثنية (فيهما) لأن ما في أحد الشيئين يصدق أنه فيهما في الجملة!**[2] وهذا خروج عن ظاهر النص بلا بينة، اقتضاه اعتقادهم بأن السماوات ليس فيها كائنات حية وهو اعتقاد لا دليل عليه فيجب أن يبقى القرآن على ظاهره إذ لا شيء يستوجب الانصراف عن الظاهر، لاسيما والبحوث العلمية النظرية اليوم في الفيزياء والفلك لا تستبعد تصور وجود حياة في الكواكب الأخرى ويجتهد أصحابها محاولين اكتشاف هذه الحياة وهؤلاء الأحياء، ويصرفون في سبيل ذلك أموالا طائلة ويقدمون دراسات لأسرار المجرات مفيدة، فهل نشجع هذه البحوث تماشيا مع ظاهر القرآن أم نؤول النصوص ونقطع الطريق أمام المعرفة؟ لا شك بأن الاتجاه الثاني يخالف روح القرآن في تشجيع العلم الإعلاء من قدر العلماء.

ومن مقتضى الحقيقة الآنفة الذكر – كذلك – ظهور أهمية دور العلوم الكونية في شرح وتقريب الحقائق الدينية، بل وفي الاستدلال على العقائد وتنمية أثر الإيمان في النفوس، وذلك لدلالة عظمة الخلق ونظامه المتقن وعناية الله بمن فيه على وجود الله وعظمته جل في علاه، ولقد كان من الأخطاء المنهجية التي وقعت مبكرا في تاريخ الإسلام، أن ابتعد الفلاسفة والمتكلمون عن المنهج العلمي الاستقرائي وعن النظر في الكون – الذي هو منهج القرآن أساسا – في الاستدلال على العقائد الإسلامية، وانخرطوا في منهج الاستدلال العقلي الجدلي المبني على منطق اليونان على والبحوث العقلية النظرية، فتحدثوا عن الجواهر والأعراض والخلاء والملاء والجزء الذي لا يتجزء وغير ذلك من مصطلحات عصرهم وواضح أن القرآن ليس منبعها، وهذا ما استدركه عليهم ابن رشد

[1] الشورى ، 29 .
[2] أنظر المرجع السابق، ص 389 .

في كتابه "الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة" الذي ذهب فيه إلى أن منهج القرآن غير منهج المتكلمين في الاستدلال على العقائد يقول ابن رشد:" **فإن الناس قد اضطربوا كل الاضطراب في هذه الشريعة حتى ظهرت فرق ضالة وأصناف مختلفة كل واحد منهم يرى أنه على الشريعة الأولى.. وأن من خالفه إما مبتدع وإما كافر.. وهذا كله عدول عن مقصد الشارع، وسببه ما عرض لهم من الضلال عن فهم مقصد الشريعة..وكل هذه الطوائف قد اعتقدت في الله اعتقادات مختلفة وصرفت كثيرا من ألفاظ الشرع عن ظاهرها إلى تأويلات نزلوها على تلك الاعتقادات وزعموا أنها الشريعة الأولى.. وأن من زاغ عنها فهو إما كافر وإما مبتدع.**"[1] وكلام ابن رشد واضح في أن منهج القرآن وأدلته، بل ومقصوده من القدر الذي يجب حمل الناس عليه في الاعتقاد ومن الطريقة التي يجب الالتزام بها في الاستدلال قد تجاوزهما المتكلمون،[2] وأنهم حملوا اعتقاداتهم على النص القرآني وجعلوه مأموما لهم،ويرى الشيخ الغزالي أن هناك سببان لهذا الانحراف المنهجي، هما الثقافة اليونانية والصراعات السياسية، يقول في بيان السبب الأول: "**من الغفلة أن نحسب تكوين العقيدة يتم في مجلس مناظرة تتصيد فيها النصوص وينشد فيها الغلب ويلعب فيها بالألفاظ ويستغل منطق أرسطو في المخاتلة وإسقاط الخصم أمام العامة، وعفا الله عن أجدادنا فقد أولعوا بذلك**"[3] ويقول في وصف السبب السياسي: "**للظروف التي نشأ فيها علم الكلام أثر سيء في سرد حقائقه وصوغ دقائقه، فإن جحيم السياسة وتطاحن الأحزاب المختلفة أرسل شواظا من الأحقاد والمهاترات على ما دار بين الفرق القديمة من جدل حول طائفة من الأحكام الإسلامية لا نزال إلى اليوم نشقى بها برغم القرون الطويلة التي مرت عليها.**"[4]

وفي عصرنا الذي سمي عصر العلم نسبة لتعاظم المعارف الكونية، نجد كتابات تجديدية قيمة مثل (الإسلام يتحدى) و(الدين والعلم) لوحيد الدين خان، ومثل (الظاهرة

---

[1] الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة، أبو الوليد محمد بن أحمد ابن رشد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2002م، ص 25.

[2] راجع المصدر نفسه، 28-46

[3] عقيدة المسلم، محمد الغزالي، دار الدعوة للنشر والتوزيع، الإسكندرية، ط5، 2008م، ص6.

[4] المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

القرآنية) للأستاذ مالك ابن نبي، و(الله يتجلى في عصر العلم) الذي جمع شهادة مجموعة علماء أمريكان، و(لغز الحياة) لمصطفى محمود و(عقيدة المسلم) للشيخ الغزالي.. والقيمة المنهجية لهذه الكتابات تتمثل في أنها أبعدُ عن منهج البحث العقلي النظري، وأقربُ إلى روح القرآن وأسلوبه ومنهجه الاستقرائي العملي، وما ذاك إلا لأن هؤلاء العلماء جعلوا الحقائق العلمية الصحيحة في خدمة الحقائق الدينية الثابتة، مستعينين بعلوم الكون في تفسير آيات القرآن، وفهم أحكامه العقدية..

ومن أمثلة هذا النوع، ما كان يعتقده المشتغلون بالفلسفة والكلام قديما من نفي أن يرى الإنسان عمله في الآخرة بعد أن فرغ منه في الدنيا، وحجتهم أن الأعمال أعراض والعرض لا يبقى زمنين، لأجل هذا كانوا يؤولون مثل قوله تعالى **(يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليرو أعمالهم)**[1] وقوله سبحانه : **(ووجدوا ما عملوا حاضرا)**[2]، بأن المراد بالأعمال جزاؤها، أي ليروا جزاء أعمالهم!

فجاء العلم الحديث ليثبت أن أقوال الإنسان وأعماله كلها، يمكن أن تسجل وتصور ولو بعد زمن طويل..[3]

وإذا استطاع الإنسان أن يسجل الصوت والصورة وينقلهما في أفلام تسجيلية حية ناطقة ومتحركة، أفيعجز من لا يعجزه شيء أن يحضر للناس أقوالهم وأعمالهم يوم الحساب؟!

ثالثا: القواعد

وهذه يجب التزامها ومراعاتها:

1\ ضرورة اطلاع علماء الدين على مبادئ العلوم، وإلمام علماء الكون بثقافة شرعية: القرآن الكريم كتاب الكون كله كما هو كتاب الدين كله، كما قال الشيخ الغزالي رحمه الله في تفسير قوله تعالى: **(فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم**

---

[1] الزلزلة ، 6 .
[2] الكهف , 49 .
[3] كيف نتعامل مع القرآن العظيم، باختصار ، ص392.

إنه لقرآن كريم في كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون تنزيل من رب العالمين)[1] "**إن القرآن الكريم يشبه الكون الكبير الذي نعش فيه، بل إن اعتبار القرآن كونا معنويا يضارع الكون المادي الذي خلقه الله لفت نظري وأشرت إليه، إن الله يقسم بعظمة أحد الكونين على عظمة الآخر**"[2] والذي يتصدى لبيان معاني القرآن الكريم – في الموضوعات الكونية خاصة – من علماء الدين لا بد "**أن يكون ملما بمبادئ هذه العلوم الطبيعية والكونية ليستخدمها فيما لا بد منه من بيان معاني القرآن وتوضيح مقاصده ودلالاته، وإلا كان التفسير قاصرا عن اللحاق بالعصر وأهله.. ولا بد لمن يعيش في القرن الخامس عشر الهجري، أن يخاطب الناس بلسان هذا القرن لا بلسان قرون مضت.. وكما أن الفتوى تتغير بتغير الزمان والمكان، فإن تفسير القرآن، وشرح الحديث، وأسلوب الدعوة، [وهذا حال كل اجتهاد بشري]، كلها تختلف باختلاف الزمان والمكان كذلك. ولقد رأينا بعض المشايخ تعقبوا سيد قطب في (ظلاله) الشهيرة ينكرون عليه رحمه الله أشياء غريبة، مثل حديثه عن المجموعة الشمسية وعن المجرات الكونية وغير ذلك مما يدل على الجهل المطبق للمتعقب بهذه العلوم، وقديما قيل: من جهل شيئا عاداه، ويدل لذلك قوله تعالى: (بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله)**[3] "[4] .

وقد حدثني من لا أكذب حديثه من الأساتذة أنه سمع أحد المشايخ في درس عام يستهزئ بقول من يقول من الناس: إن الإنسان وصل إلى القمر، وكان يعلق على ذلك بالقول: هم يقولون إنهم صعدوا إلى القمر، دعوهم فلما يصير القمر هلال سيتساقطون الواحد تلو الآخر! وهو – لفرط جهله بعلوم الكون – يظن أن القمر هو الذي يتآكل ثم يعود وليس الضوء المنعكس عليه!!.. ومهما يكن من أمر ثبوت هذه الواقعة، فإنها لا تخلو من دلالة، فكثير من المثقفين قبل العوام مازال ينتصر لخرافات وخيال جامح على حقائق العلم الثابتة وسننه المطردة، وهذه الضحالة في معرفة العلوم الكونية تسيء إلى

[1] الواقعة ، 75-79 .
[2] كيف نتعامل مع القرآن، محمد الغزالي، نهضة مصر، ط8، 2002م، ص85.
[3] يونس ,39 .
[4] كيف نتعامل مع القرآن العظيم ، يوسف القرضاوي ، ص 380.

سمعة القرآن غاية الإساءة، ولا يليق بمن يتصدى لتفسير القرآن أو التحدث عن الإسلام أو الدعوة إليه أن يكون بهذا المستوى.

وبالمقابل، تجد كثيرا من علماء الكون لا علم لهم بقواعد التفسير، وعلوم اللغة وأسرار البلاغة، فيحملون ألفاظ القرآن على ما شاع أو أُحدث من مصطلحات، ويأتون بالغرائب في تفسير بعض النصوص المرتبطة بالموضوعات الكونية، بل ويظن بعضهم أنه وحده يفهم هذه الآيات دون غيره، وكثيرا ما يكون الإعجاب بنتائج العلوم، والتسرع من غير تثبت، وعدم الاستعانة بكتب التفسير وأصحاب الاختصاص سببا لذلك المسلك الخاطئ – حتى مع تقدير حسن القصد – ومن أمثلة ذلك ما أشار إليه عبد الحافظ حلمي بالقول: **"وثمة مثال آخر لا يقل غرابة ومجافاة للحقيقة عن سابقيه، وهو قول من رأوا بأن المقصود من إنقاص الأرض من أطرافها[1]، إشارة إلى النقصان البطيء المستمر للمحور الطولي للأرض نتيجة دورانها كما تدل عليه القياسات العلمية.. والعجيب أن هذا الرأي يتقبله بعض المتحفظين مع أنه مخالف تماما للسياق القرآني في الموضعين [من سورتي الرعد والأنبياء]، إذ أنه إشارة إلى انتقاص أرض الكفار بما يفتحه الله للمؤمنين منها نشرا لدعوة الحق وقراءة الآيات السابقة واللاحقة مباشرة للآيتين المشار إليهما كفيلة بالإقناع لمن يريد أن يقتنع."[2]**

يقول الإمام محمود شلتوت:" **ومن عجيب ما رأينا من هذا النوع أن يفسر بعض الناظرين في القرآن قوله تعالى: (فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين يغشى الناس هذا عذاب أليم)[3] بما ظهر في هذا العصر من الغازات السامة، والغازات الخانقة التي أنتجها العقل البشري فيما أنتج من وسائل التخريب والتدمير، يفسرون الآية بهذا ويغفلون عن قوله تعالى: (ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون أنى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون)[4] "[1] .**

---

[1] يشير إلى الآية :(أولم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها) ، الرعد ، 41 . والآية :(بل متعنا هؤلاء وآباءهم حتى طال عليهم العمر أفلا يرون أنا نأت الأرض ننقصها من أطرافها أفهم الغالبون)، الأنبياء، 44.

[2] العلوم البيولوجية في خدمة تفسير القرآن، مرجع سابق ص:71 .

[3] الدخان 10-11 .

[4] الدخان 12-14.

ونحن لا نعيب على علماء الكون تأثرهم بثقافتهم في فهم القرآن فذلك أمر عادي، بل إن علماء الكون قد ينتبهون لما لا ينتبه إليه علماء الدين عموما وعلماء التفسير خصوصا في فهم بعض الآيات الكونية، ولكن البعد عن الغلو والجهل والغرور والدعوة إلى التعاون والتكامل أمر مطلوب من الجميع.

ولو أن الناس راعوْا هذا الضابط المنهجي في فهم المعنى العلمي للنص دون تجاوز المعنى اللغوي والشرعي الثابت، واستعان في تحقيق ذلك أهل العلوم الكونية بالمفسرين، واستعان المفسرون بعلماء الكون، احتراما للتخصص، وامتثالا لقوله تعالى:(**فاسأل به خبيرا)**[2]، لاستدركوا كثيرا من هذه الأخطاء في تفسير الموضوعات الكونية الواردة في القرآن الكريم ولأفادوا واستفادوا.

2\ التزام الحقائق التي لا اختلاف حولها: مما ذكرته أنفا، بمعنى التركيز على ما يشيعه القرآن الكريم من بناء العقلية العلمية ومحاربة التقليد والخرافة، وتوجيه المعارف الكونية التي أشار إليها القرآن لخدمة حقائق الدين وتقريبها من الناس ومخاطبتهم بلسان العصر لتثبيت الإيمان ونصرة الحق، وتفسيرها بما يدل على صدق القرآن، وبما يبين حكمة التشريع وأحقيته بالاتباع – حكمة تحريم الزنى وشرب الخمر وأكل لحم الخنزير وأكل الميتة وغير ذلك مما أثبت الطب الحديث أضراره البالغة – والاستفادة منها في تعميق فهمنا لمدلولات النصوص – كتلك التي يصف الله تعالى فيها الأجنة ومراحل تكوينها كما قال تعالى: **(ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين)**[3] أو التي يتحدث فيها عن السحب وأنواعها كما قال سبحانه: **(ألم تر أن الله يزجي سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به**

---

[1] تفسير القرآن الكريم ، الأجزاء العشرة ، مرجع سابق ، ص12 .
[2] الفرقان، 59.
[3] المؤمنون ، 12-14 .

من يشاء ويصرفه عن من يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار)[1] وقوله سبحانه: **(الله الذي يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفا)**[2]، فما كنا لنفهمها بالعمق المطلوب لولا شروحات علماء الكون، وإن كنا نفهمها إجمالا.[3]

3\ البعد عن المآخذ المسيئة للتفسير وللعلم معا: وذلك بالبعد عن إلصاق كل جديد من العلوم بالقرآن، فالقرآن لا يحتاج إلى ذلك، وتجنب الجزم بأن معنى الآيات هو ما كشفته العلوم، حتى لا يتعرض القرآن الذي هو الحق المطلق إلى تحكمات معارفنا النسبية، كما يجب البعد عن التكلف والتمحل والتأويل البعيد.

ومن الجدير بالذكر التنبيه إلى التمييز هنا بين الإعجاز العلمي الذي هو حديث القرآن عن حقائق الكون بما لم يكن للناس به علم وقت نزول الوحي، حديثا واضحا لا لبس فيه ولا غموض على سبيل النص أو الظاهر، وبين التفسير العلمي الذي لا يرقى إلى هذه الدرجة من الوضوح واليقين لما فيه من ظن واحتمال.

كما ينبغي أن يلتزم المفسر مقاصد القرآن وطبيعته ككتاب دين يهدي الناس إلى الله ولا يتعامل مع الكتاب العزيز على أنه كتاب (علمي متخصص) في فنون المعرفة الكونية بالمعنى الأكاديمي للكلمة، فكتاب الله أعظم من ذلك وهو في موضوعه كامل غاية الكمال كما أشرنا إلى ذلك في عرض كلام الشهيد سيد قطب – رحمه الله – في تفسيره.

وبمراعاة هذه الضوابط المنهجية، **سيكون التفسير الموضوعي للموضوعات الكونية في القرآن الكريم،** سواء تعلقت بحديث القرآن عن السماء والرياح والسحب والنجوم والأفلاك.. أو بحديث القرآن عن الأرض وفجاجها وجبالها وأنهارها، أو خلق الإنسان ونشوئه وتكوينه، أو النبات، أو الحيوان، أو ما منعه أو ما أحله الله وبارك فيه من الأطعمة والأشربة و غير ذلك.. **سيكون فتحا جديدا للتفسير والإعجاز والحث على التقدم الحضاري على حد سواء.**

---

[1] النور , 43 .

[2] الروم ، 48 .

[3] أنظر على سبيل المثال: آيات الله في الآفاق ، عبد المجيد الزنداني ، طبعة مكتبة القرآن، القاهرة،1993م , ص 15-21. وفيه كلام نفيس في تفسير الآيات الكونية.

المطلب الثاني

منهج التفسير الموضوعي والعلوم الإنسانية في القرآن

ذكرت سابقا أن من ضوابط التعامل مع القرآن الكريم بالنسبة للعلوم الكونية ألا يبتعد التفسير عن طبيعة القرآن ووظيفته ككتاب هداية يخرج الناس من الظلمات إلى النور، وألا يفسر بوصفه كتاب علوم متخصص يكشف لنا عن قوانين الفيزياء وقواعد الكيمياء ونواميس النبات والحيوان..

وخلصت إلى القول إن ما ذكر من ذلك في القرآن هو بقصد بيان البعد الإلهي للنص القرآني، وبقصد خدمة الدين وتعزيز مكانة الإيمان، وإن يكن ما ذكره القرآن عن هذه العلوم هو الحق بعينه وفي غاية الدقة والكمال..

وهذه الحقائق تصدق على العلوم الإنسانية أيضا.. غير أن لموضوعات العلوم الإنسانية نوع من **الخصوصية**، وأعني بالعلوم الإنسانية: علوم التاريخ والنفس والاجتماع والاقتصاد والسياسة والإعلام وغيرها.. مما يرتبط بالسلوك الحضاري للأفراد، والرقي الحضاري للأمم، هذه الخصوصية تتمثل في ارتباط هذه العلوم – بحكم موضوعها – أشد الارتباط بطبيعة القرآن ووظيفته، فهداية القرآن والتغيير الذي دعا إليه يتقاطعان مع موضوع الحضارة الذي يدرس كيفية إخراج الناس من الهوان إلى التمكين ومن ظلمات الجهل والفوضى والتخلف إلى نور العلم والنظام والتحضر.. هنا يتقاطع موضوع علوم العمران – أي: العلوم الإنسانية – مع وظيفة القرآن.

وعلى العكس من الآيات القرآنية التي تشير إلى العلوم التي تدرس سلوك المادة، فإن الآيات التي أشارت إلى العلوم التي تدرس سلوك الإنسان من تاريخ ونفس واجتماع واقتصاد.. لم تحظ – في التفسير والدراسات القرآنية – بالدراسة المطلوبة من قبل الباحثين، مع ما يعج به الكتاب العزيز من حقائق حولها، ومع ارتباط الهداية القرآنية بموضوعاتها، ومع أهميتها في حياة الناس.. إن التقليد في علوم المادة فيه بعض الخطر، لكن الغزو في علوم الإنسان فيه كل الخطر!

وبالرجوع إلى ما في القرآن الكريم من نفائس الحكمة في موضوعات العلوم الإنسانية، وبعد الاستقراء نجد أن القرآن الكريم تناول أمر هذه العلوم من زوايا أربعة:

1- **الزاوية القرآنية الأولى:** التأكيد على الأسباب، فالقرآن يؤكد أن نشاط الإنسان على الأرض فردا وجماعة مبني على سنن وقوانين، ترتبط نتائجها بمقدماتها، فلا مكان في خلق الله للعبثية: **(أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا)**[1] ولا للمصادفة العمياء: **(أيحسب الإنسان أن يترك سدى)**[2]، ولا للفوضى والفساد: **(لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا)**[3]، بل كل شيء عند الله بمقدار ودقة ونظام وقانون.. وسلوك الناس لا يخرج عن هذا: **(فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله)**،[4] **(وخلق كل شيء فقدره تقديرا)**..[5] وبهذا يقطع القرآن الكريم الجدل الدائر حول علمية هذه العلوم وإمكان استنباط قوانين منها وتعميمها.. كما يؤسس القرآن العظيم للعقلية العلمية التي ترفض الخرافة والوهم وحصول الأقدار من غير أسباب، فالتاريخ في القرآن – مثلا – علم له قوانينه وسننه التي لا تتبدل ولا تتغير، وعندما حكا القرآن عن ذي القرنين الذي جاب الأرض مشرقا ومغربا، قال تعالى: **(وآتيناه من كل شيء سببا)**[6]، وهذا يدل على أن لكل شيء سبب، حتى قال ابن تيمية – رحمه الله – :" **ليس في الدنيا والآخرة شيء إلا بسبب والله خالق الأسباب والمسببات.** [7]"

2- **الزاوية القرآنية الثانية:** هي حثُّ العقل على البحث في علوم الإنسان، واستثارته لاستنباط القوانين: **(وفي أنفسكم أفلا تبصرون)**[8]، فالقرآن لم يكتف بالتأكيد على مبدأ وجود القوانين في الساحة الإنسانية، بل حث العقل على استكشافها،

---

[1] المؤمنون ، 115 .
[2] القيامة ، 36 .
[3] الأنبياء ،22 .
[4] الروم ، 29 .
[5] الفرقان , 2 .
[6] الكهف ، 83 .
[7] مجموع الفتاوى، أحمد ابن تيمية، ج8، ص 70.
[8] الذاريات،21.

واستثمارها فيما يرضي الله: **(أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها)**[1]، **(لقد كان في قصصهم عبرة)**[2]، **(فاعتبروا يا أولي الأبصار)**[3]، والعبرة مما مضى لا تكون ممكنة إلا بشرطين هما: وجود قانون يجعل نتائج الأفعال الواحدة نتائج متماثلة، وإمكان العلم بالقانون والإحاطة بتفاصيله..وفي هذا ما فيه من حث القرآن العقل على البحث عن موطن العبرة كي يتعظ بها.

3- **الزاوية القرآنية الثالثة:** هي إعطاء نماذج تطبيقية توضح بعض هذه السنن وتجعلها مثالا للبحث والتأمل، ففي مجال الحضارة يقول سبحانه **(وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا)**[4]، أنظر أنظر كيف ربط القرآن الفسق والترف بزوال نعمة الحضارة وحصول الهلاك، إنه قانون وسنة لا تحابي عنه أمة من الأمم، ومثل ذلك: **(إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم)**[5]، **(وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون)**[6]وغيرها.. وفي مجال النفس وعلومها – مثلا- تجد الوصف القرآني الدقيق لنفوس المؤمنين وهي تنصت لتلاوة القرآن، من قشعريرة جلودهم، ثم لينها واطمئنان قلوبهم بذكر الله، ووصفه الدقيق لانفعالات المشركين بالقرآن والهروب من سماعه واللغو فيه، واشمئزازهم من ذكر الله واستبشارهم بذكر غيره، ووصفه أيضا لانفعالات المنافقين بالقرآن التي تتوخى الحذر من نزول آية فتفضح ما في نفوسهم..الخ إن القرآن يعطي الباحثين مجالا للتأمل في انفعالات النفوس المختلفة أمام مؤثر واحد هو هنا: القرآن الكريم، ومن النماذج التطبيقية، حديث القرآن عن أنواع النفوس، من الأمارة بالسوء إلى اللوامة إلى المطمئنة، ومن ذلك حديث القرآن

[1] محمد , 11 .
[2] يوسف ، 111
[3] الحشر , 2 .
[4] الإسراء ، 16 .
[5] الرعد ، 11 .
[6] هود ، 117 .

عن طبيعة الإنسان الثنائية بين المادة والروح ومتطلبات كل جانب: **(وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين)**[1]، وهذه الحقيقة القرآنية مخالفة لما درج عليه الغربيون من النظرة إلى الإنسان على أنه جسد ومادة وحسب، فحتى مشاعر المحبة والكراهية ليست سوى إفرازات في الغدد وتغيرات في الهرمونات!.. ومخالفة لما يراه الشرقيون من أن الإنسان روح والمادةُ ظلُها.. إن المادة والروح في منطق القرآن حقيقتان موضوعيتان.. وسرد النماذج والآيات يطول، ولعل فيما ذكر غناء عما لم يذكر.

4- **الزاوية القرآنية الرابعة:** الغائية في القوانين والسنن الإلهية، فالقرآن لا يعرض لنا علوم الإنسان على أنها قوانين مبعثرة ومفككة، بل يعرضها على أنها صنعة خالق واحد يتصف بالحكمة والعدالة والحياة.. ولذلك فهي قوانين حية، حكيمة وعادلة، لكل مجال فيها وظائفه التي تتكامل مع وظائف غيره، فقوانين الكون متكاملة كما لو أنها أعضاء في جسم واحد أو قطع من آلة واحدة، ولها جميعا غاية معينة إذا حادت عنها حادت عن الفطرة.. إنها طبيعة الأشياء كما يتحدث عنها القرآن، ومن خان الحقيقة انتقمت منه، ولنتأمل قوله تعالى: **(فلما آسفونا انتقمنا منهم)**[2] وقوله عز وجل: **(فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى)**[3]، وقوله سبحانه: **(ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون)**.[4]

هكذا يتبين أن التفسير الموضوعي بإشراك المؤمنين الصادقين المتخصصين في مختلف مجالات العلوم الكونية والإنسانية، وبتجاوز الصعوبات المنهجية المتمثلة في: احترام الضوابط التي ذكرنا، والتزام الحقائق، واجتناب المآخذ.. والاستفادة من الزوايا

---

[1] سورة ص ، 70-71 .
[2] الزخرف ، 55 .
[3] طه ، 121-124 .
[4] الأنبياء ، 104 .

المختلف للرؤية القرآنية سيسهم في تجديد التفسير من جهة، وتطوير العلوم من جهة ثانية، بما يخدم الهداية العامة إلى رضوان الله سعادة الناس.

وسيثمر التفسير – بحول الله – إذا جعل القرآن مبدأ لتدارك نقطة ضعف المسلمين – والتي هي نفسها نقطة قوة الحضارة الحديثة – وذلك بتدارك التأخر في الإحاطة بمنهج الاستقراء الذي بني عليه البحث عن حقائق الكون، وتأسس عليه البحث في علوم بناء الحضارة. وأحرى بالمفسر الذي يتعرض للآيات التي موضوعها مظاهر الكون أو علوم الإنسان أن يجعل من تدارك هذا الخلل العظيم هدفا لدراسته في التفسير.

المبحث الثالث

موقع التفسير الموضوعي بين مناهج المفسرين

تعددت أنواع التفسير ومناهج المفسرين في مكتبة التفسير وعلوم قرآن وتنوعت تنوعا كبيرا، ولا شك أن هذا التنوع هو نتيجة تراكم كمي ونوعي للتفسير بما لم يعرف زمن النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته رضي الله عنهم والتابعين لهم بإحسان، وإنما تروي ضخامة هذه المكتبة قصة التفسير كيف نشأ وأين وصل، كما رأينا في مطلب سابق عن المنحى العام لتطور التفسير.

والملاحظ أن القرآن الكريم الذي هو مصدر الهداية منذ جيل الصحابة، كان السبب في النقلة النوعية للمسلمين من حالة الجاهلية إلى الحالة الإسلامية، دون أن يحتاجوا إلى كتب هزيلة أو ضخمة في التفسير، فملكتهم اللغوية وتعليم النبي لهم ومعايشتهم لجو نزول القرآن، كل ذلك أغناهم عن دروس مطولة بله مؤلفات في التفسير.. فكانت المعادلة أن جانب العمل والتطبيق طغى على جانب الفهم والتفسير.

لكن القرون الطويلة التي مرت على الأمة الإسلامية والتغيرات التي النوعية التي عرفتها قلبت المعادلة، فدخول الأعاجم في الإسلام والبعد عن جو السليقة العربية، وتطور الحياة المدنية وتوسع رقعة انتشار المسلمين، كل ذلك جعل التفسير يتحول من قطرة إلى بحر، وما زال يتوسع منذ عصر التدوين الأول إلى يوم الناس هذا. كما رأينا سابقا. واليوم ننظر إلى هذا التراث الكبير وهذه الموسوعات العظيمة المتنوعة، فنجد تفاسير بالأثر وأخرى بالرأي، تفاسير فقهية وأخرى كلامية، تفاسير تحليلية وأخرى موضوعية.. فنتساءل: على أي أساس قسم العلماء أنواع التفسير ووفق أي اعتبارات؟ وأين موقع التفسير الموضوعي من هذا الكم والنوع الهائلين؟

وباستقراء ما في مكتبة التفسير وعلوم القرآن من تصانيف نستنتج وجود اعتبارات ثلاث:

. أنواع التفسير باعتبار المصدر الغالب عليها.

. أنواع التفسير باعتبار الموضوع العام.

. أنواع التفسير باعتبار مناهج المفسرين.

ومع أنني قد تحدثت في المطالب الأولى عن بعض هذه الأنواع إلا أنه لا مناص من إعادة ذكر بعض المسائل باختصار وفي سياق مختلف أرمي فيه إلى بيان موقع التفسير الموضوعي من هذا التنوع كله.

المطلب الأول

موقع التفسير الموضوعي من أنواع التفسير باعتبار المصدر الغالب

وهما التفسير بالأثر والتفسير بالرأي، وقد ذكرت من قبل أن التفسير بالمأثور هو النوع الذي اعتمد الرواية والنقل، ومثلت له بالدر المنثور للسيوطي . رحمه الله . وقد جمع فيه روايات كثيرة وأقوال أثيرة، ويعتبر من هذا الصنف أيضا . إلى حد ما . تفسير الإمامين الطبري وابن كثير، ولا يخلو كتاب في التفسير من النظر إلى جانب الأثر.

وكنت قد بينت عيوب هذا النوع الذي جعل أغلب العلماء يفزعون إلى التفسير بالرأي، ونبهت بأن المقصود به الرأي المحمود والاجتهاد الذي هو من أهله وفي محله، وإذا كان ابن تيمية قد انتصر للتفسير بالمأثور، فأبو حامد الغزالي دافع عن التفسير بالرأي.[1]

وأشير هنا إلى أن التفسير الموضوعي سواء تعلق بدراسة المفردة القرآنية أو السورة الواحدة أو الموضوع القرآني، فهو من النوع الذي يعتمد الرواية والدراية، ويضيف التأويل إلى التفسير، والاجتهاد إلى النص، والعقل إلى النقل.

فالتفسير الموضوعي بالنسبة لهذا التقسيم والاعتبار يعتمد تفسير القرآن بالقرآن، وهذه الطريقة عمدة فيه، كما يعتمد تفسير القرآن بالسنة، لا بالنظر إليها كأحاديث متفرقة فحسب، بل بالنظر إلى مجموعها وروحها وهدي النبي صلى الله عليه وسلم وسيرته كلها، فكل ذلك كان ترجمة عملية للقرآن، كما يستنبط بالرأي السديد الهدايات ويبين مقاصد

---

[1] أنظر: إحياء علوم الدين، ج1، ص378 وما بعدها.

القرآن في مختلف الموضوعات ويشرح على ضوء النصوص حقائق العلم الكونية وفوائد القرآن التربوية.. ولا يعزف عن الأخذ بأي قول جديد سديد مفيد.

الإجابة عن السؤال السابق: أين موقع التفسير الموضوعي بين نوعي التفسير، أهو تفسير بالأثر أم تفسير بالرأي؟ هي: إنه تفسير بالرواية والدراية[1] لكنه يمتاز بالتمسك بالقطعي والصحيح من الرواية فلا تقبل فيه الروايات الواهية والموضوعة، ولا يقبل الإسرائيليات،[2] كما يتميز بانتقاء الأجود من النظر، الأبعد عن الشذوذ والأقرب إلى هداية القرآن والأكثر التزاما بضوابط الفهم الصحيح وشروط الاجتهاد.

المطلب الثاني

موقع التفسير الموضوعي من أنواع التفسير باعتبار الموضوع العام

رأينا في المطلب السابق كيف اختلف العلماء حول مسألة احتواء القرآن على علوم الأولين والآخرين من عدمه، فدافع عن الرأي الأول جماعة من العلماء منهم القاضي أبو بكر ابن العربي، حيث يقول:"**علوم القرآن خمسون علما، وأربع مائة علم، وسبعة آلاف علم، وسبعون ألف علم، عدد كلم القرآن..**"[3] يريد بذلك أن العلوم التي يشتمل عليها القرآن الكريم لا قرار لها ولا نهاية..

كما رأينا الإمام الشاطبي يعارض هذا التوجه في التعامل مع القرآن، ويدعو إلى التزام معهود العرب خوفا من أن يقول الناس في القرآن ما يشتهون كما فعلت الباطنية.

والملاحظة الأساسية هنا، هي أن التفاسير تنوعت تبعا لهذا الاعتبار بداية من علوم الدين إلى شؤون الدنيا، تأثرا بالرأي الأول.

[1] يرى الدكتور عبد الستار فتح الله سعيد أنه إلى التفسير بالأثر أقرب، كونه يعتمد تفسير القرآن بالقرآن، وقد بينت رأيي عندما عرضت تعاريف التفسير الموضوعي، وفي تقديري فإن تفسير القرآن بالقرآن وكذا بالسنة ليس محض رواية ونقل بل فيها مساحة كبيرة من النظر وقد وضحت هذا الرأي في الشروط العلمية للمفسر.

[2] للعلماء في رواية الإسرائيليات مذاهب، ولكننا رجحنا ما ذهب إليه الشيخ الغزالي من أن عدم روايتها أولى فليس عند أهل الكتاب ما نحتاج إليه، بل هم من يحتاج إلى القرآن الكريم وهو الوحي النقي المحفوظ إلى يوم الدين.

[3] أنظر: دراسات في التفسير الموضوعي للقصص القرآني، أحمد جمال العمري، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط2، 2001م، ص19.

وكان ذلك حسب ما سمحت به البيئة الثقافية في كل مرحلة تاريخية وحسب حاجة الأمة وثقافات المفسرين واختصاصاتهم، أي حسب متطلبات مسار السياق الحضاري للأمة الإسلامية.

ومن أجل أن القرآن هو كتاب العربية الكبير، ولا يفهم خطابه إلا على وفق ما يفهم به الخطاب العربي، وجدنا علماء اللغة ينظرون إلى التفسير على أنه شرح المفردات ومعاني العبارات، والنظر في الإيجاز والإعجاز، ووجوه الإعراب والبلاغة.. و من جهودهم نشأ التفسير اللغوي، كتفسير أبي حيان التوحيدي.

ولأن القرآن الكريم هو محور الحياة الإسلامية كلها، وجدنا التفسير انعكاس لما وجد في البيئة الثقافية الإسلامية من توجهات وأفكار، فمن رحم الصراعات المذهبية بين الفرق نشأ التفسير الكلامي، ومن رحم الخلافات الفقهية نشأ التفسير الفقهي لآيات الأحكام، ومن الأشواق والتطلعات الروحية وجد التفسير الإشاري وهكذا..

ولما تغيرت سمة العصر وثقافة المفسرين، انعكس ذلك على التفسير أيضا فظهرت أنواع جديدة منه كالتفسير العلمي الذي يعنى بتفسير الآيات الكونية.

ولما أصبحت الأمة في حاجة إلى بعث وحركة وإصلاح ظهر عند الإمام محمد عبده وتلميذه الشيخ رشيد رضا التفسير الاجتماعي أو السنني وهكذا..

وهذا ما فصل القول فيه الشيخ محمد حسين الذهبي إذ **لما كان القرآن كتابا جامعا فيه العقيدة والتشريع والهداية والاعتبار والحجج والقصص والتاريخ، وآيات الإعجاز العلمي في الطبيعة. ولما كان إلى جانب ذلك كتابا عربيا لا يقاربه كتاب آخر.. فإننا لا نعجب حين تطالعنا في مكتبة القرآن الكريم، تفاسير جمة.. تفاسير اتجه أصحابها إلى الأحكام الفقهية، مثل: أحكام القرآن لأبي بكر الجصاص، ومثله لأبي بكر بن العربي، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي.. وتفاسير اتجه أصحابها إلى استخلاص آيات الإعجاز أو إلى دراسة النحو أو تسجيل القراءات**.."[1] فكان هذا التنوع الكبير في مكتبة التفسير

[1] التفسير والمفسرون ، محمد حسين الذهبي، ج ، ص205 وما بعدها، وراجع: دراسات في التفسير الموضوعي للقصص القرآني، ص21.

وظهرت الموسوعات الضخمة التي تؤرخ للثقافة الإسلامية في عصور بعينها بقدر ما تنقل من المعرفة والهداية.

والغريب أن من الناس من وقف موقفا مناقضا تماما لهذا الاتجاه، فحرم التفسير بإطلاق إلا أن يكون نقلا لرواية حتى قال بعضهم: "**لا يجوز لأحد أن يتعاطى تفسير شيء من القرآن، وإن كان عالما أديبا، متسعا في معرفة الأدلة والفقه، والنحو والأخبار والآثار، وليس له إلا أن ينتهي إلا إلى ما روي عن النبي في ذلك** ."[1]

وهذا الرأي قريب مما كان يروج له بعض رجال الطرق عندنا في الجزائر في زواياهم إذ كانوا يحرمون على مريديهم وعلى الناس السؤال عن تفسير القرآن، بدعوى خطورة شأنه والخوف من مزالق الخطأ، وفي الحقيقة كان الاستعمار الفرنسي يشجع هؤلاء ويحارب حركة الإصلاح التي اتخذت من تفسير القرآن منهجا للتربية والتغيير.

وبين الإفراط في التوسع والاستطراد، وحشو كتب التفسير بما يتصل بها وما لا يتصل، والتفريط الذي وصل حد القول بتحريم التفسير، يتموقع التفسير الموضوعي كمنهج وسط يأخذ من القرآن بقدر حاجة الناس، ويخاطبهم بأسلوب عصرهم، الذي يتميز اليوم بالكلية والعموم، والبساطة والاختصار، وفي هذا المعنى يقول الشيخ الغزالي:"**إنني أعتقد أن عصرنا الحاضر هو عصر التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، وليس عصر التفسير الموضعي، وإن كان الأخير لابد منه على أن يكون خادما وممهدا للأول، فالعقل الإنساني ارتقى كثيرا هذه الأيام، وتفاسير القرآن يجب أن تطّرد في عمومها مع مقتضيات العصر الحاضر، ولا يكفيني أن أشرح القرآن جملة جملة ولا كلمة كلمة، إنني أريد أن أقول للقارئ خذ عرضا عاما لسورة آل عمران مثلا، وسوف تراها تدور على محورين، نصفها الأول حوار مع أهل الكتاب، ونصفها الثاني تعليق على هزيمة معركة أحد**"[2] ثم يقول في شرح هذا الإجمال والإيجاز: "**عندما أعطي هذا الخط العام للسورة فإنني أعود مرة أخرى فأبرز الخطوط الخفية التي تشد أجزاء السورة كما تشد الأعضاء أجزاء الجسم، فيظهر للقارئ أن الآيات ليست مركومة في الأوراق كيفما اتفق وإنما هي**

---

[1] الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، ج2، ص 475.

[2] حوار مع الشيخ الغزالي، أداره أستاذنا عبد الحليم عويس، في مجلة الفيصل، العدد 189، ص 11.

مرتبة ترتيبا دقيقا"[1] وبهذا الأسلوب كتب الشيخ الغزالي كتابه "نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم" فجرد تفسيره من الاستطرادات والروايات الضعيفة والإسرائيليات، وكل الحجب الكثيفة التي تحول بين القارئ وبين هداية القرآن في قوتها ونصاعتها وشفافيتها.

والخلاصة أن موقع التفسير الموضوعي باعتبار هذا التصنيف مبني على الاقتصاد في التفسير بين التوسع والحضر، بما يبين عن مقاصد القرآن في ضوء حاجة الناس وطبيعة العصر، لأن التفسير الموضوعي أساسا جاء لسد حاجات حقيقية وليس وليد فراغ أو ترف فكري.

المطلب الثالث

موقع التفسير الموضوعي من أنواع التفسير باعتبار المناهج

للمفسرين دوافع وأسباب تجعل كل فريق يختار منهجا معينا في تفسيره، وأنواع التفسير بحسب مناهج المفسرين تنقسم عادة إلى أربعة أنواع، أحدها التفسير الموضوعي، والثلاثة الأخرى هي: التفسير التحليلي، التفسير الإجمالي، والتفسير المقارن. ويكتفي بعض الباحثين من جهة التقسيم المنهجي العام بنوعين هما: التفسير الموضعي، والتفسير الموضوعي.

ولأجل تفصيل هذا الإجمال ومعرفة موقع التفسير الموضوعي من هذه الأنواع وعلاقته بها أفصل القول كالآتي:

أولا : التفسير التحليلي والتفسير الموضوعي

1-ما هو التفسير التحليلي:

التفسير التحليلي هو النمط الذي يسير فيه المفسر مع سور القرآن الكريم حسب **ترتيب التلاوة** التوقيفي، ومع آيات السور وجملها، آية فآية، وجملة فجملة، ويتوسع في تفسيرها وتأويلها، ويفصل الكلام ويستطرد، ويعرض المسائل العديدة في اللغة والنحو والبلاغة، والفقه والكلام والتصوف، ورواية الأخبار وعرض أوجه القراءات.. فيمضي –

---

[1] المرجع السابق، ص11.

كما يعبر أحد الباحثين – " **المفسر في تفسيره للقرآن مع النظم القرآني على ما هو موجود مرتب في المصحف، محللا آية بعد آية وسورة بعد سورة، متتبعا معاني المفردات، ذاكرا ما تتضمنه المعاني في جملها، وما ترمي إليه في تركيبها، منقبا عن المناسبات بين مفاصلها.**"[1]

يقول عبد الفتاح الخالدي موضحا معنى التفسير التحليلي: "**في التفسير التحليلي يقف المفسر أمام كل آية، ويقوم بتحليلها تحليلا موسعا مفصلا، ويتحدث أثناء التحليل عن مختلف الموضوعات والمباحث والمسائل.. ويقدم المفسر في ذلك ثقافة موسوعية متنوعة شاملة.**"[2]

ويقول عبد الستار سعيد عن التفسير التحليلي "**هو الذي يتبع فيه المفسر ترتيب المصحف، فيشرح جملة من القرآن، أو سورة، أو القرآن كله، على النمط الموضعي، ويبين ما يتعلق بكل آية من مناسباتها، وسبب نزولها، ومفرداتها، ونحو ذلك مما يتقرر به معناها.**"[3]

من هنا، يتبين لنا أن التفسير التحليلي ليس على درجة واحدة من حيث المنهج أو من حيث النوع بل هو موحد في النمط التحليلي العام، وفي الشكل العام الذي يتبع ترتيب المصحف ويقف عند آياته وسوره على الترتيب، سواء فسر القرآن كله أو وقف عند حدود تفسير جزء منه.

ومن جهة الكم – كذلك – تختلف التفاسير التحليلية، إذ نجد منها ما هو متوسط الحجم مثل تفسير البيضاوي وتفسير الزمخشري وتفسير النسفي وتفسير ابن عطية وتفسير أبي السعود وتفسير القاسمي.

كما نجد منها ما يعد موسوعات ضخمة مثل تفسير الطبري وتفسير الرازي وتفسير الألوسي وتفسير ابن عاشور.

---

[1] دراسات في التفسير الموضوعي للقصص القرآني، مرجع سابق، ص 38-39.
[2] التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق، مرجع سابق، ص 27 .
[3] المدخل إلى التفسير الموضوعي ، مرجع سابق ، ص 16 .

إن ما يجمع بين هذه التفاسير جميعا هو أنها سائرة على النهج التحليلي، ومهما اختلف أصحابها واختلفت طرقهم في تناول التفسير، أو اختلفت المدارس التي ينتمون إليها.[1]

ويلاحظ على التفاسير التحليلية – متوسطة كانت أم كبيرة – أن "**صورتها النهائية – أو قل وزنها الفني – بوصفها تفسيرا لكتاب الله الكريم، يجعلها بعيدة عن الهدف المقصود، نائية عن الغرض المنشود الذي أراد رب العزة من إنزال كتابه هداية للناس.**[2] فهي تغرق في التفاصيل على حساب الفكرة المركزية للموضوع أو الغرض الأساسي للسورة القرآنية، مما يبعد بها عن مقاصد القرآن في هداية الناس.

2– الفرق بين التفسير التحليلي والتفسير الموضوعي

أجمل أهم الفروق كالآتي:

1. المفسر في التفسير التحليلي يلتزم بالترتيب التوقيفي للسور والآيات في المصحف الشريف بينما يلتزم المفسر الموضوعي ترتيب آيات الموضوع المدروس، وتتحكم في الترتيب اعتبارات أخرى تتعلق بعناصر الموضوع وطريقة العرض والمعالجة وزاوية النظر وتاريخ النزول، وما إلى ذلك..

2. في التفسير التحليلي تتعدد الموضوعات والأغراض بحسب ما يرد في الآيات والسور، في حين يلتزم المفسر الموضوعي بعناصر موضوعه لا يبرحها، فهو يهدف إلى علاج أمور وقضايا تتعلق بالموضوع المدروس كما يهدف إلى إبراز موضوعات القرآن بعناوين ميسرة وواضحة تسهل على الناس الاطلاع على ما في القرآن من هداية وإرشاد في موضوع بعينه على وجه يطمئن إليه القلب.[3]

3. عقد السيد محمد باقر الصدر مقارنة جيدة بين التفسير الموضوعي والتفسير التحليلي ذهب فيها إلى أن التفسير الموضوعي يبدأ بالواقع الخارجي ويعرض التجربة البشرية بنقائصها على القرآن الكريم، بينما التفسير التحليلي يبدأ من القرآن وينتهي إلى

---

[1] أنظر : التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق (باختصار وتصرف) ص 28.

[2] دراسات في التفسير الموضوعي للقصص القرآني ، ص 40 .

[3] أنظر: التفسير الموضوعي، دراسة نظرية وتطبيقية، منصور كافي، ص 58-59.

القرآن، أي أنه لا يبرح دائرة النص[1].. لكن هذا الوصف وإن صدق على بعض التفاسير التي تفتقد البعد الواقعي، فإنه غير مسلّم كفرق بين المنهج الموضوعي والمنهج التحليلي، فالتفسير التحليلي ليس بالضرورة تفسيرا نصيا، بل فيه الأبعاد العقلية والعلمية والواقعية وغيرها..

كما أن في المنهج الموضوعي – أيضا – موضوعات قرآنية مستنبطة من صلب النص القرآني، يسطر القرآن فيها قواعد وسنن يهتدي الناس بها في واقع حياتهم.. مع التأكيد على البعد الواقعي في التفسير الموضوعي، لأن دراسة الواقع وإيجاد حلول له من القرآن الكريم، هي مسألة أساسية في التفسير الموضوعي تحدد أولوية الموضوع الذي تجب دراسته، حسب مطالب الزمان، وحاجات الإنسان..

4. ذهب باقر الصدر . أيضا . إلى أن ما يميز التفسير الموضوعي، أنه يحاول الخروج من دراسة الموضوع بمركب نظري قرآني، بمعنى أن يصل إلى نظرية قرآنية، عن النبوة أو عن المذهب الاقتصادي أو عن سنن التاريخ.. بينما التفسير التحليلي يقف عند إبراز المدلولات التفصيلية للآيات القرآنية.[2] وهذه مسألة أساسية في الفرق بين المنهجين التحليلي والموضوعي.. كما يتميز التفسير الموضوعي باختيار الآيات التي تشترك في موضوع واحد على غرار ما فعل الفقهاء في تبويب مباحث الفقه وموضوعاته والمفسرون في جمع آيات الأحكام، بخلاف التفسير التحليلي الذي يسير فيه المفسر مع نظام الآيات والسور، مهما بدت الموضوعات والأغراض مختلفة أو متنوعة.

3- التكامل بين التفسير التحليلي والتفسير الموضوعي

من المهم التنبيه، بل والتنويه بالعلاقة التكاملية بين التفسيرين التحليلي والموضوعي، بل وبين كل أنواع التفسير المعتبر، التي لا يمكن في الواقع الفصل بينها فصلا حديا رياضيا، بحيث تنقطع وشائج القربى بينها ويكون لكل نوع مجاله ونتائجه المختلفة.. فعلى الأقل إن مجال البحث واحد هو كلام الله عز وجل والمقصد واحد هو

---

[1] أنظر: المدرسة القرآنية، محمد باقر الصدر، ص 25-28.

[2] أنظر وجهة نظر باقر الصدر في كتابه : المدرسة القرآنية ص 25-33.

بيان المعنى والإرشاد القرآني بقدر الوسع والطاقة، وإنما الاختلاف هو على مستوى المنهج المحتذى.. وحتى هذا الاختلاف ينبغي النظر إليه على أنه "**اختلاف تنوع وتعاضد وليس اختلاف تعارض وتضاد.**"[1]

إن العلاقة التكاملية تظهر جلية بين التفسير الموضوعي والتفسير التحليلي وإن يكن لكل نوع من أنواع التفسير مزاياه التي يفتقر إليها غيره.

ومن مزايا التفسير التحليلي السائر على وفق النظم القرآني، إظهار طريقة القرآن الخاصة في عرض المسائل والأغراض المختلفة، وبيان السياقات كما ينصبُّ على بيان المناسبات الموضعية، ومعرفة المعاني التحليلية الدقيقة للألفاظ والجمل والآيات والمقاطع.

فالتفسير التحليلي "**ينصب على معرفة دلالة الكلمة اللغوية، ودلالتها الشرعية، والتعرف على الرابط بين الكلمات في الجملة، وبين الجمل في الآية، وبين الآيات في السورة، وكذلك التعرف على القراءات وأثرها على دلالة الآيات، ووجوه الإعراب ودورها في الأساليب البيانية وإعجاز القرآن.. وغيرها من الوجوه التي تساعد على إجلاء المعنى وتوضيح المراد** [2].

ومما لا ريب فيه، أن هذه المسائل الدقيقة لا يستغني عن الإحاطة بها المفسر الموضوعي، فلا يمكن كشف الهدايات والمقاصد، أو صياغة النظريات والقواعد، أو رسم سبل العمل بالقرآن والاهتداء به، من غير إحاطة بدقائق التفسير المتعلقة بمعاني الألفاظ ومناسبات النزول وأسبابه والاطلاع على السياقات والسباقات وغير ذلك مما هو من شأن التفسير التحليلي.

من هنا كانت العلاقة بين التفسير التحليلي والتفسير الموضوعي علاقة تكامل، ويمكن القول: إن التفسير الموضوعي هو حالة تالية للتفسير التحليلي ترتكز عليه ولا تتوقف عنده، أو إن التفسير التحليلي هو الأرضية التي يقف عليها وينطلق منها التفسير الموضوعي.

---

[1] أنظر : مباحث في التفسير الموضوعي، مصطفى مسلم، ص 52.

[2] المرجع نفسه، ص52 .

ثانيا : التفسير الإجمالي والتفسير الموضوعي

1. ما هو التفسير الإجمالي

التفسير الإجمالي هو المنهج الذي يسير فيه الباحث وفق النظم القرآني، متتبعا معاني الجمل والآيات في السور وما ترمي إليه من المقاصد أو تكشف عنه من الهدايات، لكنه يتوخى الإجمال في عرض معاني القرآن، أي أنه بعد استيعاب المعاني والأغراض التي تشير إليها الآيات موضع البحث والتفسير، يلجأ المفسر إلى ضياغة التفسير بأسلوبه الخاص، صياغة إجمالية تقرب المعاني إلى أفهام الناس، كما يحاول المفسر ربط أسلوبه بأسلوب القرآن الكريم، ويأتي أحيانا بألفاظ القرآن نفسه حتى يجعل القارئ أو السامع دائم الصلة والتركيز مع النص القرآني الأصلي .

وكذا فإن التفسير الإجمالي هو ذلك المنهج الذي "**يبين فيه المفسر خلاصة معنى الآية أو الآيات التي يفسرها، ويبرز مقاصدها، ويشرح الدقيق من ألفاظها وسبب نزولها، حتى يتقرر المعنى العام بلا دخول في تفاصيل كثيرة.. وهذا النوع قد سلكه المحدثون في تقدمة التلاوة بالإذاعة والمقصود منه إعطاء فكرة إجمالية عما يتلوه القارئ من القرآن الكريم، حتى يكون السامع كاشفا لمرامي ما يتلى عليه، واعيا لمقاصده، ملما بما بأطرافه.**"[1]

ومما يتسم به هذا النوع من التفسير أن أكثره شفهي، يلجأ إليه الدعاة الذين يحدّثون الناس في أحاديث مذاعة أو خطب مسموعة، ولذلك اكتسى هذا التفسير الإجمالي أهمية أكبر في وقتنا الحاضر كونه يلائم طبيعة العصر من هذا الوجه، إذ هو تفسير يقوم على "**الإجمال والإيجاز والاختصار، حيث يقوم المفسر بتفسير القرآن.. بدون توسع أو تفصيل أو تطويل في التحليل، وبدون زيادة في المباحث التفصيلية في العقيدة أو اللغة أو الفقه.. ومن التفاسير الإجمالية للقرآن الكريم: الوجيز في تفسير الكتاب العزيز للواحدي النيسابوري، ومجاز القرآن لأبي عبيد معمر بن المثنى، وتفسير الجلالين**

---

[1] المدخل إلى دراسة التفسير الموضوعي، ص 17 .

للسيوطي والمحلي، وصفوة البيان لمعاني القرآن لحسين مخلوف."[1] وصفوة التفاسير للصابوني وتفسير محمد فريد وجدي..

من المهم أن نلاحظ كذلك أن التفسير الإجمالي لا يستغني عن التفسير التحليلي، بل يرتكز عليه، فإن من يريد تفسير القرآن إجمالا "**لا يستطيع أن يعبر عن موضوع الآيات التي يريد التعبير عنها بأسلوبه الخاص لتقريب المعاني وإبراز جوانب الهداية منها ما لم يلم بتفصيلات التفسير التحليلي لاستجلاء المعنى المراد ثم صياغتها بأسلوب يتناسب مع المدارك الثقافية للمخاطبين.**"[2]

2. الفرق بين التفسير الموضوعي والتفسير الإجمالي

تتلخص الفروق الأساسية بين التفسير الإجمالي والتفسير الموضوعي في أن المفسر في المنهج الموضوعي يلتزم بموضوعه الرئيس وعناصره المكملة، فلا ينشغل الباحث أثناء بحثه إلا بآيات الموضوع المدروس، بينما نجد المفسر على النهج الإجمالي – كما في التفسير التحليلي – يتبع نظام ترتيب السور والآيات في المصحف، متتبعا على – وجه الإجمال – ما ترمي إليه آيات القرآن وجمله، مهما اختلفت أغراضها وتباينت جملها.

ويفهم من كلام الشيخ محمد الغزالي . الذي سبق ذكره من قريب . أن التفسير الموضوعي للسورة القرآنية يبدأ بعرض مجمل لمعانيها قبل الغوص في البحث عن دقائق الروابط بين أجزاء السورة بما يؤلف بين أغراضها، وبذلك يكون التفسير الإجمالي خطوة أولى في سبيل التفسير الموضوعي للسورة.

ثالثا: التفسير المقارن والتفسير الموضوعي

1. ما هو التفسير المقارن

---

[1] التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق، ص 27 .

[2] مباحث في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ص 52 .

تكلم بعض الباحثين عن هذا النوع من التفسير وعرفه بأنه: "**يتبع فيه المفسر تفسير آية من القرآن أو جملة من آيات، ويستخلص نتائج المقارنة، سواء من معاني الآيات الكريمة أو من كلام المفسرين.** "[1]

ففي التفسير المقارن "**يقوم الباحث بإجراء مقارنات بين عدة مفسرين على اختلاف مناهجهم، حيث يجمع بين تفسيرهم لسورة قصيرة، أو مجموعة آيات، أو موضوع من موضوعات الإيمان أو الفقه أو اللغة، وذلك ليتعرف على منهج كل مفسر، وطريقته في تناول موضوعه، أو مدى التزامه بمنهجه وسيره على خطوات طريقته، ثم يقارن بينه وبين المفسرين الآخرين في ذلك، ثم يعرض عمل هؤلاء المفسرين على الميزان الصحيح، في تحديد أحسن طرق التفسير.**"[2]

إن نتيجة هذه المقارنة في التفسير تمكن الباحث من الوقوف على جهود المفسرين – قدماء ومحدثين – وتقييمها والحكم لها أو عليها ثم انتقاء أصح الأقوال وأشبهها بالحق، وكأني بمنهج التفسير المقارن شبيه بمنهج الدراسة في الفقه المقارن.

وهذا النوع لا يرد على شكل تفسير كامل للقرآن الكريم، وليس من شأنه ذلك، بل هو مقارنات في موضوعات محددة، عقدية أو لغوية أو فقهية أو غيرها فقد "**نقارن بين الزمخشري والرازي والقمي والبيضاوي والنسفي وأبي السعود والألوسي، في تفسيرهم لآيات زيادة الإيمان، أو آيات رؤية الله في الآخرة، وقد نقارن بين الطبري والرازي والزمخشري وابن كثير في الآيات التي تتحدث عن صفة العلو لله أو عن استوائه على عرشه، أو عن السحر أو عن أحكام الصيام.**"[3] ويخشى أن يكون التفسير المقارن بهذه الصفة يتعامل مع التفاسير المختلفة أكثر مما يتعامل مع النص القرآني نفسه، فيتحول إلى تفسير من الدرجة الثانية، أو تفسيرا غير منتج، والأمة منذ قرون الانحطاط عانت من تفاسير التفاسير وشروحات الشروحات تهذيبات التهذيبات.. وكنا لقرون عديدة كمن يحرث في البحر نبتعد عن مصادر الهداية الأصلية إلى وسائط ثانوية مع العلم بأن الغرض من

---

[1] المدخل إلى التفسير الموضوعي، ص17 .
[2] التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق، ص 28 .
[3] المرجع السابق، ص 28.

التجديد هو العودة إلى التعامل المباشر مع النص القرآني الذي هو أصل الهداية ومعين النور، فلننتبه إلى ذلك.

ولعل من المجالات التي يقدم فيها التفسير المقارن فائدة للتفسير الموضوعي هي مجال المقارنة في الموضوعات التي تختلف حولها الفرق والمذاهب وتتعدد فيها الاجتهادات، ومجال المقارنة في الموضوعات التي يوهم ظاهر النص فيها التعارض، وكذا مجال موضوعات القصص القرآني التي نجد القرآن يعبر فيها عن الحادثة الواحدة بأساليب متعددة.. فيسهل التفسير المقارن بحشده أقوال العلماء من مختلف المشارب على التفسير الموضوعي أن يختار أقوى الاجتهادات وأرجحها وأوفقها مع مقاصد القرآن العامة.

كلمة جامعة عن صلة التفسير الموضوعي بمناهج التفسير الأخرى

من الجدير بالذكر أن الصيرورة إلى التفسير الموضوعي باعتباره المنهج المفضل الذي يلائم حاجة العصر وطبيعة القرآن، لا ينبغي أن يفهم منه الاستغناء عن أنواع التفسير الأخرى،" **هذه الأفضلية لا تعني استبدال اتجاه باتجاه، وطرح التفسير التجزيئي رأسا، والأخذ بالتفسير الموضوعي، وإنما إضافة اتجاه إلى اتجاه، لأن التفسير الموضوعي ليس سوى خطوة إلى الأمام بالنسبة إلى التفسير التجزيئي.. إذن فالمسألة ليست مسألة استبدال، وإنما هي مسألة ضم الاتجاه الموضوعي في التفسير إلى الاتجاه التجزيئي، يعني افتراض خطوتين، خطوة هي التفسير التجزيئي، وخطوة أخرى هي التفسير الموضوعي.**"[1]

إن التفسير الموضوعي لا يمكنه الاستغناء عن أنواع التفاسير الأخرى.. ففي شرح المفردات والتراكيب لبعض المقاطع أو الآيات، يحتاج التفسير الموضوعي إلى التفسير التحليلي.

وفي صياغة المفسر الموضوعي لفقرات موضوعه، وتقرير المعنى العام لبعض الآيات، يستعين بالتفسير الإجمالي للقرآن الكريم.

[1] أنظر : المدرسة القرآنية، باقر الصدر، ص37-38.

وفي الاختيار أو الترجيح أو الموازنة يفتقر التفسير الموضوعي إلى التفسير المقارن.

كما يحتاج التفسير الموضوعي إلى التفسير بالرواية فيما ينقل من الأثر، وإلى التفسير بالدراية فيما يختار من النظر.

وقد أجاد الأستاذ مصطفى مسلم في وصف هذه العلاقة التكاملية بين مناهج التفسير وأنا أنقلها هنا باختصار وتصرف، قال: "أما الباحث في التفسير الموضوعي، فاعتماده على جميع الأنواع المتقدمة من التفسير أمر أساسي في كتابته ومنهجه ولا غنى له عن أحد الأنواع.

إذ يعتبر هذا اللون من التفسير ثمرة الأنواع كلها، ويعتبر التفسير الموضوعي مرحلة متخصصة متأخرة عن مراحل الأنواع السابقة ولذلك:

1. عندما يجمع المفسر الآيات المتعلقة بموضوع من الموضوعات، لابد من الرجوع إلى دلالات الكلمات التي تعبر عن هذا الموضوع بشكل صريح أو تشير إليه إشارة، أو يكون الموضوع من لوازم هذه اللفظة أو العبارة، أو نتيجة من نتائج استخدام هذه العبارة.

وكثيرا ما تستخدم الجملة أو الآية الواحدة في موضعين مختلفين، ويكون لها دلالة مختلفة حسب الموضع وحسب السياق والسباق عن موضوع دلالة الموضع الآخر، فالباحث في التفسير الموضوعي لابد أن يكون مدركا إدراكا تاما لأقوال المفسرين الذين كتبوا في التفسير التحليلي لهذه الآيات.

2. وكثيرا ما تتباين أقوال المفسرين الذين كتبوا في تحليل النص القرآني، بحيث لا يمكن الجمع بينها، والآيات القرآنية حمّالة للوجوه المتعددة فلابد للمفسر الذي يكتب في موضوع ما، ووجد هذه الأقوال في تفسير آية تتعلق بموضوعه، لابد من وقفة متأنية دقيقة، ونظرات ثاقبة للترجيح بين هذه الأقوال، ومعرفة المصيب منها وغير المصيب، وليختار القول المناسب لموضوعه من هذه الأقوال بغية توضيح عناصر الموضوع والربط

بين الأساليب القرآنية في أداء المعنى، وبالتالي للوصول إلى الهدايات القرآنية المتعلقة بالموضوع مجال البحث، وهذا هو التفسير المقارن.

3. ولما كان الموضوع الذي يتناوله الباحث في التفسير الموضوعي حسب أحد منهجين لا ثالث لهما: **تناول الموضوع [والمفردة] من خلال القرآن:** فعندئذ، لابد من تقسيم الموضوع إلى عناصر حسب تناول الآيات الكريمة لها، وللتعبير عن العنصر الذي استنبطه من خلال الآيات، لا مناص من اللجوء إلى التفسير الإجمالي، ليوضح هذا العنصر وشرحه وسوق الأدلة له. **أو تناول الموضوع من خلال سورة قرآنية:** وعندئذ، لابد من تقسيم السورة إلى مقاطع حسب ترتيب الآيات في السورة.. وللتعبير عن مضامين هذه المقاطع، وتوضيح الهدايات القرآنية منها، ثم ربطها بالهدف الأساسي للسورة.. لابد للباحث من اللجوء – أيضا – إلى التفسير الإجمالي في طريقة عرضه لأهداف السورة، وربط المقاطع بمحور السورة لإبراز الهدف الأساسي فيها.

والخلاصة أن أنواع التفسير متداخلة متساندة، لا يستغني المفسر وفق نوع منها عن الأنواع الأخرى.. خاصة الباحث في التفسير الموضوعي، لابد أن يكون على مستوى رفيع من الإحاطة بأنواع التفسير الأخرى، لأن الأنواع الأخرى من التفسير هي اللبنات الأولى والمادة الأولية التي يريد إقامة بنيان تفسيره الموضوعي عليها "[1] .

كما خلص الشيخ عبد الستار فتح الله سعيد إلى أن "**ألوان التفسير جميعا تجتمع وتتعاون ولا تتعارض، وتأتلف لخدمة القرآن العظيم، ولا تختلف.**"[2]

بين التفسير الموضوعي والتفسير الموضعي

هناك اعتبار آخر للتصنيف أكثر عموما شمولية، يعتبر كل أنواع التفسير واتجاهاتها ومناهجها – عدا التفسير الموضوعي – فروعا لنوع واحد هو **التفسير الموضعي.**

فما هو التفسير الموضعي؟

---

[1] أنظر : مباحث في التفسير الموضوعي، مصطفى مسلم، ص 52-54.

[2] المدخل إلى التفسير الموضوعي، ص 18.

هو ذلك النوع الذي "**يرجع فيه المفسر إلى موضع واحد من القرآن الكريم متتبعا ترتيب الآيات في سورها، وهذا اللون قد يكون بالمأثور أو بالرأي المحمود، [وقد يكون عقديا فقهيا أو لغويا..]، وقد يكون تحليليا عند التفصيل، أو إجمالي عند الاختصار، وقد يكون مقارنا إذا اتبع المفسر منهج الموازنة.**"[1]

إن المفسر في كل أنواع التفسير– عدا التفسير الموضوعي – كان يلتزم موضعا من القرآن لا يبرحه إلى موضع آخر حتى يتم تفسيره، ومن هنا جاءت تسميته بالتفسير الموضعي.

إن هذا النمط من التفسير هو ما سارت عليه جل التفاسير في القديم والحديث وعلى مدار تاريخ الإسلام من قرون[2] فكانت تتبع مواضع الآيات لا موضوعاتها.

في حين أن التفسير الموضوعي – على ما رأينا سابقا – مختلف عن هذا النوع، إذ يلتزم المفسر فيه بالموضوع لا بالموضع، ويدرس الموضوع من خلال القرآن أو من خلال السورة الواحدة، ليخلص إلى نظرية القرآن أو موقفه الثابت حيال الموضوع المدروس والقضية المعروضة.

وقد أطلق السيد باقر الصدر على التفسير الموضعي اسم التفسير التجزيئي فيما يقابل التفسير الموضوعي الذي أطلق عليه – أيضا – التفسير التوحيدي، فكان التفسير عنده اتجاهان: "**المنهج الذي يتناول المفسر ضمن إطاره القرآن الكريم آية فآية، وفقا لتسلسل تدوين الآيات في المصحف الشريف، والمفسر في إطار هذا المنهج يسير مع المصحف ويفسر قطعه وأجزاءه تدريجيا..[في مقابل هذا نجد] الاتجاه التوحيدي أو الموضوعي في التفسير، هذا الاتجاه لا يتناول تفسير القرآن آية فآية، بالطريقة التي يمارسها التفسير التجزيئي، بل يحاول القيام بالدراسة القرآنية لموضوع من موضوعات الحياة، العقائدية أو الاجتماعية أو الكونية..**"[3]

---

[1] المرجع نفسه، ص17.

[2] التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق، ص 40-41.

[3] المدرسة القرآنية، مرجع سابق، ص12 .

ومن الممكن تلخيص أهم الفروق بين المنهج الموضوعي في التفسير والمنهج الموضعي على النحو الآتي:

1- المفسر في التفسير الموضوعي يركز نظره على واقع الحياة وقضايا العصر، بحكم دراسته لقضية لها أولوية الحياة، وتمثل موضوعا أساسيا من موضوعاتها، فهو يدرج المشكلات الواقعية وتجارب الحياة – بنقائصها وأخطائها – ضمن منهجه التفسيري، ويجلس إلى القرآن الكريم جلسة إيجابية، يكون فيها محملا بالأسئلة والهموم، وليس خالي البال، فيستفهم القرآن، ويطلب منه الحق والهداية للتي هي أقوم.. ثم يصوغ الإجابات القرآنية التي تمكن من استنباطها – وكل يأخذ على قدر مكنته وصدقه – في نظرية تبين موقف القرآن من المسائل المطروحة عليه، والتفسير الموضعي لا يدعي أن من مقتضيات منهجه القيام بعمل من هذا النوع بل هو يقدم المعاني اللفظية والشرعية للآيات والمقاطع حسب ترتيبها في المصحف.

2- التفسير الموضوعي – كما سبقت الإشارة – يقف على أرضية هي التفسير الموضعي، لكنه يقفز إلى خطوة تالية، فإذا كان التفسير الموضعي يبحث في معاني الآيات ويحلل مدلولاتها، فإن التفسير الموضوعي، يربط بين هذه المدلولات ويؤلف منها قواعد كلية تنتظم هذه الجزئيات في تكامل يبين عن الحقائق والتصورات الكلية في القرآن الكريم، وعن إجاباته عن تحديات العصر المتكاثرة.

الفصل الخامس

الضوابط العلمية والأخلاقية في منهج التفسير الموضوعي

المبحث الأول

الضوابط العلمية لتفسير القرآن عموما.

المبحث الثاني

الضوابط الأخلاقية للمفسر.

المبحث الثالث

ضوابط التفسير الموضوعي.

المبحث الأول

الضوابط العلمية لتفسير القرآن عموما

لعلم التفسير هيبته، إذ هو الرواية عن الله كما قيل، والإقبال على كلام الله بالشرح وبيان المراد على قدر الوسع ليس كإقبال على أي كلام، من هنا قال أبو حامد الغزالي: " **فهم عظمة الكلام وعلوه وفضل الله سبحانه وتعالى ولطفه بخلقه في نزوله عن عرش جلاله إلى درجة إفهام خلقه.. ولو لا استتار كنه جلالة كلامه بكسوة الحروف لما ثبت لسماع الكلام عرش ولا ثرى، ولتلاشى ما بينهما من عظمة سلطانه وسبحات نوره.**"[1]

إن عظمة القرآن الكريم وتقديسه هو من عظمة الله الكبير المتعال وتقديس ذاته، واستصحاب هذه العظمة عند تفسير القرآن يلقي في روح المفسر هيبة وحذرا وطاقة نفسية تبعث فيه النشاط كي لا يألو جهدا في سبيل استنباط المعاني الصحيحة والهدايات المتيقنة من القرآن وتقديمها للناس في أحسن وجه وقد نبه الإمام ابن تيمية على بعض هذا المعنى بالقول: "**على المسلم في تفسير القرآن أن يشعر نفسه حين يفسره بأنه مترجم عن الله تعالى، شاهد عليه بما أراد من كلامه، فيكون معظما لهذه الشهادة، خائفا أن يقول على الله بلا علم، فيقع فيما حرم الله، فيجزى بذلك يوم القيامة.**"[2] مستدلا بقوله تعالى:**(قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون)**[3]، **وقوله سبحانه: (ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة أليس في جهنم مثوى للكافرين).**[4]

من هنا فالتفسير ليس ساحة مستباحة، فلا ينبغي لأي كان أن يتهجم على القول في القرآن بلا علم بأصول التفسير، ويقول بمحض الظن والتخرص فيكون مخطأ وإن أصاب المعنى، آثما وإن حسن الظن به، فمن فعل ذلك فقد هوى بنفسه في جهنم والعياذ

---

[1] إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي ، ج 1, ص367-368.
[2] أنظر: شرح أصول في التفسير وشرح مقدمة التفسير، محمد بن صالح العثيمين، القاهرة، ط1، 2006م، ص106 - 108.
[3] الأعراف، 33 .
[4] الزمر ، 60 .

بالله، لافتئاته على الله، كما قال عليه الصلاة والسلام: "**من فسر القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار**."[1]

ولقد رأينا . فيما سبق . من الصحابة وكبار التابعين من علماء السلف من تورع عن القول في القرآن بغير النقل والرواية عن الرسول عليه الصلاة والسلام فكيف إذا لم يستند التفسير لا إلى رواية ثابتة ولا إلى دراية صحيحة؟

ورأينا أيضا حين استيسرت الأمة القول في القرآن بالهوى، كيف تمزقت في التاريخ مزقا كل فرقة تُجري على لسان القرآن ما تهواه أو تعتقده أو تجد فيه مصلحة لها ودعما لمذهبها..

ثم إن القرآن الكريم هو المرجع الأساس الأول لأصول الإسلام وفروعه، وكل ما عداه من الأدلة والأصول هو فرع عنه، إنه حبل الله المتين وكلمته التي ألقاها إلى الناس وآمن بها جموع المسلمين، فإذا انقطع هذا الحبل الذي يربط الناس بربهم، أو حُرّف الكلم عن مواضعه كان ذلك إيذانا بضياع مخيف للناس.

ومن صميم إدراك العلماء لخطورة شأن التفسير، وجدناهم يضعون شروطا وضوابط واجبة الامتثال لمن يصلح أن يكون معدودا في صفوف المفسرين، سواء كان التفسير موضعيا أو موضوعيا، فهي ضوابط عامة للتفسير المعتبر من حيث هو تفسير بصرف النظر عن المنهج الذي يعمله المفسر، مع أن للتفسير الموضوعي بعض الخصوصية أشير إليها . أثناء العرض العام . في موضعها.

هذه الضوابط هي في جوهرها "زاد معرفي" و"وآلة منهجية" و"ومواهب شخصية".عرضها علماء القرآن في كتبهم كما فعل الإمامان الزركشي في البرهان والسيوطي في الإتقان، وعرضها المفسرون في مقدمات تفاسيرهم كما فعل الأئمة الطبري وابن كثير قديما ورشيد رضا وابن عاشور حديثا. وممن تكلم في هذه الضوابط والشروط أيضا، ابن القيم والشوكاني وابن الوزير اليماني وغيرهم.. وكتب ابن تيمية مقدمة في أصول التفسير قال فيها، إنها جواب لمن سأله عن قواعد كلية تعين على فهم القرآن

---

[1] أخرجه الترمذي رقم 3204، وقال: حديث حسن صحيح. أنظر سنن الترمذي، طبعة المكنز الإسلامي، القاهرة، ج2، ص743.

ومعرفة تفسيره ومعانيه والتمييز في منقوله ومعقوله بين الحق وأنواع الأباطيل.[1] فبيّن . رحمه الله . أنه أفرد كتابه لشرح هذه الشروط.

ولقد اختلفت تسميات العلماء لضوابط التفسير مع الاتفاق عموما على معانيها، فسماها الزركشي في البرهان . وتبعه السيوطي في الإتقان . "مآخذ التفسير"، وعَنَيَا بها ما يؤخذ منه التفسير، فهي بمثابة الروافد، وبمنزلة الآلة التي يعتمد عليها المفسر في تفسيره، وهي عند الطبري "أدوات التفسير"، وذكرها الطاهر ابن عاشور تحت مسمى "استمداد التفسير"، وقال في شرح الاستمداد: "**يراد به توقفه [أي : التفسير] على معلومات سابق وجودها على وجود ذلك العلم، عند مدونيه [هم : المفسرون] لتكون عونا لهم على إتقان تدوين ذلك العلم، وسمي ذلك في الاصطلاح استمدادا، عن تشبيه احتياج العلم لتلك المعلومات بطلب المدد، والمدد العون والغوث.. وليس كل ما يذكر في العلم ممدودا من مدده، بل مدده ما يتوقف عليه تقومه، وأما ما يورد في العلم من مسائل علوم أخرى عن الإضافة في البيان – مثل كثير من إضافات فخر الدين الرازي في مفاتيح الغيب – فلا يعد مددا للعلم، ولا ينحصر ذلك ولا ينضبط، بل هو متفاوت على حسب مقادير توسع المفسرين ومستطرداتهم.**"[2]

وما ذكره صاحب التحرير والتنوير هنا غاية في الدقة، إذ هو يفرق فيه بين ما لا بد منه من العلوم والشروط والأدوات التي يتوقف عليها التفسير وهي الشروط الواجبة، وتلك التي تغذي التفسير سعة وعمقا، لكنه لا يتوقف عليها وهي الشروط المكملة، والمفسرون متفاوتون فيها، لذلك حصر الاستمداد بأنه:" **المجموع الملتم من علم العربية، وعلم الآثار، ومن أخبار العرب، وأصول الفقه، وقيل علم الكلام وعلم القراءات.** "[3]

لكن من جهة ثانية نرى أن الشيخ قد أخرج تفسير القرآن بالقرآن من جملة الاستمدادات وعلل ذلك بأنه "**من قبيل حمل بعض الكلام على بعض كتخصيص العموم وتقييد المطلق وبيان المجمل وتأويل الظاهر، ودلالة الاقتضاء وفحوى الخطاب ولحن**

---

[1] شرح أصول في التفسير وشرح مقدمة التفسير، ص 236.
[2] التحرير والتنوير، ص18.
[3] المرجع نفسه، ص 18.

الخطاب ومفهوم المخالفة"[1]، وكأني به يردّ تفسير القرآن بالقرآن إلى علم أصول الفقه، فالوجوه التي ذكرها هي من صميم مباحث هذا العلم، وإن كان عموم حمل بعض الكلام على بعض هو من قبيل التفسير أيضا، لكن هذه الوجوه التي ذكرها . رحمه الله . ليست كل ما يتعلق بتفسير القرآن بالقرآن، فسياق الآيات في السورة الواحدة هو من هذا النوع، ومنه أيضا جمع آيات الموضوع الواحد وغيرها مما سأذكره في تفسير القرآن بالقرآن.

والملاحظة الثانية هي أن الشيخ ابن عاشور ذكر العلم بالآثار ضمن الاستمدادات ثم عاد فاستثنى السنة النبوية بقوله: "**اعلم أنه لا يعد من استمداد علم التفسير الآثار المروية عن النبي صلى الله عليه وسلم في تفسير آيات وما روي عن الصحابة في ذلك لأن ذلك من التفسير لا من مدده**"[2]، وأحسب أن كلامه خرج على اعتبارين: فبالنظر إلى أن السنة هي بمجموعها بيان للقرآن فهي من التفسير، لكن بالنظر إلى منزلة هذا التفسير من جهة كون تفسير النبي وحي أو ملحق بالوحي، وصحيح دال على مراد الله بلا شك، فواجب على كل مفسر أن يستمد تفسيره من السنة إن كان لها قول فيما يفسره، ويحرم القول بما يعارض التفسير الثابت عن رسول الله لأنه اجتهاد في مورد النص، فطلب المدد من البيان النبوي واجب، لذا فالآثار هي من التفسير ومن مدده في الوقت عينه.

ونقل الإمام السيوطي في بيان ما يجب على المفسر من أدوات التفسير، عن طائفة من العلماء بأنه: "**يجوز تفسيره [أي: القرآن] لمن كان جامعا للعلوم التي يحتاج المفسر إليها، وهي خمس عشرة علما**.." فعد منها علوم العربية، وعلم القراءات، وأصول الدين، وأصول الفقه، وأسباب النزول، وغيرها،[3] وقال الإمام الزركشي في البرهان، محددا ما أسماه مآخذ التفسير: "**للناظر في القرآن لطلب التفسير مآخذ كثيرة أمهاتها أربعة**.." فذكر النقل عن النبي صلى الله عليه وسلم، والأخذ بقول الصحابي، والأخذ بمطلق اللغة،

[1] التحرير والتنوير، ص 163-164.
[2] المرجع السابق الصفحة نفسها.
[3] الإتقان في علوم القرآن، ج2، ص 476.

والتفسير بمقتضى معنى الكلام، والمقتضب من قوة الشرع، أي: الاستدلال الذي يسنده برهان[1] ولم يذكر تفسير القرآن بالقرآن.

على أن من التفسير ما لا يعلمه إلا الله، ومنه ما لا يحتاج إلى بيان، وإنما الحديث عن شروط التفسير، هو قول في ما يمكن استنباطه إذا حصلت للمفسر أدواته، فقد روى الطبري وغيره عن ابن عباس أنه قال: "**التفسير أربعة أوجه : تفسير تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته، وتفسير تعلمه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله**"، وقد شرح الزركشي هذه الأقسام بما معناه أن القسم الذي تعرفه العرب، هو ما يرجع فيه إلى لسانهم، وأما ما لا يعذر أحد بجهله، فهو ما تتبادر الأفهام إلى معرفة معناه من النصوص في شرائع الأحكام ودلائل التوحيد، أي النص والظاهر والمحكم مما لا يلتبس على الناس فهمه وأما ما لا يعلمه إلا الله، فهو ما يجري مجرى الغيوب، نحو الآيات المتضمنة قيام الساعة، وتفسير الروح، والحروف المقطعة، فلا مساغ للاجتهاد في تفسيره، ولا طريق إلى ذلك إلا بالتوقيف، وأما ما تعلمه العلماء ويرجع إلى اجتهادهم، فهو الذي يغلب عليه إطلاق التأويل، وذلك استنباط الأحكام، وبيان المجمل، وتخصيص العموم، وكل لفظ احتمل معنيين فصاعدا.[2]

فالقسم الأخير – ما تعلمه العلماء – هو ما يجب فيه إحكام الشروط، حتى لا تزيغ بالناس الأهواء في فهم القرآن، ومن ثمّ في العمل به.

وبعد تحليل مختلف العناصر انتهى بي الاستقراء إلى ثلاثة أصناف من الضوابط فيما يجب على المفسر معرفته والتحلي به هي: شروط علمية، أهلية أخلاقية، وموهبة شخصية، وفيما يأتي تفصيل للشروط العلمية، وأرجئ تفصيل الشروط الأخلاقية إلى المبحث الموالي بعون الله وقوته.

و الشروط العلمية الضرورية للمفسرهي العلوم التي يحتاج إليها المفسر وجوبا وتمثل الحد الأدنى المطلوب منه فهي مرتبطة بقبول التفسير لا بسعته وجودته.

---

[1] البرهان في علوم القرآن، الزركشي، ص422-424.
[2] المرجع نفسه، ص426-427.

وقد اتفق العلماء على أصول هذه العلوم واختلفوا في بعض التفاصيل، وهي على ضربين: علوم للنقل وأخرى للعقل قال ابن تيمية – رحمه الله – "**الاختلاف في التفسير على نوعين، منه ما مستنده النقل فقط، ومنه ما يعلم بغير ذلك، إذ العلم إما نقل مصدّق، وإما استدلال محقق.**"[1]

وقد توصلت بالاستقراء أيضا إلى ما اشترطه العلماء إذ اتفقوا على أن مما يجب على المفسر الإحاطة به هو: العلم بالقرآن أولا، وبالسنة الثابتة ثانيا، وبالآثار المروية عن الصحابة، ومعرفة أسباب النزول ثالثا، وبمواضع الإجماع والمعلوم من الدين بالضرورة رابعا.. وهذه تخص النقل المصدَق، ثم العلم باللغة العربية وعلومها، وأخبار العرب وطرائقهم في التعبير عن مقاصدهم بالكلام، والعلم بأصول الدين، وأصول الفقه، والقصص والعلم بالقراءات.. وهذه تخص الاستدلال المحقق. هذا عند العلماء القدامى، أما المعاصرين فقد أضافوا مطالب جديدة منها العلم بالسيرة النبوية وبوجوه هداية القرآن، والعلم السنن وأحوال البشر وطبائع الخلق، وحد أدنى من المعرفة الكونية،[2] وكلها تخص النظر، اللهم إلا العلم بالسيرة. ولاشك بأنها إضافات مهمة سأعود إليها بالشرح لاحقا.

المطلب الأول

استيعاب النقل

وهو العلم بالقرآن والسنة والأثر المروي عن الصحابي وما يتبع ذلك من أسباب النزول والعلم بسيرة المصطفى عليه الصلاة والسلام.

أ- العلم بالقرآن:

[1] شرح أصول في التفسير، ص284 .

[2] أنظر تفسير المنار، ج1، ص21-24.

والقصد منه العلم بمواضع الإجمال والتفصيل، والإطلاق والتقييد، والعموم والخصوص، والعلم بما تقدم منه في النزول وما تأخر، ليحمل هذا على ذاك، والعلم بالمحكم والمتشابه فإن القرآن يصدق بعضه بعضا، حتى قال نفر من العلماء إنه كالجملة الواحدة، وكالجسد الواحد، لا يختلف أوله عن آخره.

ألم تر أن مقتضى قوله سبحانه وتعالى: **(وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا)**[1] يعم جميع الآباء مسلمين ومشركين؟ فجاء قوله سبحانه:**(ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى)**[2] يخصص هذا العموم، "فخرج بهذا الاستغفار للأبوين الكافرين وتبين أن المراد بالآية الأبوان المؤمنان"[3]

ولا يقدح في هذا التخصيص استغفار إبراهيم لأبيه الذي كان مشركا لأنه كان على وعد قطعه له بالإيمان فلما تبين له أن أباه عدو لله تبرأ منه كما قال سبحانه:**(وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعده إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه)**[4].

ومثل تخصيص القرآن بالقرآن، تقييد بعض آيات القرآن بآيات أخر، وبيان بعض الآيات لما أبهم في آيات أخر كعهد بني إسرائيل الذي جاء مبهما في قوله تعالى:**(وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم)**[5]، ثم بين الله ما عهده على بني إسرائيل وما عهد الله لهم به في قوله سبحانه:**(لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضا حسنا لأكفرن عنكم سيئاتكم**..الآية[6]، فهذا من قبيل بيان المبهم، ومثله في القرآن الكريم توضيح المشكل وتفصيل المجمل وغير ذلك مما لا يجوز لمن لا يعلمه أن يقدم على تفسير القرآن.

ويشهد لتفسير القرآن بالقرآن – أيضا – حديث النبي صلى الله عليه وسلم، الذي أنكر فيه بشدة على جماعة من الصحابة كانوا يختصمون في القدر، يأخذ أحدهم بآية،

---

[1] الإسراء ، 24 .
[2] التوبة ، 113 .
[3] التحرير والتنوير ، الطاهر بن عاشور، ج15 ، ص 72 .
[4] التوبة، 114
[5] البقرة ، 40
[6] المائدة ، 12 .

ويعارضه الآخر بآية أخرى، فقال عليه السلام " **أبهذا أمرتم أم بهذا أرسلت إليكم؟ تضربون كتاب الله بعضه ببعض! إن الله أنزل كتابه يصدق بعضه بعضا.**"[1]

وقد بيَن النبي عمليا هذا المنهج لأصحابه حين فسر لهم بعض القرآن ببعض وقد سبق بيان أمثلة ذلك، فأكمل المفسرين منهجا من تأسى بالمنهج النبوي في تفسير القرآن بالقرآن، كما فعل الإمام ابن كثير حيث يذكر في تفسير الآية ما يشابهها، أو يؤكدها، أو يوضحها، أو يقيدها، أو يخصصها، وهذا ما ينبغي أن يكون عليه منهج كل مفسر."[2] وكما قال ابن تيمية – رحمه الله –: "**يرجع أولا في تفسير القرآن إلى كلام الله تعالى، فيفسر القرآن بالقرآن، لأن الله هو الذي أنزله، وهو أعلم بما أراد به.**"[3]

وقال ابن الوزير اليماني: "**تفسير القرآن بالقرآن: وذلك حيث يتكرر ذلك الشيء، أو يكون بعض الآيات أكثر بيانا وتفصيلا، وقد جمع في هذا القبيل تفسير مفرد ذكره الشيخ تقي الدين في شرح العمدة.. وقد يذكر المفسرون منه أشياء متفرقة، فمنه قوله تعالى: (إن يك صادقا يصبكم بعض الذي يعدكم)[4]، بأنه العذاب المعجل في الدنيا، لقوله سبحانه في آخر هذه السورة: (فإما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فإلينا يرجعون)[5]، وقد تكرر هذا في كتاب الله.**[6] وفصل في ذكر أمثلة كثيرة لحمل بعض القرآن القرآن على بعض من جهة تخصيص العموم وتقييد الإطلاق و تفصيل المجمل وغير ذلك فليراجعه من شاء مزيدا من الأمثلة.

المستنتج من كلام العلماء أن من يغفل عن أخذ القرآن جملة والرجوع في تفسيره إلى ما فيه من جوانب التفصيل والبيان، يكون عرضة للوقوع في الغلط الشنيع، فالجمع بين الآيات في التفسير أصل جليل النفع، والإحاطة به ضرورة لمن يقبل على كتاب الله بالتفسير، وهذا الجمع الممنهج هو الأساس الذي ارتكز عليه التفسير الموضوعي.

---

[1] رواه الترمذي بلفظ قريب من هذا في كتاب القدر ج2، ص 549وقال: حديث غريب.
[2] كيف نتعامل مع القرآن العظيم، يوسف القرضاوي ، ص 221 .
[3] شرح أصول في التفسير ، ص 109-110 .
[4] غافر ، 28 .
[5] غافر ، 77 .
[6] إيثار الحق على الخلق ، إبراهيم ابن الوزير اليماني ، ص 161، وراجع: كيف نتعامل مع القرآن العظيم، يوسف القرضاوي، ص 221-223.

وحين توهم قدامة بن مضعون – وهو من أصحاب رسول الله – أن لا جناح عليه في شرب الخمر، لقوله تعالى: **(ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا والله يحب المحسنين)**[1]، وكان ذلك في خلافة عمر فقال له عمر – رضي الله عنه – إني جالدك، فأجاب: لم تجلدني وبيني وبينك كتاب الله؟ فسأله عمر: وأي كتاب الله تجد أن لا أجلدك ؟ قال إن الله يقول: ليس على الذين آمنوا..الآية، ثم قال: أنا من الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ثم اتقوا وأحسنوا، شهدت مع رسول الله بدرا وأحد والخندق والمشاهد، فقال عمر ألا تردون عليه؟ فأجابه ابن عباس بالقول:إن هؤلاء الآيات أنزلن عذرا للماضين، وحجة على الباقين، فعذر الماضين بأنهم لقوا الله قبل أن تحرم عليهم الخمر، وحجة على الباقين، لأن الله يقول:**(يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبواه)**[2]، فإن كان من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا وأحسنوا، فإن الله قد نهى أن يشرب الخمر، فقال عمر: صدقت. وفي رواية قال عمر لقدامة: إنك أخطأت التأويل يا قدامة، إذا اتقيت الله، اجتنبت ما حرم الله.[3]

فانظر كيف استند قدامة . رضي الله عنه . إلى القرآن وأخطأ التأويل لأنه استند إلى آية ونسي آيات، فردّه الصحابة إلى القرآن، فظهر أن القرآن يفسر بعضه بعضا، ويخطئ التأويل من يستند إلى آية ينتزعها من نسيج القرآن المحكم المتكامل ويؤولها بمعزل عن هذا النسيج القرآني الذي:**(أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير)**.[4]

فلا يقتصر تفسير القرآن بالقرآن على ما ذكره بعض العلماء مما ترتبط بالتخصيص والتقييد وغيرها مما هو مبسوط في مبحث الدلالات من كتب الأصول حتى صار علما على هذا المعنى إذا أطلق، إذ منهج الجمع بين الآيات أوسع من ذلك، فهو مستمد من العلم بمقاصد القرآن، والربط المحكم في سياقه المتصل، والعيش في جو السور

---

[1] المائدة، 93.
[2] المائدة،90
[3] أنظر: التحرير والتنوير، ص24.
[4] هود،1.

القرآنية، وقد وقعت أخطاء كثيرة في أقوال المفسرين نتيجة عدم إعمال منهج الجمع بين الآيات، والاقتصار على ما سماه الشيخ محمد الغزالي . رحمه الله . النظر الجزئي في القرآن وقد عرض الشيخ أكثر من نموذج للفهم الجزئي أختار منه مثالين:

1. يقول: "**كنت أنظر أحيانا إلى طريقتنا في فهم القرآن فكنت أجد أنها طريق تستحق التأمل.. لكي نقول إن العمل الذي نؤديه هو من صنع الله استدللنا بالقرآن:(والله خلقكم وما تعملون).[1] انتزعنا هذه الآية من السياق كله لكي تدل على مذهب أهل السنة: إن العمل مخلوق لله. ونسينا أن هذا الكلام لو صح ما كان عبدة الأصنام مسئولين، لأنهم إذا كانوا مخلوقين لله، وشركهم ووثنيتهم مخلوقة لله، فما عليهم من ذنب، لكن نحن أخذنا ظاهر الآية وقطعناها عن سياقها من قبل ومن بعد وجعلناها هكذا دليلا لرأي باطل.. إنها آفة التجزيء.**[2]

وسياق الآيات واضح في حديث القرآن عن محاجّة إبراهيم لقومه، قال تعالى:**(إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون أئفكا آلهة دون الله تريدون فما ظنكم برب العالمين، فنظر نظرة في النجوم، فقال إني سقيم، فتولوا عنه مدبرين، فراغ إلى آلهتهم فقال ألا تأكلون مالكم لا تنطقون، فراغ عليهم ضربا باليمين فأقبلوا إليه يزفون، قال أتعبدون ما تنحتون والله خلقكم وما تعملون، قالوا ابنوا له بنيانا فألقوه في الجحيم فأرادوا به كيدا فجعلناهم الأسفلين)**[3] فإبراهيم لما حاجّ قومه ولم يستجيبوا لصوت العقل وتولوا عنه مدبرين أراد أن يقرب لهم المعنى بالمحسوس فحطم أصنامهم، وكسر هيبتها ماديا ومعنويا لو كانوا يفقهون، وأتبع ذلك بالقول: "أتعبدون ما تنحتون والله خلقكم وما تعملون" أي هذه المنحوتات التي جعلتموها ندا لله مخلوقة مثلكم وليست إلها خالقا، فالآية تتحدث عن التماثيل لا عن الأعمال، أما عمل الإنسان فهو منسوب إليه مسؤول عنه فمن يعمل مثقال ذرة من خير أو شر يلقاه عند الله.

---

[1] الصافات، 96.
[2] كيف نتعامل مع القرآن، محمد الغزالي، 74-75.
[3] الصافات، 85-98.

2 . يقول الشيخ الغزالي:"**بعض الناس بلغت به النظرة الجزئية حدا جعله يأخذ من صدر سورة براءة أن الإسلام دين هجوم.. وإذا سألتهم عن الدليل يجيبون بأنه قوله تعالى: "وقاتلوا المشركين كافة" ويقف ثم لا يكمل الآية "كما يقاتلونكم كافة" فأنت هنا ترد الهجوم الشامل بدفاع شامل.**[1] وانتزاع جمل من سياق آيات القرآن ثم انتزاع الاستدلال منها في غير مرادها غلط شنيع قد يتعدى القصور العلمي إلى الأهواء وأمراض النفوس،فمازلنا نسمع فساقا يفعلون الموبقات ويقولون "إن الله غفور رحيم" لا يعرفون غيرها، متناسين بأنه "شديد العقاب" وأنه "لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون"، بل لقد قيل حتى الشيطان نفسه له ما يستدل به من القرآن على طريقة "فويل للمصلين".

من هنا وجب التأكيد على أن القرآن يؤخذ كله، ويفسر بعضه بعضا في سياق متصل تُجمع فيه كل الآيات المعنية بالموضوع الواحد، أو ينظر في السياق المتصل لآيات السورة الواحدة ولا تنتزع منه الجمل انتزاعا.

وهذا المنهج الموضوعي هو الذي يجعل المفسر يعيش مع القرآن يربط معانيه الجزئية بالكلية، فلا تنطلي عليه المعاني والقصص التي تكون مقحمة على القرآن تأباها روحه ويأباها سياقه كقصة الغرانيق التي انطلت على بعض المفسرين، فراحوا يشرحون ويبررون وقوعها كأنهم يعتذرون بذلك لصاحب الرسالة عليه الصلاة والسلام عن مدحه الأصنام، لا بل عن إقحام ذلك المدح السمج المكذوب في نسيج القرآن نفسه؟؟[2] مع أن الله تعالى يقول: **(ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين)**[3]

وجدير بالذكر أن من أهم وجوه تفسير القرآن بالقرآن أيضا تفسير المتشابه بالمحكم أو رده إليه، فالمحكم . وهو النص والظاهر . هو أم الكتاب والقطب الأساس الذي تدور في فلكه المعاني الأخرى، ولا ينبغي أن تتجاوزه، وإلا كان من يفعل ذلك في زمرة من يتبعون

---

[1] المرجع السابق، ص75.
[2] أنظر القصة وتعليق الشيخ الغزالي عليها. فقه السيرة ، محمد الغزالي، ص111-113، راجع الفصل السادس من هذه الدراسة.
[3] الحاقة، 44.

ما تشابه منه ابتغاء الفتنة، وقد حصلت فعلا فتن وأخطاء وخطايا كبيرة في التفسير نتيجة عدم مراعاة هذه المسألة المنهجية الخطيرة.

ب- العلم بالسنة والسيرة والآثار

السنة بالنسبة للقرآن كالفرع من الأصل أو كالقوانين التفصيلية المتنوعة بجانب الدستور، والمقصود بالعلم بالسنة العلم بتفسير النبي صلى الله عليه وسلم للقرآن ويلحق بها ما روي عن الصحابة مما لا سبيل إلى معرفته من جهة الاستدلال والرأي، كالتحديث عن الغيوب وعن أسباب النزول.

ووجوب الأخذ بالسنة في التفسير هو محل اتفاق بين العلماء لعموم أدلة القرآن الكثيرة الدالة على وجوب طاعة النبي عليه الصلاة والسلام واتباع أمره والتأسي به، قال تعالى: **(لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا)**[1] وما من شك بأن رسول الله كما هو أسوة حسنة في العمل والخلق هو أسوة في الفهم والعلم. وقال تعالى:**(وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب)**[2] فأمر القرآن أن نأخذ ما جاءنا به وننتهي عما نهانا عنه، فدل على أن سنته في بيان الأمر والنهي والحكم مكملة لأمر القرآن ونهيه وحكمه فلا بد من العلم بها والامتثال لها. وقال سبحانه: **(وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول)**[3] فقرن سبحانه بين طاعته وطاعة نبيه، والطاعة امتثال لا يكون إلا عن فهم، فدل على أن فهم مراد الله كما يعرف من القرآن يعرف من السنة في مواضع الاستشكال. والآيات الواردة في هذا المعنى كثيرة، وبعضها أخص في الدلالة على المقصود منها قول الله تعالى: **(إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيما)**[4] فلا معنى لأن يؤمر النبي بالحكم بين الناس إلا أن يكون حكمه بالكتاب واجب الطاعة مسموعا من كافة المسلمين، وكما أمر بالحكم بالكتاب كذلك كلفه الله ببيان ما قد يختلف الناس فيه من

---

[1] الأحزاب، 21.

[2] الحشر، 7.

[3] النور، 64.

[4] النساء، 105.

الكتاب فقال سبحانه:(**وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يومنون)**.[1]

وقد قال عليه الصلاة والسلام: "**ألا هل عسى رجل يبلغه الحديث عني وهو متكئ على أريكته فيقول بيننا وبينكم كتاب الله فما وجدنا فيه حلالا استحللناه وما وجدنا فيه حراما حرمناه. وإن ما حرم رسول الله كما ما حرم الله**"[2] فبين عليه السلام وجوب طاعة أمره والانصياع لسنته لا فرق بين ذلك وبين وجوب طاعة الله.

قال ابن تيمية بعد أن ذكر تفسير القرآن بالقرآن "**فإن أعياك ذلك فعليك بالسنة فإنها شارحة للقرآن موضحة له، بل قال الإمام الشافعي كل ما حكم به النبي صلى الله عليه وسلم هو مما فهمه من القرآن.**[3] والبيان النبوي هو الخطوة الثانية في التفسير بعد القرآن، فأكمل فهم للقرآن هو فهم رسول الله، وأصح تطبيق هو تطبيقه عليه السلام.

إذا ثبت أن الأخذ بالسنة في التفسير واجب، ففيم يكون بيان السنة للقرآن؟ قال العلماء هو بيان المراد من بعض القرآن في مواضع الإشكال،[4] وكذا تشرح السنة القرآن في ما لا سبيل إلى معرفته بإعمال النظر أو فهم دلالات الألفاظ كإعلام النبي صلى الله عليه وسلم أمته عن بعض الغيب مما كان أو مما سيكون بإعلام الله له.

ومن مجالات شرح السنة للقرآن أيضا المشترك اللفظي الذي يحتمل أكثر من معنى فتفسير النبي له يعد نصاً رافعا للخلاف قاطعا للاحتمال.

وكذلك فإن السنة تخصص العام وتقيد المطلق وتفصل المجمل من القرآن قال الإمام الشاطبي رحمه الله: "**توضح السنة المجمل وتقيد المطلق وتخصص العموم فتخرج كثيرا من الصيغ القرآنية عن ظاهر مفهومها في أصل اللغة وتعلم بذلك أن بيان السنة**

---

[1] النحل ، 64.

[2] أخرجه الترمذي في سننه، كتاب العلم عن رسول الله، باب ما نهى عنه أن يقال عن حديث النبي. وقال حديث حسن غريب من هذا الوجه، أنظر سنن الترمذي ج2،طبعة المكنز، ص678-679. وابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة والسنة، ج1، ص162.

[3] أصول في التفسير، 93-94.

[4] التحرير والتنوير، المقدمة الثالثة، ص 24.

هو مراد الله من تلك الصيغ، فإذا طرحت واتبع ظاهر الصيغ بمجرد الهوى صار صاحب هذا النظر ضالا في نظره جاهلا بالكتاب خابطا في عمياء لا يهتدي إلى الصواب فيها"[1].

ومن الأسئلة التي تطرح في هذا السياق: ما حجم تفسير السنة للقرآن؟ وقد بينت اختلاف العلماء في هذا الأمر في المطالب الأولى من هذه الدراسة بين رأي من يقول إن النبي فسر كل القرآن، ومن يقول إنه لم يفسر إلا آيات معدودات، وأريد هنا أن أفرق بين نوعين من الأحاديث في تفسير السنة للقرآن، أحاديث مباشرة جاءت توضح لفظا من ألفاظ القرآن كما فسر النبي الظلم بالشرك أو تفسيره لفظ الزيادة بالنظر إلى وجه الله أو القوة بالرمي وهكذا..أو رفع بعض المبهمات كتفسير الصلاة الوسطى بصلاة العصر.. أو بيان كيفية الصلاة ومقدار الزكاة وغير ذلك من تفصيل المجمل.. هذه سنة مباشرة في تفسير القرآن. لكن لا يجب أن يغيب عن المفسر بأن السنة بمجموعها وإن بدت الصلة بينها وبين بعض الآيات بعيدة فهي مما يبين معاني القرآن، وقد سبق قول الشافعي كل ما حكم به النبي هو مما فهمه من القرآن، فهدي النبي صلى الله عليه وسلم كله ترجمة للقرآن بالقول والعمل والتقرير، لذلك قال الشافعي **ما من شيء في السنة إلا وفي القرآن أصله على سبيل الهداية،** فحتى مع التسليم بأن السنة وحي، فهذا لا يعني أنها مفصولة عن القرآن، بل هي مستنبطة منه تدور في فلكه حيث دار، ولا يعقل أن يختار الله أفضل خلقه وأكملهم عقلا وفطنة ونقاء سريرة لرسالته ثم يمنعه أن يجتهد ويستنبط، فلا يفتي ولا ينصح ولا يقضي إلا بأمر من ملك الوحي. فباستصحاب هدي النبي وجهاده بالقرآن تتوسع دائرة السنة في تفسير القرآن.

لكن قضية تفسير السنة للقرآن ليست قضية كم فقط بل هي بالدرجة الأولى جهاد في ميدان النوع، لاسيما وقد اكتسح التفسير الموضوعات والضعاف من الأحاديث حتى قال الإمام الزركشي: "**للناظر في القرآن لطلب التفسير مآخذ كثيرة، أمهاتها أربعة، أولها النقل عن النبي صلى الله عليه وسلم.. لكن يجب الحذر من الضعيف منه والموضوع، فإنه كثير، ولهذا قال أحمد : ثلاثة كتب لا أصل لها: المغازي والملاحم والتفسير. قال**

[1] الموافقات في أصول الشريعة، الشاطبي، ج4، ص21.

المحققون من أصحابه: مراده أن الغالب أنه ليس لها أسانيد صحاح متصلة، وإلا فقد صح في ذلك كثير، كتفسير الظلم بالشرك."[1] فدل كلامه وما نقله عن الإمام أحمد على أن أكثر ما روي من السنة المباشرة في تفسير القرآن هو من الضعيف والموضوع.

ويزيد الإمام السيوطي المسألة بيانا حين أحصى المنقول عن النبي والصحابة في الإتقان فجاوز به الخمسين صفحة، وهو كثير جدا ثم قال:" **الذي صح من ذلك قليل جدا، بل أصل المرفوع منه في غاية القلة."**[2] فالعبرة إذن ليست بكثرة المرويات بل بصحتها، ولكننا مع هذا التحذير وجدنا في كتب التفسير بالمأثور خاصة ولعا بالرواية وسلطة للنصوص تجاوزت الضعيف إلى الموضوع والموضوع إلى قصص من نسج الخيال رويت عن بني إسرائيل وتنتمي إلى المخيلة الشعبية لعوامهم. إن تنقية كتب التفسير من هذه الشوائب والاقتصار فيها على ما صح عن النبي صلى الله عليه وسلم في تقديري عمل جليل لاسيما والنبي يحذر من رواية ما ترجح كذبه كما قال عليه الصلاة والسلام: "**من حدث عني حديثا وهو يرى أنه كذب فهو أحد الكذابين."**[3] ثم إن تنقية التفسير من الرواية الضعيفة يخلي المجال للنظر الصحيح المستند إلى قواطع الأدلة الشريعة ومقاصدها وهذه مسألة مهمة في تحرير عقل الأمة وفي مقدمتها علماؤها من الاتكال على النصوص وإغفال الاجتهاد والنظر.

وثمة مسألة أخرى مهمة في تفسير القرآن بالسنة: هل كل ما ورد فيه تفسير صحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم لا يجوز تفسيره بغيره؟

ظاهر كلام بعض العلماء أنه كذلك، قال شيخ الإسلام ابن تيمية:"**مما ينبغي أن يعلم أن الألفاظ الموجودة في القرآن والحديث إذا عرف تفسيرها وما أريد بها من جهة النبي صلى الله عليه وسلم لم يحتج في ذلك إلى الاستدلال بأقوال أهل اللغة ولا غيرهم."**[4]

---

[1] البرهان، الزركشي، ص 421.

[2] الإتقان في علوم القرآن ، ج2 ، ص 472 .

[3] أخرجه الترمذي باب ما جاء فيمن روى حديثا وهو يرى أنه كذب، قال الترمذي: حديث حسن صحيح، أنظر طبعة المكنز، ج2، ص 677-678.

[4] مجموع الفتاوى، ابن تيمية، ج8 ، ص 286.

وهذا الكلام لا يؤخذ على إطلاقه . في نظري . لأن تفسير النبي صلى الله عليه وسلم ينظر فيه هل هو على سبيل التمثيل أو تفسير الكلام ببعض معناه أو من بعض وجوهه أم هو على سبيل الاستغراق واستقصاء المعنى، فإن كان من النوع الثاني فلا يحتج بغيره، أما إذا كان من النوع الأول فما المانع من تفسير القرآن بغير ما ورد فيه من السنة؟ شريطة أن يتكامل معه ولا يتعارض.

لاسيما وأن تعدد المعاني في الآية الواحدة أمر مسلّم لقوله عليه الصلاة والسلام:"**القرآن ذلول ذو وجوه، فاحملوه على أحسن الوجوه.**"[1] وقال أبو الدرداء . رضي الله عنه . " **لا يفقه الرجل حتى يجعل للقرآن وجوها.**"[2]

والذي يرجح هذا المعنى هو اتساقه مع طبيعة النص القرآني الذي هو كتاب مفتوح على المعرفة استوعب معاني لا حصر لها في عبارات وجيزة وهذا من مظاهر إعجازه ومن موجبات خلوده فكلمات الله لا تنفد لأن معانيها لا تنفد فلا يخلق القرآن على كثرة الرد ولا تنقضي عجائبه، وما زال العلماء في الشرعيات والكونيات يُفتح للاحق منهم من معاني القرآن ما لم يفتح للسابق. وحصر التفسير في المرويات فيه تحجيم للتفسير لا يليق بعموم الخطاب القرآني مصلاحه لكل زمان، والله أعلم.

بقي أن أذكر بعض نماذج تفسير القرآن بالسنة مما كتبه بعض العلماء:

قال ابراهيم بن الوزير اليماني: "**ومنه[أي من التفسير النبوي للقرآن] تخصيص العمومات مثل تحريم الصلاة على الحائض، وسائر ما في السنن من أحكام الصلاة والزكاة والصيام والحج، وشروط قطع يد السارق، ونحو ذلك.. ومنه تقديم ذوي السهام على العصبات، ومنع الكافر من ميراث المسلم وعكسه، وإسقاط الأقرب للأبعد من العصبات، والأقوى للأضعف.. ومنه الجمع بين آيتي الكلالة، فإن الأولى في الإخوة من**

[1] سنن الدارقطني، كتاب النوادر، ج4، ص82.

[2] المصنف في الأحاديث والآثار، محمد ابن أبي شيبة، مكتبة الرشد، الرياض، ط1، كتاب فضائل القرآن، ج6، ص142.

الأم، والأخرى فيمن عداهم، وأمثال ذلك.. ومنه الزيادة في البيان كصلاة الخوف.. وهو أمر مجمع عليه، ودليل على المبتدعة، حيث يمنعون من بيان السنة للقرآن. "[1]

وذكر ابن القيم أيضا بعض النماذج الجيدة لتفسير النبي للقرآن الكريم فقال: " **كما بين صلى الله عليه وسلم أن الظلم المذكور في قوله (ولم يلبسوا إيمانهم بظلم)[2]هو الشرك. وأن الحساب اليسير في قوله تعالى: (فسوف يحاسب حسابا يسيرا)[3]، هو العَرْض، وأن الخيط الأبيض والخيط الأسود، هما بياض وسواد الليل، وأن الذي (رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى)[4] هو جبريل . كما فسر قوله: (أو يأتي بعض آيات ربك)[5]، بأنه طلوع الشمس من مغربها، كما فسر قوله: (كلمة طيبة كشجرة طيبة)[6]، بأنها النخلة، وكما فسر قوله (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة)[7]، أن ذلك في القبر حين يسأل،من ربك ؟ وما دينك؟. وكما فسر اتخاذ أهل الكتاب (أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله) بأن ذلك باستحلال ما أحلوه لهم من الحرام وتحريم ما حرموه من الحلال، وكما فسر قوله (من يعمل سوءا يجز به)[8]، بأنه ما يجزى به العبد في الدنيا من النصب الهم والخوف واللأواء. وكما فسر الزيادة في قوله (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة)[9]بأنها النظر إلى وجه الله الكريم، وكما فسر الدعاء في قوله: (وقال ربكم ادعوني أستجب لكم)[10] بأنه العبادة. وكما فسر إدبار النجوم في قوله:(ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم)[11] بأنه الركعتان قبل الفجر، وأدبار**

---

[1] إيثار الحق على الخلق، إبراهيم ابن الوزير اليماني، ص 163-164 .
[2] الأنعام ، 82 .
[3] الانشقاق ، 8 .
[4] النجم ، 13-14 .
[5] الأنعام ، 158 .
[6] إبراهيم ، 24 .
[7] إبراهيم ، 27 .
[8] النساء , 123 .
[9] يونس , 26 .
[10] غافر , 60 .
[11] الطور ، 49 .

السجود في قوله: (ومن الليل فسبحه وأدبار السجود)[1]، بالركعتين بعد المغرب.. وغيرها."[2]

ومن المفيد أن يعلم المفسر أن هدي النبي وروح سنته التي هي تصرّفه عليه السلام في سنوات الخوف والفزع وفي أعوام الأمن والغلبة، وفي مراحل الدعوة والدولة وأيام الحزن والفرح.. والقرآن في كل ذلك وفي غير ذلك ينزل يجيب عن الاستفهامات ويثبت المؤمنين ويلقي الرعب في قلوب الكافرين.. يكشف ما في بعض النفوس من الحقد والنفاق وما في بعضها من الصدق والإيمان، يوجه سفينة الإسلام إلى بر الأمان..

قلت: من المفيد أن يعلم المفسر أن هذا الجو الطبيعي الذي احتضن السنة هو ما يجب استحضاره عند التفسير، من هنا أضاف بعض العلماء المعاصرين شرطا آخر في حلقة العلوم المطلوبة للمفسر من باب الرواية وهي السيرة النبوية، قال صاحب المنار وهو يعدد ما لا غنى للمفسر عن معرفته: "**العلم بسيرة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وما كانوا عليه من علم وعمل وتصرف في الشؤون دنيويها، وأخرويها.**[3] والحق معه فإن فإن السيرة هي ميدان التطبيق الأول للنبي والصحابة لمعاني القرآن الكريم، وعدم استصحاب هذا التطبيق لا يساعد على بناء روية كلية تلم بمقاصد القرآن وتضع كل جزء منه في تكامل مع الكل.

ج – تفسير الصحابة والتابعين:

ومما وقف عنده العلماء بعد التفسير النبوي ما روي عن الصحابة في التفسير

فإلى أي مدى يجب اعتبار قول الصحابي في التفسير، وإلى أي مدى يعتبر قول التابعي؟

واقع الأمر أن للصحابة ميزة ليست لغيرهم لأنهم تربوا على يدي رسول الله وشهدوا معه في حياته ما لم يشهده غيرهم، فعاشوا معه نشوة النصر وذاقوا معه مرارة الهزيمة، حاربوا وسالموا وعاهدوا معه، بل قاسموه طعامه وشرابه وجده ومزاحه، فكانوا بحق كما

---

[1] ق، 40 .
[2] أنظر إعلام الموقعين عن رب العالمين ، ابن قيم الجوزية ، طبعة مكتبة ابن تيمية ، ج2 ص 330-331
[3] تفسير المنار، ج1، ص24.

وصفهم القرآن الكريم:"**محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من أثر السجود.**"[1] لقد عاش الصحابة جوا كانت السماء فيه متصلة بالأرض برباط الوحي الأعلى.

ومع هذا فالصحابة ليسوا سواء في الفضل وفي العلم فمنهم الخلفاء والفقهاء ومنهم دون ذلك.. وأعلمهم بالقرآن الخلفاء الأربعة، وابن عباس الذي خصه النبي صلى الله عليه وسلم ببركة دعائه:"**اللهم فقه في الدين وعلمه التأويل**" وابن مسعود الذي قال عن نفسه: "**والذي لا إله غيره ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين نزلت وفيم نزلت**". لذا نجد ابن تيمية يقول:المفسر إذا لم يجد في السنة بيانا رجع إلى أقوال الصحابة في التفسير لأنهم أدرى بذلك، لما شاهدوه من القرائن والأحوال التي اختصوا بها، ولما هم عليه من الفهم الصحيح والعلم التام لاسيما كبار الصحابة كالخلفاء الراشدين، وعلماؤهم.[2]

فالاسترشاد بما قاله الصحابة مطلوب بل ذهب بعض العلماء إلى وجوب الأخذ به وذهب آخرون إلى الأخذ به على سبيل الاستئناس لا الوجوب، وحقق بعضهم فميز في أقوال الصحابة بين ما لا سبيل إلى معرفته بالنظر فألحقوه بالمرفوع لحسن الظن بالصحابة وأن ذلك لا بد أن يكون مرويا عن رسول الله، من مثل أحاديث الغيوب وأسباب النزول، وما هو رأي للصحابي واجتهاد منه فهو ليس بملزم وإن كان أحسن.

وهكذا إذا كان قول الصحابي في التوقيف فهو من باب الرواية، وإذا كان في التوفيق فهو من باب الدراية.

وأما التابعون فقد أخذوا علم التفسير عن الصحابة، كما قال ابن تيمية – رحمه الله –: "**إذا لم تجد في القرآن ولا في السنة ولا وجدته عند الصحابة، فقد رجع كثير من العلماء في ذلك إلى أقوال التابعين كمجاهد بن جبر، فإنه كان آية في التفسير، كما قال محمد ابن إسحاق: حدثنا أبان بن صالح عن مجاهد قال: عرضت المصحف على ابن**

---

[1] الفتح، 29

[2] شرح أصول في التفسير وشرح مقدمة التفسير، ص 95-97 .

عباس ثلاث عرضات، من فاتحته إلى خاتمته، أوقفه عند كل آية منه وأسأله عنها."[1]
فكانوا أسعد حظا من غيرهم إذ تتلمذوا على يد تلامذة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

والصحابة في تفسيرهم للقرآن إما أن يتفقوا أو أن يختلفوا، فإذا اتفقوا فلا مجال للقول بغير قولهم فإجماع الصحابة أقوى أنواع الإجماع، وأما ما اختلفوا فيه ففيه متسع للاختيار والترجيح ما بين أقوالهم أو استنباط فهم جديد على ما هو معروف ومعتبر من قواعد العلم بالاستدلال الصحيح ، قال حجة الإسلام أبوا حامد الغزالي: **"أن الصحابة والمفسرين اختلفوا في تفسير بعض الآيات فقالوا فيها أقاويل مختلفة لا يمكن الجمع بينها، وسماع جميعها من رسول الله محال، ولو كان الواحد مسموعا لرد الباقي، فتبين على القطع أن كل مفسر قال في المعنى بما ظهر له باستنباطه.. قال عز وجل:(لعلمه الذين يستنبطونه منهم)** [2] **فأثبت لأهل العلم استنباطا، ومعلوم أنه وراء السماع."**[3] وبهذا يتبين أن التفسير بالرواية ليس عملا سهلا ميسورا ففيه تنقية الصحيح من السقيم، وفيه ترجيح الأقوى على الأضعف، وفيه فهم روح السنة مجموعة وروح السيرة وأحداثها، وحسن التخير مما قال به الصحابة والتابعون وغير ذلك مما يتطلب جهدا واجتهادا وفطنة وموهبة على المفسر أن ينميها على الدوام.

المطلب الثاني

حسن الاستدلال

أي الاستمداد من جهة الاستدلال والنظر لا من جهة الرواية والأثر، وهذا الاستدلال لابد منه لأن القرآن كتاب كل زمان وهو يوجب على قارئه التدبر فيه، ويتكشف للناس مع الوقت مزيد من معانيه..

[1] أنظر : شرح مقدمة أصول التفسير ، ص 346 .
[2] النساء، 83 .
[3] إحياء علوم الدين ، أبو حامد الغزالي ، ج 1 ، ص 380 .

وإذا كانت "**العادة تمنع أن يقرأ الناس كتابا في أي فن من العلم، كالطب والحساب، ولا يستشرحونه، فكيف بكلام الله الذي هو عصمتهم ونجاتهم وسعادتهم وقيام دينهم ودنياهم.**"[1]

لا بد للمفسر من مدد إذن، يمثل لديه آلة الاستدلال الصحيح، وهذا المدد يأخذه من علوم العربية وما يتصل بها من آداب العرب وأخبارهم، ومن علم أصول الدين، وعلم أصول الفقه، وعلم القراءات، وفيما يأتي ما ذكره العلماء من تفاصيل في قضية الاستدلال في التفسير، فضلا عما أضافه العلماء المعاصرون من العلم بأحوال البشر، والعلم بأصول الهداية القرآنية،[2] وكما يفهم من كلام بعضهم اشتراط الحد الأدنى من المعرفة الكونية وسأفصل القول فيه بحول.

أ- علوم اللغة العربية

يمكن النظر إلى علوم العربية من وجهين، وجه إنشاء الخطاب، ويشمل القواعد التي يتأسس عليها خطاب عربي صحيح خال من اللحن أو جيد بليغ. وفي مقدمة هذه العلوم علم الإعراب وعلم البلاغة بما يشتمل عليه هذا الأخير من علمي المعاني والبيان. ووجه فهم الخطاب، ويشمل الضوابط التي يتأسس عليها الفهم حال إنشاء الخطاب، مثل الإشارة والعبارة، والحقيقة والمجاز، والمجمل والمفصل، والمطلق والمقيد وغيرها..

وقد صرح القرآن الكريم في أكثر من موضع بأنه أنزل:(بلسان عربي مبين).[3]

فلا يفهم القرآن إلا على وفق ما يفهم من مقاصد العرب من كلامهم[4]، وليس من العقول أن يفهم القرآن الكريم – وهو الخطاب العربي الذي بلغ الكمال في جودته وأعجز فرسان هذا الميدان– مع الجهل بعلوم العربية سواء منها علوم إنشاء الخطاب أو أساليب البيان، وقد نقل السيوطي عن الطبري قوله في شروط التفسير: "**وتمام هذه الشرائط أن يكون .**

---

[1] مجموع الفتاوى، ابن تيمية ،ج13، 332.
[2] أنظر، تفسير المنار، ج1، 22-24.
[3] الشعراء،195.
[4] أنظر. الموافقات، الشاطبي، ج2، ص375.

المفسر . ممتلئا من عدة الإعراب، لا يلتبس عليه اختلاف وجوه الكلام فإنه إن خرج بالبيان عن وضع اللسان، إما حقيقة أو مجازا فتأويله تعطيله."[1]يشير الإمام الطبري هنا إلى أن الجهل بلغة العرب وأساليب بيانها . ومنها الحقيقة والمجاز . يؤدي إلى تفسير بعض الحقيقة بالمجاز، وقد يعطل المعنى الذي يكون مرادا لله، فحمل الحقيقة على المجاز فيما يراد به الحقيقة في القرآن تعطيل لمعانيه، وحمل المجاز على الحقيقة فيما أريد به المجاز إثبات لمعنى غير مقصود، فيكون الجهل باللغة العربية مدخلا للغلط في التفسير.

ومن صميم العلم بلغة العرب معرفة مقاصدهم في كلامهم، وما تعودوا عليه من جهة عرف لسانهم، لأن القرآن أنزل على وفق ذلك، فإذا كان هذا الأمر متعذرا بالطبع والسليقة اليوم، فإنه ممكن بالتعلم، كالمعرفة التي "حصلت للمولّدين الذين شافهوا بقية العرب ومارسوهم، والمولدين الذين درسوا علوم اللسان ودونوها."[2] وفي هذا المعنى قال الشاطبي :"**إذا كان للعرب في لسانهم عرف مستمر فلا بصح العدول عنه في فهم الشريعة، وإذا لم يكن ثم عرف فلا يصح أن يجري في فهمها على ما لا تعرفه، وهذا جار في الألفاظ والمعاني والأساليب**"[3] ومثّل لذلك بأن العرب في معهودها لا ترى الألفاظ تعبدا عند محافظتها على المعاني وإن كانت تراعيها أيضا، لذلك لم يقف سيدنا عمر طويلا عند لفظة الأبّ ورآه تكلف منه أن يصر على معرفة معنى اللفظ، لأن معنى التركيب لا يتوقف على هذا اللفظ فهو مفهوم في الجملة، مما دل على أن المعنى هو المراد[4]ولو كتب الانتشار لمثل هذا الفهم ما تحول التفسير عند بعض المفسرين إلى شقشقة لفظية ذهبت بهم بعيدا عن المعاني المقصودة في القرآن.

والملاحظ أيضا غياب هذا المعنى في التفاسير التي تتبع الشرح المعجمي للألفاظ وتتوسع فيه على حساب المعنى المقصود فيتراجع المعنى الأصلي إلى مركز ثانوي، مع أن الأصل أن "**الاعتناء بالمعاني المبثوثة في الخطاب هو المقصود الأعظم بناء على**

---

[1] الإتقان في علوم القرآن ، الإمام السيوطي، ج2 ، ص 467 .
[2] التحرير والتنوير، ص18.
[3] الموافقات، ج2، ص391.
[4] المصدر نفسه، ص 392-393.

أن العرب إنما كانت عنايتها بالمعاني، وإنما أصلحت الألفاظ من أجلها فمعنى المفردة قد لا يعبأ به إذا كان المعنى التركيبي مفهوما دونه."[1]

من منطلق هذا الفهم الذي فارسه الإمام الشاطبي يجب أن يتنبه المفسر إلى لعلوم اللسان العربي من أجل الوصول إلى المراد أو الاقتراب منه ما أمكن، لا أن يتحول التبحر في هذه العلوم إلى ما يشبه استعراض العضلات في التفسير، أو أن تطغى هذه العلوم وتفريعاتها وتقريراتها على المفسر فتبعد به عن بيان معاني الهداية الربانية.

لكن معاني القرآن لا يمكن تحصيلها دون تعلم هذه العلوم، ومن ثم شدد علماء القرآن على وجوب إتقان "**متن اللغة والتصريف والنحو والمعاني والبيان ومن وراء ذلك استعمال العرب المتبع من أساليبهم في خطبهم وأشعارهم وتراكيب بلغائهم.**"[2]

وقد وجدنا الزمخشري . وهو من أئمة البلاغة . في الكشاف يؤكدا على ضرورة الإحاطة بعلوم البلاغة لمن يفسر كلام الله الباهر المعجز وهي مرحلة تفوق مجرد العلم بقواعد اللغة ألفاظا وتراكيب، فمن جهل البلاغة لم يدرك أسرار النظم بله أن يدرك ذلك في القرآن الذي بلغ الذروة يقول . رحمه الله . " **فإذا لم يتعاهد . المفسر . أوضاع اللغة، فهو من تعاهد النظم والبلاغة على مراحل.**"[3]

وقد عدد السيوطي في الإتقان علوم العربية التي يحتاجها المفسر، أختصرها هنا على النحو الأتي:

اللغة العربية لأن بها يعرف شرح مفردات الألفاظ ومدلولاتها، بحسب الوضع، قال مجاهد: "لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلم في كتاب الله إذا لم يكن عالما بكتاب بلغات العرب".. ولا يكفي في حقه اليسير منها، فقد يكون اللفظ مشتركا وهو يعلم أحد المعنيين والمراد الآخر..

---

[1] المصدر نفسه، ص 396.
[2] التحرير والتنوير، ص 18.
[3] أنظر ، الكشاف ، الزمخشري ، عند تفسير قوله تعالى : ويمدهم في طغيانهم يعمهون.

. النحو: لأن المعنى يتغير ويختلف باختلاف الإعراب، فلا بد من اعتباره، أخرج أبوا عبيد عن الحسن أنه سئل عن الرجل يتعلم العربية يلتمس بها حسن المنطق، ويقيم بها قراءته، فقال: حسن، فتعلّمْها، فإن الرجل يقرأ الآية، فيعيا بوجهه فيهلك فيها..

. الصرف: لأنه به تعرف الأبنية والصيغ، قال ابن فارس: من فاته علمه [أي التصريف] فاته المعظم، لأن (وجد) مثلا كلمة مبهمة فإذا صرّفناها اتضحت بمصادرها، وقال الزمخشري: من بدع التفاسير قول من قال إن الإمام في قوله تعالى: (يوم ندعو كل أناس بإمامهم) جمع (أمّ)، وأن الناس يوم القيامة يدعون بأمهاتهم دون آبائهم. قال: وهذا غلط أوجبه جهله بالتصريف فإن (أمّا) لا يجمع على إمام..

. علم المعاني: الذي تعرف خواص به تراكيب الكلام، من جهة إفادتها المعنى..

. علم البيان: وبه تعرف خواص تراكيب الكلام من حيث اختلافها بحسب وضوح الدلالة وخفائها..

. البديع: تعرف به وجوه تحسين الكلام، وهذه الثلاثة [أي: المعاني والبيان والبديع] هي علوم البلاغة، وهي أعظم أركان المفسر، لأنه لا بد له من مراعاة ما يقتضيه الإعجاز، وإنما يدرك بهذه العلوم.[1]

على أن شأن علوم البلاغة أهم في التفسير لاسيما علمي المعاني والبيان إذ يكشفان عن خصائص بلاغة القرآن وأسرار إعجازه، فإن استطاع المفسر أن يصل إلى مرحلة تذوق البلاغة كما كان يتذوقها العرب فسوف يمتلك ما يشبه حاسة خاصة يميز فيها بين الجيد والأجود من الكلام وبين غيره، ويتم له ذلك بإدمان مطالعة البليغ من شعر العرب ونثرهم، وذلك مطلوب من المفسر وحسن يشهد له ما نقله السيوطي من قول السكاكي في كتابه المفتاح: "**وفيما ذكرنا ما ينبه على أن الواقف على تمام مراد الحكيم تعالى وتقدس من كلامه مفتقر إلى هذين العلمين [يقصد البيان والمعاني] كل الافتقار،**

---

[1] أنظر: الإتقان، السيوطي، باختصار وتصرف يسير ج2 ص 476.

فالويل كل الويل لمن تعاطى التفسير، وهو فيهما راجل."[1] وهو يدل على أهمية تنمية حاسة تذوق البلاغة القرآنية

ومن المحاذير التي تقع في هذا المجال أن بعض الناس فهم الاهتمام بعلوم اللغة والبلاغة على الخصوص ينسى أو يتناسى بأن القرآن الكريم هو كتاب العربية الأول، وهو مجمع البلاغة وإمامها الأعظم تجاوز أصحابها وتحداهم فأعجزهم، فيقوده نسيانه إلى محاكمة القرآن بما تعلم من البلاغة، ومعنى هذا أن الوسيلة التي كانت سلما من أجل الوصول إلى تذوق النص القرآني تحولت إلى معيار يحكم عليه، ومن هذا القبيل ما روي عن ابن الراوندي . وقد رمي بالإلحاد. حين عكس المسألة فأراد أن يستدل على صحة عبارة القرآن من كلام العرب، فقال لابن الأعرابي: أتقول العرب لباس التقوى؟[2]فقال ابن الأعرابي: لا باس لا باس وإذا أنجى الله الناس فلا نجّى ذلك الراس، هب يا ابن الراوندي تنكر أن يكون محمد نبيا؟ أفتنكر أن يكون فصيحا عربيا؟؟.[3]

وخلاصة القول اشتراط العلم بقواعد اللغة وأساليب الخطاب العربي ومواضع البلاغة للمفسر وجوبا، وذلك من أجل خدمة مقاصد القرآن وبيان معانيه، على أن لا يتحول التفسير إلى ساحة تشريح لعلم اللغة وتفنن في عرض أوجه الإعراب وغير ذلك، بل المفسر اللبيب المتمكن هو الذي يغرف من هذه العلوم بقدر ما تعينه على إظهار المعنى، وتقديمه للناس في أبهى الحلل.

أما من لم يكمل العدة في علوم اللغة فإنه لا بد واقع في أخطاء كثيرة في التفسير، وكلما قل زاده كثرت أخطاؤه. أما أن يدخل بادية القرآن بلا زاد، فهو هالك لا محالة كما هلك في القرآن أصحاب القراءات المعاصرة للقرآن، وفي "الكتاب والقرآن" لمحمد شحرور الذي نقلت طرفا من إفكه في الفصل الأول أوضح شاهد وخير برهان.

ب . العلم بأصول الشريعة ومقاصد الديانة

[1] المصدر السابق، ج2، ص 477

[2] الملاحظ أن مجرد السؤال تشكيك في عربية القرآن وبلاغته وإلا فما معنى ذلك مع وجود قوله تعالى (ولباس التقوى ذلك خير).

[3] أنظر التحرير والتنوير، ص 23.

فضلا عن إتقان فهم لغة القرآن ولسانه توسلا إلى فهم معانيه، من الواجب أن يكون المفسر على دراية بقواطع الدين، يفرق بين النص والاجتهاد، والقطعي والظني، والثابت والمتغير، والأصل والفرع.. فلا يعاجل القرآن بالتفسير من هو جاهل بأصول الشرع ومقاصد الدين الكلية منها والجزئية، العامة والخاصة، أو من هو جاهل بالمعلوم من الدين بالضرورة وموضع إجماع الأمة.

وقد ذكر العلامة الألوسي . رحمه الله . علة الإحاطة بمسائل الاعتقاد وتوقف التفسير عليها، كون علم أصول الدين يتناول ما يجوز وما يمكن وما يمتنع في حق الله تعالى وجهل المفسر بذلك يوقعه في ورطات[1]

أما العلم بأصول الفقه فهو الأظهر، إذ عليه مدار فهم الخطاب العربي وخطاب القرآن خاصة، وإذا كانت اللغة تهتم بأساليب التعبير، فإن علم أصول الفقه يهتم بأساليب الفهم والبيان، فكيف يفهم القرآن ثم يفهمه للناس من لا علم له بمباحث الحقيقة والمجاز، ومجمل الكلام ومفصله، ومبهمه ومبينه، وعامه وخاصه، ومطلقه ومقيده، ومحكمه ومتشابهه، وظاهره ومؤوله.. الخ وكيف يفهمه من يعرف العلل ومسالك التعرف عليها وغير ذلك من مباحث أصل الفقه لاسيما في المعاني والدلالات وأساليب البيان.

وكيف يفسر كلام الله من لا يعرف مقاصد الدين ومراتب هذه المقاصد ومالك استنباطها، وهل التفسير إلا بحث في مقصود الشارع ومراده من أخباره وأحكامه بقدر الطاقة والوسع؟

والخلاصة أن هذه العدة هي التي ارتكز عليها كلام العلماء فيما يمثل الحد الأدنى لمفسر كفء معرفيا يقبل منه التفسير.

وقد عد السيوطي من جملتها العلم بالفقه، وتعقبه الشيخ ابن عاشور بأن الفقه لا يتوقف عليه التفسير لأنه متخرج عليه وفرع عنه ولكن يحتاجه المفسر في التوسع في التفسير، فهو شرط كمال لا شرط وجوب[2]

[1] روح المعاني، الألوسي، ج1، ص6.
[2] التحرير والتنوير، ج1 ،25-26.

وهذه العدة المعرفية هي ما يضبط التفسير ضمن ضوابط علمية لا يجب الحياد عنها كي لا يخرج التفسير من زمرة المقبول إلى زمرة المذموم، وأهم هذه الضوابط هي:

1. مطابقة التفسير للمفسر، من غير نقص لما يحتاج إليه في إيضاح المعنى ولا زيادة لا تليق بالغرض.

2. مراعاة المعنى الحقيقي والمعنى المجازي فلا تحمل الحقيقة على المجاز ولا العكس.

3. مراعاة التأليف والغرض الذي سيق له الكلام والمؤاخاة بين المفردات.

4. مراعاة التناسب والسياق واعتبار مراعاة أسباب النزول لما فيها من عون على معرفة المراد.[1]

كنت قد ألمحت فيما سبق بأن للعلماء المعاصرين إضافات مهمة فيما يجب على المفسر معرفته وهو يقبل على التفسير في عصرنا الذي نعيش فيه فذكروا: العلم بأحوال البشر، والعلم بأصول الهداية في القرآن، وقدر من المعرفة الكونية.

ج . العلم بأحوال البشر وأصول الهداية القرآنية: معناه العلم بالتاريخ وبما فيه من أسرار في معرفة أحوال الخلق وطبائعهم وسنن الله في الاجتماع والعمران وقيام الحضارة وهلاك الشعوب.. والعلم بأن الناس قبل القرآن كانوا في تيه وضلال فجاء القرآن ليهديهم سبل السلام ويخرجهم من الشقاء إلى السعادة.

والحقيقة أن العلم التاريخ والعمران لم يكن معروفا قبل العلامة ابن خلدون على النحو الذي عرفه هو وعلى النحو الذي نعرفه اليوم، فلم يكن التاريخ سوى روايات وقصص ولم يرق إلى كونه علما يقوم على الأسباب والقوانين كما نراه اليوم.

ويشهد لوجاهة رأي العلماء المعاصرين أمور منها:

. مقاصد القرآن: فهو كتاب هداية للبشر والذي لا يعرف أحوال البشر كيف يهديهم؟ وكيف يهتدي من لا يعرف مواطن الهداية في كتاب الله، فالقرآن فيه حديث عن

---

[1] أنظر التفسير والمفسرون، محمد حسين الذهبي، ج1، 117-118

سنن الأولين يتضمن مواطن للاعتبار لا يتمكن من فهمها من يجهل علم التاريخ وأحوال الأم.

. **طبيعة العصر:** وهي طبيعة التوسع في المعرفة والاكتشافات العلمية والسننية الكثيرة، والتي كانت غائبة عن إدراك الأولين، وقد أصبحت في عصرنا على شكل قوانين تشرح الضوابط التي تتحكم في سلوك الأفراد وأسلوب حياة الجماعات وتدرس ضمن الأنساق الحضارية المختلفة للجماعات الإنسانية الكبرى، فصار لهذا العلم فروع تنتظم كافة مجالات الحياة تقريبا، من التاريخ والسياسة والاقتصاد والنفس والإعلام والاجتماع وغيرها.. وكلها ترتبط من قريب بهداية القرآن الكريم، ولها علاقة وثيقة . خاصة . بمنهج التفسير الموضوعي الذي نحن بصدد التأصيل المنهجي له في هذه الدراسة، فكيف تدرك أصول الموضوعات القرآنية الأساسية إذا كان المفسر غائبا عن ثقافة عصره المتقدمة جدا في هذه المجالات؟ مع العلم بأن هذه المعارف تعين بشكل حاسم على إدراك هداية القرآن.

. **الاستئناس بأقوال العلماء:** يؤخذ خاصة من كلام الشاطبي في الموافقات، حين تكلم عن وجوب معرفة (علوم العرب) لفهم القرآن فهما صحيحا لأن الشريعة . كما قال .:"**جاءت لتصحيح ما عندهم وتزيد على ما هو صحيح وتبطل ما هو باطل، وتبين منافع ما ينفع من ذلك ومضار ما يضر منه.**"[1] فعد من علوم العرب . التي يجب على المفسر معرفتها . علم النجوم والاهتداء بها في البر والبحر، واختلاف الأزمان باختلاف سيرها.. واستشهد لذلك ببعض الآيات مثل قوله تعالى: (هو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر)[2] وقوله عز وجل: (وبالنجم هم يهتدون)[3] وغيرها.. وعد منها علوم الأنواء وأوقات نزول المطر وإنشاء السحاب.. الخ واستدل لها من القرآن، وعد منها علم التاريخ وأخبار الأمم الماضية وقال: في القرآن من ذلك ما هو كثير.. وعد منها الطب المجرب عند العرب واستدل بقوله تعالى: (وكلوا واشربوا ولا تسرفوا)،[4] كما ذكر ما

[1] الموافقات في أصول الشريعة، ج2، ص 381.
[2] الأنعام، 97.
[3] النحل، 16.
[4] الأعراف، 31.

عرف من علوم العرب مما هو ضار أظهرت الشريعة بطلانه وضرره فذكر العيافة والزجر وخط الرمل والضرب بالحصى ووالكهانة وغيرها..[1]

فإذا كان الأمام الشاطبي قد انطلق من مقدمة قطعية وهي أن الشريعة جاءت لتحق الحق وتبطل الباطل فيما وجد من معارف الناس ليكونوا على هدى وبينة من ربهم، فهل هذا ينطبق على العرب وحدهم، وما كان بحوزتهم من علوم زمن نزول الوحي؟[2] لا شك بأن علم الله المطلق ووحيه الخاتم يشهدان للقرآن بأنه المعيار الثابت والصالح لتصحيح التجربة البشرية على مدار عمرها كله، فالقرآن يصدق ويهيمن على ما عداه فيعرف على ضوء هدايته الحق والباطل والصالح والطالح والصحيح والخطأ والحسن والقبح إلى يوم الدين.

ولو عاش الشاطبي إلى يوم الناس هذا ورأى ما رأينا من تطور مذهل حوّل علم النجوم إلى علم فلك يعتمد الرؤية المباشرة بالمناظير العملاقة وحوّل علم الأنواء إلى رصد حقيقي للأجواء يتتبع مسارات الرياح والسحب والضغط والأمواج وإلى دراسة لتاريخ المناخ على الأرض ومستقبله قلما يخطئ، وعلم الطب المجرب أدخله المخابر وشرح جسم الإنسان بما لم يعد يخفى عليه شيء من أعضائه، وعلم التاريخ أصبح علم نفس واجتماع ومستقبليات..

هل كان الشاطبي . رحمه الله . ليسمح لأحد أن يشرح كتاب الله للناس من هو غائب عن الوعي بهذه التجربة البشرية وهذا الرصيد الهائل؟ ثم يدعي بأنه يريد تصحيح أحوال الناس على ضوء الشريعة؟

الحقيقة التي لا مفر منها أن إغفال علوم العصر من قبل المفسرين . لو حصل . يؤدي إلى تعطيل وشلل لوظيفة القرآن في هداية الناس لرب العالمين.

من هنا أقف بجانب علماء العصر فيما اشترطوه على المفسر من الاطلاع على الحد الأدنى لعلوم العصر لاسيما أحوال البشر وعلوم الكون.

---

[1] أنظر: المصدر نفسه، ج2، ص 382-385.

[2] هذا ما ذهب إليه الشاطبي وقد علق عليه الشيخ محمد عبد الله دراز تعليقات مفيدة . أنظر المصدر السابق هامش رقم1ورقم 4 ص389، ورقم 2 ص 390.

المبحث الثاني

الضوابط الأخلاقية للمفسر

من المهم ابتداء أن أشير أن هذه الضوابط عامة في كل تفسير معتبر، وفي كل مفسر كفء، ولا تخص من ينتهج المنهج الموضوعي في التفسير.

وإذا كان البحث في المطلب السابق عن الحد الأدنى للسقف المعرفي الذي يجب على المفسر تحصيله في الفترة المعاصرة، فإن هذا المطلب يهدف إلى بيان "الشروط المعنوية" الأخلاقية والاعتبارية المتعلقة بشخص المفسر، من جهة عدالته وأهليته للتفسير، والبحث في هذه الناحية دفع إليه مجموعة من الأسباب تحتاج إلى شرح.

دوافع البحث في الضوابط الأخلاقية:

تكلم علماء التفسير القدامى عن أهلية المفسر بدرجة أقل مما استفاض فيه الحديث عندهم عن الشروط العلمية في التفسير، في حين تركز الحديث عن الجرح

والتعديل عند علماء السنة والآثار، مع أن التفسير لا يقل خطورة إذ هو الرواية عن الله كما سبق الذكر، ومع هذا بقي الحديث عن أهلية المفسر مدرجا ضمن الشروط العامة للاجتهاد، أو الإشارة إلى بعض جوانب هذه الأهلية في كتب علوم القرآن وفي مقدمات كتب التفسير بشكل مختصر كمقدمة للحديث عن الشروط العلمية كما فعل الطبري والسيوطي، أو عرضها على شكل آداب عامة كما فعل أبو حامد الغزالي على ما سوف نرى.

ولعل سبب تركيز علماء الحديث القول في الجرح والتعديل واكتفاء علماء التفسير بالإشارات الخفيفة، أن علم رواية الحديث دخله مبكرا كذابون وأفاكون فاحتيج إلى معرفة عدالة الرواة من جرحهم، لاستبعاد روايات من ليسوا أهلا للنقل عن رسول الله، لأن الوضّاعين كان أسهل عليهم اختلاق حديث في بعض كلمات يسهل عليهم تزوير الحقائق من تحريف معاني القرآن بدعوى تفسيره، وإن لم يخل من الإفك حديث ولا تفسير على مدار تاريخ الإسلام، ومع أن المؤلفات في التفسير كانت بحجم مجلدات كبيرة إلا أننا وجدنا تفاسير باطنية وأخرى مذهبية مليئة بالأوهام والأباطيل.

أما حاجتنا اليوم لتركيز القول في أهلية المفسر فهي أكبر وأشد لسببين إضافيين:

الأول: ثقافة الناس اليوم التي ابتعدت بهم عن حفظ آيات القرآن وتدبر معانيه ومطالعة كتب التفسير ومعرفة أهلها، فضلا عن تراجع الحد الأدنى من المعرفة اللغوية والشرعية عند عموم المسلمين، فلم تعد العامة في عالمنا الإسلامي المعاصر تكاد تفرق بين تفسير سليم وآخر سقيم، وبين مفسر كفء وآخر مخلّط، وسبب ذلك أن الجو العام الذي يعيشه المسلمون أصبحت تتقاسمه هموم البحث عن لقمة العيش، واتجاه البحث والمطالعة إلى مجالات علمية وكونية أخرى أكثر اتساقا مع عالمنا الذي تهيمن عليه الحضارة المادية، وفي كل الأحوال فإن الاهتمام بالعلوم الشرعية لم يعد يحتل المكانة المركزية التي كانت له عند المثقفين في وقت سابق، ومعلوم أن تراجع القدرة على التمييز بين الصحيح والفاسد تفسح المجال للمفسدين والمدعين واسعا ليلبسوا على الناس دينهم.

الثاني: أن هناك فرقا حاسما بين وقتنا الحاضر والعصر الذي سبقه وهو أن التفسير في القرن الماضي شهد نهضة تجديدية حقيقية على أيدي علماء عرفوا بالسبق في العلم والفضل والعمل والجهاد من أمثال محمد عبده ورشيد رضا وابن عاشور وابن باديس وغيرهم.. أما في الفترة المعاصرة فقد اختلط الحابل بالنابل إذ نجد من المفسرين من وهب حياته لله وعرف بعمق في الفهم وسعة في الاطلاع وفضل في الدين، أمثال الشيخ الغزالي رحمه الله. كما نجد من عرف بمعصية الله ولم يصل له ركعة؟؟.

وإذ أذكر هذه الأسباب الموضوعية التي تظهر الحاجة الملحة لتحرير القول في أهلية المفسر، لا أهدف إلى تعديل أو تجريح الأشخاص فذلك منهج لا أعتقد أنه يصلح لوقتنا الحاضر، لكن البديل عنه هو بيان الشروط الأخلاقية لمن يصلح أن يؤخذ عنه التفسير، وإشاعة ذلك بين عموم المسلمين، ثم ندع الناس . بعد تنويرهم . يختارون الصالح من الطالح.

المطلب الأول

الموهبة الشخصية للمفسر

مما ذكره علماء التفسير ضمن الشروط الاعتبارية، ما أسموه الموهبة الشخصية، وهي مزية زائدة على الشروط العلمية، ويفهم من كلامهم بأنها توفيق الله الذي يهبه لمن يشاء من عباده، وهي نوع من البصيرة والنباهة.

والقرآن بوصفه كلام الله أولا، وبوصفه كلاما عميق البلاغة، دقيق المعنى ثانيا، يحتاج المفسر فيه إلى نباهة وفطنة خاصة يفتح الله عليه بها ما دق من معاني القرآن ومقاصده، وهدايته، وكثير من نكة التفسير هي فتح من الله بحق.

وهذه الفطنة هي عطاء من الله يختلف من مفسر إلى آخر وقد تفاوت فيها الصحابة فما الظن بمن بعدهم؟ فالصحابة ليسوا سواء في درجة التوفيق في التفسير، وقول بعضهم أولى بالحق من قول بعض، وهذا ينطبق على غيرهم من باب أولى، فما من مفسر إلا غفل عن بعض أسرار القرآن مما تنبه إليه غيره، والقصد من هذا الشرط الذي وضعه العلماء هو وجوب اتصاف المفسر بالحد الأدنى منه، والذي يعد النزول عن مرتبته

تضييع للشروط الموضوعية بسبب غفلة تقدح في عمل المفسر، ورأيي أن هذه الغفلة قد جنت على التفسير في تراثنا، وكانت سببا في أخطاء وخطايا علمية كبيرة، كنقل كثير من أكاذيب بني إسرائيل، ورواية القصص الغريبة كحديث عوج بن عنق والباطلة كقصة الغرانيق مما سبقت الإشارة إليه، ورواية الموضوعات والشائعات.. وهذه الشائعات وجدت في تفسير الآيات الكونية[1] كما وجدت في تفسير الآيات الشرعية.

من هنا وجب ألا يتهجم على القرآن بالتفسير من عرف بالغفلة، ولم يمتلك موهبة شخصية وذكاء وفطنة، فكثير من المفسرين يحسن قصده ويسوء عمله لعدم موافقة قوله للحق، أو لميله إلى إثبات شائعات لا تتفق وهدي الإسلام في الأسباب والسنن، أو لمعارضة قوله في الآية بما يخالف الإجماع أو القطع في الدين وهو لا يدري.. لذا وجب . مع حسن القصد والحد الأدنى من العلم . اشتراط "الموهبة الشخصية" في المفسر، فهي التي تمنع من أن يلفه الشيطان في حبائله، أو ينخدع بما يقوله بعض الزنادقة والملاحدة وأرباب البدع، فيضلونه بشبههم ويلبسون عليه الحق بالباطل، فيقول بالباطل وهو واهم بأنه الحق، ومن هذا القبيل ما نقله السيوطي عن الإمام الطبري قال: "" **قد رأيت بعضهم يفسر قوله تعالى:(قل الله ثم ذرهم)[2] أنه ملازمة قول: الله! ولم يدر الغبي أن هذه جملة حذف منها الخبر والتقدير: الله أنزله"[3]أي القرآن الكريم.**

ولا شك أن هذه الموهبة الشخصية للمفسر توفيق إلهي، لكنها أيضا تصقل بالرسوخ في العلم والتحلي بالتقوى، فتوفيق الله من الأسباب المعنوية في علم السنن، وليس في عطاء الله شيء خال من سبب وحكمة سواء كانا ظاهرين أو خفيين[4]، فنقاء السريرة وصدق الإيمان يقويان بصيرة المفسر، فيرى بنور الله، ويجعل الله له فرقانا لاسيما إن كان

---

[1] المقصود بالآيات الكونية: الآيات القرآنية التي تناولت وصف الكون وسننه كالسماوات السبع والأراضين وتراكم السحب ومرج البحرين وغيرها.. وليس المقصود بها هنا المعجزات، والعبارة من المشترك اللفظي بين المعنيين.

[2] الأنعام، 91.

[3] أنظر الإتقان ، ج2 ، ص 467 .

[4] أنظر أطروحتنا العلمية بالمكتبة الجامعية بكلية أصول الدين بالجزائر: السنن الإلهية في نهوض الحضارة ونكوصها، مبحث خصائص السنن الإلهية، مطلب ربانية السنن (غير منشور).

من العلماء العاملين المجاهدين بالقرآن في سبيل الله وشاهدنا على ذلك قوله تعالى: **(والذين جاهوا فينا لنهدينهم سبلنا).**[1]

المطلب الثاني

الشروط الأخلاقية للمفسر

من الواجب أن يكون المفسر متحليا بمجموعة من الصفات الأخلاقية فضلا عما سبق من الشروط العلمية والموهبة الشخصية، وعلماء القرآن لم يغفلوا البحث في ذلك وإن لم يركزوا القول فيه، وقد أفرد الإمام السيوطي النوع الثامن والسبعين من أنواع علوم القرآن لما أسماه "**معرفة شروط المفسر وآدابه**"، ذكر فيه جملة من الآداب نقلا عن الطبري وابن تيمية . رحمهما الله . غير أنه ركز القول في الشروط العلمية وحدها، وجاء حديثه عن أخلاق المفسر مقتضبا ومختصرا جدا[2].

وذكر الإمام الطبري ضمن عرضه الشروط العلمية للتفسير بعض الضوابط الأخلاقية في مقدمة تفسيره، فقال: "**صحة الاعتقاد أولا ولزوم سنة الدين فإن كان مغموصا عليه في دينه، لا يؤتمن على الدنيا فكيف على الدين! ثم لا يؤتمن من الدين على الإخبار عن عالم، فكيف يؤتمن في الإخبار عن أسرار الله تعالى، ولأنه لا يؤمن إن كان متهما بالإلحاد أن يبغي الفتنة، ويغري الناس بليّه وخداعه، كدأب الباطنية وغلاة الرافضة.**"[3] قلت: وكدأب المناوئين للدين قديما وحديثا فقد جرؤوا على الحديث عن عقائد الإسلام وأخلاقه وتشريعاته عامَة، وكتبوا في علوم القرآن وتفسيره خاصة، وما لهم في ذلك من هدف إلا فتنة الناس عن دينهم[4].

---

[1] العنكبوت، 69.

[2] أنظر الإتقان، السيوطي، ص 466

[3] المصدر نفسه، ص 466.

[4] ويلحق بهؤلاء في زمننا، أبناء المنهج التغريبي، الذين آمنوا بأفكار وأيديولوجيات لا صلة لها بالدين وأرادوا إسقاطها على نصوص القرآن وإخضاعه لها، حتى جعلوا للقرآن تفسيرا اشتراكيا وآخر لبراليا؟؟ أنظر ما كتبته عن المدرسة التغريبية في موضعه من هذه الدراسة.

وذكر الإمام الطبري أيضا من شروط التفسير: صحة المقصد فيما يقوله المفسر، ليلقى التسديد من الله تعالى، فقد قال سبحانه: **(والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا)**،[1] وإنما يخلص له القول إذا زهد في الدنيا، ولأنه إذا رغب فيها لم يؤمن أن يتوسل بتفسير القرآن إلى عرَض يصده عن صواب قصده، ويفسد عليه صحة عمله.[2]

ويفهم من كلام الإمام الطبري في الفقرتين السابقتين أنه يشير إلى فئتين من الناس، قد وجدا في عصره بالفعل وهما: الفرق الضالة التي لم يصح اعتقادها، وعلماء البلاط الذين يرغبون في الدنيا، ويتقربون بالدين إلى السلطان، وكلا الفريقين لا يصلح أن يقدم على تفسير كلام الله، لأن هؤلاء أخلاقهم مجروحة بسبب تقديم أهوائهم وشهواتهم على حق الله ورسوله عليهم.

ومما يلاحظ هنا أن أكمل الصحابة خلقا وأتقاهم لله هم الذين عرفوا بتفسير القرآن الكريم، وفي مقدمتهم الخلفاء الراشدون الأربعة، وابن مسعود، وابن عباس الذي دعا له رسول الله بقوله: **(اللهم فقه في الدين وعلمه التأويل)**[3]، فقدّم عليه السلام الدعاء له بالفقه في الدين على تعليمه التأويل، وكأنه لا تأويل للقرآن من غير فقه في الدين، والفقه في الدين لم يكن يعني الفهم المنفصل عن الالتزام والتطبيق، فضلا عن الفهم من غير تطبيق، بل كان يعني التلازم التام والالتحام العضوي بين العلم بالقرآن والعمل به، وسار الأمر على هذا النحو في قرون الفضل المتقدمة حتى جاء أمثال من وصفهم أبو القاسم محمد بن حبيب النيسابوري – رحمه الله – بقوله: "**وقد نبغ في زمننا مفسرون لو سئلوا عن الفرق بين التفسير والتأويل ما اهتدوا إليه، لا يحسنون القرآن تلاوة، ولا يعرفون معنى الآية أو السورة، ما عندهم إلا التشنيع عند العوام، والتكثير عند الطغام لنيل ما عندهم من الحطام.. لا يأنفون عن مجالسة الجهال.. الخرق والطيش خير خصالهم، يتحلون بما ليس فيهم.. وهم من الخنى والجهل في جوف منزل.**"[4]

---

[1] العنكبوت، 69.
[2] المرجع السابق ، ص467.
[3] رواه البخاري: كتاب فضائل الصحابة بلفظ: "علمه الكتاب"، وبلفظ: "اللهم علمه الحكمة"، ج2، ص740.
[4] البرهان في علوم القرآن، الإمام الزركشي ، ص 418 .

وأمثال هؤلاء الذين ذكرهم الإمام النيسابوري وقبله الإمام الطبري، ممن يخلطون بين رسالتهم العلمية ورغيف الخبز، ويفكرون في الاقتراب من الحاكم والتزلف عنده أكثر مما يكترثون بالتقرب من الله سبحانه – ساءت أخلاقهم وضحل علمهم – لا يخلوا منهم زمان، ومازلنا نرى في زمننا مَن هم أشنع منهم في قصورهم العلمي وانحلالهم الأخلاقي يدَعون بأنهم يفسرون القرآن الكريم، بل إن أحدهم وهو جاهل باللغة يفرق في المعنى بين المتحد ويوحد بين المختلف، وجاهل بأحكام الشرع يبيح للمرأة أن تكشف نحرها وشعرها وساقيها وما فوق ذلك مما هو أدهى وأمر؟! يدَعي بأنه جاء بنظرية جديدة في التفسير!![1]

كما ذكر أبو حامد الغزالي . أيضا . طرفا من **المؤيدات والموانع الأخلاقية** للمفسر في الإحياء فيما أسماه بـ: **(أعمال الباطن في التلاوة)**[2] وهو ما يمكن وصفه بالشروط النفسية والخلقية لفهم كلام الله وبيان مقاصده للناس، فعدد – رحمه الله – هذه الأخلاق بقوله:" **فهم أصل الكلام، ثم التعظيم، ثم حضور القلب، ثم التدبر، ثم التفهم، ثم التخلي عن موانع الفهم..**"[3] يقصد الغزالي بفهم أصل الكلام مصدره – أي أنه من عند الله – فمن الواجب أن يتنبه المفسر إلى أنه أمام كلام الله تعالى الذي لا يمزجه باطل ولا يعتريه نقص، وهذا الأمر يقتضي تعظيم القرآن وتقديسه لأن عظمته من عظمة الله الذي أنزله، كما يتطلب حضور القلب وتهيؤ النفس والتمعن في تدبر القرآن والتواضع عند محاولة الفهم، والبعد عن الأهواء الفكرية والشهوات النفسية التي سماها موانع الفهم.

ومن عظَم القرآن هكذا، فلا شك أنه يبتعد عن التسرع في إثبات المعاني من غير تثبَت، أو تحكيم القناعات المسبقة، أو القول بالجزم في موطن الظن، فمقتضى تعظيم القرآن الرويَة والاتزان في القول.

ومن المهم جدا أن يكون واضحا عند المفسر بأن تفسير القرآن العظيم هو عملية حضارية كاملة الجوانب فضلا عن كونها دراسة علمية، فالذي يتصدى لبيان مراد الله من

---

[1] أنظر الكتاب والقرآن، محمد شحرور وهو مليء بالأخطاء والأغلاط فضلا عن الخطايا والأغاليط أنظر على سبيل المثال تفريقه بين الأسماء المختلفة للقرآن: ص 51-61 و فهمه لتعدد الزوجات ص 597. وغيره كثير فالكتاب من أوله إلى آخره دجل وتخليط.

[2] إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، ج1، ص 367.

[3] المصدر السابق، ج1، ص 367.

كلامه ويحاول استنباط أحكامه وحكمه ومواعظه وتوجيهاته والوصول إلى حقائقه، يكون قد باشر مشروعا في التغيير ينير للناس طريقهم في الانتقال من الظلمات إلى النور، ومن الجاهلية إلى الإسلام، وهذا يتطلب التزاما بقيم القرآن الكريم، وفي هذا المعنى يقول الشيخ الغزالي . رحمه الله .: "**القرآن كتاب لا يستطاع عزله عن الحياة أبدا، وهل نزل إلا ليخطّئ أو يصوب من أفكارها؟ وإلا ليمحو أو يثبت من أحوالها؟ إنه كتاب الحياة المفعمة بالحركة المتجددة على الدهر، ولكنها الحياة القائمة على الحق، الدارجة على الصراط المستقيم.**"[1] وقد قال الله سبحانه:(**قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم**)،[2] إذ لاحظ أن إظهار القرآن بالقول وإظهار النبي بالتطبيق واحد

من هنا فإن المفسر إذا التزم بما يجب من أخلاق وكان من العلماء العاملين فتح الله سبحانه وتعالى أمامه توفيقه وسداده وهدايته كما قال سبحانه: (**والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا**)[3]، فتنفتح له فتوحات قيَمة من معاني القرآن الكريم وأحكامه وعبره. وكذلك فإن وقوعه فيما يجب اجتنابه من أخلاق قد يصرفه عن الفهم والقول السديد ويضع بينه وبين القرآن حجبا كثيفة تمنع عنه أنواره وهدايته وتحجزه عن الوصول إلى دقائق معانيه، بل قد يزيده القرآن ضلالا كما قال سبحانه: (**وإذا أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا فأما الذين آمنو فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون، وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون**).[4]

وإذا تأملنا الأخلاق التي تجب للمفسر إجمالا نجدها – في رأيي– نوعان:

أخلاق واجبة الالتزام: كصحة المعتقد وسلامته من الشرك والابتداع، والتزام التجرد لله وصفة التقوى وغيرها.. فإن ذلك يفتح أمام المفسر توفيق الله لفهم مراده.**أخلاق واجبة**

---

[1] نظرات في القرآن، محمد الغزالي، نهضة مصر للطباعة والنشر، ط7، 2006م، ص4-5.
[2] المائدة، 15-16.
[3] العنكبوت، 69
[4] التوبة، 124-125.

الاجتناب، كالاستهزاء بكلام الله وعدم توقيره، والكفر بآياته والإلحاد فيها، والكبر والمراء وغيرها..وهذا الإجمال يحتاج إلى تفصيل.

أولا : الأخلاق واجبة الالتزام

1. صحة الاعتقاد: المقصود بذلك السلامة من الإلحاد أو الشرك أو البدعة، فكم من هؤلاء في القديم والحديث من جعل من القرآن الكريم جسرا يعبر من خلاله إلى تبرير إلحاده أو شركه أو نصرة بدعته، وكثيرا ما يستغلون جهل الناس بأصول وفروع دينهم فيحاولون فتنتهم بما يستعملونه من التأويل الباطل المردود، وكل منهم يلون القرآن حسب زيغه وهواه، وقد وقع في تاريخ الإسلام كثير من ذلك، وهولا يخفى على من يطَلع على ما سمي بتفسير الطوائف والفرق، كتفسير القدرية والباطنية وغلاة الشيعة، وقد كانوا أكثر المتورطين في ذلك، إذ جعل أكثرهم آراءهم وقناعاتهم أئمة وجعلوا القرآن مأموما لها، وقد سبقت شهادة الإمام الطبري عن هؤلاء حين قال: "**لا يؤمن إن كان [المفسر] متهما بالإلحاد أن يبغي الفتنة ، ويغري الناس بليّه وخداعه، كدأب الباطنية وغلاة الرافضة وإن كان متهما بهوى لم يؤمن أن يحمله هواه على ما يوافق بدعته، كدأب القدرية فإن أحدهم يصنف الكتاب في التفسير ومقصوده منه الإيضاع خلال المساكين[الإيقاع بهم]، ليصدهم عن اتباع السلف ولزوم طريق الهدى.**"[1]

لقد لفت الإمام الشاطبي الانتباه في الموافقات إلى الضابط المنهجي الحاسم بين تفسير أهل الزيغ والهوى وتفسير أهل العلم، فقال عن الطائفة الثانية بأنها تأخذ القرآن مأخذ الافتقار،أي تجعل الحكم تابعا للدليل، وأما أهل الزيغ فيأخذون القرآن مأخذ الاستظهار، فيخضعون الدليل لأحكامهم، والفرق شاسع بين من يتجه صوب كتاب الله يطلب منه الحق الذي يفتقر الناس إليه، وبين من يزعم أنه يعرف الحق فيسعى لاستظهاره من القرآن الكريم، أي أنه يجعل القرآن معْبرا للتدليل على صحة ما تقرر عنده سلفا.[2]

وفي تقديري فإن ركوب الصعب والسهل من أجل نصرة رأي مهما كان باطلا بتأويل باطني متعسف للقرآن دليل على نقيصة أخلاقية تطعن في ثقة المفسر بإمامة القرآن قبل

---

[1] الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، ج2 ، ص 466 .

[2] الموافقات، الشاطبي، ج3 ، ص 70

أن تكون قصورا علميا، إنها الأهواء تعصف بنفوس الناس، وإلا فكيف نفهم كلام الباطنية في التفسير دون ضابط من علم أو رادع من خلق.[1]

ومن باب أولى فإن القرآن الكريم لا يفتح كنوز هداياته لمن لا يؤمن بالغيب وقد صرح المولى في أكثر من موضع بهذه الحقيقة، قال سبحانه يصف القرآن: **(قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد)**[2] ، وقال جل في علاه: **(ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب).**[3]

وفي الفترة المعاصرة نجد لهيمنة الفكر الوضعي الملحد على أصحابه واستحكامه في نفوسهم أثره البالغ في حجب هداية القرآن عنهم، وقد عبر الشيخ أبو الحسن الندوي عن هذا المعنى بقوله: "**إن الذين غلبت عليه النظرة الحسية المادية واستحكمت فيهم،**

---

[1] معنى:(كهيعص) سورة مريم معناه: الكاف: كاف للشيعة، الهاء: هادي لهم، والياء: ولي لهم، والعين: عالم بأهل طاعتهم، والصاد: صادق لهم وعدهم حتى يبلغ بهم المنزلة التي وعدها إياهم في بطن القرآن. يختلق هذا السخف ثم ينسب إلى إمام مثل جعفر الصادق . رضي الله عنه . ما علاقة سورة مريم بما وقع من تفرق بين المسلمين؟ وقال بعض الباطنية ،الكاف كربلاء، والهاء هلاك العترة،والياء يزيد وهو ظالم الحسين والعين عطشهن والصاد صبره. عجيب كيف يضمن الناس أهواءهم نصوص القرآن فلماذا لا تكون الكاف كعب الأحبار والهاء هند بنت عتبة والياء يزيد بن أبي سفيان والعين عبد الله بن عثمان والصاد صدقوا ولهم الجنة؟؟ وهذا السخف لا نهاية له.. ويأتي أفّاك ليروي عن الإمام الباقر في قوله تعالى:(ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم)[1] أنه قال: كرهوا عليا، وكان أمر الله بولايته يوم بدر ويوم حنين وببطن النخلة ويوم التروية ويوم عرفة نزلت فيه خمس عشرة آية في الحجة التي صدعها رسول الله عن المسجد الحرام وبالجحفة وبخم. والراوي المخبول يريد القول رغم كل هذه الوصايا من النبي وكل هذه الآيات إلا أن جمهور الصحابة قد استحبوا العمى على الإيمان؟؟ فماذا فعل لهم علي حتى يحقدوا عليه إلى درجة ينعقد فيها إجماعهم على بغضه؟؟ وهل ربى النبي نموذجا يحتذى أم ربى ثعابين ولصوصا وقطاع طرق؟؟ وكيف يصبح القرآن لا هم له إلا إثبات أحقية خلافة علي والتشنيع على مخالفيه كأنه حاشية على دستور وأهواء طائفة بعينها؟؟ وقد حدث من هذا الإفك الكثير.. وما تهمنا ملاحظته هو أن من لم يسلم تجرده لله لا يكون أهلا أن ينتظم في عداد المفسرين. أنظر هذه النماذج وغيرها في: معاني الأخبار الصدوق، تصحيح وتعليق علي أكبر الغفاري، مؤسسة النشر الإسلامي، جماعة المدرسين، قم، سنة 1379هـ، ص28. وروضة الواعضين، الفتال النيسابوري، تقديم محمد مهدي الحسن الخرسان، منشورت الشريف الرضا، قم، ص 106. وراجع الدراسة الأكاديمية القيمة: الروض الناظر، بدر محمد باقر، مرجع سابق، ص 57–66

[2] فصلت ، 44 .

[3] البقرة ، 2 ، 3 .

يحاولون أن يحلَوا حقائق من الدين هي وراء طور العقل وحدوده دون أن يستعينوا بالإيمان بالغيب، إن محاولاتهم هذه كمحاولة من يرقى السطح من دون سلم أو محاولة من يرغب في الطيران دون أجنحة، إنه كلما حاول الصعود إلى علو تهبطه ماديته وكثافته إلى أسفل."[1]

وإذا كان القرآن الكريم مشبعا بحقائق الغيب الخفي عن الحواس، فأنى لعقل يصر على عدم تجاوز الأسباب المادية ويظنها قادرة على الإحاطة بكل ما في الكون أن يصل إلى فهم ما يقوله القرآن في شرح حقائق الوجود كله، وأنى له أن يستطيع حمل معاني القرآن على قناعاته المحسوسة الضيقة، إن مثل ذلك كمثل من يحاول إدخال جمل في سم الخياط؟؟

2. الإخلاص: من شروط المفسر الأخلاقية أن يلتزم الإخلاص والتجرد و"**صحة المقصد فيما يقول ليلقى التسديد."**[2]

الإخلاص لله تعالى في القول والعمل، والإقبال الصادق على كتابه الكريم، من أهم المؤيدات التي يفتح الله بها أبواب الفهم السديد على عباده، للاستفادة من كلامه وإفادة الناس بمعانيه، وقد روي عن ابن مسعود قوله: ليس العلم بكثرة الحفظ ولكن العلم الخشية. والحق أن خير العلم ما استحضره المفسر حال الحاجة إليه وإلا فما قيمة أن يحفظ فنون العلم ولا يحسن استثمارها معرفيا بما يقدم للناس من دقيق معاني القرآن وهدايته، وهذا الاستحضار هو توفيق من الله يهبه لمن يريد به خيرا من عباده المخلصين كما قال عليه الصلاة والسلام "**من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين**"[3] .

ومن النادر جدا أن يطلع على كنوز هداية القرآن من لم تلتحم مشاعره بصدق، ولم يتفاعل كيانه بقوة مع الوحي الأعلى، ذلك أن تفسير القرآن ليس عملا احترافيا يقوم على معرفة معاني الألفاظ ودلالات التراكيب اللغوية كما تعرضها المعاجم وكتب الإعراب والبلاغة فحسب، إنه فوق ذلك رسالة السماء تتلقاها أفئدة أهل الأرض، وقسوة القلب

---

[1] المدخل إلى الدراسات القرآنية ، أبو الحسن الندوي، دار الكلمة، ط1 ، 1987م ص 121 .
[2] أنظر: الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، ج2، ص 467
[3] رواه البخاري: كتاب العلم ج1 ص 21، طبعة المكنز الإسلامي .

وانشغاله عن الله تمنع نجاح هذا التلقي بسبب من أثر المعاصي، فمقاصد وهداياته تتجلى لكيان صادق، ونفس هيَابة، وفؤاد خاشع لله، وحين يستجمع المفسر هذا المستوى الروحي والخلقي الطاهر مع معرفة علمية كافية، ينتج تفسيرا يطمئن إليه الناس، لأنه يكون أقرب إلى الحقيقة وأدعى للقبول.

وشاهدنا على هذا القول هو القرآن نفسه، فهو يهدي إلى هذا المعنى حين يجعل الإنابة إلى الله وخشيته سبب التبصرة والذكرى والاهتداء بالقرآن العظيم، كما قال جلَ شأنه: **(تبصرة وذكرى لكل عبد منيب)**[1]، وقال عز وجل:**(ويهدي إليه من أناب)**[2] وقال سبحانه: **(سيذكر من يخشى)**.[3]

ثم إن القرآن الكريم يعرف بنفسه على أنه المنهج الرباني الذي يخرج الناس من الظلمات إلى النور ويهديهم بإذن الله إلى الصراط المستقيم، لذا فإن المفسر الذي لا يكترث بإصلاح نفس أو بتغيير أمة أو بمصير العباد في الدنيا والآخرة، لا يمكنه أن يدرك حقيقة هداية القرآن.

وما لم يجتمع إلى والمعرفة الطيبة بالمعاني، الخشية من الله والإنابة إليه، فلن تتكامل شروط عملية التفسير الحق.

3. التقوى: ذلك أن من خلا قلبه من تقوى الله عز وجل فقدَ الأساس الذي عليه يقوم الدين، وانطمست بصيرته، وفقد الحاسة التي يدرك بها هداية القرآن.

إن القرآن يبين أن من شرط الاستفادة منه، أن يخشى العبد ربه ويتقيه ويستحضر جلاله وعظمته، كما قال سبحانه: **(فذكر بالقرآن من يخاف وعيد)**[4] وقال تعالى: **(إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمان بالغيب)**.[5]

أما الذين خلت قلوبهم من تقوى الله، ودلّت جوارحهم على ذلك، فهم لا يركعون لله ولا ينفقون في سبيله ولا يستقيمون على صراطه.. هؤلاء يخبطون في معاني القرآن خبط

---

[1] ق ، 8.
[2] الرعد، 27.
[3] الأعلى، 10.
[4] ق، 45.
[5] يس، 11.

عشواء، لأن الله تعالى يقول: **(قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد).**[1]

ومما يدل على أهمية التقوى، منهج الصحابة في التعامل مع القرآن، الذي حمل معاني التقوى التي يمتزج فيها العلم بالعمل، وقد ذكره الإمام السيوطي عن أبي عبد الرحمان السَ ُلَمي أنه قال: "**حدثنا الذين كانوا يقرؤون القرآن كعثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما، أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي صلى الله عليه وسلم عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يعلموا ما فيها من العلم والعمل قالوا: فتعلمنا القرآن، والعلم والعمل جميعا.**"[2]

فتبين أن التقوى شرط خلقي أساسي بالنسبة لمن يقبل على تفسير كلام الله ويطمع أن تتكشف له معانيه، فإذا كان المفسر على نهج أصحاب رسول الله يبتدئ بنفسه في امتثال الأمر واجتناب النهي حصل له تحقق بمعاني القرآن وتفيؤ في ظلال معانيه ومن الطبيعي أن الذي يجرب على نفسه أوامر الكتاب أفقه من غيره فيه وأعلم بأسراره وليس راء كمن سمع.

هذه ثلاثة شروط أخلاقية أراها لازمة للمفسرين وقد ذكر بعض الباحثين غيرها،[3] كالإيمان بالغيب والمجاهدة والرغبة الصادقة في الطلب وحسن الاستماع والتباع والتأدب والتعظيم والتدبر.. وغير ذلك مما يمكن أن يدخل تحت أحد ما ذكرت من أصول الأخلاق اللاَزمة، أعني : **صحة الاعتقاد، والإخلاص، والتقوى وهي رأس العدالة في الدين، فمن كان صحيح الاعتقاد، وتجردا لله، ممتثلا للأمر والنهي، وكان من العلماء كان أهلا لئن يقول في القرآن بما فتح الله عليه من النظر والاجتهاد ولا يصح أن ينكر عليه إجتهاده أحد من الناس.**

ثانيا: أخلاق واجبة الاجتناب

---

[1] فصلت، 44

[2] الإتقان ج2 ص467 .

[3] أنظر : المدخل إلى الدراسات القرآنية ، أبو الحسن الندوي ، 108- 125 .

في القرآن الكريم عوائق وموانع ينبغي على المفسر اجتنابها كي يحالف التوفيقُ في اجتهاده، فما هي موانع الفهم هذه؟

1. الكبر: "**وهو بطر الحق وغمط الناس**"[1] كما عرفه عليه الصلاة والسلام، والقرآن الكريم يحجب نور هدايته ويحجب أثره الإصلاحي والحضاري عمَن لم يهيئ نفسه وعقله لتلقي نور الكتاب المبين، ذلك ما صرح به القرآن الكريم حين قصر هدايته على الذين يؤمنون بالغيب وحين جعل الكفر والكبر والهوى والجدل بغير علم، أصولا للصفات التي تحجب أثره الإيجابي على العقول والنفوس والجوارح ..

والكبر رأس أصول تلك الصفات قال سبحانه وتعالى: **(سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا، وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلا ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين)**[2] أي سأصرفهم عن حسن فهمها والعمل بها.

كان الكبر أول خطيئة لإبليس صرفته عن الإيمان بالله إلى يوم يبعث الخلق، لذا عدَ الكبر من مداخل الكفر بالله، وكيف يهتدي بكلام الله من كفر به وحاد عنه: **(ويل لكل أفاك أثيم يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبرا كأن لم يسمعها فبشره بعذاب أليم).**[3]

منع الكبرُ فرعونَ الكبرُ من الاهتداء بنور التوراة التي أنزلت على موسى – عليه السلام – فقال: **(أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين فلو لا ألقي عليه أساورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين)**[4].. إن ترف الدنيا وزخرفها وطلب الخوارق المادية هما – وحدهما – سبيل الإيمان في منطق المتكبرين، أما أن يختار الله أزكى عباده وأصدقهم لنشر رسالته والتبليغ عنه في الأرض فلا.. إن معيار التفاضل هو مظاهر الحياة الدنيا من جاه ومال وعظمة وسلطان وأما الفضيلة فصفر..

---

[1] رواه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، ج1، ص53.
[2] الأعراف ، 146 .
[3] الجاثية ، 7-8 .
[4] الزخرف ، 52-53 .

كذلك فعل الكبر بمشركي قريش الذين قالوا في الاحتجاج بعدم إيمانهم بنبوة بمحمد – صلى الله عليه وسلم –: **(لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم)**[1].. هذا هو منطق المعرضين عن رسالة الله في كل زمان كما يقرر ذلك القرآن الكريم: **(ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فقالوا أبشر يهدوننا فكفروا وتولوا واستغنى الله والله غني حميد)**[2] تأتيهم الرسل بالدلائل والبينات، لكن منطق الكبر يقول: أبشر مثلنا – يأكلونا الطعام ويمشون في الأسواق – يهدوننا؟.. والنتيجة: كفروا وتولوا فلم تغنهم الهداية شيئا، والله غني عنهم.

والحقيقة أن الكبر آفة نفسية لا علاقة لها بنقص الذكاء وهي تختلف عن الجهل فالمتكبر قد يعرف طرفا من الحق وصد عنه، وهو وليد العناد والإعجاب بالنفس والتعالي على العباد، وقد يصدُّ الكبر أصحابه عن التعلم والهداية، حتى جعل المصطفى عليه السلام اثنين من الناس لا يتعلمان هما: المستحي والمتكبر" وسمى المتكبرين متفيقهين[3] وأوضح مثال على هذه الحقيقة حال اليهود من أهل الكتاب الذين الذين عرفوا ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم من الحق وصدوا عنه من بعد ما تبين لهم العلم بغيا بينهم.

وفي وقتنا المعاصر صدَّ الكبرُ كثيرا من الناس عن الحق الذي جاء به القرآن، وقال بعضهم كيف يستأثر بتفسير القرآن أصحاب العمائم وخرَجوا المدارس الدينية ومن يسمون بعلماء الدين ودعاته!.. ونحن لا ننكر أن يقوم مثقف مسلم – مهما كان تخصصه – إذا توفرت فيه العدة العلمية والخلقية ببيان معاني القرآن.. بل أقصد أولئك الذين تضيق صدورهم بالحق فيحملون على أصحابه، ثم يؤلفون من الغرائب ما يسمونه تفسيرا معاصرا للقرآن الكريم أو قراءة معاصرة له، فإذا جئت تقرأ ذلك التفسير وتلك القراءة، تجدهما صدُّ عن سبيل الله وكفر به.. كتأويلات أبي زيد وتحريفات أركون و"فتاوى" شحرور..[4] وهؤلاء مطعون في أخلاقهم قبل علمهم، وإن كان القصور فيهم من كل وجه، ومفخرتهم التي

---

[1] الزخرف 31 .

[2] التغابن ، 6 .

[3] روى الترمذي عن النبي صلى الله عليه وسلم: ما المتفقيقهون؟ قال: المتكبرون. أنظر سنن الترمذي ج2، ص522 كتاب البر والصلة.

[4] سبق بيان شطر من ذلك أنظر المدرسة التغريبية من هذا البحث.

يباهون بها هي أن تفسير القرآن لم يعد حكرا على التراثيين.[1]كون التراثيين . بزعمهم وتعبيرهم . لا يعرفون سوى ثقافة قديمة، أما معشر الحداثيين فهم . في نظر أنفسهم . متقدمون معرفيا ومنهجيا، لذا فهم ينظرون إلى علماء الأمة بازدراء وتعال وهذه المسألة النفسية والأخلاقية دفعتهم بدورها إلى المخالفة الجذرية لكل المسلمين في قراءة النص القرآني وتفسيره، فكان من مظاهر كبرهم إفراغ نص القرآن من مضمونه، والانتقائية في التعامل مع النصوص، أو مع كلام المفسرين، وغير ذلك توسلا للوصول إلى فرض أهوائهم على الأمة وعلى حقائق القرآن نفسه.

2. الكفر : وهو أشد الموانع أثرا في حجب هداية القرآن، لكن القصد منه ليس مجرد التكذيب بالله أو برسوله أو باليوم الآخر لمجرد أن صاحبه لم يعرف الحق ولم يطلع عليه، بل إن آيات القرآن كما تزيد المؤمنين إيمانا بربهم، تهدي الناس جميعا إلى صراط الله المستقيم، وفي قصة إسلام عمر بن الخطاب . رضي الله عنه . شاهد على ذلك، فبعد أن كان يريد قتل رسول الله – صلى الله عليه وسلم – انقلب إلى الإسلام ببضع كلمات من القرآن قرأها،[2] فلو كان الكفر بإطلاق يحجب هداية القرآن والأثر الإيجابي لمعانيه لما كان له أثر يذكر في إخراج الناس من ظلمات الجاهلية إلى نور الإسلام..

القصد هو الإصرار على الكفر بعد معرفة الحق، هؤلاء هم الذين قال فيهم القرآن الكريم: **(وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفورا)**[3] **إن** هذا الوصف القرآني لا ينطبق على كافر لم تصله الحقائق، إنه وصف كافر ينفر من الحقيقة الزاحفة خلفه. يتحول الكفر هنا إلى موقف يدافع عنه صاحبه ويصر عليه، من هنا قال سبحانه وتعالى: **(إن الذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله**

---

[1] أنظر : هذا الافتخار الكاذب في: الإنسان والقرآن ، حميدة النيفر، ص 8-9 .
[2] أنظر: قصة إسلام سيدنا عمر في: سيرة ابن هشام، المجلد 1، ص320.
[3] الإسراء ، 45-46 .

ولهم عذاب أليم)[1]، ولنا أن نسأل إذا كان هؤلاء قد استحبوا العمى على الإيمان فمن أين تجيء الهداية؟

وإذا كان أمر الكفر محسوما – تقريبا – بالنسبة لموضوع التفسير[2]، إذ الناس لا يأخذون معاني القرآن عادة ممن لا يؤمن بالله أو باليوم الآخر إن هم تبينوا ذلك، فإن هناك "**شيء آخر لا يخص الكفار بل يعمهم وغيرهم، وهو الاستدلال بالآيات المتشابهة على الأهواء والأغراض الشخصية وإضلال الناس بالتحريفات والتأويلات الباطلة.**"[3] كما قال تعالى: (**هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله)**[4]. وهذا المرض الذي يستولي على القلوب فتعمى عن إدراك الحقائق هو سر الزيغ عن الهدى، وعجز العقول التي استولى عليها وكبلها عن التفريق بين الحق والباطل، ولا ريب فإن المكبلات الأيديولوجية تقف في موقع الحجب التي تمنع هداية القرآن كل من يريد أن يلبس القرآن ثوب أهوائه.

---

[1] النحل ،104.

[2] كان هذا الحسم قديما أما اليوم فلم يعد الأمر كذلك، مما اضطر أحد الباحثين إلى إدراج شرط الإسلام ضمن شروط أهلية المفسر، ثم قال: (هذا شرط لم أجد من نص عليه في كتب علوم القرآن، أو التفسير.. وحتى في شروط المجتهد التي بينها وبين شروط المفسر نسب قل من تعرض لهذا الشرط لأنه معروف ضمنا) والذي جعله يدرج الإسلام في شروط المفسر هو هذه النابتة من الملاحدة الذين صاروا يحاربون القرآن من خلال تفسيره وفق أهوائهم وتعطيل معانيه، أنظر: معايير القبول والرد لتفسير النص القرآني، ص 540.

[3] مدخل إلى الدراسات القرآنية ، مرجع سابق ، ص 116 .

[4] آل عمران ، 7 .

المبحث الثالث

ضوابط التفسير الموضوعي

عرضت في المبحثين السابقين الشروط الأساسية والضرورية لكل تفسير معتبر ومفسر كفء، مهما كان منهج التفسير المتبع، تلك هي الشروط العلمية والأخلاقية والموهبة الشخصية للمفسر.

أما هنا، فأحاول دراسة خصوصيات الشروط المتعلقة بالتفسير الموضوعي بأنواعه المختلفة، تفسير لفظ أو موضوع من خلال القرآن، أو تفسير موضوعي لسورة قرآنية بعينها..

وقد ذكر بعض الباحثين هذه الخصوصية المنهجية بقولهم: " **هناك قواعد خاصة وضوابط ضرورية لابد من مراعاتها في التفسير الموضوعي على وجه الخصوص، لأنه نوع من تفسير القرآن بالقرآن نصا، أو استنباطا من نص، ولأن الخلل فيه يوقع الخلل في موضوع كامل، وليس في موضع واحد كما هو الشأن في التفسير التحليلي..**"[1] وهو رأي الاتجاه الذي أسميته الاتجاه النصي أو المأثور، وأما الاتجاه الواقعي فيشترط الخبرة العلمية والعملية ضمن التجربة البشرية، حتى تكون محاورة المفسر للقرآن إيجابية، وهو الاتجاه التوحيدي عند باقر الصدر كما رأينا، وفيما يأتي تلخيص ما ذكره بعض الباحثين[2] من هذه الخصوصيات بشيء من التصرف والإضافة:

- التزام المفسر على نهج التفسير الموضوعي بجعل عناوين الأبواب والفصول من مادة القرآن نفسه، وليس طرفا من حديث أو أي كلام مأثور آخر، أو حكمة أو شعر.. حفاظا على قرآنية الموضوع.
- اجتناب ما لا يخدم التفسير من مرويات ضعيفة أو إسرائيليات أو أساطير وحكايات تاريخية قديمة. ومن استطرادات لا تدعو إليها حاجة الموضوع، ويركز –

[1] المدخل إلى التفسير الموضوعي ، مرجع سابق ، ص : 67 .
[2] أنظر : مباحث في التفسير الموضوعي ، مصطفى مسلم ، ص 39 .

بدلا من ذلك – على بيان هدايات القرآن الكريم وأسراره البلاغية، واستنطاق آياته لمعالجة معضلات تواجهها الأمة الإسلامية في حاضرها أو مستقبلها..

- التزام المنهج الأمثل في تفسير القرآن بالقرآن، وبالسنة الصحيحة، والاستئناس بأقوال الصحابة و التابعين والأخذ بمطلق اللغة ..

وقد مثَّل بعضهم الآخر للقواعد التي يختص بها التفسير الموضوعي للموضوعات القرآنية بالالتزام التام بعناصر القرآن، والتقيد التام بصحيح المأثور في التفسير، وتجنب الحشو والاستطراد في التعليق، والتدقيق التام قبل التقعيد والتأصيل، ومراعاة خصائص القرآن الكريم كونه أصل الأصول جميعا، وهو غاية في الإحكام والإتقان، وأنه كتاب هداية، وأنه قرآن عربي اللسان مع البعد عن آفات الكلام، وجعل تحت كل عنوان من هذه العناوين فروعا مفيدة تحسن مطالعتها.[1]

كما ذكر آخرون[2] وجود خصوصيات متعلقة بتفسير السورة القرآنية موضوعيا، مما يتطلب من المفسر النظر البارع في علم المناسبات والدراية الواسعة بأسباب نزول القرآن وملابساته، وإدراك أهمية السياق في استنباط المعاني..

وكل هذا حسن ما لم يُغفِل المفسر أيضا شرطا ضروريا هو البعد الحركي أو الواقعي للتفسير الموضوعي، فمما يميز التفسير الموضوعي بأنواعه الثلاثة، عن غيره من التفاسير، أنه لا يسعى لتفسير جميع القرآن ليكوّن من ذلك موسوعات تنتظمها رفوف المكتبات.. كلاَ، إنه تفسير حي في نشأته، ويجب أن يبقى كذلك في نموه وتطوره، فلا تُدرس الموضوعات إلا لتجاوز عقبات الحياة وشحن طاقة الفرد والأمة بذخائره الروحية والعقلية..

نشأ التفسير الموضوعي عن حاجة الأمة، ومن شرطه أن يبقى دائرا في فلك هذه الحاجة، وبالتالي فلا ينجح في التفسير الموضوعي من ليس بصاحب همَ وقضية ولا يثمر التفسير الموضوعي عنده، ولهذا الشرط مقتضياته التي سآتي إلى ذكرها..

---

[1] المدخل إلى التفسير الموضوعي : ص 67 – 87 .

[2] منهم الدكتور عبد الله دراز في كتابه النبأ العظيم، أنظر: ص141 مثلا

وجدير بالذكر أن نوع التفسير الموضوعي يتحكم إلى حد كبير في خصوصياته المنهجية، فيختلف تركيزها حسب نوع التفسير، مثلا بقدر ما يحتاج تفسير السورة موضوعيا – في استنباط وتقرير محور السورة وأهدافها الرئيسة – إلى اعتماد براعة النظم والترتيب في الآيات والسور، والمناسبات بين ما قبلها وما بعدها، يحتاج تفسير موضوع من خلال القرآن إلى اعتماد المنهج الاستقرائي، والسياق التاريخي، وترتيب النزول في المقام الأول، إذ من منهجه ترحيل الآيات من مواضعها في ترتيب النزول وحاولة التنسيق بينها من جديد وفهمها مجموعة إلى جوار بعضها البعض في بناء موضوعي محكم تكوّن من خلاله صورة معنوية متكاملة لحل قضية ما تمثل إشكالا..

يعتمد النوع الأول على براعة النظم ودقة الترتيب وأسرار البلاغة وما ينتج عن ذلك من ارتباط معنوي.. أما النوع الثاني فيركز الاهتمام على المعاني المتكاملة التي يجمعها موضوع واحد وإن لم يجمعها موضع واحد.. ومع هذا فلا التفسير الموضوعي للسورة يستغني عن ترتيب النزول وسياق التاريخ ولا التفسير الموضوعي للموضوعات القرآنية يستغني عن علم المناسبات وأسرار البلاغة القرآنية.

وبعد الاحتفاظ بهذه الملاحظة المنهجية ومراعاة نتائجها، يمكن أن نبين حاجة المفسر على النهج الموضوعي عموما إلى **علم المناسبات، أسباب النزول، السياق، الاستقراء، والبعد الواقعي**، وهو ما نظنه خصوصيات يرتكز عليها التفسير الموضوعي.

المطلب الأول

حاجة التفسير الموضوعي إلى علم المناسبات

ليس الغرض أن أفصل القول في مسائل هذا العلم ، فذلك يحتاج إلى دراسة مستقلة ليس هنا موضعها ، بل الغرض بيان أنه لا بد لمن يقبل على تفسير القرآن على النهج الموضوعي أن يكون متمرسا في " علم المناسبات " سواء كان تناسبا بين الآيات أو بين السور ، وذلك أن التفسير الموضوعي ، هو تفسير تجميعي وبنائي ينحو منحى التركيب لا التحليل، وبالتالي يهتم – فضلا عن معنى الآية أو السورة – بما قبل وما بعد الآيات والمقاطع والسور.

سبقت الإشارة – حين ذكرت خطوات البحث في التفسير الموضوعي للسورة الواحدة – أن المفسر يبحث عن الموضوع الرئيس للسورة، وافتراض وجود موضوع رئيس أو موضوعين، هو افتراض يقوم على أساس وجود روابط ظاهرة أو خفية بين آيات القرآن وسوره، وهو ما يتطلب منا تركيز القول في المناسبات وأنواعها والأسس التي تقوم عليها والثمرات التي ترتجى منها، في السياق الذي ندرك معه حاجة التفسير الموضوعي لعلم المناسبات وعلاقته به، ومن ثم أهمية إحاطة المفسر الموضوعي بهذا العلم، فما علم المناسبات الذي يحتاج إليه المفسر على النهج الموضوعي باختصار وتركيز قدر الطاقة من غير إخلال؟

1. ما هو علم المناسبات؟

المناسبة في اللغة: تدور معانيها على: المقاربة والمشاكلة والمشابهة والمشاركة.. قال ابن منظور في اللسان: ناسبه، شركه في نسبه.. ليس بينهما مناسبة: أي مشاكلة.[1]

وجاء في المصباح المنير: بينهما نسب أي قرابة، والمناسب القريب.. وهذا يناسب هذا أي: يقاربه شبها.[2]

أما في اصطلاح المفسرين، فالمناسبة تعني: تلك الروابط والصلات اللفظية والمعنوية، الظاهرة والخفية، التي تظهر الحكمة والإعجاز من ترتيب القرآن على ما هو عليه في المصحف أعني ترتيب التلاوة ، قال الإمام السيوطي: "**المناسبة: المشاكلة والمقاربة، ومرجعها في الآيات ونحوها إلى معنى رابط بينهما، عام أو خاص، عقلي أو حسي أو خيالي، أو غير ذلك من أنواع العلاقات، أو التلازم الذهني، كالسبب والمسبب والعلة والمعلول والنظيرين والضدين.**"[3]

ومعلوم أن نزول القرآن الكريم كان مفرَقا على الحوادث والأيام لمدة ثلاث وعشرين سنة، ولم ينزل بهذا الترتيب الذي نقرؤه في المصاحف العثمانية اليوم.. لذلك كانت المناسبات تجيب عن حكمة هذا الترتيب وتعلله، ومن هنا جاء تعريف بعض الباحثين

[1] لسان العرب، ابن منظور، ج1، ص 756
[2] المصباح المنير، الفيومي، مكتبة لبنان، ج2، ص 602
[3] الإتقان، ج2 ص 274.

المناسبات بأنها: "**علة الترتيب، أي علل ترتيب أجزاء القرآن بعضها ببعض أو بعبارة أخرى: هي المعنى الذي يربط بين آياته وسوره.. إنه: معرفة مجموع الأصول الكلية والمسائل الجزئية المتعلقة بعلل ترتيب أجزاء القرآن العظيم بعضها ببعض.**"[1]

2. أنواع التناسب بين الآيات والسور

تبين لنا من مطالعة كتب التفسير وعلوم القرآن أن المناسبات قسمان: تناسب في ترتيب الآيات وآخر في ترتيب السور ولكل قسم منهما أنواعه ونماذجه.

أ. أنواع التناسب بين الآيات ونماذج منها

الآية في القرآن الكريم هي: "**ذلك المقدار المركب، ولو تقديرا أو إلحاقا، والتقدير نحو (والفجر) إذ التقدير أقسم بالفجر ، والإلحاق نحو إدخال بعض فواتح السور التي عُدت آيات.**"[2]

وقد جاء لفظ الآية في اللغة واستعمالات القرآن متعدد المعاني، جاء بمعنى **المعجزة**، قال تعالى: (**سل بني إسرائيل كم آتيناهم من آية**)[3]، وبمعنى **العلامة**، قال سبحانه: **(إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت)**[4]، وبمعنى **الدليل** قال جل شأنه :**(ومن آياته خلق السماوات والأرض)**[5] وبمعنى **العبرة**، قال عز وجل: **(إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين)**[6]..

وكل هذه المعاني صالحة في وجه من وجوه معاني الآية القرآنية ، وتظهر سبب تسميتها بالآية ، فهي دليل على أن القرآن كلام الله ووحيه ، وهي علامة على صدق النبوة ، وفيها العبر البالغة والبراهين الساطعة .

إن الآية القرآنية هي بناء لغوي محكم، منسق أدق تنسيق، لا تنبو فيه كلمة عن موضعها، حتى لنجد أنه من العسير، بل من المستحيل أن تغير فيه كلمة بغيرها أو يُستغنى فيه عن لفظ مهما بدا إضافيا، أو يزاد فيه لفظا مهما بدا بسيطا.. إن بلاغة القرآن

---

1 علم المناسبات في السور والآيات، محمد بن عمر بازمول، المكتبة المكية بالسعودية .
2 التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، ص74.
3 البقرة، 211
4 البقرة، 248
5 الروم، 22.
6 الشعراء، 8

الكريم قمة في الكمال والإعجاز في الآية الواحدة كما في الروابط التي تضم الآيات بعضها وبعض.

هذا الترابط والتشاكل والتقارب في الآية الواحدة وبين الآيات، هو ما يُقصد بالتناسب الذي يبين عن وجه البلاغة في آيات القرآن كما نتلوها في المصحف المطهر اليوم، وأوجهه متنوعة متعددة بين الروابط اللفظية والمعنوية، فقد تكون تأكيدا أو استطرادا، أو تكاملا أو تفسيرا، أو تضادا أو حسن تخلص أو غير ذلك، وقد يكون تناسبا بين قسم ومقسم به، أو جوابا مناسبا لسؤال، أو تناسبا بين ترغيب وترهيب.. الخ، ولما كانت هذه الأوجه وغيرها في الآية الواحدة وفي جملة آيات، قسم العلماء المناسبات في الآيات إلى نوعين: مناسبة ضمن الآية الواحدة، وأخرى بين آية أو مقطع – جملة آيات – وما يليها.. ولنضرب بهذا الصدد أمثلة توضحية.

. نماذج للمناسبات ضمن الآية الواحدة

- ائتلاف اللفظ مع اللفظ: بأن يقرن القرآن اللفظ الغريب بمثله، والمتداول بمثله، رعاية لحسن الجوار والمناسبة، مثاله قوله سبحانه وتعالى: **(قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين)**[1] أتى بأغرب ألفاظ القسم وهي التاء، فإنها أقل استعمالا وأبعد عن أذهان العامة بالمقارنة مع الواو والباء، وقرن ذلك بأغرب صيغ الأفعال التي ترفع الأسماء وتنصب الأخبار وهي (تفتأ) بدل (إن) التي هي أقرب إلى الأذهان وأكثر استعمالا، ثم جاء بأغرب ألفاظ الهلاك (حرضا) فاقتضى حسن الوضع في النظم أن يجاوَر كل لفظ بلفظ من جنسه في الغرابة توخيا لحسن الجوار ورعاية في ائتلاف المعاني بالألفاظ، ولتعادل الألفاظ في الوضع وتناسب في النظم.[2]

[1] يوسف ، 85.
[2] أنظر : الإتقان ، ج2 ، ص 224.

- ائتلاف اللفظ مع المعنى: قال تعالى: **(ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار)**[1] ، فجمع سبحانه مسَ النار مع الركون إلى الظالم، فلما كان الركون إلى الظالم هو الميل إليه والتقرب منه والاعتماد عليه دون مشاركته فعلا في الظلم، كانت العقوبة دون عقاب الظالم نفسه، فذكر سبحانه المس بالنار وهو دون الإحراق والاصطلاء بالنار والإلقاء في جهنم[2]، وهو غاية العدل الإلهي وقمة البلاغة اللغوية.
- رد عجُز الآية على صدرها: كقوله تعالى: **(أنظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا)**[3]، وكقوله سبحانه: **(لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى)**[4] ، وهذا الرد من العجز على الصدر يبين إحكام الكلام وتأكيد معناه، ولنتأمل وقع التفضيل في الآية الأولى ووقع الافتراء في الآية الثانية على النفس حين كُرر اللفظ وأُحكم المعنى، وقد عدد الإمام السيوطي فوائد مثل هذا التكرير، فذكر منها: التقرير، إذا تكرر الكلام تقرر، وذكر التأكيد، وزيادة التنبيه، والتذكير إذا طال الكلام، والتعظيم والتهويل، وضرب لها أمثلة مناسبة من القرآن الكريم.[5]

وتكمن أهمية ملاحظة المناسبات الدقيقة في الآية بالنسبة المنهج الموضوعي في التفسير في أنها تمهد إلى المناسبات فيما بين آيات القرآن وسوره، وتظهر – من ثم- الوحدة الموضوعية في السورة وفي القرآن الكريم على النحو الذي يبين إحكامه وإعجازه.

نماذج للمناسبات بين الآيات

قد تكون المناسبة ظاهرة لا إشكال فيها " **يظهر الارتباط بينها لتعلق الكلام بعضه ببعض فلا يتم معنى الآية الأولى إلا بالثانية، أو كانت الثانية على سبيل التفسير أو**

[1] هود، 113.
[2] المصدر السابق، ج2، 224.
[3] الإسراء، 21
[4] طه، 61.
[5] الإتقان في علوم القرآن، ج2، ص 170.

التأكيد أو الاعتراض أو التشديد"[1]، وقد تكون خفية تحتاج إلى ذكاء وبصيرة وتفطَن وتدقيق، " **لكونها تظهر مستقلة إحداها عن الأخرى**"[2] ومن أمثلة المناسبات الظاهرة في الآيات:

- أن تأتي الآية اللاحقة مفسرة الآية السابقة : كما قال سبحانه : (**إن الإنسان خلق هلوعا، إذا مسه الشر جزوعا وإذا مسه الخير منوعا**)،[3] فالآية اللاحقة فسرت معنى الهلع في التي سبقتها[4].
- أن تأتي اللاحقة مؤكدة للسابقة[5] : كما في قوله جل شأنه: (**وقال الذي آمن يا قوم قوم اتبعوني أهدكم سبيل الرشاد، يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة لهي دار القرار**).[6]
- أن تأتي اللاحقة من باب السبب للسابقة: كما في قوله تعالى: (**ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون، ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودات وغرهم في دينهم ما كانوا يفترون**)[7]، فقوله (ذلك بأنهم) يبين السبب الذي ورثهم ضعف الإيمان وقسوة القلب وبالتالي رفض حكم الله وإعراضهم وبينهما تلازم في الذهن، وكأن سماع الآية الأولى يدفع إلى التساؤل: لماذا يتولى فريق منهم وهم معرضون؟ فتأتي الآية الثانية بالتعليل والجواب ذلك أن " **النفوس أبعث على قبول الأحكام المعللة من غيرها، وغالب التعليل في القرآن على تقدير جواب لسؤال اقتضته الجملة الأولى**"[8].

---

[1] البرهان في علوم القرآن، الزركشي، ص 39.
[2] المصدر السابق، ص 39.
[3] المعارج ،18، 19.
[4] الإتقان، السيوطي، ج2، ص 183.
[5] المصدر نفسه، ج2، ص 170
[6] غافر، 38، 39.
[7] آل عمران،24.
[8] المصدر السابق، ج2، ص 191.

وهذا النوع من المناسبة بيَنٌ بنفسه لا يحتاج إلى مشقة أو تأويل في استنباطه فالصلة فيه بين الآيات ظاهرة.

وفي المناسبة بين الآيات نوع آخر ليس على نفس الدرجة من الظهور، بل هو دقيق خفي تظهر فيه الآيات كأنها مستقلة عن بعضها منفردة بموضوعها.

هذا القسم، إما أن تكون آياته معطوفة بحرف من حروف العطف المشتركة في الحكم أو لا، فإن كانت معطوفة فلا بد أن يكون بينها جهة جامعة[1] ، وإن لم تكن معطوفة فلا بد من دعامة تؤذن باتصال الكلام بعضه ببعض، وهي قرائن معنوية مؤذنة بالربط[2] ، والفرق بين هذين الأخيرين أن الأول (المعطوف) الربط فيه لفظي والثاني ربطه معنوي، تنزل فيه الآية الثانية من الآية الأولى منزلة جزئها الثاني.[3]

أمثلة عن الروابط اللفظية

- المطابقة أو الطباق بين لفظ ولفظ: كما في قوله سبحانه وتعالى: **(وأنه هو أضحك وأبكى، وأنه هو أمات وأحيى)**[4]، فها هنا مطابقة بين أضحك وأبكى وبين أمات وأحيى، والرابط هو واو العطف. ومثله في المطابقة بين معاني الألفاظ المتجاورة قوله تعالى: **(وما يستوي الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور وما يستوي الأحياء ولا الأموات)**[5]، فالمطابقة هنا بين ألفاظ الآية المتجاورة (الأعمى ، البصير)، (الظلمات ، النور) ، (الظل ، الحرور) ، (الأحياء ، الأموات) ربط بينها بواو العطف، وهي من باب تكرير الأمثال أيضا[6].
- ومن أمثلتها أيضا، المقابلة بين الجمل: قال تعالى: **(فلا صدق ولا صلى، ولكن كذب وتولى)**[7] ولنتأمل كيف قابل سبحانه وتعالى بين (صدَق وكذَب)، وبين (صلى (صلى – أي أقبل على الله – وتولى).

[1] البرهان، الزركشي، ص 39
[2] الإتقان، السيوطي، ج2، ص 275.
[3] المناسبات بين آيات القرآن وسوره ، ص16
[4] النجم، 43.
[5] فاطر، 19- 22.
[6] أنظر: الإتقان ، السيوطي، ج2، ص 173، وص 242.
[7] القيامة، 31.

أمثلة عن الروابط المعنوية

- **المضادة :** وهو كثير في القرآن الكريم ، كالحديث عن المؤمنين الذي يعقبه حديث عن الكافرين ، وعكسه صحيح ، وكذكر الرحمة بعد العذاب ، والرغبة بعد الرهبة ، وكما من عادة القرآن أن يذكر عقب تفصيل الأحكام العملية في الأمر والنهي ، الوعد والوعيد حتى يبعث ذلك على الطاعة رغبة ورهبة من الله ، كما من عادته ذكر آيات التوحيد والتنزيه ليعلم المخاطبون عظم الآمر الناهي سبحانه وتعالى .
- **الاستطراد :** هو أن يشرع القرآن في معنى من المعاني ، فبينما هو آخذ فيه تجده يغير إلى غرض آخر وقد ربط بينه وبين المعنى الأول ربط مقدمة وسبب ، كما في قوله سبحانه : **(يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوءاتكم وريشا ولباس التقوى ذلك خير ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون)**[1] ، فما أحسن هذا الاستطراد الذي جاء ضمن قصة وسوسة الشيطان لآدم وزوجه ، ومهد القرآن له بالكلام عن الأكل من الشجرة وبدو السوءات ، ليعلم بنوا آدم أي نعمة عظيمة في الستر الذي سبغ الله به عباده، والقارئ لا يشعر أبدا أن الكلام قد انتقل من غرض إلى غرض، ثم يتابع القرآن القصة – بعد هذا الاستطراد – **(يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ..)**[2]، يعلق الإمام الزمخشري على الآية السابقة بالقول: "**هذه الآية واردة على سبيل الاستطراد عقب ذكر بدو السوءات وخصف الورق عليها إظهارا للمنة فيما خلق من اللباس ولما في العري وكشف العورة من المهانة والفضيحة، وإشعارا بأن الستر باب عظيم من أبواب التقوى.**"[3] ومن أمثلة الاستطراد قوله تعالى: **(ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك إلي المصير وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في**

---

[1] الأعراف، 26.
[2] الأعراف 27.
[3] الكشاف ، الزمخشري، ج2 ، 74 ، وراجع أيضا: الإتقان: ج2، ص 276.

الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب إلي ثم إلي مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون)[1]، جاءت الآيتان استطرادا رائعا في خلال وصية لقمان لابنه..

- **حسن التخلص**، وهو انتقال الآيات من غرض لآخر دون أن يشعر قارئ القرآن بهذا الانتقال إلا وقد غمره المعنى الثاني لشدة التناسب والالتحام بينهما، وهناك روابط يستخلصها المفسر قد تكون انتقالا من عام إلى خاص أو العكس من سبب خاص إلى تقرير حقائق عامة، والمفسر الذكي هو الذي يتوصل إلى هذه الروابط التي تجمع أجزاء القرآن وآياته بما يظهر التلاحم المعجز بينها.

. لنتأمل في سورة الأعراف كيف ذكر فيها الأنبياء والقرون الماضية، ثم ذكر موسى إلى أن قص حكاية السبعين رجلا، ودعائه لهم ولسائر أمته بقوله: (واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة..)، وجوابه تعالى عنه، ثم جاء التخلص الرائع بمناقب سيد المرسلين، بعد التخلص لأمته بقوله: (عذابي أصبي به من أشاء ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين..)الآية، فشرع في تعديد صفاتهم ومنها: (الذين يتبعون الرسول النبي الأمي..) الآية، وأخذ يشرح صفاته الكريمة وفضائله[2].

وهذا النوع من المناسبات بين الآيات أكثر ما يهتم ويتوسع فيه التفسير التحليلي للقرآن الكريم، لكن الرؤية الموضوعية في التفسير تحتاج إليه أشد الحاجة أيضا في ملاحظة تدرج الروابط المحكمة من الآية الواحدة إلى القرآن كله، لذلك نجد مثلا، الدكتور محمد عبد الله دراز في كتابه: النبأ العظيم، حين تحدث عن الخصائص البنائية لأسلوب القرآن الكريم، رتب دراسته لهذا الجانب إلى مراتب على هذا النحو: **القرآن في قطعة قطعة منه – القرآن في سورة سورة منه – القرآن فيما بين بعض السور وبعض – ثم القرآن في جملته،**[3] ووضح النهج المتدرج في إدراك البناء الأسلوبي والمعنوي للقرآن الكريم، ومن ثم يتبين أن التلاحم في النص القرآني عند علماء المناسبات لا يقتصر ظهوره بين الآيات

---

[1] لقمان، 14.

[2] الإتقان، ص276

[3] النبأ العظيم ، محمد عبد الله دراز، ص 107 .

وحدها، بل يظهر كذلك في مقاطع السور القرآنية وفي ترتيبها على النحو المتلو في المصاحف، وأنواع التناسب في السور القرآنية تؤكد هذا المعنى.

ب . أنواع التناسب في السور القرآنية

السورة من القرآن هي قطعة معينة منه ، لها بداية ونهاية لا ثابتتان، مسماة باسم مخصوص، تشمل ثلاث آيات فأكثر، في غرض تام ترتكز عليه معاني آيات تلك السورة، ناشئ عن أسباب النزول، أو عن مقتضيات ما تشتمل عليه من المعاني المتناسبة.[1]

وعدد سور القرآن أربعة عشر ومائة سورة لا خلاف معتبر في ذلك ، وبالنظر إلى موضوعاتها تنقسم السور إلى قسمين: قسم من الواضح أنه يضم موضوعا واحدا رئيسا، وهو غالب في قصار السور: كالنبأ والانشقاق والفيل وقريش وغيرها.. وآخر يضم أكثر من موضوع وغرض وهذا غالب في طوال السور كالبقرة وآل عمران والمائدة وغيرها..

والتناسب قد يكون ضمن مقاطع السورة نفسها، رغم اختلاف ظروف المكان والزمان والأسباب التي نزلت فيها أو عندها، وذلك مهما كانت السور طويلة أو كثيرة النجوم، و" **إنك لتقرأ السورة الطويلة المنجمة يحسبها الجاهل أضغاثا من المعاني، حشيت حشوا، وأوزاعا من المباني جمعت عفوا، فإذا هي لو تدبرت بنية متماسكة قد بنيت من المقاصد الكلية على أسس وأصول، وأقيم على كل أصل منها شعب وفصول.. فلا تزال تنتقل بين أفنيتها في بنيان واحد قد وضع رسمه مرة واحدة لا تحس بشيء من تناكر الأوضاع في التقسيم والتنسيق.. كل ذلك بغير تكلف ولا استعانة بأمر من خارج المعاني أنفسها، وإنما هو حسن السياقة ولطف التمهيد في مطلع كل غرض ومقطعه وأثنائه، يريك المنفصل متصلا، والمختلف مؤتلفا.**"[2] ومن أمثلة هذا النوع ما أنجزه الدكتور عبد الله دراز في (النبأ العظيم) من تفسير موضوعي لسورة البقرة – وهي أطول سورة في القرآن، وقد سبق ذكر ذلك حين درسنا السورة باعتبارها وحدة موضوعية للتفسير، فليرجع إلى ذلك.

والتناسب ضمن مقاطع السورة هو الأكثر انسجاما مع التفسير الموضوعي لسور القرآن، لأن هدفه الإفصاح عن محورها وموضوعها وبيان لحمتها ومظاهر إعجازها،

---

[1] التحرير والتنوير، ص 84

[2] النبأ العظيم ، ص 195 .

وأحاول تقديم نموذج . باختصار وتركيز . من اجتهادي الخاص عن سورة المزمل، بعد أن استعنت بالله في قراءتها وتدبرها وطالعت بعض التفاسير:

- عند قراءة السورة . وهي من أوائل السور المكية نزلت في بداية الدعوة. بتدبر تدرك من أن الهدف منها تهيئة الرسول صلى الله عليه وسلم للقيام بأعباء الرسالة وتهيئته لتحمل مقتضيات ذلك من المتاعب والمشاق.. فتبدأ السورة بالزاد الروحي المطلوب من أصحاب الرسالات الكبيرة وذلك من قوله سبحانه: **(يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلا)**[1] إلى قوله:**(رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا)**[2] إن قيام الليل وقراءة القرآن، والخلوص لله في جوف الدجى بعد صوارف النهار من صنوف المشاغل، ثم التوكل على رب المشارق والمغارب، لهو أعظم ما يحتاجه الداعية ليتحلى بالصبر وتحمل الأذى في سبيل دعوته.. إن محمدا صلى الله عليه وسلم لم يكن يطل على الناس من برج عاج ليقرأ عليهم بيانات السماء! لقد كان يخالط الناس ويجاهدهم بالقرآن وكان يتعرض لأذاهم باستمرار، لذلك فهو يحتاج لما أُمر به من الصبر، ولما يداوي جراح الأذى في نفسه من أن الله سوف ينتقم له وأن للمجرمين يوم عصيب، كما يحتاج لدروس التاريخ التي تريه سقوط الجبابرة الذين أخذهم الله، كأن لم يغنوا في الأرض، سنة الله في تدمير الذين كذبوا ويكذبون الرسل من المجرمين ولو كانوا فراعنة: **(فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذا وبيلا)**[3] عصرهم.. ليس من العبث أن تنتظم هذه المعاني في المقطع الثاني من قوله تعالى: **(واصبر على ما يقولون)**[4] إلى قوله سبحانه: **(السماء منفطر به كان وعده مفعولا)**[5].. وفي ختام هذا النذير الذي يدفع إلى التفكر العميق في المصير المخزي، يفتح الله باب الأمل: **(إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه**

---

[1] المزمل، 1.
[2] المزمل، 9.
[3] المزمل، 16
[4] المزمل ، 10.
[5] المزمل، 18.

سبيلا)[1].. ثم يأتي المقطع الأخير ليبين صفات هؤلاء الذين تذكروا مع نبيهم فعلا، واستجابوا للدعوة وكأنه الأنموذج العملي أمام هؤلاء المكابرين، وهذا منسجم مع عادة القرآن في التناسب بطريق التضاد(ذكر الشيء وضده)، ولننظر كيف تميز حديث القرآن عن الكافرين بأشد أسلوب وأقوى تقريع وكيف انقلب الحديث عن المؤمنين إلى رفق خالص وتيسير ومضاعفة للأجر.. ذلك قوله سبحانه:(**إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل..)**[2] إلى آخر السورة. لا شك أن التلاحم بين مقاطع الآيات في هذه السورة تبدو جلية واضحة من غير تكلف وكأنها نزلت دفعة واحدة ؟! وسرد الأمثلة في هذا الباب يطول..

وعلى هذا المنهج ألف الشيخ الغزالي كتابه نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم[3]، وقد حاولت في تفسير هذه السورة السير على منواله . رحمه الله . وقد قدم الأستاذ مصطفى مسلم نموذجا حسنا في تقسيره سورة الكهف، وتوسع في بيان أهداف السورة والربط المحكم بين مقاطعها، ولا سبيل لذكر ذلك هنا لطوله فاكتفيت بالإشارة إليه[4]

كما نجد التناسب أيضا في ترتيب السور، أعني بين السورة والتي تليها أو التي تسبقها، وقد يكون هذا التناسب:

- بين فاتحة سورتين كالحواميم مثلا، أي التي تفتتح ب (حم) فالملاحظ أنها جميعا جاءت "**تنوه بشأن الوحي والكتاب المنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم، واتفقت في كونها مكية، ثم جاء الحديث فيها عن أصول الدين الثلاثة: التوحيد، والرسالة، والبعث، شأن كل السور المكية.**"[5] وكذلك الحال في الطواسين، أي التي تبتدئ بـ (طس).

---

[1] المزمل،19

[2] المزمل، 20.

[3] وكذلك فعل الشيخ دراز في تفسيره سورة البقرة، كما سبق أن ذكرته في مطلب أنواع التفسير الموضوعي من هذه الدراسة، أنظر كتابه: النبأ العظيم، ص 191 وما بعدها.

[4] أنظر: مباحث في التفسير الموضوعي، مصطفى مسلم، ص 165 وما بعدها.

[5] المناسبات بين آيات القرآن وسوره ، ص 34.

- بين أول السورة اللاحقة وآخر السورة السابقة، من أمثلته مناسبة أوائل سورة البقرة لأواخر سورة الفاتحة، " **لأن الله لما ذكر أن الحامدين طلبوا الهدى، قال: قد أعطيتكم ما طلبتم، هذا الكتاب هدى لكم فاتبعوه.. ثم إنه ذكر في أوائل هذه السورة، الطوائف الثلاثة الذين ذكرهم في الفاتحة، فذكر الذين على هدى من ربهم، وهم المنعم عليهم، والذين اشتروا الضلالة بالهدى، وهم الضالون والذين باؤوا بغضب من الله وهم المغضوب عليهم.**"[1] ومن أمثلته كذلك: مناسبة آخر سورة البقرة: **(آمن الرسول.. إلى.. أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين)**[2] لأول آل عمران: **(الله لا إله إلا هو الحي القيوم)**[3] ، لتأكيد أنه سبحانه أهل لأن يتوجه إليه بتلك الطلبات التي ختمت بها سورة البقرة، وفي بداية آل عمران تفصيل للكتب التي آمن بها الرسول والذين معه: **(وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان).**[4] وكذا التناسب بين آخر آل عمران فقد ختمت بالأمر بالتقوى، وأول النساء بالمعنى ذاته، قال الألوسي: "**وذلك من آكد وجوه المناسبات في ترتيب السور،**"[5] وأول المائدة مناسب لختام النساء، حيث ختمت سورة النساء بالأمر بالتوحيد والعدل بين الناس، وفاتحة المائدة تؤكد هذا المعنى: **(يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود)**[6].. وهكذا في جميع سور القرآن.. والتناسب قد يكون تطابقا في اللفظ، كما بين سورة الطور وسورة النجم التي تليها أي بين قوله سبحانه: **(ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم)**[7] وقوله: **(والنجم إذا هوى)**[8] ، وبين سورتي الواقعة والحديد: **(فسبح باسم ربك العظيم)**[9] ، **(سبح لله ما في السماوات**

---

1 أسرار ترتيب القرآن، جلال الدين السيوطي، دار الاعتصام، القاهرة، ج1، ص 78.
2 أواخر سورة البقرة.
3 آل عمران، 2.
4 آل عمران، 4.
5 روح المعاني، الألوسي، ج4 ،ص179 .
6 المائدة،1.
7 الطور، 49.
8 النجم، 1.
9 الواقعة، 94.

والأرض)[1]. وقد يكون تشابها في المعاني كما بين سورتي الضحى والشرح **"فالسورتان متناسبتان في الموضوع، متقاسمتان في بيان فضل النبي صلى الله عليه وسلم "**[2]. وقد يكون تقابلا في المعاني أيضا ، كما هو الأمر بين الماعون والكوثر، فمن لطائف سورة الكوثر أنها كالمقابلة للماعون، فذكر الله المنافق في الماعون بأربعة أمور، وقابل ذلك في الكوثر بما أغدق به نبيه من النعم، ذكر المنافق بالبخل (يدع اليتيم ولا يحض على طعام المسكين) وقابله بالكوثر:(إنا أعطيناك الكوثر) وذكره بترك الصلاة والسهو عنها: (الذين هم عن صلاتهم ساهون) وقابل ذلك بقوله: (فصل)، وذكره بالعمل لغير وجه الله(الذين هم يراؤون) وقابله بقوله: (لربك)، وذكره بمنع الزكاة والصدقة: (ويمنعون الماعون) وقابل ذلك بقوله: (وانحر) أي الأضاحي وتصدق بما أنعم الله به عليك.

3. نتائج علم المناسبات

لإدراك دقائق المناسبات في الآيات والسور ثلاث نتائج غاية في الأهمية، وهي: - إظهار جانب من أسرار إعجاز القرآن. - بيان كمال القرآن في إحكام ترتيبه مما يثبت الإيمان به واليقين بأنه كلام الله ويرد على مطاعن المشككين. - تعميق الفهم الصحيح لمعاني القرآن الكريم والكشف عما يضيفه الترابط في ترتيب القرآن - آيات وسور - من المعاني.

ومن أبرع من تحدث عن فوائد هذا العلم، الإمام برهان الدين البقاعي الذي ألف فيه كتابين هما: **"نظم الدرر في تناسب الآي والسور"** و **"مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور"**، يقول - رحمه الله -: **"بهذا العلم يرسخ الإيمان في القلب ويتمكن من اللب، وذلك أنه يكشف أن للإعجاز طريقين هما: نظم كل جملة على حيالها بحسب التركيب، والثاني نظمها مع أختها بالنظر إلى الترتيب"** وهذا الأخير هو الوجه الذي تكشف عنه المناسبات بين السور والآيات، ويشرح الإمام البقاعي قوله الأول وكأنه يعرض

[1] الحديد، 1.
[2] المناسبات بين آيات القرآن وسوره ، ص 36.

معاناة شخصية أوتجربة خاصة في العلم يقول: "**والأول [أي: إعجاز النظم وتركيب الجمل] أقرب تناولا وأسهل ذوقا، فإن كل من سمع القرآن من ذكي وغبي يهتز لمعانيه وتحصل له عند سماعه روعة ونشاط لا تحصل عند سماع غيره.. ثم إذا عبر الفطن من ذلك إلى تأمل ربط كل جملة بما تلته وما تلاها [أي: إذا عبر بإدراكه من المعاني الجزئية إلى الترابط الكلي بينها] خفي عليه وجه ذلك، ورأى أن الجمل متباعدة الأغراض متنائية المقاصد ، فظن أنها متنافرة ، فحصل له من القبض والكرب أضعاف ما كان حصل له بالسماع من الهز والبسط ، وربما شككه ذلك بكثير وزلزل إيمانه وزحزح إيقانه**"، بل يذهب البقاعي إلى أن الغفلة عن المناسبات ليست فقط مدخلا للشك في كثير مما يتعلق بالقرآن، بل هي باب للإعراض عن الإيمان ، لمن لا يستعين بالله ويثق بإحكام الربط ويديم النظر في تفاصيله، يؤكد هذا المعنى بقوله: "**وربما وقف مكيس من أذكياء المخالفين عن الدخول في هذا الدين بعدما وضحت لديه دلائله.. فإذا استعان بالله وأدام الطرق لباب الفرج وإنعام التأمل وإظهار العجز مع الوثوق بأنه [أي: القرآن] في الذروة من إحكام الربط ، كما كان في الأوج من حسن المعنى واللفظ، لكونه كلاما جلّ عن شوائب النقص وحاز صفات الكمال..**"[1]، إن حديث البقاعي عن الكرب، وعن الوثوق بالله لتجاوز ظلمات الشك وانتظار الفرج منه سبحانه، هو ما يعطي الانطباع بأنه كان يكابد معاناة خاصة، ومن رحم هذه المعاناة ألف كتابه نظم الدرر الذي قيل فيه:"**هو كتاب لم يسبق إليه أحد جمع فيه من أسرار القرآن ما تتحير منه العقول.**"[2]

وذكر صاحب البرهان أن فائدة المناسبات هي: "**جعل أجزاء الكلام بعضها أخذا بأعناق بعض، فيقوى بذلك الارتباط، ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلازم الأجزاء.**"[3]

وهذا ما يشير إلى تعميق المناسبات لفهمنا للقرآن الكريم وترابطه، إذ هذا الترابط يكشف عن مزيد من المعاني، خاصة ما يتعلق بأغراض سور القرآن ومقاصدها

---

[1] نظم الدرر في تناسب الآي والسور، برهان الدين البقاعي، ج1، ص5.
[2] كشف الظنون ، حاجي خليفة ، ص 191.
[3] البرهان، ج1، ص 36 .

ومحاورها، وبيان الحكمة من تكرار القصص في سياقات متباينة وغير ذلك، كما يشير إلى الرد على مطاعن المستشرقين حديثا والمشككين قديما من القول بتفكك أغراض القرآن وأن الأولى أن يُتلى حسب الموضوع أو حسب النزول وما إلى ذلك مما يراد به طمس إعجاز القرآن ومحاربة سحره وبيانه[1].

ولأهمية علم المناسبات لتفسير القرآن وخاصة على النهج الموضوعي يقول البقاعي عن نسبة المناسبات للتفسير إنها "**كنسبة علم المعاني والبيان من النحو فهو غاية العلوم**"[2]، فطلب التفسير للمناسبة في رأيه كطلب المعاني والبيان للنحو.

4. أسس علم المناسبات وقيمتها

قيمة أي علم ووزنه يظهران في الأسس التي يقوم عليها، ولا يمكن لبناء ما أن يكون قويا ما لم يكن أساسه قويا أيضا، والأسس التي بني عليها تصور وجود ترابط محكم بين آيات القرآن وسوره كما نتلوها في المصحف الشريف هي على الأرجح ثلاثة أسس: أولها: طلب الكمال في كلام الله، وثانيها: التوقيف في ترتيب الآيات والسور، وثالثها: وجود القرآن بهذا الإحكام – عند الله – قبل تفرقه على الحوادث والأيام. ولنحاول معرفة قيمة هذه الأسس الثلاثة مع الإقرار مسبقا بأن من العلماء من خالف في قيمة هذا العلم وأسسه جدواه.

الأساس الأول: طلب الكمال في كلام الله بغاية إحكامه وترابطه بحيث يصير بناء محكما متلازم الأجزاء بتعبير الإمام الزركشي[3]، والذي قال عنه الإمام البقاعي . فيما نقلنا عنه سابقا . بأنه الوثوق بأن القرآن في الذروة من الإحكام والربط كما هو في الأوج من حسن المعنى واللفظ، فهو يقوم على تصور التلازم في العلاقة بين الترابط والكمال، فيصير الطعن في ترابط المعاني ضمن السورة الواحدة – وربما ضمن القرآن كله – طعنا في كمال القرآن الكريم ورميه بالنقص.

---

[1] أنظر: الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم، محمد محمود حجازي، ص 11-12.

[2] مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، برهان الدين البقاعي، ج 1 ، 142.

[3] أنظر البرهان، الزركشي، ص 36.

وقد أشرت في موضع سابق من هذا البحث إلى أن اختلاف العلماء حول علم المناسبات هو اختلاف نسبي، فحتى الذين رفضوا هذا العلم، قد رفضوا تعميمه ولم ينكروا وجوده من الأصل، وذلك خشية التكلف في ربط ما لا يربط، أو ادعاء معرفة ما نجهل من أسرار القرآن العظيم ، وذهبوا بدل ذلك إلى الاكتفاء بروح القرآن البلاغي الآسر وتركيبه الجامع رغم تعدد أو تغير واختلاف أغراضه[1].

وساق هؤلاء العلماء حججا غير مقنعة – رغم الاتفاق على ضرورة البعد عن التكلف في إدراك المناسبات – وأظهرهم العز بن عبد السلام قال . رحمه الله . معترضا: "**اعلم أن من الفوائد أن من محاسن الكلام أن يرتبط بعضه ببعض ويتشبث بعضه ببعض، لئلا يكون مقطعا مبترا، وهذا بشرط أن يقع الكلام في أمر متحد فيرتبط أوله بآخره، فإن وقع على أسباب مختلفة لم يشترط فيه ارتباط أحد الكلامين بالآخر، ومن ربط ذلك فهو متكلف لما لم يقدر عليه إلا بربط ركيك يصان عن مثله حسن الحديث فضلا عن أحسنه، فإن القرآن نزل على الرسول عليه السلام في نيف وعشرين سنة في أحكام مختلفة شرعت لأسباب مختلفة غير مؤتلفة وما كان كذلك لا يتأتى ربط بعضه ببعض إذ ليس يحسن أن يرتبط تصرف الإله في خلقه وأحكامه بعضه ببعض مع اختلاف العلل والأسباب**"[2] ، ثم ضرب العز بعض الأمثلة لبيان قصده، منها: أن الحاكم يحكم في يومه بوقائع مختلفة وأحكام متضادة ولا أحد يلتمس ربط بعض أحكامه ببعض، ومنها: أن الإنسان يتصرف في خاصته بطلب أمور مختلفة ومتضادة ولا أحد يطلب ربط بعض تلك التصرفات ببعض[3].

وهذا في تقديري غير دقيق كون الملك العلاّم – سبحانه وتعالى – كامل العلم يستوي عنده الغيب والشهادة، فلا يؤثر اختلاف الأسباب وصروف الدهر في حكمه وتصرفاته، أما غيره سواء كانوا ملوكا أو غير ملوك فإن تقلبات أحكامهم وتصرفاتهم يشفع لها ويفسرها جهلهم وقصور إدراكهم، فهو قياس مع الفارق.

---

[1] سبقت الإشارة في مطلب أنواع التفسير الموضوعي(السورة باعتبارها وحدة موضوعية) فليراجع.
[2] الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز، العز بن عبد السلام، ص221
[3] المصدر نفسه، ص221.

والملاحظ على رأي العز بن عبد السلام – رحمه الله – أنه لا يرفض الارتباط والتناسب ما كان في غرض متحد، كما أنه يمج ركاكة الربط وتكلفه، وهذا حق، وأنه لا يرى غضاضة من عدم ارتباط الكلام ما كان في أغراض مختلفة ولأسباب مختلفة، وفي هذا نظر، فإن مقتضى الكمال يفرض وجود تناسب بين الكلام في السورة الواحدة، وإلا فما تعليل وجود كلام مفكك في وحدة واحدة تسمى سورة ؟ ولماذا كان ذلك بأمر وتوقيف من الله؟ أما اختلاف الأسباب، ويقصد بها أسباب النزول، فلعل الأساسين الثاني والثالث يردان هذه الشبهة بمزيد بيان.

الأساس الثاني: التوقيف في ترتيب الآيات والسور، فقد قال الشيخ ولي الدين أحمد الملوي: "**قد وهم من قال لا يطلب للآي الكريمة مناسبة لأنها على حسب الوقائع المتفرقة، وفصل الخطاب أنها على حسب الوقائع تنزيلا وعلى حسب الحكمة ترتيبا وتأصيلا، فالمصحف على وفق ما في اللوح المحفوظ مرتبة سوره كلها وآياته بالتوقيف، كما أنزل جملة إلى بيت العزة.. والذي ينبغي في كل آية أن يبحث أول كل شيء عن كونها مكملة لما قبلها أو مستقلة، ثم المستقلة ما وجه مناسبتها لما قبلها؟ ففي ذلك علم جم، وهكذا في السور يطلب وجه اتصالها بما قبلها وما سيقت له**"[1]

ساق الإمام الزركشي كلام شيخه الملوي بعد ذكر كلام العز بن عبد السلام قصد الرد على كلامه في إنكار المناسبات بناء على أن القرآن الكريم نزل مفرقا على الحوادث، وفيما ساقه الزركشي بيان بأن الترتيب حسب التلاوة إذن معلل بالحكمة، وهي تقتضي الربط والتناسب، وظاهر قول الشيخ الملوي يفيد بأن ترتيب الآيات والسور كلها كان بالتوقيف وهو ما رجحه الزركشي أيضا وهي مسألة خلافية سآتي على مناقشتها.

والحق أن هذا الأساس ضروري للقول بأن المناسبات تكشف عن وجه من وجوه الإعجاز، فإذا لم يكن ترتيب الآيات والسور من قبل الوحي الأعلى فعن أي إعجاز نتكلم؟ وإذا كان ترتيب السور أو بعضها من قبل الصحابة، فهو عمل بشري اجتهادي ولا يمكن بأي حال أن يترتب عليه إعجاز حتى ولو انعقد الإجماع في عهد عثمان – رضي الله

---

[1] البرهان، الزركشي، ص 37، والإتقان ، السيوطي، ج2، ص 274 .

عنه – على ذلك الترتيب.. نعم ، يمكن أن ينطوي ترتيب السور – في هذه الحال – على بعض الحكمة التي تظهر في عمل الصحابة، ولكن لا مجال للحديث عن الإعجاز لأنه لا يعجز البشرُ البشرَ، بل الذي يعجز هو رب البشر، من هنا كان لزاما معرفة وجه الحق في ترتيب الآيات والسور، أعني هل هو توقيفي بوحي من الله وأمر من رسوله ؟ أم توفيقي باجتهاد من الصحابة رضي الله عنهم؟

لا بد من المسارعة بالقول إن محل النزاع ليس في مقدار الآيات ولا في ترتيبها ولا في عدد السور ولا في حدود بداياتها ونهاياتها، فكل ذلك ليس موضع نزاع ، بل فيما يتعلق بترتيب السور أو– على الأصح – بعضها.

إن الإجماع قائم ومنعقد بين العلماء على أن ترتيب الآيات في السورة من القرآن هو بوحي وبأمر من رسوله كما علمه أمين الوحي جبريل ، لا خلاف بين المسلمين في ذلك فيما أعلم، قال الزمخشري: "**الآيات علم توقيفي لا مجال للقياس فيه**"[1]، وقال صاحب الإتقان: "**الإجماع والنصوص المترادفة على أن ترتيب الآيات توقيفي لا شبهة في ذلك، وأما الإجماع فنقله غير واحد منهم الزركشي في البرهان وأبو جعفر ابن الزبير في مناسباته وعبارته: "ترتيب الآيات في سورها واقع بتوقيف النبي صلى الله عليه وسلم وأمره من غير خلاف في هذا بين المسلمين.**"[2]

والنصوص التي تدل على التوقيف في ترتيب الآيات وتحديد السور كثيرة جدا[3]، منها قوله صلى الله عليه وسلم "**من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه** "[4]، وعن عبد الله بن الزبير قال قلت لعثمان: **والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا..الآية**[5] ، **قد نسختها الآية الأخرى، فلم تكتبها أو تدعها، قال: يا بن أخي لا أغير شيئا منه من مكانه**"[6] **وعن عمر بن الخطاب قال: ما سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن شيء**

[1] الكشاف، الزمخشري، (راجع التحرير والتنويرص 75 ومقال الحولية أيضا)
[2] الإتقان، ج1، ص 172.
[3] ذكر الإمام السيوطي طرفا منها في الإتقان: ج1 ص 174-178.
[4] رواه البخاري، ج3 ص1052 كتاب فضائل القرآن.
[5] البقرة، 234.
[6] رواه البخاري، كتاب التفسير، البقرة، ج2، ص905، طبعة المكنز الإسلامي.

أكثر مما سألته عن الكلالة حتى طعن بإصبعه في صدري وقال : تكفيك آية الصيف التي في آخر سورة النساء"[1] ، وقوله عليه السلام لأبي سعيد بن المعلّى: "**ألا أعلمكم أعظم سورة في القرآن قبل أن أخرج من المسجد؟.. قال:الحمد لله رب العالمين هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته.**"[2]

كل هذه الشواهد تدل إن الآية والسورة ليسا اصطلاحا حادثا بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، بل كانت الآيات والسور – على النحو الذي نعرفه اليوم – أمرا معروفا محدد المعالم، بل كان المسلمون" **في عصر النبوة وما بعده يقدرون تارة بعض الأوقات بمقدار ما يقرأ القارئ عددا من الآيات.**"[3]

قال ابن عاشور: "**وأما ترتيب الآي بعضها عقب بعض فهو بتوقيف من النبي صلى الله عليه وسلم حسب نزول الوحي، ومن المعلوم أن القرآن نزل منجما آيات.. وذلك الترتيب مما يدخل في وجوه إعجازه من بداعة أسلوبه.. فلذلك كان ترتيب أيات السورة الواحدة على ما بلغتنا عليه متعينا بحيث لو غير عنه إلى ترتيب آخر لنزل عن حد الإعجاز الذي امتاز به.**"[4]

الخلاف . إذن . محصور في ترتيب السور، وهو خلاف – على دائرته الضيقة . غاية في الأهمية بالنسبة لعلم المناسبات والتفسير الموضوعي لسور القرآن.

والقول في ترتيب سور القرآن على ثلاثة أقوال، قول بأن ذلك كان من اجتهاد الصحابة فلا توقيف فيه، وآخر بأن أكثر سور القرآن رتب بأمر النبي صلى الله عليه وسلم، وبعضه باجتهاد من الصحابة فمنه التوقيفي والتوفيقي، وثالث بأن ترتيب السور كان بأمر النبي صلى الله عليه وسلم وهو توقيفي كله.

وقد نقل ابن عاشور أقوال العلماء في ذلك، فنقل قول أبي بكر الباقلاني "**يحتمل أن النبي صلى الله عليه وسلم هو الذي أمر بترتيبها كذلك ويحتمل أن يكون ذلك من**

---

[1] رواه مسلم كتاب المساجد، ج1، ص224. طبعة المكنز الإسلامي.
[2]رواه ابن ماجه كتاب الأدب، ج1، ص542 طبعة المكنز الإسلامي.
[3] التحرير والتنوير، ص 75.
[4] التحرير والتنوير، ص 79.

اجتهاد الصحابة"، وقول ابن عطية: "**ظاهر الأثر أن السبع الطوال والحواميم والمفصل كانت مرتبة في زمن النبي صلى الله عليه وسلم، وكان من السور ما لم يرتب، فذلك هو الذي رتب في وقت كتابة المصحف**"، ثم علق على ذلك بالقول: "**أقول: لا شك أن طوائف من سور القرآن كانت مرتبة في زمن النبي صلى الله عليه وسلم على ترتيبها في المصحف الذي بين أيدينا اليوم.. فلا شك في أن سور المفصل كانت هي آخر القرآن ولذلك كانت سنة قراءة السورة في الصلوات المفروضة أن يكون في بعض الصلوات من طوال المفصل وفي بعضها من وسط المفصل وبعضها من قصار المفصل، وأن السور الطوال الأوائل في المصحف كانت مرتبة في زمن النبي صلى الله عليه وسلم أول القرآن. والاحتمال فيما عدا ذلك.**"[1] أي فيما عدا: السبع الطوال، والحواميم، والمفصل بطواله وأواسطه وقصاره، فكل هذه مرتبة بالتوقيف خارجة عن محل الخلاف.

وإذا كانت كل هذه السور مرتبة زمن النبوة، فماذا بقي؟ وما هي الشبهة التي عرضت، فدلت على أن بعض السور على قلتها من ترتيب الصحابة؟

يقول الدكتور مصطفى مسلم: "**ذهب جمهور العلماء إلى أن ترتيب السور في المصحف توقيفي للأدلة الكثيرة**[2]**.. أما من ذهب إلى أنه اجتهادي، أو بعضه توقيفي وبعضه اجتهادي فلا مستند لهم في قولهم سوى أمرين، أو بالأحرى شبهتين.**"[3]

الشبهة الأولى: هي وجود مصاحف للصحابة على غير ترتيب المصحف الإمام، كمصحف علي رضي الله عنه المرتب على وفق زمن النزول (العلق ، المدثر ، نون والقلم..الخ)، ومصحف ابن مسعود وتعقب فيه النساء سورة البقرة، ثم آل عمران بعد ذلك[4]، وهذا لا حجة لهم فيه لأن مصاحف الصحابة كانت مصاحف شخصية، والمرء قد يكتب لنفسه مصحفا أو سورا معينة يخشى من التباس الأمر فيها، أو يرى فيها مزيد علم يحب المحافظة عليه كترتيب النزول في مصحف علي مثلا.

---

[1] التحرير والتنوير ، ص 86-87 .

[2] قال السيوطي: جمهور العلماء على أن ترتيب السور توقيفي كله منهم الإمام مالك والقاضي أبو بكر في قوليه، وخالف بعضهم منهم بن فارس. الإتقان، ج1، ص 178.

[3] مباحث في التفسير الموضوعي ، 78 .

[4] وهو كلام السيوطي في الإتقان، ج1، ص 179

الشبهة الثانية: اعتمادهم على حديث سأل فيه ابن عباس عثمان – رضي الله عنهما – "**ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني، وإلى براءة وهي من المئين فقرنتم بينهما..**" والحديث ضعيف السند، بل هو شديد الضعف[1]

وشيء آخر ها هنا يستحق الذكر، إن زيد بن ثابت وعثمان بن عفان – وهما من أكبر حفاظ القرآن من الصحابة – كانا يلتزمان بترتيب قراءة النبي صلى الله عليه وسلم وترتيب قراءة الحفاظ التي لا تخفى على رسول الله، ولم يسمع عنهما اختلاف أو تردد في موضع سورة من السور، على شدة ما كانوا يتميزون به من الورع والحيطة فيما يتعلق بالقرآن الكريم.

ومما استدل به الجمهور على الترتيب التوقيفي للسور تطابق القرآن في المصحف وفي اللوح المحفوظ، قال أبو بكر بن الأنباري: "**أنزل الله القرآن كله إلى السماء الدنيا ثم فرق في بضع وعشرين فكانت السورة تنزل لأمر يحدث والآية جوابا لمستخبر، ويوقف جبريل النبي صلى الله عليه وسلم على موضع الآية والسورة، فاتساق السور كاتساق الآيات والحرف، كله عن النبي صلى الله عليه وسلم فمن قدم سورة أو أخرها فقد أفسد نظم القرآن.**"[2]

ولا شك أن قول الجمهور أولى بالإتباع، فكيف ينزل الله كتابا خالدا لهداية الناس إلى يوم الدين، ثم يتركهم يتصرفون في تقديم سوره وتأخيرها، وما معنى أن يراجع جبريل النبي صلى الله عليه وسلم في استظهار القرآن مرة كل عام وفي سنته التي توفي فيها عارضه القرآن مرتين، فهل كان من أجله هو أم من أجل الاطمئنان على حفظ الوحي كما أراده له الله من ترتيب، وعلى أي ترتيب كان يراجع النبي القرآن على يد جبريل عليه السلام؟ لقد أصاب الكرماني في قوله: "**ترتيب السور هكذا هو من عند الله في اللوح المحفوظ على هذا الترتيب، وعليه كان النبي صلى الله عليه وسلم يعرض على جبريل كل سنة ما كان يجتمع عنده منه، وعرضه عليه في السنة التي توفي فيها مرتين وكان**

---

[1] جزء من حديث رواه أبو داود في الصلاة برقم(786)، والترمذي، في التفسير برقم (3086) وحكم الشيخ الألباني بضعفه في الموضعين.

[2] الإتقان، السيوطي، ج1، 179.

آخر الآيات نزولا (واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله..) فأمره جبريل أن يضعها بين آيتي الربا والدين"[1]

ونقل السيوطي عن الإمام البيهقي في المدخل قوله: "**كان القرآن على عهد النبي صلى الله عليه وسلم مرتبا، سوره وآياته، على هذا الترتيب إلا الأنفال وبراءة، لحديث عثمان."[2]**

وللإمام الزركشي ملاحظة ذكية قال: " **لترتيب وضع السور في المصحف أسباب تطلع على أنه توقيفي صادر عن حكيم: أحدها بحسب الحروف، وثانيها لموافقة أول السورة لآخر ما قبلها، وثالثها الوزن في اللفظ كآخر تبت وأول الإخلاص، ورابعها لمشابهة جملة السورة لجملة الأخرى مثل (والضحى) و(ألم نشرح)[3]**

وقد تأملت فلاحظت أن ترتيب السور في المصحف توقيفي على الأرجح، إذ لا أثر لمنطق بشري في ترتيب المصحف، لا هو مرتب على حسب النزول ولا هو مرتب حسب الطول والقصر ولا حسب فواتح السور ولا حسب موضوعاتها، لا شيء مما يفكر على وفقه البشر، فلم يبق إلا كونه مرتب على حسب حكمة الوحي الأعلى.

الأساس الثالث: الذي يعتمد على أن تفرق القرآن في التنزيل على حسب الوقائع والأحداث، ما هو سوى مرحلة في حياة الكتاب العزيز الذي كان عند الله كاملا قبل نزوله، ثم صار في الأرض على هيئته السماوية قبل النزول، ويصور الدكتور عبد الله دراز على هذا الأساس تصويرا بديعا فيقول: "**إن كانت[آيات القرآن] بعد تنزيلها جمعت عن تفريق ، فلقد كانت في تنزيلها مفرقة عن جمع، كمثل بنيان كان قائما على قواعده فلما أريد نقله بصورته إلى غير مكانه، قدرت أبعاده ورقمت لبناته، ثم فرِّق أنقاضا فلم تلبث كل لبنة من أن عرفت مكانها المرقوم ، وإذا البنيان قد عاد مرصوصا ، يشد بعضه بعضا كهيئته أول مرة "[4]**. وكتاب هذا شأنه تؤثر في الوقائع والأحداث ولا تؤثر في ترابط آياته

---

[1] المصدر نفسه، ج1، ص 179.
[2] المصدر السابق، ج1، ص 180 وقد سبق أن حديث عثمان ضعيف لا حجة فيه.
[3] البرهان، الزركشي، 183-184.
[4] النبأ العظيم ، ص 154- 155 .

وترتيب سوره صروف الدهر وتقلبات الزمان، قال الطيبي: "**أنزل القرآن أولا جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا، ثم نزل مفرقا على حسب المصالح، ثم أثبت في المصاحف على التأليف والنظم في اللوح المحفوظ**"[1] فليس تفرق النزول طاعنا في ترتيب سور القرآن فلقد كانت مرتّبة قبل النزول. بعد هذا العرض والمناقشة يمكن أن نقرر أن علم المناسبات علم أصيل يرتكز على أسس صحيحة، وثماره هي ثمار حقيقية، وبقي أن نعرف وجه أهميته بالنسبة للتفسير الموضوعي؟

5. أهمية علم المناسبات للتفسير الموضوعي

لا شك أن أهمية المناسبة بالنسبة للتفسير الموضوعي قد اتضحت من العناصر السابقة، ومجمل القول فيها: إن منهج البحث في التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم يقوم على تحديد الهدف الرئيس للسورة القرآنية، والأهداف الأساسية التي ترمي إليها مقاطعها، واستنباط المعاني التي تتجلى في ربط بعضها ببعض في سياق واحد[2] ، وفائدة علم المناسبات هي بالضبط " **ربط أجزاء الكلام بعضها ببعض، ليقوى بذلك الارتباط ويصير التأليف حاله حال التأليف المحكم المتلائم الأجزاء**"[3] من هنا فإن المناسبات بين الآيات والمقاطع والسور، تساعد على فهم هدف السورة واستنباط محورها والربط بين مقاطعها، إذ بين أهداف السورة والمناسبات علاقة وطيدة، فإذا كان هدف السورة واضحا، كان له دور في إدراك المناسبة بين الآيات، وإذا كانت المناسبة أوضح، دلت بدورها على الهدف الرئيس للسورة القرآنية.

كما أن المناسبة بين السورة واسمها – أو أسماءها – يوضح أيضا هدف السورة ومحورها، وقد ذهب إلى ذلك الإمام البقاعي في قوله: "**قد ظهر لي باستعمال هذه القاعدة بعد وصولي إلى سورة سبأ في السنة العاشرة من ابتدائي في عمل هذا الكتاب، أن اسم**

---

[1] الإتقان، السيوطي، ج1، 179.
[2] أنظر مباحث في التفسير الموضوعي ، ص40
[3] البرهان، الزركشي، ص36.

كل سورة مترجم عن مقصودها، لأن اسم كل شيء تُظهر المناسبةُ – بينه وبين مسماه – عنوانَه الدال إجمالا على تفصيل ما فيه."[1]

لذا فإن تعويل التفسير الموضوعي لسور القرآن على علم المناسبات جلي وأكيد، وعلى المفسِّر على النهج الموضوعي أن يكون مستوعبا ومتمرسا في إدراك المناسبات، الجليلة والدقيقة، الظاهرة والخفية، بين الآيات والمقاطع والسور، ليستطيع بذلك حوصلة معاني السورة قيد التفسير، أو رسم سورة شمسية – بتعبير الشيخ الغزالي – للسورة القرآنية[2] وهو ما فعله الشيخ الغزالي في كتابه نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم كما سنرى في الفصل الموالي.

المطلب الثاني

حاجة التفسير الموضوعي إلى السياق وأسباب النزول

السياق اللغوي – بسباقه ولحاقه – والتاريخي أو الخارجي بما فيه من أسباب النزول وزمانه ومكانه، سواء كان خاصا أو عاما، يُعد وسيلة في غاية الأهمية بالنسبة لفهم معاني القرآن الكريم، وتشتد أهميته في منهج التفسير الموضوعي بأنواعه وفي دراسة مفردات القرآن الكريم وموضوعاته خاصة، وإذا كانت المناسبة . كما سبق . تهتم بربط اللاحق بالسابق لإدراك التقارب والمشاكلة اللفظية والمعنوية بين الآيات والسور، فإن السياق يُنظَر فيه لما يسبق وما يلحق لإدراك المعاني ضمن سياقها الذي قيلت فيه، ويراعى فيه ترتيب النزول وأحواله كما يراعى فيه ترتيب التلاوة، وبهذا يكون بين المناسبة والسياق بعض الاشتراك، إلا أن السياق أعم وأشمل ، ذلك أنه قد يكون موضعيا مرتبطا بآية أو ببضع آيات وقد يكون موضوعيا يرتبط بالقرآن كله، يبحث عن مفردة أو موضوع أو قصة في سياق القرآن كله ومن خلال مقاصده الكلية.

كما قد يكون السياق زمنيا أو تاريخيا أو مقاميا مرتبطا بأحوال النزول وملابساته، وبذلك يقترب معناه من معنى أسباب النزول التي هي جزء من السياق التاريخي لتنزيلات

---

[1] نظم الدرر في تناسب الآي والسور، البقاعي، ج1 ، ص19.

[2] نحو تفسير موضوعي لسور القرآن، محمد الغزالي، ص 5.

نجوم النص القرآني، فيفارق السياق هاهنا المناسبة التي لا موضع لها في سياق التاريخ بل هي وسيلة فهم في سياق النص وحده والنص الجزئي غالبا، ويشترك مع أسباب النزول وإن كان أعم منها أيضا.

وأهمية السياق بالمعنى الشامل الذي ألمحنا إليه في التفسير الموضوعي لا تقتصر على نوع واحد من أنواعه، بل تعم هذه الأهمية كافة الأنواع سواء بسواء، تفسير لفظ قرآني، أو موضوع، أو سورة.

لا بد إذن من معرفة ما هو السياق ؟ وما هي أنواعه ؟ وما هو أثره على التفسير الموضوعي تفصيلا ؟ .

1. تعريف السياق وأنواعه

منهج مراعاة السياق في تفسير النصوص عموما والنص القرآني على الخصوص ليس جديدا كما قد يتوهم البعض، والادعاء بأنه منهج جديد هو ضرب من التجني على علماء الإسلام القدامى من أصوليين ومفسرين أو هو دليل جهل بعض الباحثين المعاصرين – في اللسانيات وغيرها – بتراثنا الإسلامي، وخاصة ما كتب في التفسير وعلوم القرآن وأصول الفقه.

إننا لا ننكر ما للدراسات الحديثة في تحليل الخطاب وعلم الدلالة من إسهام في الاهتمام بتطوير هذا المنهج ليتخطى كونه وسيلة وأداة إلى كونه منهجا متكاملا[1] ، ولا حرج في ذلك ما كان خاليا من الخلفيات الأيديولوجية أو المعرفية الوضعية وغيرها.. وما كان متساوقا مع أصول المعرفة الإسلامية الصحيحة، قال أحد الباحثين في اللسانيات: "**إن التطورات المعرفية النوعية التي شهدها عصرنا قد طبعت هذه المفاهيم بطابع علمي صارم وأطرتها ضمن أطر علمية واضحة.. وانتقلت من مجرد مفاهيم بسيطة إلى إجراءات منهجية دقيقة، وصار البحث فيها مقصودا لذاته، ولم تعد – كما كانت في**

[1] قام مجموعة من الباحثين المغاربة الشباب بدراسات مفيدة في مجال المناهج الحديثة في تفسير القرآن ومنها منهج السياق، ولهم موقع متميز على شبكة المعلومات يسمى الرابطة المحمدية فيه إضافات جادة لتعميق الفهم في هذا الخصوص.

القديم – مجرد أدوات ومداخل يراد بها غيرها من العلوم الأخرى"[1]، فالتخصص المنهجي له قيمته في هذا المجال من غير قطع الصلة بين الخلف والسلف الذي لا ينتج سوى التشويش على مصادر العلوم الإسلامية بدل الاستفادة منها وتطويرها.

إن علماء الإسلام لم يختلفوا – على الأقل من الناحية النظرية – حول أهمية منهج السياق في إدراك مرامي النصوص، وإن كانت مراعاتهم للسياق في التطبيق – أي كأداة إجرائية في تفسير النص – متفاوتة، فلا نجد كتابا في علوم القرآن أو تفسيره يخلو من الإشارة أو العبارة التي تدل على أهمية السياق والحاجة إليه، "**وقد أخذ بالمنهج السياقي في التفسير جمع من المفسرين في مقدمتهم إمام المفسرين ابن جرير الطبري .. وكثيرا ما يحتكم إلى السياق الخاص أو العام، ومنهم فخر الدين الرازي .. والزمخشري والطاهر بن عاشور .. غير أنه قد يؤخذ على مفسرينا وعلمائنا أنهم لا يلتزمون بالسياق دائما على الرغم من وعيهم بدوره في التفسير.. ولعل ذلك راجع إلى تعدد الأدوات المعرفية التي استخدموها في التحليل، إذ لم يكن السياق هو الأداة المنهجية المهيمنة ، بل كانت تزاحمها أدوات أخرى من العلوم الأثرية والمنطقية"**[2]، وهذا الكلام صحيح في الجملة لكنه يحتاج إلى بعض الضبط، فنحن لا نأخذ على علمائنا استعمالهم أدوات أخرى في التحليل ولا نطلب أن يقتصروا على السياق وحده، بل نأخذ عليهم عدم الاستعانة بهذه الأداة المهمة واعتبارها عندما يتطلبها تفسير النصوص، وعندما يكون التقصير في مراعاتها أحيانا مخلا بمعاني النصوص، كما نأخذ عليهم أكثر التغافل عنها حين لا تخدم رأيا لفرقة ما ينتمي إليها المفسر، فيقدم راجح فرقته على راجح معنى الآية، وينطقها بما لا تريد النطق به.

من يطلع على كتب مناهج المفسرين سوف يلاحظ في تعليل سر تقديم العلماء تفسيرَ الصحابة على غيرهم من المفسرين بأن الصحابة كانوا أقرب إلى عصر النبوة، وأعلم بأحوال التنزيل وأسبابه، وكانوا على علم بالآيات أين نزلت ؟ ومتى وفيم كان نزولها؟ ..

---

[1] أنظر: موقع الشهاب على شبكة المعلومات، " المنهج السياقي ودوره في فهم النص وتحديد دلالات الألفاظ، أبو محمد مسعود صحراوي.

[2] المرجع السابق نفسه.

وبلغة المعاصرين، فقد كان العلماء يعنون بهذا أن تفسير الصحابة مقدَّم على غيره لكونهم أكثر إحاطة **بالسياق اللغوي والسياق التاريخي** أي بالنص وملابسات نزوله، إذ كانوا أعلم باللغة المتداولة في عصر النبوة والأحوال الخارجية المصاحبة لنزول الوحي بما في ذلك المحيط الاجتماعي والفكري والحضاري..

والسياق كما يراه بعض الباحثين المعاصرين، هو منهج متكامل تنتظم فيه عناصر النص وتنضبط فيه حركة المعاني من داخل النص ومن خارجه .

لذا عرفه أحدهم بالقول: "**السياق إطار عام تنتظم فيه عناصر النص ووحداته اللغوية، ومقياس تتصل بواسطته الجمل فيما بينها وتترابط، وبيئة لغوية تداولية ترعى مجموع العناصر المعرفية التي يقدمها النص للقارئ. ويضبط السياق حركة الإحالة بين عناصر النص، فلا يفهم معنى كلمة أو جملة إلا بوصلها بالتي قبلها والتي بعدها داخل إطار السياق.**"[1]

من الواضح من وجهة نظر تحليل الخطاب[2] ، أن كل خطاب ينبئ من ذاته عن أمرين أساسيين لهما اليد الطولى في تفسير الخطاب، وهما ما يتعلق بطبيعة النص الداخلية من جهة، والملابسات أو الأحوال التي قيل فيها النص من جهة أخرى، وقد نهتم أيضا في عملية التفسير بالمتلقي وبصاحب الخطاب. ومراعاة كل هذه العناصر حين يقبل المفسر على فهم كتاب الله هو ما يسمى منهج السياق في التفسير، بمعنى مراعاة لغة النص، أحوال نزوله، من قائله؟ ومن المقول له؟.

ولا ريب، فإن الكلام الصادر عن الله تعالى، ليس كالكلام الصادر عن غيره، فعظمة الله تعالى وكماله يتجليان في كلامه، فيتصف الكلام الصادر عن الله بالكمال والوضوح والخلو من النقص والتناقض.. كما يتصف . بما يترتب عما سبق . باللطف بالعباد،

---

[1] منهج السياق في فهم النص ، عبد الرحمن بودرع، كتاب الأمة، العدد 111، السنة 26. محرم 1427هـ ص 27 .

[2] أنظر على سبيل المثال: علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات، سعيد حسين البحري، الشركة المصرية العالمية، القاهرة، ط1، 1997م، ص166وما بعدها. وكذا: علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، صبحي إبراهيم الفقي، دار قباء للنشر، القاهرة، ط1، 2000م، ص 213. مع الانتباه إلى المبالغات التي وقع فيها المؤلفين، ويقع فيها أكثر اللسانيين، إذ يسمحون لسلطة المتلقي أن تتجاوز الفهم إلى المشاركة في صناعة المعنى، ويؤول بهم الأمر غالبا إلى القول بموت المؤلف والمعاني اللانهائية للنص الواحد. وقد ناقشت قولهم ورددته. أنظر: عنصر المدرسة التغريبية من هذا البحث.

وبالأوامر المطلقة له سبحانه، وبإرادته الخير والهداية لعباده، وتحذيرهم مما يضر بهم.. ولا يعقل أن يصدر عنه عكس ذلك بالنظر إلى كماله عز وجل.

ويتدخل المتلقي في عملية صياغة الخطاب من جهة أن الذي يخاطبه عليه أن يراعي لغته المتداولة، كما راعى القرآن اللغة المتداولة حال نزول الوحي، فهي شرط للبيان الذي اتصف به القرآن، وليس معنى ذلك أن للمتلقي سلطة صناعة المعاني.

أما الخطاب نفسه، ففيه قرائن تكشف عن معناه، وهي إما أن تكون جزءا من النص أو تكون جزءا من الملابسات المصاحبة للنص، ومعرفتها تساعد في الكشف عن المعنى الصحيح المراد، واستبعاد ما ليس مرادا من المعاني، والقرآن الكريم بلغ القمة في ذلك ومنه وصف بأنه قرآن "مبين".

وقد يكون السياق هو سياق لفظ في جملة، أو جملة في آية، أو آية في مقطع، أو مقطع في سورة، وربما سورة بين ترتيب السور.. ويقترب من معنى المناسبة، وهو السياق الخاص، وقد يكون سياق للفظ قرآني بالنظر إلى عادة القرآن في استعمال ذلك اللفظ بمعنى معين، فيتكون بذلك لدينا مصطلح قرآني له معنى شرعيا محددا، أحال عليه السياق القرآني العام، وهو من صميم منهج التفسير الموضوعي.

ولمقاصد القرآن الكريم دور هام في بيان بعض معانيه واستبعاد بعضها الآخر.. هكذا يبدو السياق كمنهج متكامل، هو ذلك الكل الذي يضم جزئياته ويتحكم في حركة دلالاتها، على وفق دلالته العامة، فالسياق على هذا هو: "**الصورة الكلية التي تنتظم الصور الجزئية ولا يفهم كل جزء إلا في موقعه من الكل .. إن التحليل بالسياق يعد وسيلة من وسائل تصنيف المدلولات لذلك يتعين عرض اللفظ القرآني على موقعه لفهم معناه، ودفع المعاني غير المرادة.**"[1]

إذا ثبت أن القرآن الكريم غاية في التناغم والانسجام يصدق بعضه بعضا ويأخذ بعضه برقاب بعض، وأن بنيانه متشابك كما تتشابك أصابع اليدين أو كالبنيان المرصوص، فقد وجب مراعاة سياق القرآن كله ، أعني مراعاة السياق العام كما يراعى

[1] المرجع السابق ، ص 29 .

السياق الخاص، ومراعاة السياق الموضوعي كما يراعى السياق الموضعي، لأن القرآن وحدة واحدة متماسكة لا اختلاف فيه "**ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا.**"[1]

والسياق – على النحو الذي شرحنا – نوعان: سياق لغوي داخلي، وسياق تاريخي خارجي، ويسمى سياق الحال وسياق المقام أيضا.

السياق الداخلي: لا يحتاج فيه المفسر إلى استحضار عناصر من خارج النص لفهم دلالته ومعناه، بل يوظف القرائن اللغوية، ويدرس الألفاظ وأدوات الربط المستعملة بينها، ويراعي عادة صاحب النص ومقاصده المستيقنة، ثم ينظر ما يترتب على ذلك من المعاني والدلالات الجزئية أو الكلية، فإن كان نظره في سياق اللفظ ضمن الآيات أو الآية ضمن المقاطع، سمي **سياقا موضعيا،** وإن كان نظره في سياق القرآن كله سمي **سياقا موضوعيا،** وإن كان نظره مركزا على مقاصد القرآن سمي **سياقا مقاصديا.**

السياق الخارجي: يحتاج المفسر فيه إلى استحضار عناصر من خارج النص، لكنها وطيدة الصلة به، فهي مقامه الذي يعبر عن سياق مقاله، وهو الخلفيات والملابسات التي أحاطت بظروف نزول القرآن، وهذا السياق إذا ركز المفسر نظره فيه على أسباب النزول وما صحب ذلك من حوادث التاريخ، سمي **سياقا تاريخيا،** وإذا روعي ضمنه ترتيب النزول، سمي **سياقا زمنيا،** وإذا روعي فيه مكان النزول مكيا أو مدنيا، سمي **سياقا مكانيا.**

ومن الواجب أن يلتفت المفسر وخاصة الذي ينتهج المنهج الموضوعي في التفسير إلى كافة "**هذه الأنواع من السياق عند إرادة دراسة النص القرآن بمنهج سياقي متكامل، وإلا فإن الاقتصار على السياق التاريخي سيحوم حول النص ولا يعدوه، وأما الاقتصار على السياق الداخلي وحده دون الالتفات إلى الأحداث التاريخية المحيطة به والمصاحبة لنزوله فسيجعل النص بنية لغوية مغلقة تقتصر على ما تفيده الألفاظ من**

---

[1] النساء، 82.

معان ودلالات."[1] وفي هذا الإطار من التكامل بين السياق اللغوي والتاريخي ينبغي فهم مقولة الأصوليين والمفسرين إن "**العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب**"، فكما أن السبب الخاص للنزول يلقي أضواء على معاني النص، فكذلك السياق اللغوي الوارد مورد العموم يكشف عن مراد النص، ولا يفهم قولهم على أنه قفزة فوق أحداث التاريخ أو القول بلا تاريخية التفسير كما فهمه البعض خطأ[2]، كما لا تعني تقييد دلالات ألفاظ النصوص بظروفها وملابساتها التاريخية، فالأمر متوسط بين احتمالات الألفاظ المتعددة الدلالات وأسبابها التاريخية، فلا يطلق العنان لمقولة القرآن حمال أوجه بدعوى إطلاقية النص وتعاليه على زمانه ومكانه، ولا يحجر على هذه المعاني بدعوى خصوص السبب، إن النصوص القرآنية – بحكم إلهيتها – تتعالى على المرحلة التاريخية، ولكن من غير أن تتجاهل معطياتها.

وبيان أهمية السياق الخارجي تتمثل عند المفسرين وعلماء القرآن في ذكر فوائد أسباب النزول التي عددوا منها:

. معرفة وجه الحكمة الباعثة على تشريع الحكم[3].

. تخصيص الحكم العام بقصره على جنس من نزل فيهم "**فالآية التي لها سبب معين إن كانت أمرا أو نهيا، فهي متناولة للشخص الذي نزلت فيه ولغيره ممن كان بمنزلته، وإن كانت خبرا بمدح أو ذم، فهي متناولة له ولمن كان بمنزلته.**"[4] وقد يكون اللفظ عاما ويقوم الدليل على التخصيص، ونقل بعض العلماء الاتفاق على أن لتقدم السبب على ورود العموم أثرا.[5]

. الوقوف على المعنى، قال الشيخ أبو الفتوح القشيري: "**بيان سبب النزول طريق قوي في فهم معاني الكتاب العزيز، وهو أمر تحصّل للصحابة بقرائن تحتف بالقضايا.**"[6] ومن

---

[1] منهج السياق في فهم النص، ص31.

[2] من هؤلاء احميدة النيفر، الذي فهم من هذه القاعدة الجليلة لا تاريخية التفسير، أنظر: الإنسان والقرآن، ص40.

[3] البرهان ، الزركشي، ص28

[4] مجموع الفتاوى، ابن تيمية، ج13، ص339.

[5] البرهان، الزركشي، ص 28.

[6] المصدر نفسه، ص28.

هذا الباب دفع توهم الحصر في قوله تعالى: **(قل لا أجد فيما أوحي إلي محرما على طاعم يطعمه إلا..)**الآية[1] فالسياق التاريخي . كما ذهب إلى ذلك الإمام الشافعي . **أن الكفار لما حرموا ما أحل الله، وأحلوا ما حرم الله، كانوا على المضادة والمحادة، جاءت الآية مناقضة لغرضهم فكأنه قال: لا حلال إلا ما حرمتموه ولا حرام إلا ما أحللتموه، نازلا منزلة من يقول: لا تأكل اليوم حلاوة، فتقول لا آكل اليوم إلا حلاوة، والغرض المضادن لا النفي والإثبات على الحقيقة**[2].

ولمزيد بيان أهمية السياق الداخلي والخارجي في توضيح معاني القرآن الكريم ومراميه، نذكر الأمثلة الآتية:

1. قال تعالى: **(ذق إنك أنت العزيز الكريم)**[3] يبين سياق الآيات أن المراد هو العكس تماما، والمعنى: ذق إنك أنت الذليل المهين، وإنما جاء الأسلوب في سياق التهكم وعلى سبيل الإهانة والاستهزاء زيادة في التشنيع، هذا ما يدل عليه سياق الآيات التاريخي، فقد روى عكرمة أن النبي صلى الله عليه وسلم التقى بأبي جهل فقال عليه السلام: **إن الله أمرني أن أقول لك "أولى لك فأولى"، فقال أبو جهل: بأي شيء تهددني؟ والله لا تستطيع أنت ولا ربك أن تفعلا بي شيئا، إني لمن أعز هذا الوادي وأكرمه على قومه. فقتله الله يوم بدر وأذله ونزلت هذه الآية**[4] . فلا عبرة بعد ذلك بالمعنى المعجمي للفظ العزيز أو الكريم، فذلك غير مراد قطعا والمراد عكسه، وهو ما يؤكده السياق اللغوي، وهو غاية في الوضوح والقوة بحيث لا يحتاج إلى أي تعليق، قال تعالى: **(إن شجرة الزقوم طعام الأثيم كالمهل يغلي في البطون كغلي الحميم خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم ذق إنك أنت العزيز الكريم إن هذا ما كنتم به تمترون)**[5]

---

[1] الأنعام، 145.
[2] المصدر نفسه، 29.
[3] الدخان، 49
[4] الجامع لأحكام القرآن، الإمام القرطبي، ج16، ص151.
[5] الدخان، 43-50.

2. قال تعالى: **(فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض فأقامه)**[1]، هل يعني هذا أن القرآن يثبت للجدار إرادة؟ كلا، فالسياق يدل بإسناد الفعل (يريد) للجدار على أن الفعل جاء بمعنى: يوشك أو يكاد، ولم يقل أحد إن للجدار عقلا وتدبيرا.. من هنا وجب أن سياق استعمال الالقرآن للألفاظ لا يتطابق دوما مع المعنى المعجمي المستقر في المصنفات والقواميس، وكما قال أحد الباحثين:"**لقد وردت في القرآن الكريم أفعال كثيرة تتخذ معاني مختلفة بحسب موقعها من السياق، فليس معنى الكلمة المعجمي هو المعنى الرئيس كما درج على تقريره اللغويون وعلى تصوره علماء المعجم عندما بنو معاجمهم على وحدة محددة هي الكلمة، لكن لكل كلمة معان شتى عالقة بالكلمة والسياق وهو الذي يستدعي المعنى المناسب**"[2]

3. والسياق كما هو مهم في تحديد معنى الكلمة المفردة، مهم أيضا في تحديد معنى الكلام المركب، مثال ذلك قوله تعالى:**(ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه)**،[3] زلت أقدام بعض من فسروا هذه الآية، فنسبوا إلى النبي يوسف عليه السلام ما لا يليق بأمثاله، بل قال أبو حيان في تفسيره "**تسب بعضهم ليوسف ما لا يجوز نسبته لآحاد الفساق**" ثم قال "**والذي أختاره هو أن يوسف . عليه السلام . لم يقع منه هم بها البتة، بل هو منفي لوجود رؤية البرهان**" وذكر أبو حيان أن روايات السلف لا تساعد على هذا التفسير، ولذلك أعرض عنها ولم يثبتها واقتصر كما قال:"**على ما دل عليه لسان العرب ومساق الآيات**"[4] ولا شك بأن المعنى الذي يدل عليه سياق الآيات أولى بتفسير الآية وأنسب لعصمة سيدنا يوسف عليه السلام، كما هو أقرب لدلالة اللغة، ف(لو) هي أداة امتناع لوجود، وبرهان الله سبق إلى النبي يوسف عليه السلام فامتنع منه الهمُّ فلم يصدر منه البتة.

---

[1] الكهف،77.
[2] منهج السياق في فهم النص، عبد الرحمان بودرع، ص58.
[3] يوسف، 24.
[4] البحر المحيط، أبو حيان محمد بن يوسف التوحيدي، ط1، دار الفكر، بيروت، 1992م، ج6، ص258.

4. في إطار السياق العام الذي تفهم ضمنه المفردة القرآنية، يقوم المفسر باستقراء الكلمة في سياقاتها الموضعية المختلفة، والنتيجة تكون متباينة، فتارة تحافظ المفردة على معنى ثابت، وهكذا يتبين مراد الله بها، من مثل لفظ الاجتناب الذي ورد مصاحبا دائما للنهي الشديد المتعلق بالشرك والخمر والموبقات يدل دلالة لا مواربة فيها أن اللفظ يرد للدلالة على التحريم، وتارة أخرى تتباين دلالة اللفظ من سياق إلى آخر، فيدل السياق على معناها، مثل الفعل (أتى) فدلالته قد تنوعت في الاستعمال في القرآن، مثلا في قوله تعالى: **(اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيرا واتوني بأهلكم أجمعين)**،[1] فقد ورد الفعل في الآية في موضعين بمعنيين مختلفين (يأت بصيرا) معناه يصير أو ينقلب أو يرتد بصيرا. و(اتوني بأهلكم) معناه جيئوني بهم، وسياق الآية هو الذي يدل على المعنى المناسب.

2. أهمية السياق بالنسبة للتفسير الموضوعي

أصبحت أهمية السياق في منهج التفسير الموضوعي ظاهرة بعد ما قدمت من عرض ونماذج، فالسياق إن يكن مطلوب مراعاته في التفسير عموما، فالحاجة إليه في التفسير الموضوعي أشد، فملاحظة المعاني المتكررة في آيات القرآن في سياقات مختلفة هي من صميم التفسير الموضوعي، كما يستفاد من السياق معرفة الفروق الدقيقة بين معاني الآيات، ومن أجل توضيح هذا المعنى أكثر نعرض أمثلة توضيحية:

1. قال تعالى: **(وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلدا آمنا)**،[2] تكرر هذا الدعاء من سيدنا إبراهيم في القرآن بصيغة: **(رب اجعل هذا البلد آمنا)**[3] ولسائل أن يقول: لماذا يتكرر الدعاء ذاته في القرآن أكثر من مرة وبهذه الصيغ المختلفة؟ والجواب يكمن في الفرق الدقيق في السياق اللغوي، ولنتأمل كيف جاء لفظ (البلد) في آية سورة البقرة نكرة، وفي سورة إبراهيم معرفة، وهذا يفيد: "**أن الدعوة الأولى وقعت قبل أن يكون البلد بلدا، فكأنه أشار إلى الوادي ودعا أن يُجعل بلدا آمنا، أما الدعوة الثانية فقد وقعت بعد أن أصبح**

---

[1] يوسف، 93
[2] البقرة، 126.
[3] إبراهيم، 35.

المكان بلدا، فعرّف ما هو معروف موجود، ونكّر ما كان مكانا من الأمكنة غير مشهور."[1]

يفيدنا السياق هنا بأن الدعاء قد تكرر من إبراهيم عليه السلام نفسه، والطلب الأول كان يتضمن أن يجعل شعاب مكة وأوديتها بلدا، وأن يجعله آمنا، بينما الدعاء الثاني ففيه أقرار بنعمة الله الذي جعل المكان بلدا، والدعاء بأن يجعله آمنا، وفي الآية فوائد أخرى مستفادة من ملاحظة السياق، منها استحباب تكرار الدعاء والصبر في انتظار الإجابة وغير ذلك..

2. قوله عز وجل: في شأن بني إسرائيل في سورة البقرة: **(قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم)**،[2] وفي سورة الجمعة تكررت الآية مع فارق دقيق **(قل يا أيها الذين هادو إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ولا يتمنونه أبدا بما قدمت أيديهم)**،[3] افتتح الآية الأولى بشرط ادعاء اليهود أن لهم الآخرة خالصة من دون الناس، والآخرة غاية لا مطلوب بعدها، فعلق القرآن صحة دعواهم بتمني الموت وعبّر عن بطلانه بأقوى أداة هي: (لن) التي تفيد النفي القاطع البات المؤبد، أما الآية الثانية فقد تعلقت بشرط مختلف أخف وهو الولاية، وهي ليست مطلوبة لذاتها بل لأجل كسب الآخرة، فاستعمل القرآن أداة النفي (لا) ولم يحتج إلى أداة النفي الأقوى (لن). وإدراك هذه المعاني الدقيقة هو من أثر مراعاة السياق[4] .

وبالجملة فإن مراعاة السياق تفتح أمام المفسر أبوابا للفهم واسعة، وتكشف عن معاني كثيرة قد تغيب عن الإدراك إذا لم ينتبه المفسر إلى السياق اللغوي والتاريخي، وتتلخص أهميته وفوائده فيما يخص التفسير الموضوعي في النقاط الآتية:

---

1 منهج السياق في فهم النص، ص48.
2 البقرة، 94.
3 الجمعة، 7.
4 منهج السياق في فهم النص، عبد الرحمان بودرع، ص 46-47.

. يقدم سياق الآيات للمفسر قرائن قوية تكشف عن مراد الله في كلامه وتقوي طريق فهم القرآن وتفسيره والاستنباط منهن فيتكشف ما كان خافيا من معانيه الدقيقة والجليلة.

. مراعاة السياق تدفع كثيرا من المعاني التي ليست مرادة فتقلل من الأوجه الكثيرة في التفسير باستبعاد ما حقه أن يكون بعيدا عن مراد الله ومقصده من تنزيل هذه الآية أو تلك.

. يعمل السياق على حراسة معنى القرآن وحمايته من التمييع ويسد الباب أمام من يريدون طمس المعنى وتفسير القرآن حسب أهوائهم.

. تحد مراعاة السياق من التوسع في دعاوى النسخ في القرآن الكريم كونها تبين السياقات والأحوال المختلفة التي تعمل فيها نصوص دون أخرى من غير حاجة إلى إبطال النصوص بدعوى النسخ، ويساعد على هذا الفهم السياق اللغوي والسياق التاريخي أيضا[1].

من هنا فإن على المفسر إجمالا وعلى ناهج التفسير الموضوعي خصوصا أن يلتزم مراعاة سياق النص، لأنه ربط لواقع التنزيل بالنصوص، وربط للنصوص ببعضها، وهذا هو منهج التفسير الموضوعي في تفسير القرآن بالقرآن احتكاما إلى لغة القرآن وحسب جو نزول القرآن.

المطلب الثالث

حاجة التفسير الموضوعي للإحاطة بمنهج الاستقراء

منهج التفسير الموضوعي هو منهج كلي يهدف إلى الإحاطة بجوانب القضية المبحوثة من كافة الزوايا التي أورد القرآن الكريم فيها طرفا من هدايته، لذلك لاشك أن المفسر على المنهج الموضوعي في حاجة إلى استقراء النصوص، كما لابد له أيضا أن ستقرئ مختلف زوايا القضية وعناصرها من الواقع الذي يقدم الإشكالات باستمرار.

[1] أفردت لهذا المعنى عنصرا خاصا عند حديثي عن النسخ في القرآن عند الشيخ الغزالي ـ رحمه الله ـ وكيف استعان بالسياق عندما تصدى لدحض أدلة من ذهب إلى القول بوجود النسخ في القرآن الكريم استدلالا بآيتي= =البقرة والنحل، وكيف ذهب إلى أن معنى لفظ الآية في الموضعين يقصد به الآية الكونية لا الآية القرآنية، لذلك آثرت عدم ذكر هذه الأمثلة هنا والاكتفاء بالإشارة إليها. فلتراجع في موضعها من هذه الدراسة.

إذن يجد المفسر على النهج الموضوعي نفسه أمام استقراء نوعين القضايا: استقراء النصوص من جهة واستقراء الوقائع والأفكار التي تنتجها التجربة البشرية من جهة أخرى.

فما هو الاستقراء الذي يطلب من المفسر الاستفادة منه في التفسير الموضوعي؟

ينقسم الاستدلال الذي يمارسه الفكر البشري عادة إلى قسمين رئيسيين هما: الاستنباط والاستقراء.

والفرق الأساس بينهما أن الاستنباط هو كل استدلال لا تكبر نتيجته المقدمات التي تكوّن منها ذلك الاستدلال، فالنتيجة فيه أقل أو تساوي المقدمة، لذا فالنتيجة فيه ليست شيئا جديدا بل هي متضمنة في المقدمة، لذالك فالاستنباط ينظم المعرفة ولا ينتجها. بينما الاستقراء هو كل استدلال تكبر نتيجته المقدمات التي كوّنته أو تساويها، أي هو كل استدلال يسير من الخاص إلى العام ومن الجزئي إلى الكلي، فيستنتج روابط معنوية بين المقدمات والنتائج أو الأسباب والمسببات في بعض الأفراد التي يدرسها ليعمم بعد ذلك النتيجة على على جنس الأفراد التي تستبطن ذات المعنى[1]

وعلى أساس هذا المنهج الاستقرائي بنية جل معارف الناس، ولولا إمكان التعميم في المعرفة البشرية ما عرفنا قانونا ولا قاعدة عامة.

وينقسم الاستقراء بدوره إلى نوعين: تام أو كامل، وهو الذي يمكن سبر كل عناصره، وناقص وهو ما كان عدد عناصره غير منحصر.

ولما كانت نصوص القرآن الكريم محدودة فلا مانع من الاستقراء التام والحصر الكامل لكل الآيات التي يحتاجها المفسر في فهم موضوع ما، ثم ينظمها ويستفيد من معانيها حسب الحبكة والهندسة التي رسم بدقة من أجل أن يقدم للناس هداية القرآن وإرشاده تحت عناوين ألفوها في واقع حياتهم، واستقراء نصوص القرآن يتطلب من المفسر قراءة القرآن كله، بروح من التدبر والتأمل في المعنى مع النظر إلى القرآن الكريم على أنه النبع الذي لا تنضب قدرته في الإجابة المستمرة على الإشكالات والاستفهامات مهما دقت أو جلَت أو استحدثت أو تغيرت " **فهو المصدر الأول في الهداية والعلم والمعرفة**

---

[1] أنظر: الأسس المنطقية للاستقراء، محمد باقر الصدر، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، 1990م،

والموجه الأول لحركة الإنسان ونشاطه في التعامل مع الوجود ومفرداته ، والتعامل مع خالق هذا الوجود سبحانه، ويتطلب ذلك أن يحظى القرآن بالمقام الأول من العناية والاهتمام فيكون ما اشتمل عليه من حقائق وهدايات بمنزلة الدرر التي يسعى الباحث للوصول إليها"[1].

ومن المهم أن يعرف الباحث أن الاستقراء وإن كان يتطلب جمع الآيات القرآنية في الموضوع المدروس والقيام بحصر هذه الآيات[2] وترتيبها، فليس المطلوب استقصاء الآيات على طريقة المعاجم المفهرسة بل التركيز على ما تمليه القضية وما يتطلبه حل الإشكال.

إن لطبيعة الموضوع المختار، شرعيا كان أم إنسانيا أم كونيا، دور كبير في انتظام العناصر وانتقاء الآيات التي لها علاقة حقيقية وأكيدة به.

وهنا تظهر نباهة المفسر ويظهر دورها الأساس، فإن كان المفسر مدمن النظر والتفكر في كتاب الله، راسخ القدم في علوم القرآن، عميق الفهم لمعطيات الواقع المعيش، فإنه يتمكن من تجسير العلاقة بين النصوص القرآنية والمشكلات المعروضة، ويتمكن من الترتيب الحسن والاستشهاد الصحيح بآيات القرآن الكريم وبذلك يقترب أكثر من غيره من تحديد مواطن الهداية القرآنية التي يحتاجها الناس.

وأما استقراء الواقع فهو من أجل تحديد الحاجات الحقيقية والأسئلة الصحيحة المناسبة واقعيا، أي الاستفهامات الملحة على الناس، ثم البحث عن حلول لها في المواطن المناسبة من كتاب الله.

يضاف إلى النباهة والرسوخ المطلوبين من المفسر، التمرس على استعمال منهج الاستقراء، وهو ما يصنع الفرق من جهة الجودة والنفع العلمي، وهذا ليس خاصا بالتفسير الموضوعي، فمازالت التفاسير تختلف من مفسر إلى آخر منذ نشأة علم التفسير.

ومن المسائل الأساسية المرتبطة بالتمرس في استقراء الآيات القرآنية الوعي بترتيب الآيات القرآنية حسب تاريخ نزولها ما أمكن، وحسب مكيها ومدنيها.

---

[1] التفسير الموضوعي ومنهج البحث فيه ، زياد خليل الدغامين ، دار عمار ، ط1 ، 2007م ، ص65.
[2] المرجع نفسه ، ص 69.

ولا يعني هذا الوعي أن يعمد المفسر إلى آيات موضوعه فينظمها بترتيب حدي، أي (الآيات المكية ثم المدنية أو السابقة في النزول ثم اللاحقة).. كلا، بل المطلوب هو أن يكون عالما بالمكي والمدني من الآيات التي يستشهد بها ويستعين بذلك العلم على حسن الاستشهاد والتصور الصحيح للموضوع.. وقد يكون للترتيب أثره ودلالته في التفسير فلا يجب أن يفوت المفسر مراعاة ذلك الأثر، فدلالة ما نزل قبل نشوء الدولة غير دلالة ما نزل بعد ذلك.. والجو الثقافي والاجتماعي العام في مكة يختلف عنه في المدينة، وما نزل في مرحلة الاستضعاف والكف عن القتال غير ما نزل في مرحلة القوة والمنعة وفرض الجهاد..وهكذا، لكل هذا . كما لا يخفى . أثره في التفسير والفهم الصحيح لآيات القرآن الكريم.

ولعل معرفة المكي والمدني يكون أكثر إلحاحا إذا تعلق الأمر بتفسير سورة واحدة تفسيرا موضوعيا لما له من علاقة بمعرفة هدف السورة (أهو تربوي أو تشريعي مثلا) وشرح المحاور التي تدور عليها.

كما يطلب من المفسر في عملية الاستقراء . وقبل أن ينظم الآيات التي يستشهد بها في موضوعه . أن يفهم الآيات محل الاستشهاد في سياقها الموضعي حسب ترتيب المصحف، حتى لا يكون اقتطاعها من السياق الداخلي للنص سببا في حملها على غير مراد الشارع منها، وهذا من حسن التمرس في استعمال المنهج أيضا.

إذن الاستقراء الذي تطلب من المفسر معرفته والاستعانة به، وتعد الإحاطة به شرطا في التفسير الموضوعي ليس هو فقط استقراء النصوص القرآنية . كما اقتصر على ذلك بعض الباحثين[1] . بل هو كذلك استقراء عناصر التجربة البشرية والفكر البشري المرتبط بالموضوع محل التفسير، كما هو في واقع الحياة وكما يلح على عقول الناس وضمائرهم ويؤثر على سلوكاتهم في الحياة..

إن دنيا الناس مليئة بالقضايا والمشاكل والاستفهامات في مجالات الحياة المختلفة، في العقيدة والفكر، وفي القانون والتشريع وفي السياسة والحكم وفي التربية والنفس وفي

[1] منهم الشيخ عبد الستار فتح الله سعيد لأنه اتجه في تعريف التفسير الموضوعي وجهة المأثور وتفسير القرآن بالقرآن واقتصر على ذلك. أنظر مثلا: المدخل إلى التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ص 74.

الاجتماع والاقتصاد، بل وفي الصحة والغذاء أيضا.. الخ، وفي كل جانب من جوانب الحياة قضايا تطرح استفهامات جديرة بأن تدرس على ضوء هدي القرآن الكريم .

وينبغي التأكيد أن استقراء النصوص يبرع فيه من لهم إلمام بالثقافة الإسلامية أو هم مختصون فيها، بقدر ما يبرع في استقراء قضايا المشكلات الواقعية من لهم إلمام بموضوعاتها أو هم مختصون فيها..

من هنا يمكن القول إنه كلما كان المفسر ملما بعناصر الموضوع أو كان مختصا فيه . فضلا عن المعرفة الشرعية . كانت نتائج بحثه أوثق وأقرب إلى الصحة العلمية والهداية القرآنية ، بل إن هذه المسألة تفتح المجال للتعاون والاشتراك بين المفسرين من مختلف التخصصات في كشف الهدايات وحل المعضلات..

وهناك مسألة مهمة أخرى في استقراء النصوص أو عناصر الموضوع المدروس ، وهي أنه لا يشترط على الباحث أن يستقرئ كل النصوص القرآنية أو أن يجمع كل ما يتعلق بموضوع الدراسة بطريقة آلية، ذلك أن التفسير الموضوعي هو نوع من التأليف والحبكة والهندسة للموضوع يتطلب براعة في انتقاء العناصر وبناء الرؤية وترتيب أسبابها ونتائجها.. ولا تشترك الموضوعات بالضرورة في زاوية نظر واحدة .. لذلك فالاستقراء المطلوب هو للآيات التي تخدم الموضوع ، أي إن المطلوب من الباحث أن يستقرئ عناصر القضية ثم يصوغ أسئلته العلمية المناسبة بوضوح تام ثم يتوجه بها إلى القرآن الكريم مستفهما آياته ، باحثا عن الهداية والجواب.

يقول بعض الباحثين إن جمع الآيات القرآنية يتطلب القيام بعملية استقرائية لنصوص القرآن الكريم لحصر الآيات المتعلقة بالموضوع الواحد ، والتحقق من أن هذه الآيات تتعلق بذلك الموضوع وتتصل به من كل جوانبه وتتطلب هذه العملية مزيدا من العناية والدقة ، لأن الباحث سوف يكشف من خلال بحثه عن موقف القرآن إزاء القضايا التي تتصل بالإنسان والكون والحياة[1] .

[1] التفسير الموضوعي ومنهج البحث فيه، زياد خليل الدغامين، ص69.

وهذا الكلام صحيح إجمالا لكن يحتاج إلى تدقيق، فإن إحصاء الآيات واستقراءها يكون تاما في حالة ما إذا كان الموضوع كليا وشاملا يسعى إلى بيان موقف القرآن الكريم من كل جوانب الموضوع وزواياه وهذه ليست حالة عامة ولدينا أمثلة عن موضوعات في التفسير لم تحص كل الآيات الواردة لكنها كانت أكثر توفيقا بالمقارنة مع غيرها ، يدرك صحة هذا الكلام من اطلع على تفسير الشيخ محمد الغزالي مثلا لمن يحبهم الله ومن يبغضهم وما يحبه الله وما لا يحبه[1] أو تفسير السيد باقر الصدر للسنن التاريخية في القرآن[2] .

كما أن الاستعانة بالمعاجم المفهرسة لآيات القرآن وسيلة مهمة تسهل عملية الاستقراء ومنها مثلا : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن لمحمد فؤاد عبد الباقي ، لكنها لا تغني عن قراءة القرآن كله ، بل " **الأسلوب الأفضل في استقراء آيات الموضوع يكون بقراءة القرآن كله ، وإن لم تكن القراءة الأولى كافية فليقرأ مرة ثانية وثالثة حتى يتبين الباحث الآيات التي تتناول ذلك الموضوع والمعاني التي تتصل به** "[3]، وهذا مع حضور القلب ، واشتغال الفكر بالتدبر لآي القرآن الكريم كما سبق.

وينبغي التأكيد والإشارة أن الاستقراء المطلوب فيه سبر وفيه تقسيم.. والسبر هو من النوع المنحصر إذا كان متعلقا بالنصوص، ومن النوع المنتشر إذا تعلق بقضايا الحياة، لأن آيات القرآن محدودة العدد واستفهامات الواقع لا متناهية، أما التقسيم فهو يخضع لطبيعة الموضوع وبراعة المفسر..

على أن يراعى في عملية "التقسيم" والترتيب: الانتقال من الخاص إلى العام ومن الجزئي إلى الكلي مع توظيف المكي والمدني، والبيئة التي نزل فيها النص والترتيب الزمني ما كان ذلك مفيدا في معالجة الموضوع.

وما سبق ذكره يساعد المفسر بلا ريب على الفهم الدقيق وتنزيل المعاني على المناطات بشكل صحيح أيضا.. وهذا كله لابد منه في عملية الاستقراء.

---

[1] أنظر: المحاور الخمسة للقرآن الكريم، محمد الغزالي، دار القلم، دمشق، ط3، 2000م.ص 186 وما بعدها

[2] أنظر: المدرسة القرآنية، باقر الصدر، ص 39 وما بعدها

[3] التفسير الموضوعي ومنهج البحث فيه، ص 70.

المطلب الرابع

حاجة التفسير الموضوعي إلى البعد الواقعي

كتب الأستاذ مالك بن نبي في كتابه شروط النهضة ، نقلا عن محمد إقبال "أشد ما أثر في حياتي نصيحة سمعتها من أبي : يا بني إقرأ القرآن كأنه أنزل عليك" وهذه العبارة التي بلغت التأثير الشديد في حياة فيلسوف الإسلام أوردها بن نبي وهو يعالج موضوع إمكانية تطبيق المبدأ القرآني في واقع الحياة الاجتماعية ..وخلاصة ما ذكره أن الإسلام فكرة صحيحة عن الوجود لكن تأثيرها في معتنقيها هو ما يهم الحضارة والتاريخ[1].

إن القرآن عظيم بالتأكيد لأنه كلام الله تعالى لكن المسئول عن بيان عظمته هو المسلمون حين يحسنوا تحويل معانيه إلى وقائع في سياق التاريخ.. أي حين يوقظوا به قلوبهم وينيروا به عقولهم، و يجتهدون في الدنيا بعظمة وحكمة وهم يطلبون الآخرة، وإلا كانوا فتنة لغيرهم لا أسباب هداية.

هذه الحقيقة بتلك الروح التي تحدث بها مالك بن نبي هي ما يتغيا منهج التفسير الموضوعي الوصول إليه..إن الوحي الخالد لا فرق بين نزوله اليوم (في لحظة قراءته) أو قبل خمسة عشر قرنا ، فدلالاته صحيحة وهداياته صالحة إلى يوم الدين ولا مبدل لكلمات الله.. لا يبدلها عمل الأفاكين ولا صروف الدهر..

إن الواقعية من خائص النص القرآني، فالذي أنزله . وهو أعلم بما وقع وما سيق إلى يوم الدين . قضى أن يتضمن نص القرآن عناصر الحياة الشاملة والخالدة، لذلك نص القرآن يخاطب العوام كما يخاطب الخواص، وجاء بصيغة الإيجاز والعموم، فلا يند عن توجيهه وهدايته شيء مهما استجد الواقع وتغير كمّا أو نوعا.

من مظاهر الواقعية القرآنية قبوله لتعدد المعاني، فقد أودع الله تعالى فيه من أسرار المعنى "**أقصى ما يحتمله اللفظ في أقل ما يمكن من مقدار بحسب ما تسمح به اللغة الوارد هو بها، والتي هي أسمح اللغات.**"[2]

[1] شروط النهضة، مالك بن نبي، دار الفكر، دمشق، ط4، 1987م، ص 58

[2] التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، ص93.

ومن مظاهرها أيضا نزول القرآن مفرقا على بضع وعشرين عاما لتتجسد معانيه في جيل كامل من حياة الأمة الإسلامية، لتصبح هذه التجربة عونا على الفهم والاستحضار، ويكون ذلك الجيل أسوة يعبر عما يقع من أصول القضايا وبعض فروعها في جيل كامل متنوع جدا فيه الإقبال والفتور، والهزيمة والنصر، والصواب والخطأ، والمواجهة والموادعة..الخ كل ذلك حدث للصحابة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكان محلا للعبرة ودقة الفهم، والإنزال على الوقائع بعد فهم المنهج والمقصد والمعنى من كل حادثة وحدث..من أجل هذه الواقعية حفظت أسباب النزول وأحواله وملابساته، وكل ما يدخل تحت مسمى "تاريخ النزول" يعبر عن واقعية هذا الكتاب، بما يبين من اتصال وثيق للقرآن بالإصلاح الاجتماعي والبعث الحضاري من جهة، وبما يدل على أن معانيه لا تحد ولا تفلس ولا تنتهي عند تلك المرحلة من تاريخه، بل تمتد لتتخطى حدود الوقائع التي أنزل القرآن متزامنا معها، وقد أدرك العلماء ذلك حين صاغوا قاعدة: العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ولكنهم لم يهملوا فوائد السبب فقالوا بالاتفاق: إن لتقدم السبب على ورود العموم أثرا..[1] وهكذا تمتد هداية القرآن في طريق طويل إلى نهاية الزمان، وعلى الطريق أنوار كاشفة هي أسباب النزول.

ومن مقتضيات واقعية القرآن الكريم وعد الله بحفظه **(إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون)**[2] فلا معنى لحفظ لفظه إلى يوم الدين، ونفاد معانيه قبل ذلك، فليس من عادة العقلاء أن يحتفظوا بما لا يحتاجون إليه، فكيف كيف الظن برب الناس؟؟ لذا تبقى الحاجة إلى القرآن الكريم ماسة بيقين في كل لحظة من عمر الإنسانية ذلك مقتضى حفظ الله للقرآن، فلا يجوز للمفسر وهو يتدبر معاني القرآن أن يخالجه تصور فاسد بأن هذا النص تراث قديم نزل منذ أربعة عشر قرنا، وفي هذا المعنى قال الأمام الشاطبي: "**بعث الله من العلماء سادة فهموا عن الله وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاستنبطوا أحكام الشريعة وفهموا معانيها، حتى نزلوا الوقائع التي لم تذكر على ما ذكر، وسهلوا لمن جاء بعدهم طريق ذلك، وهكذا جرى الأمر في كل علم توقف فهم الشريعة عليه، أو احتيج في**

[1] البرهان، الزركشي، ص28.
[2] الحجر، 9.

إيضاحها إليه، وهو عين الحفظ [الذي تكفل الله به] وتضمنته الأدلة المنقولة".[1] من هنا تجيء واقعية القرآن الكريم التي تفرض واقعية فهمه وتنزيل.

ولو شاء الله تعالى أن يفهم المسلمون القرآن في حدود مرحلة زمنية معينة لا غير لما رتبت آياته المتلوة في المصحف الشريف من غير ذكر ترتيب النزول وذكر أسبابه في صلب الكتاب، فما معنى أن يلقي الله بكتاب إلى الناس خال من ترتيب النزول وأسبابه وأسماء الناس الذين أنزل فيهم قرآن..الخ؟ ويتلقاه المسلمون بترتيب مختلف غاية في الدقة والإحكام، لا معنى لذلك إلا أن يتلقوه كما قدم إليهم ويتفهمون معانيه كما وردت إليهم على سبيل العموم والشمول.

لا يؤرخ الله تعالى لنزول كتابه، إنه يلقي إلينا بكلامه الخالد، لأنه الهداية المطلقة التي تتخطى حدود الزمان والمكان.

ثم إن هدايات السماء قد انقطعت منذ بعثة محمد صلى الله عليه وسلم ، فإن لم يكن القرآن صالحا لهداية الناس في يومهم وغدهم فأين هو الوحي الذي يهديهم؟

حصر معاني القرآن الكريم في حدود الواقع الذي نزل فيه خسارة فادحة للمسلمين وللإنسانية كلها، وما يحاول أن يتشبث به (التاريخانيون) أو من يسمون (اليساريين) وينسبونه زورا إلى الإمام الشاطبي بدعوى أنه قال إن الشريعة أمية وإن القرآن لا يفهم إلا على وفق معهود العرب[2]، لا حجة لهم فيه وهو من باب المكابرة في تحميل كلام الشاطبي ما لا يحتمله وإلا فهل قال الشاطبي . أو أحد من علماء الإسلام . بأن للقرآن مدة صلاحية تنتهي اليوم أو غدا؟.

القرآن نص واقعي يختزن الفكر الحكمة، والواقع يتطلب فكر القرآن وحكمته، وينتج الأسئلة والإشكالات، التي يستدعيها إلى ساحة القرآن الكريم في أصله الإلهي المصدر وليس القرآن إفرازا اجتماعيا لهذا الواقع **"في ضوء هذه الحقيقة نفهم لماذا نزل القرآن**

[1] الموافقات في أصول الشريعة، الشاطبي، ج2، ص 371.

[2]استغل اليساريون ما قاله الإمام الشاطبي لتمرير مقولاتهم، ولا حجة لهم فقد نقلنا عن الشاطبي كلاما نفيسا يشترط فيه العلم بعلوم العرب، لكنه قصره على عصر النزول لأسباب تفسرها ظروف عصره الذي سادته الباطنية والتحم فيه العلم بالفلسفة الإغريقية، وقد عد بعض العلماء رأي الشاطبي هنا فيما يخص أمية الأمة والشريعة هفوة. أنظر ما قاله الشاطبي وما تعقبه عبد الله دراز في: الموافقات، ج 2، ص 379.

منجما.. ونفهم العلاقة بين الآيات التي كان ينزل بها الوحي، وبين واقع أسباب النزول.. وإذا كان هذا حال مبادئ الشريعة وثوابتها ومقاصدها.. فإن الفروع من هذا الفكر . سواء على عهد البعثة أو فيما تلا ذلك من سنوات . قد عرفت علاقات بالواقع أكثر من الإجابات على الاستفهامات.. لقد جاءت ثمرة لتفاعل الأصول التي هي وضع إلهي، مع الواقع المعيش، في بوتقة العقل المسلم، فكانت له بالواقع علاقة أكبر وأكثر وأدق وأعمق"[1]

ولعل الواقعية في التفسير الموضوعي هي أهم سمة منهجية كانت سببا في تركيز الباحثين جهودهم على هذا اللون من التفسير ذلك أن أكثرهم يغلب على ظنه أن منهج التفسير الموضوعي يساعد في الإجابة عن سؤال النهضة وعن أكثر التحديات المعاصرة.

أخص خصائص التفسير الموضوعي أنه منهج واقعي يعالج المشكلات الراهنة والملحة، ولا معنى له ولا جدوى منه إذا لم يكن ذلك.

منهج التفسير الموضوعي ليس مجرد جمع لآيات القرآن أو ترتيب موضوعاته، كما تفعل الفهارس والمعاجم، لأن أهم ما فيه هو الموضوع (هو القضية المدروسة)، وأعظم ما يقدمه هو العمق والنفع في معالجة القضايا واستشفاف الهدايات على ضوء القرآن الكريم..

يتبين أن القصد بالبعد الواقعي الذي يجب أن يحيط به المفسر على النهج الموضوعي له معنيان:

المعنى الأول: هو استصحاب واقع النزول وملابساته وأحواله، أي السياق الخارجي للنصوص فيستعان به على الفهم الصحيح دون الحد من إطلاق معاني القرآن كما سبق.

المعنى الثاني: هو واقعية الموضوعات والقضايا المطلوب معالجتها. وليس كل موضوع يصلح أن يكون مدرجا ضمن التفسير الموضوعي فلا بد أن يكون "**الموضوع من الواقع الذي يشغل فكر الناس ويعانون بسببه من المتاعب ، ويقعون في الحرج والضيق**

[1] معالم المنهج الإسلامي، محمد عمارة، ص84-85.

والمشاكل ، ويجهدون أنفسهم في البحث عن الحلول في كل ما يتعلق بنظم الحياة المعيشية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والتربوية والثقافية والحربية.."[1]

بهذه الروح الواقعية وبهذه المعاصرة المفعمة بالحياة ينبغي أن يخوض المفسر معترك التفسير الموضوعي . مستعينا بالله . ليقدم لأمته الجيد والجديد.

---

[1] التفسير الموضوعي للقرآن في كفتي الميزان، عبد الجليل عبد الرحيم، ص71

الفصل السادس

التعامل مع القرآن في ميزان الشيخ الغزالي: موضوعا ومنهجا

المبحث الأول

علاقة الشيخ الغزالي بأعلام المنار ومراجعة التراث

المبحث الثاني

تراث المفسرين وعلماء القرآن في ميزان الشيخ الغزالي

المبحث الثالث

التفسير الموضوعي عند الشيخ الغزالي: حقيقته، خصائصه وغاياته

المبحث الأول

علاقة الشيخ الغزالي بأعلام المنار ومراجعة التراث

سياق عام.. مدرسة المنار ومراجعة التراث

تأتي المراجعة الفكرية التي قام بها الشيخ الغزالي للتفسير وعلوم القرآن ضمن سياقين عامين متصلين: سياق مدرسة المنار التي بدأت بالسيد جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا ولا يبعد عنها كثيرا حسن البنا وعدد من شيوخ الغزالي أمثال مصطفي المراغي ومحمود شلتوت وغيرهم.. الذين تأثر الشيخ بهم في الرؤية التجديدية وهو يعد نفسه حسنة من حسنات هذه المدرسة يكمل جهودها.

ولفهم ما قام به الشيخ الغزالي من مراجعة في مجال التفسير لا بد من الاطلاع الموجز على ما قام هؤلاء المصلحون من مراجعات على الأقل في مستوى الرؤية التجديدية التي لا تختلف كثيرا عند الشيخ الغزالي. كما أن مراجعة الغزالي لم تقتصر على موضوع التفسير وعلوم القرآن بل جاءت هذه الأخيرة في سياق عام حاول فيه أن يراجع تراث الأمة كله، بناء على رؤية ثابتة ترتكز على ثلاثة نقاط:

. عدم الخلط بين مصادر الإسلام المعصومة: الكتاب والسنة، وتجارب المسلمين في الثقافة والسياسة والفقه والتاريخ والتفسير ..الخ.

. ضرورة تجديد الثقافة الإسلامية بناء على مواثيق الفطرة وتطور المعرفة الإنسانية وتنقية التراث الثقافي مما شابه من لوثات سواء كان مصدرها داخلي أم خارجي وسواء كانت قديمة مستمرة بيننا أم حديثة مستجدة.

. إعادة بناء المعرفة والوجدان والسلوك المسلم على مبادئ الكتاب والسنة وحدهما، وإعادة ربط اللحمة بين المعرفة والفضيلة، والعقل والقلب، والإيمان والذكاء، وإخراج الأمة من دوامة التخلف والكسل، فلا ينفع إيمان بلا تضحية ولا دين بلا رسالة، ولا معرفة بلا خلق، ومحاربة هذا الانفصال الذي سهل عودة تقاليد الجاهلية هو من صميم الرؤية التجديدية الغزالية . إن صح التعبير ..

في هذين السياقين وتحت ظلال هذه الرؤية يأتي نقد الشيخ الغزالي لتراث المفسرين وملاحظاته على جملة من الأمور المرتبطة بعلوم القرآن ومناهج التفسير وتفسير بعض الآيات كما سنرى.. ولهذا الإجمال تفصيل.

المطلب الأول

الشيخ الغزالي حلقة في سلسلة المنار

يقدّر الغزالي جهود مدرسة المنار وقد سار في الخط نفسه يوقظ الأمة ويحاول إرجاع التوازن لوعيها والرشد لسيرها.. وبرؤية واضحة ومبادئ ثابتة يخوض في ماضي الأمة وحاضرها ويرسي قواعد السير الرشيد للمستقبل، بعد أن أخلدت إلى الأرض، واستولت عليها صراعات الماضي التليد، وتغير كل شيء من حولها لكنها بقيت تجتر معارك الماضي وتحارب أعداء الأمس الذين لا وجود لهم اليوم، في وقت تواجه فيه معركة البقاء ضد أعداء حقيقيين لا تلتفت إليهم.. هل هو العجز؟ أم الغفلة التي لا حدود لها؟ هذا هو الهم الذي عاش الشيخ من أجل فك رموزه وحل عقده وتجاوزه إلى حال أفضل، وهو في هذا حلقة في السلسلة الذهبية لحركة الإصلاح يواصل جهود رجالها في مراجعة كثير من ميادين الثقافة الإسلامية.

يبدأ الشيخ الغزالي بنفسه وإخوانه من العلماء إذ بصلاحهم تصلح الأمم فيتحدث عن السيد جمال الدين الأفغاني بإكبار ويتمنى لو "**يكون علماء الدين على صفته في عزة النفس وشموخ الأنف والتوكل على الله، فما كان الأفغاني يرى نفسه أقل شأنا من الخلفاء والملوك في وقت كان فيه العلماء يتزاحمون على أبوابهم**"[1] يقدّر الغزالي حماس جمال الدين وصدق نفسه التي لا تهدأ وهي ترى الأمة الإسلامية . وقت الخلافة العثمانية . قد صارت "**تركة رجل مريض يوشك أن يلفظ روحه ويقتسم ميراثه ولم تكن له في المحافل الدولية مهابة ولا رسالة**"[2] وفي الوقت الذي كان العالم الغربي يعيش استفاقة حضارية توجت بعصر الأنوار والنهضة العلمية التي تجاوزت أوروبا بها عصر البارود إلى البخار وبدأت تتهيأ لعصر الكهرباء والذرّة.. كان المسلمون في رقاد وجمود يبذرون الحب ويرجون الثمار من الرب، ولا يدرون شيئا كثيرا ولا قليلا عن الكون الذي يعيشون فيه ولا عن المؤامرات التي تحاك ضدهم.. أما الثقافة الدينية فكانت اجترارا غريبا للنزاع بين الأشاعرة والمعتزلة أو قصص عقيم عن فكر السلف والخلف في ميدان العقيدة، وأما

---

[1] علل وأدوية، دراسات في أمراض أمتنا ووسائل الاستشفاء منها مع تصحيح لما وجه إلى التاريخ من أخطاء، محمد الغزالي، دار الدعوة، ط 4(مزيدة ومنقحة) 1422هـ، 2002م، ص 70.

[2] المرجع نفسه، ص 73

في ميدان الفقه فتشريح للفروع ودوران حولها يجعل من الحبة قبة[1] ووصف الشيخ الغزالي للفراغ المريب الذي كانت الأمة تعيشه على عهد الأفغاني في ميدان الثقافة والعلوم لم تتخلص الأمة من كل تبعاته الثقيلة اليوم لأنها ما تزال ترزح تحت نير التخلف، يقول الشيخ في وصف أحد هذه المظاهر"**قرأت رسالة من مخلفات ذلك العهد الأنكد.. عنوانها: صواعق من نار في الرد على صاحب المنار، وسر هذه الغضبة المضرية أن الشيخ رشيد رضا قال: إن صياح المؤذن بالصلاة على رسول الله عقب الأذان أمر محدث ومن الخير الاقتصار على الوارد، وقاد الهجوم.. عضو هيئة كبار العلماء بالأزهر**" يروي الشيخ هذه الحادثة ويستنتج منها أن الثقافة الإسلامية لم يكن لها موضوعات أو قضايا كبيرة تهتم بها ويتساءل عما يمكن للرجل الحكيم أن يصنع تجاه هذا الاختلال وهذا الموت المادي والأدبي؟؟[2]

إن ما شدّ الغزالي إلى الأفغاني أمور ذات بال فهو رجل غاضب لله ولأمته وليس طالب إمارة أو حكم، ففي وقت كانت الأطماع تلف العالم والملوك يحومون حول عروشهم يبيعون في سبيلها الغالي والنفيس، والأمة غائبة عن الوعي قد اكتسحها التشرذم والجهل كان الأفغاني رجلا عاقلا حرّا: "**الفرق بين الأفغاني والمتنبي أن هذا الأخير كان طالب إمارة يرى نفسه أحق بها من ملوك عصره أما الأفغاني فكان غاضبا للإسلام ناقما على من حرّفوه وأضعفوه.. كان يرفض بعنف شديد الفصل بين الإسلام والعقل وبين الشورى والحكم وبين الإنسان والحرية وكان حاسما في ربطه بين العبادات وزكاة الروح والتوكل على الله والزهد في أغراض الدنيا وصحبة الكبرياء**"[3]

والذي يطالع مؤلفات الغزالي يجده يؤكد على هذه القيّم ويكررها في مشروعه الإصلاحي فهي تجري في عروقه كما تنتشر في مؤلفاته، هذه المبادئ القرآنية التي حاول المصلحون إحياء الأمة بها هي ما شغل شباب الغزالي وشيخوخته.

---

[1] المرجع نفسه باختصار وتصرف يسير ص73

[2] المصدر السابق، ص 74

[3] المصدر نفسه ، ص76.

من أجل حسنات موقظ الشرق الكبير الجليلة لا يعبأ الغزالي بما يقال في التنقيب عن أخطاء الأفغاني، فيرفض اتهامه بالتشيع بقوله: "**إن أصدقاء جمال الدين وأعداءه نقبوا في أقواله وأفعاله وخطبه وكتبه فلم يروا ذرة من تشيع إلا للإسلام والسلف الصالح ولم يروا ذرة من حماس إلا لاستعادة الحضارة الغابرة وإنعاش أمتها المسكينة.. إن نفس الرجل تساقطت أنفُسا وهو يكافح الذل والجهل والذهول والتفرق وسائر العلل التي أكلت كياننا.. وما عرف عنه تعصب لمذهب كلامي أو فقهي أو جنسي، كان الإسلام وحده شغله الشاغل حيث ولى وجهه في آسيا أو إفريقيا أو أوروبا**[1]

الغزالي رجل منصف لا يتحمس للأشخاص كما يأبى أن ينتقص من أقدارهم من هم دونهم، أو يظهرون بعض أخطائهم ويهيلون التراب عن جمال حسناتهم التي لا تحصى، لذلك تجده لا ينكر الأخطاء ولا يواري عنها لكنه يضعها في سياقها الطبيعي فعند حديثه عن اتهام الأفغاني بالانتماء إلى الماسونية يقول: "**قالوا كان منتسبا لأحد المحافل الماسونية ولا أنفي هذا وإنما أسأل: في أي كتاب إسلامي شرحت آثار الماسونية وحذر المسلمون منها قبل عصر الأفغاني؟ خدع الرجل بكلمات الإخاء والحرية والمساواة كما خدعت أمتنا اليوم في المؤسسات العالمية الكثيرة.. ونظرتُ إلى علماء الدين الذين تناولوا الأفغاني بالسوء فرأيتهم يحيون في إطار نظم تتبع الاستعمار الشرقي أو الغربي وأنهم في مواجهة سماسرته خرجوا بالصمت عن لا ونعم.. إن الهيابين لا يجب أن يشتموا الشجعان**".[2]

منهج الأفغاني في الإصلاح . كما يراه الغزالي . يمكن تلخيصه في نقاط أذكرها باختصار:

. الإسلام دين التوحيد الحق، الرافض لكل أنواع التعدد والوثنيات والتعبد لغير الله.

. وهو دين الكمال العقلي، دين أولي الألباب والأفكار الناضجة والمزايا البشرية السوية، والرفض لكل دعاوى الأعراق والعنصريات.

---

[1] علل وأدوية ، محمد الغزالي ، ص73.

[2] المرجع نفسه ، ص71.

. وهو ينهض بالإيمان على أساس النظر في الكون، ويأبى تقليد الأوائل دون وعي وتعطيل العقل فيه مرادف للحيوانية.

. المسلم في الإسلام عزيز قوي الجانب بربه, سيد لما حوله, يفعل الخير ويدعو إليه الغير يحترم الحق ويحكم به، يستمد من كتاب الله قيمه ويقيم على دعائم القرآن سلطان دولته، لذا فهو يزدري الأهواء والقوانين الأجنبية، وشريعة الله عنده أساس الحكم في الأرض.

. التغيرات الاجتماعية الكبرى توجب على المسلمين أن يستعينوا بالثروة الفقهية من كل المدارس والفقهاء ولا ينبغي أن يحصروا أنفسهم في تقليد الفقهاء بل يجب الرجوع إلى الينبوع الأول الذي استقى منه الكل (الكتاب والسنة)، ويجب أن ينفتح باب الاجتهاد للوفاء بالمصالح الدينية والمدنية التي جدّت.

. غالى جمال الدين بالخصائص الأدبية التي كرّم الله بها الإنسان ونوه بعظمة العقل وإمكاناته في الكشف والحكم وأزاح العوائق التي تعترض نشاطه واحتقر الجمود الذي يلوذ به بعض المتدينين، والفلسفات الانسحابية من تزهيد في الدنيا وهروب من ساحة المعركة التي تشد المسلمين إلى وراء.[1]

وما يقوله الشيخ الغزالي عن الأفغاني يقوله عن تلميذه الأستاذ الإمام محمد عبده الذي كان مع الأفغاني ثاني اثنين ينافح عن الإسلام وأهله ويدعو إلى الأصول الثابتة من كتاب وسنة ويحاول انتشال المسلمين من عفن التخلف والجمود والتقليد، وإذا اختلف بينهما الأسلوب لأسباب وظروف عاشها كل منهما، فقد وحّدت بينهما الرؤية والغاية، يقول الشيخ الغزالي: "**أول ما عرفت الشيخ محمد عبده في كتابه رسالة التوحيد، وهو عرض جديد لعلم الكلام ردم الفجوة بين السلف والخلف وشرح العقائد شرحا يمزج بين العقل والنقل.. ثم قرأت كتابه عن الإسلام والعلم الذي رد به على وزير خارجية فرنسا فرأيت الرجل عليما بالإسلام وتاريخه وفضله على الحضارة الإنسانية, عليما في الوقت نفسه بالنصرانية والهندوكية وتاريخيهما وما يكتنفه من غموض وقد ألف الكتاب في ليلة**

[1] انظر: علل وأدوية، مصدر سابق، ص74-75.باختصار وتصرف يسير

واحدة لشدة غضبه من الهجوم الفرنسي وملأه بالوثائق التي تشرف الحق وتخزي الباطل.. مَن من علماء المسلمين في عهده تحرك بهذه العاطفة ورد بهذا الرسوخ"؟[1]

من أجل حسنات محمد عبده الكثيرة يقف الشيخ معه ضد خصومه ويرى أنهم بالغوا في تضخيم هناته، وليس أحد من العلماء قديما أو حديثا معصوم من الزلل وخصوم محمد عبده . في رأي الغزالي . لم ينصفوه لأن أخطاءه أمام حسناته لا تساوي شيئا وفي هذا يقول: "**خصوم محمد عبده يكادون يتهمونه بالزيغ لأنه رفض حديث سحر النبي صلى الله عليه وسلم مع أنه رفضه تعلقا بظاهر القرآن وإعلاء لقدر المصطفى صلى الله عليه وسلم**[2]**واتهامه برفض السنة كلها لأنه اعترض أثرا محددا جور شديد، ومدرسة المنار شديدة الاحترام للسنة ولكن القرآن عندها الدليل المقدّم ومن يعترض هذا؟** "[3]

دفاع الشيخ الغزالي عن محمد عبده و مدرسة المنار لا يعني أنه يسلم ببعض ما وقعت فيه من أخطاء لكنه يحفظ قدر الرجال العظام والمدرسة الكبيرة التي أحيت الأمة بعد موات وتكاد تكون "**المهاد الأوحد للصحوة الإسلامية الحاضرة وعلى الذين يرفعون القواعد من هذا المهاد أن يتجنبوا بعض الهنات التي فات فيها الصواب إمامنا الكبير محمد عبده فما نزعم عصمة له أو لغيره**[4]، لذا فهو يرى أن دفاعه ليس دفاعا عن أشخاص بل هو دفاع عن مبادئ يراها حقا، وعن رأيه فيما جانب فيه محمد عبده الصواب يقول: "**قد يكون تطرف في تقريب المعاني من أذهان المعاصرين ولست ممن يرتضون هذا المنهج غير أنني أتساءل: لماذا يحسب عليه ذلك ولا يحسب له تفسيره القيم النقي**

---

[1] المصدر السابق، ص66-67.

[2] يقول الشيخ الغزالي في هذه القضية: هناك قضايا لا يجوز التساهل فيها لخطورتها، وقد شعرت بالغيض والحرج وأنا أقرأ أن يهوديا وغدا سحر النبي عليه الصلاة والسلام وأعجزه عن مباشرة نسائه مدة قدّرها ابن حجر بستة شهور؟ أكذلك تنال القمم؟ قالوا كما يستطيع سفيه ان يقذفه بحجر أو كما يستطيع مجرم أن يصيبه بجرح، وهذا اعتذار مرفوض فإن السحر تسلط على الإرادة والفكر وهذا مستحيل, لاسيما والوسيلة تسليط أرواح شريرة أو بعض الجن.. على الجهاز العصبي للإنسان فيؤدي إلى اضطراب وحيرة وقد سرني أن الشيخ محمد عبده، رفض هذا الحديث وساءني أن الرجل الضخم هوجم في دينه لمثل هذا الموقف الغيور وسمعت أحد علماء الجمعية الشرعية عندنا (هو محمد أحمد عثمان) يقول :إن في سند الحديث مقالا، فقلت له: لست من علماء هذا الفن وكل ما لاحظته إلى السند أنه يجعل نزول المعوذتين في المدينة وهما عند علماء القرآن وكتّاب المصاحف نزلتا بمكة, استدل الشيخ في رفضه الحديث بقوله تعالى: (إن يتبعون إلا رجلا مسحورا) فلو أمكن أن يسحر الرسول لكان للمشركين وجه فيما اتهموا به النبي بأنه رجل مسحور.انظر كيفية فهم السنة والتعامل معها قديما وحديثا ،محمد الغزالي ،مصدر سابق ، ص220-221

[3] علل وأدوية ،ص 69.

[4] المرجع السابق، ص85.

لآيات سورة الأحزاب في زواج زينب بنت جحش رضي الله عنها، وتفسيره الرائع لآيات سورة الحج (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم)[1] إن الرجل دمر خرافة الغرانيق التي وجدت لها أسانيد عند بعض المحدثين الكبار".[2]

يؤكد الغزالي . رحمه الله . على أمرين أساسيين دعا إليهما الأفغاني وعبده يرى أنهما من أهم ما دعيا إليه أولهما: أن دراسة العلوم الحديثة واجب إسلامي أول، وأن أي عقل نظيف يدرك أن هذه الدراسة امتداد محتوم لحديث القرآن عن الكون، وأن نتائج الجهود العقلية الذكية دعم للإيمان الصحيح ودمغ للإلحاد، وعلماء الدين الذين يبتعدون عن هذه العلوم عمدا هم أنصاف أميين، وربما أساؤوا إلى الإسلام حيث يبغون الإحسان إليه لذا يرى الشيخ أن دراسة العلوم الكونية مقدم على تفاصيل فقهية ما كان يعرفها الصحابة رضوان الله عليهم، وأولى من الخوض في بحوث لاهوتية وجدل كلامي لو خاض فيه سلفنا الأول ما قامت لهم دولة ولا شمخت لهم حضارة.

الثاني: التفريق بين دين الله الذي مصدره الكتاب والسنة و بين اجتهاد المسلمين الذي كوّن حضارتهم وتاريخهم في الماضي والحاضر وهذا الأخير ليس مصدرا للتشريع ولا مؤشرا على الحلال والحرام وأخطاء السلاطين أكثر من صوابهم وعوج التقاليد أكثر من استقامتها.[3]

والشخصية الثالثة التي يقف عندها الشيخ مع رواد المنار هي شخصية الشيخ محمد رشيد رضا الذي يقول الشيخ الغزالي عن تفسيره وتفسير شيخه محمد عبده "**قرأت تفسيره للقرآن الكريم ووجدت بواكير التفسير الموضوعي للسورة فيما كتب، اهتدى إليها ذهن لماح مستوعب وبصر حديد في إدراك الخيوط التي تشد أجزاء السورة كما تشد الأعصاب أجزاء الكائن الحي، ويمكن عند متابعة المنار أن نعرف فضل الرجل في تجلية**

[1] الحج 52
[2] علل وأدوية ،ص70.
[3] انظر : علل وأدوية ، ص 79.باختصار وتصرف يسير .

المعنى والحكمة ودفع الشبهات ودعم اليقين.[1] ويقول عن الشيخ رشيد رضا: "**إن صاحب المنار استوعب مذاهب المفسرين من تفسير بالأثر إلى تفسير فقهي إلى تفسير بلاغي إلى تفسير كلامي ومن المختصرات إلى المبسوطات، ثم ضم إلى ذلك علما بآراء المذاهب الفقهية الكثيرة إلى تقعيدات الأصوليين الذين نبغوا في شتى العصور إلى ماجدّ في العالم الإسلامي بعد احتكاكه بالمجتمعات الحديثة**",[2]

كما يروي الغزالي عن شيخه حسن البنا أنه اختلف مع الشيخ رشيد رضا في إحدى القضايا الفقهية واتسعت ساحة الخلف بينهما ولم يصلا إلى وفاق يقول: "**ثم رأيت الأستاذ البنا يصدّر صحيفة الشهاب ويبدأ فيها باب التفسير بسورة الرعد قلت له لم هذا البدء؟ قال: من حيث انتهى الشيخ الكبير محمد رشيد رضا قلت في نفسي: لا يعرف الرجال إلا الرجال**".[3]

إن الجو العام للثقافة الإسلامية كان قبل حركة الإصلاح موبوءً وساكنا وهؤلاء القادة الكبار هم من حرك عقول الناس واستنهض ضمائرهم، وتتابع مدارس الإصلاح في العالم الإسلامي . كما يرى الغزالي . دليل نجاح الأفغاني في تأليب الكثيرين على الاستعمار العالمي ولا ريب أن "**مدرسة المنار في مصر ومدرسة بن باديس في الجزائر ومدرسة القاسمي والكواكبي في الشام ومدارس كثيرة في العالم الإسلامي كانت أثرا مباشرا لهذه الثورة الفكرية والتربوية التي بدأها جمال الدين الأفغاني**[4]

ولولا الهزة المناسبة التي تلقتها الأمة من ثورة جمال الدين ما شهدنا صحوة كبيرة ولا صغيرة، والحقيقة أننا إلى الآن نعاني من بقايا فكر ما قبل حركة الإصلاح ومن هؤلاء القوم يجيء الطعن في أقدار المصلحين، وبالجملة فإن حركة الإصلاح قد ارتكزت في مشروع التغيير على العناصر الآتية:

---

[1] المصدر نفسه ، ص67.

[2] المصدر السابق، ص ً85.

[3] المصدر نفسه ،ص 85-86.

[4] نفسه ، ص 76.

. الولاء للكتاب العزيز وفهم السنة في ضوئه ولا قداسة لغيرهما من الأقوال فكل ما عداهما يؤخذ منه ويرد, ويجب عدم الخلط بين الدين وبين التجربة التاريخية للمسلمين.

. التقاليد التي جثمت على جسم الأمة في عصور التخلف سواء تعلقت بالسياسة أو الأعراف الاجتماعية أو الخرافة الشعبية أو أحكام الأسرة والمرأة أو غيرها مما لبس ثوب الدين وهو ليس منه يجب أن يطرح ويزول فلا عبرة بعرف الشرق ولا بعرف الغرب، الحكم للدين ونصوصه الثابتة وحده.

. عدم التنكر للفطرة الإنسانية وللحكمة العامة التي قد تجيء من خارج الوسط الإسلامي، والاعتراف بتخلف الأمة في ميادين العلوم الكونية سبب إضافي للاستفادة منها حيث ما وجدت فالحكمة ضالة المؤمن.

واقع الأمر أن هذه الدعائم الثلاثة هي نفسها ما يرتكز عليه فكر الشيخ الغزالي . رحمه الله . في مراجعة التراث عموما وتراث المفسرين على وجه الخصوص.

المطلب الثاني

الشيخ الغزالي ومراجعة التراث

مراجعة الشيخ للتراث لا تنطلق من فراغ وليست أمرا عشوائيا فهي تسير وفق خطة محكمة مبنية على ثلاثة مراحل:

أولا: وصف الواقع وما فيه من أمراض وعلل.

ثانيا: عرض هذه العلل على الدين الثابت والعقل الناضج والفطرة النقية.

ثالثا: تقديم العلاج الناجع والرؤية الصحيحة بعد كشف الزيف وحث أمة الإسلام على الأخذ بها.

على هذه المنهجية سار الشيخ الغزالي في مراجعة ميادين كثيرة في الثقافة الإسلامية نذكر بعضها في هذا السياق العام قبل الخلوص إلى مراجعته لمسلك المفسرين وعلماء القرآن.

ومنطق الشيخ الغزالي المستفاد من مجموع ما كتب أن واقع المسلمين المخزي هو وليد ثقافة مغشوشة بعيدة عن هدي الكتاب والسنة تلبس ثوبهما، فتفسد على الناس دينهم،

وقد نتج عن ذلك واقع رديء وتدين سقيم، ومن أجل تغيير هذا الواقع لا بد من كشف زيف الثقافة التي أنتجته وفضح التقاليد والأعراف المنكرة التي تقف خلفه، لابد للإصلاح أن ينظر إلى النبع لا إلى المصب وإلى قول الشارع لا إلى قول الشارح، وهذا ما جعل الغزالي يقارن بين دلالات الوحي وفهوم الناس ليظهر له مدى القرب أو البعد بين هداية القرآن وواقع الأمة في فهمها للدين وممارستها له، لاسيما في سنوات الاضمحلال والتخلف.

من هنا نفهم سر احتفاء الشيخ بالتفسير الموضوعي للقرآن الكريم، إنه يرى فيه التفسير الذي يعيد اللحمة بين النص والبناء الحضاري للأمة المسلمة ببيان الهدايات وفضح الضلالات، وهو الجدير بإعادة بناء الثقافة الإسلامية ونكاد نجد في كل قضية فكرية أو عملية خاض فيها الشيخ العناصر الثلاثة السابقة، فبدت مراجعته شاملة تقريبا لكل ميادين الثقافة الإسلامية من عقيدة وتصوف، وفقه وأخلاق، وعلوم إنسانية وكونية، كما شملت المرأة والرجل، والحاكم والمحكوم، والغني والفقير، والعربي والأعجمي، والجبهة الداخلية للإسلام وجبهة الاستعمار الخارجي، والمعارف الدينية والمعارف الإنسانية العامة.. فالشيخ . رحمه الله . جال وصال وأضاء وأنار في ميادين عديدة ليس هنا محل تفصيلها غير أني في إطار هذا السياق العام أذكر بعضها بإيجاز على نحو يبين هذا السياق كالآتي:

1. ثقافة مغشوشة

يقصد الشيخ الغزالي بالثقافة المغشوشة ما ساد البيئة الإسلامية في قرون الانحطاط من معارف بعيدة عن هداية القرآن وعن فهم السنة فهما صحيحا، بيئة تملؤها شائعات لا أساس لها في دنيا المعارف الثابتة.. يفصل الشيخ حقيقة هذه الثقافة ويبين مظاهرها وما أنتجته من تدين معلول، في جملة من كتبه، ويظهر أن هذه الثقافة اكتسحت ميادين شتى من علوم الدين والدنيا فانجبت عجزا في الحياة وتدينا لا روح فيه، يعكس ما في نفوس أصحابه من ضغائن ورذائل ينكرها الدين الصحيح، ولنفصل في بعض مجالات هذه الثقافة التي أحدها مجال التفسير:

. **في مجال العلوم الكونية**: الإسلام دين يفتح الأبصار والعقول على فجاج الأرض وآفاق السماء ويدعو للنظر والتبصر ومعرفة الله من خلال دراسة أسرار خلقه وآيات القرآن التي تدل على النظر في آيات الله في الآفاق والأنفس كثيرة تخاطب أولي الألباب.. فما هي حصيلة المسلمين من هذه المعارف؟.. إنها ابتعدت عن هداية القرآن في هذا المجال تاركة الساحة لغيرها يقول الشيخ: "**إن الدراسات الكونية والطبيعية نقلت العالم من عهد البارود إلى عصر الفضاء والمسلمون صرعى ثقافات مسمومة وسياسات قوامها الجبروت لا تهب حق الحياة والكلام، إلا لمن يحرق بين يديها البخور، لقد كنا في العلوم المنقولة والمعقولة أصفار وكان تاريخنا الطويل صحراء لا معالم لها، ولو كنا على مستوى الإسلام لكان لنا باع طويل في كل فن، ولزاحمنا بالمناكب في كل الكشوف المادية والأدبية والعلمية التي هديت إلى الفطرة، الغريب أن ناسا من جلدتنا لا يزالون باسم الدين يريدون استيفاء قيود التخلف،**"[1] ولا شك عند الشيخ أن هذا التخلف "**جريمة دينية لا تقل نكرا عن جرائم الربا والزنا والفرار من الزحف وأكل مال اليتيم وغير ذلك من الكبائر التي ألفنا الترهيب منها..**"[2] وسنحاسب نحن المسلمين على تقصيرنا في علوم الكون حسابا عسيرا عند الله.

الكون والقرآن لا ينفصلان في منطق الإسلام، فالقرآن هداية الله للحياة كلها،[3] وهو كون ناطق كما أن الكون قرآن صامت، والإسلام "**لا يستعيد أمجاده الأولى إلا إذ استعادت أمته فقهها في علوم الأرض كما تستعيد فقهها في علوم السماء وإلا إذا جودت شؤون العمران كما تجود التفسير والحديث، إن هذه المعارف الضرورية لبناء الأمم وإقامة الحضارات فرائض مؤكدة أسبق في حياة المسلم من نوافل الأذكار فإن الله لا يقبل نافلة حتى تؤدى الفريضة**"[4] هناك تلازم بين نصرة الدين والتفوق في الدنيا لا

---

[1] علل وأدوية ،ص60.
[2] المصدر السابق ، ص20.
[3] نظرات في القرآن ،محمد الغزالي ، ص10.
[4] معركة المصحف في العالم الإسلامي ، محمد الغزالي ، ص136.

ينفك رباطه أبدا "**الأمر الذي لا نسأم من تكراره هو أن الجهاد المكتوب على المؤمنين لحماية الدين لا يمكن أن يتم ولا أن ينجح بعيدا عن التفوق المدني والحضاري**"[1]

إن تخلف المسلمين في هذا الميدان جعلهم عالة على غيرهم "**فهل بهذا التخلف يسدون إلى دينهم خدمة؟ أو إلى أنفسهم جميلا؟ أم أنهم بهذا التخلف يهزمون مبادئهم ومثلهم العليا في أول معركة مع عدوهم؟ تصور أنهم متخلفون في ميدان الطباعة أتراهم يستطيعون السيطرة على وسائل النشر وإبراز الحقائق وإغراء ألوف القراء بمطالعتها والإقبال عليها؟**"[2]

حديث الشيخ الغزالي عن تقصير المسلمين في كشف أسرار الكون واستكناه خصائصه ذو شجون تروي قصة المأساة التي تؤلفها سلسلة من الهزائم تعرضت لها أمتنا الإسلامية خلال تاريخها الطويل بفعل الضعف الداخلي الذي سببه في الأساس البعد عن هداية القرآن، وأحد مظاهره الجهل بأسرار الأرض التي نحط عليها أرجلنا، والسماء التي نبصرها بأعيننا، ولا يكاد قارئ لكتب الشيخ أن يخطئ موضعا يوجه فيه الغزالي لوما حينا وتنبيها حينا آخر وتقريعا تارة وتخطيئا وتصويبا تارة أخرى وهكذا..

. في مجال التاريخ ومواطن العبر: اهتمام القرآن بمواطن العبرة والدرس في التاريخ لا يخطئه متدبر أو متبصر، وآيات القرآن في القصص أكثر عددا من آيات الأحكام، يلفت الشيخ الغزالي الانتباه إلى الهداية القرآنية في مجال دراسة التاريخ، وكيف أن اهتمامات أخرى سيطرت على العقل المسلم فجار على الهداية القرآنية في هذا المجال، يقول معلقا على الآية: **(فاعتبروا يا أولي الأبصار)**[3] "**مع أن الإنسان يلمح أن الآية التي استدل بها الفقهاء على حجية القياس جاءت بعد وصف الحال التي كان عليها بنو النضير وكيف أخذهم الله بسبب واقع اجتماعي معين، وأن كل من يصيبه هذا الواقع سينتهي إلى النهاية نفسها، وهي أقرب للفقه الاجتماعي منها إلى الفقه التشريعي، ونلمح بأن هذا لون من الفقه للسنة الاجتماعية، عمليّا صرف إلى الفقه التشريعي**

---

[1] سر تخلف العرب والمسلمين, محمد الغزالي, ص 113.
[2] أنظر : الجانب العاطفي من الإسلام ، محمد الغزالي ، ص73-74.
[3] الحشر 2

وبقيت القضية الاجتماعية أو الفقه الاجتماعي أو السنن المتعلقة بقيام الأمم وسقوط الأمم.. بقيت قضايا ضامرة."[1] فعلم التاريخ أو علم العمران هو خزانة السنن التي لا تحابي أحدا وقد تصيب المسلمين الهزائمُ نتيجة جهلهم بالسنن لا نتيجة قلة الإخلاص أو التقصير في التضحية، ومع ذلك فهم متخلفون ذاهلون عن هذا العلم، وفي هذا المعنى يقول الشيخ: "**إني أؤكد على هذه المعاني لأني وجدت معارك كثيرة حدثت بين المؤمنين وبين الكافرين.. كان المؤمنون أصحاب قلوب تنبض باليقين وأصحاب نفوس متوجهة إلى ربها عن إخلاص، ولكنها ما أحسنت الخطة، ولا درست الميدان، ولا قدّرت العواقب، فكان ما أصابنا من هزائم."**[2]

يكشف الشيخ الغزالي أن الخلل في ثقافتنا المغشوشة في هذا المجال هو عدم اكتراثنا لدراسة التاريخ واستخلاص العبرة ويؤكد أن لا سبيل إلى استعادة الأمة عافيتها إلا بالعودة لما أرشد إليه القرآن من دراسة التاريخ واستخلاص الدروس يقول: "**عندما نعلم أسباب المد والجزر في تاريخنا فإننا نعود صعدا من حيث جئنا ولا حرج علينا."**[3]

التاريخ الذي يقصد الشيخ أن تدرسه الأمة الإسلامية ليس الحكايات الشعبية المليئة بالتفاصيل المملة، إنه ينبه إلى منطق القرآن في طلب تأمل مواضع العبر والسنن في الرواية الصادقة للأحداث.

وكما "**تدرس كليات الطب جثث الموتى لتعرف أسباب الوفاة وينتفع بها في علاج الأحياء كذلك لابد أن ندرس الأمم المنهزمة ونعرف ما فيها من علل فإن عرفنا جراثيم الداء أمكن الخلاص منه والبعد عنه، أما الأمم التي تتعاظم أمراضها ولا تريد أن تبحثها ولا أن تبتعد عنها فتبقى بعلتها إلى أن تموت بها."**[4]

---

[1] مشكلات في طريق الحياة الإسلامية ، محمد الغزالي ، نهضة مصر, الجيزة, ط4,2005م, ص125-126.
[2] المصدر نفسه ،ص122.
[3] خطب الشيخ محمد الغزالي في شؤون الدين والحياة،محمد الغزالي, إعداد عبد الحميد قطب, مراجعة محمد عاشور, دار الاعتصام,القاهرة, ج5،ص125.وانظر أيضا: الحق المر، محمد الغزالي,نهضة مصر, الجيزة,ط4,2005م ،ج3 ، ص104.
[4] خطب الشيخ محمد الغزالي ، ج5،ص159.

لو أن عرب الأندلس فكروا في أعقاب كل هزيمة ما الذي جر عليهم البلاء؟ لنجت بقيتهم من المحق الذي لفهم في أكفان العدم وهو يلح على المسلمين اليوم أن يعوا حقائق الأحداث الضخمة التي تهز كيانهم،[1] ويتساءل الشيخ في حسرة وبمرارة "**هل وعى المسلمون التاريخ وبحثوا في أسباب النكبة؟ كم كتابا ألفوه في أسباب التخلف الحضاري؟ وكم كتابا ألف لتشريح القصور العلمي والانهيار اللغوي وطبيعة التركيب الجنسي والخلافات العرقية وتطور العلاقات الدولية وتطور النهضات مع عكوفنا على الصور والأشكال الجوفاء.**"[2]

إن البون شاسع بين ثقافة رديئة متردية لا تستفيد من الدروس العظيمة وتدع للأخطاء مجالا للتراكم وتخلد إلى العجز والراحة، وتفر من الزحف في مجال تغيير الأوضاع والقيام من العثرات، وبين كتاب ربها الذي يقول لها: **(أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم)**[3]

السبب الأول في الانهيار الحضاري الذي أصاب الأمة الإسلامية في نظر الشيخ الغزالي هو الفساد الثقافي والأمية الثقافية التي تردت بالأمة بعد أن جاءها كتاب ونبي يعلمانها الكتاب والحكمة ويزكيانها. هذه الأمة افتقدت إلى الحكمة فلفّها ظلام الرذيلة فلم تحسن وزن صوابها وخطئها، وهذا القصور المعيب حاشا أن يرجع إلى تقصير الوحي الأعلى إنه راجع إلى التقصير في الأخذ بوصاياه في مجال العبرة والسنة والتاريخ كما في مجالات أخرى..

. في مجال الفقه الإسلامي: الفقه هو الفهم الدقيق أو الفهم العلمي أو المعرفة الصادقة أو المنظمة في كافة ميادين الحياة، بهذه المعاني جاء الهدي القرآني فتحدث عن قوم يفقهون.. وعند تدوين العلوم صار هذا المصطلح علما على جانب التشريع الذي يضبط علم الحلال والحرام، لكن حتى هذا العلم كما . يرى الشيخ . اجتاحته أمراض الثقافة المغشوشة، ففي مناخ سياسي متعفن ساده الاستبداد حدث تضخم في فروع لو جهلها

---

[1] علل وأدوية ، ص142.
[2] نفسه، ص217.
[3] آل عمران 165.

المسلمون ما كان عليهم من حرج، وانزوى الفقه في مسائل لها خطورتها، وكان ذلك نتيجة مباشرة للخصام الذي وقع بين العلم والحكم[1]، فمن نتائج فساد الحكم تأخر الفقه الإسلامي في مجال السياسة الشرعية وفي مجال الإدارة والفقه الدستوري وفي مجال الاقتصاد وسياسة المال أيضا، لأن الحاكم المستبد يتصرف بنزواته في مال الأمة ويسير شؤونها من غير حاجة إلى أولي الألباب وإذا كانت الشورى بنص القرآن فريضة لازمة، فهناك من يفتي الحاكم بأنها معلمة، وله . بعد أن يعرف الحق . أن يأخذ بالباطل كما يشاء[2]

هكذا تضخم الفقه في ميادين أكثر من اللازم وانحصر في مسائل ذات شأن، فاختل التوازن في حياة المسلمين كلها نتيجة الاختلال في سلم الأولويات حتى انفصل النص عن المقصد، وشكل العبادة عن روحها، يصور الغزالي ذلك فيقول: "**سرت الفوضى بين شعب الإيمان فتحولت أركان إلى نوافل ونوافل إلى أركان، وامتدت خيمة الغيبيات لتشمل أمورا عقلية لها منطقها الحر، وتبعت أحكام الحلال والحرام تقاليد بعض الأجناس التي اعتنقت الإسلام، والمعروف أن الحكم الشرعي هو خطاب الله المتعلق بأفعال المكلفين فلا حكم حيث لا خطاب.**"[3]

من مظاهر الغش في مجال الفقه أيضا امتداد الفروع على حساب التربية والوعي الكلي والاهتمام بالمعاني والمقاصد، ولابد من التربية في تكوين نفوس راشدة.. من هنا يتساءل الشيخ: "**أين معاني رقابة الله في الضمير الإسلامي، هذه الرقابة التي تنشأ الخوف والرجاء والصبر والشكر التوكل والمحبة والورع والتوبة ومعرفة المعاصي الكبيرة التي هي أخطر من معاصي الأبدان.. وأين ما يغسل النفوس من حب الظهور والأنانية والحقد وطلب الرياسة والعراك على المآرب الخسيسة.. هذه المعاني معدومة الآن ونجد من يعلم حركات الصلاة ومن ركوع وسجود ولا يحسن تعليم الخشوع وتقديس الله، وسجود القلب مع سجود الجوارح.. وهذا خطأ هائل.**"[4]

---

[1] مشكلات في طريق الحياة الإسلامية ،ص126.

[2] المصدر السابق، ص124-130.باختصار

[3] مئة سؤال عن الإسلام، محمد الغزالي، نهضة مصر, الجيزة, ط5 , 2006م ص11.

[4]مشكلات في طريق الحياة الإسلامية ، ص127.

إن هذا الانفصال بين شكل العبادة وروحها، بين الفقه والتصوف، بين العبادة والتربية، بين الحقيقة والشريعة، نشأ عن جو ثقافي موبوء بعيد عن هداية القرآن فأوجد بدوره "**فقهاء لهم فكر ثاقب وليس لهم قلوب العابدين، ومتصوفين لهم مشاعر ملتاعة وليس لهم عقول الفقهاء، وهو كذلك السر وراء وجود محدثين يحفظون النصوص ولا يجيدون الاستنباط منها، وأصحاب رأي يلمحون المصلحة ولا يحسنون مساندتها بالنص المحفوظ.**"[1]

. **في مجال التربية:** الهدي القرآني يدعم الفطرة الإنسانية السليمة ويحبب إلى الناس الخير ويزينه في قلوبهم ويحذرهم من عواقب الكيد للناس أو المكر بهم يقوم الدين الصحيح على أساس من الصدق في المعاملة، والصدق في الحديث، لكن التربية الفاسدة تغلغلت إلى صفوف أمتنا فشوهت الفطر وكان لها الأثر العميق في تبلد إحساس كثير من المتدينين وهذا نتيجة لتعطل الجهاز التربوي عن القيام بدوره رغم كثرة ما ساد العالم الإسلامي من طرق صوفية.. بدل أن تنشر الفضيلة وتشجع العمل الصالح راح أكثرها ينشر الخرافة ويبلد الإحساس.

وأظهر مظاهر الثقافة المغشوشة في ميدان التربية هو الانفصال الحاصل بين المعرفة والفضيلة وفي هذا يقول الشيخ الغزالي: "**ملاحظة الماضي والحاضر تلقي في أنفسنا أن جماهير غفيرة تحرم بركات الدين لسببين: إما زيغ في القلب أو أفن في الرأي. وقد يلتقي السببان في بعض الأفراد أو في بعض الطوائف.. والذي يتدبر القرآن الكريم، يشعر بأنه أكثر من الحديث عن أهل الكتاب السابقين كي يتجنب أصحاب الرسالة الخاتمة قسوة القلب وضعف الفكر، ويربطهم بالفكرة السليمة والعقل الواعي.**[2]

ويقول أيضا: "**أخطأ أرسطو حين قال الفضيلة المعرفة. ما قيمة المعرفة عند من تقودهم شهواتهم؟.. (أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه**

---

[1] حصاد الغرور، محمد الغزالي، دار الشروق, القاهرة, ط3 , 1427هـ-2003م, ص33.

[2] تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل ، ص45.

وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون)[1]، لابد للمعرفة الواسعة من ضميمة أخرى هي النية الشريفة وإخلاص القلب لله."[2]

. في مجال علم الكلام: يرى الشيخ الغزالي أن العقيدة الإسلامية هي حسن المعرفة بالله، وحسن الثناء عليه، مما يدفع إلى الاستقامة على صراطه القويم ويقوم الإيمان على أساس ملاحظة آيات الله وعجائب صنعه، لكن الثقافة المغشوشة حوّلت الإيمان بالله إلى "**إيمان ضرير لا يبصر الحياة ولا تسحره عجائبها ولا تستهويه أسرارها.. الإيمان الحق ينمو ويقوى بالتأمل في الكون ومطالعة آياته والتعرف على خفاياه.. وهناك إيمان جبان قاعد قد يفر إلى صومعة أو يحي داخل قوقعة، لا يجرؤ على الضرب في الأرض.. هذا الإيمان تستطيع أن تنسبه إلى أي مصدر إلا كتاب الله الذي قذف بالمسلمين في كل فج ومن ورائهم هذا النداء"[3](يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة فإياي فاعبدون)[4].**

والمعارك السياسية والجدل الذي دار في تاريخ الإسلام حول الصفات بدد مقاصد الاعتقاد وأدخل المسلمين في جدال ليس له أول ولا آخر، ولا نفع يرجى منه.. والظروف التي نشأ فيها علم الكلام كان لها "**أثر سيء في سرد حقائقه وصوغ دقائقه**"[5] يقول الشيخ رحمه الله: "**الولوع بالخلاف سرى حتى ضم إلى العقائد أمورا مضحكة، فهناك خلاف بين المعتزلة وأهل السنة على حقيقة السحر، وعلى تكون السحب فأي خلط هذا؟.. وبين المسلمين اليوم نزاع يفصم وحدتهم حول ما دار بين علي وغيره من الصحابة في مسائل الخلافة، فهل على وجه الأرض أمة تجتر ماضيها السحيق لتلوك منه خلافات قاسية كهذه الأمة؟ ولماذا نقحم هذه الأمور في شؤون العقيدة ولا تبقى في نطاق**

---

[1] الجاثية 23.
[2] المصدر السابق، ص45.
[3] ركائز الإيمان بين العقل والقلب ، محمد الغزالي ، دار الشروق, القاهرة , ط3 , 2006م ,ص8.
[4] العنكبوت 56.
[5] عقيدة المسلم ، محمد الغزالي ، ص8.

الذكريات التاريخية التي تدرس كأي تاريخ؟ ما صلة العقيدة بقولنا هذا أصاب وهذا أخطأ"[1](تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون).[2]

وفي تأثير الثقافة المغشوشة في ميدان العقيدة على عقول شباب الإسلام يقول الشيخ: "**إن الشباب الذين نستعيدهم إلى حظيرة التدين لا يعترضهم أحد عندما يقرؤون الكتب الدينية القديمة في العقيدة والتصوف والفقه، إلا أننا نلقاهم بعد قليل وقد علقت بأذهانهم أفكار سقيمة عن القدر والتوكل وآيات الصفات وجدل المتكلمين الأوائل، ومزالق المتصوفين المنحرفين وصور الفقه المذهبي وغير ذلك مما يضر ولا ينفع.. وما تزال عقول بعض المتدينين في عصرنا هذا مشحونة أو متأثرة بقضايا أثارها طول الفراغ أو الترف العقلي أيام العباسيين والمماليك".[3]**

وهكذا تبتعد هذه الثقافة بالمسلمين عن مقاصد الاعتقاد إلى خلافات لا تهدأ حول مسائل لا تثمر.. قسمت الأمة إلى سلف وخلف والحق أن " **كلا الفريقين ابتعد عن سلف الأمة منطقا ومسلكا، ولو أن أمتنا شغلت نفسها بهذا اللون من المعرفة أول تاريخها لبقي الإسلام محصورا داخل جزيرة العرب".[4]**

. في مجال نشأة العلوم: أحيانا أتأمل في ما ندرس أو ندرّس من علوم ومعارف فأجد أن أكثره قد ورثناه مع تركة ثقافية ضخمة عبر قرون متطاولة وأتساءل: كيف نظّم أسلافنا هذه المعارف وصنّفوها وعلى أي أساس؟ علومٌ للقرآن وأخرى للسنة علوم للوسائل وأخرى للمقاصد.. علم كلام أو فقه أو أخلاق أو أحكام..الخ، هل وقع هذا التدوين والتصنيف بمحض المصادفة؟ أم بأمر من الوحي؟ أم كان اجتهادا ضمن ظروف هيمن عليها جو ثقافي وسياسي بعينه؟.

---

[1] المصدر نفسه، ص9.
[2] البقرة 134.
[3] ركائز الإيمان بين العقل والقلب، محمد الغزالي ،ص9.
[4] تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل،ص56.

لاشك عندي أن أسلافنا عاشوا واقعهم ولم يكونوا حالمين اجتهدوا وهم يعيشون على الأرض لا هائمين في السماء، فهل هذه التصنيفات قدر مقدور إلى يوم الدين؟ وهل ما احتوت عليه هذه العلوم كله يجب أن يدرس ويدرّس ؟

وكنت أفكّر فأجد أن بعض المعارف أصبحت غير ذات جدوى لا في الدين ولا في الدنيا، فما معنى تمسكنا بها؟ ووجدت معارف كثيرة نحن في أمس الحاجة إليها نحتاجها في ديننا ونحتاجها في دنيانا فأين موقعنا منها؟ وكنت أشعر أن هذا الألم وهذه الحيرة يشاركني فيها إخوان كثر من الباحثين المسلمين.. ولم يثلج صدري مثل مراجعة الشيخ الغزالي . رحمه الله وطيب ثراه . لمسار ثقافتنا الإسلامية، وجدت عنده كلاما غاية في الصدق والعمق والشجاعة، ويجب أن أدلل على ما أقول، يقول رحمه الله: "**لست مستريحا لحاضر الثقافة الإسلامية ولا مطمئنا على مستقبلها فهي.. لا تعطي سورة دقيقة ولا كاملة للإسلام كما جاء في الكتاب الكريم والسنة الصحيحة وكما سار به الأسلاف العظام في أرجاء الأرض.. هذه الثقافة ما تزال تحمل في أطوائها صورة مجتمعات إسلامية معتلة وقضايا فكرية وعاطفية جديرة بأن توضع في المتاحف لا أن تدفع إلى دنيا الناس** "[1] يرى الشيخ أن وجود المصادر المعصومة كتابا وسنة لا يغير وحده من وضع الثقافة من الغش إلى الاستقامة كما لم يغير بترول العرب من مكانتهم الحضارية "**المهم ليس وجود الكنوز المادية والأدبية وإنما المهم وجود البشر الذين يفيدون.. فقد وُجدت محطات تذيع القرآن الكريم [وانضافت إليها في أيامنا فضائيات تقرأ على الناس كتب السنة] لكن الثقافة التي تشرح الإسلام لهذه الأمة وتربطها به لا تضيء فكرا غامضا، ولا تهدي قلبا حائرا، ولا تثبت قدما وجلة**".[2]

قدم الشيخ أمثلة عن علوم تخلف فيها المسلمون وإلى الآن لا يهتمون بها، فهم إما يؤخرونها وإما يدرسونها بشكل بعيد عن أن تثمر معه، ويمكن أن أضيف هنا ذكره . رحمه الله . عن تخلف المسلمين في الفكر السياسي، وفي الاقتصاد والنفس والاجتماع فضلا عن علوم الكون بفروعها.. وحتى في ميدان الفقه يقول رحمه الله: "**الفقه الإسلامي يمثل على**

[1] ركائز الإيمان بين العقل والقلب محمد الغزالي ،ص5.
[2] المصدر نفسه، ص5- 6.

الأقل خمسين بالمائة من المكتبة الإسلامية مع هذا فإننا مصابون بضمور على سبيل المثال هناك خمس وعشرون كبيرة من الكبائر لم توضع لها عقوبات.. نحن لم نضع عقوبات للتعامل بالربا والغصب والفرار من الزحف وأكل مال اليتيم والغش.. الخ، فهل الحدود التي وضعها لله تغني عن تشريعات لابد منها في الميدان الاجتماعي؟ وهل تترك التعازير هكذا دون ضوابط.. وقوانين العمل والعمّال لا تزال صفرا عندنا نستوردها من الخارج.. هذا لا يجوز".[1] لأجل هذا الواقع الثقافي المتردي يؤكد الشيخ على أن ثقافتنا الإسلامية القديمة تحتاج إلى تمحيص يمحو منها ويثبت، على ضوء الكتاب المعصوم والسنة الثابتة.. ويهيب في أيام الأمة العصيبة هذه بأولي الألباب أن يهتموا بدور الثقافة في إبراء الأكمه والأبرص[2].. ويقدم لذلك نموذجا متميزا في جملة من كتبه ومنها على سبيل المثال: في علل وأدوية، تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل، الجانب العاطفي من الإسلام، وركائز الإيمان بين العقل والقلب الذي يقول فيه: "**قمت بوضع هذا الكتاب للناس مستهدفا أمرين:1. إثارة العقل والضمير بأشعة الوحي ومعالم النبوة متحريا جهدي ومتلقفا الحكمة حيث وجدت وماحيا الشبهة في صمت ما استطعت.2. تبديد الغيوم التي تراكمت خلال قرون الضعف في تاريخنا وتوقيف القرّاء على خبئها حتى لا يضطربوا إذا عرضت لهم يوما.**"[3]

2 تدين مغشوش

نتيجة الثقافة المغشوشة تدين المعلول، ولمعرفة خطر ما نتلقاه من أفكار فيصوغ انفعالاتنا . وهو أخطر إذا كان في مجال الدين وباسمه . نعرض بعض مظاهر هذا التدين.

إن التدين أساسا هو سمة عظيمة، ترتقي بالنفس وترتفع بالخلق وتدفع إلى الحب والتضحية وتقوم على الصدق وتقوي وشائج الفطرة السليمة، والإسلام بالتحديد هو دين الفطرة يقوي في الإنسان نوازع الخير ويدفع عنه شرور نفسه وشرور غيره، من شهوات وعبادة للذات وإغراء المال والسلطان ووساوس الشيطان، وهذه الآفات كلها متفقة على

[1] مشكلات في طريق الحياة الإسلامية ،ص125.
[2] ركائز الإيمان ،ص8-9
[3] المصدر نفسه، ص9.

تشويه فطرة الإنسان، من هنا جاء الإسلام يوطن النفوس على معان التقى والرشاد ويسوقها إلى الله رغبة ورهبة، فالتدين يزين النفوس الكبيرة ويبرئ النفوس الكليلة إنه "**إيمان بالله العظيم وشعور بالخلافة في الأرض وتطلع إلى السيادة التي اقتضتها الخلافة التي تعني السيادة على عناصر الكون وقواه.. والظن بأن يقظة القلب ما تتم إلا مع خمول الفكر وازدراء الدنيا خطا فاحش.. والظن بأن سيادة العقل ما تتم إلا بالتضحية بالإيمان وإيحائه خطيئة كبيرة**".[1]

فإذا تغلغلت الثقافة المغشوشة في أوساط المتدينين "**ترى كثيرا منهم يسيئون إلى دينهم وإلى أنفسهم، بخسوا العقل قيمته، وافتعلوا العراقيل أمام حركته، وإذا كانوا اليوم يبكون لمتاعب العالم الروحية فليس الاستماع إليهم تسليما بوجهة نظرهم في الحياة**"[2]

تحت عنوان لحساب من يتكلمون يقدم الشيخ نماذج لهذا التدين المغشوش عند المسلمين فيقول: "**بعض المسلمين يجهل الواقع ويرتكب حماقات تسيء إلى دينه بل تنفر منه وتصد عنه، وما دام هو مطمئن إلى صدق عقائده وسلامة تعاليمه فعلى الناس أن يؤمنوا أو يذهبوا إلى حيث ألقت، و هذا جهل وطيش.. ثم يتساءل لحساب من يتحدث بعض الناس عن الإسلام ويصورونه بعيدا عن مقررات الفطرة وأشواق الإنسانية؟ ولحساب من يعلو صوتهم في قضايا هامشية ويخفت خفوتا منكرا في قضايا أساسية؟ ولحساب من يرى بعضهم الرأي أو يحترم التقاليد ثم يزعم أن الإسلام الواسع هو رأيه الضيق؟**[3]

التدين المغشوش . كما تحدث عنه الغزالي . هو التدين مع العوج الفكري والسقم النفسي، وهو نوع من الخبال تتجاور فيه المتناقضات وقد تضيع فيه الحقيقة ويبقى الشكل الذي لا وزن له، وهو يشمل الأفراد كما يشمل الجماعات[4] إنه تدين الرسوم والأشكال الذي يخلو من الفضيلة كما يخلو من تقدير العواقب وفي هذا المعنى يقول الغزالي: " **يوم يفقد**

---

[1] ركائز الإيمان، ص21-23.
[2] المصدر نفسه، ص21
[3] قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة، محمد الغزالي،دار الهناء, الجزائر, ط1 , 1422هـ -2001 ص28-29.
[4] أنظر: علل وأدوية، ص222.

التدين طيبة القلب ودماثة الأخلاق ومحبة الخلائق يكون لعنة على العباد والبلاد، والغريب أن التطرف لا يكون في مزيد من الخدمات الاجتماعية ولا مزيد من مظاهر الإيثار والفضل، إنه يقع في الحرص البالغ على الأمور الخلافية بالتنطع في وضع اليدين أو طريقة وضع الرجلين خلال الصلاة".[1]

ويصف من تلبست نفوسهم بمثل هذا التدين الفاسد وصف خبير فيقول: "**تمت نفوسهم في الأهواء كما تنموا الأشواك في حقل لا صاحب له ثم بجهد قليل من الهمهمة والشعوذة يفرضون أنفسهم على الدين ويزعمون أنهم ينفعون العالمين، إن الدين إذا لم يسر في النفوس كما تسر الكهرباء في الأسلاك فتضاء بسريانها مصابيح وتتحرك آلات يصبح وهما وزعما لا تغني معه العناوين والشارات"[2]** التدين الفاسد إذا هو تدين لا حقيقة له، تحضر فيه الرسوم وتغيب المقاصد والفهوم، لأن الأهواء والتقاليد والنزعات الفردية بدل أن يقيم الدين اعوجاجها تلبس هي ثوبه وتتكلم على لسانه وهو منها براء، لذا كان ما يصدر عن هذا التدين وما يحمل عليه أتباعه كله يخالف هدي القرآن والفهم الصحيح لسنة النبي صلى الله عليه وسلم. فمن الذي أوحى للمسلم أن يعيش هين الشأن والمنزلة صفر اليدين في الدنيا لينعم بنعيم الآخرة, هذا تزوير على الدين وفهم غلط لنصوصه,[3] الإسلام يدعو المؤمن لأن يكون قويا في الروح والبدن لكن أصحاب التدين المعلول "**يجعلون النحافة والشحوب أمارات التقوى ، وقد ظهر هذا الخلل عند الهنود ونقله النصارى إلى عناصر الرهبانية ثم نقله جهلة الصوفية إلى الإسلام"[4]** والإسلام يحب أن يكون ملبس المسلمين محترما جميلا تظهر فيه نعمة الله، لكن هؤلاء "**يحسبون فوضى الملبس واتساخه ضربا من العبادة وربما تعمدوا ارتداء المرقعات والتزين بالثياب المهملة ليظهروا زهدهم في الدنيا والآخرة وهذا من الجهل الفاضح بالدين والافتراء على**

---

[1] مشكلات في طريق الحياة الإسلامية، محمد الغزالي, ص90.

[2] الإسلام والطاقات المعطلة ، محمد الغزالي ،ص49.

[3] الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين ، محمد الغزالي،نهضة مصر، الجيزة ,ط7 ، 2006م ، ص57.

[4] فن الذكر والدعاء عند خاتم الأنبياء،محمد الغزالي، دار المعرفة، الجزائر، 2004م، ص79

تعاليمه"[1] وعن مثل هؤلاء المتزاهدين يقول في سياق آخر: أنهم يروجون لأفكار"**تزعم أن الإسلام يحب الفقر ويحرص على إفقار الجماهير.. هذا الكلام يعني في الحقيقة أن الإسلام يحب الظلم ويحرص على بقاء الترف وبقاء المترفين، وهذا كله ضرب من اللغو، لا يستحق إلا المحو**".[2]

من مظاهر التدين المغشوش أيضا قلب الأولويات رأسا على عقب فتجد أهل التدين المعلول يحاربون في معارك طاحنة من أجل قضايا تافهة، ويسكتون حيث يجب الكلام، وعلة هذه العقلية الضحلة تفكير ذري لا يدرك الرابط بين المسببات والأسباب ولا يدرك النسب بين الأشياء، إنها بتعبير الشيخ الغزالي عقلية "**لا تتماسك فيها صور الأشياء بنسب مضبوطة ولذلك قد يهجمون شرقا وغربا على عدو موهوم ويتركون عدوا ظاهرا بل ربما حاربوا في غير عدو**"[3] هذه العقلية التي اختلت فيها الأولويات، تجعل . مثلا . ارتداء النقاب والجلباب قضايا مصير، وتشعل معارك طاحنة في بحوث لاهوت بائدة، أو أحكام فرعية أما دعم الأركان وتأمين التكافل الاجتماعي على مدى واسع وبناء أجيال محترمة تخدم الإيمان في ميدان التربية والارتقاء والحكم المضبوط فذاك ما لا يهم".[4]

ينشأ التدين المغشوش غالبا في غياب الوعي عن الواقع وعن مكونات عناصر الحياة، وهو نظر غير ناضج إلى "**علل المجتمع وقلة زاد من هدايات السماء نشأت منه مفارقات تستدعي العجب، فهذا واعظ يدخل إحدى القرى البائسة يحدّث أهلها المستوحشين عن آفات الرياء، وهذا آخر يخطب في المدن عن جرائم القتل والأخذ بالثأر.. وفي الذهن الفقير تتمدد المعلومات القليلة وتصبح كل شيء**"،[5] وفي وصف مظهر مماثل يقول رحمه الله: " **ترى بليد الفهم من هؤلاء يجيء إلى الأثر . وهو في نفسه حق . ولكنه فيما ضرب له وقصد من أجله بعيد.. وهذا ضرب من تحريف الكلم**

---

[1] خلق المسلم، محمد الغزالي، دار الدعوة، الإسكندرية، 1420هـ - 1999م ، ص107.
[2] الإسلام المفترى عليه ، مرجع سابق،ص62.
[3] خطب الشيخ محمد الغزالي،ج1،ص17.
[4] الغزو الثقافي ينطلق في فراغنا ،محمد الغزالي،ص51.
[5] مع الله دراسات في الدعوة والدعاة، محمد الغزالي ، دار القلم، دمشق، ط4, 1421هـ- 2000م ,ص191.

عن مواضعه."[1] ويضرب لذلك مثلا من الواقع المعيش في أحد الأقطار الإسلامية حيث رأى بعضهم يمشون حفاة إلى المسجد، فلما سئلوا عن ذلك "**قال قائلهم: إن النبي وأصحابه كانوا يمشون إلى المسجد منتعلين أحيانا حفاة أحيانا، فأحببنا أن نحيي سنتهم ونقتدي بهم**[2] ومثلهم من يحيون ما يسمونه سنة العصا والعمامة ذات الذنب.. وأين سنة النبي وهديه في محاربة الجهل والفقر والاستغلال والاستبداد والظلم وسائر الرذائل؟ وأين هؤلاء في أعمال الإغاثة وكشوف العلم وهداية الحيارى والسكارى؟ لا تسمع لهم في أي محفل ذي شأن ركزا، تقلص الهدي النبوي عندهم، بل تقلص الإسلام نفسه وضاق أفقه فانزوى في بعض الفروع وبفهم معكوس أحيانا، هذا هو التدين الفاسد الذي بني على الثقافة المغشوشة.

ومن المظاهر التي رصدها الشيخ في بحثه عن التدين الكاذب قسوة القلب وجفاء الطبع وكراهية الناس "**وربما وجدت ناسا ينتمون إلى الدين تظهر عليهم مراسمه وشاراته لكن أفئدتهم معتلة وأفكارهم مختلة.. والمرء لا يوصف بالتدين إذا كانت طبيعة قلبه وعقله قد أفسدتها الأهواء والانحرافات.. التدين الحقيقي أساسه الأول صحة هذه الأجهزة المعنوية وبراءتها من كل تشويه وافتعال**".[3]

يلاحظ الشيخ أن المحنة التي أودت بأمتنا تتلخص في هذين السببين: ثقافة فاسدة وتدين مريض، تركما على جسم الأمة فجعلاها في الحضيض وليس الاستعمار الخارجي الذي نجعله عادة مشجبا نعلق عليه قصورنا في كل مجال هو السبب الأصيل، في هذا المعنى يقول: "**إن الداهية لم تأت الأمة من انهزام حربي طارئ، بل من داء متغلغل سرت جراثيمه في دمها سريانا حثيثا فلو لم تسقط أمام خصومها الذين يناوشونها، لسقطت وحدها مغشيا عليها كما يسقط المنهوك أو المحموم**".[4]

---

[1] المصدر نفسه ، ص192.
[2] الحق المر، محمد الغزالي ،ج3،ص53.
[3] هذا ديننا، محمد الغزالي،ص12.
[4] في موكب الدعوة ، محمد الغزالي ،ص94.

والحق أن منطق التخلف واحد، ولباس الدين إذا لم يكن التزاما حقيقيا لا يرفع من مستواه، إنه كما صوره الأستاذ مالك بن نبي رحمه الله منطق الإنسان الغريزي الذي يلتف حول نفسه ويتحدث بلغة شهواته ويتكاسل في الواجبات وينشط عند الحقوق[1].. يتفق الشيخ الغزالي في هذا المعنى مع الأستاذ بن نبي يقول: "**هناك علوم في أروبا وأمريكا لا نكاد نسمع بها، ونصم آذاننا حتى لا نسمع بها كي لا ننفق المال في جلبها إلى بلادنا، وما أن يكاد يظهر شيء من الزينة والمنفعة وزخرف الدنيا وبدعها في الحلي والملبس والسيارات والأزياء في باريس أو نيويورك حتى نسمع به ونرغب فيه ونتهالك عليه.**[2]

لن تقوم للإسلام قائمة ما بقي هذا العوج الفكري والخلل النفسي والتمكين للغش والبعد عن حقيقة الهدي الرباني، وفي صورة من المقابلة بين حقائق القرآن وزيف ما نحن فيه من تدين مغلوط يقول الشيخ الغزالي: "**الدين كلفنا أن نملك الدنيا ونسخرها في خدمة مثله وأهدافه، وهؤلاء يقولون لا علاقة لنا بالدنيا، الدين يأمرنا بحدة النظر وعمق التفكير، وهؤلاء يتركون الفكر يزوي ويكتفون بتأويلات وأذكار لا ثقة فيها ولا تدين معها.. إن أعمال الإسلام كلها تصبح قليلة الجدوى مع سقم العقل والروح وعوج الفطرة**[3]" وفي مقابلة أخرى يقول رحمة الله عليه: "**شعرت بأن مستقبل الإسلام في مهب الرياح إذا بقي الفكر العفن يحتل آفاق الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية.. إن الإسلام سيحكم عليه بالطرد من كل ميدان إذا بقي مصوروه يبرزونه في تلك المعالم القبيحة التي لا يعرف غيرها الدهماء.. أقول مع أولي الألباب الحرية الدينية حق فيجيء مغموص جهول يقول(لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي)[4] آية منسوخة، أقول لدعاة السلام في العالم: نحن قبلكم ندعو إلى السلام ونكره إراقة الدماء.. فإذا غلام طائش يقول: كلا، إن نبينا قال "بعثت بالسيف بين يدي الساعة وجعل رزقي تحت ظل رمحي.. نقول: إذا تكونت هيئة الأمم على ما يشبه حلف الفضول انتسبنا إليها**

---

[1] أنظر في هذه المعاني المرحلة الثالثة من مراحل الدورة الحضارية عند الأستاذ المفكر مالك بن نبي ـ رحمه الله ـ على سبيل المثال أنظر: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، مالك بن نبي، دار الفكر، دمشق.

[2] خطب الشيخ محمد الغزالي،ج2،ص215.

[3] المحاور الخمسة للقرآن الكريم،ص91.

[4] البقرة256

لنضبط سيرها ونحدد وجهتها.. يقول:هذه دار حرب وحسب..الخ هذه عقليات أنزل رتبة من أن تؤتمن على مستقبل شركة مساهمة فكيف يتاح لها التحدث عن دين كبير ورسالة أورثت الإنسانية أرقى حضاراتها".[1]

خلاصة القول أن للشيخ الغزالي مشروعا إصلاحيا كاملا مبنيا على هداية القرآن وملاحظة واقع الحال، هو في الحقيقة إتمام لمشروع مدرسة المنار في إصلاح الدنيا بالدين، ومحاربة الغش والزيف في الفكر والسلوك، والعمل على توحيد الأمة وجمع طاقاتها على الحق، والعمل على انتشالها من مستنقع التخلف الذي ترزح فيه، اعتمادا على كتاب الله وسنة رسوله والاجتهاد المضيء، واستئناسا بعصر السلف المزدهر، ومواثيق الفطرة الصافية، ومقررات العقل الناضج، والانتفاع بكل صالح أين ما وجد وحيث ما كان.

في هذا السياق العام لمشروع مدرسة المنار ومشروع الشيخ الغزالي الناقد للثقافة الإسلامية تجيء مراجعته لعلوم القرآن ونقده لتراث المفسرين.

المبحث الثاني

تراث المفسرين وعلماء القرآن في ميزان الشيخ الغزالي

للشيخ جملة من الملاحظات المهمة وجملة من الاجتهادات التي تجدر دراستها والوقوف عندها ببصر وتأمل من أجل الاستفادة منها في الرقي بمنزلة التفسير وعلوم القرآن إلى درجة الضبط العلمي الدقيق والفائدة العملية المثمرة، وغربلته مما علق به . خاصة في قرون الانحطاط . من أباطيل وشائعات وأخطاء وخطايا، ويمكن تقسيم هذه الاجتهادات كما قام بها الشيخ إلى قسمين:أ. اجتهادات تتعلق بعلوم القرآن ومناهج المفسرين ب . اجتهادات في الفهم والتفسير نفسه.

المطلب الأول

علوم القرآن في ميزان الشيخ الغزالي

---

[1] تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل،ص52-53

سبق في سياق مختلف ذكر بعض ما ذهب إليه الشيخ الغزالي في حديثه عن تواتر القرآن وجمعه وخلوده وإعجازه، وشموله وعدم انتساخه، وهذه من جملة موضوعات علوم القرآن، بينا من خلالها فقه الشيخ الغزالي للقرآن الكريم، ويأتي الحديث عن تقييم الغزالي لبعض المسائل في علوم القرآن مكملا لذلك الجانب، في سياق آخر ينقد فيه الشيخ بعض المسائل.

وقد احتفى الشيخ بعلوم القرآن احتفاءه بكل ما يخدم كتاب الله، ولم يغمط التراث فضله في فهم كتاب الله، لكنه كذلك يريد من المسلمين ألا يخلطوا بين قرآن متواتر يقيني الثبوت، وبين اجتهادات العلماء مهما علا كعبهم، فيساوون بين الأمرين ويدافعون عن الخطأ دفاعهم عن الصواب، شعروا بذلك أم لا؟ وفي ظل هذه النظرة يعرض مناهج المفسرين فيلاحظ عليها جملة من الملاحظات كما يأتي:

1. تعميم المنهج الأصولي على كافة المعارف الإسلامية: وخطأ ذلك في رأيه صرْف التعامل مع كتاب الله "**لسبب أو لآخر إلى الحكم التشريعي مع أن للخطاب القرآني أبعادا أخرى متعددة [تستوعب الفقه الدستوري والإداري والمالي واكتشاف سنن التغيير والتعرف على شروط النهوض وتحديد علل التدين النفسية والاجتماعية وكل ما يمكن أن يدخل تحت مقاصد القرآن الهدائية وموضوعاته الكلية والجزئية] قد تكون مقدمة لابد من تحصيلها ليترتب . بعد ذلك . الحكم التشريعي، وقد يكون المنهج الذي تأصل وتكون من بين سائر المناهج هو منهج علماء الأصول، وتلاشت سائر المناهج أو توقفت بشكل مبكر.. فالمدارس الكبرى في التاريخ الثقافي للفكر الإسلامي تلاشى أكثرها**"[1] يلاحظ الشيخ الاختلال المنهجي الذي طغى فيه التعامل مع النص القرآني على أساس تشريعي وكأنه نص قانوني على الرغم من أن القانون نفسه إذا خلت ضمائر الناس من التربية ومن القيم الروحية يتحول إلى أشكال ورسوم خالية من المعاني، وطبيعة القرآن تأبى هذا المسلك بما هي مفعمة بالقيم الروحية، كما يلاحظ أنه حتى في الإطار القانوني جمد الفقه ثم تضخم في عبادات ومعاملات بسيطة ولم يتطور إلى فقه دستوري أو

---

[1] كيف نتعامل مع القرآن ، محمد الغزالي، مدارسة مع عمر عبيد حسنة , نهضة مصر، الجيزة، ط8, 2006م ،ص35.

حضاري "**فلم تعد المدرسة الفقهية تذهب إلى الآفاق الإسلامية البعيدة وتنزل الإسلام على واقع الناس، وتعالج مشكلاتهم في ضوء قيم القرآن الخالدة وتعاليم السنة المبيّنة، هذا أمر لا نرى له شيئا يذكر.**"[1] من الناحية النظرية الاختلال هو في تعميم منهج الأصوليين الذي قام أساسا من أجل الحكم التشريعي على كافة مجالات الثقافة الإسلامية، فتحولت إلى ثقافة افعل ولا تفعل. ومن الناحية التطبيقية اقتصر تطبيق هذا المنهج على بعض المجالات التي تحكم حياة الناس لا على كافة مجالاتها.. وتضخمت هذه المجالات في العبادات وبعض المعاملات إلى حد الترف.

2. مناهج المفسرين ما لها وما عليها: فيما يخص مناهج المفسرين تحديدا يرى الغزالي أن مدرسة الأثر التي يمثل لها بتفسير الطبري وتفسير بن كثير قبولها في الأمة رائج وفضلها كبير لكن "**يعيبها أنها ربطت تفسير الآيات بأحاديث أغلبها ضعيف، فكانت مصيدة حالت دون انطلاق الفكر القرآني إلى أهدافه السامية في التفسير، ووسيلة إلى شيوع الأحاديث الضعيفة التي بنى عليها المحدثون فكرهم القرآني.**[2]

أما التفسير الفقهي للقرآن فهو تفسير "**طوّع الآيات لأحكام الفقهاء وطريقتهم في الاستنباط ولم يهتم إلا بآيات الأحكام التشريعية واقتصر في ذلك على الحكم الشرعي دون مقاصد القرآن الأخرى، وهذا فيه شيء يستدعي الاستدراك.**[3]

والتفسير الكلامي في نظر الشيخ ينبغي أن "**تأخذ منه بطرف وندع أطرافا أخرى خرجت بالتفسير عن مجاله**".[4]

أما التفسير البياني للقرآن فيعلق الشيخ الغزالي على بعض من انتهجوا منهجه بالقول: "**على الرغم من أنهم خدموا البلاغة العربية وخدموا التفسير البياني للقرآن أجل خدمة.. لكن حملت تفاسيرهم إلى جانب ذلك إساءات كبيرة للفكر القرآني، من الذي**

---

[1] المرجع السابق ،ص35.

[2] كيف نتعامل مع القرآن ،ص38-39.

[3] المصدر نفسه، ص39.

[4] المصدر نفسه، ص39.

أشاع قصة زينب بنت جحش؟ إنهم مفسرون من هذا النوع فالقصة خرافية لا أصل لها، وهناك قصة مثل الغرانيق وقع فيها بعض المفسرين عن غفلة مثل ابن حجر وغيره"[1]

أما التفسير الصوفي فيقول عنه الشيخ: "**إنه يعتمد على الأذواق الخاصة وهذه الأذواق بعضها ممجوج وبعضها سائغ وأرى استبعاد هذا اللون من التفسير عن الميدان العلمي، وقد تقبل منه إشارات أو نكت خلال التفسيرات العادية وقد يتحول التصوف إلى فلسفة فلا ترى . والحال هذه . إلا ظلمات بعضها فوق بعض**".[2]

الخلاصة التي يصل إليها الشيخ من نقد مناهج المفسرين هو أن التفسير موضوعا ومنهجا اجتهاد بشري ونقده من أجل معرفة ما فيه من صواب وخطأ ليس بدعة ولا جريمة، بل هو اليوم واجب لأجل وصل المسلمين بهدي القرآن والانطلاق بهم في آفاقه الواسعة باسم الله يقول: " **نريد للعصر الحديث والصحوة الإسلامية أن تكون ناشبة بأعماق الإسلام.. تقدم له جيلا واعيا موصولا بالقرآن مدركا لأبعاده ومقاصده أولا.. وأن تنظر إلى هذا الجهد البشري على أنه جهد خطأه وصوابه متقاربان وجائزان وتنتفع من تجارب الاحتكاك بالأفكار والعقائد والأديان الأخرى، في ضوء منهج نضيج فلا تقول كلاما مضحكا**" ثم يضرب لذالك مثلا فيقول: "**عندما أقرأ في تفسير بن كثير حديثا واهي السند يقول فيه: كانت سورة الأحزاب في طول سورة البقرة ثم نسخ منها ما نسخ، فهل يمكن أن ينزل الله سورة من أربعين صفحة ثم ينسخ منها خمسا وثلاثين صفحة؟ كيف يقال هذا؟ وما هو المنهج الحاكم على مثل هذه المرويات الظنية؟**"،[3] وقد رأينا سابقا . عند تحليل علاقة القرآن بالسنة عند الشيخ الغزالي . كيف يهيب بالمسلمين أن يجعلوا القرآن الكريم مصدرا أول للعلم والعمل، وألا يجعلوا الظني حاكما على القطعي، "**أما أن يسري فجأة حديث واهي السند رد الفقهاء والمحدثون عشرات بل مئات من أمثاله لكي يكون حكما على القرآن فهذا عجب يجب أن ننقي تفاسير القرآن منه، فالمدارس**

---

[1] المصدر نفسه، ص40.
[2] تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل ،ص155.
[3] كيف نتعامل مع القرآن، ص41.

القرآنية الكثيرة مع المدارس الثقافية الإسلامية يجب أن تكون أمامنا ونحن نسعى لصنع ثقافة قرآنية جديدة".[1]

من المسائل التي انتقدها الشيخ في مناهج المفسرين . أيضا . تقليصها لمحاور القرآن واختزالها لمقاصده وعدم مراعاة التعامل مع القرآن كما يقدم نفسه، رؤية كونية شاملة، فقرأت هذه المناهج . عدا التفسير الموضوعي . الرؤية القرآنية على أنها فقه أو كلام أو بلاغة.. وأين ما اشتمل عليه القرآن من مكنونات الهداية والتربية والأخلاق ومعارف الكون..

كما ينتقد في نفس السياق انقلاب الوسائل إلى غايات في التفسير حيث يتحول درس التفسير إلى درس في اللغة إذا كان التفسير لغويا، ودرس في الفقه إذا كان التفسير فقهيا وهذا.."**مع أن اللغة العربية والفقه الإسلامي وسائل لتقرير المعنى في التفسير لابد منها.. لكن الوسائل لا تتحول إلى غايات ومن الممكن بعد شرحها أن تفتح القلوب بالمعاني النائية للوحي الإلهي وكيف يهدي الناس إلى الحق بما شرع من أحكام يستطيع المفسر الموفق أن يشرح سنن الله في الإتلاف والاختلاف والحب والكره وتقوى الله.. إن الوسائل البلاغية والأحكام الفقهية جزء من السياق المحكم للتربية القرآنية ولا يجوز أن تتحول الوسائل إلى غايات".**[2]

3. موقف الشيخ الغزالي من الإسرائيليات: يرى أن الإسرائيليات أساءت إلى تفسير القرآن ولم تفده بشيء ورغم أنه لم يناقش . فيما قرأت له . قضية الإسرائيليات في التفسير، هل يجوز الأخذ ببعضها أم لا . كما رأينا في مذاهب العلماء سابقا. إلا أن ظاهر كلامه في فقه السيرة وغيره عدم جواز إدراج الإسرائيليات في التفسير مطلقا، وهو رأي صاحب المنار أيضا[3] وتعليل الشيخ الغزالي أن الأخذ بها يعكس الوضع، فالقرآن مهيمن على غيره وليس العكس وأهل الكتاب هم بحاجة إلى هداية القرآن، أما تفسير القرآن فليس بحاجة إلى قصصهم التي أكثرُها مكذوب، يقول في معرض تفسيره قوله تعالى: **(وإن كنت في شك**

---

[1] المصدر نفسه ، ص41.

[2] تراثنا الفكري، ص123-124.

[3] أنظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا، ج1، ص8-9

مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك)[1] **"الرسول لن يقع منه شك في نبوته والكلام هنا فرْض للمستحيل كما قيل في سورة أخرى: (قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين)**[2] **ولكن ما معنى سؤال أهل الكتاب؟ قالوا:[أي المفسرين] المراد الثقاة المنصفون منهم، فهم لن يكتموا شهادة الحق إذا طلبت إليهم، وعندي أن العدول الصادقين من أهل الكتاب قلة لا يعول على حكمها، وما أظن الآية تعني ذلك"**[3] ثم يبين الشيخ معنى الآية في نظره فيقول: "**المرء يزداد تبصرا بنفاسة ما عنده من خير إذا رأى ما عند غيره من خلط، ولو ارتبتَ لحظة في أن القرآن من عند الله ثم تصفحت كتب العهدين القديم والجديد لعدت . على عجل . إلى كتابك تتشبث به وتحمد الله ألف مرة أن هديت إليه.. أحسب أن هذا ما تشير إليه الآية فإن تبين ما في الإسلام من حق يزداد قوة عند اكتشاف ما طرأ على الأديان الأولى من تشويه"**[4] ثم ساق قوله تعالى:**(ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم ما لك من الله من ولي ولا نصير)**[5] وهذا المعنى الدقيق من الشيخ يدل على عمق بصره بالقرآن.

ثم أورد الشيخ الحديث الذي أخرجه البخاري عن ابن عباس قال: **يا معشر المسلمين كيف تسألون أهل الكتاب وكتابكم الذي أنزل على نبيكم أحدث الكتب بالله تقرؤونه محضا لم يشب، وقد حدثكم الله أن أهل الكتاب بدلوا كتاب الله وغيروه وكتبوا بأيديهم الكتاب وقالوا هو من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا ، ألا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم ؟ ولا والله ما رأينا منهم رجلا قط يسألكم عن الذي أنزل إليكم"**[6] ونحن نلاحظ على كلام الشيخ واستشهاده أمورا:

الأول: إن تفسيره للآية دل على معاناة خاصة في فهم كتاب الله وتدبر واع له.

الثاني: أنه فسّر القرآن بالقرآن ثم بالسنة النبوية، وهذا أجود طرق تفسير القرآن.

---

[1] يونس،94

[2] الزخرف،81

[3] فقه السيرة ، محمد الغزالي ،ص 32.

[4] نفسه، ص32.

[5] البقرة، 120

[6] سبق تخريجه

الثالث: . وهو الشاهد . أنه يرفض الإسرائيليات جملة وتفصيلا في تفسير القرآن، فليس بنو إسرائيل هم من يعلمنا ديننا، بل الإسلام هو من يعلم ويصدق ويهيمن.

وفي معرض حديثه في بعض دروسه . رحمه الله . عن طوفان نوح قال: "**يرى أهل الكتاب أن الطوفان عالمي عم الأرض، والتحقيق أنه محلي لا يعدوا ديار نوح**"[1] فعورض الشيخ وقوبل بالاستغراب والشتيمة بداعي أنه خرج عن الإجماع وأتى بم لم يُسمع به من قبل، بل كاد بعض الناس . كما قال . أن يرموه بالكفر، فأجاب الشيخ خصومه وهو يرمي إلى ما في الثقافة الإسلامية من غش وما في التدين من علة تفضل الجمود والتقليد والوقوف على المألوف لا تتعداه: "**لماذا تحيصون هذه الحيصة، وتريدون أن تخرجوا من مجلس علم أحزابا متفرقين لا إخوة متحابين متعاونين متضاحكين.. ما هذا الغرام بتمزيق الصفوف؟.. من قال إنكم سمعتم العلم كله؟ ما عليكم لو طلبتم مزيدا من الأدلة لكلا الفريقين وعالجتم الموضوع ببرود**".[2]

وساق الشيخ الغزالي أدلة على ما أتى به من رأي من القرآن الكريم قال: "**أسرد عليكم ثلاثة مواضع من القرآن الكريم قال تعالى:(مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا نارا فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا)**[3] **وقال:(وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية)**[4] **وقال: (ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما فأخذهم الطوفان وهم ظالمون)،**[5] كما استدل الشيخ بوقائع التاريخ قال: "**كانت أرض نوح شمالي العراق على عهد الدولة السومرية أيام الأسر الحاكمة الأولى من الفراعنة والطوفان لم يجئ وادي النيل، ولم يبلغ الهند، وأوغل في البعد أن يصل الأمريكيتين.. الخ**".[6]

---

[1] الحق المر، محمد الغزالي، ج1، ص103.
[2] المصدر السابق ، ص104.
[3] نوح 25 .
[4] الفرقان 37.
[5] العنكبوت 14.
[6] الحق المر، ص103

لم يسرد الشيخ مع الآيات وجه الاستدلال، ربما لوضوحه عنده أو لتعلقه بظاهر الآيات، فأول ما استدل به يدل على أن الطوفان كان عقوبة من الله لقوم نوح بسبب خطاياهم فكيف يعمم على غيرهم؟ والآية الثانية تتحدث أيضا عن إغراق قوم نوح وجعلهم للناس آية، فما معنى أن تجعلهم آية للناس إذا كان الطوفان عم جميع الناس؟ والآية الأخيرة ظاهرها أيضا أن الذين أغرقوا هم قوم نوح، ونوح لم يبعث لكافة الناس ورسالته لم تكن عالمية.

والحق أن الشيخ الغزالي لم ينفرد بهذا الرأي بل لعله تابع فيه مدرسة المنار وتفسير الإمام محمد عبده الذي فصل أقوال أهل الملل السابقة في طوفان نوح ثم ذهب في تفسير قوله تعالى:(قال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديّارا) أنه ليس نصا في أن المراد بالأرض هذه الكرة كلها فإن المعروف في كلام الأنبياء والأقوام وفي أخبارهم أن تذكر الأرض ويراد بها أرضهم ووطنهم كما في قوله تعالى حكاية عن خطاب فرعون لموسى وهارون (وتكون لكما الكبرياء في الأرض) يعني أرض مصر وقوله تعالى: (وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها) والمراد به مكة،[1] وما من شك في استفادة الشيخ الغزالي من تفسير المنار.

والملاحظ تأكيد الشيخ عدم اكتراثه بالإسرائيليات بل إنه يحارب ما شاع في الناس من هذه الحكايات وقبولهم لها لمجرد الإلف والتعود، والشيخ هنا يفسر القرآن تفسيرا موضوعيا فيستدل على رأيه من حديث القرآن عن طوفان نوح في عدة مواضع، وهو يفسر القرآن بالقرآن قبل أن يلتفت إلى المرويات ويقدم ظاهر القرآن عليها، ومن المسائل التي رفض فيها الشيخ رأي أهل الكتاب . وإن وقع فيها الخلاف بين المسلمين أيضا . وفاة عيسى عليه السلام، فالغزالي يقدم ظاهر القرآن في أن عسى قد توفاه الله، وأنه مات ورفع ولا يمنع ذلك بعثه من جديد في الدنيا، ويستأنس بما وقع لغيره يقول: "**ومع أن كثيرا من الناس يرون أن عيسى عليه السلام قد رفع حيا إلا أنني أميل إلى رأي الفقهاء الظاهريين في أنه مات كغيره من الناس الذين تدركهم منيتهم وإن كان موته الطبيعي لا**

---

[1] أنظر: تفسير المنار، ج12، ص106

يمنع أن يعود مرة أخرى إلى دنيا الناس لينضم إلى المسلمين في تقرير وحدانية الله، مثله في ذلك مثل صاحب القرية الذي قال: (أنى يحي هذه الله بعد موتها فأماته الله مئة عام ثم بعثه)،[1] ومثل أصحاب الكهف الذين رقدوا قرونا ثم عادوا إلى الحياة".[2]

4. رأيه في ترتيب السور وملابسات النزول: علم المناسبات وأسباب النزول من المسائل الملحة في علوم القرآن، وقد فصلنا القول فيها سابقا وبينا أهميتها للتفسير الموضوعي لاسيما تفسير السورة القرآنية، من هنا كان متوقعا أن يشيد الغزالي . صاحب التفسير الموضوعي . بعلم المناسبات ويهتم بالأساس الذي قام عليه، وهو التناسب بين الآيات والسور، ومن المهم أن نعرف أن الشيخ لم يهتم بالجانب النظري من الموضوع اهتمامه بالتطبيق، وإن كان يقول صراحة "**أقول للقارئ خذ مثلا سورة (آل عمران) وسوف تراها تدور على محورين فنصفها الأول حوار مع أهل الكتاب.. ونصفها الثاني تعليق على هزيمة معركة أحد.. وعندما أعطي هذا الخط العام للسورة أعود مرة أخرى فأبرز الخطوط الخفية التي تشد أجزاء السورة كما تشد الأعضاء أجزاء الجسم، فيظهر للقارئ أن الآيات ليست مركومة كما اتفق وإنما هي مرتبة ترتيبا دقيقا تكتمل فيه أجزاء صورة واضحة المعالم رائعة الملامح..**"[3]ويقول أيضا: "**نحن نعلم أن ترتيب المصحف على نسقه القائم . وإن تم بتوقيف الرسول واجتماع أصحابه . يخالف ترتيب نزوله حسب الوقائع والأزمان**".[4]

وللشيخ الغزالي . عمليا . نظر دقيق في بيان التناسب بين السور ولو افترضنا أنه يرى أن ترتيبها اجتهادي ما التفت بنظره إلى الحكمة من هذا الترتيب، يقول رحمه الله: "**أحيانا أشعر وأنا أتلوا القرآن ببعد المسافة الزمنية بين سورة وسورة أو آية وآية، و أتساءل هل إشعار القارئ بهذه المسافة البعيدة مقصود في سوق الآيات وترتيب السور؟.. في الجزء الأخير من المصحف الشريف تعقُب سورةُ النصر سورةَ الكافرين،**

---

[1] البقرة 259.

[2] أنظر: صيحة تحذير من دعاة التنصير،محمد الغزالي،دار الصحوة للنشر،القاهرة،ط1 ، 1412هـ-1991م، ص65. وكذا نحو تفسير موضعي لسور القرآن الكريم ،ص36.

[3] حوار ومراجعة مع الشيخ محمد الغزالي ، مجلة الفيصل ، مرجع سابق ، ص11.

[4] نظرات في القرآن ،ص213.

وسورة النصر آخر ما نزل بالمدينة المنورة، وسورة الكافرين أول ما نزل بمكة المكرمة، أي أن بين السورتين أكثر من عشرين سنة يطويها القارئ في لحظة سريعة وهو ينتهي من هذه ويبدأ في تلك.. الأولى نزلت في غربة الدين وعناء الدعاة وعناد الكافرين لترسي دعائم التوحيد العملي والثانية نزلت وبشائر النصر تلوح، وصاحب الرسالة يستعد للعودة إلى ربه بمزيد من التسبيح والاستغفار.. كلتا السورتين تقابل الأخرى كأن الأولى تصور البذر والأخرى تصور الحصاد".[1]

يضرب الشيخ مثلا آخر للتناسب بين سورة (ق) المكية وسورة (الحجرات) المدنية التي سبقتها يقول: "**إن السورة المدنية تبرز طائفة من الآداب المطلوبة في مجتمع مستقر له قيادة يجب توقيرها.. مجتمع له مشكلات يجب التلطف في حلها كي تبقى الأمة موحدة الصف واضحة الهدف.. أما السورة المكية فإن الكلام فيها طال عن البعث والجزاء وعن قمع الطبائع المتمردة بأهوال النار وشدة الحساب.. وبين السورتين قرب معنوي وإن فصل بينهما مكان وزمان فإن الأخلاق الزكية والسيرة الطاهرة إنما تنبجس من قلب مؤمن.. إن الإيمان بالله واليوم الآخر هو العدو الأول للإباحة والفوضى، والعنصر الأول للتسامي والأدب، وكأن مجيء سورة (ق) بعد سورة (الحجرات) تذكير بمصدر الطاقة الروحية وراء كل تربية ناجحة واتجاه سليم".**[2]

الجديد الذي يلفت الشيخ الغزالي الانتباه إليه . عدا المعاني الدقيقة والأسلوب المعاصر . هو مقاصد القرآن و هداياته من خلال التناسب بين السور وفي هذا المعنى يقول: "**تلفت النظر هنا إلى شيء ذي بال: إن الموضوعات الكثيرة التي يستوضحها الكتاب العزيز تتعاون كلها في تكوين عقل مؤمن وقلب بصير يستطيع الاستقامة في الدنيا والانتصار على همومها وعقدها.. ذلك ما يصنعه القرآن وهو يصف الكون أو حين يروي تاريخ الأولين، أو حين يعرض مشاهد الحساب والثواب والعقاب أو حين ينشئ العبادات ويقوم الأخلاق ويزجر عن الآثام".**[3]

---

[1] علل و أدوية، ص194.
[2] المصدر نفسه، ص194
[3] نفسه، ص195.

لا يسمح الغزالي للمعاني الدقيقة أن تذهب به بعيدا عن مقاصد القرآن، ولا يسمح للموضوعات الكثيرة والجزئيات المتعددة أن تحجب عنه رؤية المقاصد الكبرى، لذا فهو يعرضها كما تعرض حبات اللؤلؤ في عقد كامل يزين الجيد، وفرق بعيد بين هذا العرض وبين انفراط العقد الذي تطيش معه الحبات هنا وهناك

اهتم الغزالي بالسياق الخارجي للنصوص كما اهتم بالسياق الداخلي، يقول رحمه الله في بيان أهمية تاريخ النزول وأسبابه أنهما: "**أصلان عظيمان في تبيان الأحكام واكتمال الصورة الشرعية على أوضاعها الصحيحة وترتيبها العتيد**".[1]

واهتم الشيخ بترتيب السور حسب تاريخ النزول وهو أمر متناغم مع قناعته بأهمية هذا الترتيب في إلقاء أضواء على تفسير القرآن لاسيما في فهم الأحكام واستكمال صورة الإسلام، فذكر أن أول ما نزل اقرأ، ثم ن والقلم، ثم يأيها المزمل، ثم يأيها المدثر..الخ، وبعد ذكره لترتيب النزول كما جاءت به الروايات، ذكر ما اختُلف عليه في آخر ما نزل بمكة، أهو العنكبوت على ما قال بن عباس؟ أم هو المؤمنون على ما قال غيره؟ أم هو ويل للمطففين على ما قال آخرون؟.. وعدّ ما نزل بمكة من القرآن وهو ثلاث وثمانون سورة على ما استقرت عليه روايات الثقاة، وأما ما نزل بالمدينة فإحدى وثلاثون سورة.. ثم ذكر الشيخ تفصيلات وتعليقات مفيدة كل ذلك ينبئ عن اهتمامه بتاريخ النزول".[2]

للشيخ ملاحظاته على ترتيب النزول وعلى كلام العلماء في المكي والمدني فعقله الناقد لا يسلّم بكل ما يقال، يعرض . مثلا . الخلاف حول نزول سورة الأنعام، هل نزلت جملة واحدة بمكة وهو ما يرجحه . رحمه الله . أم أن عددا من آياتها مدني كما جاءت بذلك أقوال أخرى؟ ويستدل على مذهبه بالسياق الداخلي المحكم، في قوله تعالى: **(ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للذين أشركوا أين شركاؤكم الذين تزعمون ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين أنظر كيف كذبوا على أنفسهم وضل عنهم ما كانوا**

[1] نظرات في القرآن ،ص 212.
[2] المصدر السابق ، ص213-214

يفترون)[1] يقول: "**هذا المعنى المتصل المتماسك يجيء بعض الرواة فيقول إن آخر آية منه نزلت بالمدينة وأما الأوليان فقد نزلتا بمكة.. وهذا التقطيع لا يسوغ**".[2] وفي السورة نفسها **(هو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفا أكله والزيتون والرمان متشابها وغير متشابه كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده)**[3] ثم يعطف على هذه الأشياء نعما أخرى يمتن بها على عباده فيقول: **(..ومن الأنعام حمولة وفرشا كلوا مما رزقكم الله ولا تتبعوا خطوات الشيطان)**[4] "**فيجيء بعض الرواة فيقول:الأولى مدنية والثانية مكية، أي أن المعطوف والمعطوف عليه في سياق واحد بينهما أزمنة وبلاد؟ وهناك آيات تعرضت لأهل الكتاب عدها الرواة مدنية ، كأن الكلام عن أهل الكتاب في مكة لا محل له**".[5]

يخلص الشيخ الغزالي إلى أن ما روي في المكي والمدني ينقصه "**التمحيص العلمي والتحقيق التاريخي وشيوع الروايات بهذه الصورة يشبه شيوع القول بالنسخ على ضعف سنده في ناحيتي العقل والنقل**".[6]

نَقَدَ الشيخ الترتيب الزمني لنزول سور القرآن أيضا كما نقد المكي والمدني وفي هذا النقد يقول: "**ما يقال في الصفة المكية والمدنية يقال في الترتيب الزمني لبعض السور فسورة المزمل مثلا تجيء الثالثة في ترتيب النزول مع أن القارئ لا يفوته وهو يتلوا آياتها أن يلاحظ أن قيام الليل الذي أمر به الرسول صلى الله عليه وسلم يكون بقرآن كثير يستغرق ساعات لا دقائق وأين هو إذا كان ما نزل سورتين فقط من قصار السور**."[7]

وبعد جملة من الملاحظات يخلص الشيخ أن ترتيب المصحف حسب التلاوة بتوقيف الرسول صلى الله عليه وسلم ربما استنفد الاهتمام كله "**فلم تتوفر الجهود على**

---
[1] الأنعام، 22-24.
[2] المرجع السابق ،ص214.
[3] الأنعام، 141.
[4] الأنعام، 142.
[5] نظرات في القرآن،ص214.
[6] المرجع نفسه، 214.
[7] نفسه ،214.

تتبع أزمنة النزول بأسلوب يقوم على الدقة الواجبة وإن كانت الأحكام قد ظفرت بقسط وافر العناية المشكورة".[1]

مع ما لاحظه الشيخ من عيوب في ترتيب النزول لا يفوته أن يذكر فائدته التي تتمثل في تيسير شرح آيات الأحكام لاسيما أسلوب التدرج في التشريع، وشرح كثير من الآيات المتصلة بالنبوة ومعالم الرسالة[2]، ومن أجل يضرب مثل على هذه الفائدة نقل . رحمه الله . تحقيقا في مسألة المعجزات المادية للرسول صلى الله عليه وسلم، هل هي معجزات مع القرآن أم أنها لا توصف بذلك؟ عن الدكتور الغمراوي في تفسيره للآيات التي نزلت ينفي ظاهرها الإعجاز المادي، والآيات التي أثبتته كانشقاق القمر، جاء فيه: "**فلو أنهم [المتنازعين في هذا الموضوع] رجعوا إلى ترتيب نزول سور القرآن.. لتكشفت لهم حقيقة تاريخية مهمة هي أن نزول آية انشقاق القمر سابق على نزول الآيات الأخرى، إذ ليس في الست والثلاثين سورة السابقة في النزول على سورة القمر آية تنكر أو تمنع إجراء معجزة مادية على يده صلى الله عليه وسلم كالتي طلبت قريش. وإذن يكون نزول آيات الإنكار نتيجة لتكذيب من كذّب بمعجزة انشقاق القمر بعد أن رآها، فإن من يكذّب بمعجزة رآها وينسبها إلى السحر سيكذب غيرها من المعجزات وينسبه إلى السحر أيضا ويكون من العبث إجراء معجزة أخرى لهم كالتي طلبوا".[3]**

وإلى هذا يشير قوله تعالى: **(ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فضلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون)[4].**

والغزالي لا يقصد إلى الاهتمام بثبوت انشقاق القمر من عدمه لكنه يريد لفت الانتباه إلى أهمية تاريخ النزول وملابساته في فهم القرآن الكريم.[5]

المطلب الثاني

بعض أقوال المفسرين في ميزان الشيخ الغزالي

---

[1] المرجع السابق ،ص 215.
[2] المرجع السابق، ص 220.
[3] نفسه ،ص221.
[4] الحجر14-15
[5] المرجع السابق، ص223

1. سورة النجم وقصة الغرانيق: في سياق حديثه عن الهجرة إلى الحبشة يقول: "**لم يمكث أولئك المهاجرون طويلا حتى ترامت إليهم الأخبار بأن المشركين هادنوا الإسلام وتركت هذه الإشاعة أثرها في قلوب المؤمنين فقرروا العودة إلى وطنهم**"،[1] وبعد أن شرح سبب عودة المسلمين من الهجرة الأولى إلى الحبشة هذا الشرح الحسن، قال: "**ويزعم بعض المغفلين أنه وقعت هدنة ما بين الإسلام والوثنية أساسها أن محمد صلى الله عليه وسلم تقرب إلى المشركين بمدح أصنامهم والاعتراف بمنزلتها وأن هذه الواقعة هي التي أعادت المسلمين من الحبشة**"[2].. تلك هي قصة الغرانيق، ماذا قال النبي صلى الله عليه وسلم في مدح أصنام قريش؟ تقول الرواية إنه وهو يتلوا سورة النجم قال: "**تلك الغرانيق العلا وإن شفاعتهن لترجى**" وليستدل الشيخ على بطلان هذه القصة يحتكم إلى السياق الداخلي للآيات يقول: "**وأين وضع هذه الكلمات؟ وضعها في سورة النجم مقحمة وسط الآيات التي جاء فيها ذكر هذه الأصنام فأصبحت هكذا: أفرأيت اللات و العزى و مناة الثالثة الأخرى تلك الغرانيق العلا وإن شفاعتهن لترجى ألكم الذكر وله الأنثى تلك إذا قسمة ضيزى إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس". ويكون معنى الكلام على هذا: خبروني عن أصنامكم أهي كذا وكذا؟ إن شفاعتها مرجوة إنها أسماء لا حقائق لها إنها خرافات ابتدعت واتبعت، ما لكم جعلتموها إناثا ونسبتموها لله وأنتم تكرهون نسبة الإناث لكم تلك قسمة جائرة. هل هذا كلام يصدر عن عاقل؟ فضلا عن أن ينزل به وحي حكيم ؟ لكن هذا السخف وجد من يكتبه وينقله**".[3]

ثم يستدل الشيخ بأدلة أخرى من القرآن تدل على أن محمدا صلى الله عليه وسلم لو كذب على الله باختلاق كلام عليه لقطع عنقه: **(ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحد عنه حاجزين)**[4] بيد أن كتب التاريخ

---

[1] فقه السيرة ، ص110-111.
[2] نفسه ،ص 111.
[3] المرجع السابق ،ص 111.
[4] الحاقة، 47.

والتفسير التي تركت للوراقين والزنادقة يشحنونها بالمفتريات اتسعت صفحاتها لتذكر هذا اللغو القبيح .. الذي ما كان يجوز تدوين مثله".[1]

ويذهب الشيخ الغزالي إلى أن الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم تلا سورة النجم في محفل يضم مسلمين ومشركين فأخذت روعة القرآن المشركين فسجدوا مع المسلمين، ولا يبعد أن يكون المشركون اختلقوا أن النبي عطف على آلهتهم ليعتذروا لأنفسهم من السجود مع المسلمين،[2] وربما كان ذلك من وضع الزنادقة من بَعْدُ كما يدرك ذلك العلماء الراسخون،[3] والذي يستغربه الشيخ الغزالي أن هذه الخرافة قد وجدت مفسرين وعلماء حديث وغيرهم جعلوا لها مساحة في كتبهم وتركوها تنتقل من سفر إلى سفر وفي هذا يقول: "**لا أدري كيف استطاعت الأحاديث التي تتحدث عن أمثال قصة الغرانيق تنويم حملتها ولا أزال أعجب كيف أن رجلا من أساطين المحدثين كابن حجر يعترف بحديث الغرانيق وهو أكذوبة غليظة وإن كان يضعفه ، لكنه يرى أن له أصلا** ".[4]

هذه الخرافة قد وجدت فعلا شارة خضراء فذكرها الإمام بن كثير في تفسيره . وإن كان ضعفها أيضا . رواها عن ابن أبي حاتم وعن سعيد بن جبير قال: قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم النجم بمكة.. فألقى الشيطان على لسانه تلك الغرانيق العلا.. قالوا ما ذكرت آلهتنا بخير قبل اليوم فسجدوا، فأنزل الله هذه الآية: **(وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم)**،[5] وذكر ابن كثير روايات أخرى تفيد أن الشيطان ألقى في سمع المشركين فسجدوا.. الخ[6]

وحتى الإمام الطبري شيخ المفسرين ذكر . وإن كان بصفة التمريض . هذه القصة فقال: "**قيل إن السبب الذي من أجله أنزلت هذه الآية على رسول الله صلى الله عليه**

---

[1] نفسه ،ص 112.
[2] نفسه ، ص112.
[3] السنة بين أهل الفقه وأهل الحديث، محمد الغزالي، ص20
[4] الطريق من هنا، محمد الغزالي ،ص63.
[5] الحج 52.
[6] انظر: تفسير القرآن العظيم الإمام ابن كثير، ج3، ص229.

وسلم أن الشيطان كان ألقى على لسانه بعض ما يتلوه مما أنزل الله عليه من القرآن ما لم ينزل الله عليه فاشتد ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم.. الخ،"[1] فإذا كان هذان الإمامان . وهما شيخا المفسرين . قد كررا هذه الخرافة أما يستحق الأمر أن نقف أمام تراث المفسرين بروية نطهّر كنوزه من هذه الترهات؟ هذا ما يرمي إليه الشيخ الغزالي رحمه الله رحمة واسعة.

2. قصة زينب بنت جحش: شاع حول القصة في بعض التفاسير ما وصفه الشيخ بأنه: "**من أخبث ما انطلق في آفاق المعرفة الدينية وأحقها بالاحتقار.. تلك هي رغبة النبي صلى الله عليه وسلم المفاجئة في الزواج من زينب بنت جحش كما يرجف الخراصون، والنبي أبعد الناس عن التطلع، ويستحيل أن يمر بخاطره هذا الوهم"**[2]

جاءت هذه القصة في معرض تفسير قوله تعالى في سورة الأحزاب:**(وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتقي الله وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا وكان أمر الله مفعولا ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له سنة الله في الذين خلوا من قبل وكان أمر الله قدرا مقدورا).**[3]

شرح الشيخ الغزالي الآيات بما يوضح القصة الصحيحة، وهي أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحب متبناه زيد ويرى فيه خصالا كريمة من أجل ذلك ولاه قيادة جيش مؤته.. ومن إعزازه عليه الصلاة والسلام لزيد أن اختار له ابنة عمته زينب بنت جحش ليتزوجها.. وزيد قد جيء به إلى مكة رقيقا، ثم تبناه رسول الله، لكن قلبه من صنف قلوب ملوك.. وقبلت به زينب على مضض، لأنها من ذؤابة قريش وكانت ترى أن زوجها ليس كفئا لها في النسب.. وشعر زيد بأن امرأته تراه دونها، فاضطرب جو البيت، وتدخل النبي مرارا لإصلاح ذات البين لكن الفجوة ازدادت اتساعا.. وطلّق زيد زوجته وأُعلن الفشل.. ثم

[1] انظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، الإمام الطبري ،ج17،ص186-187.
[2] علل وأدوية، محمد الغزالي، ص95.
[3] الأحزاب 37.

فوجئ النبي صلى الله عليه وسلم بأن الله يطلب منه . هو نفسه . الزواج من زينب ففزع النبي للطلب وتمثل أمامه كلام الناس.. وتراخى في تنفيذ أمر الله.. بل ذهب إلى زيد يقول له: **(أمسك عليك زوجك واتق الله)**.. لكن الوحي نزل يطلب من النبي قبول الأمر الواقع وإقرار الطلاق والزواج من زينب، فشأن الأنبياء الارتباط بالخالق لا بالخلق.. شاء الله أن يتولى هو العقد ليبطل التبني.. وتفسير الآيات السابقة يتضح كل الاتضاح بعد هذا الشرح.[1]

تفسير الشيخ الغزالي هنا معقول، يتسق مع مقام النبوة، ويفهم منه الحرج الذي هو طبيعة بشرية، كما يفهم منه الحسم الإلهي في إبطال العادات السيئة المستحكمة في الناس عمليا، وجعل النبي قدوة في ذلك أمر حكيم، والآيات صريحة في أن الزواج لم يكن عن رغبة من النبي، بل عن أمر من الله وحكمة هي ألا يكون على المؤمنين حرج في الزواج من زوجات أدعيائهم ومتبنيهم إذا قضوا منهن وطرا.. ولم يكن تحريم التبني بالنص وحده الذي جاء في قوله تعالى: **(وما جعل أدعياءكم أبناءكم)**[2] كاف في ذلك، كما لم يكف في تحريم الخمر والربا آية واحدة، فهذه العادات المستحكمة تحتاج إلى وقت وإلى إلحاح وتدرج وإلى تطبيق عملي من النبي نفسه أحيانا، وقد سبق أن لم يستجب الصحابة لأمر النبي صلى الله عليه وسلم فأبوا أن يحلقوا رؤوسهم ويتحللوا في صلح الحديبية، حتى فعل النبي ذلك أمامهم بإشارة من زوجه أم سلمة، فلما رأوا فعله عليه الصلاة والسلام فعلوا[3].. وكذلك الأمر هنا.

على الرغم من وضوح هذه المعاني ذهب بعضهم . كما يذكر الشيخ الغزالي . **"أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل على زينب بنت جحش فجأة وهي عند زيد فأحبها؟؟ من أول نظرة كما يقول مؤلفو الأغاني وقال: سبحان مقلب القلوب، وأن ما كان يخفيه هو التدله في حبها.. وهذا الكلام بادي الكذب والإسفاف، فإن زينب بنت عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان يعرفها جيدا عندما زوجها زيدا، فما هذا الحب المفاجئ؟ إنه**

---

[1] علل وأدوية ، ص95-96 باختصار وتصرف.
[2] الأحزاب،4
[3] أنظر فقه السيرة، محمد الغزالي،ص334-335.

خيال سمج. وكلمة: سبحان مقلب القلوب، هي التعليق على كره زينب لرجلها الجدير بالقبول، وتسويف الرسول للزواج منها بعدما طلقها زيد كان كرها منه لهذا الزواج، وخشية من أقاويل الناس، ولو كان الأمر إليه ما تزوجها قط".[1]

ويحتكم الشيخ الغزالي . مرة أخرى . إلى سياق الآيات ثم يتسائل: "**أين مكان الغرام والعشق في هذا السياق**".[2]

والذي يريد الشيخ الغزالي التنبيه إليه في دحضه هذه القصص و الروايات المكذوبة هو أن تفسير كلام الله يجب ألا يكون بأحاديث منكرة وقصص واهية.

وفي معرض رصده لخطأ آخر في التفسير يقول: " **لا نخوض الآن في هذا البحث وإنما ذكرناه لنسد الباب في وجه بعض المفسرين الغافلين، وبعض رواة الغرائب السخيفة دون وعي أولئك الذين أعطوا المستشرقين والمبشرين فرصا للنيل منا والافتراء على كتابنا**".[3]

وفي ختام حديثه عن قصة زينب بنت جحش وما أشيع حولها يعود إلى الفكرة نفسها فيقول: "**ومع هذه الحقائق العلمية فإن بعض الكتابات المعاصرة عن أزواج النبي صلى الله عليه وسلم تتحدث عن عشق أخذ بمجامع القلوب، لأن للشائعات أو الأساطير المروية سوقا بين أهل الغفلة وما أشد مصاب الإسلام من أولئك الرواة البله**".[4]

المسألة كما يراها الغزالي إذن ليست فقط في موضوع هذه الروايات وما يحمل من ضرر بالمعاني الصحيحة للإسلام، بل يتعدى ذلك إلى مسألة منهجية لها خطرها وهي رفض تفسير كلام الله بمرويات لا تصح، وبعض الناس يظن أن هذا من قبيل تفسير القرآن بالسنة، وليس الأمر كذلك فالمطلوب تحري الصحة في الأخبار والفقه في الفهم يتضح هذا المعنى أكثر في الأسطر القليلة الآتية.

---

[1] علل وأدوية ،ص96.
[2] نفسه،ص96 .
[3] نفسه،ص90.
[4] نفسه، ص97.

3. أثر الروايات الواهية في تفسير القرآن: يتعقب الشيخ الغزالي بعض أئمة التفيسر كالإمام بن كثير والإمام الخازن في بعض الأخطاء التي وقعوا فيها في التفسير جراء رواية الواهيات، وهو لا يريد التنبيه إلى أخطاء وقعت لمجرد وقوعها فكل الناس يصيب ويخطأ، إنما يريد . كما نبهنا . بيان مصدر الخطأ الذي ضل يتكرر في ثقافتنا المغشوشة لذلك يقف في محطات ثلاثة مع الإمام ابن كثير:

1. في قوله تعالى: **(يأيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفورا رحيما)**،[1] قال الشيخ الغزالي عن ابن كثير: "**رأيته ينقل شائعات علمية لا تثبت على التمحيص، وعيب التفسير الأثري حفاوته أحيانا بالأخبار الواهية، وتركه للتحقيق الفقهي، قال . غفر الله له .: روي عن سفيان الثوري أنه قال لا بأس بالنظر إلى زينة نساء أهل الذمة وإنما نهي عن ذلك لخوف الفتنة لا لحرمتهن واستدل بقوله تعالى: (ونساء المؤمنين)**" يعلق الشيخ الغزالي على هذه الرواية بالقول: "**هذه الرواية ساقطة من وجهين: فإن أهل الذمة لهم مالنا وعليهم ما علينا، وحرمة دمائهم وأموالهم وأعراضهم ليست موضع ريبة ثم إن غض البصر عن زينة النساء يرجع إلى التحصين (ذلك أزكى لكم) فكيف بعد هذا ينقل بن كثير رواية تقول لا بأس بالنظر؟**"[2]

2 . وخطأ آخر يرصده الشيخ الغزالي في قول الإمام ابن كثير: "**إن الأَمَة منهي عنها لباس الجلباب لأن الإماء يكره لهن أن يتشبهن بالحرائر؟؟**" ثم يعلق الشيخ بالقول: "**أي أن الأمة التي تريد الاحتشام وستر محاسنها تمنع من ذلك، فعورة الأمة كعورة الرجل ينبغي أن ترتاد الشوارع وتغشى الأسواق وهي متكشفة تقع الأعين على وجهها وصدرها وشعرها دون حرج.**[3]

وفي المعنى نفسه ينقل الشيخ الغزالي عن الخازن رواية عن أنس بن مالك يقول فيها: "**مرت بعمر بن الخطاب جارية متنقبة فعلاها بالدرّة وقال: يا لكاع أتتشبهين**

---

[1] الأحزاب، 59.
[2] علل وأدوية ، ص91.
[3] نفسه، ص92.

بالحرائر؟ وألقى القناع". ثم أورد الغزالي كلاما لابن حزم في المحلى في غاية القوة يردّ هذه الرواية يقول: "**أما الفرق بين الحرة والأمة في العورات في دين الله واحد، والخلقة والطبيعة واحدة، كل ذلك في الحرائر والإماء سواء حتى يأتي نص في الفرق بينهما ولا نص هنا.. فإن قيل: (ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن .. [إلى قوله تعالى] وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون)[1] يدل على أن الله أراد الحرائر، قلنا: هذا هو الكذب بلا شك، لأن البعل في لغة العرب يتناول السيد والزوج، وأيضا فالأمة قد تتزوج، وما علمنا قط أن الإيماء لا يكون لهن آباء وأبناء وأخوال.. وقد ذهب بعض من وهل في قوله تعالى: (يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين) إلى أنه إنما أمر الله تعالى بذلك لأن الفساق كانوا يتعرضون للنساء فأمر الحرائر أن يلبسن الجلابيب، ليعرف الفساق أنهن حرائر فلا يعترضوهن، قال احزم: نحن نبرأ إلى لله من هذا التفسير الفاسد فهو إما زلة عالم، أو وهلة فاضل عاقل، أو افتراء كاذب فاسق، لأن فيه أن الله تعالى أطلق الفساق على أعراض إماء المسلمين وهذه مصيبة الأبد؟؟**[2]

3 ـ وخطأ ثالث يستدركه الشيخ الغزالي على الإمام ابن كثير ـ رحمه الله وغفر له ـ هو تفسير آية: **(يدنين عليهن من جلابيبهن)**، فقد نقل عن ابن أبي طلحة عن ابن عباس قوله: **أمر الله نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهن لحاجة أن يغطين وجوههن من فوق رؤسهن بالجلابيب ويبدين عينا واحدة.**"[3] يقول الشيخ الغزالي معلقا على الرواية: "**هذا الكلام مردود من ناحيتي السند والمتن كليهما، وابن عباس لا يجهل ما حدث للفضل في حجة الوداع عندما ثبت وجهه على امرأة حسناء فأدار الرسول رأسه**[4].. **والحديث في الصحاح.. وهو واحد من نحو عشر أحاديث صحيحة تفيد سفور الوجه دون اعتراض من أحد.. والقرآن لا يفسر بحديث منكر**".[5]

---

[1] النور 31.

[2] علل وأدوية، ص92 باختصار.

[3] لم أعثر عليه في الصحاح ولا في السنن

[4] رواه النسائي في سننه، كتاب مناسك الحج والعمرة، ج2، ص433، طبعة المكنز الإسلامي.

[5] علل وأدوية ، ص93.

ثم راح الشيخ يناقش الخلاف بين الجمهور وغيرهم في مسالة سفور الوجه.. وهذا الخلاف الفقهي ليس مقصودا لنا هنا، إنما المقصود التنبيه على عدم الولوع بالمرويات الواهية وإخضاع معاني الكتاب العزيز لها دون تحقيق من نظر أو تدقيق من فقه.

وفي كتابه "**تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل**" يذكر الشيخ بعض ما أسماه **أخطاء وخطايا** وقعت من بعض المفسرين، وأهم ما ذكره تحت هذا العنوان في نقد التفاسير بالأثر وجوب تجنيبها ما فيه ريبة، وضرورة التزامها شروط الصحة والقبول، وعدم روايتها القصص والحكايات السخيفة، مثل ما ذكره الخازن في قوله تعالى:**(لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة)**،[1] قال فيما نقله الغزالي: **اختلفوا في وجه نصبه فحكي عن عائشة وأبان عن عثمان أنه غلط في الكتاب [هكذا] وينبغي أن يكتب (والمقيمون)، قال عثمان: إن في المصحف لحنا ستقيمه العرب بألسنتها!! فقيل له أفلا تغيره؟ قال دعوه فإنه لا يحل حراما ولا يحرم حلالا!! قال ابن الأنباري: ما روي عن عثمان لا يصح لأنه غير متصل.** يعلق الشيخ الغزالي على كل ذلك بقوله: "**لنفرض أن السند متصل، فما قيمته مع متن فاسد؟ إن الذين ينحصرون في السند ويعمون عن المتن لا ثقة بهم**".. ثم يقول: "**قد يقال إن تفسير الخازن مشحون بالترهات والسرائيليات وأن الثقة به مهتزة ووقوع هذه الهنات فيه لا يجوز أن تكون مثار شكوى عامة**[2] **أقول: "هذا صحيح، لكن تسلل ذلك السخف إلى تفسير محترم كالقرطبي يسوغ غضبي، إن الخرافة انتقلت من الشام إلى الأندلس بسهولة، وإن كان المفسر الكبير قد أثبتها ثم عقب عليها بقول القشيري: هذا مسلك باطل لأن الذين جمعوا الكتاب كانوا قدوة في اللغة فلا يظن بهم أنهم يدرجون في**

---

[1] النساء 162.

[2] هو كذلك فعلا وليس هذا هو الموضع الوحيد الذي ينتقده فيه الشيخ الغزالي، قال في فقه السيرة: "إنك تفتح الخازن في تفسير القرآن (سورة هود) فتقرأ ما يلي: لما كثرت الأرواث في سفينة نوح أوحى الله إليه أن اغمز ذنب الفيل، فغمزه فوقع منه خنزير وخنزيرة، ومسح على الخنزير فوقع منه الفأرة، فأقبلوا على الروث فأكلوه، فلما أفسد الفأر في السفينة وجعل يقرضها ويقطع حبالها، أوحى الله إليه أن اضرب بين عيني الأسد، فضرب فخرج من منخره قط وقطة، فأقبلا على الفأر فأكلاه" يقول الغزالي: أرأيت هذا الكلام الفارغ؟ إن كثيرا من هذه الخرافات الصغيرة توجد في كتب شتى عندنا ولا ندري متى تنظف هذه الكتب القديمة منها؟ فهي لا ريب مدخولة عليها أيام غفلة المسلمين وغلبة الدسائس اليهودية على أفكارهم ومخطوطاتهم" أنظر: فقه السيرة، محمد الغزالي، ص 112.

القرآن ما لم ينزل، وليت القرطبي ما ذكر ولا نكر، ولعل ازدراءه للقضية كلها جعله يكتفي بهذا الرد الخافت وإلا فهو يدري أن النقل الشفوي المتواتر هو أساس ثبوت القرآن".[1]

كما تطرق الشيخ إلى رواية لأحمد في مسنده نقلها عنه ابن كثير عن أبي بن كعب قال لزر: **كأيَ تقرأ سورة الأحزاب؟ أو كأي تعدها ؟ قلت ثلاثا وسبعين آية، فقال: قط، لقد رأيتها وإنها لتعادل سورة البقرة.**" يعلق الشيخ على هذا الكلام بالقول: "**هذا كلام سقيم فالله لا ينزل وحيا يملأ أربعين صفحة ثم ينسخه أو يحذف منه أربعا وثلاثين ويستبقي ست صفحات وحسب".**[2]

هذه نقول عن الشيخ في نقد بعض مسائل علوم القرآن وتفاسير المفسرين طالت بعض الشيء، لكنه نقل لا بد منه، وهي ليست كل ما قاله في هذا الشأن، وإنما هي نماذج يمكن أن نستخلص منها مراده . رحمه الله . من هذا النقد في نقاط مجملة كالآتي:

1. القرآن أصل رسالة الإسلام وأساسها، وهو يقين كله، وهذا الوحي الصافي يجب أن لا تختلط به الأوهام في شرحه وتفسيره.
2. العلوم الإسلامية الخادمة للتفسير ولا يجب أن تنقلب من وسائل إلى غايات تطلب لذاتها فتهمل مقاصد القرآن في هداية الناس وتنوير قلوبهم وتسديد خطواتهم.
3. عدم الانخداع بالشائعات في ميدان العلم التي لا أساس لها والتي غزت كثيرا من كتب التفسير، وانخدع بها بعض المفسرين.
4. الكف عن القول بالنسخ في القرآن، وبدل ذلك انتهاج منهج يعمل كل الآيات على حسب ما يناسب تنزيلاتها من الأحوال، بفقه تاريخ النزول وملابساته وسياقه الداخلي وبفقه مقاصد القرآن التي تضبط هذه المسائل.
5. تنقية تراث المفسرين من الواهي والضعيف وما لا أصل له والتشدد فيما يخالف المتواير لاسيما والأمر يتعلق بتفسير القرآن المتيقن شكلا ومضمونا حرفا حرفا، وكل ما يمكن أن يحوم حوله الشك من الروايات هو خطر على القرآن يجب استبعاده ومحوه.

---

[1] تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل،ص126-127.
[2] المصدر نفسه، ص128.

6. عدم الرواية عن بني إسرائيل، فقد أضرت بالتفسير وأدخلت عليه تصورات شعبية ابتعدت به عن المراد، ومجرد الفضول لمعرفة تفاصيل قصة ما يجب أن لا يكون سببا كافيا لرواية الإسرائيليات صحت أو لم تصح، ولو كان في تفصيلاتها فائدة للمسلمين لذكرها القرآن أما الضرر فهو بين.

7. استغلال المعرفة الهائلة بأسرار الكون في بيان أسرار القرآن فالكون من عمل الله والقرآن كلام الله ولنفهم أسرار الكلام علينا أن نغوص في أعماق أسرار الصنعة الإلهية ونعرف كيف نستثمرها لصالح ديننا ودنيانا.

8. استحضار الروح القرآنية الجامعة، والبعد عن النظر الجزئي أو بالأحرى التجزيئي الذي يفسر الآية ذاهلا عما قبلها وما بعدها، وما في معناها مما ورد في القرآن الكريم في مواضع مختلفة لأن تفسير القرآن بعضه بعضا أصل لا يجب أن يغيب عن أي مفسّر.

المبحث الثالث

التفسير الموضوعي عند الغزالي: حقيقة المنهج، خصائصه وغاياته

نحاول في هذا المطلب أن نفهم حقيقة التفسير الموضوعي كما يراه الشيخ الغزالي ونشرح الخصائص والغايات والثمرات الجنية لهذا المنهج كما فهمه ومارسه رحمه الله..

المطلب الأول

حقيقة التفسير الموضوعي عند الشيخ الغزالي

لا يدّعي الشيخ أنه سبق غيره إلى التفسير الموضوعي، بل يذكر الفضل لأصحابه فيذكر أنه وجد بواكير التفسير الموضوعي في تفسير المنار عند الشيخ محمد عبده[1]، كما يرد الفضل إلى حسن البنا ومحمد عبد الله دراز ومحمود شلتوت وغيرهم من شيوخه، يقول في هذا المعنى "**هذه النظرة الجديدة في التفسير [الموضوعي] لم أَسبق إليها، إنما وجدتها عند شيوخ لي عكفوا على تلاوة القرآن والدعوة إليه، وأولهم الشهيد حسن البنا ـ رحمه الله ـ الذي كان يلقي نظرات في القرآن في المركز العام للشباب المسلمين في القاهرة، ومن الصدق أن أقول إن الشيخ رشيد رضا من وراء هذا التفسير، وإن كان يمزج بين الموضوعي والموضعي بلباقة، ومن أحسن من كتبوا في التفسير الموضوعي الشيخ عبد الله دراز.. وأنا أرجو أن أبدأ أو قد بدأت فعلا الخطوط الأولى في هذا التفسير**"[2]، ويشيد في موضع آخر بالتفسير الموضوعي للموضوعات القرآنية عند الشيخ محمود شلتوت[3]، فالغزالي لا يرى نفسه رائدا في هذا الميدان بل مكملا لجهود غيره، وإن كان ما قدمه من جهد في التفسير الموضوعي بأنواعه كثير كمًّا متميز نوعا، فقد قدم إضافات طيبة في الموضوع والمنهج كما سنرى.

أولا: مفهوم الغزالي للتفسير الموضوعي

سبق في تعريف التفسير الموضوعي وتصنيف اتجاهاته عموما أن الغزالي يمثل اتجاه الفصل في التعريف، فيرى أن التفسير الموضوعي يطلق على نوعين منفصلين لكل منهما تعريفه وأهميته، وفي هذا الشأن يقول: "**التفسير الموضوعي يطلق على نوعين جديدين من خدمة الكتاب العزيز، أولهما تتبع قضية ما في القرآن كله، وشرحها على ضوء الوحي، النازل خلال ربع قرن تقريبا.. والآخر النظر المتغلغل في السورة الواحدة لمعرفة المحور الذي تدور عليه، والخيوط الخفية التي تجعل أولها تمهيدا لآخرها وآخرها تصديقا لأولها، أو بتعبير سريع تكوين صورة عامة لملامح السورة كلها..**"[4] من هذا

---

[1] علل وأدوية، محمد الغزالي، ص 67

[2] حوار ومراجعة مع الشيخ محمد الغزالي، عبد الحليم عويس، مجلة الفيصل، مرجع سابق، ص 11.

[3] تراثنا الفكري بين الشرع والعقل، محمد الغزالي، ص129.

[4] المرجع السابق، ص 129.

المفهوم انطلق الشيخ الغزالي فاهتم بالنوعين معا في جملة مؤلفاته وخطبه، ورأى أن لهذا التفسير أهمية بالغة، وأنه التفسير السيد في المستقبل، كونه أقدر على رسم هدايات الوحي، والصورة الكلية للإسلام إنه "**جدير بعناية الأمة فإن المستقبل له ولعله في عصرنا أقدر على خدمة الإسلام وإبراز أهدفه**"[1] لاسيما وأنه . كما يرى . يتناسب وطبيعة العصر الذي "**ارتقى فيه العقل الإنساني كثيرا، وتفاسير القرآن تطّرد في عروضها مع مقتضيات العصر الحاضر**"[2] فلم يهتم الشيخ بالتفسير الموضوعي إلا في إطار سياسة العلم لديه وطريقته المزدوجة في التأليف وهي تقوم على إيضاح حقائق الإسلام ولب الثقافة الإسلامية الصحيحة والدعوة إليها من جهة، والدفاع عن حقائق الإسلام ضد خصومه الحاقدين عليه في الخارج أو الجاهلين به في الداخل والتفسير الموضوعي فاعل في الجانبين معا: البناء والدفاع.[3]

كما أن الشيخ يؤكد على أهمية التكامل بين التفسير الموضوعي والموضعي وينبه أن الثاني ليس ملغيا للأول ولا بديلا عنه، بل هو نوع مكمل فرضته حاجة العصر، يقول: "**أنبه أن التفسير الموضوعي لا يغني أبدا عن التفسير الموضعي بل هم تكميل له وجهد ينضم إلى جهوده المقدورة..**"[4] ويقول في بيان هذا التكامل أيضا: "**التفسير الموضعي لا بد منه قبل الشروع في التفسير الموضوعي فإنه فهم جيد للآية أو لجملة الآيات التي تتناول قضية واحدة**"[5] هكذا يقرر الغزالي أن التفسير الموضوعي الجيد مبني على جودة الفهم الموضعي، فالذي يُحكم فهم المعنى الجزئي يصل إلى تصوير المعاني الكلية أما من لا يحسن شرح آية أو جملة آيات فهو أعجز في بناء المعنى الكلي لكافة عناصر الموضوع القرآني، وهو أعجز عن فهم الروابط المعنوية الدقيقة التي تجعل السورة القرآنية وحدة موضوعية.

ثانيا: نماذج من التفسير الموضوعي عند الشيخ الغزالي

---

[1] المرجع نفسه، ص 129.
[2] حوار ومراجعة مع الشيخ محمد الغزالي، مرجع سابق، ص 11.
[3] أنظر المرجع السابق، ص 11.
[4] نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم، دار الشروق، القاهرة، ط2، 1413هـ، ج1، ص 6.
[5] تراثنا الفكري بين الشرع والعقل، محمد الغزالي، ص128.

1- التفسير الموضوعي لموضوعات القرآن

اهتم به الشيخ اهتماما بالغا بحيث لا يكاد مؤلف من مؤلفاته يخلو من شرح حقائق القرآن في ظل المشكلات الواقعية، أو محاكمة الواقع إلى الحقائق القرآنية، فهو تارة ينطلق من النص ليصب خلاصة هدايته على الحياة، فينظر إلى أي مدى تهتدي الحياة بنور الوحي، وتارة يبث شكواه كما تلقيها إليه محن الحياة وتجاربها إلى القرآن يسترشد به في إقامة ما اعوج وإصلاح ما فسد، ويظهر اهتمامه . رحمه الله . بهذا النوع من التفسير من خلال ما استقرأناه من بعض مؤلفاته من عناوين ذات دلالة وأهمية بهذا الخصوص منها: **الإنسان في القرآن، الحياة العامة في القرآن، الثروة في القرآن، الألوهية في القرآن، النبوات في القرآن، الجزاء في القرآن، فساد الأمم كما يصوره القرآن، قصص القرآن،**[1] **من صور القوة في القرآن،**[2] **بعض سنن الله الكونية في القرآن،**[3] **اليهود في ميزان القرآن،**[4] **القرآن والطبقات المترفة،**[5] **أولوا الألباب في القرآن الكريم،**[6]وغيرها كثير.. كما ألف الشيخ كتابا كاملا قسم فيه موضوعات القرآن الكلية إلى خمسة محاور، هي: **الله الواحد، الكون الدال على خالقه، القصص القرآني، البعث والجزاء، التربية والتشريع،** وهو مما أبدع فيه الشيخ فلم يُسبق إلى مثل هذا التقسيم الموفق للمحاور الكبى للقرآن الكريم[7]، وصدرت له أيضا مجموعة محاضرات بعنوان: "**نماذج من التفسير الموضوعي للقرآن الكريم**" لخص فيها محاور القرآن السابق ذكرها، وجاء فيه إضافة محاضرتين في تفسير الموضوعات القرآنية عنوان الأولى: "**من التفسير الموضوعي للقرآن، متى يحمد التعصب ومتى يذم،** وعنوان الثانية: **الإسلام وأهل الكتاب بين آيات الوحي ووقائع التاريخ**[8].

---

[1] أنظر: نظرات في القرآن، محمد الغزالي، الصفحات: 49، 54، 58، 62، 74، 78، 87، 95. على الترتيب.
[2] في موكب الدعوة، محمد الغزالي، دار الكتب، الجزائر، ص39.
[3] سر تخلف العرب والمسلمين، محمد الغزالي، دار البعث، قسنطينة، 1406هـ، 1986م، ص30.
[4] خطب الشيخ محمد الغزالي في شؤون الدين والحياة، إعداد قطب عبد الحميد قطب ج1، ص 142.
[5] الإسلام والأوضاع الاقتصادية، محمد الغزالي، نهضة مصر، ط6، 2006م، ص33.
[6] خطب الشيخ محمد الغزالي، ج2، ص 385.
[7] أنظر: المحاور الخمسة للقرآن الكريم، محمد الغزالي، الصفحات: 17، 53، 91، 141، 181على الترتيب.
[8] أنظر: نماذج من التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، محمد الغزالي، طبعة وزارة الشؤون الدينية، منشورات المركز الثقافي الإسلامي، الجزائر، 1987م، ص107-131وص133-158

وإذا كانت هذه أمثلة عن عناوين مباشرة فإن العناوين التي أخذت من معاني القرآن أو حضرت فيها الرؤية القرآنية بقوة لا تكاد تحصى عددا، ومع هذا فلا يمكن أن نمر على هذا العرض من غير تحليل نموذج نتبين فيه عمق فهم الغزالي . رحمه الله . لمعاني القرآن ضمن المنهج الموضوعي، وتوظيف المعرفة في إصلاح الواقع، من أجل ذلك اخترت أنموذج "**الإنسان في القرآن**" لسببين: كون العنوان تكرر عند الشيخ بمضمون مختلف[1] وكونه يعطينا فكرة كلية عن موضوع كلي في القرآن الكريم.

أ- الإنسان في القرآن: من الواقع إلى النص

تشخيص الواقع:

في كتابه نظرات في القرآن[2] تناول الشيخ هذا الموضوع فانطلق من تشخيص جانب من الواقع فبدأ بعرض النظرة المادية للإنسان التي قصرت مفهومها على قبضة الطين في الإنسان، قال: "**الفلسفة المادية تزحف الآن على القارات الخمس.. تسوق الفناء**"[3]، فالإنسانية لا يمكن أن تحلق بجناح واحد، والجانب المادي لا يعبر أبد عن القدر القدر الحقيقي للإنسان يقول الشيخ في هذا المعنى: "**ما الإنسان في نظر أهل المادة.. قدر من الدهن يكفي لصنع سبع قطع من الصابون، قدر من الكاربون يكفي لصنع سبعة أقلام رصاص، قدر من الفسفور يكفي لصنع رؤوس مائة وعشرين عود ثقاب، قدر من ملح المغنزيوم يصلح جرعة واحدة لأحد المسهلات.. الخ هذه المواد تشترى من الأسواق بمبلغ من المال يساوي [في وقت كتابة هذا النص] خمسين أو ستين قرشا مصريا، تلك هي قيمة الإنسان المادية.**[4]

لكن هل في الحصارة المادية من سبق؟ وهل في التدين من عوج؟ يجيب الشيخ الغزالي بنعم، وهذا من ذاك، سبق الماديين هو نتيجة حتمية لفساد التدين "**فالماديون قد نجحوا في اقتحام آفاق عظيمة وسبقوا في ميدان الكشوف العلمية والتصنيع والإنتاج..**

---

[1] نظرات في القرآن، محمد الغزالي، ص49، علل وأدوية، محمد الغزالي، ص7.
[2] المصدر نفسه، ص 49- 53.
[3] نظرات في القرآن ،ص49.
[4] المصدر السابق ، 49-50.

بيد أن هذا السبق مقرون بخبال ولعنة.. وتفوق الماديين لا يعود إلى قدراتهم الذاتية، ولا يعود بداهة إلى صواب منهجهم الفكري بل يعود إلى الوهن النفسي الذي أصاب أهل الأديان وإلى فساد ما بأيديهم من معنويات.. التدين الفاسد يحدث في خصائص الإنسان العليا ما تحدثه السموم في الأبدان."[1] ثم يسوق قوله تعالى: **(كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اخلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم).**[2]

يشرح الشيخ على ضوء الآية السابقة علل التدين التي مكنت للماديين وتمكن لهم في كل وقت، وأساسها أمراض القلوب فكان "**البغي وما يحف بالبغي من أثرة وحقد واستعلاء وظلم وحروب ومآثم وفساد في الحكم على القيمة الحقيقية للإنسان وعلى الوظيفة الطبيعية له في الحياة أهم سبب لتأخر المتدينين على ظهر الأرض ففي الوقت الذي بذل الملحدون فيه جهودهم لعبادة الوجود والإفادة من فرصة حياتهم فيه، واستثارة قواه الظاهرة والباطنة لمصلحتهم.. كان المتدينون يقيمون في كهوف سحيقة وكأنما ابتلعوا جرعا ثقيلة من الأفيون فهم يتثاءبون في كسل ويفكرون في ذهول وغفلة."**[3]

بيان هداية القرآن:

بعد أن وصف الشيخ الداء اتجه صوب صيدلية القرآن الكريم الذي "**يميط اللثام عن وجه الحق في قيمة الإنسان ووظيفته ومنزلته ورسالته**"[4]، ذلك ما كان يشغل الشيخ الغزالي من قضية وموضوع، فبين رحمه الله أن قيمة الإنسان في منطق القرآن أنه خليفة الله في الأرض "**تكررت قصية خلافته في كثير من السور متضمنة أن الله جعله سيدا يطاع ويكرم، وأن من أهانه وتمرد على مكانته ليس أهلا لرحمة الله وبره.. من هنا حكم الله على إبليس باللعنة بسبب مخاصمته لآدم.**"[5] ووظيفة الإنسان كما شرحها القرآن أساسها الحفاظ على الفطرة السوية وغسلها من الأقذار بالتوبة حتى تبقى سليمة كما ذرأها

---

[1] المصدر نفسه ،ص50

[2] البقرة 213.

[3] نفسه، ص50-51.

[4] نفسه، ص51.

[5] نفسه، ص51.

الله.. "**فالتدين ليس استجلاب عناصر جديدة تزكوا بها النفس وإنما هو إقامة حصانات وضوابط لبقاء النفس على طبيعتها النقية وفطرتها الأصيلة.**"[1]

إن القرآن قد أمد الإنسان بالمنهج الذي يعرف من خلاله ربه ويصلح دنياه ويفوز بآخرته وجعل العقل مناط التكليف فربط القرآن الإيمان بحسن النظر في الكون و طول التأمل في ملكوت الله وهناك عشرات السور مفعمة بهذه المعاني، توثق صلات المؤمنين بالعالم، وتحض على استجلاء غوامضه والغوص في أسراره ومن ثم فلا دين بلا عقل: **(إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون)**[2] لكن أي عقل هذا الذي يقصد الشيخ الغزالي؟ يجيب الفكر المحترم ليس ذلك الفكر الشارد في أوهام الفلسفة النظرية.. بل هو الذي يستمد الحق من معالم الكون ويتبع في سيره الإحصاء والاستقراء والملاحظة والتجربة. ولذلك نستطيع الجزم بأن البحوث المتصلة بما وراء المادة والتي خاضها الإسلاميون تقليدا لغيرهم لا قيمة لها.. التفكير الفذ مجاله المخلوق لا الخالق المادة لا ما وراءها.. ومن ضلال التفكير الديني والإنساني عموما تعلقه بما وراء المادة مما لا يحسن ولا يملك وسائل البحث فيه، فلا مكان لفتور أو استرخاء: **(يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا ..)الآية**[3]

أثر هداية القرآن:

لا يقف اهتمام الشيخ وتفسيره عند حد بيان الهداية بل يركز اهتمامه على أثرها، فهو يهتم بالفكرة وبالتأثير الإصلاحي لهذه الفكرة، ومن ثم بعدما شرح هداية القرآن حاول أن يجعلها قريبة المنال ويحث على التزامها والأخذ بها "**يجب على الإنسان أن يكون صاح الذهن فيما يباشر من أعمال إذ إنه محاسب على مثقال الذرة، ويجب إصلاح العمل إلى حد الإتقان فذلك شارة الإيمان الحق، وسور القرآن ووعده ووعيده وإنذاره**

---

[1] نفسه، ص51.
[2] الأنفال22
[3] الانشقاق،6-8.

وتبشيره تتزاحم كلها على الإنسان لتدفع به في طريق الإحسان وإن كان من تنافس مستحب بين البشر ففي هذا المضمار الرحب لإدراك الكمال والرضوان."[1]

يخلص الشيخ في نهاية تحليل موصوعه إلى الحكم والنتيجة وهي: "**أن الخمول السائد في بلاد القرآن هو صد صارخ لطبيعته، وبعد سحيق عن ندائه."[2]**

تحليل وملاحظات:

ما يلاحظ على معالجة الشيخ لهذا الموضوع هو انتهاجه منهمج الحركة من الواقع إلى النص، فبدأ بعرض النظرة المادية ونشاطها المحموم وبوصف علل التدين التي أصابت حركة المتينين بالشلل، ثم شرح هدية القرآن ووصف الدواء لما عرض من أدواء.

كما يلاحظ أنه . رحمه الله . اختار الإيجاز غير المخل ولم يكثر من الاستشهاد بالآيات القرآنية فكل ما ذكره أربع مواضع للاستشهاد بالقرآن، ومع ذلك يبدو حسن الاستشهاد في معالجة الموضوع جليا، فما أشار إليه من الآيات أكثر بكثير مما ذكره نصا، أي أن الشيخ هنا بحكم الإيجاز الذي انتهجه، استغنى بالإشارة عن العبارة، ولنتأمل هذه العبارات التي وردت في موضوعه: "**التأمل اليسير في القرآن .. في كثير من السور .. ربط القرآن الإنسان بحسن النظر.. وهناك عشرات السور..**" كلها تدل على أن آيات القرآن وسوره تتزاحم في عقل الشيخ ومعانيها حاضرة وإن لم تحضر نصوصها، من هنا يمكن القول إن الغزالي قد صاغ الموضوع على ضوء القرآن وضمن روحه العامة.

ويلاحظ أيضا أن للشيخ الغزالي قضية محددة يعالجها على ضوء القرآن فلا يجمع الآيات كيف ما اتفق، وواضح أنه يسبح في رحاب معاني القرآن، يتفيأ ظلاله ويدع الاستدلال ينساب انسيابا طبيعيا عذبا، وهذا يؤكد لنا . مرة أخرى . ما ذكرناه في القسم النظري من أن التفسير الموضوعي ليس متاحا لكل باحث، بل هو لمن يشكل القرآن لحمته وسداه، ولمن أعطى القرآن كل جهده ووقته وأسلم فكره ومشاعره للقرآن، وصدق في طلب معانيه وحقائقه.. فالشيخ يركز جهده على التشخيص المحدد من الواقع والدواء الشافي له من القرآن، يركز على الموضوع والقضية، وقضيته هنا كانت: قيمة الإنسان

---

[1] نظرات في القرآن ، ص53.

[2] المصدر نفسه، ص53.

ووظيفته بين المادية والقرآن كما نعيشها في الواقع، وكما تعالجها هداية القرآن الكريم.. وقد وفق الشيخ في العرض الحسن والإجابة الشافية.

وعندما يركز الشيخ اهتمامه على قضية أخرى أو زاوية نظر أخرى يفيض علمه بحقائق أخرى ولو تحت مظلة العنوان نفسه "**الإنسان في القرآن**"، وهذا سر الاختلاف في المحتوى بين ما ذكره وحللناه . سابقا . في كتابه نظرات في القرآن، وما عرضه في كتابه علل وأدوية مما سنتناوله.

ب- الإنسان في القرآن: من النص إلى الواقع

هداية القرآن في قصة الإنسان

في كتاب "**علل وأدوية**"[1] يطرق الموضوع من زاوية أخرى وبأسلوب مختلف، فيبدأ معالجة الموضوع بعرض هداية القرآن الكريم وإرشاده ليصب أنوارها على صفحات الواقع، فبدأ بتحليل ما يمكن تسميته بثلاثية: التنعيم، التكريم، والتكليف في القرآن تجاه الإنسان، فشرح قصة خلق آدم وتشاؤم الملائكة واعتراض إبليس وحكمة الله .. "الملائكة كانت متشائمة من مستقبل الإنسان على الأرض..(أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء) وكان الجواب الأعلى (إني أعلم مالا تعلمون) خلق الله آدم ووهب له عقلا محيطا بالأشياء كلها.. عقل يمكنه من معرفة الأسرار والظواهر.. ولعل الملائكة اليوم . بعد أن أدركت حكمة الله . ترقبه في دهشة وهو يخترق الفضاء ويصل إلى الكواكب البعيدة.. لكن عظمة الإنسان لا تكمن في العلم وحده بل في معرفة الله الذي أعلى قدره ورفع مستواه وخلق الكون ومكنه فيه وسخره له.. هذا الفريق المؤمن الذي يفتح مغاليق الحياة ويكشف أسرارها باسم الله هو من تتجلى فيه حكمة الله من وجود الإنسان في العالم."[2]

ويمضى الشيخ يسيح في ظلال القرآن يتنقل من سورة إلى سورة ومن آية إلى آية يشرح هدايته ملاحظا المعاني الثلاثة السابقة في قصة الإنسان في القرآن: التنعيم ،التكريم، التكليف.

---

[1] علل وأدوية، محمد الغزالي، ص 7-22

[2] علل وأدوية ، ص7 باختصار وتصرف يسير.

بدأ بالقول: "**قصة الحياة الإنسانية كلها كما ساقها القرآن الكريم تستوقف النظر من نواح عدة نحب أن نتبينها، أولها التنعيم الذي أحاط بها من بدايته بين يدي عرض القصة في سورة البقرة نقرأ قوله تعالى: (هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا)[1] قبل ذلك بقليل نقرأ: (الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم)[2]، وبين يدي عرضها في سورة الأعراف: (ولقد مكناكم في الأرض و جعلنا لكم فيها معايش قليلا ما تشكرون ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم)[3]، وبين يدي عرضها في سورة الحجر سرد للنعم التي تحف الحياة البشرية.. والواقع أن الرغيف الذي يطعمه الإنسان تشترك في إنباته وإنضاجه فجاج الأرض وآفاق السماء.**"[4]

ويمضي الشيخ أيضا متأملا آلاء الله ونعمه التي حبا بها الناس في شبكة دقيقة متماسكة متكاملة، فكل شيء في الحياة وعلى وجه الأرض يخدم الإنسان، التربة وشعاع الشمس وسحب السماء.. وذلك في رأي الشيخ الغزالي سر أقسام القرآن التي أشارت إلى فخامة العالم مثل قوله تعالى: **(فلا أقسم بالشفق والليل وما وسق والقمر إذا اتسق لتركبن طبقا عن طبق)**[5]، "**إن الله أبدع ما صنع وحدثنا عن هذا الإبداع لنعجب به ونتذوق جماله، وإني لأستغرب أحوال ناس ينتسبون إلى الإسلام ويديرون ظهورهم للكون فلا يدرسون له قانونا ولا يستكشفون له سرا**"[6]، هكذا يكشف الشيخ عن الفارق الكبير بين تنعيم الله وتقصير المسلمين، فيظهر بعدهم عن هداية القرآن في هذا الخصوص، ويختم هذا المعنى (التنعيم) بتساؤل لاذع "أي إيمان هذا؟ وأي جهل بقصة الحياة ووظيفة آدم وبنيه في ربوعها ؟"[7]

---

[1] البقرة 29.
[2] البقرة 22.
[3] الأعراف 10-11.
[4] المصدر السابق، ص8 باختصار.
[5] الانشقاق 16-19.
[6] المصدر نفسه، ص9.
[7] نفسه ،ص9.

ثم انتقل الشيخ لشرح معنى التكريم، وهو ناحية تتصل بالكيان المعنوي للإنسان، تتصل بنفخة من روح الله.. "إن الحياة في شتى الأجسام المتحركة شيء، وخصائص الحياة الرفيعة في أبناء آدم شيء آخر.. آدم وحده هو الذي وصفه بقوله: **(سويته ونفخت فيه من روحي)**[1] الإنسان بهذه النفخة كائن جديد يعلو فوق ما يشبهه من ضروب الحيوان.. من أجل هذا طولبت الملائكة بالسجود لآدم سجود تكريم لا سجود تعظيم."[2]

انتقل الغزالي بعد هذا إلى شرح المعنى الثالث الذي جاء عقب معصية إبليس "**كلتا الحالتين التكريم والتنعيم استتبعتا ناحية ثالثة كان لها الأثر الأكبر في مستقبل الإنسان ومستقبل الكوكب الذي أعد لسكناه.. هذه الناحية هي التكليف.. زود الله الإنسان بهذا السمو في مواهبه ولم يتركه سدى بل أمره ونهاه وطلب منه أن يفعل وان يترك.**"[3]

ويقف الشيخ الغزالي شارحا سر التكليف منذ أول تكليف لآدم وزوجه ألاّ يأكلا من الشجرة، لكنهما في لحظة ضعف وذهول وساعة انهيار في الإرادة استسلما لغواية إبليس(**فعصى آدم ربه فغوى)** وشاركته زوجه فاستحقا النزول إلى الأرض لتتكرر القصة ذاتها مع بنيه "**ليس أكلا من الشجرة بل إتباعا للشهوات التي تقود إلى العصيان والحرمان.. العنوان متغير والحقيقة واحدة.. إن هذا السلوك من الإنسان الأول يجعلنا نتساءل عن علته؟ والعلة واضحة: الإنسان بدأ حياته بطبيعة مزدوجة، قبس من نور الله داخل غلاف من طين الأرض.**"[4]

إذن قصة التكليف كما يستنبطها الشيخ من القرآن تدور على الأمر والنهي من جانب الذات العليا، وعلى الطاعة أو المعصية والإصرار أو التوبة من جانب البشر، وفي الخاتمة، نجاح أو رسوب في الامتحان الرباني، وهذا لا يكون عادلا وصادقا إلا إذا استتبعته الإرادة الحرة والمسؤولية التامة عن الفعل والترك، لذا يؤكد الشيخ على هذا المعنى: "**لا بد من توكيد هذه الحقيقة، حقيقة الإرادة الحرة في الصعود والهبوط، في**

---

[1] الحجر 29.
[2] نفسه ، ص9-10.باختصار وتصرف.
[3] نفسه ، ص10.
[4] نفسه،ص11.

التقوى والفجور في إغضاب الله وإرضائه، فإن الرحمان الرحيم يستحيل أن ينقم على إنسان سعى في مرضاته كما أنه لا يرضى عن إنسان سعى في إغضابه، وبعض الناس يماري في هذه الحقيقة في مكابرة أو تحمل أعذار وهيهات.. فقصة الوجود الإنساني تقوم على اختيار حقيقي"[1] **(الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا)**[2] .. يشدك الغزالي إلى حسن استشهاده بآيات القرآن وهو يشرح الإرادة الحرة لدى الإنسان ويستشهد بقوله تعال: **(فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هي المأوى وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى)**[3]، الصراع بين الحق والباطل والخطأ والصواب والاستقامة والانحراف هو عراك حقيق لا صوري: "**والجهد في تزكية النفس أو تدسيتها بشري محض، أو كذلك يكون أول الأمر ثم يلحقه من مشيئة الله ما يصل به إلى النهاية**"[4]، وتجد الشيخ خبيرا بنفوس البشر وهو يتعرض لأسباب الضعف التي تحول بينها وبين طاعة الله يقول: "**ما مصدر هذا الصوت النابي الجهول الذي يذل الإنسان؟ والجواب أن له مصدرين اثنين: نفس الإنسان أو الإهاب الترابي الذي غلفت به، والمصدر الثاني من كائن آخر خاصم الإنسان منذ النشأة الأولى وهو الشيطان.. ولا عبرة بما يتعلل به المخطئون من أن الشيطان هو السبب الأول والأخير في انحدارهم.**"[5]

ويمضي الشيخ مستشهدا بالقرآن الكريم على أن الشيطان لا يملك أكثر من الإغراء والكلام والكذب، يعد ويمني، ويقسم خائنا وينصح غاشا ويلين ليلدغ وينحني ليثب ويصرع..

ما العمل إذن والإنسان يواجه ضعفه الداخلي وعدوه الخارجي؟

يقدم الشيخ ما يسمه "مصلا" يقي الإنسان ويشفيه يقوي عزمه على الخير ويوهن كيد الشيطان، هذا المصل ليس سوى ما يعرضه القرآن من القيام بجملة العبادات

---

[1] المصدر السابق، ص11.
[2] الملك 2.
[3] النازعات،40
[4] المصدر نفسه ، ص12.
[5] المصدر نفسه ، ص13.

المفروضة، ويسوق رحمه الله هذه الآيات طالبا التدبر فيها: **(إلا المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم والذين يصدقون بيوم الدين والذين هم من عذاب ربهم مشفقون إن عذاب ربهم غير مأمون والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين فمن ابتغى وراء ذلك فأولائك هم العادون والذين هم لأمانتهم وعهدهم راعون والذين هم بشهادتهم قائمون والذين هم على صلاتهم يحافظون)**[1] يقول: "**لا شك أن هذه العبادات مجتمعة تنشئ إنسانا كاملا شريطة أن تؤدى أداء حقيقيا لا أداء تمثيليا**"[2]، ثم يقف الشيخ بالشرح لعنصر واحد من العناصر المكونة لهذا المصل، يبين فيه هداية القرآن وهو قوله تعالى: **(والذين هم بشهادتهم قائمون)**.

وهنا نكتشف قدرة الشيخ على فهم النص وفهم الواقع، وفهم طبيعة الإنسان وقوانين الحياة الاجتماعية، نرى قدرته على صب الهداية القرآنية على الواقع وتوظيف معارفه وخبرته في الحياة من أجل ذلك يظهر هذا في قوله: "**القيام بالشهادة يتطلب صراحة لا تخاف في الله لومة لائم ذلك أن الحق يختنق في هذه الدنيا وسط دخان الشهوات المتصاعد.. والمرء ينكل عن الإدلاء بالرأي الصحيح لأنه يخشى على مستقبله، أو يريد محاباة قريب، أو يطمع في مال، أو يتطلع إلى منصب، إنه لا يستبين وجه الله من غلظ الحجب على بصيرته، والمجتمع الإسلامي يسقط مع اختفاء من هم بشهاداتهم قائمون.. لأن الذين ليسوا بشهاداتهم قائمين ربما سكتوا، وربما قالوا فلم يعدلوا، ولقد عرفت لماذا سبقت بعض المجتمعات سبقا بعيدا عندما قرأت أن زوج الملكة في هولندا عزل وجرد من أوسمته لما اكتشفت صلته بقضية رشوة، وأن رئيس وزراء اليابان عزل ورمي به في السجن للتهمة نفسها، إن القيام بالشهادة يعني ألا نترك صاحي حق مستوحشا في هذه الدنيا لا صديق له ولا ظهير والشهادة ليست ما يقال أمام المحاكم**

---

[1] المعارج 22-34.

[2] المصدر السابق، ص16.

فقط بل ما يقال في كل خلاف أو مشورة أو اختبار أو انتخاب أو أي شأن ذي بال، والقائم لله بالشهادة رجل أسلم لله وجهه وقرر أن يحيا للحق وحده."[1]

هذا العمق في الفهم ليس متاحا لكل أحد، وحاجته إلى السياحة في القرآن والصدق معه بينة بنفسها، إنك حين تقرأ مثل هذا التفسير لا تملك إلا أن تقول: هذا فتح من الله ونعمة.

إن التكليف مبناه على الابتلاء والنجاح فيه مبناه على أخذ مثل هذا المصل الذي شرحه الغزالي وهنا يسدد الغزالي فهما خاطئا لمعنى الابتلاء والتفاضل بين الناس وهو من علل التدين فيختار قوله تعالى: **(فأما الإنسان إذا ما بتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمني وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانني كلا بل لا تكرمون اليتيم ولا تحضون على طعام المسكين وتحبون المال حبا جما)**[2] يقول رحمه الله: "**الآيات تشير أن الغنى ابتلاء، والفقر ابتلاء، ومن الخطأ تصور أن الإغناء تكريم والإفقار إهانة، العبرة بالنتائج.. المستعف في فقره أسبق عند الله ممن طغى بغناه، والغني الذي يفتح أبوابه لليتيم والمسكين ويسارع بالبذل في مواطن الإنفاق هو الإنسان الناجح في الامتحان.. لكن بعض البشر، يحسبون العطاء تدليلا لأشخاصهم والحرمان إهانة.. وعندما شاع ذلك انفجرت براكين الأحقاد ضد أصحاب الثروات، وانفجرت عواصف الإلحاد والكفر وتعرض مستقبل الإنسانية كلها إلى البوار.. يجب على الإنسان أن يعرف ربه.. فلن يعود بنو آدم إلى الجنة وهم يحملون أوزار النسيان والضعف، لا بد من إيمان واضح وعمل صالح وفي طول القرآن وعرضه توكيد لهذه الحقيقة التي يحاول كثيرون الزوغان عنها."**[3]

ثم يقف الشيخ الغزالي عند خاصية العقل الذي كرم به الإنسان على اعتبار أنه مناط التكليف، فينعى على المسلمين تخلفهم في ميدان العلوم يقول: "**تحن المسلمين**

---

[1] علل وأدوية ، ص16-17 باختصار.

[2] الفجر 15-20.

[3] المصدر السابق، ص16-18 باختصار

سنحاسب حسابا عسيرا على تخلفنا الواضح في العلوم الطبيعية"[1] وإذا سألت الشيخ لماذا هذا الحساب؟ يأتيك الجواب سريعا: "**ربما احتاج الإنسان إلى مساحة من الأرض لا تعدو ذراعا كي يصلي، لكنه كي يدفع العدوان عن هذا المسجد الضئيل يحتاج إلى معرفة تمتد من الأرض إلى المريخ بل إلى الشمس.**"[2] ثم يمضي شارحا أهمية الاطلاع على أسرار الكون مقتبسا من أقوال المتخصصين كلمات نفيسة.. ليؤكد في الختام أن "**التخلف في ميدان العلم الطبيعي جريمة دينية لا تقل أهمية عن جرائم الربا والزنا والفرار من الزحف ..بل لعلها أشنع وأوخم عقبى ..إن الجو الذي يحي فيه قارئ القرآن يسع البر و البحر والسماء والأرض ويطلق الفكر سابحا في ملكوت لا نهاية له ، ويؤكد للإنسان أنه ملك يخدمه كل شيء، فما الذي جعل الفكر الديني يعيش في قوقعة؟.. إنني أحس فزعا كبيرا عندما أرى بعض المتصدرين في العلوم الدينية يماري في دوران الأرض أو ينكر وصول الإنسان إلى القمر، إنه يعيش في مغارة سحيقة صنعها أشخاص لا يتصلون بحقيقة القرآن.. وإذا كنا قد أطلنا الكلام عن التسامي الروحي للإنسان فلنذكر أن القرآن ينشد التسامي العقلي والخلقي معا، كما يشدد على السقوط الفكري والسقوط النفسي، إنه يحارب الخرافة بالقوة نفسها التي يحارب بها الرذيلة، إن العلم بالمادة وبالفطرة الإنسانية وبالسنن التي تحكم الكون، هو ما جعل الإنسان ينظم إلى صفوف الملائكة في الشهادة لله الكبير بالتوحيد والعدل**[3] ، قال تعالى: **(شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم)**[4].

ما يلاحظ على هذا التناول الرائع أنه ساح في هداية القرآن واستجمع العناصر التي تحتاج إليها معالجة الموضوع فأحاط بقصة خلق الإنسان بدءا بما ميزه الله به من تنعيم وتكريم، إلى ما طلبه منه من تكليف، إلى شرح حكمة التكليف وعناصره، فبين الشيخ أن التكليف قائم، على مفهوم الابتلاء وأن النجاح والرسوب مرتبطان بالإرادة وأن عوامل

---

[1] نفسه ، ص18.
[2] المصدر نفسه ، ص18.
[3] المصدر السابق 20-21.
[4] آل عمران 18.

ضعفها من ذاتها ومن الشيطان والعلاج موجود في القرآن، وأن التكليف كما يقول على مفهوم الابتلاء يقوم على العقل الذي هو أساس الاستخلاف، والعجز العقلي رذيلة دينية كما هو العجز الخلقي، وبين الشيخ التوازن والتكامل الرائعين في القرآن بين طبيعة الإنسان وتنعيمه وتكريمه، وبين وظيفته واستخلافه وتكليفه، مشخصا أسباب الضعف موضحا علل التدين، واصفا العلاج من القرآن الكريم.

وقد تميز هذا العرض بحسن الاستشهاد بالقرآن، وتوظيف المعارف الكونية والدينية والاجتماعية، والفهم الدقيق للنصوص، وأكد ما اشترطناه في القسم النظري من تحصيل الحد الأدنى من المعارف الكونية والإنسانية لفهم هداية القرآن، والانتظام في سلك المفسرين عن جدارة.

كما تميز تفسيره بعدم الخروج عن معالجة القضية الأساسية وهي: العناصر الأساسية لقصة الإنسان في القرآن وكيف نستفيد منها في معالجة واقعنا؟ فكان التوفيق حليف الشيخ رحمه الله مرة أخرى.

فضلا عن معالجة موضوعات القرآن، اهتم الشيخ بعض الاهتمام بالمفردة القرآنية التي تلقي بظلالها على فهم قضايا معينة ملحقة بالموضوعات، كمفهوم الهجرة ودلالاتها في القرآن وسيرة النبي،[1] وأظهر منها تناوله لمفهوم لفظي: الحكمة والميزان في القرآن الكريم.[2]

2 . التفسير الموضوعي لسور القرآن

الشيخ الغزالي فارس هذا الميدان، وقد وفقه الله ففسر القرآن كله تفسيرا موضوعيا، توخى فيه الإيجاز واعتنى فيه بالوحدة الموضوعية للسورة القرآنية، واهتمامه بهذا النوع من التفسير قديم مارسه في خطبه وفي كتبه جميعا وباستقراء ما كتبه يمكن الخلوص إلى سمات التفسير الموضوعي لسور القرآن عند الشيخ الغزالي:

أولها: الإيجاز في التفسير مع استثمار الأسلوب الأدبي الرائق مما يواتي أسلوب العصر في تقديم المعارف، ويكفي أن تفسير القرآن كله لم يتجاوز عنده خمسمائة وخمسا

[1] أنظر خطب الشيخ محمد الغزالي، ج1، ص268
[2] أنظر: كيف نتعامل مع القرآن، محمد الغزالي، ص40

وعشرين صفحة، والإيجاز مقصود لديه، كما قال: "**أختار من الآيات ما يبرز ملامح السورة وأترك غيرها للقارئ يضمها إلى السياق المشابه وذلك حتى لا يطول العرض ويتشتت، والإيجاز مقصود لدي.**"[1]

ثانيها: تأكيده على محور السورة وموضوعها الكلي فهو غالبا ما يفسر السورة تفسيرا إجماليا ثم يعود فيدقق في الروابط الخفية التي تربط أجزاء الموضوع ويبحث في محورها الأساس وموضوعها الكلي، يصف منهجه هذا الذي يراه ملائما لطبيعة العصر فيقول: "**إني أريد أن أقول للقارئ خذ مثلا لسورة (آل عمران) وسوف تراها تدور على محورين: فنصفها الأول حوار مع اليهود والنصارى ونصفها الثاني تعليق على هزيمة معركة أحد وفي أواخر السورة حث للمسلم على الصبر على لأواء الجهاد المزدوج.. الفكر والحرب.. لأهل الكتاب والوثنيين**"[2] والمنهج نفسه نحاه الشيخ في تفسير سورة النساء حيث قال عن موضوع السورة: "**الثلث الأول من السورة حديث عن الأسرة وقضاياها، والأسرة هي المجتمع الصغير، والثلثان الباقيان حديث عن الأمة وشؤونها، والأمة هي المجتمع الكبير، فمحور السورة كلها العلاقات الاجتماعية وضرورة إحكامها وتسديدها.**"[3]

ثالثها: أسرار ترتيب الآيات في السورة الواحدة بحيث تشكل وحدة موضوعية وأن ذلك ليس رَكْنًا كيفما اتفق، يعتبر الغزالي ذلك قمة التدبر، بل نشعر في حديثه معاناة خاصة شبيهة بمعاناة برهان الدين البقاعي التي تحدثنا عنها في القسم النظري، وترددا شبيها بتردد أبي بكر بن العربي الذي ذكرناه سابقا، وبراعة شبيهة ببراعة أبي بكر النيسابوري.. لكن لا المعاناة ولا التردد استطاعا أن يثنيا من عزم الشيخ الغزالي، ومضى بعلمه الغزير وتواضعه الجم يشق طريق الكشف عن أسرار الترتيب الموضوعي لآيات السورة القرآنية، يفهم هذا من قوله: "**شعرت على ضوء ما أحسست من نفسي أن المسلمين بحاجة إلى هذا اللون من التفسير، كيف؟ لقد صحبت القرآن منذ طفولتي وما**

---

[1] نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم ، محمد الغزالي ، ص5.

[2] حوار ومراجعة مع الشيخ محمد الغزالي ، مجلة الفيصل ، ص11. وانظر أيضا : نحو تفسير موضوعي ، ص27.

[3] نحو تفسير موضوعي لسور القرآن ، ص48

زلت أقرؤه وأنا في العقد الثامن من العمر.. بدا لي أن ما أقبسه من معانيه قليل وأن وعيي لا يتجاوز المعاني القريبة والجمل المرددة، فقلت: إني ما قضيت حق التدبر فيه كما أمر منزله العظيم."[1]

ما هو حق التدبر الذي يراه الشيخ جديرا بكتاب الله العظيم؟ يجيب: "**يجب أن أغوص في أعماق الآية لأدرك رباطها بما قبلها وما بعدها وأن أتعرف على السورة كلها متماسكة متساوقة، ثم شعرت بأن همتي دون هذه الهمة، وكدت أتوقف، ثم قلت: لئن أقطع شوطا أو شوطين في هذا الطريق أفضل من استسلم للعجز في المراحل الأولى. لكن الله أعان ووفق فقطعت الطريق وبلغت نهايته"[2]**

يؤكد الشيخ على الوحدة الموضوعية للسورة وهو شديد العناية بها كما قال: "**لقد عنيت عناية شديدة بوحدة الموضوع في السورة وإن كثرت قضاياها."[3]** بل إنه يرى أن من الأخطاء الشائعة بين المسلمين أنهم "**يظنون الآيات تجمع في سورة من السور يركم بعضها فوق البعض الآخر، دون ترتيب أو ضبط أو تنسيق.. ركام من الأحكام ليس هناك ضابط ولا رابط في حشده وسوقه، وهذا خطأ كبير."[4]**

ومن حسن تدبر الشيخ لسور القرآن الكريم وحسن عنايته الشديدة بالوحدة الموضوعية أنه لم يقتصر على بيان محاور السورة والإبانة عن موضوعها الكلي بل "**تجده يجتهد في إبراز الروابط الوثيقة التي تجمع أول السورة بآخرها وتجعل آخرها تصديقا لأولها"[5]** وقد صرح الغزالي بذلك حين قال: "**..النظر المتغلغل في السورة الواحدة لمعرفة المحور الذي تدور عليه، والخيوط الخفية التي تجعل أولها تمهيدا لآخرها وآخرها تصديقا لأولها."[6]**

---

[1] نفسه، ص5.
[2] المصدر السابق، ص5-6.
[3] نفسه ، 5.
[4] خطب الشيخ محمد الغزال في شؤون الدين والحياة ن ج4،ص80.
[5] الشيخ محمد الغزالي رائد التفسير الموضوعي في العصر الحديث، مسعود فلوسي ، ص116.
[6] تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل ، ص128-129.

إن صورة السورة لا تكتمل عند الشيخ إلا بربط أول الطريق بآخره، وربط المقدمة بالنتيجة والسبب بالمسبب، والغرس بالثمر، ربطا عضويا كما هي حال أجزاء الجسم الواحد، من هنا اعتنى الشيخ بالعلاقة بين أول السورة وآخرها، مثال ذلك قوله في سورة الحجر: "**وقد لاحظنا أن آخر هذه السورة يؤكد أولها ويتجاوب معه، فعندما يتحدى عبيد الحياة أنبياءهم ويعترضون طريقهم ويظنون الدولة خالدة لهم يجيء في أول السورة قوله تعالى: (وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم ما تسبق من امة أجلها وما يستأخرون).[1] وهذا قول موجز تفسره أواخر السورة عندما تقص كيف هلك قوم لوط، وقوم شعيب، وقوم صالح.. إن الإناء يستقبل الأخطاء حتى إذا طفح بدأ العقاب، وربما فعل المجرمون الفعلة التي يجيء بعدها الهلاك.**"[2]

رابعها: مميزات كل سورة، فإنه يجتهد في الكشف عما تمتاز به كل سورة من خصائص تميزها عن غيرها من السور سواء من حيث موضوعها أو من حيث الأسلوب الذي تفردت به[3] يقول الشيخ في هذا المعنى عند تفسير سورة البقرة: "**خلال المتقين التي أحصتها سورة البقرة كثيرة، فقد تكررت مادة التقوى خلال السورة بضعا وثلاثين مرة لا تشبهها في ذلك سورة أخرى.**"[4] ويقول عن سورة الأنعام: "**تمتاز سورة الأنعام بخاصيتين شاعتا فيها هما: كثرة التقريرات و التلقينات لاستنقاذ العقل العربي مما تردى فيه.**"[5] وعن سورة الأعراف يقول: "**من لطائف التعبير أن يذكر بنو آدم في أول السورة والمقصود أبوهم وأن يذكر آدم في آخر السورة والمقصود بنوه.**"[6] ويقول أيضا عن سورة هود معلقا على ما رواه أبو بكر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم "**شيبتني هود وأخواتها** "[7] متسائلا عن سر هذا التشييب: هل هو مصارع الأمم التي حق عليها العذاب

---

[1] الحجر 4-5.
[2] نحو تفسير موضوعي لسور القرآن ، ص199.
[3] الشيخ محمد الغزالي رائد التفسير الموضوعي في العصر الحديث ، ص116.
[4] نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم ، ص11.
[5] المصدر نفسه ، ص91.
[6] المصدر نفسه ،ص 112.
[7] رواه الطبراني في الكبير ،ج17،ص286، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد :رجاله رجال الصحيح ، انظر: ج7، ص40.

بعد الضلال؟ هل هو تنكر الناس للرسول؟ ..الخ ثم قال: "**إن هناك شيئا لاحظته في هذه السورة لم ألحظه في غيرها كثرة التوجيهات التي تمس شخص الرسول وتتناوله بضمير الخطاب المفرد بين الفينة والفينة كأنما تشعره بما هو مكلف به من بلاغ.. وذلك بدءا من قوله تعالى: (فلعلك تارك بعض ما أوحي إليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل)،[1] في هذه الآية وحدها خطاب تكرر الضمير فيه ثلاث مرات متصلا ومرة واحدة منفصلا".[2]**

بعد ذكر هذه السمات التي ميزت تفسير الشيخ يحسن عرض أنموذج من تفسيره ثم تحليله بغية الاطلاع على مزيد من أسرار تفسيره . رحمه الله . وربطه المتميز بين أجزاء السورة وقد اخترت سورة الطلاق أو سورة النساء الصغرى.

. تفسير سورة الطلاق أنموذجا:

سر اختياري لهذه السورة أن الشيخ الغزالي نفسه حين أراد أن يضرب مثالا على التفسير الموضوعي للسورة في أحد كتبه اختار هذه السورة من بين كل سور القرآن التي فسرها، ولما حاولت معرفة السبب وجدت أن تفسيره لهذه السورة كان فتحا من الله وإبداعا حقيقيا، لاسيما في الربط المتميز بين الجزء الأول والجزء الأخير من السورة، هذا فضلا عن أهمية موضوعها وأهمية الاختيارات الفقهية للشيخ الغزالي ضمن تفسير السورة، وقد استجمعت تقريبا كل السمات التي أرادها الشيخ في التفسير الموضوعي للسورة القرآنية، ويتبين ذلك بعد عرض الأنموذج وتحليله.

يقول الشيخ الغزالي في تفسيره الموضوعي لسورة الطلاق: إنه "**يقوم على الوحدة المعنوية بين أجزاء السورة كلها وعلى تكامل الآيات وتماسك سياقها في إبراز حقيقة معينة.**"[3]

وقسم الشيخ الغزالي السورة إلى مقطعين الأول ينتهي عند قوله تعالى:(سيجعل الله بعد عسر يسرا) ليبدأ المقطع الثاني بقوله تعالى: (وكأين من قرية ..) إلى نهاية السورة.

---

[1] هود 12.

[2] نحو تفسير موضوعي لسور القرآن ،ص127.

[3] تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل ،ص132

يبدأ بشرح المقطع الأول الذي يبدأ بنداء للنبي صلى الله عليه وسلم: "**لأنه قائد الأمة وإمام الهدى، ومناداة الرسول في شأن يشيع بين أفراد الأمة كلها يشير إلى أن الأمر مهم.**"[1]

والسورة كما هو معروف تعرض أحكام الطلاق، وقد جاءت الاختيارات الفقهية للشيخ موافقة لما فهمه من تفسير السورة، وإن كانت بعض اختياراته مخالفة لقول جمهور أئمة المذاهب.. ليكن، فالشيخ لا يحجر على أحد ولا يحب أن يلزمه أحد بغير الكتاب والسنة، وهو إن اجتهد فهو أهل لذلك، لذا يقول في مقدمة تفسير هذه السورة: "**إنما اخترت من اجتهادات الأقدمين ما يناسب هذا التفسير ويوافق رأيي.. ولمن شاء مخالفتي فلست مكره أحد على وجهة نظري.**"[2]

يشرح الشيخ أسباب ظاهرة الطلاق ويبين أبعادها التي جعلت القرآن يهتم بوضع ضوابط لها فيقول: "**الواقع أن الطلاق يتجاوز الرجل الذي أوقعه إلى امرأته وأولادها وأسرتيهما فلابد من وضع ضوابط له حتى لا يكون صدوره بإرادة مفردة بابا إلى الطيش والتظالم، من هنا حدد الشارع له وقتا معينا فلا يجوز في أثناء الحيض والنفاس، ولا يجوز بعد طهر مس امرأته فيه، وينبغي أن يحضره شاهدان، وعلى الزوجة إذا سمعت الطلاق أن تبقى في بيت الزوجية، فليس ما سمعته إجهازا على الحياة الزوجية وإنما هو إنذار بالقضاء عليها وبقاؤها حيث هي مطلوب فقد تستأنف هذه الحياة مع تغير الظروف التي دفعت إلى الطلاق، فثورات الغضب قد تتلاشى وتتغلب بواعث الوئام خلال شهرين أو ثلاثة.**"[3]

في تفسير الشيخ جملة من الأحكام اختارها لأنها في رأيه تتفق مع هداية القرآن التي تحرص على صون مؤسسة الأسرة من التلاشي وإذا غلبت أو رجحت كفة الانفصال فالله سبحانه لا يريد للطلاق أن يتحول إلى كارثة اجتماعية وهو سر تكرار التذكير بالوقوف عند حدود الله والتزام التقوى في هذه السورة، يقول الشيخ: "**لاحظت أن الإيمان**

---

[1] المصدر نفسه، ص132.

[2] نفسه ص132.

[3] المصدر السابق، ص132

بالغيوب والانبعاث عن تقوى الله تكرر في الآيات والأحكام الفقهية حتى يمكن تفريج الأزمات العائلية الباعثة على الشقاق بالاعتماد على الله ومغالبة الأمر الواقع، وذكر الوحي الكريم تفصيلات للإنفاق في السراء والضراء وبيانا لحالات الإرضاع وغيرها، وبدا من الإرشاد الإلهي أن الله لا يريد أن يتحول الطلاق إلى كارثة اجتماعية كالحة وألا يفقد المسلمون أدبهم وتواصلهم."[1]

بعد بيان الشيخ لهدي الله في مسالة الطلاق يتوجه بنظره إلى واقع الأمة فيلوم المسلمين على ابتعادهم عن هذا الهدي وتساهلهم في مسألة الطلاق حتى تحولت إلى مأساة حقيقية، والشيخ لا يعترف بالطلاق البدعي، ويستهجن الحلف بالطلاق، ويرى فيه كفارة يمين، كما يستغرب أن يقع من المسلمين تعليق مصير أسرهم بمحقرات الأمور وتوافهها، كقول بعض الناس: عليّ الطلاق إن لم آكل كذا أو أشرب كذا أو أذهب إلى المكان الفلاني، وغير ذلك من التقاليد التافهة التي انتشرت في عصر الانحطاط وجعلت الآخر (الغرب) ينظر إلى سهولة الطلاق وميوعته عندنا نظرة إنكار "**وهي ميوعة اختلقها الناس ولا يعرفها الإسلام.. ويكاد يستحيل أن تسمع امرأة الطلاق وتبقى في البيت، كما يكاد يندر الطلاق داخل النطاق الذي رسمته السنة النبوية من طهر واعتزال وإشهاد.. والفقهاء المتربصون بمصير الأسرة المرحبون بتمزيق عرها لأتفه الأسباب والأقوال لا حصر لهم.**"[2] ونتيجة ذلك "**إضرار بالغ بسمعة الإسلام وانتشار رسالته.**"[3]

ينتقل الشيخ إلى المقطع الثاني من سورة الطلاق فيربط بينه وبين المقطع الأول ببراعة نادرة يقول: "**أنا أنظر إلى النصف الثاني من السورة على أنها امتداد وتكميل لنصفها الأول، وتحذيرٌ لأمتنا من اللعب بأحكام الطلاق**"[4]، فهو يرى أن تدمير بيت كتدمير قرية أو أمة، وهذه النظرة التي تجعل من الأسرة مجتمعا صغيرا ومن المجتمع أسرة كبيرة ليست غريبة عن فقه الشيخ، وهي نظرة عميقة بحق، أليس صلاح القرى بتكاثر عدد

---

[1] نفسه،ص133

[2] المصدر السابق ، ص133.

[3] نفسه، ص133.

[4] نفسه، ص 133

الأسر الصالحة فيها؟ أليس دمارها بدمار النواة التي تكونها؟ بلى.. لذا فليس بعيدا أن تكون البداية في تدمير القرى هي التراخي والتساهل في مجال الأسرة والعبث بما يشد عراها، وتراجع منزلتها والقضاء عليها دون اكتراث أو وجل.

ويزيد من وثاقة هذا الربط أن يقول الله في أحكام الطلاق: **(ذلك أمر الله أنزله إليكم)** ويقول في أسباب هلاك القرى: **(وكأين من قرية عتت عن أمر ربها)** يقول الشيخ الغزالي: "**إن السياق متماسك ولفظ الأمر واحد، ولا يجوز لأمة شرفها الله بالوحي والهدى أن تفرط وتعبث، وتجعل نظام الأسرة في مجتمعها لغوا**"[1].

وتختم السورة بقوله تعالى: **(الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علما)** يقول الشيخ: "**تختم السورة بهذه الآية الدالة على أن الله خلق الكون لنعرفه، وأنزل الوحي لنتبعه، وبين الكون الدال على الله في صمت.. والوحي الهادر.. يعرف المسلمون طريقهم.**"[2]

تحليل وملاحظات

ما يلاحظ على تفسير الشيخ الغزالي للسورة أنه لم يحد عن منهجه المعتاد، فبين هدي الله في أحكام الطلاق دون أن يحول التفسير إلى درس في الفقه، ودون أن يهمل الأحكام الفقهية التي نبه إليها القرآن في هذه السورة، ثم ألقى نظرة على واقع المسلمين يشخص الداء ويطلب من القرآن الدواء، ويحث المسلمين على الأخذ به وترك ما ألفوه من عادات تخالف مضامين الوحي ومقاصده.

وما تميز به تفسيره لهذه السورة هو الربط الرائع بين جزأيها وبيان هدفها في حفظ الأمة بحفظ كيان الأسرة، ودخول كل ذلك تحت جناح طاعة الله ومرضاته وامتثال أمره وكسر شهوات النفس والأنفة الزائفة والرجولة المفتعلة.. كما تميز تفسيره بالإيجاز والاختصار مع إيفاء المعاني حقوقها، فكان هذا التفسير بحق موفق.

---

[1] نفسه، ص134
[2] المصدر السابق ، ص134

المطلب الثاني

خصائص التفسير الموضوعي عند الشيخ الغزالي

يمكن أن نستخلص الخصائص المنهجية لتعامل الشيخ الغزالي مع القرآن الكريم، وتحديدا في تفسيره الموضوعي للقرآن من مجموع ما كتب، وسنرى بأن هذه الخصائص تتناغم تماما مع ما سبق ذكره من حقيقة التفسير الموضوعي عنده ومع ما سيتلو بيان الخصائص من بحث الغايات والمقاصد..

الخاصية الأولى: القرآن حقيقة واحدة

يتعامل الشيخ الغزالي مع القرآن في ظل الوحدة الموضوعية والمنهج الجامع الذي يعتبر القرآن حقيقية واحدة لا تفاوت بين وجوهها ولا اختلاف ولا تضاد وأن كلام الله يفسر بعضه بعضا ويصدق بعضه بعضا كل آية فيه تكمل الأخرى، وكل سورة تتمم غيرها، يقول . رحمه الله . واصفا منطقه هذا في التعامل مع القرآن: "**كما أتناول على المائدة مجموعة من السكريات والنشويات والدهنيات وما إلى ذلك في طعام واحد وفي أغذية واحدة، في وجبة واحدة، فكذلك يتقدم القرآن إلينا برسالة حياة شاملة لا تدع جزءا منها إلا وتمتد لتشمل الرأس والقدم، والجهاز يدور في كل شيء ليعطي الحياة لكل شيء، وبذلك نستطيع أن نقول: إن الرؤية القرآنية لا يمكن إلا أن تكون حضارة كاملة.**"[1]

يرى الشيخ القرآن مصدر حياة ينفذ إلى جميع أجزائها فيغذيها، كما ينفذ الغذاء إلى جميع أجزاء الجسم، وأكد على هذا المعنى عند شرحه قوله تعالى: **(اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى)**[2] فقال: "**الدخول في مسألة اقتصادية واجتماعية معا، عندما يترف وينعم ويجيئه المال ويستكبر به.. هذه المعاني المتباعدة في ظاهرها، هي القرآن الذي يكون مائدة متماثلة في ما ذهب من حقائق الحياة وعناصرها لمن**

---

[1] كيف نتعامل مع القرآن ، محمد الغزالي ، ص70-71.

[2] العلق 1-7

يسمع وينفذ، فلا بد من هذا الشمول في النظر، والنظرة الجزئية وحدها تكون غير كاملة لأنها انقطعت عن بقية الصورة".[1]

وقد سبق في تفسير الشيخ للسورة القرآنية ما يدل على اهتمامه الشديد بالوحدة الموضوعية للسورة وللقرآن الكريم كله.

الخاصية الثانية: واقع النص وواقع الحال

يرى الشيخ أن لا معنى لتناول القرآن الكريم ككتاب معزول أو منفصل عن واقع الناس، لا ينظر في أحوالهم ولا يداوي عللهم، هذه قضية تأباها طبيعة الكتاب لا مكان مع القرآن لتدين سلبي أو تدين يخدر الناس.. القرآن مصدر إشعاع ونهضة وإصلاح، وفي جل ما قدّم الشيخ من تفسير لا تنفك الهداية عنده عن تشخيص الواقع وتقديم رؤيته للداء والدواء، فهو يتحدث بهذا المنطق وهذه الروح عن كتاب الله فيقول: "**لم أنس وأنا اكتب أن أمس قضايا دينية واجتماعية تشغل بال المسلمين وبال العالم كله، فإن العلم المعزول عن الواقع لا سبيل له في قلبي ولا في لبي، والقرآن نفسه كتاب لا يستطاع عزله عن الحياة أبدا، وهل نزل إلا ليخطئ أو يصوب من أفكارها؟ وإلا ليمحوا ويثبت من أحوالها؟ إنه كتاب الحياة المفعمة بالحركة المتجددة على الدهر ولكنها الحياة القائمة على الحق الدارجة على الصراط المستقيم**"[2]، تسري هذه الروح في تفسير الشيخ الغزالي كله، ولعل هذا النظر المتدبر في القرآن المستصحب لواقع الحال هو ما جعله يؤكد على أهمية أسباب النزول وملابساته في التعامل مع نص القرآن ، فهو يصرح بأننا "**لكي نفهم القرآن فهما صحيحا لابد أن نفهم الأحداث التي عاصرته، وأن نعي الأحوال التي قارنت نزوله فإن آيات القرآن وثيقة الارتباط بالظروف التي جاءت فيها، وفقه هذه الظروف جزء من فقه الهداية السماوية**"[3] وقد اهتم الشيخ الغزالي في تفسيره عمليا بهذه المعاني، وتفسيره تميز ببيان الهدايات والمعاني مصحوبة بجو السورة أو الآيات التي يفسرها، فهو يشرح القرآن في ظل واقع السيرة النبوية، ويروي السيرة في ظل معاني القرآن، فيهتم اهتماما بينا

---

[1] نفسه 71-72.
[2] نظرات في القرآن ، ص4.
[3] نفسه ،ص15.

بأجواء التنزيل الاجتماعية والتاريخية والنفسية، ومن الأمثلة التوضيحية على هذا ما فعله عند تفسيره سورة النساء، حيث عرض للعلاقة بين المسلمين واليهود وبيّن . على ضوء السيرة . حرص المسلمين على كسب قلوب اليهود واستمالتهم إلى الحق، لكن اليهود كانوا "**عند أسوأ الظن فما بالوا بعهد ولا بجوار وقدموا إلى الإسلام كل ما يستطيعون من إساءة**"[1]، وفي سياق تفسيره الآية (111) من سورة النحل استحضر الشيخ ما نزل بمكة من أحكام قليلة، وجعله دليلا على أن لفظ "التبديل" في الآية لا يخص الآيات التشريعية، ورفض بناء على ذلك ما روي من سبب نزول هذه الآية، لأنه لا يتفق مع حقيقة الواقع الخارجي.[2]

وتفسير الشيخ مليء بما يدل أنه يراعي واقع النزول في تفسير القرآن، لكن الواقع عنده ليس هو فقط واقع النزول، بل كذلك واقع الحال الذي تعيشه الأمة الإسلامية، التي شرفها الله بالوحي الأعلى، وعليها تقع تبعات إصلاح نفسها به وتقديمه للعالم في أبهى حلة، فالعالم اليوم "**محتاج إلى أمة تضرب المثل من نفسها في عبادة الله والحديث عن أمجاده ووصاياه، وتلك هي الأمة الإسلامية، على أن هذه الأمة المكلفة بحمل الدين يجب أن تكون مالكة لزمام الأرض سيدة على مرافق الحياة المختلفة.**"[3]

يؤكد الشيخ في تفسيره على دور الأمة الإسلامية وما ينبغي عليها فعله للقيام بهذا الدور، وفي جلّ كتبه يشرح واقع المسلمين الأليم، وواقع الحضارة المادية الكاسح، ويعلم أن شمس السعادة لا تطلع على البشرية إلا إذا ساد الوحي العالم، وأن هذه المسؤولية أولا وأخيرا تقع على الأمة الإسلامية في معالجة أدوائها، ومن ثم تبليغ رسالة ربها وهي صحيحة قوية مكينة، وإلا فالناس لا يصيخون سمعهم لأمة يأكلها الجهل ويحيط بها الضعف من كل جانب، وقد استصحب الشيخ هذه الخاصية في كل مقام اقتضاها فيه تفسيره.

الخاصية الثالثة: أثر المعرفة في تفسير القرآن

[1] نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم ،ص 51

[2] انظر : نظرات في القرآن ، ص202.

[3] نحو تفسير موضوعي لسور القرآن ، ج2،ص46.

من أهم خصائص التفسير عند الشيخ الغزالي قيامه على حقيقة التكامل بين الدين الحق وحقائق العلم الكوني والإنساني، فإن الجهل بآيات الله وأسرار ما خلق في هذا العالم من سنن في الكون والنفس والاجتماع، ينتج عجزا ثقافيا يحول دون فهم الدين الصحيح، في هذا المعنى يقول الشيخ: "**إن القراءة أي الثقافة هي الشيء الوحيد الذي يعطي فكرة صحيحة عن العالم وأوضاعه وشؤونه، وهي التي تضع حدودا صحيحة لشتى المفاهيم، وكثيرا ما يكون قصور الفقهاء والدعاة راجعا إلى فقرهم الثقافي، والفقر الثقافي للعالم الديني أشد في خطورته من فقر الدم عند المريض.. لابد للداعية إلى الله أن يقرأ كل شيء.**"[1] ويرى الشيخ الغزالي نفسه رائدا وممهدا لمدرسة "**تقوم على الاستفادة التامة من جميع الاتجاهات الفكرية والمذاهب الفقهية في التاريخ الإسلامي، كما ترى الاستفادة من كشوف الفلسفة الإنسانية في علوم النفس والاجتماع والسياسة والاقتصاد والتاريخ، ومزج هذا كله بالفقه الصحيح للكتاب والسنة**"[2].

يريد الغزالي للأمة أن تتعامل مع كتاب ربها بصفته نصا يطلق طاقاتها في آفاق الكون وأسرار النفس، لا تعامل انغلاق وانكفاء يصرف النظر عن المعارف الدائرة في العالم بدعوى كفاية ما في الكتاب والسنة.. إن الأمة لن تزن ما عندها وزنا صحيحا ما لم تعرف ما يدور حولها في العالم من اتجاهات وأفكار وفهوم.

ويرى الغزالي في هذا الخصوص أن القرآن كتاب كل زمان، ومهما كان الزمن ممتدا فإن القرآن أوسع مدى، وأن وقتنا الحاضر الذي اتسعت فيه المعارف الكونية والإنسانية يسهم في تفسير القرآن، وهذا ليس غريبا كما يقول الشيخ: "**لو تتبعنا رحلة المفسرين حسب العصور نرى أن علماء كل عصر من خلال معارفهم وكسبهم العلمي عندما ينظرون في القرآن يعودون بمردود إضافي متوافق مع آفاقهم العلمية والحضارية، ولو أخذنا نماذج من المفسرين من كل عصر لوجدنا أنه أضيفت معان للرأي من خلال كسب البشر والتقدم العلمي.. فقدرة القرآن على العطاء مع امتداد الزمن**

[1] خطب الشيخ محمد الغزالي ،ج1،ص14.
[2] المصدر نفسه، ج1، ص15

دليل خلوده.. وكلما اكتشفت آية من ألآيات دلت على خلود القرآن وحقائقه."[1] (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد).[2]

ومن المعاني المميزة لتفسير الشيخ الغزالي، والمكملة لما سبق، أنه ينظر إلى القرآن على أنه مواز للكون، فكما أن الكون مفتوح على مزيد من المعرفة والكشوف، فكذلك القرآن، الكون لا نعرف له حدودا والقرآن لا تنقضي عجائبه، واستصحاب أسرار الكون المنظور في عملية التدبر يعين على فهم أسرار لكتاب المسطور.

هذه الخاصية المنهجية جعلت من التفسير الموضوعي عند الشيخ الغزالي تفسيرا مفتوحا على جميع التخصصات العلمية، فكل عالم في مجال تخصصه يفهم من القرآن ما لا يفهمه غيره، وإذا ألمّ عالم الكونيات . مهما كان تخصصه . بقدر محترم من معرفة اللغة و الشرع، فلا ينبغي أن يحجر عليه في فهم ما لم يفهمه غيره من معان القرآن، وقد يستخرج من كنوز المعرفة القرآنية ما قد يفيده في مجال تخصصه أيضا علميا كان أم إنسانيا.

ومن مظاهر موازاة القرآن للكون، وحدة الموضوع بينهما وإن كان القرآن كتاب هداية لا كتاب علم متخصص، يقول الشيخ الغزالي: "**لنتفق أولا على أن القرآن ليس كتابا فنيا في علم من العلوم فهو كتاب في هداية الإنسان، لكن بعضهم يرى إعجاز القرآن علميا.. يكفي أنه مع تقدم العلوم ما ذَكَرَ جملة يمكن أن يقف العلم عندها منكرا، وهذا هو المستوى الأدنى**".[3]

ثم يذهب الغزالي إلى مستوى آخر . غير هذا المستوى الأدنى . من أجل فهم سر هذا التوافق بين القرآن والكون يقول: "**القرآن ينظر إليه ربنا جل جلاله على أنه يضارع الكون، كأن الكون إذا وضع في كفة والقرآن وضع في كفة فكلاهما يوازي الآخر.. عندما أراد ربنا أن يتكلم عن بركته سبحانه وامتداد نعمته، ذكر مرة القرآن ومرة الكون:**

[1] كيف نتعامل مع القرآن ، محمد الغزالي ،ص 206.
[2] فصلت 53
[3] المصدر السابق ،ص 212.

(تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير)، (تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا)[1] وفي المعنى ذاته، في معرض حديث الشيخ عن الرؤية القرآنية للكون المادي والمعنوي يقول: "**لكي أشرح شمول القرآن الكريم يجب أن أضرب مثلا.. إن القرآن يشبه الكون الكبير الذي نعيش فيه، بل إن اعتبار القرآن كونا معنويا يضارع الكون المادي الذي خلقه الله سبحانه وتعالى.. وهو يقسم بعظمة الكون على عظمة القرآن: (فلا اقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم إنه لقرآن كريم في كتاب مكنون)**[2]**، إنه يقسم بعظمة أحد الكونين على الآخر.**"[3]

هذه الموازاة متغلغلة في تفسير الشيخ فهو دائم المطابقة بين حقائق القرآن وحقائق الكون، ويرى أن الإيمان نفسه . كما هو منهج القرآن في بنائه . يقوم على تعرف آيات الله في الآفاق والأنفس، فهو يربط ربطا عضويا بين عمق الإيمان وحدة النظر في خلق الله، ويرى أن التملي من جو القرآن يدفع إلى الالتحام بالكون وأسراره، فالقرآن كون ناطق والكون قرآن صامت.

الخاصية الرابعة: العقل الكبير والوجدان الصادق

يتعامل الشيخ الغزالي مع القرآن على أنه كتاب يقنع العقل ويحرك المشاعر، ولا يختل التوازن بين العقل والعاطفة إلا كان ذلك قصورا في فهم خطاب القرآن ووظيفته، ووبالا على الأمة "**إن الإنسان عقل وقلب والظن بأن يقظة القلب ما تتم إلا مع خمول الفكر وازدراء الدنيا خطأ فاحش، وكذلك الظن بأن سيادة العقل ما تتم إلا بالتضحية بالإيمان خطيئة كبيرة**"[4].

والقرآن كتاب يهدي الناس بتربيتهم على القيم النبيلة والمشاعر السامية ويستميل قلوبهم رغبة ورهبة قبل أن يأمرهم وينهاهم، لذلك حين يتكلم الشيخ عن الموضوعات القرآنية يقسمها قسمين: قيم وأحكام، ويرى أن طريق التربية بالقيم أجدى، يقول في هذا

---

[1] الملك 1. الفرقان 1.على الترتيب انظر: كيف نتعامل مع القرآن ، ص 213.
[2] الواقعة 75-79
[3] كيف نتعامل مع القرآن ،ص85.
[4] ركائز الإيمان بين العقل والقلب ، محمد الغزالي ، ص21.

المعنى: "**القرآن يبني الأفراد والأمم بطريقتين إحداهما أعظم من الأخرى، الأولى صوغ الأنفس على معرفة الله واستشعار عظمته والتهيؤ لملاقاته، والأخرى الأحكام المحددة التي فصّلها وطلب من عباده إنفاذها في أحوالهم الخاصة أو في الأسرة والمجتمع والدولة.. والأولى أعظم، لأن ضمانات الخير في مجتمع ما ليس في القيام ببعض التشريعات، فربما أمكن احترام القوانين من ناحية الشكل، والقرآن الكريم يعالج الأمم بما يوفره لها من سلامة الجوهر واستقامة الطبع، ومن ثم حفل بفنون لا تحصى من العظات التي تقيم الحياة الباطنة على دعائم التقوى والخشوع والإخلاص**"[1]، فالقرآن الكريم يتوجه إلى كافة ما يلمسه الناس في كيانهم من قدرات في العقل وطاقة في النفس . أو هكذا يجب أن ينظر إليه . ليحقق ذلك الهداية المرجوة فهو يجيء "**إلى البشر أجمعين ليبني قواهم على الحق ولينشأ عواطفهم على الخير.**"[2]

لا يغيب عن الشيخ الغزالي وهو يفسر القرآن أو يتحدث عن دوره وخصائصه، أن يلفت الانتباه إلى أن انحرافا وقع في الثقافة الإسلامية فتمزقت مكونات الكيان الواحد مما كان له الدور السلبي الكبير في عالم التربية حيث أنتج فريقين من المسلمين من سموا بأهل الفقه أو أهل الشريعة تجدهم أميل إلى الرسوم والأشكال التي لا روح فيها، ومن غلب عليه التصوف يزعم بأنه أهل الحقيقة ينال التقى من غير طريق العلم الشرعي، وراحوا يقسمون الأعمال إلى عمل شريعة وعمل حقيقة، أو عمل الإسلام وعمل الإيمان وعمل الإحسان.. ويصورون أن الكتاب والسنة أقسام وهما في ميزان القرآن حقيقة واحدة[3]، والحق أن ليس في دين الله "**أهل شريعة وأهل حقيقة، ولا انقسم الوحي الإلهي إلى فريق لهؤلاء وفريق لؤلئك.**"[4] والذي جعل هذا التمزيق المفتعل يتوسع . في نظر الغزالي . هو أداء العبادات بما لا يطهّر قلبا، ولا يزكي نفسا، "**فأسوأ ما يعتري الفرائض المكتوبة والعبادات الرتيبة أن يؤديها المكلفون وهم في شبه غيبوبة لا تلاحق عقولهم معانيها، ولا تحصل**

---

[1] الإسلام والطاقات المعطلة ، محمد الغزالي ، ص64.

[2] نظرات في القرآن ، ص7.

[3] انظر : الجانب العاطفي من الإسلام، ص18.

[4] ركائز الإيمان بين العقل والقلب ، ص111.

نفوسهم حكمتها.. والتكاليف الدينية يوم تؤدى على أنها عادات مجردة ليس معها الصحو العقلي المطلوب تصبح إلى الأدواء أقرب منها إلى الأدوية".[1]

مع أن الدين الحق ليس قراءة نظرية.. فإذا لم يكن الدين كبحا للهوى وامتلاكا للطبع فلا خير فيه ولا جدوى منه، وقد أكد القرآن أن تزكية النفس الإنسانية هي الغاية من شتى التكاليف، والتزكية المنشودة.. هي تصفية المعدن الإنساني من شوائبه وجعل الغرائز كلها تحت رقابة العقل المؤمن فلا تطغى ولا تجمح "[2]

لا ينسى الشيخ . أيضا . أن يذكر أن الحضارة الحديثة ارتقت كثيرا في ميادين الكشوف الكونية، بيد أن ذلك ليس تقدما إنسانيا حقيقيا طالما أن "**الأثرة الفردية والجماعية ضريت مع هذا التقدم و تفاحشت الشهوات والمظالم وظهر الفساد في البر والبحر واتسعت دائرة الإلحاد والتدين الجاهل.**"[3]

يخلص الشيخ إلى القول: "**لابد من عمل يقوم به المرء في صقل نفسه حتى تصلح.. عمل مرهق جاد يكسر الرغبة الجامحة ويخضع الإنسان لوصايا الرحمن.. وأشكال العبادات لا تصنع ذلك التغير الحاسم.. إذا لم تمح الصلوات الحسد والحقد من نفسك فلا صلاة لك.. السجود الحقيقي ليس هو انطواء الجسم أمام الله بل هو انقياد القلب لهدايته ووصاياه.**"[4]

بهذا الفهم العميق يشرح الغزالي القرآن ووظيفته، وكل من مزق بين العقل والقلب، أو النفس والجسد، أو المادة والروح، أو الدنيا والآخرة، فهو عند الشيخ . وفي واقع الأمر . بعيد عن هداية القرآن قاصر في التعامل مع حقائقه، وما الأدواء التي ظهرت في الشرق والغرب إلا نتيجة للابتعاد عن هدي الله في هذه المسألة، **مسالة تربية النفس على الإذعان لأحكام العقل ومواثيق الفطرة** التي جعلها الشيخ الغزالي من أهم خصائصه المنهجية في التعامل مع كتاب الله.

---

[1] المصدر السابق، ص108.
[2] تراثنا الفكري بين الشرع والعقل ،ص87.
[3] المصدر نفسه ، ص87.
[4] المصدر نفسه،ص88.

الخاصية الخامسة: توسيع دائرة الشهادة وتضييق دائرة الغيب

ذكرها بعض الباحثين تحت هذا العنوان[1]، وهي ملاحظة مهمة إذ يرى الشيخ أن من كبريات ما أصاب العقل المسلم من خلل، ومن بدع ألمت بالأمة، تلك التفصيلات والتفريعات التي هاموا بها في الخيال يستكنهون عالم الغيب ويتجادلون حول حقائقه التي لا يملكون موازين الحكم فيها، وهاموا في السماء ليتركوا الأرض التي استخلفوا عليها لغيرهم يعبث فيها كيفما يشاء، وهم مستأمنون من رب العالمين على الأرض.. على عالم الشهادة، لا على تفاصيل الغيب التي حجبها الله عن الناس، ورجل لا يعرف من الدين إلا الفرائض التي تنجيه من النار ويعمل بجد لسد حاجة ما من حوائج المسلمين أولى بالتقدير . في منطق الشيخ الغزالي . من رجال دين معمّمين يتجادلون طوال عمرهم في مسائل من الغيب لا تقدم ولا تؤخر.. إن الشيخ يضيق صدره بمن يفتح معارك الغيب وهو مهزوم في عالم الشهادة، وبعد سوق طرف من معارك القوم في علم الكلام يقول: "**كلا الفريقين ابتعدا عن سلف الأمة منطقا ومسلكا ولو أن أمتنا شغلت نفسها بهذا اللون من المعرفة أول تاريخها لبقي الإسلام محصورا داخل جزيرة العرب.. توجد اليوم عصابة تريد أن تسعّر النار وأن تصبّ الزيت في الفرن الذي خمد لتعيد اشتعاله.. وتقع هذه المحاولات المجنونة . في سنوات عجاف . يأكل فيها المسلم رغيفه من علم الغرب وعمله، والمضحك المبكي أن هؤلاء المتعالمين يصنعون المعارك على قضايا الغيوب وهم يتسولون فتات المعارف الأرضية ممن غلبوهم على أرضهم، وانفردوا بزمام الحضارة وحدهم.. إنهم يقاتلون لإثبات أن الله خلق آدم على صورته فإذا غلغلت البصر في شؤونهم وجدت أن انتسابهم لآدم هو من ناحية الجسد أما من ناحية أن الله علم آدم الأسماء كلها فالقوم يسمعون عن غزوا الفضاء وتسخير الذرة.. وإنما ينادون من مكان بعيد..**"[2]

---

[1] الإمام محمد الغزالي ،جهوده في التفسير وعلوم القرآن ، رمضان حسن الغريب ،دار الحرم للتراث،1423هـ-2003م، ص272.

[2] تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل ، ص57-58.باختصار .

وما يضير المسلمين لو آمنوا بالعقيدة كما غرسها القرآن وراحوا يجاهدون حيث طلب منهم جهاد النفس والبدن، إن المسلك الذي يوسع البحث في الغيبيات ويعجز عن الإصلاح في الأرض، لهو بكل المقاييس بعيد عن هدي القرآن، وهذا هو ما شرحه الشيخ في كثير من كتبه، وهو بعض السر في تركيزه على مبدأ السببية ومحاربته كل ما يمكن أن يكون مدخلا للخرافة مهونا من شأن العقل، يقول عن المؤمنين الحقيقيين: "**الخواص من عقلاء المؤمنين أدق تفكيرا وأصدق أحكاما من أندادهم من الملحدين، لأن العالم الملحد قد يحيط علما ببعض آفاق الوجود لكنه يجهل أو يجحد الحقيقة الأولى فيه.. كما أن خواص المؤمنين أرجح عقلا وأصوب حكما فإن معيشة الاستقامة التي يعيشونها تجعلهم أهدى سبيلا وأقوم قيلا وقد رمقت الأجيال الأولى من المسلمين السابقين فوجدتهم أنشط عقولا وأسلم وجهة وأحكم سياسة من غيرهم، ولم يحدث بتة أن كان الإسلام قيدا على انطلاقهم الفكري أو عائقا دون اقتحام المجاهيل المادية والأدبية، كانت آيات القرآن الكريم باعثا هائلا على إحياء الموات الذهني والاجتماعي حيث تليت..**"[1]، هكذا يرى الشيخ أن الآيات كانت، وهكذا يرى أنها يجب أن تعود إلى دورها، وبالتالي يجب التعامل مع القرآن الكريم في هذا الإطار الذي يطلق الفكر ويدعمه ويجعل آيات الكون علما على الإيمان الحق "**حتى لا يتحول الإيمان بالغيب إلى إيمان بالوهم أو إيذان بالفوضى**" كما قال الشيخ رحمه الله [2].

الخاصية السادسة: تقديم ظاهر القرآن على خبر الواحد

ذكرها بعض الباحثين أيضا[3] وهذا صحيح بين في فقه الشيخ الغزالي للقرآن، فإنه يحكّم الدلالات القريبة والبعيدة للقرآن، ويأخذ بظاهره، وهي عند الشيخ الغزالي قناعة مذهبية يوافق فيها إمام مذهبه أبوا حنيفة النعمان . رضي الله عنه . وهي من صميم فقهه، ولعل الغزالي استحسن هذا المذهب لطول مصاحبته للقرآن وخبرته في مواجهة التحديات به، وقد رأينا في علاقة القرآن بالسنة في فكر الشيخ أنه يقرر أن القرآن أولا والسنة ثانيا،

---

[1] ركائز الإيمان بين العقل والقلب ، ص79

[2] المصدر نفسه ، ص79.

[3] الإمام محمد الغزالي جهوده في التفسير وعلوم القرآن ، ص 229.

وما وثّق هذا التوجه عنده هو صنيع الفقهاء مع أخبار الآحاد، فما من فقيه إلا ورد بعض الأحاديث لما ترجح عنده من أدلة أقوى منها، بصرف النظر عن هذا الدليل أهو عمل أهل المدينة؟ أم ظاهر القرآن؟ أم غير ذلك.. "**الأحناف يقدمون ظاهر القرآن على حديث الآحاد، والمالكيون يقدمون عمل أهل المدينة.. باعتباره أدل على السنة من حديث راو واحد، وقد أمضى مالك القصاص للفرع من الأصل إذا كان الأب القاتل مصرا مغتالا، وترك الحديث الوارد بمنع هذا القصاص مع صحة سنده..** [كما أن الشيخ لاحظ أن الأخذ بظاهر القرآن أولى من بعض المرويات الصحيحة التي أسيء فهمها أو التي لا تصح، ومسلك الشيخ الغزالي هذا ليس غريبا بل هو في اعتقادي هو مسلك جمهور العلماء والفقهاء، فمن الثابت في علم الأصول أن الترجيح . عند تعذر الجمع . يقتضي الصيرورة إلى أقوى الدليلين والشيخ يرى عدم الأخذ بخبر الآحاد إذا خالف اليقين] يقول: "**علماؤنا فيما يرى جمهورهم يرون أن خبر الآحاد مصدر من مصادر الحكم الشرعي في الفروع، ولكنه يهمل إذا كان هناك دليل أقوى منه.. يرى الأحناف أن الأقوى ظاهر القرآن أو القياس القطعي.. ويرى المالكية أن الأقوى هو عمل أهل المدينة.**"[1]

الحقيقة أن مذهب الغزالي هذا ينسجم تماما مع منطقه القرآني وهو يبين ذلك صراحة فيقول: "**المأساة التي نعاني منها ونخشى بلاءها على الصحوة الإسلامية تجيء من قبل قوم يسمون أنفسهم الإخوة أهل الحديث نلحظ عليهم عيوبها ثلاثة: اكتراثهم بالمرويات الواهية وبناء العلالي عليها، ثم سوء فهمهم الصحاح وتعصبهم لما يفهمون من أخطاء، ثم عجزهم عن إدراك الحكمة القرآنية ووقوفهم بعيدا عن محاور القرآن وغاياته.**"[2] إنه يرى القرآن وهدايته ميزانا يضبط حكمة الإسلام كله، ويجب أن يكون مقدما على غيره، وحين تتفلت هداية القرآن من بين أيدي المسلمين فلا السنة تفهم فهما صحيحا، ولا العقل يشتغل بحكمة، ولذلك لا يقدم الشيخ بين يدي الدلالات القرآنية شيء.

الخاصية السابعة: التعامل مع القرآن ككتاب هداية

---

[1] كيف نتعامل مع القرآن ، ص114.

[2] السنة بين أهل الفقه وأهل الحديث ، محمد الغزالي ، ص80-81.

يعرف القرآن بنفسه في قوله تعالى: **(قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى نور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم)**[1] البعد الهدائي في تفسير الشيخ الغزالي حاضر باستمرار، فتفسير الشيخ يركز على أن القرآن منبع للهداية والإرشاد والتربية وميزان يعين على العلم الصحيح والعمل الصالح، فليس التبرك بالقرآن وتوقيره الشكلي هو ما ينجي المسلمين يوم القيامة، ولا ما يوصلهم إلى التمكين في الدنيا، لكنه الامتلاء بنور هدايته وتحويل أحكامه وحكَمه إلى عمل مثمر، فأمة القرآن ليست على شيء حتى تقيم القرآن، من هنا عارض الشيخ كل ما يغطي على هداية القرآن في التفسير من تفاصيل واستطرادات، وحارب كل القيم والأفكار البعيدة عن الهداية القرآنية مما شاع بين المسلمين، كإشاعة القول بالجبر الذي يثبط الهمم ويقتل الإرادة ويوحي بالاستخفاف بالعمل الصالح، وكل هذا ينهى عنه القرآن وتأباه هدايته، إن التفسير الهدائي في نظر الشيخ الغزالي يجب أن يعالج أمراض الأمة ويركز على قيمة العمل الصالح واتخاذ الأسباب وحرية الإرادة ومسؤولية الناس في تحديد مصائرهم وصناعة أقدارهم بأنفسهم في دنياهم وآخرتهم، وما التوفيق الرباني و الهداية الإلهية إلا تيسير لليسرى أو تيسير للعسرى، على حسب ما اختار الناس لأنفسهم من عاقبة، فمن صدق في طلب رضوان الله ومحبته، فلن يخذله الله أبدا، ويجد العبد الصالح من ربه نعم العون، ومن اختار غير ذلك وأنكر آيات الله، فلا يطمع في غير المصير المخزي، ومثل محاربة الشيخ للجبر حارب الانعزال عن الدنيا، وإيثار الفقر على الغنى، وما إلى ذلك من القيم التي شاعت في غفلة من المسلمين عن هداية قرآنهم في عصور الظلام، وتفسير القرآن من أهم وظائفه أن يستدعي هذه الهداية ويعيدها إلى الساحة الثقافية والعملية الإسلامية وكذلك فعل الشيخ الغزالي في جل ما كتبه من تفسير.

المطلب الثالث

غايات التفسير الموضوعي عند الشيخ الغزالي

---

[1] المائدة،15.

أصبح بينا مما عرضناه عن الشيخ الغزالي وفقهه للقرآن والحياة عموما أنه رجل القرآن والدعوة والإصلاح، وأن من أخص خصائص فكره أن الدين لا ينفصل عن العقل والفطرة والوجدان، وأن المعرفة لا تنفك عن الفضيلة، وأن النص لا يفهم خارج سياق الواقع، ومن ثم فحين يهتم كل هذا الاهتمام بالتفسير الموضوعي بأنواعه، وحين يفضله على خيره كمنهج للتعامل مع النص القرآني، وحين يرى أن المستقبل له، وأنه الأنسب للعصر والأنفع للأمة، والأجدر بتقدير العلماء، فذلك لأجل جهاد الدعوة وإصلاح الأمة وليس لأمر عابر أو ظرف طارئ ولولا أن خبرته . رحمه الله . في التعامل مع القرآن برهنت له أن فيه الجدوى والفائدة الحقيقية للإسلام والمسلمين ما خاض فيه ولا استحسنه أصلا، والشيخ فوق هذا قليل الاهتمام بالتنظير، كثير الاهتمام بالمنفعة العملية والنتائج الملموسة، لذا خاض في التفسير الموضوعي بالممارسة خطابا وتأليفا، ولا يمكن الفصل عنده بين التفسير الموضوعي والبعد العملي والتطبيقي، وبين الهداية القرآنية وأثر القرب منها أو البعد عنها على الأمة الإسلامية في الماضي والحضر والمستقبل، وإذا جئنا نستقرئ أهم الغايات والأهداف التي رجا الشيخ تحقيقها من خلال تفسيره الموضوعي لسور القرآن وموضوعاته نجد أهمها:

1. تقديم الحقيقة المتكاملة والصورة الكلية للإسلام

وقد فعل الشيخ ذلك من خلال تفسيره الموضوعي وتقديم نماذج لموضوعات قرآنية، وهو بهذا يؤكد أن القرآن أساس الإسلام، ومنه وحده تؤخذ الأصول الكلية والقضايا الكبرى، وصورة الإسلام كما يرى . رحمه الله . لا تؤخذ من آية منفردة معزولة عن سياقها كما أن الإسلام "**لا تفهم حقيقته من حديث واحد** "[1].

والتملي من روح القرآن والتنشئة على معانيه وقيمه الكلية، هو ما يمكّن المسلمين من ترتيب أولوياتهم الدنيوية والأخروية، المادية والمعنوية، فلا يضخمون الصغير، ولا يحتقرون الكبير، والمبتغى الأعظم هو أن يهيمن القرآن بقيمه وهدايته ومقاصده على

[1] كنوز من السنة ، محمد الغزالي ، ص69.

التفكير والشعور والسلوك عند الفرد وعند الجماعة، هذه الطريق لتربية الأمة الإسلامية بالقرآن الكريم والسنة النبوية السائرة في ضوءه وتحت جناحه، خير من حمل الناس على الإسلام بالتكاليف أو الإكراه، وهذه غاية يجب أن تدرك، فإن الإسلام . وأهم خصائصه أنه دين الفطرة . كادت معالمه تطمس نتيجة تشتيت الجهود في الجزئيات بدون اهتمام بصورته الكلية، فتارة ينتج عن هذا التشتيت محاربة الفطرة باسم الدين، وتارة يحارب العقل، وتارة يهتم بالشكل والطقوس العبادية مع تبلد الشعور والإحساس بنعمة الإيمان والتقى، وتارة يحارب العلم بمحاربة تعليم المرأة أو التهوين من قيمة العلوم الكونية، وتارة نفقد التوازن في التعامل مع الآخر فنراه على شاكلة واحدة لا نرى له فيها إلا السيف، وتارة ننحاز للدجل والخرافة ونجعل من القرآن صيدلية أبدان لا شفاء قلوب، ونؤمن بالتوكل الذي يكذب بسنن الله ويضرب بها عرض الحائط، وينسب الصلاح لأنفس تدعي نسف نظام الكون أو التلاعب به.. الخ وكل هذه العلل التي حاول الشيخ علاجها في جل كتبه أنسب منهج يعالجها هو المنهج الموضوعي الجامع في تفسير القرآن وبيان هدايته ومقاصده.

2. مراعاة طبيعة العصر في تقديم صورة الإسلام

من مقاصد الشيخ الغزالي التي تبدو واضحة من خلال تفسيره الموضوعي هو رغبته في دعوة الآخرين، وتقديم الإسلام للعالم في صورة رائقة مغرية، وهذا يقتضي أن ينتهج تفسيرا يوائم أسلوب العصر، الذي يتميز بالسرعة في التطور والتغير مما يقتضي تقديم المعلومة المباشرة الموجزة وعدم الإطالة في الشرح، كما أن مشاغل الناس تنامت ووقتهم ضاق، فلم يعد ممكنا لغير المتخصصين أن يطالعوا المجلدات الضخام ويفكوا رموز اللغة الصعبة أو يقدروا على مجاراة الكتّاب في استرسالاتهم واستطراداتهم طالت أو قصرت.. لذا رأى الشيخ أن أسلوب التفسير الموضوعي الموجز الذي خاضه يمثل اقصر الطرق لنشر الإسلام وتقديم هداية القرآن للناس، وعلى الدعاة الذين يريدون تقديم حقائق

الإسلام وتبليغها أن يراعوا طبيعة العصر الذي يعيشون فيه وأن يتخيروا أمثل الأساليب وأنجعها في ربط الناس بربهم.

3. معالجة المشكلات التي يعاني منها المسلمون

نستنتج مما سبق أن من أهم مقاصد الشيخ الغزالي في تفسيره الموضوعي معالجة مشكلات المسلمين الحضارية الكبرى بما تحمل من خلل في التفكير، أو في السلوك، فالقرآن هداية عامة مفتوحة على كل عصر وعلى كل قوم، ومن واجب العلماء أن يشرحوا قيم القرآن للناس ويستفيدوا منها في حل المعضلات الوقتية، وإن العجز الحاصل في هذا المجال لا يرجع بداهة للقرآن، بل إلى أسلوب

تعاملهم مع القرآن، والأسلوب الأمثل في رأي الغزالي هو التفسير الموضوعي الذي يرتكز على الموضوع، والموضوع في القرآن إما حكم قرآني يجب أن ينفذ، أو قيمة قرآنية يجب أن تدرك، وهذه ترفع همم الناس ومستواهم الأدبي وتربي عزائمهم وتذلل لهم الصعاب من أجل بلوغ درجة الحياة الفاضلة التي حببها القرآن إلى النفوس، وإما موضوع هجم على الناس وداهمهم من واقع حياتهم، وفي الحالين أسلوب التفسير الموضوعي يمكن من الفزع إلى القرآن حال المصائب والشدائد طلبا لهداية الله واستعانة بنور القرآن الذي يضيء طريق الخلاص، هذا ما يرجوه الشيخ الغزالي . والعلماء العاملون . من التفسير الموضوعي للقرآن الكريم .

4. بيان إعجاز القرآن واتساقه

يمكن استخلاص هذه الغاية من مجموع ما كتب الشيخ . أيضا . فحديثه عن إعجاز القرآن واتساق آياته ومعانيه وليس وجودها بجنب بعضها محض مصادفة أو تلفيق، يقصد به تقديم القرآن الكريم في صورة تبهر العقل وتجذب النفس إلى هذا الدين، بإحداثها نوعا من التسليم بكمال القرآن وإلهية مصدره، ومن ثم الانجذاب نحو القرآن والميل إليه، فإن المثقف المعاصر حين يقرأ تفسيرا موضوعيا لسورة قرآنية قد أحسن المفسر ربط جوانبها بعضها ببعض وأتقن تقديم موضوعاتها وقضاياها، يستصحب هذا التكامل في المعنى وهو يرتل

القرآن، فيفهمه وتتجذب نفسه إليه ولا يشعر أنه يقرأ آيات مركومة بلا رابط، ولعل هذا سر قول الغزالي بعد تفسير سورة الطلاق: "**هذه سورة الطلاق أدعو كل مسلم لقراءتها مرة أخرى على ضوء ما شرحت لعله واجد فيها ما يهدي ويجدي**"[1]، أو كما قال بعد شرح آيات في سياق إبطال القول بنسخ القرآن: "**اقرأ الآية مرة أخرى في تدبر وبساطة تجدها لا تتحمل إلا هذا الشرح القريب، وهو الشرح الذي يربط بها ما بعدها في اتساق وإحكام.**"[2]

ينبه الغزالي تالي القرآن باستمرار إلى إحكام السياق وتكامل المعنى.والإنسان كما هو عدو ما يجهل فهو صديق ما يعرف، وكما يصاب بالحيرة عندما لا يصل إلى الترابط المعنوي الوثيق في سور القرآن وموضوعاته، كذلك حين يصيب بعض المعرفة في هذا الشأن سوف يأسره الغوص في معاني الآيات وأبعادها، ويحاول فهم مطلوبها ومقاصدها فينجذب إلى القرآن ويدمن تلاوته وتدبره وفهمه، ومن ثم عدم التفريط في تطبيق أحكامه والشعور بنعمته وفضله، فيحصل المطلوب الذي يرجوه الشيخ . وكل داعية مخلص . في تعامل الناس مع كتاب ربهم.

---

[1] تراثنا الفكري ، ص134.
[2] نظرات في القرآن، ،ص202.

خاتمة

نتائج وآفاق

يمكن تلخيص نتائج هذه الدراسة في رؤوس أقلام موزعة على فصول البحث الستة كي يسهل تلخيصها واستيعابها على الشكل الآتي:

(1)

في الفصل الأول تبين من عرض حياة الشيخ الغزالي أنه يمتلك الأهلية العلمية والأخلاقية للتفسير، وتبين أنه رجل القرآن الذي يصحب كلام الله ويستحضر هموم الأمة.

ثم تبين الفقه العميق للشيخ الغزالي في القرآن الكريم، في الحفظ والتلاوة والفهم والتدبر، فتبين من هذا الفصل دفاع الغزالي القوي عن تواتر القرآن، وعن عموم معانيه وخلودها، وإنكاره لوجود النسخ في القرآن، وانحيازه لمنطق القرآن في إثبات السنن الكونية،

والبعد عن التفكير الخرافي والدفاع عن العقل الذكي وعن الإرادة القوية ومحاربة الكسل والاتكالية التي تستند ظلما إلى القرآن، ورأينا كيف يفهم الشيخ العلاقة بين القرآن والسنة.

(2)

من نتائج هذا الفصل أن تفسير القرآن الكريم عمل علمي عظيم وشريف، والمفسر إنما يقتدي برسول الله وصحابته، على أن يبذل في تفسيره الجهد والوسع بقدر طاقته لتوضيح مراد الله من كلامه للناس، فيساعدهم على الاستنارة بهدي القرآن.

والحاجة إلى التفسير لا يستغني عنها مؤمن، إذ هو جزء لا يتجزأ من طبيعة رسالة الإسلام، وطبيعة اللغة، وطبيعة القرآن بل وطبيعة الناس من حيث التفاوت في الفهم والإدراك.

والتفسير هو أول العلوم نشأة، بدأ بالمأثور وانتهى بالمزاوجة بين النظر والأثر، بدأ بصبغة عملية وانتهى إلى صبغة نظرية، بدأ ضيقا وانتهى موسوعات ضخمة.

لم يكن تطور التفسير كله إيجابيا، فقد اعترى التفسير بالمأثور نقائص كثيرة منها: إلغاء الأسانيد ورواية الضعيف والموضوع، والاغترار بالإسرائيليات، واعترى التفسير بالرأي: اتباع المتشابه، والانتصار لآراء الفرق، وجعل القرآن تابعا لا متبوعا والتوسع على حساب بيان القرآن. وأحسن التفسير من لم يتورط في ذلك.

أصاب التفسير خلال منحنى تطوره ركود بعد توسع، اتساقا مع ترجع حضارة المسلمين، ثم حدث انتعاش مع بوادر النهضة وحركة الإصلاح، فمصير التفسير رهن بمصير الأمة، كلما أقبل المسلمون يطلبون من القرآن عناصر الحياة حيي التفسير وكلما استمرؤوا التقليد ولاكوا الكلمات بلا تأثير تدهور التفسير.

التجديد في التفسير وعلوم القرآن أمر مشروع وقد مارسه علماء الأمة الموثوقون، لكن التجديد معنى لا ينطبق على كل ادعاء، فليس منه تسليط مناهج ثبت قصورها، ولا تؤدي إلى بيان المعنى بل إلى ذهابه واغتياله كما فعلت المدرسة التغريبية الحداثية.

مقتضى التجديد في التفسير هو الخروج من المنهج التقليدي الذي يفرض علينا العناصر المنهجية والمادة الموضوعية للمفسرين القدامى، وهو إلزام لعلماء العصر بما لا يلزمهم نظرا لتطور المناهج واتساع المعارف وتعمقها.

(3)

التجديد المنهجي الوحيد الأصيل في التفسير في الفترة المعاصر وهو التفسير الموضوعي الذي يعد نقلة نوعية في تفسير القرآن، بدأه رواد النهضة الأوائل وسار عليه بهدهم جيل من العلماء وأهمهم الشيخ محمد الغزالي رحمه الله.

التفسير الموضوعي هو تفسير موضوع قرآني، أو سورة من القرآن أو مفردة متكررة فيه، من أجل نظر أعمق وأشمل لكتاب الله، وإذا اختلف الناس في تعريفه فقد بينا أن الصواب هو اتجاه الفصل في التعريف بين الموضوع والسورة ورجحنا ما ذهب إليه صاحب الخبرة ومصاحبة القرآن: الشيخ الغزالي.

بينت الدراسة بما يكفي حاجتنا الملحة اليوم إلى التفسير الموضوعي الذي يملك القدرة على المحاجة، وتقديم البدائل، ومواجهة التحديات، ويتسق مع تعدد المعاني وتجددها ويفتح آفاق المعرفة أمام مختلف التخصصات ويبين القيم الكلية التي تبني الكيان النفسي والاجتماعي للأمة الإسلامية، ويظهر جوانب جديدة من إعجاز القرآن الكريم وغير ذلك..

أنواع التفسير الموضوعي ثلاثة: تفسير المفردة القرآنية، تفسير السورة القرآنية، وتفسير موضوع من خلال القرآن، ولكل نوع فوائده وأسسه وطريق يضبط البحث فيه وقد بينت كل ذلك.

(4)

توهم بعض الباحثين أن التفسير الموضوعي يخاصم السنة، أو أنه دعوى بلا برهان أو حطب بالليل، وقد رددنا على أصحاب تلك الهواجس والشبهات بما يبين عن خطئهم ويظهر أهمية التفسير الموضوعي وأصالته ومكانته الرائدة بين مناهج المفسرين.

أقررت بوجود إشكالات وصعوبات تواجه المنهج الموضوعي في التفسير لاسيما في تعامله مع تفسير الآيات الكونية وآيات القيم الإنسانية، طالما هو يدعو المتخصصين إلى النظر فيما يعني تخصصهم من موضوعات قرآنية، وحددت ضوابط يمكن بالتزامها تجاوز هذه الصعوبات وبناء معرفة إسلامية أصيلة في المجالين الكوني والإنساني على هداية القرآن وإرشاده.

ثم بينت موقع التفسير الموضوعي باعتباره منهجا بين مناهج التفسير المعروفة من جهة المصدر الغالب: تفسير بالرأي وآخر بالمأثور، ومن جهة الموضوع العام: تفاسير لغوية وفقهية واجتماعية وغيرها.. ومن جهة المنهج: تفاسير تحليلية أو إجمالية أو مقارنة، وبينت ما بين التفسير الموضوعي وكل هذه الأنواع من وشائج القربى، وصلات التكامل.

(5)

من نتائج الدراسة أيضا، حصر الشروط العلمية التي تتحكم في السقف المعرفي للمفسر حتى يقبل منه التفسير، فإضافة إلى الحد الأدنى من الاطلاع على القرآن والسنة

وأقوال الصحابة من جهة الرواية، خلصنا إلى وجوب العلم باللغة وقواعد الاستنباط من جهة النظر.

أضافت هذه الدراسة شرطا علميا آخر هو الحد الأدنى من المعرفة الكونية، وأكدت على العلم بأحوال البشر وهداية القرآن ومقاصد الدين والسيرة النبويه، وبينت أن العلم بالسنة ليس مجرد حفظ الأحاديث فهو عمل على مستوى الاستدلال العقلي أيضا.

كما بينت الضوابط الأخلاقية، الواجب توفرها في المفسر والتي تكسبه الأهلية للتفسير وهي: الفطنة والموهبة الشخصية، العدالة وتتمثل في: سلامة الاعتقاد، سلامة القصد، تقوى الله تعالى. والبعد عما يجرح هذه العدالة وهي: الكفر، الابتداع والفسوق والانتصار للفرقة والطائفة على حساب معاني القرآن، والكبر والجدل.

ثم بينت ما يتأسس عليه التفسير الموضوعي ويرتكز عليه من علم المناسبات، وأسباب النزول، والسياقات الخارجية والداخلية، ومنهج الاستقراء والجمع بين النصوص، والبعد الواقعي الذي هو صلب التفسير الموضوعي في هداية الناس في يومهم وغدهم.

(6)

وفي الفصل الأخير تبين لنا النقد الدقيق من الشيخ الغزالي لتراث المفسرين، وكيف انتهج هو منهج التفسير الموضوعي، بعد أن بين نقائص كثير من المفسرين وتجاوزها.

وتوصلت الدراسة إلى أهداف وخصائص التفسير الموضوعي عند الشيخ الغزالي، فكانت أهم خصائص تفسيره رحمه الله: الوحدة البنائية، ومنهج الجمع بين النصوص، والربط الدائم بين النص والواقع، وتبني منهج المعرفة المفتوحة على الزمان لخلود نص القرآن مما يلزم منه خلود المعنى، وترجيح دلالات القرآن على غيرها، وتوسيع دائرة الشهادة، وتضييق دائرة الغيب، والتعامل المتكامل مع القرآن عقلا ووجدانا.

وخاتمة النتائج كانت ما تبين من ثمرات تطبيق الشيخ الغزالي لمنهج التفسير الموضوعي وغاياته من تناوله: سواء في الموضوعات الكلية، كميدان العقيدة والتربية والسياسة وغيرها.. أو في موضوعات جزئية كفتاواه في الطلاق البدعي وضرورة الإشهاد على الطلاق وغير ذلك..

وأخيرا فإنني قد استفدت من هذه الدراسة قبل غيري فوائد جمة غير ما ذكرت وتبين لي أن مزيدا من تدبر القرآن، ومزيدا من الخبرة بالحياة المعاصرة، واستصحاب كتاب الله والفزع إليه هو الذي من شأنه أن يقيل الأمة من عثرتها، وما لم نتمكن من تصحيح منهج الفهم والتعامل مع كتاب الله بما يصلحنا وحسن عرض واقعنا على قيم القرآن ومعالجتها بهداه، فإننا لن نؤمّن أبدا لأنفسنا مكانا محترما في هذا العالم، ولن نأمن النجاة في العالم الآخر.

والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل

مسرد الآيات القرآنية

طرف الآية **الصفحة**

يا أهل الكتاب قد جاءكم...03

قال رب إني وهن العظم مني...36

ولا يزالون يقاتلونكم...36

والله غالب على أمره...36

إنه يراكم هو و قبيله...44

ولقد يسرنا القرآن...53

إنا نحن نزلنا الذكر...187.53

ولقد مكّناكم في الأرض...62

وما أرسلناك إلا رحمة 63

وإذا بدلنا آية 77

ما ننسخ من آية 79

لا يأتيه الباطل من بين يديه 81

ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق...90

هو الذي انزل عليك الكتاب منه آيات محكمات.......................................93

وما يعلم تاويله إلا الله........................ 94

هل ينظرون إلا تاويله 94

ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء...99
نزل به الروح الأمين..99
كذالك أنزلناه قرآنا عربيا...99
ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصّلت آياته أعجمي وعربي 99
ويوم نبعث في كل أمة شهيدا...100
ياأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك...100
وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس...100
ليدّبّروا آياته...102
أفلا يتدّبّرون القرآن أم على قلوب أقفالها...............................131.102
مثل الذين حمّلوا التوراة ثم لم يحملوها...102
إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم.......................................152.103
إنا أنزلناه قرآنا عربيا...104
أو يأخذهم على تخوف 104
ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى..104
يابني آدم لا يفتننكم الشيطان..104
ياأيها الذين آمنوا توبوا إلى الله 104
ياأيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم 104
وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود..............105
الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم 105
إن الشرك لظلم عظيم 106
يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم 106
الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته 108
يكتبون الكتاب بأيديهم..106
ولا تقف ما ليس لك..118

وأن تقولوا على الله..118
كتاب أنزلناه إليك 120
وجوه يومئذ ناضرة...121
هو الذي مد الأرض 125
وعاشروهن بالمعروف.. 131
ولا تحسبن الله غافلا 131
ربنا اغفر لنا ولإخواننا.. 137
كلما دخلت امة 137
وآتينا موسى الكتاب... 140
إن الله لا يغير 148.143
وإذ قال ربك.. 144
يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا......................... 149
وأن احكم بينهم... 166
إن أوّل بيت وضع للناس.................................... 174
والسماء رفعها 174
فيها سرر مرفوعة...174
ألا يعلم من خلق...186
قل سيروا في الأرض..189
بابني إنه إن تك مثقال حبة..202
وكل في فلك يسبحون...202
ولو كان من عند غير الله..202
وعنده مفاتح الغيب...204
إن الله عنده علم الساعة...204
وجرين بهم بريح طيّبة..206

إن يشأ يسكن الريح...206
إليه يرجع الأمر...212
قل إن الأمر كلّه 212
وأمره إلى الله...212
وما أمر فرعون...212
ألا له الخلق...212
وأوحى في كل سماء.. 212
قل الروح من أمرربي.. 212
إنما قولنا لشيء 213
وما أمرنا إلا واحدة.. 213
والمطلقات يترببصن.. 213
إني أذبحك فانظر.. 213
أتى أمر الله... 213
أمرنا مترفيها..213
وكذلك جعلنا في كل قرية...213
إن الملأ يأتمرون 213
لقد جئت شيئا إمرا...213
أولي الأمر منكم..214
كما أنزلنا على المقتسمين...247.220
فلا أنساب بينهم...221
فأقبل بعضهم على بعض..221
اقرأ باسم ربّك...250
واتقوا يوما ترجعون...250
ما فرّطنا في الكتاب..250

وإذا مرضت فهو يشفيني........................ 262
يأأيها الإنسان ما غرّك 262
فطفقا يخصفان.. 263
آتوني زبر الحديد.. 263
إنّ أوّل بيت.. 263
واصنع الفلك.. 263
نقضت غزلها... 263
وإذا وقع القول عليهم... 265
يا معشر الجن والإنس.. 265
وما أوتيتم من العلم 266
وما يعزب عن ربّك..266
إنّما يخشى الله...268
قل هل يستوي الذين 268
وأوحى ربك...270
وألقى في الأرض 270
والجبال أوتادا..270
أيحسب الإنسان أن لن...270
ومن آياته خلق السماوات.............................. 270
يومئذ يصدر الناس.. 273
ووجدوا ما عملوا.. 273
فلا أقسم بمواقع 273
بل كذبوا بما لم يحيطوا... 274
أو لم يروا أنّا نأتي 275
بل متّعنا هؤلاء... 275

فارتقب يوم تاتي السماء... 275
ربنا اكشف عنا العذاب... 275
فاسأل به خبيرا... 276
ولقد خلقنا الانسان من سلالة 276
ألم تر أن الله يزجي... 276
الله الذي يرسل الرياح.. ... .276
أفحسبتم أنما خلقناكم.. 279
أيحسب الإنسان أن يترك... 279
لو كان فيهما آلهة 279
فرطت الله التي فطر.. ..279
وخلق كلَّ شيء 279
وآتيناه من كل شيء.................................... 279
وفي أنفسكم أفلا.. 279
أفلم يسيروا في الأرض..................................... 279
لقد كان في قصصهم 279
فاعتبروا يأولي 279
وإذا أردنا أن نهلك 280
وما كان ربّك ليهلك...280
وإذ قال ربك للملائكة إني خالق..280
فلمّا آسفونا...281
فمن اتبع هداي فلا يضل 281
ولقد كتبنا في الزبور...281
قل إنّما حرّم ربّي الفواحش...302
ويوم القيامة ترى الذين...302

وقل ربّ ارحمهما...308

ما كان للنبي والذين آمنوا 308

وما كان استغفار إبراهيم لأبيه...308

وأوفوا بعهدي أوف..308

لئن أقمتم الصلاة..309

إن يك صادقا يصبكم...309

فإمّا نرينّك بعض...309

ليس على الذين آمنوا وعملوا...310

إنما الخمر والميسر...310

أحكمت آياته ثم فصّلت...311

والله خلقكم وما تعملون..311

إذ قال لأبيه وقومه.. 312

ولو تقوّل علينا.. 313

وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول.................................. 314

إنّا أنزلنا إليك الكتاب بالحق.................................. 314

وما أنزلنا عليك الكتاب إلا 314

فسوف يحاسب حسابا.. 318

رآه نزلة أخرى... 318

أويأتي بعض آيات... 318

كلمة طيّبة كشجرة 318

أحبارهم ورهبانهم... 318

يثبّت الله الذين آمنوا.. 318

من يعمل سوءا 319

للذين أحسنوا الحسنى 319

وقال ربكم ادعوني 319
ومن الليل فسبّحه.. 319
محمد رسول الله.. 320
لعلمه الذين يستنبطونه 321
بلسان عربي مبين.. 323
هو الذي جعل لكم النجوم 330
وبالنجم هم يهتدون... 330
وكلوا واشربوا ولا... 330
قل الله ثم ذرهم 335
والذين جاهدوا فينا................................. ....336.335
قد جاءكم من الله نور..339
وإذا أنزلت سورة...339
قل هو للذين آمنوا هدى...434.341
ذالك الكتاب لا ريب 341
تبصرة وذكرى...343
ويهدي إليه..343
سيذكر من يخشى...343
فذكر بالقرآن 343
إنما تنذر 343
سأصرف عن آياتي..345
ويل لكل أفاك...345
أم أنا خير 345
لولا نزّل هذا القرآن...345
ذلك بأنه كانت...346

وإذا قرأت القرآن 347
إن الذين لا يِؤمنون..348
سل بني إسرائيل..353
إن آية ملكه 353
ومن آياته خلق.. 353
إن في ذلك لآية 353
قالوا تالله تفتأ... 354
ولا تركنوا إلى الذين ظلموا... 355
انظر كيف فضّلنا... 355
ولا تفتروا على الله كذبا... 355
إن الإنسان خلق هلوعا...356
وقال الذي آمن..356
ألم تر إلى الذين أوتوا 356
وأنه هو أضحك...357
وما يستوي الأعمى 357
فلا صدّق ولا...358
يابني آدم قد أنزلنا...358
يابني آدم لا يفتننكم...358
ووصينا الإنسان بوالديه... 359
ياأيها المزمل 361
رب المشرق والمغرب...361
فعصى فرعون الرسول..362
واصبر على ما يقولون.. 362
السماء منفطر..362

إن هذه تذكرة..362
إن ربك يعلم..362
آمن الرسول..363
الله لا إله إلاهو... 363
وأنزل التوراة والإنجيل... 364
يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود... 364
ومن الليل فسبحه 364
والنجم إذا هوى 364
فسبح باسم ربك العظيم.. 364
سبّح لله ما في السماوت... 364
والذين يتوفون منكم..370
ولو كان من عند غير الله..380
قل لا أجد فيما أوحي..382
ذق إنك أنت العزيز... 383
إن شجرة الزقوم 383
فوجدوا فيها جدار... 383
ولقد همّت به..384
اذهبوا بقميصي..385
وإذ قال إبراهيم رب اجعل..385
رب اجعل هذا البلد 385
قل إن كانت لكم الدار الآخرة 386
قل يا أيها الذين هادوا..386
وما أرسلنا من قبلك من رسول..405
فاعتبروا يا ألي الأبصار..411

أولما أصابتكم مصيبة..412
أفرأيت من اتخذ إلهه هواه..415
يا عباد الذين آمنوا..415
تلك أمة قد خلت..416
لا إكراه في الدين..424
وإن كنت في شك..429
قل إن كان للرحمن..429
ولئن اتبعت أهواءهم...430
مما خطيئاتهم أغرقوا...431
وقوم نوح لما كذبوا..431
ولقد أرسلنا نوحا إلى 431
أنى يحيي هذه الله...432
ويوم نحشرهم جميعا..435
هو الذي أنشأ جنات...435
ومن الأنعام حمولة وفرشا...435
ولو فتحنا عليهم بابا..437
ولو تقوّل علينا...438
وما أرسلنا من قبلك...439
وإذ تقول للذي أنعم 440
وما جعل أدعياءكم...441
يا أيها النبي قل لأزواجك..533
ولا يبدين زينتهن..444
لكن الراسخون في العلم...445
كان الناس أمة 452

إن شر الدواب عند الله... 453
يا أيها الإنسان إنك كادح.. 454
هو الذي خلق لكم.. 456
الذي جعل لكم الأرض.. 457
ولقد مكناكم في الأرض... 457
فلا أقسم بالشفق 457
سويته ونفخت فيه... 457
الذي خلق الموت.. 459
فأما من طغى.. 459
إلا المصلين الذين... 460
فأما الإنسان إذا.. 461
شهد الله أنه لا إله إلا... 462
وما أهلكنا من قرية.. 466
فلعلك تارك بعض.. 467
اقرأ باسم ربك... 472
سنريهم آياتنا... 475
تبارك الذي بيده.. 572

مسرد الأحاديث والآثار

طرف الحديث	الصفحة
يقال لقارئ القرآن اقرأ	51
والله لو كلفني نقل جبل	54
قلت : سميعا عليما عزيزا	56
لا تدخلوا بيوتا: تستأنسوا..أصلها تستأذنوا	56
بعثت بخراب الدنيا	62
بعثت بالسيف بين يدي الساعة	63
خلق الله التربة يوم السبت	66
سبحانك اللهم ربنا وبحمدك	95
ما بال عائشة تتم في السفر	95
إنه سيأتي ناس يجادلونكم بشبهات القرآن	102
إن وسادك لعريض	105
يأيها الناس إنكم تقرؤون	106
من أراد علم الأولين والآخرين	107
ألا إني أوتيت الكتاب ومثله	109
هذه الفاكهة قد عرفناها فما الأبُّ؟	110
لم يثبت عن ابن عباس في التفسير	114

ثلاثة ليس لها أصل 114
إنه عاشر عشرة في الجنة.......................... 116
لا تصدقوا أهل الكتاب ولا............................ 117
يامعشر المسلمين كيف تسألون أهل الكتاب............ 117
من قال في القرآن بغير علم 119
من قال في القرآن برأيه................................. 119
أي سماء تظلني 119
إنا لا نقول في القرآن 119
إنكم سترون ربكم.. ... .122
لم يفسر سوى آيات معدودات.................................. 130
قلت لعلي هل عندكم شيء من الوحي........................... 131
القرآن حمّال ذو وجوه...162
لو ضاعت مني إبرة..188
لو ضاع مني عقال...188
كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم..188
إنما نزل أوّل ما نزل منه..194
إني أجد في القرآن أشياء...221
هم أهل الكتاب جزّؤوه...248
نحن أمة أميّة لا نكتب...258
من أراد العلم فعليه بالقرآن...263
من فسّر القرآن بغير علم...303
أبهذا أمرتم أم لهذا 309
ألا هل عسى رجل يبلغه...................................... 314

من حدّث عني حديثا...................................... 316
القرآن ذلول ذو وجوه... 317
لا يفقه الرجل حتى 317
اللهم فقّهه في الدين... 337
من يرد الله به خيرا... 342
بطر الحق.. 345
اثنان لا يتعلمان.. 346
من قرأ بالآيتين 370
قال يا ابن أخي لا أغير شيئا...370
ما سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن شيء..................................370
ألا أعلمكم أعظم سورة...371
ما حملكم على أن عمدتم.. 372
يا معشر المسلمين كيف تسألون..518
لا بأس بالنظر إلى...443
مرت بعمر بن الخطاب جارية..443
أمر الله نساء المؤمنين...444
كأين تقرأ سورة الأحزاب...430
شيبتني هود..466

قائمة المصادر والمراجع

1. إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي،دار الحديث القاهرة، 1425هـ . 2004م.

2. أخبار أهل الرسوخ في الفقه والتحديث، بمقدار المنسوخ من الحديث، تحقيق عبد الرحمان محمود الجزائري، تقديم الشيخ محمد الغزالي، مكتبة الهدى، الجزائر، 1990م.

3. أساس البلاغة ،جار الله الزمخشري، دار الكتب المصرية القاهرة، 1323هـ.

4. أسباب النزول، تحديد مفاهيم ورد شبهات، محمد سالم أبو عاصي ، دار البصائر القاهرة، الطبعة الثانية،1423هـ.

5. أسرار ترتيب القرآن، جلال الدين السيوطي، دار الاعتصام، القاهرة (تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم).

6. إشكاليات القراءة وآليات التأويل نصر حامد أبو زيد، المركز الثقافي العربي، الطبعة السادسة، 2001م.

7. أصول الفقه، عبد الوهاب خلاف، الزهراء، الجزائر، الطبعة الأولى، 1990م.

8. أصول الفقه، محمد الخضري بك، دارا الفكر، بيروت، 1988م.

9. إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن قيم الجوزية، طبعة مكتبة بن تيمية.

10. الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، دار الفجر للتراث،1427هـ، 2006م

11. الإحكام في أصول الأحكام ،سيف الدين الآمدي، دار الكتب العلمية،الطبعة الأولى ، 1985م.

12. الأسس القرآنية للتقدم، محمد أحمد خلف الله، طبعت كتاب الأهالي، 1984م.
13. الأسس المنطقية للاستقرار، محمد باقر الصدر، دار التعارف للمطبوعات ، بيروت،1990م.
14. الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين، محمد الغزالي، نهضة مصر، الجيزة، الطبعة السابعة، 2006م.
15. الإسلام والأوضاع الاقتصادية، محمد الغزالي، نهضة مصر، الجيزة، الطبعة السادسة، 2006م.
16. الإسلام والطاقات المعطلة، محمد الغزالي، دار القلم، دمشق، الطبعة الثانية، 2005م.
17. الإكسير في علم التفسير ،نجم الدين الطوفي البغدادي ،مكتبة القاهرة، 1327هـ.
18. الإمام محمد الغزالي، جهوده في التفسير وعلوم القرآن، رمضان حسن الغريب، دار الحرم للتراث، 1423هـ- 2003م.
19. الإمام محمد عبده ومنهجه في التفسير، عبد الغفار عبد الرحيم، مطبعة الحلبي، القاهرة.
20. الإنسان والقرآن وجها لوجه(التفاسير القرآنية المعاصرة) قراءة في المنهج، احميدة النيفر، دار الفكر المعاصر، بيروت ،دار الفكر ، دمشق، 2000م.
21. البحر المحيط، أبو حيان محمد بن يوسف التوحيدي، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، 1992م.
22. البداية في التفسير الموضوعي، عبد الحي الفرماوي،مطبعة الحضارة العربية، الطبعة الثانية،1977 م.
23. البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي، دار الحديث، القاهرة، 2006م
24. البيان القرآني، محمد رجب البيومي، الدار المصرية اللبنانية ، الطبعة الثانية، 2005م.

25. التحبير في علم التفسير، الإمام جلال الدين السيوطي ،دار المنار ، القاهرة، الطبعة الأولى،1986م.

26. التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، 1984م.

27. التفسير البياني للقرآن، عائشة عبد الرحمان بنت الشاطئ ، دار المعارف، الطبعة الثامنة.

28. التفسير الكبير، فخر الدين الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1997م

29. التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق، صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار النفائس، الأردن، الطبعة الأولى، 1979م.

30. التفسير الموضوعي دراسة نظرية تطبيقية، منصور كافي، الجزائر، دار الخلدونية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ،2004م.

31. التفسير الموضوعي للقرآن في كفتي ميزان، عبد الجليل عبد الرحيم، سلسلة التراث والوحي في الإسلام، الأردن، الطبعة الأولى، 1991م.

32. التفسير الموضوعي ومنهج البحث فيه، خليل زياد الدغامين، دار عمار، الأردن،الطبعة الأولى،2007م.

33. التفسير والتأويل في القرآن، صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار النفائس، الأردن الطبعة الأولى، 1416هـ، 1996م.

34. التفسير والفسرون في العصر الحديث، عبد القادر محمد الصالح، دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى،1424هـ،2003م.

35. التفسير والمفسرون، محمد حسين الذهبي ،مكتبة مصعب بن عمير الإسلامية 2004م

36. التفسير ورجاله، محمد الفاضل بن عاشور، دار سحنون، تونس، 1998م.

37. الجامع الصحيح ، محمد بن إسماعيل البخاري

38. الجامع لأحكام القرآن ، الإمام القرطبي ،دار الشعب ، القاهرة.

39. الجانب العاطفي من الإسلام، محمد الغزالي، دار الشهاب للطباعة والنشر، باتنة، الجزائر.

40. الجانب العاطفي من الإسلام، محمد الغزالي، دار الشهاب، باتنة، الجزائر.

41. الجرح والتعديل ،محمد بن إدريس الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى.

42. الجهاد كيف نفهمه وكيف نمارسه،محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر المعاصر، الطبعة الثانية، 1997م.

43. الحق المر، محمد الغزالي، نهضة مصر، الجيزة، الطبعة الرابعة،2005م.

44. الخلفاء الراشدون، عبد الوهاب النجار، دار الكتب العلمية، بيروت .

45. الدر المنثور في التفسير بالمأثور، الإمام جلال الدين السيوطي، دار الفكر، بيروت.

46. الروض الناظر في سيرة الإمام أبي جعفر الباقر، بدر محمد باقر، الكويت، مبرة الآل والأصحاب، الطبعة الثانية، 2007م.

47. السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث، محمد الغزالي، منشورات دار الكتب، الجزائر، الطبعة الثامنة.

48. السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث، محمد الغزالي، منشورات دار الكتب، الطبعة الثامنة.

49. السنة مصدرا للمعرفة والحضارة، يوسف القرضاوي، دار الشروق، القاهرة،الطبعة الرابعة،2005م.

50. سنن النسائي، طبعة المكنز الإسلامي، مصر، القاهرة.

51. السنن الإلهية في نهوض الحضارة ونكوصها، يونس ملال ، مكتبة كلية أصول الدين، الجزائر العاصمة. قسم الدوريات، 2001م– 2002م.

52. السيرة النبوية، ابن هشام، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الرابعة، 2004م.

53. سنن الترمذي، طبعة جمعية المكنز الإسلامي، مصر،القاهرة.

54. سنن أبي داود، طبعة المكنز الإسلامي مصر، القاهرة.

55. سنن ابن ماجه، طبعة المكنز الإسلامي، مصر، القاهرة.

56. الشروق العربي، عدد259، الأسبوع 30،23أفريل،1996(جريدة).

57. الشيخ الغزالي الموقع الفكري والمعارك الفكرية ، محمد عمارة ،دار الرشاد ، الطبعة الثانية ،1998م.

58. الشيخ الغزالي صور من حياة مجاهد عظيم ودراسة لجوانب من فكره، عبد الحليم عويس، دار الصحوة، 1993م.

59. الشيخ الغزالي كما عرفته، رحلة نصف قرن، يوسف القرضاوي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى ،2001م.

60. الشيخ محمد الغزالي حياة وآثار ،شهادات وموقف، نصر الدين لعرابة، دار الأمة،الجزائر، الطبعة الأولى،1998م.

61. الشيخ محمد الغزالي، حياته وعصره ، وأبرز من تأثر بهم، رمضان خميس الغريب، دار الحرم للتراث، القاهرة، الطبعة الأولى، 2003م.

62. الشيخ محمد الغزالي، رائد منهج التفسير الموضوعي في العصر الحديث ، مسعود فلوسي، دار الوفاء، مصر ، الطبعة الأولى 1421هـ .2000م.

63. الشيخ محمد الغزالي، رائد منهج التفسير الموضوعي في العصر الحديث، مسعود فلوسي، دار الوفاء، المنصورة، مصر، الطبعة الأولى، 1421هـ- 2000م.

64. الشيخ محمد الغزالي، غصن باسق في شجرة الخلود، مسعود فلوسي مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الأولى، 2003م.

65. الشيخ محمد الغزالي،تاريخه وجهوده وآراؤه، عبد الحليم عويس، دار القلم، دمشقن الطبعة الأولى، 2000م.

66. الصبر في القرآن ، يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الثالثة، 1989م.

67. صحيح البخاري طبعة المكنز الإسلامي مصر القاهرة.

68. صحيح مسلم، طبعة المكنز الإسلامي مصر القاهرة.

69. الطريق من هنا، محمد الغزالي، دار الكتب، الجزائر.

70. الظاهرة القرآنية، مالك بن نبي، دار الفكر، دمشق، الطبعة السادسة، 2006م.

71. العروة الوثقى، جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده.

72. العطاء الفكري للشيخ الغزالي، حلقة دراسية، مجموعة من الباحثين، تحرير، فتحي ملكاوي، طبعة المعهد العالمي للفكر الإسلامي، عمان 1996م.

73. العقل والعلم في القرآن الكريم،يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الأولى،1996م.

74. العلوم البيولوجية في خدمة تفسير القرآن، عبد الحافظ حلمي محمد، عالم الفكر، الكويت، العدد4،1982م، (مجلة).

75. الفكر الإسلامي الحديث، وصلته بالاستعمار الغربي، محمد البهي ،مكتبة وهبة، الطبعة الثامنة،1975م.

76. الفوز الكبير في أصول التفسير ، شاه ولي الله الدهلوي ، دار قتيبة ،دمشق، 1989م.

77. القاموس المحيط ،محمد بن يعقوب، الفيروزأبادي، دار الفكر بيروت ، الطبعة الأولى ، 2003م.

78. القرآن من تفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني، محمد أركون، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، 2001م.

79. الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، الأهالي للطباعة والنشر، دمشق.

80. الكشاف عن حقائق التنزيل ، أبو القاسم جار الله بن عمر الزمخشري، دار الفكر، بيروت.

81. الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملّة، أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 2002م.

82. الكليات، معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، 1419هـ، 1998م.

83. المحاور الخمسة للقرآن الكريم، محمد الغزالي، دار القلم ،دمشق، الطبعة الثالثة،2000م.

84. المدخل إلى التفسير الموضوعي، عبد الستار فتح الله سعيد،دار التوزيع والنشر الإسلامية ، الطبعة الثانية ،1411هـ،1991.

85. المدخل إلى الدراسات القرآنية ، أبو الحسن الندوي، دار الكلمة ، الطبعة الأولى ، 1987م.

86. المدرسة القرآنية، السيد باقر الصدر، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، لبنان.

87. المرايا المحدبة من البنيوية إلى التفكيكية، عبد العزيز حمودة ، طبعة عالم المعرفة، الكويت، 1998م.

88. المسلم المعاصر، السنة22 العدد87، (مجلة).

89. المصباح المنير، الفيومي، مكتبة لبنان.

90. المصنف في الأحاديث والآثار، محمد بن أبي شيبة الكوفي، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى، 1409هـ .

91. المعجم الكبير ،الإمام الطبراني.

92. المناسبات بين آيات القرآن وسوره، صبرى الرفاعي الحسيني مرسي، حولية كلية أصول الدين، جامعة الأزهر، القاهرة، العدد الثالث والعشرون، 1427هـ – 2006م الجزء الثاني (مجلة).

93. المناهج المعاصرة في تفسير القرآن الكريم وتأويله، عبد الرحمان الحاج إبراهيم، رسالة المسجد، سوريا، العدد الأول، جمادى الثانية،2003م (مجلة).

94. المنهج السياقي ودوره في فهم النص وتحديد دلالات الألفاظ ، أبو محمد مسعود صحراوي، موقع الشهاب، (شبكة المعلومات).

95. المنهج الموضوعي في التفسير، دراسة وتطبيق، مسموع أحمد أبو طالب، حولية كلية أصول الدين بالقاهرة، العدد الحادي عشر، سنة1414هـ،1994م.

96. الموافقات في أصول الشريعة، أبو إسحاق الشاطبي، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثالثة، 1997.

97. الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم، أبو جعفر أحمد بن محمد النحاس، مطبعة الأنوار المحمدية، مصر.

98. الناسخ والمنسوخ، هبة الله بن سلامة، مطبعة البابي الحلبي، مصر .

99. النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم،محمد عبد الله دراز، دار القلم القاهرة، الطبعة العاشرة، 2008م.

100. النسخ في القرآن، دراسة تشريعية، تاريخية نقدية، مصطفى زيد، دار اليسر،الطبعة الثانية،2007م.

101. النهاية في غريب الحديث والأثر، مجد الدين بن الأثير، دار الكتب العلمية، بيروت.

102. الوحدة البنائية للقرآن المجيد،طه جابر العلواني، مكتبة الشروق الدولية، الطبعة الأولى، 2006م.

103. الوحدة الموضوعية في القرآن ، محمد محمود حجازي، مكتبة دار التفسير،الزقازيق، الطبعة الثانية ، 2004م.

104. الوحي المحمدي، محمد رشيد رضا.

105. الوسطية، المفهوم والمصطلح، عصام أحمد البشير، دار المأمون للنشر والتوزيع، الأردن، الطبعة الأولى،2008م.

106. آيات الله في الآفاق، عبد المجيد الزنداني، طبعة مكتبة القرآن، القاهرة، 1993م.

107. بالحجة والبرهان لا نسخ في القرآن، حسام رشدي، المكتب العربي للمعارف، مصر الجديدة، الطبعة الأولى،2005م.

108. بناء الإيمان من خلال القرآن، مجدي الهلالي، مؤسسة إقرأ، القاهرة،2005م.

109. تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل، محمد الغزالي، دار الشروق، الطبعة الرابعة،1416هـ - 1996م.

110. تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل، محمد الغزالي، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الرابعة، 1416هـ– 1996م.

111. تفسير أسرار القرآن، عبد العزيز الجاويش، مطبعة الهداية،الأستانة،1931م.

112. تفسير القرآن الحكيم، الشهير بتفسير المنار، محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية.

113. تفسير القرآن الحكيم، المشهور باسم: تفسير المنار، محمد رشيد رضا، دار الفكر، بيروت.

114. تفسير القرآن العظيم، المسمى تفسير بن كثير، الإمام أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، دار الفكر، بيروت،1401هـ.

115. تفسير القرآن الكريم مصادره واتجاهاته، عبد الله بن الزبير، نشر رابطة العالم الإسلامي ، السعودية.

116. تفسير القرآن الكريم، الأجزاء العشرة الأولى ، محمود شلتوت ، دار الشروق، القاهرة،الطبعة الثانية عشرة،2004م.

117. تفسير بن باديس، عبد الحميد بن محمد بن مصطفى بن باديس، المكتبة العصرية، بيروت،الطبعة الأولى،2006م.

118. تهذيب الأسماء والصفات واللغات ، الإمام النووي ، دار الفكر ، بيروت ، الطبعة الأولى ، 1996م.

119. جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير الطبري، دار الفكر، بيروت، 1405هـ.

120. حصاد الغرور، محمد الغزالي، دار الشروق ، القاهرة،الطبعة الثالثة، 1427هـ- 2003م.

121. حوار مع الشيخ الغزالي، عبد الحليم عويس، الفيصل، العدد 189،(مجلة).

122. حوارات حول فهم النص،زهير البيطار،دار الهدى، الطبعة الأولى،2004م.

123. خطب الشيخ الغزالي في شؤون الدين والحياة، إعداد عبد الحميد قطب، مراجعة محمد عاشور، دار الاعتصام، القاهرة.

124. خطب الشيخ محمد الغزالي في شؤون الدنيا والدين ، دار الاعتصام، القاهرة.

125. خلق المسلم، محمد الغزالي، دار الدعوة، الإسكندرية، الطبعة السادسة،1420هـ- 1999م.

126. خواطر حول التفسير الموضوعي للقرآن، مصطفى مسلم،(مقال على شبكة المعلومات).

139. التفسير الموضوعي وجهة نظر أخرى، مساعد بن سليمان الطيار، موقع منتدى التفسير (شبكة المعلومات).

127. دراسات في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، زاهر عواض الألمعي، الطبعة الأولى،1405هـ.

128. دراسات في التفسير الموضوعي للقصص القرآني ،أحمد جمال العمري، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثانية. 2001م.

129. دراسات في التفسير وعلومه، جلال الدين العلوش، دمشق ، اليمامة للطباعة والنشر، الطبعة الأولى ،1426هـ .2006م.

130. دراسات في علوم القرآن، الدكتور فهد الرومي ،الرياض مكتبة التوبة 1415هـ،1994م.

131. دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، دار الكتاب العربي، بيروت،الطبعة الأولى،1995م.

132. رسالة التوحيد، محمد عبده، دار المعارف، مصر، الطبعة الرابعة.

133. ركائز الإيمان بين العقل والقلب، محمد الغزالي، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الثالثة،2006م.

134. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، العلامة أبي الفضل شهاب الدين الألوسي البغدادي، دار الفكر ، بيروت، 1403هـ .1983م.

135. روضة الواعظين، الفتال النيسابوري، منشورات الشريف الرضا،قم.

136. سنن الدارقطني،دار الكتب العلمية، بيروت.

137. سنن الدارمي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى.

138. شرح أصول التفسير لابن تيمية، محمد بن صالح العثيمين،المكتبة الإسلامية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى،1426هـ ، 2006م.

139. شرح العقائد النسفية ، سعد الدين التفتزاني، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، 1421هـ.

140. شروط النهظة ، مالك بن نبي، دار الفكر، دمشق، الطبعة الرابعة، 1987م.

141. صيحة تحذير من دعاة التنصير، محمد الغزالي، دار الصحوة للنشر،القاهرة، الطبعة الأولى، 1412هـ– 1991م.

142. عقيدة المسلم، محمد الغزالي ،دار الدعوة للنشر والتوزيع، الإسكندرية،الطبعة الخامسة.2008م.

143. علل وأدوية، دراسات في أمراض أمتنا، ووسائل الاستشفاء منها مع تصحيح لما وجه إلى التاريخ من أخطاء، محمد الغزالي، دار الدعوة، الطبعة الرابعة،1422هـ– 2002م.

144. علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق،صبحي إبراهيم الفقي، دار قباء للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولي،2000م.

145. علم المناسبات في السور والآيات، محمد بن عمر بازموري، المكتبة المكية السعودية.

146. علم لغة النص، المفاهيم والاتجاهات، سعيد حسين البحري، الشركة المصرية العالمية، القاهرة، الطبعة الأولى، 1997م.

147. علوم القرآن، نور الدين زعتر، مطبعة الصباح، دمشق، الطبعة السادسة.

148. عيون البصائر، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، 1997م.

149. فقه السيرة ،محمد الغزالي ، مطبعة رحاب، الجزائر.

150. فقه المقاصد، إناطة الأحكام الشرعية بمقاصدها، جاسر عودة، نشر المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الطبعة الأولى، 2006م.

151. فلسفة التجديد الإسلامي،برهان غليون،الاجتهاد، العدد 1991،12م(مجلة).

152. فن الذكر والدعاء عند خاتم الأنبياء، محمد الغزالين دار المعرفة، الجزائر، 2004م.

153. فهم القرآن الحكيم التفسير الواضح حسب ترتيب النزول، محمد عابد الجابري،مركز دراسات الوحدة العربية.

154. في ظلال القرآن ، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة.

155. في موكب الدعوة، محمد الغزالي، دار الكتب، الجزائر.

156. قراءة في النص الديني، بين التأويل الغربي والتأويل الإسلامي، محمد عمارة، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، الطبعة الأولى، 2006م

157. قصة حياة، مقتطفات من مذكرات الشيخ الغزالي، إسلامية المعرفة. العدد السابع، 1997م (مجلة).

158. قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة، محمد الغزالي، دار الهناء، الجزائر، الطبعة الأولى، 1422هـ– 2001م.

159. كشف الظنون، حاجي خليفة، طبعة الهند، 1362هـ– 1943م.

160. كنوز من السنة، محمد الغزالي، دار الهناء، الجزائر.

161. كيف نتعامل مع القرآن العظيم، يوسف القرضاوي، دار الشروق، الطبعة الخامسة، 2006م

162. كيف نتعامل مع السنة معالم وضوابط، يوسف القرضاوي ، طبعة المعهد العالمي للفكر الإسلامي.

163. كيف نتعامل مع القرآن، محمد الغزالي، مدارسة مع عمر عبيد حسنة، نهضة مصر، الجيزة، الطبعة الثامنة، 2006م.

164. كيف نتعامل مع القرآن، محمد الغزالي، نهضة مصر، الطبعة الثامنة،2002م.

165. لسان العرب، جمال الدين بن منظور، دار صادر للطباعة والنشر.

166. لسان القرآن ومستقبل الأمة القطب، طه جابر العلواني، دار الشروق الدولية،الطبعة الأولى،2006م.

167. ليس من الإسلام، محمد الغزالي، دار الهناء،الجزائر، الطبعة السادسة.

168. مائة سؤال عن الإسلام، محمد الغزالي، نهضة مصر، الجيزة، الطبعة الخامسة،2006م.

169. مباحث في التفسير الموضوعي، مصطفى مسلم، دار القلم، دمشق، الطبعة الرابعة 2005م.

170. مباحث في علوم القرآن، صبحي صالح، دار العلم للملايين، بيروت،الطبعة السابعة والعشرين،2007.

171. مجموع الفتاوى، أبو العباس أحمد عبد الحليم بن تيمية، طبعة الرياض الرياض.

172. مذكرات الشيخ محمد الغزالي، قصة حياة، دار الرشاد ، قسنطينة، 2006م

173. مسند الإمام أحمد بن حنبل.

174. مشكلات الأفكار في العالم الإسلامي، مالك بن نبي، دار الفكر، دمشق.

175. مشكلات في طريق الحياة الإسلامية، محمد الغزالي ، نهضة مصر، الجيزة، الطبعة الثامنة، 2006م.

176. مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، برهان الدين البقاعي، تحقيق عبد السميع محمد أحمد حسنين، مكتبة العارف، الرياض، السعودية

177. مع الله دراسات في الدعوة والدعاة، محمد الغزالي، دار القلم، دمشق، الطبعة الرابعة، 1421هـ- 2000م.

178. معالم المنهج الإسلامي ، محمد عمارة ، دار الرشاد، القاهرة ، الطبعة الثالثة، 1998م.

179. معاني الإخبار الصدوق، جماعة من المدرسين، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، 1379 هـ.

180. معايير القبول والرد لتفسير النص القرآني، عبد القادر محمد الحسين، دار الغوثاني للدراسات القرآنية، الطبعة الأولى، 2007م.

181. معجم مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، تحقيق يوسف الشيخ محمد البقاعي،دار الفكر، الطبعة الأولى،2006م.

182. معجم مقاييس اللغة ،ابن فارس، دار الفكر ، بيروت.

183. معركة المصحف في العالم الإسلامي ، محمد الغزالي، منشورات العالمية للإعلام.

184. مفاتيح التعامل مع القرآن، صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار القلم دمشق، الطبعة الرابعة، 2005م.

185. مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة، الإمام جلال الدين السيوطي، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، الطبعة الثالثة .

186. مفهوم النص، نصر حامد أبو زيد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الخامسة،2000م.

187. مقدمة في أصول التفسير، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية ، تحقيق عدنان زرزور، دار القرآن الكريم ،بيروت ،الطبعة الثالثة .

188. ملامح التنوير في مناهج التفسير، محمود عزب ، الهيئة المصرية العامة للكتاب،القاهرة ، 2006م.

189. مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الرابعة، 2002م.

190. منهج السياق في فهم النص عبد الرحمان بودراع، كتاب الأمة ،العدد111، السنة،26،محرم1427هـ.

191. موسوعة الخلفاء الراشدي، محمد رضا، المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة الأولى، 2004م.

192. موقف الشيخ محمد الغزالي من قضية التخلف الحضاري للمسلمين، الأسباب والحلول، دراسة تحليلية نقدية، إبراهيم طلبة حسين عبد النبي: (ماجستير) مكتبة كلية الدعوة بالأزهر، القاهرة، غير منشور.

193. موقف الغزالي، من قضية التخلف الحضاري عند المسلمين، رسالة ماجستير،مكتبة كلية الدعوة بالأزهر، القاهرة.(غير مطبوع).

194. موقف بنت الشاطئ من اتجاهات التجديد في التفسير في مصر، محمد عبد السلام أبو خزيمة، دار اليسر ، الطبعة الثانية، 2008م.

195. نحن والحضارة الغربية، أبو الأعلى المودودي ، دار الشهاب ،باتنة، الجزائر، 1988م.

196. نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم، محمد الغزالي،دار الشروق، الطبعة الرابعة، 2000م.

197. نظرات في القرآن ،محمد الغزالي، نهضة مصر للطباعة والنشر، الطبعة السابعة،2006م.

198. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين البقاعي، الدار السلفية للطباعة والنشر.

199. نقد الخطاب الديني،نصر حامد أبو زيد مكتبة مدبولي،القاهرة،الطبعة الثالثة، 1995م.

200. نماذج من التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، محمد الغزالي، منشورات المركز الثقافي الإسلامي، وزارة الشؤون الدينية، الجزائر، 1987م.

201. هذا ديننا، محمد الغزالي،دار المعرفة، باب الواد، الجزائر، 1999م.

202. هموم داعية، محمد الغزالي، نهضة مصر الطبعة الرابعة، 2003م.

الفهرس التحليلي للموضوعات

فهرس الموضوعات

الموضوع الصفحة

من هدي القرآن...3

إهداء...................................... 4

كلمة شكر.............................. 5

مقدمة................................. 6

الفصل الأول: الشيخ الغزالي، قصة الحياة وفقه القرآن

المبحث الأول: قصة حياة الشيخ محمد الغزالي......................................17

المطلب الأول: مراحل حياة الشيخ الغزالي...................................18

1- نشأة الشيخ: أسرته وتكوينه العلمي....................................18

2- الغزالي الشاب: في قلب معركة الدعوة..علم وجهاد...................24

3- عطاء الغزالي في الجزائر..31

4- الرحلة الأخيرة: ذهاب بلا عودة.......................................35

المطلب الثاني: الصفات التي تميز بها الشيخ الغزالي..................39

المطلب الثالث: الشيخ الغزالي رجل المواقف............................45

المبحث الثاني: فقه القرآن الكريم عند الشيخ الغزالي.......................48

المطلب الأول: مع القرآن حفظا وتلاوة.......................................49

المطلب الثاني: مع القرآن فهما وتدبرا.......................................50

أولا: مصدر القرآن، الثبوت المتيقن والمعاني الخالدة..................50

1- تواتر القرآن..51

2- القرآن حقيقة موضوعية خالدة..57

ثانيا: العلاقة بين القرآن والسنة...59

- القرآن الكريم أساس الإسلام الأول...59

- السنة بنت القرآن، لا يمكن أن تعقّه...61

- الفروق الأساسية بين الكتاب والسنة.......................................62

1- القرآن أولا، السنة ثانيا..62

2- الفرق في مجموع الخطاب..64

3- الفرق في الثبوت...64

4- الفرق في قوة الدلالة...64

5- الفرق في طبيعة الخطاب..................,...............................65

- خطر الاشتغال بالسنن بلا فقه القرآن.......................................66

ثالثا: خلود القرآن وعدم انتساخه...70

1- ما هو النسخ؟..71

2- أقسام النسخ وأنواعه..72

أ- نسخ التلاوة والحكم معا..73

ب - نسخ الحكم دون التلاوة...73

ج - نسخ التلاوة وبقاء الحكم..73

3-حقائق عن موقف الغزالي من موضوع النسخ....................................73

4- دوافع نفي الغزالي النسخ في القرآن..74

أ - نسخ القرآن عند الشيخ الغزالي..75

ب - الأدلة النظرية :عرض ومناقشة...77

رابعا: المعجزة القرآنية وخوارق العادات..82

الفصل الثاني: تفسير القرآن ومكانة التفسير الموضوعي

المبحث الأول: حقيقة التفسير والحاجة إليه... 89

المطلب الأول: تعريف التفسير لغة واصطلاحا 89

1- التفسير في اللغة... 89

2- اصطلاح تفسير القرآن... 91

3- اصطلاح تأويل القرآن...93

4- الفرق بين التفسير والتأويل 96

المطلب الثاني: الحاجة إلى تفسير القرآن الكريم 99

1- طبيعة الرسالة المحمدية 100

2- طبيعة القرآن الكريم نفسه............................. 102

3- طبيعة اللغة العربية 104

4- طبيعة الناس 104

المبحث الثاني: المنحى العام لتطور علم التفسير....................................109

المطلب الأول: تأصيل التفسير وتوسعه.....................................111
1- التفسير بالأثر.................................. 113
2- التفسير بالرأي.................................. 118
3- تفسير المذاهب والطوائف الإسلامية............ 121
المطلب الثاني: ركود التفسير وانبعاث التجديد...............................123
المبحث الثالث: التفسير الموضوعي بين مدارس التفسير الحديثة...... 129
المطلب الأول: إمكان التجديد ومشروعيته في التفسير وعلوم القرآن.........129
المطلب الثاني: المدرسة التقليدية...138
المطلب الثالث: المدرسة الإصلاحية...141
المطلب الرابع: المدرسة التغريبية..152
1- المناهج اللسانية وتفسير القرآن..154
2- المنهج (التاريخاني) وتفسير القرآن..163
المطلب الخامس: مدرسة التفسير الموضوعي.................................169

الفصل الثالث: حقيقة التفسير الموضوعي للقرآن عموما

المبحث الأول: مفهوم التفسير الموضوعي للقرآن الكريم...........................173
المطلب الأول: معنى الموضوعية في مركب التفسير الموضوعي...........173
المطلب الثاني: اتجاهات تعريف التفسير الموضوعي...........................176
1- الاتجاه ذو البعد الواقعي.................................. 176
2- الاتجاه النصي أو المأثور...177
3- اتجاه الجمع في التعريف...179
4- اتجاه الفصل في التعريف...181
مناقشة وترجيح...182
المبحث الثاني: حاجتنا إلى التفسير الموضوعي في الفترة المعاصرة...............186

المطلب الأول: طبيعة القرآن وطبيعة التفسير الموضوعي...................186
1- الموضوعات الواردة على القرآن...187
2- الموضوعات الصادرة عن القرآن...188
المطلب الثاني: قدرة التفسير الموضوعي على محاجّة المخالف............190
المطلب الثالث: التفسير الموضوعي والقدرة على البناء الداخلي 192
1- إعادة بناء المناخ الثقافي والرؤية الكلية....................................193
2- الانفتاح على الاختصاصات العلمية المختلفة................................195
3- القدرة على الإجابة عن الاستفهامات المتجددة..............................196
4- إظهار هيمنة القرآن على المعارف والعلوم البشرية.......................198
5- أثره في إظهار أوجه جديدة لإعجاز القرآن.................................199
6- تفعيل قضايا وتصحيح قواعد في علوم القرآن..............................203
المبحث الثالث: أنواع التفسير الموضوعي للقرآن.....................................208
المطلب الأول: المصطلح القرآني وحدة موضوعية..........................208
المطلب الثاني: دراسة الموضوع من خلال القرآن..........................215
المطلب الثالث: السورة القرآنية وحدة موضوعية..........................227
1- الفريق الأول: المؤيد للوحدة الموضوعية...............................232
2- الفريق الثاني: المعارض للوحدة الموضوعية..........................236
3- خلاصة...238
الفصل الرابع:إشكالات التفسير الموضوعي وموقعه بين مناهج المفسرين
المبحث الأول: الشبهات التي تعترض التفيسر الموضوعي..........................241
المطلب الأول: هواجس لا حقيقة لها......... 241
1- الخوف على مستقبل التفسير التحليلي...................... 242
2- هاجس موقع السنة من القرآن......................... 244

المطلب الثاني: شبهات لا أساس لها................ 247

المبحث الثاني: الإشكالات التي تواجه التفسير الموضوعي........ 256

المطلب الأول: منهج التفسير الموضوعي والعلوم الكونية...............257

1- موقف العلماء الرافضين للتفسير العلمي وأدلتهم.........................257

2- موقف العلماء المؤيدين للتفسير العلمي وأدلتهم.........................261

3- الضوابط المنهجية لتفسير الآيات الكونية...............................264

أولا: المآخذ...264

ثانيا: الحقائق..267

ثالثا: القواعد..273

المطلب الثاني: منهج التفسير الموضوعي والعلوم الإنسانية في القرآن...277

1- تأكيد القرآن على الأسباب..288

2- حث العقل على البحث واستنباط القوانين...............................279

3- القرآن يقدّم نماذج تطبيقية...280

4- الغائية في القوانين والسنن الإلهية...281

المبحث الثالث: موقع التفسير الموضوعي بين مناهج المفسرين...............283

المطلب الأول: موقع التفسير الموضوعي بين أنواع التفسير باعتبار المصدر الغالب...284

المطلب الثاني: موقع التفسير الموضوعي من أنواع التفسير باعتبار الموضوع العام...285

المطلب الثالث: موقع التفسير الموضوعي من أنواع التفسير باعتبار المناهج...288

أولا: التفسير التحليلي والتفسير الموضوعي...................................288

ثانيا: التفسير الإجمالي والتفسير الموضوعي...................................293

ثالثا: التفسير المقارن والتفسير الموضوعي.....................................294

بين التفسير الموضوعي والتفسير الموضع.......................................298

الفصل الخامس:الضوابط العلمية والأخلاقية في منهج التفسير الموضوعي

المبحث الأول: الضوابط العلمية لتفسير القرآن عموما.................................302

المطلب الأول: استيعاب النقل................... 308

أـ العلم بالقرآن..308

ب ـ العلم بالسنة و السيرة والآثار..313

ج ـ تفسير الصحابة والتابعين..320

المطلب الثاني: حسن الاستدلال................ 322

أـ علوم اللغة العربية..322

ب ـ العلم بأصول الشريعة ومقاصد الديانة...................................327

ج ـ العلم بأحوال البشر وأصول الهداية القرآنية............................328

المبحث الثاني: الضوابط الأخلاقية للمفسّر...332

دوافع البحث في الضوابط الأخلاقية 332

المطلب الأول: الموهبة الشخصية للمفسر..................................334

المطلب الثاني: لشروط الأخلاقية للمفسر...................................335

أولا: الأخلاق واجبة الالتزام...339

1- صحة الاعتقاد...339

2- الإخلاص...342

3- التقوى...343

ثانيا:أخلاق واجبة الاجتناب..344

1- الكبر...345

2- الكفر...347

المبحث الثالث:ضوابط التفسير الموضوعي.......................................349

المطلب الأول: حاجة التفسير الموضوعي إلى علم المناسبات.............351

1- ما هو علم المناسبات...352

2- أنواع التناسب بين الآيات والسور..353

3- نتائج علم المناسبات...365

4- أسس علم المناسبات وقيمته...367

5- أهمية علم المناسبات للتفسير الموضوعي.....................................375

المطلب الثاني: حاجة التفسير الموضوعي إلى السياق وأسباب النزول.....376

1- تعريف السياق وأنواعه..377

2- أهمية السياق بالنسبة للتفسير الموضوعي....................................385

المطلب الثالث: حاجة التفسير الموضوعي للإحاطة بمنهج الاستقراء.......387

المطلب الرابع: حاجة التفسير الموضوعي إلى البعد الواقعي...............393

الفصل السادس: التعامل مع القرآن في ميزان الشيخ الغزالي: الموضوع والمنهج

المبحث الأول: علاقة الشيخ الغزالي بأعلام مدرسة المنار ومراجعة التراث........399

سياق عام: مدرسة المنار ومراجعة التراث.....................................399

المطلب الأول: الشيخ الغزالي حلقة في سلسلة المنار.........................400

المطلب الثاني: الشيخ الغزالي ومراجعة التراث................................407

1- ثقافة مغشوشة..409

- في مجال العلوم الكونية...409

- في مجال التاريخ ومواطن العبر...410

- في مجال الفقه الإسلامي..413

- في مجال التربية..414

- في مجال علم الكلام...415

- في مجال نشأة العلوم..416

2- تدين مغشوش..419

المبحث الثاني: تراث المفسرين وعلماء القرآن في ميزان الشيخ الغزالي..............425

المطلب الأول: علوم القرآن في ميزان الشيخ الغزالي...........................425

1- تعميم المنهج الأصولي على المعارف الإسلامية.............................425

2- مناهج المفسرين ما لها وما عليها...426

3- موقف الشيخ الغزالي من الإسرائيليات...429

4- رأيه في ترتيب السور وملابسات النزول...432

المطلب الثاني: بعض أقوال المفسرين في ميزان الشيخ الغزالي...............437

1- مع سورة النجم وقصة الغرانيق...........................437

2- قصة زينب بنت جحش.......................................440

3- أثر الروايات الواهية في التفسير...........................443

المبحث الثالث: التفسير الموضوعي عند الغزالي: حقيقة المنهج، خصائصه وغاياته... 448

المطلب الأول: حقيقة التفسير الموضوعي عند الشيخ الغزالي.........448

أولا- مفهوم الغزالي للتفسير الموضوعي......................................449

ثانيا- نماذج من التفسير الموضوعي عند الشيخ الغزالي..........450

1- التفسير الموضوعي لموضوعات القرآن.................................450

أ- الإنسان في القرآن: من الواقع إلى النص...................................451

تشخيص الواقع...451

بيان هداية القرآن...453

أثر هداية القرآن..454

تحليل وملاحظات...454

ب - الإنسان في القرآن: من النص إلى الواقع...............................456

هداية القرآن في قصة الإنسان...456

2- التفسير الموضوعي لسور القرآن...463

تفسير سورة الطلاق أنموذجا...467
تحليل وملاحظات..470
المطلب الثاني: خصائص التفسير الموضوعي عند الشيخ الغزالي..............471
القرآن حقيقة واحدة...471
واقع النص وواقع الحال...472
أثر المعرفة في تفسير القرآن...474
العقل الكبير والوجدان الصادق..476
توسيع دائرة الشهادة وتضييق دائرة الغيب...................................479
تقديم ظاهر القرآن على خبر الواحد...481
التعامل مع القرآن ككتاب هداية...482
المطلب الثالث: غايات التفسير الموضوعي عند الشيخ الغزالي.....................483
1- تقديم الحقيقة المتكاملة والصورة الكلية للإسلام.................................484
2- مراعاة طبيعة العصر في تقديم صورة الإسلام.................................485
3- معالجة المشكلات التي يعاني منها المسلمون...485
4- بيان إعجاز القرآن واتساقه...486
الخاتمة: نتائج وآفاق 488
مسرد الآيات القرآنية 494
مسرد الأحاديث والآثار..507
قائمة المصادر والمراجع...511
الفهرس التحليلي للموضوعات..528